

جامعة ابن خلدون - تيارت
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية



العلوم الإنسانية والاجتماعية

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة أكاديمية تعنى بالدراسات والبحوث
في التاريخ والمجتمع



الخلدونية

للملوم الإنسانية والإجتماعية

مجله علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

جامعة تيارق

العدد التاسع جولن 2016

الإيداع القانوني 718-2005 Dépôt légal

ردمد: ISSN1112-5896

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقُلْ لِيْسَ إِلَٰهٌ إِلَّا هُوَ يُتَرَكَّىٰ ۚ وَلَئِذَا أُنْذِرَ النَّاسَ لَيَكُنَّ إِلَٰهَهُمْ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ

أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَلَئِذَا تُنْذَرُونَ لَأَخْلُقَنَّكُمْ ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ كَافٍ ۚ

سُورَةُ الْاِنشَاقِ، آيَةُ 140

العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تيارت، العدد العاشر ديسمبر 2016

الرئيس الشرفي للمجلة:

الأستاذ الدكتور مدربل خلادي، مدير جامعة تيارت

مدير المجلة:

الدكتور تاج محمد

رئيس التحرير:

الدكتور شرف عبد الحق

الأمانة:

الدكتور بلقاسم بن عودة

الدكتور لكحل فيصل

هيئة التحرير:

د. بليل محمد، د. بن صحراوي كمال، د. بوخاري عمر، د. قريصات زهرة، د. سعد الحاج،

د. بن موسى سمير، د. مارييف منور، د. فوزية لزغم، د. حباش فاطمة، د. ملوكي جميلة،

د. دوبالي خديجة، د. كلاخي ياقوت، د. براخلية عبد الغني، أ. مرزوقي محمد، أ. موهوب مراد،

أ. كرطالي نورالدين، أ. رمضاني حسين، أ. يحيي عبد المالك، أ. عليلي محمد، أ. حسنة كمال.

هيئة القراءة والنحكي:

من خارج الجزائر:

من سلطنة عمان: أ.د.بوعلام بلقاسمي. د.بوعصبانة سليمان عمر. من المغرب: أ.د. حسن الصادقي، د.إدريس بوهليلة، د.لحسن تاوشيخ، د. أحمد الشكري. د.عمر أكراز، د.عبد السلام مقداد. من معهد العالم العربي بباريس: أ.د. الطيب ولد لعروسي. من جامعة تونس: أ.د. مقداد عرفة. من جامعة منوبة: الأستاذ الدكتور تليلي لعجيلي. من جامعة الزيتونة: الأستاذة رفعة عطية.

من داخل الجزائر:

من جامعة وهران1: أ.د.بن نعمة عبد المجيد، أ.د. بن معمر محمد، أ.د.جيلالي سلطاني، أ.د.فغور دحو، أ.د.مهديد إبراهيم، أ.د. عبد القادر بوعرفة، أ.د.مزيان محمد، د.بوركة محمد، د.بحري أحمد. من جامعة وهران2: د.بن سادات نصر الدين. من الجامعة الإفريقية بأدرار: د.الحمد أحمد. د.مولاي أحمد. د.بعثمان عبد الرحمن من جامعة الجزائر1: أ.د.بوساحة عمر. أ.د.عليش لعموري. من جامعة تلمسان: أ.د. عباس محمد، أ.د.عبد الجليل مرتاض، د.وهراني قدور. من جامعة بشار: د.حيمي عبد الحفيظ. من جامعة معسكر: أ.د.طبي غماري، أ.د.بوداود عبيد، أ.د.ودان بوغافلة، أ.د.عدة بن داهة. من جامعة بلعباس: أ.د. هلايلي حنفي. د.عسال نور الدين، د.شخوم سعدي. من جامعة مستغانم: د.سيكوك قويدر. من جامعة تيارت: أ.د.شريط عابد، أ.د.مدني بن شهرة، د.زروقي عبد القادر، د.بن جامعة الطيب. د.مصطفى أحمد. من جامعة خميس مليانة: أ.د.تلمساني بن يوسف. من جامعة الأغواط: أ.قفاف عبد الرحمن. من جامعة الجلفة: د.بن حاج ميلود. من جامعة سطيف2: أ.د.سفاري ميلود. من جامعة الجزائر2: أ.د.جمال يحيوي. أ.د.حساني مختار. من جامعة الوادي: أ.د.لشهب أبو بكر. من جامعة غرداية: أ.د.إبراهيم بحاز، أ.د.دانة أحمد. من جامعة المسيلة: د.روبي محمد. أ.بركات عبد الحق. من جامعة الشلف: أ.د. شارف عبد القادر. د. غربي بغداد. د. هاشمي آمال.

قواعد النشر بالمجلة

إن صفحات مجلة الخلدونية مفتوحة للباحثين من داخل الوطن وخارجه. ومن أجل تسهيل عمل المجلة يرجى من الراغبين في نشر بحوثهم الالتزام بالقواعد التالية:

- 1 - أن يكون العمل العلمي أصيلاً لم يسبق نشره.
 - 2 - ينبغي أن تتميز الأعمال المقدمة بالجدة والعمق في الطرح وبأسلوب السليم والمنهجية العلمية، ولا تقبل المجلة المواد المنشورة أو المقدمة للنشر في جهات أخرى.
 - 3 - أن لا تزيد عدد صفحات المقال عن 15 صفحة.
 - 4 - أن تكون اللغة العربية مكتوبة بخط Traditional Arabic بحجم 16 واللغة الأجنبية بحجم 12 خط Times New Roman، وأن يرفق المقال بملخصين مع الكلمات المفتاحية باللغتين العربية والإنجليزية.
 - 5 - لا يقبل أي مقال بعد انتهاء الآجال، والمجلة غير ملزمة بإعادة الأصول المرسلة إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
 - 6 - كل الأعمال العلمية المقدمة تخضع للتحكيم السري؛ العلمي النوعي والمتخصص قبل النشر، وتُخطر المجلة الباحثين بقرار صلاحية المواد أو عدمها. كما أن البحوث والدراسات التي يرى المحكمون تعديلها تُرَدُّ إلى أصحابها لإجراء التعديلات لكي تأخذ طريقها إلى النشر. وتحتفظ المجلة بحقها في إدخال تعديلات، أو تأخير النشر إلى عدد قادم حسب إمكانياتها،
 - 7 - يجب الالتزام بالطرق العلمية المقدمة في النشر، على أن تكون الهوامش يدوياً وفي آخر المقال.
 - 8 - تكون المقالات مصحوبة بملخصين إحدهما بلغة المقال والثاني بإحدى اللغتين (فرنسية أو إنجليزية).
- وسائل الإيضاح:**
- يجب أن تقدم الجداول الإحصائية والرسوم البيانية والخرائط والصور الأصلية مستقلة عن النص في (A4) بشكل فردي أو جماعي مع ذكر رقم الجدول أو الشكل. ويجب أن تتسم وسائل الإيضاح بالوضوح.

كل المراسلات توجه إلى البريد الإلكتروني للمجلة: alkhaldonia.fsh@gmail.com

ما تنشره المجلة لا يعبر هوى عن رأي صاحب المقال. ولا يعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة التحرير

الفهرسة العام للموضوعات

08	تقديم.....مدير المجلة
09	افتتاحية العدد.....رئيس التحرير
قسم العلوم الإنسانية	
10	تاريخ و آثار مدينة "ميلة القديمة" أ/عزالدين مجاني
25	المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم أ/كيحل البشير
41	أجهزة الأمن الداخلي في الدولة الفاطمية ببلاد المغرب د/حيمي عبد الحفيظ
61	الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني وإنتاجه الفكري أ/بوخلوة حسين د/الحمدي أحمد
80	هدايا النخبة الحاكمة في الأندلس د/بودالية تواتية
101	الجزائر في أدبيات رحالة القرن التاسع عشر رحلة المشرقي الجزائري أنموذجا د/عبد الحق شرف
114	دور فرنسا في الإصلاحات العثمانية خلال عهد سليم الثالث أ/كمال حسنة
127	نظرة بعض القناصل الأمريكيين للعلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني أ/بن حادة مصطفى
137	البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية أ/سحابات زهيرة
160	جرائم فرنسا إبان الثورة التحريرية بين مسئولية الدولة والفعل المعزول د/نور الدين عسال
177	لتنظيم الإداري الاستعماري في الجنوب الجزائري د/محمد برشان
192	مبادئ ومجالات الإصلاح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين د/رشيد مياد
209	من سياسة الإبادة الفرنسية محرقة غار الفراشيش أ/غانم بودن
226	من أصول الهوية الجزائرية أ/سماويل شعلال
245	السيرة والمسيرة التعليمية للدكتور ابو القاسم سعد الله ط/خالدي مريم
قسم العلوم الاجتماعية	
270	قراءة في فلسفة اللامعقول من لاعقلانية نيتشه إلى لاعقلانية فيراند أ/شادلي هواي
283	المنهج الفينومينولوجي وإشكالية المعرفة "قراءة في فلسفة إدموند هوسرل" د/لكحل فيصل

302	د/قريصات الزهرة د/تواتي عطا الله حياة	تمثّلات الصحة النفسية عند طلبة علم النفس دراسة ميدانية لطلبة علم النفس ماستر جامعة تيارت
320	د/براخلية عبد الغني	العلوم الاجتماعية بين التكوين الأكاديمي ومتطلبات الواقع الاجتماعي نظرة تحليلية في ظل النظام الجديد LMD
332	أ/بن مفتاح خيرة د/مراد مولاي حاج	مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري دراسة ميدانية على عينة من الأسر المقيمة بمدينة فرندة
355	أ/بوزيرة سوسن د/العربي اشبودن	عوامل الانحراف والاتجاهات النظرية المفسرة للسلوك الانحرافي
380	د/فوزية بوشي	ملامح الوعي الصحي عند المرأة الريفية دراسة استطلاعية ببلدية عين النويصي بمستغانم
399	د/نعيمة رحمانى د/نصيرة بكوش	ظاهرة العنف والاسهامات النظرية الأنثروبولوجية المفسرة لها
411	د/روبي محمد أ/بن كتيلة فتيحة	تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري من وجهة نظر المحامين والقانونيين
426	أ/سماتي حاتم	مقاومة التغيير التنظيمي في الجامعة الجزائرية في ظل تطبيق النظام الجديد LMD من وجهة نظر الأساتذة
444	أ/فاطمة الزهراء شحان	الطقوس العلاجية الجماعية وأبعادها النفسية و الاجتماعية
461	أ/عرقوب محمد د/مباركي بوحفص	تقييم عبء العمل لدى عمّال قطاع البناء
480	ط/مرابط أسماء د/محمد بشير	المرأة والتهيئة العصرية للمجتمع الجزائري
496	أ/بغداد ابراهيم محمد د/حبيب تليوين	مشكلات تقويم التحصيل الدراسي في ضوء النظرية الكلاسيكية
519	أ/أبراهيم ويزة د/بوظريفة حمو	تقييم المخاطر المهنية بالمؤسسة الصناعية
537	د/شعشوع عبد القادر	الحاجات والسلوك الإنساني
565	ط/مرزوقي محمد أ.د/ مزيان محمد	الإدارة الإلكترونية والموارد البشرية

كلمة العدد

بقلم الأستاذ الدكتور تاج محمد، مدير المجلة

لا زالت الخلدونية تبسط يديها للباحثين في مختلف التخصصات. فهي ليست حكرا على التاريخ بمراحله فقط، ولا الفلسفة وفروعها، ولا علم الاجتماع وميادينه، ولا علم النفس ومعارفه. بل كذلك علم المكتبات وعلم الآثار ومواضيع الإعلام والاتصال. ولذلك كان لها السبق في أن تكون موادها التي تقدمها للقارئ مجيبة على أغلب تساؤلاته.

فلا عجب في أن يكون فضلها على باقي المجالات الأخرى، كفضل القائد على جنده في سداد الرأي، وقوة الحجة، ودقة البصيرة، ويجد فيها الحكمة كما عرفها الحكماء. .

ويأتي هذا العدد بباقة أخرى من درر العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية فهنئاً لقراء الخلدونية في عددها التاسع.

افتتاحية العدد

بقلم الدكتور عبد الحق شرف، رئيس تحرير المجلة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على المصطفى وبعد؛

رويدا، رويدا نمشي ونواصل المسير لتحقيق الأفضل والأحسن ونحن على رأس هيئة تحرير الخلدونية. لتحقيق ما كنا نطمح إليه كفريق عمل متكاتف ومتراص، منذ أن أسندت إلينا مهام رئاسة تحرير المجلة.

ولقد كانت آمالنا كبيرة يومها في الوصول بمجلة الخلدونية إلى مستويات أعلى من المصداقية والتميز. وها نحن اليوم وبعد عمل مضني نصل إلى الملمة ما تشئت من مواضيع العدد التاسع، الذي وعدنا بأن يكون ثريا ومتنوعا.

نعم قطعنا عهدا بل عهدا لكل قرائنا وباحثينا بأن نكون دائما في الموعد، وبباقة مزهرة، نخطّ من خلالها درب الاستمرارية والنجاح، رغم كل الصعوبات، وكل الأشواك التي تعترض طريقنا، نمشي وحالنا كحال من قال:

يا ماشيا فوق أرض الشوك يحذر ما يرى لا تحقرن صغيرة فإن الجبال من الحصى

وكالعادة فقد أبانت لجنة الخبرة والتحكيم عن مستوى عال في القراءة والتحكيم، واحترام للمواعيد المرصودة لاستكمال باقات هذا العدد. فلهم منا خالص الثناء والشكر، على ما قدّموا من أزهى فترات أوقاتهم النفيسة، لا لشيء سوى لخدمة العلم والمعرفة، ثم لجعل الخلدونية رافدا من روافد العلم والمعرفة.

كما أنني مدين لكل أعضاء هيئة التحرير بكلمة شكر وثناء لهم، على جهودهم الطيبة في الحفاظ على هذا الإرث -الخلدونية- وجعلهم الحفاظ عليه في مقدمة اهتماماتهم. وإلى كل من ساهم في مدّ يد العون نسوق لهم أسمى عبارات الشكر والاحترام والتقدير.

تاريخ و آثار مدينة "ميلة القديمة"

الأستاذ عز الدين مجاني، جامعة تيارت

ملخص:

يعتبر الموقع الأثري لمدينة ميلة المعروف قديماً باسم "ميلاف-Milev" وحالياً بميلة القديمة من بين أهم المواقع في ما كان يدعى بالمقاطعة النوميديّة، و ملتقى للطرق المؤدّية إلى عواصم المقاطعات الرومانية في المغرب القديم خلال الفترة الرومانية و البيزنطية، ويزخر الموقع بآثار تعود إلى هاتين الحقتين من التاريخ الطويل للمنطقة . ولقد شدّ انتباهنا قلّة الأبحاث التي تعرّضت لتاريخ الموقع في فترته القديمة رغم صمود و تنوع آثاره، لذلك سنحاول تسليط الضوء على هذه الشّواهد التاريخية في دراسة أثرية لها و الوقوف على أهم الأحداث التي عرفتها المدينة بدءاً بالأسوار الدفاعية البيزنطية الممتدّة على طول 1200 متر و مختلف لواحقها وعين الماء الرومانية الموجودة في قلب المدينة القديمة و الكنيسة الكاثوليكية للقديس "أبتاتوس الميلّي" و التاريخ المسيحي.

Abstract:

The archaeological site of Milev, Currently known as "old Mila" is considered among the most important sites in what was called the province of "Numidia" during both the Roman and Byzantine rules. It is also the crossroads leading to the capitals of provinces in roman Africa during the Roman and the Byzantine periods. The site is reach about monuments belonging to these periods and they are still standing, resisting to human and nature, and telling the long history of the area. As this history had not what it deserves from studies, we will try through the archaeological study of some ruins to show how important the city was , in roman and specaily in Byzantine time through its remparts of 1200m lengh and the Christian Church of « Saint Optatus » and other important monuments

الموقع:

تقع "ميلة القديمة" في مدينة ميلة عاصمة الولاية ذاتها، على علو 460 متر عن سطح البحر¹ ما بين خطي طول 820-821 شرقاً وما بين خطي عرض 355-356 شمالاً. و هي عبارة عن مجموعة سكنية كانت النواة الأولى لمدينة ميلة الحديثة و قد أطلق الفرنسيون عليها في وقتهم

اسم مدينة العرب وشاع عند معظم السكان حالياً تسمية هذا الجزء من مدينتهم بـ الثكنة وهذا نسبة إلى الثكنة الفرنسية التي أخذت لنفسها مكاناً في أحد أجزاء السور البيزنطي الذي يحيط بها.



صورة (1) و(2) عن: المعهد الوطني للخرائط، الجزائر. (بتصرف)

1- لمحة تاريخية عن مدينة "ميلاف":

يعود بنا أقدم تاريخ المدينة إلى زمن الممالك النوميديّة حيث كانت إلى غاية سنة 46 قبل الميلاد ضمن قطاع الملك ماثاساس حليف يوبا الأول²، لكن لم ترد أي معلومة حول ما إذا كانت مدينة بالمفهوم القديم أو مجرد قطاع وإقليم. بعد انهزام يوبا الأول و حليفه أمام القيصر و أتباعه، قام هذا الأخير بإهداء قطاع للمرتزق ستيوس (Sitius) مع مدينة ميلّة و الذي قسمه على جنوده لتتكون أربعة مناطق بعواصمها الأربعة وهي سيرتا (Cirta)، القل (Collo)، سكيكدة (Rusicade) و ميلّة (Milev) لتشكل ما يعرف بالكونفديريالية السرتية خلال العهد الروماني. حسب رأي الباحث (Berthier) لم يكن مصطلح المستعمرة الذي أطلق على هذه المدن في عهد القيصر، ما هو إلا تمويه و لم تكن إطلاقاً في هذا المصنف الإداري أثناء تلك الفترة³. رقيت مدينة ميلّة إلى مصنف المستعمرة في عهد الإمبراطور تراجانوس⁴. برزت المدينة في الساحة التاريخية ابتداء من سنة 216م، حيث عقد مجمع ديني مسيحي (Consil) في قرطاجة عرف حضور الأسقف بوليانوس الميلّي (Polianus de Milev)⁵، بعدها تم اعتماد تسمية المدينة باسم

Milev هذا بعد ورود اسم المدينة على أشكال عدة حيث ذكرت على لسان بطليموس بتسمية ميربوس (Mireos)⁶، في مسار أنطونيوس بمليوم (Mileum)⁷ و قد وردت على لسان بروكوب على هيئة مليون (Meleon)⁸ إلى أن جاءت في طاولة بوتنغر على هيئة ميلاف و هي التسمية التي أتت في نقيشة عثر عليها بتيديس (COL. SARN.MILEV)⁹.

كانت الفترة المسيحية أزهى فترات المدينة حيث امتدت شهرتها إلى كامل المقاطعة الإفريقية حيث أقيم بها مجمعين دينيين سنتي 406م و 466م¹⁰. خلال الفترة الوندالية لم تعرف المدينة أي ظرف خاص، حيث يرى الباحث كورتوا (Courtois) أن هذا القسم من المدينة لم يعرف أسوارا للجيش الوندالي على عكس المرحلة البيزنطية¹¹.

الغزو البيزنطي:

خلال الحملة الثانية لصلومون على شمال إفريقيا سنة 539م، قام بالإغارة على الأوراس، الحصنة و سطيف، باعتبار التل النوميدي ذو أهمية بالغة أقيم بها خط دفاعي و الذي من بين وحداته مدينة ميلّة حيث يشهد بركوب أنها حصّنت بأسوار دفاعية قوية خلال هذه الفترة¹². خلال الفترة الإسلامية تم عن قصد دفاعي إخضاع المدينة بداية من القرن الثامن للميلاد و هذا للاستفادة من سورها الدفاعي و الاحتماء من ضربات البربر التائرين¹³.

-آثار مدينة ميلّة:

إنّ أهم ما يلفت النظر في المدينة هو السور البيزنطيّ الذي يحيط بها والذي لا تزال أجزاء منه ظاهرة للعيان، أما من الداخل فتوجد منبع ماء على شكل عين مياه تعود إلى الفترة الرومانية و مسجد ينسب إلى أبي مهاجر الدينار كان كنيسة رومانية، وسوف نتعرّض إلى هذه الآثار بالتسلسل الزمنيّ أولاً بأول.

1- منبع المياه(عين البلد):

يعتبر هذا المنبع المعلم الروماني الوحيد الشاهد على الحضارة الرومانية هذه المدينة، في انتظار إزالة الغموض و الشكوك حول المبنى المتواجد تحت قواعد أحد المساجد في المدينة

والذي سنتعرض له لاحقا عكس هذه العين التي أرجعها معظم الزائرين المختصين إلى الحقبة الرومانية¹⁴ و قد أثارت إعجاب الرحالة حيث ذكرها البكري تحت اسم "عين أبي السبع"¹⁵.



صورة (3) و (4)

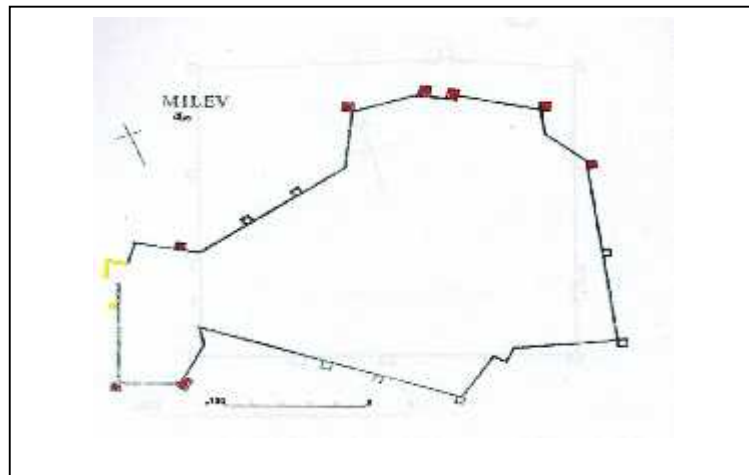
يتواجد هذا المنبع في الجهة الشمالية الشرقية من داخل السور الدفاعي، بالقرب من البوابة الرئيسية "باب البلد" التي يعود إليها أصل التسمية حيث تدعى حاليا بعين البلد و هي عين ذات عمارة رومانية تتكون من غرفة صغيرة مقببة على خلاف شكل النافورة الرومانية مسندة على جدار خلفي من الحجارة الضخمة. تبلغ مقاساتها (2,50 م) x (2,90 م) و بارتفاع إجمالي 1.95 م موجهة شرق - غرب، تحتوي الواجهة الأمامية منها على فتحتين في الأسفل ينساب من إحداها مياه عذبة صالحة للشرب، أما بخصوص الأخرى فهي أصغر حجما من الأولى و تعتبر الفتحة الأصلية فيها لكونها مبنية و متقنة و ليست مجرد ثغر خال من أي عنصر فني، إضافة إلى أنها جافة لا يسيل منها الماء، و من خلال ما روي عنها أن الفتحة التي تجري منها المياه حاليا، هي من فعل السكان حيث في فترة ما نزل منسوب المياه إلى ما دون الفتحة الأصلية فكان لزاما عليهم فتح ثغرة أخرى للسماح بجريان المياه خارجا.

تصب هذه المياه في حوض أقل ما يقال عنه أنه تحفة معمارية فنية ليتم توجيهها فيما بعد بواسطة ساقية تمر بمحاذاة السور الخلفي المذكور سابقا التي تصرفها تحت الأرض و قد قام الفرنسيون بتعديلات على هذا المستوى لا تتجاوز حدود الصيانة¹⁶ التي امتدت إلى العين نفسها حيث من المحتمل أنه تم في نفس الفترة إعادة تلييس الجدران الخارجية بجبس دهني. أما عن مصدر

هذه المياه فقد اختلفت الآراء و تباينت بين محدث و مختص و تعود أولى التفسيرات إلى البكري الذي يقر بأن مياهها جلبت من جبال "بني ياروت" و يقول (FEGNAN) نقلا عن كتاب "الإستبصار" لأحد الرحالة العرب أنها جلبت من جبل "تامروت"¹⁷ و هذه التسمية شبيهة جدا بالتسمية المذكورة من طرف البكري لذا يمكن أن يكون خطأ في الترجمة و النقل السليم للأسماء. من ناحية آراء المختصين، يرى قزال أن هذه المياه مصدرها جبال "مرشو" المتواجدة جنوب المدينة و التي تتزود منها هذه الأخيرة بالمياه عبر قناة ثقلة تم تحويل بعض مياهها نحو هذه العين¹⁸.

2- السور الدّفاعي البيزنطي:

إنّ مجرد إلقاء نظرة عن مخطط العام للسور يتبين لنا أن السور ذو مخطط غير منتظم خارجا عن القانون النظري البيزنطي الذي يجبذ المخطط المستطيل الشكل، هذا لما يوفره من فرص لاقتصاد المادة الإنشائية و الجهد البشري بغض النظر عن سهولة الدفاع عنه و التحكم في كل نقاطه، و من أهم العوامل التي جعلت من مخططة شكلا غير منتظما نجد عاملين أساسيين، أولهما طبوغرافية المنطقة حيث أن الموقع المنجز عليه هذا السور عبارة عن منحدر ذو ربوة صغيرة، أما العامل الثاني فمتعلق بالمدينة الرومانية و معالمها و هو رغبة السلطة البيزنطية في ضم بعضها و التي رأى فيها البيزنطيون مصلحة و وجودها مهم في مدينتهم المسورة، حيث تناثرت هنا و هناك في نطاقها الأصلي، مما صعب على البيزنطيين ضمها ضمن شكل منتظم¹⁹.



شكل(1) مخطط السور البيزنطي لميلاف عن غزال²⁰ (بتصرف)

يتميز هذا السور بطبيعة الحال، بالتقنية البيزنطية المتبعة في تشييد العمائر الدفاعية حيث يتكون طبقاً للمعايير التي رأيناها سابقاً من جدارين من الحجارة الضخمة بينهما فاصل معتبر مكون أساساً من الدبش و الملاط، حيث يبلغ أقصى سمك السور 3.30 م و أدناه بمترين، أما العلو فقد بلغ أقصاه ناحية البوابة الرئيسية في الجهة الشمالية الشرقية حيث فاق العلو 4.90م، أما أقل ارتفاع له فقد بلغ في أجزاء مختلفة من الواجهة الجنوبية متراً واحداً، و يتكون في هذا الجزء من جدار أحادي حيث تهدم الجدار الثاني المكون له، و للإشارة فإن هذه الإحصائيات تخص فقط الأجزاء التي بقيت على حالتها البيزنطية (باللون الأحمر في المخطط) و التي لم يجري الفرنسيون تعديلات حيث انحصرت تدخلاتهم على الجزء الأعلى من السور في الجهة الشمالية الغربية (اللون الأصفر في المخطط) حيث حول هذا القسم إلى ثكنة للجند.



صورة(5) و (6) تقنية ازدواجية السور الدفاعي البيزنطي لميلاف

يتخلل هذا السور و الذي يمتد على طول 1200م²¹، و على مسافات مختلفة و لكن متقاربة أربعة عشر برجاً²² و قد سمحت لي هذه الدراسة أن أكّد هذا الرقم بعد أن جاءت آخر إشارة إلى هذا السور بأنه يحتوي على 17 برجاً²³، و هذا خطأ من الناحية الأثرية، حيث يحتوي هذا السور بالفعل على سبعة عشر برجاً في الوقت الحالي و لكن يوجد من بينها برجين غير أصليين في السور

و إنما هما ثمرة تقليد فرنسي قام به المستعمر في الواجهة الشمالية الغربية للسور. أما بالنسبة للبرج الثالث فيصعب كثيرا الحكم عليه كبرج لأن معالنه غير واضح. يحتوي هذا السور على بابين رئيسين يعودان إلى الفترة البيزنطية و هما "باب البلد" في الشمال الشرقي يقابله في الجهة المعاكسة ناحية الجنوب الغربي "باب الحديد" و هما متشاهمان لحد بعيد في الحجم و تقنية البناء و سوف نتعرض لهما بالتفصيل لاحقا. أما فيما يخص الحيز الذي يطوقه السور الدفاعي فقد بلغت مساحته 5.14 هكتارا²⁴ و هي مساحة كافية لضم أكبر عدد ممكن من المعالم و المنازل الرومانية.

1- الأبراج:

كما سبق لنا الذكر، يحتوي السور الدفاعي لميلة على أربع عشر برجاً أصلياً يجتمعون في شكل موحد و هو الشكل الرباعي ذو المزايا الدفاعية المتوسطة بالمقارنة مع الأبراج الدائرية، و لكن تعتبر أسهل بناء و أوفر جهداً و مالاً و وقتاً حيث خلال معانتي لهذه الأبراج واحداً واحداً، وقفت على الحالة التي آل إليها معظمها حيث لم يسلموا من عوامل الطبيعة من جهة، و من يد الإنسان العابثة من جهة أخرى، وقد خصّصت لها دراسة أثرية في مذكرتي²⁵ يتعدّر عليّ ذكرها هنا لذلك سأكتفي بذكر واحد مختلف تماماً عن الآخرين.

- البرج رباعي الأعمدة (Tetrapyle):



صورة (7): البرج رباعي الأعمدة (Tetrapyle)

يعتبر هذا البرج أهم برج في السور، ليس فيما يحتويه بل في شكله و هو فريد من نوعه ليس فقط في هذا السور و إنما في كل الأسوار المدن المحصنة في الجزائر حيث يعبر في شكله أكثر تعقيدا و حجما من باقي الأبراج المعروفة و أشبه بحجم أقل من أقواس النصر المعروفة و قد أطلق تسمية رباعي الأعمدة (Tetrapyle) من طرف مكتشفه الباحث برقولا (Pergola) سنة 1927م حيث أقام عليه حفريات خاصة و تمكن من بلوغ قاعدته التحتية، لتوسّع الحفريات من طرف ستام سكي (Stamski) سنة 1957م²⁶ حيث تم الوصول إلى قاعدته التي بني عليها و التي تقع على عمق 3.5 متر. يقع هذا البرج في الجهة الشرقية للسور الدفاعي عند نقطة تحول مسار السور الدفاعي بزاوية 27 درجة²⁷ حيث اعتبره الباحث برقولا كبوابة معلّمة ذات أرضية مبلطة على عمق خمسة أمتار²⁸.

مخطط هذا البرج مستطيل الشكل بمقاس 8.5م على 10.40م و بلغ سمك جدرانه 2.5م. يتكون كل جدار من هذا البرج من قسمين، قسم أول عبارة عن شريط يتراوح ما بين 1م و 1.20م حسب الواجهات يليه قسم ثاني عبارة عن بوابة مقوسة مشكلة من عدة قطع حجرية حيث تمثل كل بوابة مع قوسها واجهة من واجهات البرج الأربعة. يبلغ عرض كل باب من هذه الأبواب المقوسة 4.65م، أما زوايا هذا البرج فهي عبارة عن أربعة أعمدة حجرية ضخمة، و من المحتمل جدا أن تكون هذه الأقواس مع الأعمدة الحجرية عبارة عن مساند تحمل سقف البرج الذي هو عبارة عن قبة و التي اهارت و لم يعد لها وجود²⁹.

في الواجهة الشمالية للبرج و نعني بها الواجهة المسندة إلى السور الدفاعي توجد بوابة في وسط السور مع قوس، يسبقها دهليز بطول 1.15م تحتوي على مدخل صغير مقاسه 1.66م علوا، 0.67م عرضا مع عارضتين جانبيتين بعرض 0.15م حيث نجد على العارضة اليسرى ثغرا في الأعلى و آخر في الأسفل يستعملان في تثبيت الباب الذي يفتح إلى الجهة الخارجية، يقع هذا المدخل الصغير ضمن مدخل كبير كان قبله و الذي تم تقزيمه إلى هذا المدخل الصغير لهدف من الأهداف ربما كان و في وقت ما شكله الكبير يسبب خطورة³⁰. يوجد في إحدى الزوايا و نعني بها الجنوبية شكل دائري مبني بالدبش، مبهم و فريد من نوعه حيث لم يستطيع الباحث برينغل إعطاء أي تفسير له ما عدا نقله عن ما قاله برقولا بشأنه حيث رجح كل منهما إمكانية كونه موقع

حراسة³¹ و اعتبره برقولا في نفس السياق النموذج الأسبق لمراقب (poivrière) العصور الوسطى حيث يكون عبارة حجرة تتسع لحارسين و الذي تهدم كلياً حيث يمكن أن يكون معدلاً في فترة ما³².

2- المداخل:

المدخل الرئيسي للمدينة البيزنطية ميلاف يقع في الجهة الشمالية الشرقية و المسماة "باب البلد" و الثانية من الجهة الجنوبية الغربية و تدعى "باب الحديد" و هذا رأي معظم الباحثين و على رأسهم قزال³³.

أ- باب البلد:



صورة(8): باب البلد

يقع هذا المدخل في الجهة الشمالية الشرقية للصور الدفاعي، لا يزال في حالة حفظ جيدة و نعي بذلك ما يظهر منه بارز على مستوى الأرض و هو قوس يتوج هذا المدخل، حيث لا يزال باقي المدخل مغموراً تحت الأرض في انتظار من يزيل عنه الأتربة.

يرتفع هذا القوس الضخم بـ 2.80م عن سطح الأرض، مشكل من سبعة عشر حجراً عقدياً بما فيها قواعد القوس التي مازالت على مستوى سطح الأرض و يبلغ عرض هذا القوس من قاعدته

اليمنى إلى قاعدته اليسرى 3.70م و قد هيئ هذا المدخل في سمك السور الذي يبلغ 2.60م، حيث أن أقصى ارتفاع للسور في هذه الناحية هي 4.95م.

أطلق البكري على هذا الباب تسمية "الباب السفلي"³⁴ و لا أحد من الباحثين شك في هويته البيزنطية بل كثيرون ممن أكدوا ذلك³⁵ لكن إشكالية توافق السور الروماني مع السور البيزنطي في هذه النقطة مازالت قائمة، أضف إلى ذلك الجمال و الدقة التي يتمتع بها هذا القوس جعله محل شك من أنه ذو عمارة رومانية، إذ نجد من الباحثين من أشار إلى أن مدينة ميلاف الرومانية كانت تحيط بها أسوار دفاعية³⁶. يعتقد بعض الباحثين أن هذا المدخل يعطي إمكانية الدخول إلى المدينة سالكين الطريق القادم من مدينة قسنطينة مقر الدوق البيزنطي المضي قدما نحو مدينة سطيف³⁷. باعتباره المدخل رقم واحد في السور و المدينة ككل، فقد جهز بنظام دفاعي خاص حيث كان يوفر له الحماية برجين ضخمين على يمين و شمال الباب يبلغ مقاسهما 6.25م x 7.65م يبعد كل واحد منهما عن الباب بـ 3.80م.

ب- باب الحديد:



صورة (9) و (10): باب الحديد (الصورة 9 على اليمين مجهولة المصدر تحسّلت عليها في الموقع)

يقع هذا المدخل في الجهة الجنوبية الغربية للسور، هي الأخرى لم يتبقى منها سوى القوس الذي يتوج هذا الباب، شبيهة جدا بالباب الأولى "باب البلد" حيث تحتوي هي الأخرى على سبعة عشر حجرا عقديا مع قواعده الظاهرة و يبلغ عرض هذا القوس 3.75م.

هيات هذه البوابة في سمك السور الذي يبلغ 3.20م و يقول قزال عنها أنها البوابة الغربية للمدينة البيزنطية و التي أعيد تعديلها من طرف الفرنسيين³⁸، غير أن هذه البوابة ليس لها برجين جانبيين يحميها على الأقل حاليا حيث لا يوجد أي أثر لهما و هذا طبعا لا ينفي إمكانية وجودهما في السابق.

خلال الفترات اللاحقة خاصة في العهد الإسلامي استعمل هذا القوس البارز عن سطح الأرض لحمل ثقل إحدى الغرفة لمنزل خاص مكون من عدة غرف كما توضحه الصورة و قد قام ساكن هذا المنزل بسد هذا القوس حتى أن البكري الذي أشار إلى البوابة الأولى "باب البلد" لم يذكر هذه البوابة لأنه ببساطة لم يراها بسبب هذا المنزل المتهدم حاليا و الذي سمحت وضعيته برؤية هذا القوس الجميل الذي أشار إليه كل الباحثين الذين زاروا المدينة. قد يعني وجود هذين المدخلين في جهتين متعاكستين وجود علاقة بينهما، خاصة و أنهما متشابهان حيث يرى بعض الدارسين أن هذه البوابة تفتح قبالة الطريق الرابط بين ميلّة و سطيف قدوما من قسنطينة و مروراً بجميلة³⁹.

ج- المدخل الثانوي "باب الرؤوس":

يقع هذا المدخل في الجهة الشرقية للسور و هو المدخل الثانوي الوحيد في السور و قد وصفه قزال⁴⁰ و نقله عنه حرفيا الباحث برينغل⁴¹، إذ يعتبر كفتحة مستطيلة الشكل بعرض 1.55 م و لم يرد شيء عن ارتفاعها ما يفسر أن برينغل أيضا لم يتمكن من الوصول إليها، يتوج هذا المدخل قوس صغير ملئ فراغه في فترة لاحقة و قد سماه البكري بباب الرؤوس⁴².

تاريخ السور البيزنطي:

باعتبار السور الدفاعي لمدينة ميلّة معلما رسميا و هذا بشهادة المؤرخ بروكوبيوس⁴³ الذي أقر ببنائه على يد صولومون بتوكيل من الإمبراطور جوستينيان، هذا الشاهد الأدبي و إن كان كافيا لكن ليس

بالدقة المرجوة من الشاهد الأثري حيث و كما سبق لنا الذكر، يبقى تحديد الفترة التي بني فيها أمرا مهما حيث كان للجنرال صولومون عهدتين في المقاطعة الإفريقية من سنة 534 إلى غاية 536 م ثم من سنة 539 إلى 544 م، فإلى أيهما يعود تاريخ البناء؟، لم يتم العثور على أي أثر للنقيشة الإهدائية التي من المفترض أن ترافق المعلم و التي من شأنها تحديد الفترة إذ ترفق دائما باسم الجنرال، صفته السياسية خاصة صفة الحاكم العام التي نسبت إليه فقط في العهدة الثانية و هنا يمكن الاستعانة بالأحداث التاريخية و مسيرة هذا القائد في المقاطعة الإفريقية.

نحن نعرف أن من أهم إنجازات الحملة الثانية على الأوراس سنة 539م هي انهزام المقاومة المورية مما فسخ المجال لصولومونيس السير قُدا نحو احتلال الحصنة، الزاب و الموريطانية الأولى أو ما يعرف بالسطايفية⁴⁴، حيث تنتمي مدينة ميلاف إلى هذا الإقليم الأخير و عليه اجتمع الباحثون على أن تكون سنة 539م سنة التشييد لهذا السور الدفاعي. من جهة أخرى تؤكد الدراسة التي قام بها الباحث دورليا⁴⁵ أن معظم النقائش الإهدائية للمعالم الدفاعية البيزنطية الرسمية في هذه المناطق تعود بنا إلى سنة 539م في فترة تنصيب صولومون حاكما عاما للمقاطعة الإفريقية. لا أستبعد حصول هذا السور على نقيشة مماثلة نظرا لأهمية المدينة المحصنة ميلاف قياسا على المدينة المحصنة قالمة، التي وجدت بها نقيشة تخليدية رغم قلة أهميتها خلال العهد البيزنطي مقارنة بميلة.

ب- الكنيسة:

لعبت المدينة دورا هاما في نشر و حماية المسيحية من الشوائب العقائدية حيث دخل رجال دينها قائمة "الشهداء" منذ عهد ديوكلسيانوس⁴⁶، و كان لها أساقفة حتى قبل سنة 260م⁴⁷، ويعتبر أوبتاتوس(optatus) رجل الدين الأكثر شهرة في كنيسة افريقيا⁽⁴⁸⁾ التي قامت بنفسها رعاية المجمعين اللذين أقيما بميلة⁴⁹ كما ذكرنا آنفا. و قد عرف المجمع المقام في قرطاجة ما بين هذين المجمعين حضور أديوداتوس الميلي (Mileuitanus Adeodatus)⁵⁰ و قد اهتم فيه رجل دين دوناتيني بتدميره لأربعة كنائس كاثوليكية في المدينة و التي لم تفلح الحفريات العلمية على ضبط مكائنها بالمدينة⁵¹، كما قام الباحث تولوت(Toulotte) بإعداد قائمة لأساقفة ميلّة و أبرز أهم ما قدموه لهذا الدين⁵²، حيث أن أهمهم كان بوليانونس الذي كان المدعو الثالث لمجمع قرطاجة

الذي ناقش مسألة التعميد و ذلك سنة 255م أتى بعده ابتاتوس ألف سبعة كتب ضد الوثانية، خلفه الأسقف أنوريوس (Honorius) الذي اعتبر القديس اغسطين رؤيته شرف كبير للوثانيين، و يأتي رابعا الأسقف سفيروس (Severus) و هو من أدخل الحياة الرهبانية vie monastique إلى المدينة و كان يتراسل مع أغسطين سنة 409م بعده يأتي رجل الدين بناتوس (Benenatus) الذي نفي من طرف الملك الوندالي هونيريك سنة 484م، أخيرا ظهر الأسقف رنستوس (Restitus) من بين الحاضرين في مجمع سنة 553م في عاصمة الإمبراطورية البيزنطية. و قد أصبحت ميلاف مركزا أسقفيا إلى جانب كل من زارة، تيبازة و جميلة في مقاطعة نوميديا ضمن الكنيسة الإفريقية (525-646 م)⁵³ و شارك أساقفة المدينة منذ سنة 591م في مجتمعات لما بين المقاطعات التي احتضنتها نوميديا في السنوات 591، 592، 593، 594، 602 و 646⁵⁴، وذكرت بعض المراجع أن النظام الأسقفي استمر في المدينة حتى سنة 883م⁵⁵.

يوجد في الجهة الغربية للسور من داخل المدينة البيزنطية ميلاف و بالتحديد في الجزء الذي اتخذ منه الفرنسيون ثكنة أهم مسجد هو الأول في الجزائر و الذي يدعى بمسجد "سيدي غانم" و قد أقيمت عليه كما سبقنا بالذكر حفريات سنوات الثمانينات، مست القواعد التحتية له أين تم الكشف عن سور ذو تقنية بناء غاية في الجمال تتكون من أحجار ضخمة منحوتة بشكل دقيق وفني، مرصوفة بشكل بارع الذي تعودنا على رؤيته في العمارة الرومانية ذات الطابع العام أو المقدس ما أدى إلى الشك في أنه من أحد أسوار كنيسة رومانية و هذا باعتبار عادة المسلمين بإقامة مساجدهم الأولى على أنقاض الكنائس الرومانية أو البيزنطية. أثريا، و لحد الآن لا يمكن الجزم بأن هذا الجدار هو لكنيسة حيث يبقى أهم دليل أثري هي الحنية (abside) التي تعرف بها الكنيسة خاصة إذا كانت موجهة نحو الشرق، و قد أقيم في هذا الصدد سبر في الجهة الغربية أين تم الكشف عنها.

ما يزيد الشكوك حول هوية هذا المبنى باعتباره كنيسة هو ما ذكر في بعض النصوص الأثرية و التي تعود إلى عام 411م، أن مدينة ميلاف كانت لها أربع كنائس⁵⁶، أنهم أسقف دولتي من المدينة بتهديمها⁵⁷، و الواقع الميداني يعدّ أربع مساجد في المدينة المسورة حاليا، خاصة و أن مكان تمركز

هذه الكنائس لم يتم تحديدها لحد الآن مما يزيد من حساسية هذا المبنى. فهل يمكن أن تكون المساجد الأربعة مبنية على أنقاض هذه الكنائس السالفة الذكر؟

الهوامش:

- ¹ - Pringle (D), The defense of Byzantine Africa. From Justinian to the Arab conquest, T.1, B.A.R. Oxford 1981, p. 112
- ² -Rebaud (V), et GOYT A., excursion archéologique dans les environs de Milah et de Constantine, R.S.A.C. 1927, p.31
- ³ - Berthier (A), op.cit., p.185
- ⁴ - Berthier (A), Ibid., p.134
- ⁵ - RebauD (V) et GOYT (A), op.cit., p.32
- ⁶ - Toulotte, géographie de l'Afrique Chrétienne, Numidie, Paris 1894, p.222
- ⁷ - Tissot (Ch), exploration scientifique de la Tunisie, géographie compare de la province romaine d'Afrique, T.2, Paris 1888, p.406
- ⁸ - Desange (J), un témoignage peu connu de Procope sur la Numidie Vandale et Byzantine. Byzantion, T.33, 1963, p..
- ⁹ - Tissot (Ch), op.cit., p.406
- ¹⁰ - Toulotte, géographie de l'Afrique Chrétienne, Numidie, Paris 1894, p.406
- ¹¹ - Courtois (Ch), les Vandales et l'Afrique, Paris 1955, p.328
- ¹² - Gsell (S), les monuments antiques de l'Algérie, Paris 1901, p.305
- ¹³ - Cambuzat (P), l'évolution des sites du Tell en Ifriqiya du VII au XI siècle, T.2, Alger 1986, p.286
- ¹⁴ - Shaw, Voyage dans plusieurs provinces de Berberie, 1743, p.131
- Gsell (S), Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1845, Paris 1912, p.111
- Lassus (J), fouilles à Mila, *In Lybica* 1956, T.2, pp.201, 202
- ¹⁵ - البكري، كتاب المسالك و الممالك، الجزء الثاني، تونس 1992، ص 729، 730
- ¹⁶ - Gsell (S), op.cit., p.111
- ¹⁷ - FEGNAN, l'Afrique septentrionale au XIII siècle, d'après *KITAB EL ISTIBSAR*, R.S.A.C. T.33, 1899, p. 97
- ¹⁸ - Lassus (J), op.cit., p.202
- ¹⁹ - Gsell (S), les monuments antiques de l'Algérie. T2, Paris 1901, P. 365.
- ²⁰ - GSELL(s), notes sur quelques forteresses antiques de la province de Constantine R.S.A.C. 1898, P. 297.
- ²¹ - Ibid., P 365.
- ²² - Gsell (S), notes sur quelques forteresses antiques de la province de Constantine R.S.A.C. 1898, P. 297.
- ²³ - Pringle (D), The defence of byzantine Africa, from Justinian to the Arab conquest, the account of the African provinces in the sixth and seventh centuries, part I, B.A.R., Oxford 1981.p. 219.
- ²⁴ - Pringle (D), op.cit., p. 219.

- ²⁵ مجاني عز الدين، السّور البيزنطي لمدينة ميلاف، مذكرة التّخرّج لنيل شهادة الماجستير في الآثار القديمة، معهد علم الآثار، الجزائر، 2011.
- ²⁶ - Pringle (D), op.cit., p. 219.
- ²⁷ - Ibid., p 219.
- ²⁸ - Pergola, les fouilles de Milev, R.S.A.C. 1927, P. 66.
- ²⁹ - Pringle (D), op.cit, p 220.
- ³⁰ - Pringle (D), Op.cit., p. 68
- ³¹ - Pringle (D), op. cit, p 220.
- Pregola , op. cit p. 67.
- ³² - Pergola, op.cit, p. 67.
- ³³ - Gsell (S), Exploration Scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1845, Paris 1912, p.112
- ³⁴ - البكري، كتب المسالك و الممالك، الجزء الثاني، تونس 1992، ص 730.
- ³⁵ - Bouruiba (R), Architecture militaire de l'Afrique Médiévale, O.P.U 1983, p.36.
- ³⁶ - Pergola, les fouilles de Milev, R.S.A.C., 1927, p.64
- ³⁷ - Boumaaza (Z), Mila, les tissus urbains, colloque international du 1-3 décembre 1987, Oran, p.205
- ³⁸ - Gsell (S), Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840- 1845, Paris 1912, p.112.
- ³⁹ - Boumaaza (Z), op.cit., p.205
- ⁴⁰ - Gsell (S), les monuments antiques de l'Algérie, T.2, Paris 1901, p.365
- ⁴¹ - Pringle (D), the defense of byzantin African,....., p.220
- ⁴² - البكري، المرجع السابق، ص 730.
- ⁴³ - Pringle (D), op.cit., p.219
- ⁴⁴ - Procope de Césarée, la guerre contre les Vandales, guerre de Justinien, livres III et IV, Paris 1990, p.190
- ⁴⁵ - Durliat (J), les dédicaces d'ouvrages de défense dans l'Afrique byzantine, Palais farnèse, Rome 1981, p 98.
- ⁴⁶ - Toulotte, géographie de l'Afrique Chrétienne, Numidie, Paris 1894, p 223.
- ⁴⁷ - Jaubert (H), Note d'Histoire et d'Archéologie Concernant ce diocèse de Constantine et d'Hippone, Bône, 1911. P59.
- ⁴⁸ - Tissot (ch), Op.cit, p 401.
- ⁴⁹ - Toulotte, Op.cit., p223.
- ⁵⁰ - Ibid., p.223.
- ⁵¹ - Gsell (S), les monuments antiques de l'Algérie,t2, Paris 1901, p.305
- ⁵² - Toulott, Op.cit., p.p. 224-226.
- ⁵³ - Ibid., p. 348 .
- ⁵⁴ - Les conciles Africaine durant la période byzantine, diplôme supérieur d'Histoire, université d'Alger, pp. 3 -11.
- ⁵⁵ - Toulotte, op.cit., p224 .
- ⁵⁶ - Toulotte, géographie de l'Afrique chrétienne, Numidie, Paris 1894, p.401
- ⁵⁷ - Gsell (S), A.A.A. (F. 17), p.4

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغربي القديم الأسناد كيجل البشير، جامعة تيارت

ملخص:

لقد صاحبت الظاهرة الدينية الإنسان منذ مراحل الأولى ولعل أهم خاصية تميز بها هذا الأخير عن غيره من المخلوقات هي أنه كائن عاقل متدين، فمنذ توصله إلى إنتاج الأدوات الحجرية الأولى ترك لنا إلى جانب ذلك شواهد تنبئ عن وسطه الفكري والروحي، وفي مختلف مناطق العالم على تباين البيئات الطبيعية التي وجد فيها، محاولا التأمل في الظواهر الطبيعية والكونية المحيطة به، فاتجه فكره إلى بعض الآراء المتصلة هذا الجانب المعنوي الذي لم يكن عاطفة روحانية فحسب، بل حاجة ماسة شعر الإنسان بضرورتها بنفس درجة حاجياته الاقتصادية من أجل حمايته ومساعدته على تجاوز المخاوف والأخطار التي كانت تهدد وجوده، أو بحثا عن إجابات للأسئلة التي لا شك أن الكون المحيط به بظواهره وألغازه الكثيرة قد جعله يشعر بها ويفكر فيها، فعملت كل مجموعة بشرية في سياق تطورها التاريخي على تجسيد تلك الحاجة وتكريس ذلك الاعتقاد بالشكل الذي يناسبها متأثرة بالوسط البيئي الذي عاشت فيه وبتراكم تجاربها الذاتية أو بانفتاحها على التجارب الدينية لشعوب ومجموعات بشرية أخرى، ومن بين تلك الشعوب سكان بلاد المغرب القديم. وهكذا فإن هذه الدراسة ستتناول بالبحث الديانة الوثنية المغاربية في العصور القديمة منذ تجلياتها الأولى التي جسدها البقايا الأثرية المكتشفة هنا وهناك والتي تفصح عن خبرة معنوية كانت في بداياتها غامضة وهي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأوسط، ويمتد إطارها الزمني ليغطي الفترات التالية لها حتى سقوط قرطاجة في 146 ق.م.

أما الإطار الجغرافي لها فهو بلاد المغرب القديم الممتدة من الحدود الغربية لمصر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى جنوب الأطلس الصحراوي جنوبا. ويأخذ المقال أهميته من أن نشأة تطور الفكر الديني يعتبر أحد أهم أشكال التعبير المعنوي عند الإنسان المغربي القديم أيا من خلاله على تميز في التعاطي مع القوى التي شعر نحوها بالقداسة ومارس تجربته

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— يجعل البشير

الطقوسية الدينية الذاتية، كما انفتح على التجارب الطقوسية للشعوب التي تواصل معها أو احتك بها كالمصريين القدماء والفينيقيين والإغريق، أخذوا وعطاء وتأثيرا وتأثرا، فمعرفة هذا الجانب المعنوي تمكّنا بالتكامل مع الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تكوين صورة متكاملة عنه في تلك المرحلة المتقدمة من وجوده .

إذن مع مرور الزمن وصل التفكير الديني للمغاربي القديم الى مرحلة أكثر نُضجا وتطورا، فقد اتخذ من مظاهر الطبيعة آلهة، بعدما أمن بظاهرة حلول الأرواح فيها (Animisme)¹، كما اتخذ من الأحجار والأشجار آلهة، وصنع منها أوثانا يقدسها ويتركبها في أفراحه وانتصاراته ويتوسل إليها اللطف والبركة في أحزانه ومآسيه.

كلمات مفتاحية: مغرب قديم، طوطمية، تقديس الطبيعة، آلهة مغاربية.

Abstract:

The religious human phenomenon generated since its early stages, and perhaps the most important feature distinguishes the latter from other creatures is that sane religious object, since his conception of the production of the first stone tools leave us besides evidence predictors for intellectual and middle and spiritual, and in the various regions the world of the natural environments found in contrast, trying to reflect on the natural phenomena and cosmic surrounding him, he veered idea to some opinions related to this mental side, which was not a passion spirituality, but also an urgent need human hair as indispensable the same degree of economic belongings in order to protect him and help him to overcome the fears and dangers that were threatening its existence, or in search of answers to questions that no doubt that the surrounding universe Bzawahrh and many Olgazh may make it feel them and think of them worked every human group in the context of the historical evolution of the embodiment of this need and dedicate it to believe a way that suits them influenced by the environmental center-aligned, who lived in it and the accumulation of self-tests or by opening to religious experiences of the peoples and other human groups, and among the inhabitants of the Maghreb peoples old. Thus, this study will address research pagan religion Maghreb in ancient times since the first manifestations embodied archaeological remains discovered here and there, which discloses a moral experience was in mysterious beginnings and is back to the old East Stone Age, and extends framework temporal to cover the following periods have until the fall of Carthage.

تقديس مظاهر الطبيعة: تشترك الطبائع البشرية منذ القديم في الرغبة للوصول إلى حل

ألغاز هذا الكون وأسراره غير المرئية، فكلما اقترب الإنسان بعيشه من العالم الطبيعي اشتدت رغبته

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغربي القديم ————— كبحل البشير

في التواصل مع هذه القوى الخارقة التي تمتلك قوى وخصائص تفوق ما لدى البشر، قوة تفوقه ولا تنقاد إليه، وبالتالي تجعله مربوطاً بها²، وقد كانت المعتقدات الأولى في شمال إفريقيا تعكس نظرة السكان للكون والطبيعة بمختلف مكوناتهما الروحية³، كان للبيئة الجغرافية دور واضح في بلورة الفكر الديني للإنسان، من خلال إيجاءها بوجود آلهة عظيمة تسيطر على كل تلك التضاريس والظواهر، فمنذ العصور الحجرية الحديثة، أظهر أهالي إفريقيا الشمالية اهتماماً في الأمور الدينية العميقة والصعبة الإدراك⁴، وكسائر الناس الذين يقضون أغلب أوقاتهم في الحقول أو الغابات لا بد وأن تكون قد روعتهم القوى الظاهرة في الطبيعة، تلك القوى العنيفة والهائجة التي لا يمكن مقاومتها وهي تكتسح الأشجار والصخور، كما افتتنوا أيضاً بهياج البحر وقوة أمواجه وهي تضرب السواحل الصخرية .

والطبيعة أيضاً مليئة بالخوف والرعب، فهي تحمل لهم قوى الحياة والموت، فإذا لم يتساقط المطر يفسد الحصاد وتموت الغلة، وهذا يعني المجاعة وإذا ما تفشت الأمراض في قطعان الماشية سيموت الموت الناس أنفسهم، إذ أنهم يعتمدون على هذه الماشية لتأمين معيشتهم، لذلك أرادوا الوصول معها إلى ائتلاف وتواد، فجنحت بهم خيالهم الواسعة إلى تأليه المظاهر الكبرى في الكون، من جبال وكواكب ومغارات وظواهر مختلفة، وتقربوا إليها بما يروه مناسباً لذلك، وصار لهم نوعين من المقدسات، مقدسات يخافونها قدسوها حتى يتجنبوا ضررها، ومقدسات يحبونها قدسوها لتستمر في إسعادهم.

أ-تقديس الجبال:

تمثل الجبال - إلى جانب الكهوف - العبادة الطبيعية الأولى بالمغرب القديم⁵، وقد بين الباحثون أن شكل الجبال العام هو الذي أضفى عليها صفة القداسة، خاصة مع ارتباطها في ذهن الإنسان القديم بالضخامة من جهة، وبالعلو الكبير من جهة أخرى، وهي في اعتقادهم صفات إلهية وجب احترامها.

وقد اختار الإنسان الجبال لإقامة مراسمه الطقوسية الأولى، وذلك لاعتبارات عديدة منها أن تلك القمم بعيدة عن الإنسان والحيوان، وهي بذلك في منأى عن التدنيس، كما أن علوها يسمح في نظر ذلك الإنسان باقتربه من الهته الفلكية كالشمس والقمر⁶، كما اعتبرت الجبال وسيطاً روحياً

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— كجبل البشير

بين الإنسان وإلهه لأنها تسهل عملية اتصال السكان المجاورين لها بالآلهة، فهي تلامس -السماء- المسكن الطبيعي لهذه الآلهة.

ومن الأدلة القوية على أن الجبال كانت أماكن مقدسة يتعبد الإنسان فيها، تلك الرسوم الصخرية التي وجدت في التاسيلي أزجر⁷، تمثل بعضها مشهدا لمجموعة كبيرة من النساء والأطفال والرجال متوجهين نحو منطقة مرتفعة مقدسة تعودوا على أداء طقوسهم فيها محملين بالقرابين⁸.

وقد اعتبرت جبال الأطلس⁹ إله يحلف به ومكانا للتعبد، كما أنه أعتبر عمودا متصلا بالسماء مسكن الآلهة¹⁰، فقد أشار بليبي الكبير إلى أن السكان عندما يمشون بمحاذاة أطلس (على الأرجح جبل طوبقال أعلى قمة في المغرب العربي) تستولي عليهم رهبة دينية وهم يرون قمته تحترق السماء متجهة نحو القمر¹¹.

بقي المغاربة القدماء ساكنوا المرتفعات والأرياف بعيدا عن التأثيرات الأجنبية الفينيقية والرومانية، لذلك فعبادة الجبال بقيت سائدة لفترات طويلة، فقد ذكر القديس أوغسطين (SaintAugustin) بأن السكان المحليين يقومون بارتقاء الجبل لأداء العبادة وقد بين أن ذلك يعني عندهم بأنهم أقرب للإله¹²، كما وجد علماء الآثار في بعض خلوات الجبال كجبل (بوقرنين) بقايا لمعابد رومانية كرسست لخدمة وعبادة ساتورن، وبينوا أن هذه المعابد قد تكون بنيت على أنقاض معابد وثنية محلية، فعلى مسافة قريبة من مدينة سور الغزلان وجدت نقيشة لاتينية صغيرة احتوت دعاء لعفريت الجبل باستوريانيس (Pastorianis)¹³.

كان المغاربة القدماء ينشؤون الرموز والصور على حجارة أعالي جبال الأطلس الصحراوي وجبال الريف، وعلى صخور مشربته عالية وكأنها تراقب وتندر وهي صور حفظت إلى اليوم وتعتبر من أهم مصادر معرفتنا للحياة الاجتماعية للسكان القدماء.

ب - تقديس الكهوف والمغارات:

كان للكهوف والمغارات عند كل الشعوب مقاما رفيعا بسبب ما يعتقدون من حلول الأرواح بها، حتى إن بعض الباحثين جعل للكهوف عبادة خاصة واعتبروها أماكن مقدسة لدى الإنسان القديم.

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— كجيل البشير

سبقت الإشارة الى أن الكهوف والمغارات الطبيعية كانت مكاناً مخصصاً للدفن، على اعتبار أن الكثير منها يصعب العيش فيها ولا تليق لسكن الإنسان، لذلك فقد شكلت مكاناً آمناً لحفظ الجثث، ثم أدخلت عليها بعض التعديلات والتحسينات لتصبح هياكل للعبادة، كما هو الشأن في منطقة (شتال هويك) بتركيا التي وجدت بها بعض من رؤوس ابقار رُصفت بشكل متقن، وبجوارها تماثيل صغيرة لآلهة أنثى وبقايا عظام إنسان تعود إلى ما يقارب (11 ألف سنة ق.م)¹⁴ (الشكل 1)، وقد اختيرت المغاور التي يصعب الوصول إليها حتى تكون مقدسات الإنسان في منأى عن التدنيس وبعضها لا يتم الوصول إليه بسهولة، فهي تشكل متاهات حقيقية وذلك يشبه ما عثر عليه في مغارتي نيوز (Niaux) والأخوة الثلاثة (les trois frères) في فرنسا¹⁵.

وقد قدّس المغاربة القدماء الكهوف منذ أزمنة قديمة تعود إلى ما قبل التاريخ¹⁶، فقد عثر في كهفي الأروى والديبة على ضفاف واد الرمال بقسنطينة¹⁷، ومنطقة التاسيلي أزجر على كهوف تشبه في خصائصها كهوف أروا، خاصة في منطقتي تين هناكتنوا إنان والتاسيلي أزجر (يقع على بعد 200 كلم من جانت)، أين تتواجد الرسوم في مكان مظلم ومعزول وذو مدخل ضيق يصعب الوصول إليه¹⁸ (أنظر الصورة 1)، وقد وجد المنقبون في هذا الموقع بقايا حيوانات مختلفة، إضافة الى عظام ستة جثث إنسانية تعود إلى الحضارة العاترية، وهو ما يدل على ممارسات جنائزية معينة تكون قد مورست بالموقع¹⁹.

والكهوف أو الملاجئ الصخرية هي في اعتقادهم بوابات بين عالمهم الحقيقي الذين يعيشون فيه والعالم الآخر، لذا فهم يزینونها بالرسوم الصخرية²⁰، كما أنها تعتبر أماكن لإقامة مراسم احتفالية تكريماً للآلهة، وذلك عن طريق رفع الأيدي والنظر الى السماء كما تعتبر أيضاً مكاناً يهياً لامتزاج محسوس مع الآلهة²¹، وهذه الميزات تشبه الى حد كبير ما أشار إليه خزعل الماجدي عند وصفه للمعابد المصرية القديمة، فقد بين أن التمثال المقدس للإله لا يتم الوصول إليه إلا بعد اجتياز عدة بوابات مع ازدياد المكان ظلمة كلما توغلنا نحو الداخل، ولا يصل هذا المكان إلا الكهنة المخولون²².

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— كجبل البشير

اكتشفت داخل هذه الكهوف بعض التماثيل الحيوانية وأخرى شبه إنسانية إضافة إلى بعض المواقع التي استعملت على الأرجح كمذبح للقارين، وهو ما يدل على أنها كانت تستخدم كمعابد، ونذكر في ذلك أمثلة عن بعض المغارات والكهوف التي قدست بشمال إفريقيا، مثل مغارتي شرفطة (Charfatta) والمكطة-El (Maqta) قرب مدينة فاس بالمغرب الأقصى، والتي أكد الأثريون ممارسة سكانها القدماء لطقوس سحرية مرتبطة بالزراعة وطلب الإخصاب²³، كما لاحظ بعض المؤرخين التشابه بين اسم الجبل المقدس (Giddaba) الذي ذكره القديس اوغسطين وبين النقش (Giddaba-Deoau) الذي عثر عليه في غار زامة (R'har-Zamma) بجبل شطابة قرب قسنطينة²⁴، فالقديس اوغسطين يذكر أن بعض من عاصروهم اعتقدوا بأنهم يكونون أكثر قرباً للآلهة عندما يغوصون في بطن الأرض²⁵ لذلك فقد طلب من أتباعه تدمير كل الأوتان التي وجدت داخل الكهوف أو بالقرب منها.

لم يرد لحد الآن دليل قاطع على وجود آلهة خاصة بالكهوف، لكن بعض الباحثين أوردوا أسماء لآلهة مثلت تقديس الكهوف والمغارات، كإيفري (Ifri) أو أفرو (Ifri) - وأفري في الأمازيغية يعني الكهف - الذي صوّر على هيئة رأس مشع في أحد الكهوف الواقعة بين الهريّة والحروب، وباكاكس (Bacax) الذي كرس له مغارات كثيرة لعبادته ك(غار الجماعة) في جبل الطاية في ضواحي قالة²⁶، واعتقد المغاربة القدماء أن الآلهة باكاكس يختص في رعاية تنقلات قطعانهم في أعالي الجبال كما أنه يهتم برعاية وتسهيل المبادلات التجارية التي كانت تتم بين سكان الجبال وبين المستقرين بالسهول²⁷، كما عثر على نقوش ليبية على شرفه في كهف بضواحي منطقة عنونة²⁸، أذ تبين من النقوش التي اقيمت على رواق المغارة أنها كانت مكاناً مقدساً يطوف حوله السكان المحليون، وهو شأن أغلب المغارات والكهوف التي عثر عليها بقرب المدن القديمة، كسيرتا وميلة وسطيف²⁹، والتي بينت استمرار هذا التقديس إلى الفترة الرومانية³⁰، وهو أمر يوضح تأصل تقديس الكهوف والمغارات لدى السكان القدماء، وإلى يومنا هذا توجد مدن عدة في المغرب الكبير تحمل اسم أفري أو أفران كالمدينة المغربية الحالية أفران وهو جمع كلمة أفري أي الكهوف.

ج - تقديس الحجارة: تعتبر ظاهرة تقديس الحجارة وتبجيلها ظاهرة عالمية، فقد اعتبرت الحجارة في ثقافات عديدة تمثيلاً للقساوة والصلابة والقوة والدوام، واعتقد الإنسان البدائي القديم أنها قد تحتوي الحياة مثلها في ذلك مثل الحيوان والنبات، أولاً سكناً الأرواح والالهة³¹.

وتعتقد بعض الشعوب أن الحجارة الضخمة (الميغاليتس-Mégolithes) تحمي جسد الميت من التآكل، ففي وسط الهند توجد قبيلة تضع عند قبور موتائها حجارة ضخمة قد تصل علو ثلاثة أمتار بغرض تثبيت روح الميت، وتصاحب عملية وضع الحجر احتفالات طقوسية لضمان أن تسكن الروح ذلك الحجر، وهذه الطريقة يصبح الحجر مسكناً لأرواح الاموات³².

وفي جنوب الهند تتوجه المتزوجات الجدد الى صخور الدولمن التي يسكنها الأجداد ليلصقوا أجسادهن عليها أملين ضمان خصوبة أرحامهن، وأما في شمال افريقيا فقد نظر السكان القدماء إلى الصخور بشيء من القدسية والتأليه منذ عصور ما قبل التاريخ، فقد عثر في تلبالة بالصحراء الجزائرية على حجارة نحتت في شكل وجه يضاوي تحتفي فيه المعالم أو أعضاء تناسلية³³ (أنظر الصور2)، ولا يستبعد أن تكون هذه الحجارة محل تقديس من طرف ساكني المنطقة، وهذه الحجارة عرفت باسم المنحوتات Bétyles التي تعني "بيت الرب" التي عرفت عند العديد من الشعوب القديمة، وهي في شكل مستطيل عادة ما يضع عليها المرادون الزيت أو الدهن، وهي عادة تواصلت حتى العهد الروماني، فقد ذكر أرنوب (Arnobé) أنه قبل أن يعتنق المسيحية كان إذا عثر على حجر مصقول ومدهون بزيت الزيتون، أكد أنه حجر مقدس وجب أن يجثو أمامه ويطلب منه حاجته³⁴، كما أشار القديس أوغسطين أن الوثنيين في عهده من النوميديين عبدوا الأيادي، والتي تعني "الحجارة المقدسة"³⁵.

كما توجد إشارة واضحة "للبيتل" بيت الله في التوراة في سفر التكوين³⁶، وذلك عندما ذهب يعقوب الى حاران وبيت ليلته في الطريق، لكنه استيقظ مفزوعاً من نومه وقال: ﴿ان الرب في هذا الموضع وأنا أعلم... ما هذا إلا بيت الله-يقصد حجراً توسده-واب السماء...﴾، يشير هذا المقطع بوضوح الى أن يعقوب عليه السلام قد أقاماً نصبا حجراً (بتيل).

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— تبجيل البشير

وفي سفر الخروج³⁷ أشير الى الأعمدة الحجرية الاثني عشر التي أقامها موسى عليه السلام في جبل الطور، فتذكر التوراة: ﴿فكتب موسى جميع أقوال الرب، وبكر في الصباح وبني مذبحا في أسفل الجبل واثنى عشر عمودا لأسباط اسرائيل...﴾.

واعتبرت الحجارة مقاعدا للآلهة³⁸، أو مساكن للأرواح والجن، فقد ذكر بليبي الأكبر³⁹ نقلا عن ميلا أخبارا عن تقديس سكان واحة سيوة لحجر كبير على مشارف واحتهم، معتقدين أنه إذا تجرأ أحد منهم على لمسه فإن ذلك سيؤدي الى قيام عاصفة رملية تهلك الواحة⁴⁰.

كما أورد أرنوب تقديس المغاربة القدماء للصخور في شمال إفريقيا في قوله: «أذا رأيت صخرة مصقولة ومهذبة بزيت الزيتون أضن أني وجدت القوى المقدسة، فأركع أمامها وأطلب منها أن تحقق أغراضي»⁴¹، كما أشار رونييه (René Passet) الى حجر كبير في غليزان الحالية قرب مكان اسمه قرطوفة استعمل للتضحية وتقديم القرابين⁴²، وترى العديد من الدراسات أن الانسان المغاربي القديم امن عند اتصاله بهذه الحجارة بتجند قسم من المقدسات التي تحتويها املا منها تأثيرات خيرة، كالشفاء من الأمراض والخصوبة عند النساء⁴³.

كما أشار كامبس (Camps) الى أن القوانش (Guanches) (بربر جزر الكناري) في جزيرة بالما يزورون دورا صخرتين مقدستين (Tismar) و (Vimanya) ويسكبون عليهما بعضا من الزبدة والحليب وزيت الزيتون، ويصاحب ذلك انشاد لأغاني دينية حزينة في أجواء من الرقص⁴⁴.

اذن مما سبق يبدو أن سبب تقديس وتبجيل المغاربي القديم للحجارة راجع أساسا الى نظرتهم لها كماوى للمقدس وليس كمقدس، وهو بذلك يعبد الأرباب التي تسكنه وليس هو في حد ذاته، وتبعاً لذلك فالحجر يستمد قوته وقديسيته من قدسية الرب الساكن فيه، ثم أصبح الحجر بعد مرور زمن معين موضع تقديس لذاته، وهو ما أضفى عليه صفات التطهير من الشر والمس وجلب الخصوبة، فكم من الناس سعوا ومازالوا للحصول على حجر من الأحجار المقدسة وذلك من أجل أن تحميهم وتبعد عنهم العين الشريرة.

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم. ————— يحبل البشير

د -تقديس المياه: كانت الأمطار والينابيع مكرسة لنوع من التأليه خاصة في بلاد شبه جافة كبلاد المغرب القديم لكونها ضرورية لإنبات الزرع وحياة الحيوان والإنسان⁴⁵، كما اعتبرت هي أيضا مساكن للآلهة والأرواح.

وتتجلى الشعائر التعبدية المرتبطة بالماء في الاغتسال المرتبط بالمناسبات مع استعمال كبير للبخور، فقد أخبرنا القديس اوغسطين (354- 430 م) عن طقوس كان النوميديون يمارسونها منتصف كل فصل صيف، وعند حدوث الاعتدالين الربيعي أو الخريفي، تقضي باستحمامهم في مياه البحر عُرّة من أجل التطهر والتخلص من أاثمهم⁴⁶، وكثيرا ما ربط المغاربة القدماء بين منبع النهر وبين روح جني تحميه سميت هذه الروح بـ (Genius) وقدمت لها قرايين وأضحيات⁴⁷، هذا وقد بين المؤرخون ان العادات والخرافات المتعلقة بسقوط الأمطار ظهرت تقريبا في كل الأراضي شبه الجفاف في بعض السنوات⁴⁸، فقد كان المغاربة القدماء يتخيلون أن الارض تتزواج مع السماء وتتلاقح بواسطة المطر الذي تبعثه السماء، فإن حدث ذلك جرت الأودية وسالت الى بطن الأرض لتنجب أنواع الحبوب والفواكه والخضر⁴⁹، لذلك فقد قدسوا الحاري المائية وقدموا لها قرايين في مواسم معينة.

وقد استمرت هذه المعتقدات المرتبطة بالماء الى الفترة الرومانية، حيث عثر بيكار (Picard) على نقش مكرس لآلهة الماء عند تنقيبه في بئر ضامري قلعة دماذ (Dimmidi-Castellum) جنوب الجلفة⁵⁰، وفي مداورش (Madure) (قدس الاله ليليو (Lilleo) أوتيليلوا (Thililua) الذي يعني اسمه الماء⁵¹.

ولا تزال بعض الطقوس التي تؤكد تأصل تقديس المياه قائمة الى اليوم في مناطق معينة من شمال أفريقيا، حيث تقوم النسوة في تابلالة ببشار⁵² وعند قبيلة تاراخت بالمغرب الأقصى⁵³ بصنع دمي مزينة بالملاعق تمثل (عروس المطر تاغنجة)، ثم تحمل هذه الدمي في موكب طقسي مصحوب بأغاني وأدعية وإلتماسات من مثل « أنزار أنزار باراسويثا رازار » والتي تعني: «المطر المطر اربي اسقيها حتى الجذور»، طلبا للغيث والاختصاب⁵⁴، كما أشار دوكريه (Decret) وفنطر (Fantar) الى بعض مراسيم الاستحمام المقدس التي تجري في منطقة الجريد بتونس، إذ تذهب نساء القبيلة الى

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— كيجل البشير

الواد قصد الاستحمام عند طلوع الفجر، ثم يقمن وسط أجواء من الغناء بتغطيس شعورهن وهن يرددن امانيهن⁵⁵.

و-تقديس الأشجار: إن ربط الخرق البالية من القماش على أغصان أشجارٍ يعتقد أنها مقدسة عادة عالمية، انتشرت كثيرا عند الساميين⁵⁶، كما اعتبرت الأشجار الهة في العديد من الحضارات القديمة، ففي بلاد ما بين النهرين عرفت باسم تموز (Temuz)، وفي بلاد الاغريق سميت اتيس (Attis) وأدونيس (Adounis)⁵⁷.

كانت الأشجار مسكنا للمقدس من الهة وأرواح، ذلك أن المغاربة القدماء قد اعتقدوا أيضا بأن القوى الخفية قد حلت بها، وقد مارسوا طقوس ربط الخيوط والخرق في أغصان بعض الأشجار املين في طرد الارواح الشريرة، كما حرم ايذاءها أو اقتلاعها أو إحراقها ومن فعل ذلك فإنه معرض لسخط الالهة التي تسكنها⁵⁸، وعادة ما تم جمع الحجارة أو الأغصان حول جذعها لحمايتها.

كما قدست الأشجار نظرا لأهميتها الاقتصادية، أو بسبب كونها موجودة في مكان مقدس، أو أنها تخلد ذكرى بطل أو شخصية معينة مرت بجوارها أو استظلت بظلها، كما أنها ترتفع عمودياً نحو السماء المسكن المفترض للآلهة، وهي أيضا تفقد أوراقها وتستعيد في ترميز إلى الموت والقيامة، ويجب أن نشير الى أنه يكفي سبب واحد أحيانا لتقدس شجرة ما، وكلما زاد عدد أسباب التقديس كانت الشجرة أكثر تقدسا.

هذا واختلفت انواع الأشجار المقدسة عند المغاربة القدماء، اذ نجد الزيتون والكرمة والسدر وشجرة الرمان والنخلة وغيرها من أشجار شمال افريقيا، فكثيرا ما ظهرت هذه الأشجار منقوشة على النصب الجنائزية أو الاهدائية كرمز للخصوبة أو للانتصار⁵⁹، ويمكننا أن نعلل اختلاف الأشجار المقدسة باختلاف المنطقة الجغرافية التي تنمو فيها.

وتعتبر شجرة الرمان من اهم رموز للخصوبة، فسكان شمال افريقيا القدماء يكسرون ثمرها على مقبض المحراث أو يدفنونها في أول خط حرث املين أن تكون سنابلهم بمثل عدد حبات الرمانة⁶⁰.

ه- المقدسات الكونية: لفتت السماء نظر الإنسان القديم من كل جانب، بعظمتها وجلالته، بشمسها وبأقوي كواكبها، وكل ما فيها، فأمامها ولد شعوره بالتصاغر والضعف⁶¹، كما عرف ما فيها من تأثير مهم في حياته وعمله، وفي محيط عيشه، وفي نمو واستمرار غذائه، وعزا إليها شفاءه

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— يجعل البشير

ومرضه، وأيقن ضرورة التقرب إليها، وتقديسها هي وباقي الأجرام الأخرى، إرضاء لها، فبإرضائها ينال السعادة، والخير والبركة في حياته.

تعتبر إذن ظاهرة تقديس الاجرام السماوية، خاصة الشمس والقمر عادة دينية ضاربة في القدم، أعادها المؤرخون الى عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام، فقد بين القران الكريم أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الشمس والقمر في سورة الانعام⁶² حين قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ لَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وسكان المغرب القديم أو كغيرهم من الشعوب القديمة ان الشمس والقمر مصدر للحياة لهم ولأنعامهم، وكانوا يقدسونها ويرمزون لها بصور في أماكن عبادتهم⁶³، ورغم آثار تقديس الشمس والقمر نادرة جدا في الفترة التي سبقت قدوم الفينيقيين، لكن حفظت لنا المصادر المادية بعض الصور لأشكال تمثل قرص الشمس أو النجمة وهي تزين بعض الحوانيت وبلاطات الدولن، فكثيرا ما نجد نقوشا تمثل الشمس في غرف الموتى وأقبيتهم وحتى على الصخور المقدسة القائمة التي أشير إليها سابقا، وعثر أيضا في العديد من المرفقات الجنائزية الحجرية والنحاسية في شكل هلال⁶⁴، وما توجيه الغرف الجنائزية نحو الشرق الا لقدسسية الشمس لدى المغاربة القدماء⁶⁵، كما وجدت العديد من المشاهد الصخرية في التاسيلي ناجر تدل على هذا التقديس⁶⁶.

وعادة ما يرمز لتقديس القمر بالهلال⁶⁷، كما جسد برموز أخرى أهمها وأكثرها انتشارا قرني الثور والكبش⁶⁸، وقد وجدت هذه الرموز في أغلب الجداريات المنتشرة في الاطلس الصحراوي مقترنة برسم الاله الكبش ذي هالة (bélíer-à-sphéroïde) الاله الأكبر في تلك الفترة⁶⁹، في زكار وعين الناقة بالجللفة ومنطقة افلو شمال الاغواط وقرب قسنطينة في تسغنة وخنقة بوحجار⁷⁰، وتعتبر رسوم الجنوب الوهراني التي توجد على مسافة خمسة كلومترات غرب دائرة بوعالم بالببيض أحسن الرسوم وأكثرها وضوحا، حيث يظهر الكبش وهو يحمل على ظهره سرج مزين وحلية عريضة على العنق وفوق الرأس قبعة دائرية تمثل قرص الشمس المقدس⁷¹.

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم ————— كجبل البشير

توجد اسطورة قديمة تقول ان الكبش صعد ال جبل حتى وصل الشمس وبقيت هذه الاخيرة ملتصقة براسه لذلك كانت الشمس رمزا لكل مقدس أعلى⁷²، كما عثر في مناطق اخرى من شمال افريقيا على مشاهد لحيوانات تحمل قرص الشمس أيضا، ففي ليبيا يقول محمد مصطفى بازاما: «لقد عثر على رسوم ونقوش لبقرات وثيران في مناطق عدة في الصحراء الليبية، تحمل بين قرونها دائرة لعلها ترمز إلى قرص الشمس، وإن جهلنا نحن الكيفية التي تم بها الربط بين الشمس وهذه الحيوانات...»⁷³.

أما المصادر الكتابية فإن أقدم الإشارة هي إشارة هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد، فالليبيون حسبه لا يقربون لأرباب سوى الشمس والقمر⁷⁴، يقول هيرودوت: «تقدم القرايين للشمس والقمر من قبل جميع الليبيين ماعدا المقيمين منهم في جوار بحيرة تريتانوس»⁷⁵. كما أكد بليبي الكبير تقديس الليبيين للقمر والشمس وتقديم القرايين لهما⁷⁶ كما أشار ديدور الى تقديس القمر والشمس أيضا⁷⁷.

هذا وقد استمر تقديس القمر والشمس الى الفترة البونية والرومانية، فقد ذكرت لنا المصادر الكتابية عند استضافة ماسينيسا للقائد الروماني سكيبيو ميليانوس Scipion-Emilianus توجه الى الشمس شاكرا لنصرهما الرومان قائلا: «أتقرب اليك أيتها الشمس العالية جدا، والهة السماء الاخرى جميعا بعد أن وهبتي لي قبل أن أغادر الحياة، بأن أرى تحت سقفي وفي مملكتي كورنيليوس سيبون»⁷⁸.

وذكرت النصب النذرية في الفترة الرومانية الاله يور (Iour) كإله للقمر⁷⁹، كما أشار رونه باسيه (Basset) الى النقش اللاتيني (Soli deo invicto) الموجه لإله الشمس بنواحي باتنة، كما أشار بن خلدون الى عبادة بعض القبائل البربرية للشمس والقمر في زمانه⁸⁰.

المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم. ————— كيجل البشير



(الصورة 4) كبش بوعالم زناقة ذو الهالة (قرص الشمس)
op.cit, p92.(1986) Aumassip G



الصورة 1: ملاجئ صخرية بشيليا قرب قسنطينة

الهوامش:

1 - Gsell ST (1918) H.A.A.N, T3, p255.

- 2- فراس السواح (2002) دين الانسان دمشق: منشورات دار علاء الدين، ط4، ص24.
- 3 - طه الهاشمي (1963) تاريخ الأديان وفلسفتها، منشورات دار الحياة، بيروت، ص54.
- 4 - شنيقي محمد البشير (1984) التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص257.
- 5 - محمد الصغير غانم (2008) سير النوميديّة النشأة والتطور، دار الهدى، ص124.
- 6 - محمد الصغير غانم (2005) الملامح الباكّة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص68.
- 7- Toutain J (1920) les cultes païens dans l'empire romain, paris: coll. Bibliothèque de l'école des hautes études sciences religieuses, édit E. Leroux, p46.
- 8 - التاسيلي ازجر: مستمدة من النطق المحلي بالتماهاق، وهي تعني السلسلة الجبلية التي يغطيها السواد، أما ازجر فهي تعني جلد 8 - Leredde C (1957) Etudes Ecologiques et Phytogéographie de Tassili et Nil, Travaux de LIRS, p47.
- 9 - بن بوزيد لخضر (2010) الاثر الديني في مشاهد الرسوم الصخرية لمنطقة تاسيلي ازجر خلال مرحلة ذوي الرؤوس المستديرة - 2500/800 ق.م، الجزائر: مذكرة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، ص48.
- 10 - انحاز أطلس Atlas ضد الالهة فغضبت الالهة وشكته الى زيوس الذي عاقبه بتحويله الى جبل؛ انظر: محمد العربي عقون (2008) الاقتصاد واجتماع في الشمال الافريقي القديم، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص74.
- 11- Basset R (1910) Recherches sue les religions des Berbères, revue de l'histoire des religions, p02.
- 12- Plin Lancien (1950) L'histoire Naturelle, trad Beaujeu .J, paris : édit Hachette, T1, liv V.
- 13 - محمد الصغير غانم (2005) المرجع السابق، ص69.
- 14- Basset R (1910) op.cit, p04.
- 15 - مارسيا الياد (1986) تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، سوريا: دار دمشق للنشر، ج1، ص26.
- 16 - نصر الدين بن الطيب (2008) تاريخ الفن من العصر الحجري الى العصر الغوتي، منشورات الريشة الحرة، الجزائر، ص26.
- 17- Gsell ST (1921) H.A.A.N, T1, pp. T1, p256.
- 18 - محمد الصغير غانم (2008) المرجع السابق، ص137.
- 19- Lhote H (1976) Vers d'autres Tassili, nouvelles découvertes au Sahara, paris : édit Arthaud, 2° edit, p92.
- 20- Saoudi N-E (2002) Les temps Préhistorique En Algérie, Alger : édit Dalimen, p78.
- 21- Jean Clottes (2004) «L'Art Rupestre et la Chamanismes" les lettres de clio, www.clio.fr
- 22 - Bavois AG (1939) Manuel..., op-cit, p307.
- 23 - خزعل الماجدي (1999) الدين المصري، الاردن، دار الشروق، ص146.
- 24- Basset R (1910) op.cit, p05.
- 25- Ibid, p8.

- 26- Gsell S) 1927 (H.A.A.N T5, op.cit, p140.
 27- Basset R (1910) ibid, p07
 28- Benabou. M (1976) La Résistance Africaine à la Romanisation, paris : éd, Maspero288.
 29- Basset R (1910) ibid, pp07-08.
 30- Toutain J (1920) op.cit, pp47- 49.
 31- Benabou M(1976) op.cit,p272.
 32- Claude R) 2003(«Socio-anthropologie des religions", paris : édit Armand Colin, p23
 33 - مصطفى أعشي (2010) الاحجار تشخيص للمقدس «، مجلة توالث الثقافية الالكترونية، www.tawalt.com.
 34 - جيهان ديزانج (1985) البربر الاصليون «تاريخ افريقيا العام، مجلد2، باريس: دار النشر جون أفريك، اشراف جمال مختار، ص446.
 35 - البتيل Bétyl: كلمة سامية مركبة من "بت" التي تعني البيت، و"يل" وتعني الاله، عند جمعها تعطينا معنى "بيت الاله" انظر: محمد الصغير غانم (2008) المرجع السابق، ص134. ابن منظور (1968) المرجع السابق، مجلد 11، ص40
 36 - فتيحة فرحاتي (2007) نوميديا من حكم الملك جايّا الى بداية الاحتلال الروماني 213-46ق.م، الجزائر: منشورات أبيك، ص296.
 37 - الشاذلي ب و طاهر م (1999) قرطاجة البونية، ص286.
 38 - التوراة: سفر التكوين الاصحاح الثامن والعشرون، فقرات 11-13-15.
 39 -التوراة: سفر الخروج، الاصحاح الثالث، فقرات 13-14.
 40 - Basset R) 1910 (op.cit, p01.
 41 - Plin Lancien, liv2, chap45.
 42 - Mêla P) 1843(Géographie, liv1, chap8.
 43 - مصطفى أعشي (2010) المرجع نفسه، www.tawalt.com
 44- Basset R (1910) op.cit, p06.
 45 - محمد الصغير غانم (2005) (المرجع السابق، ص66.
 46- Camps G) 1980(Berbères aux marges de L’histoire, Ed. Des Hespérides, paris, p196.
 47 - محمد الصغير غانم (2008) المرجع السابق، ص138.
 48- جيهان ديزانج (1985) البربر الاصليون، مجلد 2 من تاريخ افريقيا العام، ص446.
 49- Basset R (1910) op.cit, p09.
 50- Benabou M (1976) op.cit, pp290-291.
 51 - محمد الصغير غانم (2008) المرجع السابق، ص141.
 52- Picard G.CH(1947) CastillumDimmidi, paris : édit E de Boccard, p127.
 53- Benabou M(1976) ibid, p275.
 54 - محمد العربي عقون (2008) المرجع السابق، ص239.

- 55 - أعشي (2010) ظاهرة أدبجو نتاشورت بقبائل تازاخت وتقديس الماء والنار عند سكان المنطقة، مجلة توالت الالكترونية www.tawalt.com، يوم 2010-12-22.
- 56 - Doutte E (1908) Magie et religion dans l'Afrique du nord, Alger: édit Jorfane, p584.
- 57- Decret F & Fantar M (1982) L'Afrique du nord dans L'antiquité, paris: édit Payot, pp 244 -245.
- 58 - محمد الصغير غانم (2005) المرجع السابق، ص71.
- 59 - محمد الصغير غانم (2005) المرجع السابق، ص131.
- 60- Berthier A & Charlier L (1955) Le sanctuaire punique d'Al Hofra à Constantine, 2°vol, paris: édit Arts et Matières Graphiques, p181.
- 61- Basset R (1921) (Les influences punique chez les Berbères, RAF, v62, p340.
- 62 - الهاشمي طه (1963) تاريخ الأديان وفلسفتها، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص73.
- 63 - القرآن الكريم: سورة الانعام، آيات 76-77-78.
- 64 - محمد علي دبوز (1964) تاريخ المغرب الكبير، ج1، ط1، مطبعة عيسى البابي وشركائه، ص69.
- 65 - عزيز طارق ساحد (2009) التعمير البشري ببلاد المغرب فتره فجر التاريخ، رسالة دكتوراه معهد الآثار، ص406.
- 66- Savary JP (1969) L'architecture et l'orientation des dolmens de Beni Messous (Région d'Alger) , Libyca, t. XVII, p. 321.
- 67- Lhote H (1976) op.cit, p92, Fig49.
- 68 - سباتينو موسكاتي (1998) الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب، بيروت: دار الرقي، ص284.
- 69-Ryckmans G (1951) Les Religions Arabes Pré-Islamique, éd2, Louvain, p 9.
- 70- حارش محمد الهادي (1988) «أصول عبادة امون في المغرب القديم»، الجزائر: مجلة الدراسات التاريخية، ع04، ص11.
- 71- Gsell S (1972) H.A.A.N, T IV, p286.
- 72- Decret F & M Fantar (1991) op.cit, p254.
- 73- Mircea E (1964) Traite d'histoire des religions, paris : pp119.
- 74 - محمد مصطفى بزيمة (1973) تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ، بنغازي ص235.
- 75- Hérodote, IV ,188
- 76 - ibid.
- 77- Plin l'ancien, II, 103.
- 78- Diodore de Sicile, III, 57.
- 79- Camps G (1987) op.cit., p200.
- 80 - محمد العربي عقون (2008) المرجع السابق ، ص215

أجهزة الأمن الداخلي في الدولة الفاطمية ببلاد المغرب

297 هـ - 363 هـ / 911 - 974 م

الدكتور حيمي عبد الحفيظ، جامعة بشار

الملخص:

تمثل ظاهرة الأمن جانبا مهما في الدولة في الماضي والحاضر، إذ كانت تعتبر أهم دافع لتطور وترقية أجهزة الأمن وتنظيمات الأمن بشكل عام، وفي العصر الوسيط الإسلامي ببلاد المغرب تعتبر الدولة الفاطمية رائدة في هذا المجال، بحكم سياستها المذهبية، وكثرة القلاقل والاضطرابات والفتن المعبرة عن رفض السكان للمذهب الإسماعيلي.

إن الظروف السياسية التي كانت تمر بها الدولة الفاطمية ببلاد المغرب في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين دفعت بحكام الدولة الفاطمية إلى تأسيس مجموعة من التنظيمات الأمنية، وذلك لمواجهة معارضيتهم، ولنشر مذهبهم بقوة السيف.

لقد كان من نتائج السياسة الأمنية لحكام الدولة الفاطمية تأسيس أجهزة أمنية متعددة قصد التحكم في الوضع، ومن بينها الشرطة والعسس، وصاحب الرية، والأعوان والبوابون، والمرابدة والدورة، والجواسيس.

الكلمات المفتاحية: الدولة الفاطمية - الأمن الداخلي - الشرطة - العسس - الحرس -

صاحب الرية - الحكام - المرابدة - الدورة - صاحب الخبز.

Abstract

The security phenomenon represented an imported side to any country in the past and present, it was considered as a principal, push to developed internal security organization.

the Fatimid state was the leading country in those field in the Musclemen Magrife, because of the satiation that took place in that area those days such as internal revolutions and unrest, especially the sheet doctrine push the Fatimid leaders to establish a numbers of security organization to face the in rest instability, establish the doctrine by force, impose the public order and fight any opposition.

because of those they founded such as: police, guardians , night keepers , field guardians, security responsible , security agents, door keepers, patrol agents, indicators, and spies..

تمهيد: لقد تم تأسيس الدولة الفاطمية في سنة 296 هـ/910م على يد أبو عبد الله الشيعي، وأقام ملكه على أنقاض دويلات بلاد المغرب، ومرت في حكمها بمرحلتين: المرحلة المغربية 296-362 هـ/910 - 973 م وكانت عاصمة الدولة فيها رقادة أولا ثم المهديّة (1) ثم المنصورة (2)، وتوالى الحكم عليها أربعة حكام هم: عبيد الله المهدي 297 - 322 هـ /911-934م وتولى الخلافة في ظروف جد صعبة مليئة بالاضطرابات والمخاطر، وحينما وافته المنية تولى الحكم من بعده أبو القاسم محمد القائم 222-334 هـ/934-946م ثم خلفه ابنه أبو الطاهر إسماعيل المنصور 334-341 هـ /946-953 م ويعتبر إسماعيل المنصور المؤسس الثاني للدولة الفاطمية، بعدما استطاع القضاء على ثورة صاحب الحمار، وبعد وفاته تولى الحكم ابنه المعز لدين الله 342-365 هـ/954-976 م ويعتبر عصر أزهي عصور المرحلة المغربية، بحيث استطاع مد نفوذ دولته إلى مختلف أنحاء بلاد المغرب من برقة شرقا إلى طنجة غربا (3).

منذ الوهلة الأولى بدأ الفاطميون ببناء دولتهم ، فعملوا على تنظيمها، وتقسيمها، وإقامة الدواوين والخطط بضم الخاء، لكن الجهاز الإداري كان موجودا قبلهم ، وإنما اقروه وزادوا عليه، ويعود الفضل في إرساء قواعد الجهاز الإداري إلى أبي عبد الله الشيعي عندما دخل رقادة واتخذها عاصمة لدولته، قام بتنظيم مختلف مصالح الدولة ومن بينها القضاء والشرطة والحسبة، والتي كان لها وجود من قبلهم، ومجرد قيام دولتهم يادروا بالسيطرة على خطة القضاء، وأول من قام بتعيينه عليها وتلقب بقاضي القضاة برقادة هو محمد بن عمر المروزي، الذي أصدر أوامره بمنع العمل بالمذهب المالكي ومختلف المذاهب الأخرى، وأجبر القضاة والعمال على العمل بتعاليم المذهب الإسماعيلي، ومنع الفقهاء بالإفتاء بغير مذهبهم (4).

لقد جاء في المصادر التي أرخت للفاطميين مصطلحات مختلفة لها علاقة بالجانب الأمني الحاكم والشرطة، والحرس والأعوان والحشاد والبوابين، والدوارة، والمرابدة، ولكن الغالب على هذه المصطلحات الحرس، وصاحب الحرس، مما يعتقد بأن الشرطة في العصر الفاطمي ببلاد المغرب كان يطلق عليها الحرس، والمصادر لا تمدنا بمعلومات كافية في هذا الجانب، هل هذه التسميات هي

مراتب وأنواع للشرطة؟ أم أن لكل واحدة لها استقلاليتها عن الأخرى؟، ولكن المهام التي كانت تسند لهذه الخطط يدفع إلى الاعتقاد بأنها فعلا تمثل أنواعا متخصصة للشرطة باعتبار أنها تتشابه وتتقاطع في العديد من المهام والصلاحيات.

1-الشرطة: ويذكر ابن خلدون أن الشرطة انفصلت عن القضاء، وأصبحت مستقلة بقوله: "وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا، فجعل للتهمة في الحكم مجالا" (5).

أما عن مهام الشرطة عند الفاطميين يقول ابن خلدون: "وكان له النظر أيضا في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعباسيين بمصر والمغرب راجعا إلى صاحب الشرطة" (6)، ومن المهام فرض العقوبات قبل ثبوت الجرائم وإقامة الحدود الشرعية وإقامة التعزير والتأديب على كل من لم ينته عن الجريمة فقد قال ابن خلدون "فجعل للتهمة في الحكم مجالا، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في مجالها ويحكم في القود والقصاص، ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة" (7).

لقد وضع ابن خلدون في مقدمته ما تعلق بالقانون العام بصورة دقيقة وواضحة بأن القضاء الاستعجالي الزجري لا يدخل ضمن صلاحيات القاضي بل يعود إلى سلطة قضائية متخصصة وهي الشرطة فقال: "وكان النظر في الجرائم وإقامة الحدود راجعا إلى صاحب الشرطة، وهي وظيفة أخرى كانت من الوظائف الشرعية، وتوسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا" (8).

أما بالنسبة للفاطميين الذين كانوا في صراع مع مخالفيهم من المذاهب الأخرى، وبخاصة الفقهاء المالكية، دفع بآئمتهم إلى إعطاء العناية للأمن من خلال دعمهم للشرطة، وكانت سياستهم المذهبية تدفعهم إلى إقامة نظام قضائي زجري سريع (9)، وبناء على ذلك كانت مسؤولية الأمن راجعة إلى الخليفة الذي كان يعهد بسلطات الشرطة إلى عامل المدينة.

وكان صاحب الشرطة خاضعا لسلطة الأمير في عصر الأغالبة، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن الشرطة كمؤسسة التي عرفتها كل من الدولة الأموية ثم فيما بعد العباسيين وفي الأندلس، لم تشهد تطورا ولم تكن لها نفس المكانة في إفريقية، فقد كان صاحب الشرطة عبارة عن مجرد عون أمن تحت سلطة الأمير أو العامل (10).

وكان صاحب الشرطة في الدولة الفاطمية يتصرف في المدينة تصرف الحاكم، ويتمتع بسلطات نائب الأمير في الميدان الجنائي، وله الحرية المطلقة في قمع ومعاقبة كل من يمس بأمن الدولة، أو يهدد الاستقرار والنظام العام، وله كل الصلاحيات في تتبع مرتكبي الجرائم، ومعاقبتهم، والنظر في التهم، وإصدار الأحكام بالسجن أو الإعدام بطريقة تعسفية أحيانا⁽¹¹⁾.

ومن خلال إشارات وردت في المصادر تبين أن عمال الدولة الفاطمية، وبخاصة عامل القيروان في عهد المهدي أبو عبد الله الشيعي، ومنهم ابن أبي خنزير تعرض للعلماء المالكية، وعلى وجه الخصوص أبو سعيد الضيف الذي قدم إلينا في مظهر طاغية، نشر الرعب في القيروان ومن ذلك: "وولي أبو عبد الله الشيعي على مدينة القيروان الحسن بن أحمد بن علي بن كليب المعروف بابن أبي خنزير، وأمره بقتل من خرج ليلاً أو شرب مسكراً، أو حمله أو وجد عنده. وولي على مدينة القصر القديم خلف بن أحمد بن علي بن كليب، أخاه ابن أبي خنزير، وأمره بمثل ذلك"⁽¹²⁾.

وأقر المهدي علي عمالة القيروان الحسن ابن أبي خنزير وعلى القضاء بها المروزي. وأمر أن تقلع من المساجد والمواجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها، وكتب عليها اسمه⁽¹³⁾.

وكانت قوات الشرطة الخاضعة لسلطة العامل موزعة على مراكز للحراسة كانت موجودة في مختلف أحياء المدينة تعرف بالحرس⁽¹⁴⁾ أو الربع، وكان صاحب المحرس أو صاحب ربع المدينة وشرطها يقوم بعمليات المداومة والتفتيش مستعملاً أسراب من الكلاب، وأبواق (منبهات الصوت) لفرض تعليمات الأمن⁽¹⁵⁾ جاء في سيرة جوذر أن: "عبد الله بن رفيق استعقد ربع المهدي وشرطها وزاد فيها زيادة أوجبت صورة قبولها لما في ذلك من توفير المال"⁽¹⁶⁾، ونستنتج من هذا أن الشرطة على عهد الفاطميين كانت تتولى أحياناً قبض الرسوم والمكوس والغرامات.

إن ورود استخدام لفظ الشرطة بصيغة الجمع (الشرط)، وذكر أعدادهم يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا المصطلح كان يطلق على الأجناد الذين يكلفون بتنفيذ الأوامر الشرطية، وفي كثير من الأحيان يكون ارتباطهم بصاحب المدينة أو العامل فهم يأترون بأوامره ويعملون على تنفيذها بكل التزام وإخلاص.

إن ما يؤكد الطرح الذي يجعل التسميات السابقة الذكر بأنها تمثل تخصصات في الشرطة في العهد الفاطمي ببلاد المغرب، أن لفظ الشرطة كان يطلق على الأعوان الذي توجه لهم الأوامر

لتنفيذ إما أحكام القضاء أو التعليمات التي يصدرها العمال، أو حتى الإمام، فقد بعث صاحب المدينة أبو جعفر الذي تلقى تعليمته من قبل العامل حسن بن علي بن أبي خنزير لإحضار إبراهيم الدمني من مسجد إبراهيم بحارة المرضي سنة ثلاثمائة فكلّف عشرة من الشرط، فلما حضروا لاصطحابه إلى صاحب المدينة طلب ممن كانوا في المسجد بأن يلتزموا الهدوء وأن يؤيدوه بالدعاء، فمضى به الشرط حتى أوصلوه إلى صاحب المدينة (17)، ويذكر أن أبا الميسرة الفقيه: "لما أصبح الصبح جاءت الشرط فأخرجوه من داره ومضوا به فضربوا عنقه". (18)

2-صاحب الربع:

من الخطط ذات العلاقة بالشرطة في العصر الفاطمي صاحب الربع، وهي وظيفة متضحة المعالم في مرحلة الوجود الفاطمي بمصر أكثر من بلاد المغرب، فقد ذكر القلقشندي مهام هذه الخطة واختصاصاتها من خلال سجل حماية الربع وجاء في نص السجل: "واكشف أحوال هذه الرباع كشفا يعرف به حالها ويعلم منه استقامتها واختلالها، وانتصب لاستخراج مالها من السكان ... وأن تتعهد بالاطواف فيها، وأن تحافظ على حراستها، وتناول أجرها ورم ما لعله يسترم منها ... وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يصرف في مصالحها" (19).

إن النص يشير إلى الرباع وهي جمع ربع، وتعني منطقة سكنية تحوي أملاكاً عقارية خاصة بالخليفة أو تابعة للدولة، وعلى صاحب الربع استخراج أجره هذه الأملاك من المؤجرين لها، والتكفل بحراستها والعناية بها، وحمل ما تبقى من ريعها إلى بيت المال وإن كان هذا له علاقة بما كان في مصر إلا أن ورود إشارة عن الربع يؤكد استخدام نفس هذا المصطلح ونفس المهام فقد ذكر ذلك جوذر في سيرته قائلا: "كان عبد الله بن رفيق استعقد ربع المهدي وشرطها وزاد فيها زيادة أوجبت صورها قبولها لما في ذلك من توفي المال" (20).

يبدو من خلال النص بأن الشرط الذين كانوا مجرد أعوان لصاحب الربع، الذي كان يتولى ربع المهدي وسع من أملاكها وعقارها مما جعلها تذر أموالاً طائلة، وكان صاحب الربع عبد الله بن رفيق تحت تصرفه شرط يتكفلون بحراستها وحمايته من اللصوص، والنص يبرز قضية مهمة بأن الشرط كانوا فقط أعوان تابعين لصاحب الربع، لذلك كان على صاحب الربع أن يرتب طائفة من الشرط للطواف في المدينة ليلا لحراسة الأزقة وغلق الدروب، وتفقد ممتلكات الخليفة.

ويشير النص إلى استعقاد الربع، بمعنى أن صاحب الربع كان يعقد له عقدا يقوم بموجبه مزاوله مهامه والإشراف على ما وكل به، فقد أمر الخليفة جوذر بأن يعقد لعبد الله بن رفيق على ربع المهديّة قائلا له: " واستأمر .. مولانا (صلى الله عليه وسلم) على ذلك فنفذ أمره المعظم بعقدها عليه "(21).

والملاحظ أن صاحب الربع كان يعقد له عقدا قابل للتجديد أو الإنهاء، حسب الكفاءة التي يديها في عمله من خلال التوسعة وتأمين الأملاك، لكن إبراز القدرة على التحكم في الربع يؤدي إلى التجاوزات التي قد يتعرض عليها ساكنة الربع، يتحدث جوذر عن ابن رفيق فيقول: " فلما تمكن بسط يده على الناس وقطع العدوات بما لا يوجب الحق، واستعمل التجني على أهل السّتر "(22).

إن السياسة العنيفة التي كان ينتهجها صاحب ربع المهديّة دفع بسكنها إلى رفع شكاويهم وتظلماتهم إلى عامل المدينة والذي يبدو بأنه لم تكن له عليه سلطة، ما يجعل الاعتقاد بأنها خطة كانت تابعة مباشرة للخليفة أو من ينوب عنه كأمثال جوذر الذي قال: "فكثرت الشكوى وتظلم الناس واستغاثوا فوردا كتاب نصير يذكر ذلك كله "(23).

ويتضح من خلال النص السابق بأنه كان يوجد تداخل في الصلاحيات بين صاحب الربع وعامل المدينة، مما دفع بهذا الأخير إلى رفع شكوى إلى الأستاذ جوذر فقال: "ووصل كتاب رفيق يذكر اعتراض نصير عليه فرفع الكتابين جميعا إلى مولانا وكتب معهما رقعة يسأل أن يجد له ما يعمل في ذلك "(24).

إن التجاوزات التي كان يقوم بها صاحب الربع وغيره من أرباب الوظائف لم تكن بامر من السلطات العليا في كثير من الأحيان، وإنما صادرة من متوليها، قصد إبراز كفاءته وتحقيق ظهوره قصد أن ينال رضا ولي نعمته، أو رغبة لتحقيق طموحات سياسية، أو رغبة في نيل ترقية إلى منصب أعلى، لكن هذه السياسة القاسية، قد تنقلب على صاحبها، وقد تؤدي إلى التدمير في أوساط العامة المغلوبين على أمرهم، وذلك قد يدفع إلى الفتن والثورات.

لقد جاء رد الخليفة على الأستاذ جوذر فيما يخص الكتابين يفصح عن عدم رضاه عن هذه السياسة قائلا: "وقد علم الله أننا لا نرض بهذا الظلم والعدوان في أحد من أهل طاعتنا، وإن كان

شاسعا نائي الدار عنا ... فإذا لم يكن في المال وفر إلا هذا الوجه فلا هجعه الله ولا وفره... فعرف ابن رفيق هذا وأن هذا الفعل ما لا نطلقه له ولا نرضاه عن عملهن وان تحببه إلى الناس أثر عندنا من توفير ما يجمعه"(25).

أما عن علاقة صاحب الربع بالشرطة فغنه بالرغم من أن صاحب الربع مسؤول عن حماية أملاك الخليفة وخدمتها، كان تحت سلطته الشرط الذين يسهرون على عمل الحراسة والمراقبة وفرض الغرائب وقد يكون حتى مطالبة السكان بالعمل فيها بالسخرة، أو دفع العقوبات بالعمل في المزارع.

3-الحكام:

لقد ورد ذكر لفظ الحاكم أو الحكام في بعض المصادر ، فقد جاء في المجالس والمسائرات، توقيع في رد البغي: "قال وتظلم إلي قوم من بعض من أقمته من الحكام فلم يسعني إلا رفع ذلك إليه -الإمام - فوقع إلي فيه المكر والحيل والخديعة ... وليس شيء أغرب من الإجماع على تركية قاض أو حاكم"(26)، كما ورد في افتتاح الدعوة بأن محمد بن عمر المروزي حينما ولي القضاء بمدينة القيروان، قيل عنه: "كان له تشيع قديم ونظر في الفقه من أقوال الأئمة وجعل إليه تولية القضاء والحكام بسائر البلدان ، وكان يكتب في كتبه وسجلاته من محمد بن عمر قاضي القضاة"(27).

إن خطة الحاكم في العهد الفاطمي غير واضحة لقلّة المادة حولها ، لكنها يبدو أنها خطة كانت تابعة للقضاء، فكان صاحبها يوليه قاضي القضاة، لكن المؤكد بأنها لا تعني القاضي الذي كان يتم تعيينه في الأمصار، وكان صاحبها راجعا بالنظر إلى رأس القضاء، فمن الممكن أن المناطق البعيدة كان يجمع لشخص واحد السلطات القضائية ، أو الخطط القضائية مثل القضاء، وصاحب أحكام السوق، والشرطة، وهي كلها خطط للأحكام فقد قيل: "واعلم أن للحكام الذين تجري على أيديهم الأحكام ست خطط أولها القضاء، وجلها قضاء الجماعة والشرطة الكبرى والشرطة الصغرى، وصاحب مظالم وصاحب رد بما يرد إليه من الأحكام وصاحب مدينة وصاحب سوق، وهكذا نص عليه بعض المتأخرين"(28).

يمكن القول بأن الحاكم كان يجمع كل خطط الأحكام في يده وبخاصة في المناطق البعيدة والنائية، فهي تجمع ما بين القضاء والحسبة والشرطة، ويتضح إن دوره الأساسي كان يتمثل في معالجة تجاوزات السلطة التي يقتربها العمال والجبابة، ويذكر جوذر بأن حاكم كورة الجزيرة (جزيرة

شريك) وهو يقوم بتحقيق تجاوزات السلطة⁽²⁹⁾، وأجاب المعز على كتاب جوذر قائلا له: "لا تمكن النذل من هذه المنازل ولا تبلغه بغيته فيها، واكتب إلى الحاكم عن أمرنا بالكشف عن صورة هذه الحوادث والكتاب إلينا بصحة ما تقف عليه من ذلك فنأمرك بما تعمل عليه إن شاء الله"⁽³⁰⁾.
مهما يكن من أمر فإن خطة الحاكم من خلال الشواهد يثبت بأنها خطة مرتبطة بالجانب الأمني للدولة الفاطمية، إلا أنها كانت تابعة في التولية والعزل لقاضي القضاة، وكانت مهمتها الحرص على حفظ الأمن ومتابعة القضايا السياسية، وبخاصة ما يتعلق بتجاوزات السلطة.

3 - الحرس:

أما ما يتعلق بالحرس فإن المصادر تتعرض لذكرها مرارا، بصيغ مختلفة منها الحرس، وصاحب الحرس، والحراسة، وهذا يدفع إلى القول بأن الحرس هو المصطلح الذي كان سائدا في القيروان إبان الحكم الفاطمي، وربما يكون استخدامه عند العامة، فقد ذكر بأن الفقيه أحمد بن نصر كان يجتمع الناس حوله في المسجد، وذلك أخاف المشاركة فاستفظعوا ذلك الاجتماع، فقام صاحب الحرس ومعه بعض المغالين، أي غلاة الشيعة، فوكل صاحب الحرس به الشرط وعلى كل من كان معه⁽³¹⁾.
إن النص الذي أورده الخشني يفصح بأن الشرط فعلا هم أعوان كان يتم تكليفهم بالأوامر لتنفيذها، وما يمكن استخلاصه أن الشرط كانت تابعة وتحت إمرة وسلطة صاحب الحرس، الذي يعتقد أنه يمثل القائد الأعلى للشرطة آنذاك، لكن مهمة الشرط هي المحاصرة والمتابعة أو الملاحقة، ويعود البث في أمر المشتبه به إلى صاحب الحرس في الأخير الذي هو بدوره يتوجه به إلى السلطات العليا.

فقد ذكر الخشني بأن صاحب الحرس سار إلى علي بن إسحاق الطيب الذي كان مستخلفا أيا سعيد الضيف حينئذ على القيروان، فأعلمه بخبر أحمد بن نصر فأبى أبو الطيب النظر في أمره، فأرسل إلى إسحاق بن أبي المنهال فأرسل جماعة من العدول فعابوا الحالة التي هو عليها، ثم أمر به إلى السجن من غير أن يدخله إلى نفسه، وأمر بتقييده، وواصل من كان معه إلى نفسه، واستكنهم رجلا رجلا، ثم كتب بخبر أحمد بن نصر، وأسماء من كانوا معه إلى عبيد الله ... وأقام في السجن تسعة أشهر⁽³²⁾.

وكان من مهام الحرس على عهد الفاطميين التجسس على العلماء والفقهاء وخطباء المساجد، باعتبار أنهم يمثلون النخبة المثقفة، وهي غالبا ما تدعوا إلى الثورة والخروج ضد الحكام، وبخاصة الفقهاء المالكية الذين تم إجبارهم على الفتوى بالمذهب الإسماعيلي، فرفض كثير منهم ذلك، فتعرضوا للاعتقال والتنكيل والتعذيب وحتى القتل، فلقد كان الفقيه جبلة بن حمود " يحرس بالعشي عند الفرائق فقليل له في ذلك فقال أحرس عورات المسلمين {من هؤلاء القوم فإن رأيت منهم شيئا حركت المسلمين عليهم} "(33).

إن قيام صاحب المحرس بالتجسس على المناوئين ضد خصوم الدولة الفاطمية كانت من المهام الشرطية والهدف منها إحباط كل المحاولات الداعية إلى الثورة ضد الدولة الشيعية الإسماعيلية في بلاد المغرب، فلقد قال الشيخ أبو الحسن بن القابسي رضي الله عنه: " كان جبلة رضي الله عنه يصلي الجمعة في مسجده ويجتمع الناس إليه فجاءه صاحب المحرس يتجسس عليه قال فأخذه جبلة وأدخله المسجد وضربه بالجريد ولم يتركه حتى تاب وحلف أن لا يعود "(34).

لقد وقع نفس الأمر مع الفقيه سعيد بن الحداد حينما كان في مجلسه " لحظه صاحب المحرس لحظا منكرا، فقال له بعض جلسائه إنما صار إلى العامل ليخبره اجتماع الناس عندك، فأخذ رحمه الله يستعين بالله تعالى ويستكفيه شره وضره "(35).

يستخلص من النصوص العديدة بأنه كان يوجد دار خاصة بالشرطة والحرس يقيمون بها، ويشرف عليها صاحب المحرس، هذه الدور هي بمثابة مراكز للشرطة في عصرنا الحالي، ويمكن القول بأنه من الممكن أنها كانت تشمل على المسؤولين في الشرطة، من كشاف ومرابدة وحشاد وجواسيس، إضافة إلى السجلات التي يسجل عليها أسماء المقبوض عليهم، والمشبوهين والثائرين على الدولة، وأسماء المعارضين للمذهب الإسماعيلي ، فقد كان يوجد مراكز عديدة داخل المدينة ومهمتها السهر على حفظ النظام والتصدي بصرامة لكل من يهدد أمن الدولة، فقد ذكر مسجد الأنصار بجانبه محرس يدعى بمحرس الأنصار، " وهذا المسجد بمحرس الأنصار وعليه بني هذا المحرس "(38).

4-العسس:

إضافة إلى الحرس كان يوجد نوع من الشرطة في الدولة الفاطمية مختص في الحراسة الليلية، يطلق عليهم العساسة، مهمتها حراسة المدينة، وتتبع المتسللين في الليل سواء من اللصوص والمجرمين أو من المعارضين للمذهب الإسماعيلي، بحيث كانت توصد الأبواب بعد صلاة العشاء، ويضرب بالبوق لإعلام الناس بعدم الخروج، والالتزام ببيوتهم، فقد ذكر عبد الله بن سعد اللجام قائلا: "وأعدت أبا سليمان على كتاب يقابله معي فقال لي: تأتي إليك الليلة نقابله معك، فانتظرته إلى أن اختلط الظلام فرددت أبواب الدروب مخافة العسس ووقفت خلف الباب انتظره طويلا" (39).

كما ورد لفظ مركب يعبر عن العسس وهو "رابطة وعساسة" (40)، وقد يقصد بالرابطة المراقبة أو جمع من العسس يربطون في الحراسة ليلا، وكان العساسة يستخدمون الكلاب للحراسة والكشف عن المارة والمختبئين، والمتسللين، فقد ذكر شخص يدعى سعيد كان عند الفقيه السبائي وخرج من عنده متأخرا ليلا فقال: "فخرجت من داره فمررت برحبة ابن أبي داود، فإذا برابطة وعساسة وكلاب فما كلمني أحد بكلمة ولا نبج علي كلب، ثم تماديت في طريقي فمررت بالسماط على دار ابن أسود الداعي فوجدت عندها رابطة وعساسة وكلابا، فما كلمني منهم أحد ولا نبج علي كلب، ثم تماديت إلى ناحية سوق بن هشام وعنده رصد وكلاب فما كلمني منهم أحد، فلما وصلت إلى بئر أم عياض وجدت أيضا عنده مثل ذلك، قتماديت حتى انتهيت إلى الدرب فدخلني الهم والفرع، قلت هم صلوا وغلقوا الأبواب فمن يفتح لي؟ فهزرت الباب فانفتح لي" (41).

لقد تعرض النص إلى عدة إشارات تبرز الحالة الأمنية التي كانت تعيشها البلاد على عهد الفاطميين، من خلال التكثيف من وجود العسس ليلا في جميع أنحاء المدينة وأراضيها، من رحبة أبي داود والسماط، وسوق ابن هشام، وبئر أم عياض، لدلالة على التخوف من أي انفلات أمني بسبب سياسة التنكيل والاعتقال والقتل التي كانت تنتهجها الدولة تجاه معارضيها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نستشف من النص بأن الدولة كانت تفرض حالة الطوارئ، وحظر التجوال ليلا بعد أداء صلاة العشاء إلى صلاة الصبح، وكان يتم قتل كل من اخترق ذلك، إضافة إلى ذلك بأن المدن كانت محصنة يوجد بها أبواب توصد ليلا يسهر على إحكام أغلقها العسس، كما كانت توجد أبواب للدروب في الأحياء يشرف على إغلاقها ساكنيها.

4-الأعوان:

وما يرتبط بالشرطة في العصر الفاطمي ما كان يطلق عليهم الأعوان وهو جمع للعون، أي الشرطي الذي يساعد الوالي أو القاضي، أو الحاكم بصفة عامة، فيقال عون الحاكم وعون القاضي وعون الوالي أو العامل، فقد أشارت المصادر إلى وجود الأعوان بمختلف أصنافهم على عهد الفاطميين، فقد ذكر عن فضل بن أبي العنبر وكان واليا على الجزيرة، قال: "قدمت بزواملي وأعواني فنزلنا ببعض حصون الجزيرة التي على ساحل البحر فأدخلوا ثقلي في مسجد من مساجد الحصون وأدخلوا الحصن كلابا وطيورا"(42).

يذكر كذلك بأن الفقيه حسن بن البناء الذي كان يتولى القضاء بقصطيلية، سعوا به ورفعوا عليه البغي عند إبراهيم بن أحمد، وذلك: "أنه قدم البريد إلى عامل قصطيلية بعزله وتخشييه ورفعاه إلى حبس رقادة، وجلس للقضاء ولم يبلغ العزل فقال من ههنا من الأعوان فابتدروه فأمر بامساكهم ثم أمر بهم إلى العمود رجلا رجلا فضرب كل واحد وأمر بتقيدهم في الحديد وأودعهم السجن، ثم أتى العامل بأمر عزله، فأرسل فيه وأوثقه وأرسله إلى رقادة"(43).

كما كان القضاة يزودون بالأعوان لمساعدتهم في إنفاذ أحكام القضاء وإحضار من أراد إحضاره وعقاب من طلب القاضي معاقبته، سواء بالتعزير أو الضرب بالسوط، فقد جاء في قضاة قرطبة وعلماء إفريقية بأن أحد القضاة وهو عمرو بن عبد الله عرضت عليه قضية تخاصم في غضب رجل ضعيف من عامة الناس وآخر من وجهاء السلطان بحيث جاء في ركب عظيم وبين يديه الفرسان والرجالة(44)، فطلب منه الجلوس بين يديه فتكلم الوجيه وقال عليه الأدب فيما نسب إلي من الغضب فقال القاضي: "لو قال ذلك لرجل صالح عليه الأدب، فأما من كان معروفا بالغضب فلا؟ ثم قال لجماعة من الأعوان ممن كانوا بين يديه أمضوا معه وتوكلوا به فإن رد إلى الرجل داره وإلا فردوه إلي"(45).

5-البوابون:

وكما هو معروف بأن المدن في العصر الوسيط كانت تحاط بأسوار مزودة بآبواب، وذلك حتى يسهل التحكم في المدينة والقدرة على صد أي خطر خارجي محتمل، وكانت الأبواب يحرسها رجال يطلق عليهم البوابون يقفون عندها لمراقبة الداخلين والخارجين منها، فقد ورد أن الهواري المؤدب

حينما اقتيد إلى السلطان ليثبت فيه بسبب ذلك المشرقي، وجدا شخصا يدعى جوهر بالقصر، والذي توسط له وأعطاه مالا فقال: " فانصرف معي جوهر ودفع إلي الدنانير قال: فلما صرت في سقيفة القصر قام إلي البوابون وأرادوا أن يأخذوا مني مما أعطاني... فصحت يا أبا الحسن جوهر فقال لي مالك يا مؤدب وزجر البوابين عني فخرجت بها" (46).

6-الحشاد:

كانت المدينة وبخاصة عاصمة الفاطميين رقادة بها مرتزقة كان يطلق على أحدهم الحاشد وجمعها حشاد، وكان هؤلاء من السودان، يمكن أن نقول بأن مهمتهم من خلال التسمية تعني الحشد الجماعي للناس إما إلى المحرس أو الولاية والأئمة، وبخاصة في أوقات الثورات والقتال والفتن، فقد قال أبو رزين الأسود الجمونسي: " حشدي حاشد السودان قديما إلى رقادة فبذل أهل البلد للحاشد دينارين ليتركني فأبى بكل حيلة، فأخذني ومضى بي إلى رقادة، وأبو معلوم الكتامي يسمي الناس المحشودين، فلما قربت منه نظر إلي وقال: من أمركم أن تجيئوا هذا وهو لا يعرفني، وقال جيئوا دواة وقرطاسا وكتب يا معشر الحشاد لا تعرضوا لأبي رزين في أي البلاد كان، وأطلقني وأمر بالحاشد أن يعلق ويضرب" (47).

ويشير القاضي النعمان إلى خطة الحاشد، حينما تحدث عن زيادة الله حينما أظهر الخروج إلى أبي عبيد الله قائلا: " أظهر الخروج بنفسه إلى أبي عبد الله وتقدم في الاستعداد لآلات الحرب وشد السلاح... وأخرج الحشاد إلى الأمصار والأجناد" (48).

ويبدو أن السياسة القاسية التي كان يعامل بها سكان البلاد بالحشد الجماعي، وإلقاء القبض على الناس واقتيادهم إلى السلطان، دفع ببعض الحشاد التعاطف مع المحشودين بإطلاق سراحهم، وتبرير ذلك باختلاق أكاذيب وأساطير، قد تكون من جنس ما كان يزعم به دعاة الدولة الفاطمية من ذكر الخوارق والكرامات التي كانوا يدعمون بها دعوتهم لتحقيق طموحاتهم السياسية، وبثها في أوساط العامة، قصد بث روح الاستسلام للأمر الواقع، فقد قام أحد الحشاد الصقلية بإطلاق سراح المحشودين، وحينما وصل إلى المهدي سأل السلطان أين الحشد فقال: " حشدت خلقا عظيما، فلما قربت من مرسى الحامة خرج منها شيخ وبه حربة قد انتهت إلى السماء، فصاح صيحة وأشار بها، فما جمع الله منا واحدا وافترق الحشد" (49).

إن ما جاء في النص الذي ورد في كتاب رياض النفوس يعطي صورة عن هذه الخطة التي كان يشغلها رجال من السودان والصقالبة، ويبدو أن مهمتهم كانت حشد كل من يشكون في أمره دون أن توجه لهم الأوامر من قبل مسئوليتهم، قد تشبه القوات الخاصة حالياً، وكنت هذه الخطة تابعة للسلطان مباشرة، وتصرفاتهم، إضافة إلى الفساد الذي كان يستشري في جسم هذا الجهاز بعرض الرشوة على الحاشد ولكنه أبي، ربما لم يرض بالدينارين التي عرضت عليه مقابل إطلاق سراح أبي رزين، إضافة إلى ذلك بأنهم كانوا معرضين للعقوبة على تصرفاتهم وأخطائهم تجاه من كانوا يسموهم بالمحشودين.

7-الدوارة:

وقد وردت إشارة واحدة تبين وجود نوع آخر من يسهرون على أمن الدولة الفاطمية، وقد تكون خطة تابعة للشرطة أي صاحب المحرس أو تكون تابعة مباشرة للأمرير أو الوالي، تقوم بالدوريات الخاطفة، بوضع حواجز للمراقبة، قصد تفتيش المارة بهدف إلقاء القبض على المشتبه بهم، وبخاصة أولئك الذي جهروا بمعارضتهم لنظام الدولة الفاطمية فقد ذكر بأن أبا القاسم الفزاري الشاعر هجا بني عبيد بقصيدة مطلعها⁽⁵⁰⁾:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم	نالوا بهم سبب النجاة عموماً
وتمكن الشيطان من خطواتهم	فأراهم عوج الضلال قوياً
رغبوا عن الصديق والفاروق في	أحكامهم لا سلموا تسليم
واستبدلوا بها ابن أسود نابجا	وأبا قدارة واللعين تقيماً

فلما فرغ من إنشاده قال له أبو إسحاق أخبرني ما أردت بهذه القصيدة؟ فقال له، أردت بها الله عز وجل، فقال: اللهم أحبه واكفه وعافه، فخرج من عنده وجاز بأبي القاسم الفزاري، فقال له الفزاري الدوارة يبحثون عنك فخاف سهل⁽⁵¹⁾.

8-المراصدة:

رصد: المرصد: موضع الرصد. [والرصد] هم القوم الذين يرصدون كالحرس⁽⁵²⁾، وجاء في لسان العرب: وَجَمَاعَةٌ مِثْلُ الرِّصْدِ وَالْأَرْصَادِ، وَالرِّصْدُ يَكُونُ لَجَمَاعَةٍ؛ وَقَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ فِي التَّفْسِيرِ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ عَوْنًا فَلِذَلِكَ وَحَدَّ⁽⁵³⁾، وجاء في المغرب: (وَالرَّصْدَةُ) وَالْمُتَعَلِّمِينَ هِيَ جَمْعُ رَاصِدٍ وَهُوَ

الَّذِي يَقْعُدُ بِالْمُرْصَادِ لِلْحِرَاسَةِ وَهَذَا قِيَاسٌ وَإِنَّمَا الْمَسْمُوعُ الرَّصْدُ وَنَظِيرُهُ الْحَرَسُ وَالْخَدْمُ فِي حَارِسٍ (54).

وردت عبارة على قلتها تشير إلى وجود خطة لها علاقة بالشرطة والأمن وهي المراقبة، أي الدين يوجدون بالمراصد على الطرق المؤدية إلى النواحي والأمصار أو بالأحرى طرق القوافل التجارية، فكان يوجد على تلك الطرق مراكز للمراقبة والرصد حتى تصل الأخبار للجهات المختصة للتدخل في حالات الخطر سواء كان داخليا أو خارجيا فقد ورد في سيرة جودر: " وكتب رقعة فيها أمر طريق السفر وغيرها من المراكز هناك، وأن كثيرا من رجال الدولة ليست بأيديهم سجلات... وأنه يتخوف ما يقع بينهم وبين العبيد المرصدين من الاختلاف" (55).

يستخلص من النص السابق أن خطة الرصد كان يتولاها العبيد من السودان أو الصقالبة، وكان هؤلاء بمثابة شرطة المرور تراقب وتتصدى للمتعرضين للمارة من القوافل على السبل والطرق، ويظهر أن هذه السبل كانت مزودة بآماكن يجلس فيها المراقبة، وبخاصة في المناطق المرتفعة لمعرفة ما يجري وما يقع، وهي بمثابة الشرطة المدنية التي تشرف على تأمين الطرق والسبل من قطاع الطرق واللصوص.

9- صاحب الخبر:

إن صاحب الخبر من الوظائف التي ورد ذكرها في كثير من النصوص التي تعود إلى العصر الفاطمي، ويفهم منها أن صاحب هذه الوظيفة كان مكلفا بنقل الأخبار إلى الإمام أو من ينوب عنه، وبخاصة تلك الأخبار التي تمس بالأمن العام ويخشى منها على مصالح الدولة.

وكان الفاطميون ببلاد المغرب يتخذون العيون وأصحاب الأخبار لجمع المعلومات عن المتابعين من قبل الجهات السياسية، من أجل معرفة كل التفاصيل والدقائق المتعلقة بهم، ومعرفة في حلهم وترحالهم، وكان لهذه الخطة أهمية كبرى في تثبيت دعائم الدولة الفاطمية، والحفاظ على حياة الأئمة الفاطميين، بالكشف عن المناوئين لهم والمخالفين لمذهبهم.

ولم يكتف حكام الدولة الفاطمية بالاعتماد على ديوان البريد في جمع الأخبار، وإنما اعتمدوا على أشخاص خارج البريد للقيام بالمهام الموكلة لهم، كما كان لخطة صاحب الخبر دور مهم في مراقبة قبائل البربر الثائرة عليهم والخارجة

عن طاعتهم، وكان لعيون الفاطميين دور في نشر الدعوة الإسماعيلية في الخارج كمصر والأندلس ومعرفة أخبارها، رغبة في تحقيق توسعاتهم السياسية مستقبلاً.

لقد ذكر الخشني، **بأن** الفقيه أحمد بن موسى التمار وأخوه دارت عليهما الدائرة بقوله: " دارت على أحمد بن موسى وعلى أخيه دائرة من مغرم فادح، ثم من بعد ذلك دارت عليه في أخيه محمد دائرة عظيمة، وذلك أن أخاه محمد بن موسى، دخل في جماعة رجال القيروان على عبيد الله في سلام عيد، فاندفع: يصف سوء حال الرعية، وما نزل بهم: من ظلم العمال، فوقع ذلك من عبيد الله موقع الكراهية، واتصل ذلك بمن أسماه - : من أهل القيروان - فعقدوا عليه شهادة عند صاحب الخبر ورفعها - : على يد محمد البغدادى، - إلى عبيد الله، فأمر بضربه مائتي سوط، فضرب ضرباً معنيا فمات رحمه الله "(56).

نقرأ من خلال هذا النص **بأن** صاحب الخبر على عهد الدولة الفاطمية لم تكن مهمته جمع الأخبار، وتبليغها إلى الإمام، وإنما التورط في العمل على توجيه التهم للمعارضين، أو الذين يتهمون عمال الدولة بالظلم، والبحث عن شهود الزور قصد القضاء على كل من تسول له نفسه تجاوز ما يريده إمام الدولة، وأن الأئمة لم يكن يعجبهم من يصدق **بالحق** ويكشف جور وظلم العمال، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى التسلط والاستبداد الذي كانت تعانيه الرعية في بلاد المغرب على عهد الفاطميين، وكانوا يستخدمون القوة المفرطة في إسكات المعارضة، إضافة إلى ذلك نستنتج **بأن** خطة صاحب الخبر كان صاحبها على اتصال مباشر مع أئمة الفاطميين، أو مع رجال مخلصين للدولة لهم قرب منهم أمثال محمد البغدادى.

ولقد كان صاحب الخبر من الأشخاص المقربين من الخليفة وموضع ثقته، لأهمية المنصب الذي يتطلب الصدق فيما ينقله من أخبار، فهي خطة تحتاج إلى قدر كبير من الأمانة والدقة ممن يتولاها، وعلى قدر كبير من العلم، فقد ذكر القاضي النعمان بن محمد الذي عمل في خدمة الإمامين المهدي والقائم إذ يقول: " وخدمت المهدي **بأن** الله من آخر عمره تسع سنين وشهوراً وأياماً، والإمام القائم **بأن** الله من بعده أيام حياته في إهداء أخبار الحضرة إليهما في كل يوم طول تلك المدة إلى أقل الأيام "(57).

وتظهر أهمية صاحب الخبر على عهد الفاطميين، عندما استدعى المعز لدين الله يوسف بن زيري الصنهاجي ليعرض عليه إسناد ولاية المغرب إليه قبل رحيله إلى مصر، وبعد إعلان زيري موافقته قال له: " بشرطه تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره، والخبر لمن تثق به وتجعلني أنا قائما بين أيديهم، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب، ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين ذلك." (58).

ويبدو أن عيون وأصحاب الأخبار أيام الفاطميين كان لها انتشار واسع في الداخل والخارج، يخفون أنفسهم ويتجسسون على الناس، وبخاصة على ذوي الشأن من وجهاء القبائل والعلماء وعلية القوم، لأنهم هم في الغالب الذين يحركون العامة ضد العمال والأئمة، فقد ورد في سيرة جودر بأنه بلغه الخبر بأنه كان يوجد بالمسيلة رجل يدعى عثمان بن أمين، كان يكتاب بني أمية وأنهم يرعون دماهم هناك

ويقضون حوائجه، وأنه يقدر في الدولة، ولم يكن العامل جعفر بن علي أخذ على يده ولا حجزه عن أمر يوجب الإشارة إليه بذلك (59).

إن الأوضاع السياسية المعقدة التي شهدتها بلاد المغرب أيام الفاطميين دفعهم إلى توخي الصرامة في تنظيم الأمن، حتى اضطر الخليفة الفاطمي الأول إلى إنشاء مصلحة خاصة بالبحث والتحري تعرف بديوان الكشف فقد ذكر صاحب البيان المغرب أنه: "وفي سنة 298هـ، تجول أبو عبد الله الشيعي في بلاد البربر وحارب صدينة وزانة. وقتل الرجال، وأخذ الأموال وسبى الذرية وأحرق بعض المدن بالنار، وكتب بالفتوحات إلى عبيد الله، فقرأت كتبه على الناس، وفيها ولي أبو جعفر البغدادى ديوان الكشف، مشتركاً مع عمران بن أبي خالد بن أبي سلام" (60).

ورغم أن المصادر لا تذكر مهام ديوان الكشف لكن من الممكن أن يكون له علاقة بصاحب الخبر، فهي بمثابة مؤسسة تتلقى الأخبار من المخبرين في جميع أصقاع الدولة خيرها وشرها، ويشرع في التحري عنها وإعلام الجهات المختصة والدرجة الأولى الإمام لاتخاذ الإجراءات اللازمة للمواجهة، إذا كان الأمر يتعلق بالفتن والثورات، أو المتابعة والاعتقال إذا كان الأمر يتعلق بأشخاص يحرضون ضد الدولة أو يقدرحون في المذهب الإسماعيلي.

من المعتقد أن صاحب الخبر يحتاج إلى أعوان ومساعدين حتى يتمكن من أداء وظيفته على الوجه الأكمل، فليس من المعقول أن يتولى نقل الأخبار إلى الإمام أو الخليفة شخص واحد، فلا بد من وجود جهاز من أصحاب الأخبار المنتشرين في كل مكان داخل الدولة وخارجها، وأنهم كانوا يملكون وسائل اتصال سريعة لنقل الأخبار في حينها، فقد ذكر المقرئ ذلك أيام الحاكم في مصر بقوله: "ويقال أن كان عقيل صاحب الخبر يحمل الرقاع بالخبر إلى القائد غبن ليوصلها إلى الحاكم وهي محتومة" (61).

إن خطة صاحب الخبر، من أهم الخطط التي أسهمت في ضبط الأمن، من خلال نقل الأخبار في حينها، وما من شك بأن للمعلومات والأخبار دور بارز وأساسي في اتخاذ القرارات المناسبة، والتأهب بحشد كل الوسائل للتصدي للخطر سواء كان الأمر يتعلق بالتحديات الداخلية كالفتن والثورات التي تنتفض ضد الدولة، أو تلك التحديات الخارجية التي تهدد أمن الدولة بشكل عام. أما فيما يخص العلاقة التي تربط تلك التنظيمات الأمنية فيما بينها، فإن النصوص التي وردت في المصادر لا تفصل فيها، ولم يكن القصد ذكرها هي بذاتها إنما جاءت على شكل إشارات مقتضبة في سياق العرض التاريخي للأحداث والتوقعات التي كان يصدرها الخلفاء أو نوابهم، ولذلك فالصورة لا تتضح عن علاقتها بعضها ببعض، ولكن حتى وإن كانت تتميز بالاستقلالية، تبقى لها صلة قوية فيما بينها من حيث الصلاحيات والمهام، فهي تشترك كلها فيما يتصل بالعمل الشرطي والأمني.

خاتمة: من خلال هذه الدراسة المتعلقة بالجانب الأمني في الدولة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي تقدم لنا صورة عن معالم التنظيمات الأمنية التي استحدثتها الدولة قصد بسط الأمن وفرض الاستقرار، وكذا فرض المذهب الجديد (التشيع) بالقوة، ويتجلى ذلك فيما يلي:

- 1- تنوع وتعدد للتنظيمات الأمنية في الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بداية من الشرطة والحرس، والعسس، الدوارة، المرصد، البوابون، صاحب الخبر.
- 2- أن تلك التنظيمات وإن كانت تختلف في مهامها، وكل واحدة كانت مختصة في جانب من جوانب الأمن الداخلي إلا أنها تشترك فيما بينها وبأنها خطط تعمل على ضبط النظام العام، ومواجهة الأخطار الداخلية، كالفتن والقلاقل والثورات.

- 3- تتم هذه التنظيمات على طبيعة الحكم الذي كان يقوم على الجانب الأمني فقط لفرض المذهب بالقوة وغياب الطرق السلمية كالإقناع والمناظرات.
 - 4- أن الوضع الأمني في الدولة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي لم يكن على ما يرام، لانتشار الفوضى والاضطرابات.
 - 5- تعرض المعارضين للمذهب الشيعي 01 من العلماء للمضايقات والتنكيل والسجن تنفذها تلك التنظيمات.
- وعلى أية حال فإن كثرة التنظيمات الأمنية تكشف عن طبيعة الحكم الذي كان يفرض نفسه بالقوة والجبروت، ولذلك كان الحكام يعيشون في قلق وذعر لعلمهم بالرفض الذي كان سكان المغرب لهم ولعقيدتهم، وذلك ربما يكون أحد الأسباب التي دفعت بالمعز لدين الله الفاطمي للتوجه نحو المشرق.

الهوامش:

- 1- الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسني، د ت، ص33.
- 2- اختطها المنصور الفاطمي سنة 336 هـ / 948 م. ينظر ابن حوقل، أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، د ت، ص74.
- 3- محمد الصالح مرمول، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص9.
- 4- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان ليفي بروفنسال، بيروت، ج 1، ص152.
- 5- ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة العلامة ابن خلدون دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1424هـ/ 2003 م، ص 216.
- 6- نفسه، ص216.
- 7- نفسه، ص 216.
- 8- نفسه، ص 216.
- 9- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 1، ص617.
- 10- نفسه ص617.
- 11- الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 2، ص135-136-137. فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص618.

- 12- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 181.
- 13- نفس المصدر، ج 1، ص 187.
- 14- الهادي روجي 'دريس، المرجع السابق، ج 2، ص 136.
- 15- الجوزري: أبو علي منصور العزيمي، سيرة الأستاذ جودر، تحقيق، محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيري، دار الفكر العربي، لبنان ومطبعة الاعتماد بمصر، د ت، د ط، ص 114.
- 16- الجوزري، المصدر السابق، ص 114.
- 17- المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1983/1403م، ج 2، ص 138.
- 18- نفس المصدر، ج 2، ص 363.
- 19- الفلفشندي، المصدر السابق، ج 1، ص 450.
- 20- الجوزري، المصدر السابق، ص 114.
- 21- نفسه، ص 114.
- 22- نفسه، ص 114.
- 23- نفسه، ص 114.
- 24- نفسه، ص 114.
- 25- نفس المصدر، ص 115.
- 26- القاضي النعمان بن محمد، الخالس والمسائرات، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شتوح ومحمد اليعلاوي دار المنتظر، بيروت، لبنان 1996، ط 1، ص 396.
- 27- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع تونس، وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1986، ط 2، ص 247.
- 28- ابن سهل أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي الجبائي، ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق ريشيد النعيمي، شركة الصفحات الذهبية المحدودة، الرياض، 1417 هـ، ج 1، ص 90.
- 29- الجوزري، المصدر السابق، ص 99، 123.
- 30- نفسه، ص 99، 123.
- 31- الخشني أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني الأندلسي، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، صححه وراجع أصله السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج 1، ص 300.
- 32- نفسه، ج 1، ص 300.
- 33- المالكي، المصدر السابق، ج 2، ص 38.
- 34- نفسه، ج 2، ص 38.
- 35- نفس المصدر، ج 2، ص 103.
- 36- نفس المصدر، ج 2، ص 427.

- 37- نفسه، ج 2، ص 427.
- 38- الديباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد الأحدي أبو النور، مكتبة الخاوي بمصر، ج 1، ص 37.
- 39- المالكي، المصدر السابق، ج 2، ص 332.
- 40- نفس المصدر، ج 2، ص 488.
- 41- نفسه، ج 2، ص 488.
- 42- نفس المصدر، ج 1، ص 335.
- 43- الحشني، المصدر السابق، ج 1، ص 214.
- 44- نفس المصدر، ج 1، ص 106.
- 45- نفسه، ج 1، ص 106.
- 46- المالكي، المصدر السابق، ج 2، ص 429.
- 47- نفس المصدر، ج 2، ص 368.
- 48- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة المصدر السابق، ص 199.
- 49- المالكي، المصدر السابق، ج 2، ص 382.
- 50- نفس المصدر، ج 2، ص 494.
- 51- نفس المصدر، ج 2، ص 498.
- 52- الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري، كتاب العين، تحقيق مهدي الخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، د ت، ج 7، ص 96.
- 53- ابن منظور: المصدر السابق، ج 3، ص 263.
- 54- هان الدين الخوارزمي، ناصر بن عبد السيد أبي المكارم ابن علي، أبو الفتح، المغرب في ترتيب المغرب، دار الكتاب العربي، د ت، د ط، ج 1، ص 189.
- 55- الجوزي، المصدر السابق، ص 110.
- 56- الحشني، المصدر السابق، ج 1، ص 301.
- 57- القاضي النعمان، السلس والمسائر، المصدر السابق، ص 79.
- 58- المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، انعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد الشيبان ومحمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، د ت، ط 1، ج 1، ص 99.
- 59- الجوزي، المصدر السابق، ص 123.
- 60- ابن عداري المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 162.
- 61- المقرئ، انعاظ الحنفاء، المصدر السابق، ج 2، ص 102.

الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني وإنتاجه الفكري

(988-1073هـ/1580-1663م)

الأستاذ بوخلوة حسين، جامعة تيارت/ طالب دكتوراه جامعة وهران 1

إشراف: الأستاذ الدكتور الحمدي أحمد، جامعة أدرار

ملخص البحث:

يتناول البحث دراسة لجوانب مختصرة لحياة الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني المولود سنة 988هـ/1588م والمتوفي سنة 1073هـ/1663م. كان عبد الكريم صوفيا عالما عاملا اعتمد على نفسه وعائلته في تكوين نفسه ونبوغه في مختلف العلوم الدينية ولعل ما يثير الانتباه علاقته الحسنة مع كثير من العلماء المعروفين منهم أبي سالم العياشي وعيسى الثعالبي وأحمد المقرئ ومفتي الجزائر سعيد قدورة وغيرهم، اهتم الفكون بالتدريس حيث تخرج عليه الكثير من المشايخ المشهورين والمغمورين أيضا كما اهتم بالتأليف في العلوم الدينية وعلوم اللغة، كما يلاحظ على الفكون اهتمامه بقضايا عصره خاصة الجانب الاجتماعي .

الكلمات المفتاحية: منشور الهداية، قسنطينة، محدد السنن، فتح الهادي في شرح المحرادي، ركب الحج، محمد الفكون، انحرافات التصوف.

The brief :

this research deals with a brief study of a chort biography of the scholar cheikh abed elkrim alfakoune who was born in 1588 [988 higris] in constantine and who died in 1663 [1073 higris] .

This research talks also about his intellectual publications about arabic language and islamic sciences.

Elfakoun was interested also in teaching as a result many famous and brilliant scholars were graduted and were taught by elfakoun.

تمهيد:

شهدت الحياة الفكرية في الجزائر خلال العهد العثماني رواجاً ونشاطاً كبيرين في مختلف أنحاء البلد وذلك لما تمتعت به من حالة الهدوء والاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وتشجيع الحكام للحركة الفكرية وعدم محاربتها أو محاولة إعاقتها. فأصبح الجزائري لا يعاني من الأمية مثل ما كان يعاني منه الأوروبي مثلاً.

تميزت السياسة العثمانية التعليمية بإعطاء هامش كبير من الحرية للجزائريين فبنو المدارس وأسسوا الزوايا وجالوا في الأنحاء، داخل البلد وخارجها يتعلمون ويعلمون، وقد اهتم السلاطين بالناحية الفكرية فقربوا العلماء ومنحهم مختلف المزايا وشجعوهم على التأليف فظهرت أسماء من العيار الثقيل ساهمت في ديناميكية الحركة الفكرية في الجزائر. ومن هؤلاء الشيخ العلامة الفقيه عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القسنطيني. الذي اشتهرت ترجمته في المصادر خاصة ببلاد المغرب الإسلامي ونعتقد أن ذلك راجع لمكانته العلمية وهذا البحث يسلط الضوء على هذا العلم وجهوده الفكرية.

* /التعريف بالشيخ عبد الكريم الفكون:

1-نشأته: هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحيى الفكون التميمي من قبائل تميم العربية ولد عام 988هـ/1580م بقسنطينة وهو اليوم الذي مات فيه جده عبد الكريم أما والده فهو أبو عبد الله محمد خطيب الجامع الأعظم كان فقيهاً صوفياً توفي بعد رجوعه من الحج في أواخر محرم عام 1045هـ في قرية المويلح بمصر.¹

وأما أمه فهي عربية وزائدة على ذلك فهي شريفة النسب فقد ذكر الفكون في منشور الهداية فتنة وقعت بقسنطينة وذكر أن جده لأمه، وكان مزوار الشرفاء إذ ذاك، وقد ذكر أن اسمه أبي عبد الله محمد قاسم الشريف وعده من الذين تعاطوا المنصب الشرعي لادعائهم العلم.²

ولم يذكر لنا الفكون إلا القليل النادر حول حياته الشخصية، رغم ذلك فقد ترجم له كثير من المؤرخين منهم أبي سالم العياشي المتوفي سنة 1090 هـ / 1679 م حيث يقول: ومن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك سيدي محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بم محمد بن عبد الكريم القسطنطيني وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الخميس السابع والعشرين من ذي الحجة سنة 1073 هـ، شهيدا بالطاعون الذي حل بقسطنطينة وكانت لنا به رضي الله عنه وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه سنة 1064 هـ. وقد قال رضي الله عنه لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط في سلك أهل خدمته، إني أقول لك كما قال الشاذلي، لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينا من الرحمة، وكان رحمه الله في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علوم أهل الرسوم بعدما كان إماما في ذلك يقتدى به، حيث تركها وكان يقول: قرأها الله وتركها الله.³

2- ثقافته:

العوامل المؤثرة في ثقافة الفكون: نشأ الشيخ الفكون في حضن والده بعدما توفي جده كما أسلفنا وقد بدأ رحلة طلب العلم بحفظ القرآن الكريم الذي كان قاعدة التعلم في المغرب الإسلامي في هذه الفترة، وقد ذكر الفكون عند حديثه عن أبي العباس أحمد بن ثلجون أنه قرأ عن خاله أبي القاسم بن عيسى الملقب بثلجون وهو من قبائل زواوة⁴ وغير ذلك يبدو أن الفكون قد نشأ نشأة عصبية في تعليمه منذ صغره فلا نعلم أنه ذهب إلى أي وجهة لطلب العلم غير قسطنطينة، ذلك أنه في عهده قلت الرحلات العلمية بين مدينتي قسطنطينة وتونس وتوطد الانفصال السياسي بينهما وتقلصت إلى حد كبير المبادلات التجارية والزيارات وغيرها، ولا نعلم أن الفكون رحل إلى الشرق طلبا للعلم في صغره، أما في كبره فقد كان يتوجه إلى المشرق أميرا لركب الحاج لا كطالب، ورغم أننا نجد يفكر في الهجرة إلى الحجاز وهو يافع، إذ كان متبرما من أحوال بلده وأهلها ولكنه عدل عن ذلك ورضي بالإقامة في وطنه مستندا إلى حديث شريف جعله يعتقد أن أهون الشر هو عدم الهجرة إذ قد يكون البلد الذي يهاجر إليه أكثر سوءا من البلد الذي هاجر منه.⁵

أ- وجود العلماء: رغم تبرم الفكون من عصره ونعيه العلم والعلماء إلا أن الحياة العلمية كانت موجودة فقد ذكر الفكون مجموعة من العلماء قريبي العهد من الفترة التي عاش فيها، منهم الشيخ أبي حفص عمر الوزان والذي بدأ الفكون بذكر ترجمته في كتابه منشور الهداية وقد وصفه بأنه شيخ الزمان وياقوتة العصر والأوان العالم العارف بالله الرباني توفي عام 965هـ.⁶

وقد ذكر الفكون في مؤلفه علماء آخرين منهم محمد الكماد ومحمد العطار وأحمد الغربي وجده ووالد جده عبد الكريم ويحيى، وعمه قاسم الفكون، وعبد اللطيف المسبح وحيدة بن باديس ومحمد التواتي وغيرهم من المشايخ الذين أسهموا في الحياة العلمية سواء بالتأليف أو التدريس.⁷

ب- وجود المصادر العلمية: لقد كانت الكتب مصدرا من مصادر التعليم فعند مطالعنا للفتاوى والنوازل ومختلف القضايا الفقهية فإننا نجد أسماء كثيرة من التأليف في العلوم الشرعية خاصة علم الفقه المالكي، منها كتاب المدونة لسحنون والحاوي في الفتاوى للبرزلي، ومختصر خليل ومختصر ابن الحاجب في الفقه والدرر المكنونة في نوازل مازونة ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وعقائد السنوسي وكتاب الشفاء للقاضي عيى ودلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي وكتاب التوضيح لخليل، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني والحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، والقدسية للأخضري، والمدخل لابن الحاج، وتأسيس القواعد والأصول لزروق وفتاوى العقباني وميعار الونشريسي وغيرها.⁸

ج - شيوخه: قرأ الفكون على الشيخ التواتي، المرادي سنة 1031هـ مرارا وشرح ألفية بن مالك وعقائد السنوسي بشروحها، وابن الحاجب بمطالعة التوضيح عليه والتذكرة للقرطبي وكتاب مسلم بن الحجاج بمطالعة الأبي كما قرأ عليه مباحث في الإعراب للسيوطي.⁹

قرأ أيضا بعض مسائل الإسطرلاب وبعض من الفرائض على محمد الفاسي الذي قدم من فاس ونزل بمدرسة الفكون وذكر أنه ناقشه فرأى منه قصورا سوى ضوابط معه فقد فتح عليه السنوسي شارح "زمام الرائد في علم الفرائض" للحوفي فلم يجد لهذا الشيخ معرفة في معاني الألفاظ ولا بالصناعة

الكسورية فأطبق الكتاب لما تيقن من عجزه وطالعه وحده ففتح الله في عمل الفريضة بالطريقة الكسرية.¹⁰

كما قرأ على الشيخ أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي من بلدة نقاوس وقد انتقل سليمان إلى قسطنطينة حيث درس على الفكون الجد ثم قصد الحجاز لكنه توقف في مصر حيث قرأ على عالمها سالم السنهوري المختصر والرسالة وألفية العراقي ثم رجع إلى قسطنطينة حيث قرأ عليه الفكون شرح صغرى السنوسي وقطر الندى والأجرومية بشرح جبريل وبعض أوائل الألفية¹¹ كما قرأ على أبو عبد الله محمد بن راشد الزواوي الذي ذكرناه سابقاً وقرأ على أبي فارس النفاقي، الذي قرأ بتونس على الشيخ الشريف النجار.¹²

هذه هي العوامل التي صاغت شخصية الفكون العلمية وكان لا بد أن يبلغ العلم الذي حازه، خاصة وهو يرى أن الجهل قد انتشر وأن أدعياء العلم كثر، وأن العلماء العاملين قد قلوا وخفت أصواتهم وقد قرر الفكون هذه الحالة خاصة في كتابه "محمد السنان في نحر إخوان الدخان".

د-تلاميذه:

مارس الفكون التدريس في مسجد المدينة وزاوية آل الفكون التي كانت من بين الزوايا التي تستقبل طلبة العلم فالزاوية بها إقامة للطلبة وقد استقر بها محمد بن راشد الزواوي وربما استقبل الشيخ ببيته سواء بغرض الزيارة أو طلب العلم.¹³

ولم يكن الفكون يأخذ أجراً على التعليم بل كان هو الذي يتكفل بالنفقة على طلبة العلم فقد ذكر ثلاث من طلبة العلم منهم اثنان من جبل زواوة، فقال: وقصد بذلك صاحبنا أبو العباس تخفيف المؤونة على عامله الله بالحسن، فأجريت لهم ثلاثتهم المؤونة.¹⁴

وقد تخرج على يد الفكون من العلماء الكبار لعل من أشهرهم أبي مهدي عيسى الثعالبي من موطنه الثعالبة توفي عام 1080هـ تلقى العلم بمسقط رأسه ثم رحل إلى الجزائر وقد تتلمذ على سعيد قدورة وعلى عبد الواحد الأنصاري السجلماس¹⁵ لكن بعض الأحداث أهمها وفاة الشيخ الأنصاري

بالباعون عام 1057هـ وثورة ابن الصخري في الشرق الجزائري والثورة ضد الباشا يوسف الذي كان مقرباً للثعالبي التي انتهت برمي الباشا في السجن، جعل الثعالبي خائفاً على نفسه فتوجه إلى قسنطينة وإن لم يطل مقامه بها لعدم استقرارها ولا شك أنه قد اتصل بها بالشيخ عبد الكريم الفكون وروى عنه الحديث ونحوه ولكنه لم يلبث أن غادر قسنطينة وقد ظل منتقلاً بين قسنطينة وزواوة وبسكرة إلى أن غادر الجزائر سنة 1061هـ قاصداً الحج.¹⁶

أبي سالم العياشي: لم يذكر العياشي ما قرأه عليه وإن كان قد لخص أهم ما أطلع عليه من مؤلفات الفكون، منها "محدد السنن في محور إخوان الدخان" والديوان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر أنه قرأ عليه بعض كتاب الموطأ لمالك، والصحيحين والسنن الأربعة وطرفاً من الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي والشفاء للقاضي عياض وبعض من ربايعات ابن أبي عوانة ومن نظم أصول السلمي لزروق وغنيمه الوافد لعبد الرحمن الثعالبي كما أخذ منه التصوف حيث قال: كانت لنا به رضي الله عنه وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه سنة 1064هـ، إذ قال لي رضي الله عنه لما طلبت منه الاتصال بحضورته والانخراط في سلك أهل خدمته، أقول لك كما قال الشاذلي، لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينا من الرحمة.¹⁷

كما قرأ عليه يحيى الشاوي من أهل مليانة وقد أجازته الفكون وغيره من فطاحل علماء العصر¹⁸. ومنهم بركات بن باديس القسنطيني، حيث ذكر أستاذه الفكون في تقييده "نزع الجلباب" كما ذكر له جواب عن لغز السيوطي في إحدى مسائل النحو¹⁹ ومنهم أبي عبد الله محمد البوزيدي، سأله عن بعض مسائل الفقه فكان يقيد له أجوبتها.²⁰

ومنهم الشيخ مخلوف قرأ عليه النحو ثم ترك العلم وراح يأخذ ويشغل بالتصوف العملي. ومنهم محمد الهاروني أصله من زاوية أولاد هارون بمتيجة وطن من عمالة الجزائر، قدم إلى قسنطينة عام 1022هـ، حيث وجد الفكون في حال بناء داره الجديدة. ومنهم أبو عبد الله البهلولي وأبو القاسم بن يحيى من جبل زواوة قرأ المرادي على الألفية ففتح الله في تلك القراءة بأبحاث ووارد أفكار ما أعجب الجميع نظراً واستدللاً، فلما حصل الختم في التأليف طلبوا القراءة في غيره فمنعهم الشيخ من ذلك. وحدث عن أبي عبد الله أنه أصبح له أتباع وتلامذة وحق له ذلك، ملل له من قوة الفطنة

وقبول البحث وواسع العارضة وفصاحة اللسان. ومنهم عاشور القسنطيني، كان يحضر الإقراء على الألفية وربما يسأل المرة فكان الشيخ لا يرد له الجواب لبلاذته، فكان دائما يستشكل المسائل نحو وفقها وكلاما يأتي إلى الشيخ به مرة ببطاقة ومرة بالكتاب نفسه، ومرة مشافهة وقد رحل إلى تونس.²¹

أبو عمران موسى الفكيرين والد السابق أقرأ على التواتي وبد وفاته انتقل هو وجمع من الطلبة للقراءة على الفكون فدرس عليه المرادي في النحو ثم انقطع عنه لخلاف بينهما²²

علي بن عثمان الشريف من قبيلة بني تبرون بزواوة، وجده مريضا مرضا أعى الأطباء عام 1028هـ فلأزمه وقرأ عليه المكودي والمرادي فاصرف من عنده وهو نجيب في العربية بعدما كانت ملكته ضعيفة فيها فأجازه، وبلغه أنه أصبح صاحب درس عظيم وغنى، وكان يطعم الطلبة من عنده.²³

أحمد بن سيدي عمار خطيب الجامع الأعظم بالجزائر قرأ على الشيخ بعد وفاة الشيخ التواتي، ومنهم أيضا أحمد بن ثلجون، كان فطنا ليبيا أربيا ذا عقل وزى حسن رجع رجوع حسنا في شيبته، قرأ على الشيخ ابن الحاجب وعلم الكلام، والرسالة والمرادي وغيره، وصحيح البخاري، وكان مجالسا مؤانسا نعم المجلس ونعم الأنيس مع رزانة وعدم طيش طلق اللسان فصيح الكلام ذا خط حسن ورونق وهاء، كان يؤانسه في أيام مرضه ويحادثه ليخفف عنه مرضه ويصاحبه إلى المسجد الأعظم وقد توفي بالطاعون عام 1031هـ.²⁴

محمد البوقلمامي، كان ذا عقل جيد وفكر رصين بطيء الفهم ثقة فيما يفهمه صالح الحال، يحب الطلبة ويواسيهم بماله كان ملازما للقراءة على الشيخ جاد لا يعرف الهزل، ناطق بالحق توفي جاء الطاعون المذكور، ومنهم أيضا أبو عبد الله محمد بن باديس، كان يقرأ على الشيخ التواتي وبعد ارتحاله استقر للقراءة على الفكون وهو من موثقي البلدة ممن يشار إليه.²⁵ محمد الفكيرين أخوا عاشور الفكيرين، كان صغيرا مجتهدا.²⁶

علي بن داود الصنهاجي، تقلد منصب الفتوى بقسنطينة، قرأ على سالم السنهوري ويذكر أنه أجازه، وقرأ على الفكون تأليف في النحو كقطر الندى ونحوه.²⁷

أحمد الميلي: وهو ممن تعاطى خطة الشهادة، قرأ على التواتي والفكون الجد ومحمد بن الحسن كان إذا رأته حسبته فطنا وإذا باحثته تجده بليدا، يحفظ مسائل غراب ومشكلات صعبا ليقطع بها من يريد معارضته حتى سماه التواتي "كبيش النطاح" درس على الفكون المرادي وربما ساعده في حل إشكالات تطرح عليه أثناء قراءته كتب الحديث.²⁸

هذا فيما يتعلق بالتعريف بالفكون وتعليمه ونشاطه التعليمي في مدينة قسنطينة إذ يتبين لنا أنه كان عالما نشيطا متمكنا ساهم في نشر العلم في موطنه وغيره. ومنتقل للحديث على الإنتاج الفكري للفكون.

** / الإنتاج الفكري للفكون:

على الرغم من أن مؤلفاته كانت قليلة إلا أنها كانت ذات أهمية قصوى في إعطاء معلومات إضافية حول مختلف جوانب الحياة في قسنطينة خلال العهد العثماني ومن تأليفه نذكر:

أولا- في النحو واللغة: برع الفكون في علوم النحو واللغة، ويذكر سبب تعلقه بالنحو إذ يقول أنه رأى جده في المنام مرتين أو أكثر، وفي إحداها رأى أنه بالمدرسة التي دفن فيها ذاهبا إلى الصلاة فيها، وكأن الجد يخاطبه من قبره قائلا اقرأ، وتاوله قرطاسا مكتوبا فيه بالأصفر قال فعل ماضي، فاشتعل الفكون بعلم النحو وحصل له فيه ملكه.²⁹ وقد وقعت قصة بين الفكون ومحمد بن راشد الزواوي والشيخ التواتي والشيخ الفلاري التونسي وتحديه للفكون في اللغة حيث كان ذلك منطلق نبوغ الفكون في اللغة والنحو³⁰. وقد ترك لنا الفكون تأليف عديدة في هذا الفن منها:

أ - شرح على أرجوزة المكودي في التصريف: وهو مجلد أجاد فيه غاية الإجابة وأحسن كل الإحسان وأعطى النقل والبحث فيه حقهما ولم يهمل شيئا مما يقتضيه لفض المشروح ومعناه إلا تكلم عليه وأجاد كما هو شأنه في تأليف، وأوله: "الحمد لله الذي أجرى تصاريف المقادير بواسطة أمثلة الأفعال، وأوضح بيان افتقارها إليه، بتغير حالاتها من حركة وصحة واعتلال ونزع إشكال عين وجودها إلى ضم الإنضمام إليه، وكسر الانكسار لديه، وفتح الانفتاح في مشاهدة العظيمة والجلال. يقول العياشي: ولا يخفى عليك ما اشتمل عليه هذا المطلع من براعة الافتتاح ولطيف الإشارة إلى

أنواع الإعراب والتصريف وحد فرع من تأليفه أوائل صفر من عام ثمانية وأربعين وألف وشرحه هذا نقلا وأوسع بحثا وأتم تحريرا من شرح العلامة أبي عبد الله الدلائلي ولا أدري أيهما سبق شرحه.³¹

ب - فتح الهادي في شرح المحرادي: انتهى المؤلف من تأليف يوم السبت الثاني والعشرين من ذي القعدة عام 1038 هـ وقد ذكر الفكون في آخر المخطوط أنه يعد النظر في مسودتها، وقد بدأ التأليف في شهر شوال من نفس السنة، وذكر أنه ربما ترك الاشتغال به أحيانا كل ساعات اليوم ربما لمرضه.³² وهذه هي فاتحة الكتاب، بعد الثناء على الله بما هو أهل والصلاة على النبي والأصحاب يقول: "أما بعد فقد طلب مني بعض الأعباء في الله المتنعين إليه الراغبين في إبداء العلم نشره للمسلمين أن اضع له تقييدا على نظم ابن عبد الله المحرادي الذي وضعه في بيان الجمل وحكمها مجتنباً فيه التطويل وعويص البحث إلا مما لاح، مما ليس فيه جناح، يوضع عبارته وييدي رمزه وإشارته مقتصرًا فيه على الإيضاح والإفصاح تقريبا للمبتدي للمنتهي وتذكرة للمنتهي فلم أجد إلا مساعدته، وإن كنت في شغل بال وعدم ملائمة الحال للمقال وأخذني في أهبة السفر أشرف لمن تشد إليه الرجال، فأسعفه رجاء بركة نبتة وإخلاص طويته واغتناما في الدعاء الصالح في خلوته وجلوته ورجاء من المولى الإجابة على إبداء العلم وتدوينه وأنينفع به في القبر والمحشر وهوله وتنكيده وأن ينفعني به وأن يجعله شافعا نافعا، ولكل هم في الدارين دافعا وهو حسبي ونعم الوكيل وسميت هذه العجالة " فتح الهادي في شرح المحرادي " ³³.

ج - تأليف أخرى: كما ألف الفكون تأليف أخرى منها:

1- شرح شواهد الشريف على الأجرومية: حيث التزم بذكر عقب كل شاهد حديث مناسب من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو " فتح المولى في شرح شواهد الشريف بن يعلى"، فرغ منه عام 1027 هـ، كما ألف كتابا آخر أسماه "شرح مخارج الحروف من الشاطبية".³⁴

ثانيا: في العلوم الدينية

أ - " منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية":

يعتبر هذا التأليف من أهم تأليف الشيخ عبد الكريم لأنه يعطينا صورة عن الحالة التي كانت تعيشها قسطنطينة خلال فترة هامة من تاريخها وهي الفترة العثمانية من كل النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية. ومن عدة دلائل نعرف أن الفكون قد ألف منشور الهداية على فترات في شكل مذكرات ومهما كان الأمر فإنه قد انتهى منه بعد سنة 1045 هـ / 1635 م وهي السنة التي توفي فيها والده بالمولح أثناء منصرفه من الحج، ثم أنه ألف كتابا في علم الصرف هو "فتح اللطيف" سنة 1048 هـ وذكر فيه أنه ألف منشور الهداية، وأن هذا الكتاب قد جلب عليه نقمة البعض ورمقته العيون بالبغض من أجله ومن هذين التاريخين نعرف أن الفكون انتهى من هذا الكتاب بين 1045 – 1048 هـ³⁵

ويبدو أن الفكون أخذ في تسجيل مذكراته خلال العشرينات من القرن الحادي عشر الهجري والدليل على ذلك أنه أرّخ لمرض خطير حل به وألزمه الفراش سنة 1025 هـ (1616م) وقد دام معه المرض ثلاث سنوات وبدأ يخف عنه خلال سنة 1028/1029 هـ و أشار إلى زيارة المولى علي إلى قسطنطينة قادما من السلطة الأحمدية وقد تولى السلطان أحمد العثماني بين (1013 – 4027 هـ) (1604 / 1617 م) فتكون الزيارة المذكورة قد تمت خلال هذه الفترة، ثم إن الفكون استعار من مراسلته مع أحمد المقري أبياتا ضمنها منشور الهداية، والمراسلة وقعت في عام 1038 هـ والمعروف أن المقري توفي عام 1041 هـ³⁶.

والفكون يسمى تأليف أحيانا تأليف وأحيانا تقييدا ديوانا والنا الذين تعرض لهم يسمى حياتهم تارة ترجمة وتارة فهرسة وتارة سيرة، ثم إنه كان يلتزم طريقة معينة في تراجمه فبالإضافة إلى الاستطراد فإنه كان يطيل ترجمة البعض حتى تتجاوز الترجمة الواحدة عدة صفحات وأحيانا يكتفي ببضعة أسطر في الورقة الواحدة، وقد يناقش قضية كلامية أو صوفية طارحا الأسئلة ومجيبا عندها دون أن يكون في ذلك علاقة بالترجمة التي يتناولها، وكثيرا من التراجم التي تعرض لها تشمل جيلين أو ثلاثة، فهو يذكر فلانا وبعد انقطاع بتراجم أخرى يذكر ابنه وبعد انقطاع آخر يذكر حفيده وهكذا الأمر بالنسبة لعائلات بأكملها منها عائلة الغري، ابن باديس، ابن العطار، بن نعمون فيعطي

صورة عن توارث العلم أو التصوف في الأسرة الواحدة وليس ذلك مقصورا على قسنطينة ولكن بالنسبة للأقاليم والأرياف الأخرى أيضا³⁷.

ولعل أبرز من ألف على نسق الفكون ابن مريم التلمساني في كتابه "البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان" ومحمد بن سليمان في كتابه "كعبة الطائفين" فالثلاثة ذكروا تراجم العلماء والفقهاء والأولياء. مع ملاحظة أن ابن مريم لم يترجم لمعاصريه، وأنه هو وابن سليمان راحا يغرقان في إثبات الكرامات إلى إن تصبح غير معقولة أحيانا عكس الفكون الذي ميز بين الأولياء بحق وأدعياء الولاية.

ب - محمد السنان في فخور إخوان الدخان (مخطوط):

يعتبر محمد السنان في المرتبة الثانية من مؤلفات الفكون من حيث الأهمية وهو عبارة عن رسالة عاجل فيها الشيخ مسألة التدخين التي يبدو أنها كانت منتشرة في ذلك الزمان أو عمت بها البلوى وقد حكم الشيخ بتحريمها، والنسخة المخطوطة التي بين أيدينا نسخة منها ترجع إلى إحدى أسر حفدة الشيخ الفكون، وهي غير تلك الموجودة في الخزنة العامة بالرباط لأن هذه النسخة نسخها حاج مغربي يسمى محمد عبد الرحمن الحسني التادلي، أما النسخة التي بين أيدينا فقد كتب في آخرها أن نسخها تم يوم الثلاثاء ربيع الثاني عام 1323 هـ والذي نسخها هو الفكون الزواوي القسنطيني، أي أنها نسخة حديثة النسخ مقارنة بالنسخة الأصلية، والتي انتهى الفكون من كتابتها يوم الجمعة أواسط رجب عام 1025 هـ³⁸.

يتناول المؤلف في كتابه قضية التدخين التي عاجلها كثير من الفقهاء، واختلفوا في حكمها، فمن الذي أفتوا فيها أحمد المقرئ الذي توجد أجوبته في ذلك مجموعة مع أجوبة غيره وألف فيها عبد القادر الراشدي³⁹، وقد سمي الراشدي رسالته "تحفة الإخوان في تحريم الدخان" ومعلوم أن الراشدي القسنطيني توفي عام 1194 هـ / 1780 م، أي أنه متأخر عن الفترة التي عاش فيها الفكون، لكنها استمرار لها ما يعني أن مشكل التدخين قد استمر إلى هذه الفترة.⁴⁰

يعطينا الفكون في محمد السنان وصف جلسات التدخين حيث كان يجتمع الناس وفي وسطهم آلة التدخين يتداولون استنشاق دخانها وأورد الفكون اسم النبتة المستخدمة في عملية

التدخين وهي جوزة الطيب،⁴¹ وربما هي المعروفة عند المشاركة باسم الشيشة، كما وقد يضاف إليها أيضا الدخان المعروف بالنفة أو الشمة وكذلك دخان الورق. هذه الحشيشة قد يفهم من سلسلة التأليف التي سبق ذكرها والتي وُضعت لهذا الغرض أنهما تعود لأخريات القرن 10 هـ بداية 11 هـ ويحدد عبد القادر الراشدي وغيره من المؤلفين ظهورها في حدود السنة الخامسة بعد الألف الهجري، وهي أوراق شجر في بلد تنبكت (مالي) حرسها الله، يسمى طبقا، ابتلى الله بها المسلمين.⁴² ويظهر من بعض النصوص إن أول من تطرق إلى جواز تعاطيها هو الشيخ علي الأجهوري المالكي⁴³، ورسالة الأجهوري هذه هي التي أثارت حفيظة الشيخ الفكون لما رآه من مباحة الحق والشرع فألف كتابه " محدد السنان " لدحض أدلة الأجهوري. وقد ذُكر محدد السنان من قبل أبي سالم العياشي في رحلته " ماء الموائد " حيث قال :ومن تأليفه جزء في تحريم الدخان أسماء "محدد السنان في نخور إخوان الدخان" وهو في عدة كراريس مشتمل على أجوبة عدد من الأئمة وقد لخصنا بعضه حسب ضيق الوقت⁴⁴.

وأشار الفكون إلى أن مفتي مكة الشيخ خالد الزواوي، وشيخ المالكية بمصر إبراهيم اللقاني ذهبا إلى تحريم الدخان كما أشار إلى أوراق الأستاذ المغربي أبي عبد الله محمد السوسي الذي جاء إلى الجزائر عام 1023 هـ وقد تكلم عنه في مؤلفه " الدرر في شرح المختصر ". أما السوسي فقد ذكر في أوراقه عن تحريم الدخان في رسالة أسماها " كشف الغسق عن قلب دفع في التنبيه على تحريم دخان الورق "، كما استفتى أحمد سلطان مراكش، الشيخ أحمد بن حسون فأجاب بالتحريم وهي نفس فتوى أبي الغيث القشاش، وضمّنها ردود على فتوى الأجهوري السابقة، على أن السوسي رغم ذهابه إلى التحريم إلا أنه أسلوبه ركيك ورغم ذلك فقد عذر الفكون، السوسي لأنه جاء على فترة من العلم وكثرة الجاهلة وسوء الفهم ولا عجب في ذلك والزمن هو القرن الحادي عشر وفي الحقيقة وجود مثله في هذا الزمن، وأخرى في هذه البلدة من البلدان حتى أن بعد موته رحمه الله حصل الأسف على فقده.⁴⁵

ويذكر المؤلف الرحلة التي قام بها جماعة من العلماء إلى القسنطينية عاصمة العثمانيين وعلى رأس الجماعة مفتي الجزائر أبو الربيع سليمان الأوراري، حيث التقى بمفتي الديار العثمانية محمد

ابن سعد الدين، وقد أرسل المفتي من قبل جيش الجزائر لقضاء مآرهم وقد سأل الجماعة مفتي الديار العثمانية عن حكم تناول الدخان وقد أفتاهم بتحريمه⁴⁶.

ج/ديوان الفكون:

ارتبط ديوان الفكون بالحالة التي كان عليها الشيخ حيث يقول عن مرضه: "أعني الأطباء دواؤه وتمكن من قلبي وأزمن وأهكني وكل يوم يرد علي نوع منه تظهر منه حالة الموت فلا ترى الأهل والأصاغر إلا في بكاء ونحيب، وآيس من القريب والبعيد ولم يبق لي شيء إلا في تجهيزي لدار الآخرة وما ينالهم بعدي وتأسف كل محب لله وبقي في عنفوانه وابتدائه سنة كاملة لا أكتحل بنوم ولو سنة، حتى ساعة سهو، والعرق يتفصد مني من الجبهة كمثّل الديمة الهطلاء في اليوم الشديد البرد الكثير الثلج نازلاً ومستقراً ومهما تحركت أو التفت يرتعد طرفي الأيسر ويغشى علي في اليوم مراراً، وتلوّنه وعدم ثبات مجيئه على صفة واحدة هو الذي أوجب تقييده في غير هذا. وبقيت به تلك السنة على ذلك الحال والسنة الثانية كلّها كانت السنة هي نومي فلا أراه لا ليلاً ولا نهاراً إلا ما ذكرناه من السنة هنيئة وأقوم فرعاً من إحساسي بنفسي فاضت فكأها بين عيني وأهواله أعظم من أن يصفها اللسان، ولا أقدر على ذكر نزر من صفته إلى السنة الثالثة ألهمت مدح سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تسليماً فاتخذته قصائد في مدحه على حروف الهجاء متضمناً كل حرف من الحروف حروفاً تقرأ من أول كل بيت في الحرف وتجمع فيخرج منها: اللهم اشفني بجاه محمد أمين فرمما وجدت الراحة في بعضه بجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم⁴⁷ ونلاحظ أن العبارة الناتجة عن جمع حروف أول كل بيت غير صحيحة والصحيح ما أورده العياشي من أنه التزم بفعل مبدأ كل سطر حرفاً من حروف العبارة التالية "إلهي بحق الممدوح اشفني أمين" وجملة ذلك خمسة وعشرون حرفاً، ففي كل قصيدة مثلها أبيات⁴⁸.

فرغ الفكون من تأليف ديوانه في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من 1031هـ، وقد بدأ المؤلف ديوانه بعد البسملة والصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: يقول كاتبه العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفوه وغفرانه قال الله تعالى: "يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم سكارى ولكن عذاب الله شديد"، المتمسك بحبل من مولاه

سبحانه عبد الكريم بن محمد الفكون أصلح الله حاله ووقفه لإتباع سنة المصطفى أقواله وأفعاله الحمد لله مفرج الكرب ومولى من فضله أعلى المراتب، والصلاة والسلام على أفصح العرب أما بعد فقد صادفتني يد الأكداد في هذه الدار، ورميتني بأسقام وأوصاب⁴⁹ ثم راح المؤلف يذكر أمر مرضه ومعاناته معه كما نقلناه عنه من كتابه منشور الهداية.

ثالثاً، مؤلفات أخرى:

ألف الفكون كتباً أخرى لم تصل إلينا على الرغم من ذكرها في مختلف المصادر منها:

أ/ نظم الدرر في شرح المختصر (لعبد الرحمن الأخضرى) ضمنه بعض الآراء التي لا أصل لها في الإسلام والتي جاء بها محمد السوسي، وقد ذكر هذا المؤلف في منشور الهداية⁵⁰.

ب/ "سريال الردة فيمن جعل السبعين لرواة الإقراء عدة" ألفها في واقعة لم يذكرها حدثت لأبي العباس حميدة بن حسين الغري⁵¹.

ج/ "سلاح الدليل في دفع الباغي المستطيل" افتتحها المؤلف بقوله:

بِاسْمَائِكَ اللَّهُمَّ أَبَدِي تَوْسِلاً فَحَقِّقْ رَجَائِي يَا إِلَهِي تَفَضُّلاً

وقد استنسخها المغاربة وصارت مشهورة بينهم⁵².

د/ "شافية الأمراض فيمن التجأ إلى الله بلا اعتراض" أو سماه "العدة في عقب الفرج بعد الشدة"

وبدأها بقوله: بك الله مبدي الخلق طرا توسلي وفي كل أزما تي عليك معولي.

توسل فيه بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه والتابعين والفقهاء والأولياء⁵³.

هـ/ "شرح على إضاءة الدجنة" لأحمد المقرئ وعد الفكون بتأليفه لكن لا نعلم إن كان أنجزه أم لا.

و/ تقييد على كرامات الوزان وعد الفكون بتأليفه⁵⁴.

ي/ تقييد في مسألة حبس⁵⁵.

خاتمة:

لقد عاش الفكون في فترة مفصلية من تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين الموافقين للقرنين السادس والسابع عشر الميلاديين ورغم أهمية المرحلة إلا أنها تشهد نقصا كبيرا فيما يتعلق بالكتابات التاريخية التي تغطي الفترة، خاصة الجوانب غير سياسية ما يتعلق بالجانب الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وفي اعتقادي هنا تكمن أهمية مؤلفات الفكون، فهي على قلتها، فإنها تعطينا معلومات هامة ومتنوعة حول مجتمع قسنطينة في مختلف جوانب الحياة المذكورة آنفا. كما نستشف من البحث أيضا حركية الحياة الثقافية خلال هذه الفترة من خلال عملية التعليم والتعلم وما صاحبها من ابداع فكري وما الفكون إلا نموذج للعديد من علماء الجزائر الذي عاشوا خلال هذه الفترة.

الهوامش:

¹ -الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية 52.

2- نفسه ص ص، 49، 68.

3- أبي سالم العياشي: الرحلة العياشية المعروفة بماء الموائد، تحقيق محمد حجي، الرياط، 1977، ط2، ص ص، 390-391. وقد ترجم له كل من محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي، ج2، ص ص، 130-131. وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخلوف، ج2، ص 266. والأعلام للزركلي، ج4، ص180، ونفح الطيب للمقري، ج2، ص 480، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي، ص 164. ومعجم مشاهير المغاربة لأبي عمران الشيخ وأناصر الدين سعيدوني، ص 425. وعادل نويهض في معجم أعلام الجزائر ص254. وسليمان الصيد في نفح الأخبار عما في قسنطينة من الأخبار. ص21.

4- الفكون: منشور الهداية، ص 208.

5- نفسه ص 48.

6- نفسه ص 48.

7- الفكون، منشور الهداية، ص 35 وما بعدها.

8- قفاف عبد الرحمن: مرجعية الافتاء على نوازل ابن الفكون. ص 95 وما بعدها.

- 9-الفكون: منشور الهداية، ص 59.
- 10-نفسه ص 61.
- 11-الفكون: منشور الهداية، ص 60.
- 12-نفسه ص ص 60-61.
- 13-نفسه ص ص، 97-98.
- 14-نفسه ص 204.
- 15 سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج 1، ص ص 52- 53.
- 16-سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 54.
- 17-رحلة العياشي، صص 390-391.
- 18- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج 3، ص 173.
- 19- سعد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 523.
- 20- الفكون: منشور الهداية، ص 113.
- 21- منشور الهداية، ص 94.
- 22- نفسه ص 93.
- 23- نفسه ص ص 205-207.
- 24- نفسه صص 207-208.
- 25- الفكون :منشور الهداية.ص ص، 205، 207.
- 26- نفسه ص 93.
- 27- نفسه ص 92.
- 28- نفسه ص 95.
- 29- منشور الهداية، ص ص 218/219.

- 30- نفسه، ص52.
- 31- العياشي : الرحلة العياشية، ج2، ص 391.
- 32- الفكون :فتح الهادي في ش شرح الحرادي.ورقة 67.
- 33 - الفكون : فتح الهادي في شرح الحرادي، ، ورقة 01.
- 34- العياشي : الرحلة العياشية، ج2، ص 206 وسليمان الصيد : نفع الأخبار، ص 23.
- 35 - عبد الكريم الفكون : منشور الهداية، ص 14.
- 36- نفسه ص 15.
- 37- منشور الهداية، ص 16.
- 38- أنظر محدد السنان، مخطوط ورقتي 58/ 57.
- 39-سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 82.
- 40 - عبد القادر الر اشدي:تحفة الإخوان في تحريم الدخان، ص58.
- 41- ينظر ترجمته في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحيي.ج3، صص 157-158.
- 42- عبد القادر الراشدي:تحفة الإخوان في تحريم الدخان .ص 57.
- 43- عبد الكريم الفكون: محدد السنان، ورقتي 37-39.
- 44- رحلة العياشي، ج2، ص396.
- 45- الفكون: محدد السنان ورقة 7.
- 46- محمد الفكون :نوازل الفكون.ورقة585و 586.
- 47- ذكر الشيخ الإسلام بن تيمية في كتابه قاعدة جلية في التوسل والوسيلة : إذ قال القائل : أسأل الله بحق فلان أو بجاهه أي أسألك ياإمامي ومحبي له فهذا من أعزم الوسائل. فمن قصد هذا المعنى فهو معنى صحيح فمن قال أسألك ياإمامي بك وبرسولك ونحو ذلك أو ياإمامي برسولك ومحبي له ونحو ذلك فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين : " ربنا إنا سمعنا مناديا للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار " آل عمران 193 وقوله تعالى : " الذين يقولون ربّنا إنا آمنة فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار " آل عمران 16 وقوله تعالى : " إنّه كان فريق من عبّادي يقولون ربّنا آمناّ فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين " المؤمنين 109. أما التوسّل بذات النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، أوغيره من الأنبياء فليس هذا مشهور بين الصحابة

الشيخ عبد الكريم الفكون القسطنطيني وإنتاجه الفكري ————— بونلوة حسين

والتابعين، بل إن عمر وغيره من الصحابة لما أجدبوا توسّلوا بالعباس عم النبي - ص - وليس به، أما ما يرويه البعض عن الرسول - ص - أنه قال: "إذا سألتكم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم" فهو موضوع ص ص 197، 198.

48 العياشي: الرحلة العياشية، ج2، ص391 كان ابتداء المرض بالفكون بداية من سنة 1025هـ/1616م كما عبر هو عن ذلك

49 سليمان الصيد: نفع الأخبار، وقد ذكر المؤلف أن نسخة من الديوان موجودة في المكتبة الأحمدية التي ضمت إلى المكتبة الوطنية تونس ص 24.

50- منشور الهداية، ص 72.

51- نفسه ص 78.

52الفكون: منشور الهداية، ص205.

53 نفسه، ص 206.

54 نفسه، ص 37.

55- نفسه ص 67.

مصادر البحث ومراجعته:

أ - مخطوطات

1-- محمد الفكون: نوازل الفكون. نسخة مصورة عن الأصل.

2-عبد الكريم الفكون: محدد السنن في نحر إخوان الدخان. نسخة عن الأصل.

3- عبد الكريم الفكون:فتح الهادي في شرح المحرادي. نسخة عن الأصل.

ب- المصادر والمراجع المطبوعة:

1-ابن تيمية:قاعدة جلية في التوسل والوسيلة.تحقيق عبد القادر الأرقطوط، إدارة البحوث العلمية، الرياض، السعودية، 2002، ط2.

2- عبد القادر الراشدي:تحفة الإخوان في تحريم الدخان، تحقيق عبد الله حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م، ط1

الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني وإنتاجه الفكري ————— بونخلوة حسين

- 3- -- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م، ط2.
- 4- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف. مؤسسة الرسالة لبنان، 1985م، ط2.
- 5- أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية، ماء الموائد، الرباط، 1977م
- 6 - عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية. تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان
- 7- محمد القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، 1982.
- 8 قفاف
- 8- محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1394هـ: ط1
- 9- المحي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. مكتبة نباط، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ج3.
- 10- أحمد المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1949، ط1، ج3.
- 11- أبو عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني: معجم مشاهير المغاربة. منشورات جامعة الجزائر، 1966.
- 12- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1974م، ط7، ج3.
- 13- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ط1، ج1، 2.
- 14- سليمان الصيد: نفع الأخبار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، 1994م، دون معلومات حول الطبع.
- 15- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980م، ط2.
- 16- عبد الرحمن قفاف : مرجعية الافتاء على نوازل ابن الفكون من خلال مخطوط النوازل بين القرنين 10-11 الهجريين، دراسة وتعليق. رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2005-2006م

هدايا النخبة الحاكمة في الأندلس بين القرنين (3-5هـ/9-11م)

الأنواع والدلالات الرمزية

الدكتورة بودالية تواتية، جامعة معسكر

ملخص:

تنوعت الهدية بالأندلس في مضامينها وأشكالها، ورسمت صورة العلاقات الانسانية والاجتماعية من خلال التواصل والتفاعل لكسب المودة والتقارب في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والعلمية. وتنقسم الهدية من حيث قيمتها إلى الهدايا الفاخرة والعادية، ويختلف تقديمها من الرغبة الشخصية إلى الاجبارية ومهابة الطرف الآخر.

Varied gift Andalusia in contents and forms, painted a picture of human and social relations by communicating and interacting to gain intimacy and closeness in various political, social and scientific fields. Divided into present value to luxury gifts and regular, and differs from personal desire and solemnity of the other party.

مقدمة:

كانت الهدية في المجتمع الأندلسي الجسر الذي يخاطب العقول والقلوب، وتبليغ التوافق الاجتماعي بين الحكام وبين الآخرين، وبفضله يمكن رؤية الجانب العلائقي بين الأفراد، وتسهيل عملية التواصل السياسي، الاجتماعي والعلمي. وتتميز حقيقة التواصل السياسي في مد جسور التعاون والتحالف وإنجاح العملية الدبلوماسية، أو لهدف المفاخرة والتباهي والقوة. أما اجتماعيا فإنها ترمي الهدية إلى الامتاع والتودد وكسب الثقة، وشمل ذلك التهادي بالجواني والورود والثمار. وتتميز الهدية العلمية بخصوصية محمودة في تفاعل العلماء مع تطور العلوم وما كان إهداء الكتب إلى الحكام إلا ليعزز نجاحاتهم ومكانتهم ونباهتهم العلمية.

وتتم هذه المقالة بتوظيف مختلف الدلالات الرمزية للهدية من خلال تحديد الأنواع في فترة تاريخية تمتد من القرن 3هـ/9م إلى القرن 5هـ/11م؛ حيث تميزت هذه الفترة بخصوصية في تنوعت فيها الهدية في حالات السلم والحرب، وحالات الود والوثام بين الأفراد والسلطة. وسنتقي بعض النماذج المتنوعة التي تحاكي معاني الهدية لدى النخبة الحاكمة الأندلسية.

أولاً: الهدية لغة واصطلاحاً

الهدية: ما أتحفت به، يقال: أهديت له وإليه. والتهادي: أن يهدي بعضهم إلى بعض⁽¹⁾. والهدية هي: "ما يؤخذ بلا شرط الإعادة"⁽²⁾. أما تعريف الهدية في الاصطلاح "أن الهبة والصدقة والعطية والهدية معانيها متقاربة، وكلها تمليك في الحياة بغير عوض، واسم العطية شامل لجميعها، وكذلك الهبة"⁽³⁾. ويضيف في موضع آخر "من دفع إلى إنسان شيئاً للتقرب إليه، فهو هدية"⁽⁴⁾.

وقال القرطبي: "الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة"، وقال: "ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أمّا تزيل حزازات النفوس وتكسب المهدى والمهدى إليه رنة في اللقاء والجلوس"⁽⁵⁾. تتجلى الهدية في معانيها ومقاصدها النفسية والاجتماعية فيما ورد عند الأصفهاني: "الهدية تجلب المودة وتزرع المحبة وتنفي الضغينة، وتركها يورث الوحشة ويدعو إلى القطيعة، والهدية تصير البعيد قريباً والعدو صديقاً والبغض واليا والثقل خفيفاً، وقيل إنّها قرابة وصلة كالرحم والقرابة القريبة"⁽⁶⁾.

ثانياً: أنواع الهدايا ودلالاتها الرمزية

1- هدايا الملابس

كان الأندلسيون على جانب من الأناقة والترتيب في ملابسهم، ويرجع الفضل إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206-232هـ/821-846م)، الذي أنشأ دور الطراز في المدن الأندلسية لأنواع الكسوة والأوطية، واستنبت فيها الأعمال وتدرج فيها إلى التجويد⁽⁷⁾. وكانت منتجات دار الطراز بقرطبة مما يهادى به إلى الشخصيات الهامة من العدو المغربية أمثال موسى بن أبي العافية⁽⁸⁾ الذي خلع عليه الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-331هـ/912-943م)⁽⁹⁾ هدية تتمثل في:

"قطع الخزّ العبيدي الخاصي من كسوة الخليفة عشرون شقة، ومن الطرازية الخلافية خمس قطع، العمائم عشر ثياب الخزّ المختلفة الأجناس في صناعات طراز العمامة لكسوة رجاله مائة ثوب، الشقاق الطرازية المصبوغة الثياب خمس عشرة شقة، شقق الصوف الطرازية المصبوغة، صبغ شقاق الكتّان الخاصة الدقاق لكسوته عشرة شقاق، وعشرة أردية وأربعون ملحفة، شقاق الكتّان المتوسطة لكسوة رجاله أربعون شقة، ومن أنواع الفرش من بسط الصوف الكوامل المختلفة الأجناس سبع وثلاثون... ومن وسائل الصوف صناعة الواسطي ستون وسادا، قبة آدم من ثلاثين بنية بجميع آلاتها وإزارها وخيمة مستراحها، ولدان وبساطان... وفراش ديباج أرضه موشية مطرزان بخزّ رجائي، ومختدان مفضضتان محتمتان بطائنها خزّ طرازي رجواني وفسطاطان جديدان من ثلاثين بنية بجميع آلاتها." (10)

وفي هدية الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) إلى محمد بن خزر⁽¹¹⁾ فيما "كافأه من الهدايا النفيسة من الملابس والكسي المرتفعة. وكان الذي اختصه به في تطريزه لما اصطنعه من خاصّ لهديته هذه من الملابس، في طرازه الخاصّ، باسم محمد بن خزر، أعظم قدرا من ذلك، إذ كان شيئا لم يتقدم لملك قبله إلى ولي من أوليائه"⁽¹²⁾. وتمثلت هدية الخليفة نفسه إلى موسى بن أبي العافية في "خمس وعشرون قطعة من البز الطرازيّ الخاصي المرتفع العجيب الصنعة، العراقي العبيدي من ذلك خمسة"⁽¹³⁾. تعبر هذه الهدايا عن النوايا الحسنة من الطرفين الأندلسي والمغربي، ومسلك جاد للتواصل دون التظاهر بذلك وقصد الحصول على مصلحة سياسية ودفع العدوان.

ولقد جمعت هدية المكافأة بين الحكام وبين رؤساء البربر، وقلصت دائرة التنافر بين الطرفين. ومن نماذج الهدايا الرمزية التي تحمل صفة الوفاق عند الأندلسيين العمائم؛ حيث كانت من التحف التي يهادي بها خلفاء بني أمية رؤسائهم البربر ووجوههم المستتمنين فخلع عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) على "حميد بن يصل القرشي السليماني من عمائم الشرب المذهبة وصلته لإبراهيم بن عيسى بثلاثة عمائم خزّ تفاحية وخضراء وفيروزية، وأهداه لحسن بن أحمد بن عيسى بعمامتي خزّ سمائية وحمراء ولكل من علي بن أحمد وخزر بن لقمان وأيوب بن أبي الحسين وحجاج بن خلوق بعمامتي خزّ"⁽¹⁴⁾. وكذلك أهدى وزيره أبو مروان عبد الملك بن

شهيد (ت426هـ/1035م)⁽¹⁵⁾ " ستة مطارف عراقية وست سرادقات عراقية وثمان وأربعين من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب"⁽¹⁶⁾. وفي هديته إلى عمر بن حفصون⁽¹⁷⁾ أشار ابن حيان " وأكثر له من فاخر الكسي السلطانية من الوشي الطرازي والخز العراقي"⁽¹⁸⁾. وبالمثل أهدى الخليفة الحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م)⁽¹⁹⁾ كثيرا أمراء البربر من فاخر الكسوة⁽²⁰⁾.

والملاحظ أن تقديم الهدايا لم يقتصر على زعماء البربر، ولكن للأمراء المسيحيين والروم نصيب وافر من الهدايا كوسيلة مرنة تتلاءم مع معطيات الصراع الخارجي لإبعاد الخطر والتودد والظفر بصداقة الأعداء. وهذا ما فعله الحاجب المنصور بن أبي عامر (371-392هـ/981-1002م) عندما أهدى ملوك اسبانيا المسيحية في إحدى غزواته بشنت ياقوب؛ بقول ابن عذاري: " وكان مبلغ ما أكساه ابن أبي عامر في غزاته هذه من ملوك الروم لمن حسن عناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي، وإحدى وعشرين كساء من صوف البحر وكسائين عنبريين وأحد عشر سقلاطون⁽²¹⁾ وخمس عشرة مريشات وسبعة أنماط ديباج وثوبي ديباج رومي وفروي فنك"⁽²²⁾ " (23). واستمر في إهداء الأمراء المسيحيين قطعاً كثيرة من الحرير الطرازي وغيره⁽²⁴⁾. وبالمثل لم يكن ملوك الطوائف أقل من سابقهم في التواصل مع النصارى؛ فقد كان ملك بلنسية أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي (ت527هـ/1133م) (ممن أثر زي النصارى من الملابس والسلاح واللجم، وأهدى إلى ملك انكلترا هنري الثاني هدية كان من ضمنها الحرير الأندلسي⁽²⁵⁾

وتصاعدت حركة التفاعل الاجتماعي من خلال التقرب إلى السلطة وإبداء الاخلاص والحصول على الخطوة عند بعض الشعراء؛ وفي هذا الصدد أهدى ابن عمار⁽²⁶⁾ الوزير الشاعر المعتمد بن عباد (461-484هـ/1069-1091م) صاحب اشبيلية ثوبا من صوف البحر يوم النيروز⁽²⁷⁾.

2- هدايا الكتب

في ظل تطور العلوم وتحقيق التميز على مستوى السلطة عرف العلماء أهمية الهدية في العلاقات الإنسانية والتي اقتصرت دلالاتها في تعميق المكانة العلمية، والظفر بالخصوصية في خدمة

العلم والحياة. ولا نبالغ إن قلنا أن العلماء تنافسوا في العلم وفي تقديم أعمالهم كهدايا للحاكم، ولقد تحدثت كتب التراجم عن علماء أهدوا الحكام تصانيف متنوعة في مختلف المجالات. وتجاوز الفعل إلى استقبال هدايا الكتب من الروم وذلك تأسيساً لعلاقة التعايش وكسر حاجز التنافر بين المسلمين في الأندلس ومملكة الروم. وفي هذا الشأن أهدى الإمبراطور بيزنطة كونستانتان السابع كتاب في النباتات الطبية لديسقوريدس إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/961-966م) (28)، كانت هذه النسخة من الكتاب باليونانية مزينة بالرسوم، وقد حرص هذا الخليفة على أن يستفيد علماء الأندلس من هذا الكتاب، لذا رأى أن يترجم إلى اللغة العربية (29)؛ فطلب من ملك القسطنطينية أرمانوس أن يبعث إليه برجل يحسن اللاتينية والإغريقية، فأوفد إليه الراهب نيقولا سنة (340هـ/951م) (30)، الذي ترجمه ترجمة دقيقة بمساعدة أطباء محليين يجمعون بين العربية واللاتينية. فاهتم بكل ما ألف من المفردات الطبية وخصص لها عناية كبيرة من شرح واستدراك وتصحيح من العلماء (31). وأكبت هذه المجموعة على ترجمة كتاب ديسقوريدس بطريقة عملية ميدانية بمعاينة النباتات بنواحي قرطبة (32).

ويعتبر عهد الخليفة الحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م) أكثر النماذج التي تلقت هدايا متنوعة في تصنيفها العلمي، ومن الكتب التي ألقت للحكم المستنصر وأهديت إليه مجال الفقه كتاب المستخرجة الذي بوبه له أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سيد (ت 363هـ/974م) (33)، وبالمثل جمع أحمد بن عبد الملك المعروف بابن المكوى (ت 401هـ/1010م) (34) "كتاب الاستيعاب" في رأي مالك من مائة جزء، ورفع إلى الحكم فُسّر بذلك، فانتفع الناس به ووثقوه في أمورهم ولجأوا إليه في مهماتهم ولم يزل معظماً عندهم (35).

وفي مجال الجغرافيا وذكر الاقاليم ألف محمد بن يوسف الوراق (36) "كتاب مسالك إفريقيا وممالكها"، وهو كتاب ضخّم ألفه للحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م) (37). كما أهدى إليه "كتاب المعارف" في أخبار كورة البيرة وأهلها وبوايرها وأقاليمها لمطرف بن عيسى الغساني (ت 377هـ/987م) (38). ودفع ولعهم بالطبيعة إلى كتابة "كتاب الحدائق" لأبي عمر أحمد بن فرج الجياني (ت 366هـ/976م) (39). وبالموازاة تخصص بعض العلماء في ذكر رجال الأندلس وصنفوها في كتب أهديت إلى الخليفة الحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م)، فقد

ألف له خالد بن سعد (ت 352 هـ/ 963م) "كتاب في رجال الأندلس"⁽⁴⁰⁾. وتخصص ابن زيد الأسقف القرطبي في تطبيب الطبقة الحاكمة وألف للحكم المستنصر "كتاب تفصيل الأزمان، ومصالح الأبدان"⁽⁴¹⁾.

وتلقى (366-392 هـ / 976-1001م) بن أبي عامر العديد من المصنفات كهدايا، نذكر كتاب "الفصوص" على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي (ت 356 هـ/ 966م)⁽⁴²⁾. وألف له زيادة الله بن علي كتاب "الحمام"⁽⁴³⁾. كما أهدى يهودي "كتاب في تريب العسل" للمنصور بن أبي عامر⁽⁴⁴⁾. وهي تدل على حرص اليهود في توثيق العلاقة مع السلطة وكسب الرضى.

ولم تقف هدايا التأليف عند خلفاء بني أمية، بل تعداه إلى ملوك الطوائف لتفوق العلم والعلماء، وكان المأمون بن ذي النون (435-476 م / 1043-1074م)⁽⁴⁵⁾ أكثر الشخصيات تشجيعاً للحركة العلمية والمعرفية؛ حيث ألف له إبراهيم بن وزمور الحجازي⁽⁴⁶⁾ كتاب "مغناطيس الأفكار فيما تحتوي عليه مدين الفرج من النظم والنثر والأخبار" وأهداه إليه⁽⁴⁷⁾. كما صنف له عبد الرحمن بن فتوح⁽⁴⁸⁾ كتاب "الإغراب في رقائق الأداب" ورفع له إليه⁽⁴⁹⁾. كما أهداه المؤرخ الكبير ابن حيان كتابه "المتين" لقوله: "كنت اعتقدت الإسنثار به لنفسى وخبأه لولدي والضم بفوائده الجمة على من تنكب إحمادي به إلى ذمي ومنقصتي طويت على ذلك كشحا وأوجبته عزما إلى أن رأية زفاهه إلى ذي خطبة سنية أتتني على بعد الدار أكرم خاطب وأسنى ذي همة. الأمير المؤثر الإمارة المأمون ذي المجددين الكريم الطرفين يحيى بن ذي النون"⁽⁵⁰⁾. وهذا يونس بن اسحق بن بكلاش اليهودي الأصل الذي خدم بطبه أمراء بني هود في الأندلس، فقد ألف كتاب "المجدولة" في الأدوية المفردة⁽⁵¹⁾، وأهداه إلى المستعين بن هود (478-503 هـ / 1085-1109م) حاكم سرقسطة⁽⁵²⁾.

تعتبر هذه الهدايا من الوسائل التي وظفت كنتاج طبيعي للمنافسة العلمية وتشجيع النخبة الحاكمة للعلم والعلماء، ومن محاسن هذه الهدايا إثراء المعارف بمختلف أنواعها ما يدفع بدور الهدية في تطوير الواقع الفكري والعلمي في الأندلس هذا من جهة، ومن جهة ثانية تمهت على التقرب

والتودد إلى السلطة، والتفرد بالمكانة والتميز والتفوق في النباهة. ولقد اعطت الهدية أهمية قصوى في تحديد النبوغ والإبداع الفكري عند العلماء.

3- الهدايا الحيوانية

وظفت الحيوانات كوسيلة لتقريب المسافات وتوطيد العلاقات الشخصية، ولتحقيق التجانس بين عناصر الطبيعة الحيوانية والمكانية تم تنويع العنصر الحيواني في بلاد الأندلس في مرحلة خلفاء بني أمية، وبرز اهتمامهم بتنمية الثروة الحيوانية والحرص على استجلاب مختلف السلالات بأنواعها وألوانها كالأسد والفيل والزرافة وغير ذلك؛ وهي في الغالب مما وردت إليهم جرى على شكل هدايا من المغرب رغبة في تحقيق التبعية وكسب مودة بني أمية في الأندلس. ومن تادر الحيوانات التي دخلت الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (238-273هـ/852-886م) الذي أهديت إليه واحدة من قبل ابن مدرار أمير سجلماسة قاصية أرض العدو فوصلت إليه حية وهي أول زرافة دخلت الأندلس وعابنها أهلها فصار لهم بها حديث (53).

وكانت الرغبة الجامحة عند الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) قوية في امتلاك الخيل باعتبارها "أشد الدواب عدوا وذكا، وله خصال محمودة وأخلاق مرضية، من ذلك حسن صورته وتناسب أجزاء به وأعضائه وصفاء لونه، وسرعة عدوه وحسن طاعته لفارسه" (54). ولما كانت رمزا للتفاخر والقوة العسكرية، كانت الخيل من جملة الهدايا التي يتبادلها الحكام فقد بعث أمير زناتة محمد بن خزر في آخر سنة (318هـ/930م) بكتاب يعلن فيه بيعته الخليفة عبد الرحمن الناصر، وأرفقه بهدية ضمت "عشرة نُجُب مَخْصِيَّة عَجِيْبَةِ الخلق مَتَخَيَّرَةٍ في جنسها، بسروجها وأرسانها (55) وأزمتها وأجلالها وأرجوانها وقرايبها (56)، مُعَلَّقًا عليها عشر درقات من نفائس درق اللط (57)، وعشرين ناقة، حوامل عشارا وغيرها، معها فحل لها جليل الخلقة البنية، معها راعيها عبد أسود ماهر برعي الإبل بصير بأدائها، وثمانية عشر فرسا من جياد الخيل العربية، منها فرس أصفر أسود العرف والذيل مهضوم، وفرس أشقر خماسي أغر مخضب الأربع، وفرس أشهب خماسي بأذنيه وطرف ذنبه وردة، وأربعة من عتاق الخيل، قيود للعيون؛ فلم يكن لها في جميع خيل ركابه على كثرتها أشباه لها، أثرها على جميع الهدية" (58). ولها من صورة جميلة تعني بالفصائل الجيدة

للخيول والتي يتم تربيتها في المغرب الأوسط، مع تبيان ألوانها وصفاتها الجسمانية التي تختص بها الخيول الجيدة.

وعندما كانت القوة تخضع إلى معيار التفوق، فإن الهدية الحيوانية تضمن الغاية من خلال اكتساب النّوادر؛ ففي عهد الخلافة كانت الهدايا التي تصل إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) من ملوك العدو في المغرب تحتوي على أعداد كبيرة من الجمال (59). وفي مدة حكم الخليفة الحكم المستنصر سنة (363هـ / 973م) وصلت إلى الزهراء الجمال التي بعث بها بنو خزر من العدو وكانت مائة وثلاثين جملاً (60). وكان الحاجب المنصور بن أبي عامر (366-392هـ / 976-1001م) وحده يملك من الجمال أربعة آلاف، إلا مائة بمسارح كورة تدمير فقط (61). أما الهدية التي أرسلها زيري بن عطية المغراوي (62) (ملك زانة) سنة (381هـ / 991م) إلى المنصور بن أبي عامر فتشمل على خمسين جملاً من أفضل الأنواع المعروفة بسرعة الركض وتسمى مهريّة سوابق (63).

والمقابل، تؤكد نصوص أخرى أن ملوك البربر قدموا ولاء الطاعة إلى عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) وقدموا له النّادر من الحيوان طمعا في كسب الدعم والقوة والأمان؛ إذ يكشف لنا ابن حيان أن منصور بن سنان بعث كتابا ذات الخليفة بالأندلس سنة (316هـ/928م) "بمّت بالولاية ويخطب القبول، وازدلف هدية حسنة من خيل وإبل وأنعام وغزلان" (64)، وفي السنة ذاتها كاتب أمير أرشقول إدريس بن إبراهيم السليماني الحسني (65) الخليفة نفسه «يخطب ولايته منه وبمّت بنسبه إليه.... وأهدى مع كتابه هدية حسنة من خيل وإبل وحيوان غريب" (66). وبذلك يمكن اعتبار الهدية لغة المساومة الدبلوماسية لنشر السلام.

وتعددت وظائف الهدية الحيوانية إلى الطابع النفسي والذاتي في كسب المودة؛ فقد أهدى أيلا إلى المنصور بن أبي عامر (366هـ 392هـ / 976م. 1001م)، وكتب على يد موصله (67):

عبدٌ جذبت بضبعه ورفعت مـ *** مقداره أهدى إليك بيـ
سميته غرسيةً وبعثتـ *** في حبله ليصح فيه تفاؤ

فلئن قَبَلْتَ قَتْلَكَ أَنْفَسَ مَنْ *** أَسَدَى هَا ذُو مَنْحَةٍ وَتَطَو

ولشغف الحكام بالصيد ازداد اقتناؤهم للكلاب ومما حكى عن ذلك أن ابن المرعزي النصراني الإشبيلي⁽⁶⁸⁾ أهدى كلبة صيد للمعتمد بن عباد وفيها يقول⁽⁶⁹⁾:

لم أرَ ملهى لذي اقتناء *** ومكسبا مقنع الحريم
كمثل خطلاء ذات جية *** أتلع في صفرة القميه
كالقوس في شكلها، ولك *** تنفذ كالسهم للقميه
إن نخذت أنفها دلي *** دل على الكامن العويه
لو أنها تثير بر *** لم يجد البرق من محيه

وتصف هذه الأبيات الكلب السلوقي برشاقة في الجسم، وخفة في الحركة، وسرعة فائقة في العدو، وطول نفس، وتصور بعض الأشعار الأندلسية الكلب تصويراً قوياً، وخلعت عليه أجمل الأوصاف من شجاعة وخفة وبراعة في الوثوب على الفريسة واقتناصها.

وبالموازاة، لجأ الأندلسيون إلى طيور الباز لاصطياد بعض الطرائد كالحجل والحمام البري، والظبي، والثعلب وغيرها، ولمهارته في الصيد قال عنه ابن البيطار " وصيده أعجب من صيد جميع الجوارح فإذا أرسل صقران على ظبي أو حمار وحش نزل أحدهما على رأسه ويضرب بجناحه عليه ثم يقوم الآخر ويفعلان ذلك حتى يشغلانه عن المشي حتى يدركه من يبطش به"⁽⁷⁰⁾. واستخدمت طيور الباز لصيد العديد من الحيوانات؛ فقد كان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية من عشاق البزاة⁽⁷¹⁾، وهذا ابن طاهر حاكم مرسية يبعث إلى صاحبه ببلنسية المنصور عبد العزيز (ت 425هـ / 1033م)⁽⁷²⁾ شواذ نقات ليستخدمها في رحلات صيده في جبال بلنسية⁽⁷³⁾.

لقد ساهمت الهدية الحيوانية في تنويع النسيج الحيواني في بلاد الأندلس بدخول أنواع وأصناف حيوانية لم تكن موجودة من قبل مثل الزرافة والجمل والخيول العتيقة، وغيرها، وحقت ما يسمى بالتوازن الأيكولوجي. ولا نستثني أن النادر من الحيوان كان غاية للمتعة والهواية في توظيف الطابع الجمالي والوظيفي كالصيد.

4- هدايا الطعام والثمار والفاكهة

يتوسع إطار الهدية ليشمل التكافل الاجتماعي والتضامن، سواء كانوا حكاماً أو محكومين على اتخاذ مواقف إيجابية فيما بينهم. وعلى سبيل المثال أهدى الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) سنة (385هـ/936م) إلى وليه والقائم بدعوته بالعدوة المغربية موسى بن أبي العافية هدية عظيمة كان فيها قدر كبير من أنواع الطعام مثل القمح والشعير والبقول والحمص وغير ذلك (74).

ومن جهة أخرى ساهم حكام الأندلس على تنوع النباتات والثمار والفاكهة بكل أنواعها واستجلائها، ومنها ما رمزت فيه الهدية إلى الحنين مثلما حدث مع عبد الرحمن الداخل (238-273هـ/852-886م) (75) عندما وصلت هدية أخته التي يصفها لنا الطغري وهو يتحدث عن الرمان "أصله أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) لما حل بالأندلس أرسلت إليه أخته من بغداد هدية احتفلت فيها وحات في جملتها رماناً كثيراً انتخبته؛ فلما وصلت الهدية قسمها على كبار رجاله. وعظماء دولته ... ووجه منها إلى عامل له بكورة ريه. رأيت اسمه سفر فلما وصل إليه أخذ حبه وغرسه ... حتى أثمر، ثم دخل عليه فاستغربه وأعجب به وأمر باتخاذ غرس وسماه باسم الغارس له فقيل له السفري" (76). وبالمثل أهدى أبو الوليد ابن زيدون (77) بكورة تفاح إلى المعتضد بن عباد (433-461هـ / 1041م / 1069م) (78) والد المعتمد ملك اشبيلية، وكتب له معها (79):

يَا مَنْ تَزَيَّنْتَ الرَّيَّا ... سَةِ حِينَ أَلْبَسَ ثَوْبَهَا
جَاءَتْكَ جَامِدَةُ الْمَدَا ... مَ فَخُذْ عَلَيْهَا ذُؤْبَهَا

بالرغم من بساطة الهدية إلا معانيها تغوص في توطين المحبة، وتسخر كتب الشعر بالعديد من هدايا الثمار ولكنها تتجاوز الإطار الزمني للدراسة كالتهادي بالزبيب الأسود، وما أكثر هدايا التفاح عند الشعراء. وكلها هدايا للتواصل والتعبير عن الجمال والتذوق الطبيعي لمعاني الحياة.

5- هدايا الورود

لقد كان الأندلسي أشغف الناس بالطبيعة وألصقهم بها، لا يفتأ يتغنى بمحاسنها، سواء كان جادا أو لاهيا، ضاحكا أو باكيا⁽⁸⁰⁾؛ فالطبيعة عندهم "اخضرار واصفرار وفيها أوراق خضر نضيرة وأغصان مياسة، وفيها نور وأزاهير وشذا وعبير وفيها حفيف الغصون وتغريد الطيور وفيها مياه صافية فضية بالضحى عسجدية عند الأصيل"⁽⁸¹⁾، ومن هنا يكتمل تذوقهم لجمال الطبيعة فيزداد حبهم لها ويبدع شعرائها في وصفها⁽⁸²⁾. وكتب الشعر تفيض بهدايا الورد والأزهار وسوف تقتصر على عصر الدراسة فقط. وفي هذا المنحى أهدى الفتى الكبير دري الأصغر الخازن الصقلي المنية المنسوبة إليه⁽⁸³⁾، بوادي الرمان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م). ويروي لنا ابن حيان بقوله "وكانت اختراعه ومرسى جنته ومستفرغ نفقته حتى أبلغ منها الغاية التي نالها كثير من منى مولاه وقسمت له حظا من هواه صيره يتناها أيام نزهه ويقسم لها من راحتها، تحرى لها هذا الفتى مسرته فزفها عند استوائها واكتمالها هدية إليه، بجميع ما كان له فيها داخلها وخارجها من البساتين المسقية والأراضين المزدعة، وما كان بها من عبد وأمة وثور ودابة، اشتمل ذلك على أعداد متوالية وأموال وافرة ونعم مؤتلة تقبلها منه الخليفة مولاه، وأبدى لها مسرة، وتقدم إليه بإقراره عليها وكيلا له ومسندا إلى نظره فيها، كيما لا ينخرم شئ من عمراتها، فعمل بذلك"⁽⁸⁴⁾؛ فأجمع من شاهدها "أهم لم يشاهدوا في المتنزهات السلطانية أكمل ولا أهدب ولا أعم من صنيع دري هذا"⁽⁸⁵⁾.

وروي أن محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي (ت400هـ/1010م) يعشق غلاما من غلمانها، وكان الغلام في إحدى المجالس أهدى المهدي قضيباً من آس فقال المهدي فيه⁽⁸⁶⁾:

أَهْدَيْتُ شَبَهَ قَوَامِكَ الْمَيَّاسِ غُصْنًا رَطِيئًا نَاعِمًا مِنْ آسٍ
وَكَأَنَّمَا يَحْكِيكَ فِي حَرَكَاتِهِ وَكَأَنَّمَا تَحْكِيهِ فِي الْأَنْفَاسِ

ولقد أهدى الشاعر يوسف بن هارون الرمادي (ت403هـ/1012م)⁽⁸⁷⁾ طبق ورد قدم له عندما نزل على بني أرقم بوادي آش وكان فصل الشتاء فاستغرب وجود الورد حينئذ⁽⁸⁸⁾. ومن أجمل الهدايا التي ساقَت القلوب وجعلتها في رتبة المحبة وعشق الحكام لجوارهم، هدية المعتمد بن عباد للرُمَيْكِيَّة، فقد أمر بأن تسحق العطور المختلفة الأنواع وتُعجن بماء الود حتى تصير كالطين، لأنَّ

الرُميكية اشتهد المشي في الطين بعد أن رأت الجواري يمشين فيه⁽⁸⁹⁾. كما رأت يوما قطع الثلج تتساقط فوق قرطبة فأعجبها منظره، فأمر المعتمد بن عباد أن تزرع أشجار هضاب قرطبة لتزهر في آخر الشتاء فتظهر كأنها مغطاة بالثلج⁽⁹⁰⁾. واتخذت هدايا الورود طعم حلوة العاطفة والنشوة في التعبير عن الأحاسيس الأريجية، وتحقيق التكامل الروحي بين الأزواج.

6- التهادي بالجواري:

لقد كان فساد النخبة الحاكمة وانغماسها في الملذات من الأمور التي روجت لبلوغ الهدية الجسدية مكانة في الوسط إلى درجة التنافس على اقتناء الجواري. ومن الشواهد التاريخية التي تؤكد شغف الحكام بالجواري ذوات الصوت الحسن بمبالغ لا تصدق، أهدى تاجر للأمير المنذر بن عبد الرحمن بن الحكم (275هـ/888م) جارية بارعة الحسن، واسمها طرب، ولها صنعة في الغناء حسنة، فعندما وقع بصره على حسننها ثم أذنه على غنائها أخذت بمجامع قلبه، فقال لأحد خدامه: ماترى أن ندفع لهذا التاجر عوضاً عن هذه الجارية التي وقعت منا أحسن موقع فقال: تقدر ما تساوي من الثمن وتدفع له بقدرها، فقومت بخمسائة دينار، فقال المنذر للخديم: ما عندك فيما ندفع له فقال: الخمسمائة، فقال: إن هذا للوم، رجل أهدى لنا جارية، فوقعنا منا موقع استحسان، نقابله بثمانها، ولو أنه باعها من يهودي لوجد عنده هذا، فقال له: إن هؤلاء التجار لؤماء بخلاء، وأقل القليل يقنعهم، فقال: وإنا كرماء سمحاء، فلا يقنعنا القليل لمن نجود عليه، فادفع له ألف دينار، وأشكره على كونه خصنا بها، وأعلمه بأنها وقعت منا موقع رضى⁽⁹¹⁾.

وبالمثل، كان لزياب⁽⁹²⁾ جارية اسمها متعة، أدبها وعلمها أحسن أغانيه حتى شبت، وكانت رائعة الجمال، وتصرفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206-232هـ/821-846م)⁽⁹³⁾ تغنيه مرة وتسقيه أخرى، فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة، فأبى إلا التستر، فغنته ببعض الابيات. فلما انكشف لزياب أمرها أهداها إليه فحظيت عنده⁽⁹⁴⁾.

وأثبت أبو مروان عبد الملك بن شهيد (426هـ/1035م)⁽⁹⁵⁾ أن الجارية تحمل قيمة معنوية بين الأندلسيين وكأنها تذكّار أو دليل محبة يرسلونه ويطلبون به، فقد أهدى ابن شهيد الخليفة عبد الرحمن الناصر عشرين جارية مختارة مع كسوتهم وآلاتهم الموسيقية⁽⁹⁶⁾. كما تجلت

أهداف الهدية الجسدية في توليد العيوب الخلقية والأثنية؛ فهذا الوزير أبو مروان عبد الملك بن شهيد "أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينهى ذلك إلى الناصر فيطلبها" (97)، وبالمثل أهدى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (ت 500هـ / 1006م) (98) إلى المعتمد بن عباد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان المثلثين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك (99). وبذلك تمثلت قيمة الهدية الجسدية من النساء في تحقيق المتعة النفسية والجسدية وهو الأمر الذي يجعل الحكام يتخوفون من فقدان الهدية ويتملكها غيرهم.

7- التهادي بالتحف الثمينة والجواهرات

تنوعت الهدية في جوهرها وفي قيمتها المادية، فهناك من يرى في تقديس العلاقات في غلائها والتباهي بندرها، حبا في استقطاب المحبوب، فقد وهب الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206-238هـ/822-852م) لجارية من حظاياه عقد جوهر من أعلاق الخلافة العباسية بالمشرق، قيمته عشرة آلاف دينار، كان يسمى الثعبان ونعته ابن عذاري بعقد الشفاء (100).

وربطت الهدية بالشكل الجوهري وصناعتها الثمينة والراقية، وصبغت بقواعد اللياقة والاحترام بين أفراد الأسرة الحاكمة. ومن التحف الفضية النفيسة هناك قصر من الفضة الخالصة، صنعه الحاجب المستنصر (350-366هـ / 961-976م) وأم ولده هشام، وعبر ابن عذاري عن هذه الهدية فقال: "فإنه استمال هذه المرأة بحسن الخدمة وموافقة المسرة وسعة البذل في باب الإتحاف والمهاداة، حتى إستهواها وغلب على قلبها وكانت الغالية على مولاهما، وابن عامر يجتهد في برها والمثابة على ملاطفتها، فيبتدع في ذلك ويأتيها بأشياء لم يعهد مثلها، حتى أصاغ لها قصرا من فضة وقت ولايته، عمل فيه مدة وأنفق فيه مالا جسيما فجاء عجيبا لم تر العيون أعجب منه" (101). وفي الاتجاه نفسه أمر المعتمد بن عباد بصياغة غزال وهلال من ذهب، فصيعا، فجاء وزهما سبعمائة مثقال، فأهدى الغزال إلى السيدة ابنة مجاهد، والهلال إلى ابنه الرشيد، فوقع له إلى أن قال (102):

بَعَثْنَا بِالْغَزَالِ إِلَى الْغَزَالِ ... وَلِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ بِالْهَلَالِ.

كما ارتبطت العلاقات بوزن الهدية وثمنها لتزيد في معانيها وغايتها في توطيد المحبة ولإبراز القوة المادية التي تعيشها البلاد، وهو نوع من التباهي أو ردع العدو وإبعاد الخطر والتمكين من بقاء التبعية. ومن القرائن الكاشفة عن القوة والتباهي وصف ابن حيان هدية الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) لابن العافية بقوله "...وحق عاج آخر بأوصال فضة أيضا داخله قذح عراقي مملوء غالية مرتفعة... وزجاجة عراقية مذهبة فيها ماء ورد عراقي خلافي... مع هذه المخازن زجاجة عراقية بمسوح عراقي" (103).

أما الشكل الرمزي الثاني للهدية فهو مرتبط بالمصير والتحكم وسيطرة القوي على الضعيف، وهي حقيقة لمسناها من خلال هدايا المستعين بن هود (478-503هـ/1085م - 1109م إلى يوسف بن تاشفين التي قدرت "أربعة عشر ربحاً من آنية الفضة". ويؤكد صاحب الحلل الموشية أنه كان "يتحف يوسف بن تاشفين ويهاديه بكل ما يحصل من لدنه من نفيس الذخائر واليواقيت، والجوهر، ورفيع الدنانير". وكان ملوك الطوائف "...وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق كي يوجهها إلى الفنش هدية، يتقرب بها إليه" (104). أغلب هذه الهدايا إجبارية لإبعاد الضرر وضمان الحماية المؤقتة.

الخاتمة:

- إنّ تنوع الهدية من حيث الشكل والنوع، اتسمت بخصائص بنيوية ورمزية نجملها فيما يلي:
- خلقت الهدية قيمة تركز الخلق والإبداع في تطوير العلوم والمعارف.
 - كرست الهدية القيم الجمالية والأخلاقية والدينية من خلال تنوع أشكالها.
 - توطن العلاقات السياسية وتقريب المسافات بين الأعداء.
 - تولد الهدية روح التعاون والتكامل والتخاطب بين الأفراد والحكام.
 - تطبع الهدية المذمومة بطابع الأثنية وحب الذات والجاه، أما الهدية المحمودة توثق الصلات الاجتماعية وتقوم ببناء الشكل العلائقي بمصادقية في المجتمع.

الهوامش:

- 1 - ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (ت 711هـ/1311م)، لسان العرب المحيط، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، ج 15، ص 40.
- 2 - علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت 816هـ/1413م)، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص 215.
- 3 - أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامي المقدسي، المغني، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار عام الكتب، الرياض، ط 3 (1997م)، ج 8، ص 139.
- 4 - ابن قدامة، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن محمد (ت 620هـ/1223م)، المغني، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، وعبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ط 3 (1997م)، ج 8، ص 140.
- 5 - أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج 16، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1 (2006م)، ص 161.
- 6 - الراغب الاصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت 502هـ/1108م)، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء البلاء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط (1961م)، ج 2، ص 424.
- 7 - ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت 469هـ/1076م)، المقتبس، تحقيق محمود علي المكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (د.ت)، السفر الثاني، ص 290 ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت نحو 776هـ/1374م)، كتاب أعمال الأعلام، حققه ونشره إ. ليفي برونسسال بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت، ط (1956م)، ج 2، ص 21.
- 8 - موسى بن أبي العافية (313-341هـ/925-952م): كان متمسكا بدعوة العبيديين من الشيعة، وبانقراض دولة آل إدريس من فاس، تداول المغرب الأقصى العبيديون، وصفا الملك لموسى بن أبي العافية وقام بطرد الأدارسة. ودخل المغرب الأقصى والأوسط في ملكه، فخاطبه الناصر بدعوته على المنابر. وبذلك نقض طاعة الشيعة وبث دعوة الأمويين بأغمت. علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط (1973م)، ص 83، 84.
- 9 - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، الملقب بالناصر لدين الله (300-350هـ/912-961م) أعظم بني أمية سلطاناً وأطولهم في الخلافة. ينظر ترجمته: الحميدي: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت 488هـ/1095م)، جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1 (2004م)، ص 26 / ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت 469هـ/1076م)، المقتبس، تحقيق بيدرو شالميتا، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط (1979م)، (د.ط)، ج 5، ص 292 / ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، حققه ونشره إ. ليفي برونسسال بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت، ط (1956م)، (د.ط)، ج 2، ص 30، 41 / الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت 599هـ/1202م)، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط (2008م)، ص 17 / الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوطي، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت (د.ت)، ص 265.
- 10 - ابن حيان، المقتبس، تحقيق بيدرو شالميتا، ج 5، ص 390.

- 11 - محمد بن الخير بن خزر الزياتي من دعاة بني أمية الأندلسية في الشمال الإفريقي قد حارب بالاشتراك مع جعفر ويحيى ابن علي بن حمدون ضد زيري الصنهاجي. ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً سنة 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي برونسسال، ج.س. كولان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (2009م)، ج2، ص 360، 361 / ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2، ص 359.
- 12 - ابن حيان، المقتبس، تحقيق بيدرو شالميتا، ج5، ص 268.
- 13 - المصدر نفسه، ج5، ص 351.
- 14 ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكى، ص132
- 15 - أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى، ذو الوزارتين من أهل الأدب البارح له قوة في البديهة كان في أيام عبد الرحمن الناصر. الحميدي، المصدر السابق، ص 132 / ابن الأثير، أبو عبد الله محمد القضاءي البلسي (595-658هـ/1198-1260م)، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2 (1975م)، ج1، ص 237، 238.
- 16 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار العلم للجميع، بيروت (د.ت.)، ج4، ص138.
- 17 - عمر بن حفصون، كان من القائمين بالأندلس بأعمال رية سنة (275هـ/888م). ثار على الأمير محمد، والتجأ إلى حصن بيشتر، وكان جلدا شجاعا، ويقرض الشعر والجزل، وقد ألفت في الأندلس في أخباره وحروبه تواريخ مختلفة. الحميدي، المصدر السابق، ص 293 / ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص170.
- 18 - ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص 115، 116
- 19 - المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله (350-366هـ/ 961-976 م)، كان عالما فقيها جامعاً للكتب، عاكفا على المطالعة، إماما في معرفة الأنساب والأخبار والرجال. توفي وعمره 63 سنة وخلفه ابنه هشام المؤيد. ينظر ترجمته عند: ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ص42، 43/ الحميدي: المصدر السابق، ص26، 27/ الضبي، المصدر السابق، ص 18، 21/الذهبي: المصدر السابق ج 8، ص 269.
- 20 - ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 367.
- 21 - السفلاطون، نسيح من حرير مطرز بالذهب كان معروفا في بلاد اليونان ثم انتقلت صناعته إلى البلاد العربية واختصت بغداد بصناعته. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط (1989م)، ص 157.
- 22 - الفنك: حيوان من نوع الثعالب. ثريا محمود عبد الحسن، أزياء المجتمع الأندلسي من سنة (92هـ-625هـ)، مجلة كلية الآداب، جامعة ديالى، العدد 102، ص199 .
- 23 - ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص443.
- 24 - المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت (1988م)، ج.1، ص393.
- 25 - ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت نحو 776هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة (د.ت)، ج2، ص123-124

26 - هو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين المهري ذو الوزارتين يكنى أبا بكر، الأندلسي، الشاعر. تعلم علم الأدب على جماعة ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر. وعندما تسلم المعتمد بن عباد مدينة شلب من قبل أبيه إستوزره وسلم إليه جميع أموره، الأمر الذي جعل المعتضد ينكر ذلك وصرفه عن ولده فنفاه من إشبيلية، وتوجه إلى سرقسطة وكانت وفاته سنة 477هـ/1084م، ينظر الترجمة: ابن خاقان، أبي النصر الفتح بن محمد بن عبد الله، ت 529هـ/1135م، مطمح الأنفس ومسرح الناس في ملح أهل الأندلس، تحقيق، محمد علي شوابكة، دار عمار للرسالة، بيروت، ط1، 1403هـ/1983. ج4، ص426 / ابن دحية، عمر بن الحسن أبي الخطاب، ت633هـ/1235م (المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق، إبراهيم الأبياري، حامد عبد الحميد، وآخرون، راجعه، طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، دت.، ص169 / ابن بسام الشنتري، أبي الحسن علي، (ت 542هـ / 1148م) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997. ق2م1، ص368 .

27 - ابن الأيثار، الحلة السرياء، ج2، 162.

28 ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي (ت668هـ/1269م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط(1965م)، ص494/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص319 .

29- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص494.

30- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

31- تتكون المجموعة من: الراهب نيقولا، حسداي بن شبروط الإسرائيلي، محمد المعروف بالشنجار، أبو عثمان الحزاز الملقب باليابسة، محمد بن سعيد الطبيب، عبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، أبو عبد الله الصقلي. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص494.

32- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص494.

33- الضبي، المصدر السابق ، ص 121 .

34- أحمد بن عبد الملك بن هشام الاشبيلي، المعروف بابن المكوي، يكنى أبا عمر. كبير المفتين بقرطبة الذي انتهت اليه الرئاسة العلم بها أيام الجماعة. ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك(ت578هـ/1183م)، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت، ط1(2003م)، ص35-36.

35- المصدر نفسه، ص 54 .

36- أبو عبد الله، محمد بن يوسف الوراق، أندلسي الأصل والفرع نشأ بالقيروان، أباه من وادي الحجارة، ومدفنه قرطبة، وهجرته إليها. الضبي، المصدر السابق ، ص141.

37- ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 182 .

38- مطرف بن عيسى الغساني: من أهل غرناطة ، من أهل العلم والرواية للحديث. ابن بشكوال، المصدر السابق، ج10 ، ص 482 .

39 - ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى(610-685هـ/1213-1286م)، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للنشر والتوزيع، دمشق، ط1(1987م). ص184.

- 40- ابن الفرضي، أبي الوليد عبدالله بن محمد الأزدي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب المصري .
البناني، ط1 (1992م)، ج1، ص 239. 240 .
- 41- المقرئ، المصدر السابق، ج4، ص 163 .
- 42- ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 371 .
- 43- الضبي، المصدر السابق، ص 376 .
- 44 - ابن بسام، المصدر السابق، ق1، م1، ص551-552.
- 45- المأمون بن ذي النون (435. 476 م/ 1043 م . 1074 م) هو يحيى بن إسماعيل بن ذي النون تلقب بالمأمون خلف أبيه إسماعيل بن ذي النون سنة 435هـ/ 1043م)، في حكم طليطلة . توفي سنة 467هـ/ 1074م) . ينظر الترجمة، ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص609/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص277/ ابن الأبار، المصدر السابق، ص192- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص177.
- 46- هو عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري نسبة إلى مدينة وادي الحجارة، يكنى أبا محمد، وهو الأديب المصنف عاش في أواخر القرن الخامس، وكان أبوه أديب مدينة الفرج بوادي الحجارة، وكان هذا ماهرا كاتباً شاعراً رحالاً سكن مدينة شلب، ثم قدم إلى غرناطة وقصد عبد الله بن سعد صاحب القلعة وألف له كتاباً ثم إنصرف. ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص436.
- 47 - المصدر نفسه، ج1، ص436.
- 48 - هو أبي المطرف عبد الرحمن بن فتوح، كنيته أبو الحسن، يعرف بابن صاحب الإسفير، من مشاهير الأدباء، كما له شعر كثير وله عدة تليف في الأدب، منها الإشارة إلى معرفة الرجال والعبارة، ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص770.
- 49 - ابن بسام، المصدر نفسه، ق1م1، ص110.
- 50 - المصدر نفسه، ق1م1، ص578
- 51- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص501.
- 52- هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن سليمان بن هود توفي سنة (503 هـ/ 1088 م). ابن الخطيب، المصدر السابق، ص170/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص225- ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص348 / القلقشندي أبي العباس أحمد بن علي (ت 821 هـ / 1418 م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، ط(1421هـ/ 2006م)، ج5، ص255.
- 53- المصدر نفسه، ص 275 .
- 54- ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي (ت 646هـ/ 1249م)، مخطوطة منافع الحيوان وخواص المفردات، المكتبة الوطنية بفرنسا، تحت رقم Arab 2771، ورقة 03.
- 55 - أرسنة، جمع الرسن، وهي ما كان من زمام على الأنف. الفيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ): القاموس المحيط، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط6(1998م)، ص1200.
- 56- قرابيس، جمع قروبوس، وهي حنو السرج. الفيروز أبادي، المصدر نفسه، ص565.

- 57- حيوان اللط وهو " دابة دون البقر لها قرون دقاق لحادة لذكراتها وإناثها وكلما كبر الواحد طال قرنه حتى يكون أربعة أشبار وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما صنع من جلود العوانق منها وهي التي طال قرنها لكبر سننها. البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت487 هـ/1094م)، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (2003م)، ص171 .
- 58- ابن حيان، المصدر السابق، ج5، صص267، 278.
- 59- المصدر نفسه، ص261، 262 .
- 60- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت469 هـ/1076م)، المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحججي، دار الثقافة، بيروت، ط(1983م)، ص150 .
- 61- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص100 .
- 62- المعز بن عطية، ابن زيري بن عطية استقل بملك أبيه، وياد بصلح المظفر بن أبي عامر، ورجع إلى طاعته، توفي سنة 422 هـ/1031م. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص362.
- 63- مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بويابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (2007م)، ص224
- 64- ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص261.
- 65- إدريس بن إبراهيم السليماني الحسني، ابن إبراهيم صاحب أرشقول، آلت إليه بعد أخيه يحيى، سجنه القائد الشيعي ميسور الفتي سنة 323 هـ/935م، بسبب ولاءه لعبد الرحمن الناصر الأموي، ثم أخلي سبيله. العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى من نهاية القرن الثاني إلى أواسط السادس الهجريين، شهادة دكتوراه دولة في التاريخ، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، السنة الجامعية 2001-2002م، ص78.
- 66- ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص263.
- 67- المقرئ، المصدر السابق، ج3، صص82-83 .
- 68- المرعزي من أنصار اشبيلية، ظهر في دولة المعتمد بن عباد، وكان من مدّاحه. ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، صص-196-195. / المقرئ، المصدر السابق، ج3، ص521.
- 69- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، صص-196-195. / المقرئ، المصدر السابق، ج3، ص521.
- 70- ابن البيطار، المصدر السابق، ورقة79.
- 71- ابن خاقان، المصدر السابق، ص65.
- 72- هو المنصور عبد العزيز بن الناصر بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر، نازل مجاهد بدانية فضيق عليه حتى توفي سنة 425 هـ/1033م، ينظر الترجمة: ابن بسام، المصدر السابق، ج3م1، ص41/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص195/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص165.
- 73- ليفي بروفنسال، حضارة العرب في اسبانيا، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص56.
- 74- ابن حيان، المقتبس، ج5، ص389.
- 75- محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن عبد الملك بن مروان (238-273 هـ/852-886م) كان أميراً عاقلاً، وقد وسع علاقات قرطبة الخارجية تجاه العدو، وأقام روابط مع بني مدرار وأمراء سجلماسة وبني رستم

- أئمة نيهرت، وقام بغزوات كثيرة في جيليقية ونبيلونة . وفي عهده خربت ماردة وهدمت . ينظر ترجمته: الحميدي، المصدر السابق، ص 25 / ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص 1 / الضبي، المصدر السابق، ص 10، 11 / ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2، ص 21 / ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 121 / ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص 113، 114 / الذهبي، المصدر السابق، ج 8، ص 262.
- 76- الطغفري، أبو عبد الله محمد بن مالك (ت 501هـ/1108م)، زهرة البستان ونزهة الأذهان، تحقيق محمد مولود خلف المشهداني، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، ط (2005م)، ص 228.
- 77- أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي المشهور بابن زيدون، ولد بقرطبة سنة (394هـ / 1003م)، في خلافة هشام الثاني، تقلد الوزارة لدى أبي الحزم بن جهور، وأوكل له النظر في أهل الذمة وجعله سفيره لدى بعض ملوك الطوائف، كما لقبه بذي الوزارتين، ولكن بفضل وشايات بعض خصومه ألقى به ابن جهور في السجن. ثم إستوزره المعتضد بن عباد لمدة عشرون سنة، أي إلى سنة (461هـ / 1068م)، ثم إبنه المعتمد بن عباد وأخيرا عاد إلى قرطبة بعد سقوطها على يد بني عباد، وتوفي سنة (463هـ/ 1070م). ينظر الترجمة: ابن بسام، المصدر السابق، ق 1م 2، ص 337 / ابن دحية، المصدر السابق، ص 164. ابن خاقان، المصدر السابق، ص 209.
- 78- المعتضد بن عباد، هو أبو عمر بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد الحمي وتسمى أولا بفخر الدولة ثم المعتضد، ولد سنة (407هـ/1077م)، تقلد الحكم بعد وفاة أبيه سنة (433هـ/1041م). ينظر الترجمة: ابن عذاري، المصدر السابق، ص 204 / ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 155 / الحميدي، المصدر السابق، ص 29 / ابن بسام، المصدر السابق، ق 2م 1، ص 23 / ابن الأبار، المصدر السابق، ص 39.
- 79- المقرئ، المصدر السابق، ج 4، ص 94.
- 80- عبد القادر هني، مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأمل للطباعة والنشر، ط (1998م)، ص 134.
- 81- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4 (1979م)، ص 259.
- 82- أبو إمام محمد، جوانب من النشاط العلمي في الأندلس خلال العصر الأموي، مجلة دراسات دعوية، العدد 11، يناير 2006 (109-146)، ص 131.
- 83- دري الصغير من أشهر الفتيان الصقلية في بلاط الحكم المستنصر، تولى حكم مدينة بياسة في بداية عهد الخليفة هشام المؤيد، ثم قتله المنصور بن أبي عامر. وهو الذي كان يتولى دار صناعة قرطبة. ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 392.
- 84- ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، ص 106 - 107.
- 85- المصدر نفسه، ص 107.
- 86- المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 577.
- 87- عمر يوسف بن هارون الرمادي الكندي، شاعر قرطبي، كثير الشعر مشهور عند العامة والخاصة آنذاك، ارتفع شأنه أيام الحكم المستنصر. توفي سنة (403هـ/1012م). الحميدي، المصدر السابق، ص 357، 361 / ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 10، ص 519.
- 88- احسان عباس، تاريخ الادب الاندلسي - عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمان، ط 1 (1997م)، ص 158.

- 89 - المقرئ، النفح، ج6، ص48-49
- 90 - جاثان عز الدين شبانة، الجوارى وأثرهن في الشعر العربي في الأندلس، رسالة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي في جامعة الخليل، فلسطين، (2006م)، ص95.
- 91- المقرئ، المصدر السابق، ج3، ص577.
- 92- زرياب: هو على بن نافع مولى المهدي محمد بن جعفر المنصور، كان شاعرا ومغنيا، تتلمذ على يد إسحاق الموصلي المغني في بلاد الخليفة العباسي هارون الرشيد، انتقل إلى قرطبة (207هـ - 822م). ابن حيان، تحقيق محمود علي مكي، السفر2، ص308، 325/المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص344 / النشيا أنخل جنثال، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة(د.ت)، ص52، 53.
- 93 - عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (206-238هـ/822-852م) ذكره المؤرخون باسم الأمير عبد الرحمن الأوسط رابع خلفاء بني أمية في الأندلس. ينظر ترجمته في كل من: ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص121 / ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص19، 20.
- 94- المقرئ، المصدر السابق، ج3، ص130.
- 95- عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد، أبو مروان، والد أبي عامر، شيخ من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية. الحميدي، المصدر السابق، ص272 / ابن دحية، المصدر السابق، ص158-164/ابن بشكوال، المصدر السابق، ج6، ص289، 290./ ابن خاقان، المصدر السابق، ق1، ص189-201.
- 96 - جاثان عز الدين شبانة، المرجع السابق، ص92.
- 97- المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص349.
- 98- أبو يعقوب يوسف بن تاشفين من قبيلة لمتونة سيده الحلف الصنهاجي ولد سنة400هـ/1009م. ينظر الترجمة، ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص20/ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص246..
- 99- المصدر نفسه، ج4، ص75.
- 100 - ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص138 .
- 101 - المصدر نفسه، ج2، ص375.
- 102 - المقرئ، المصدر السابق، ج3، ص614.
- 103 - ابن حيان، تحقيق بيدرو شالميتا، ج5، ص352، 353.
- 104 - ابن كردبوس، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري(6هـ/12م)، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ط(1966م)، ص77.

الجزائر في أدبيات رحالة القرن التاسع عشر

رحلة المشرف في الجزائر أنموذجا

الدكتور عبد الحق شرف، جامعة تيارت

ملخص:

لا زالت الكتابات التاريخية حول الجزائر خلال القرن التاسع عشر تعتمد في مجملها على الكتابات الفرنسية بدرجة كبيرة. وقد يُبرَّر ذلك بكون المصادر الجزائرية خلال هاته الفترة كانت إما منعدمة، وإن وُجدت فهي في أغلبها لا تزال مخطوطة لم يرفع عنها غطاء النسيان. ومن هاته المصادر المهمة والتي نُسجت على منوال الرحلات، مخطوط عظيم الشأن، جليل القدر تحت عنوان "ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول" للعالم الجزائري العربي المشرفي العسكري الجزائري دفين مدينة فاس.

وقد قدّم لنا المشرفي من خلال هذه الرحلة وصفا مهما ودقيقا لمدن وأقاليم الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك بعد زيارته إلى الجزائر سنة 1877. ورغم أهمية هذه الرحلة فإنها ظلت لسنوات طوال، مقبورة داخل دور المخطوطات، ولم تنل حقها من الدراسة أو التعريف.

Abstract:

Historical writings about Algeria during the 19th century are still largely based on French writings. This may be justified by the fact that the Algerian sources during this period were either nonexistent, or even if they exist, they are generally still manuscripts that have been forgotten. Among these important sources, which were written during trips, a great manuscript, extremely important entitled "the treasure of the late and the first in a state of the news" of the Algerian Arab o Mascara El Machrifi buried n the Devine city of Fez.

During his journey, El Machrifi gave us an accurate description of Algerian cities and territories during the second half of the nineteenth century, after his visit to Algeria in 1877. Despite the importance of this journey, it remained for many years, buried inside the cited manuscripts.

مقدمة:

تعدّ الرحلات مصدرا مهما لكتابة التاريخ المحلي والوطني، وحتى الأحداث التي تصطبغ بصبغة العالمية. وفي هذا الصدد حفظت لنا الأيام رحلة مهمة من الرحلات التاريخية، للمشرفي الجزائري دفين فاس.

وهي رحلة مضى فيها صاحبها زائرا لعدة أصقاع من الجزائر وغيرها خلال النصف الثاني القرن التاسع عشر، ودون لنا من خلالها مشاهداته عن المناطق التي زارها. وهذه الرحلة وسمها صاحبها بـ"ذخيرة الأواخر والأول" والتي يسميها بعض المؤرخين بالرحلة الجزائرية. وقد نوّه بأهميتها وقيمتها التاريخية والأدبية المستعرب الفرنسي هنري بيريز "*Henri péres*". وقد قسمها إلى مقدمة، ستة أبواب وخاتمة؛ وما يهمنا منها هو الباب الخامس بيت القصيد في هذا المقال.

محطات من حياة صاحب الرحلة:¹

ينتسب العربي المشرفي إلى أسرة المشارف. وهو العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، بناء على ما قيده في كثير من مؤلفاته. وبالنسبة لتاريخ ولادته فإنه يطرح إشكالا كبيرا؛ وفي ظل هذا الإشكال الذي يخيم على تاريخ ولادته؛ فإنه أمكننا أن نتهدي إلى جملة من القرائن التاريخية كنا نعتقد أنها قد ترفعه وتقطع بيقينية تاريخ ولادته. فقد صرح المشرفي في مقدمة كتابه "الحسام" أنه بلغ سن الخمسين عند تأليفه حين قال: "وقد ناهز الخمسين جامعه ومؤلفه"²، وهذا الكتاب انتهى من تأليفه سنة 1285هـ/1868م كما أشار إلى ذلك هو بنفسه³؛ وبالتالي يكون قد حدّد لنا تاريخ ولادته تحديدا دقيقا؛ أي سنة 1818 وهو التاريخ الذي رجّحه صاحب "الإعلام".⁴

وعلى الرغم من أن هذا التحديد كان إلى حلّ لغز تاريخ ولادته أقرب؛ إلا أنه فاجأنا بعبارة في المؤلف نفسه حين الحديث عن قبيلة الكنسوس قائلا: "فالقبيلة البربرية التي ينتسب إليها وهي إدأوكنسوس كما في تأليفنا نزهة الأبصار"⁵⁶. هذه الرواية بدل أن تحلّ المشكلة زادت الأمور تعقيدا، فاستدلّ المؤلف بـ"نزهة الأبصار" الذي أتم تأليفه بعد انتهائه من "الحسام" بخمس سنوات تقريبا؛ أي يوم الأربعاء 18 رجب 1290هـ/11 سبتمبر 1873م⁷، وهو ما يطرح إشكالا آخر: متى أَلَفَ المشرفي "الحسام" حتى نقطع القول بأنه بلغ الخمسين وقتها؟

ومع أن هذا الإشكال يبقى قائما؛ فإن الإشارات التي أوردها المشرفي في عدد من مؤلفاته تجعلنا نجزم أنه من المستبعد جدا أن تكون ولادته سنة 1818، ومن المرجح أنها قبل هذا التاريخ بعشر سنوات على أقل تقدير. وربما يكون قد جاوز سن الستين عند تأليف "الحسام"⁸، سنداً في ذلك أن كل المعلومات التي أمكننا تتبعها لتدلّ دلالة واضحة أنه كان قد بلغ سن الرشد خلال سنة 1818، وهو ما يجعل احتمال ولادته في هذه السنة غير صحيح.

فقد أخبرنا بأنه كان يدرس في وهران سنة 1824⁹ وأنه غادرها إلى معسكر سنة 1830 بعد دخول الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ ليتولى تدريس الصبيان¹⁰، ثم وصّفه معارك الأمير عبد القادر الأولى ضد الاستعمار الفرنسي، وحضوره أولى التجمعات لمبايعته.¹¹ كما جاء في "طرس الأخبار" كذلك؛ أنه ساعد ثلاثة تجار مغاربة سنة 1836، في الانفلات من كمين لبعض قطاع الطرق وهو خارج من مدينة معسكر¹².

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه سلفا من أنه قد بلغ سن الرشد سنة 1818؛ هو ما ذكره صاحب "إتحاف المطالع" بأن وفاته كانت سنة 1313هـ/1895م عن عمر يناهز التسعين¹³، مما يعني أن ولادته كانت مع مطلع القرن التاسع؛ وفي السنوات الخمس الأولى على وجه التحديد.

وأما عن مكان ولادته؛ فمن المؤكد أنه ولد بقرية الكرط ضواحي مدينة معسكر¹⁴ ولم يشذ عن ذلك سوى صاحب "إتحاف المطالع"¹⁵. وذهب يحيى بوعزيز إلى أنه ولد بغريس¹⁶ التي ربما يقصد بها سهل غريس الواسع وقرية الكرط جزء منه.

وقد تلقى تعليمه الأولي ببيت عائلته، ثم التحق بكتاب بلدته الكرط لحفظ القرآن¹⁷. وانتقل بعدها إلى معسكر لیتیم مرحلة الجمع والتحصيل؛ فتتلمذه لثلة من شيوخها الأجلاء. ثم غادر إلى مستغانم وتتلمذ على مشايخها وعلمائها¹⁸.

وأخيرا استقر به المقام بتلمسان فوهران. حيث أشار عرضا إلى مقامه بالأولى، وتتلمذه على بعض علمائها كالشيخ الفقيه الحاج الداودي التلمساني وغيره. ثم انتقل إلى وهران في ماي 1824¹⁹، ليواصل تعليمه بها على شيوخه الذين تتلمذ لهم يادئ الأمر في معسكر.

وبعد الاحتلال الفرنسي قفل راجعا إلى معسكر، بعد أن أمضى ست سنوات من التحصيل بوهران، ليتولى تدريس الصبيان²⁰.

وبعد رجوعه لمعسكر، انطلق المشرفي في رحلة جديدة، بحثا عن العلم والتحصيل، فنزل ضيفا على منطقة مجاجة سنة 1833، لكنه لم يجد بها سوى عالمين اثنين²¹. وبعد انهزام الأمير عبد القادر في معركة عين طاقين سنة 1843، لم يبق المشرفي بمسقط رأسه طويلا، وشدّ الرحال مهاجرا نحو المغرب الأقصى سنة 1844، وبقي هناك إلى أن توفي رحمه الله - سنة 1313هـ/1895م²². وقد ترك بعد وفاته ثلة من التلاميذ كان معظمهم من عائلته، وأهمهم: محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي²³، علي بن الحاج بن موسى الجزائري²⁴، عبد القادر بن البشير، أبو العباس السيد أحمد.

التعريف بالرحلة: الرحلة عبارة عن مؤلفٍ يُعتبر من أهم مدونات العربي المشرفي وأجلّها قدرا. أتمّ تأليفه سنة 1882م. وهو تأليف يجمع بين التاريخ والرحلة يقع في سرفين من 333 ورقة. ويوجد بعضه بخط المؤلف بالخزانة الفاسية²⁵، بينما توجد النسخة الثانية منه بخزان الكتاني بفاس، ونقلت إلى الخزانة العامة بالرباط²⁶. وقد أشار إليها ابن سودة قائلا: "وله رحلة إلى بلاد الجزائر تقع أيضا في مجلد"²⁷، وهي معلومة يبدو أنه استقاها من الشيخ عبد الحي الكتاني الذي أخبر في كتاب دليل الحج والسياحة لأحمد بن محمد الهواري، أن للمشرفي رحلة جزائرية توجد بالجزائر، ويبدو أنّها نفسها ذخيرة الأواخر التي اشتهرت في الجزائر بالرحلة الجزائرية أو رحلة الشيخ المشرفي، وهو ما يدل عليه قول الشيخ الحفناوي: "الرحلة المسماة ذخيرة الأواخر والأول تأليف الشيخ أبي محمد سيدي العربي بن علي المشرفي الحسني في حال مروره بالجزائر سنة 1294هـ".

وقد أشار أبو القاسم سعد الله، إلى وجود نسخة أخرى بالمكتبة الوطنية الجزائرية لكن لم نعثر لها على أثر. كما ذكر في السياق ذاته أن هناك نسخة أخرى نقل عنها المستعرب الفرنسي هنري بيريز "Henri péres"، لكنه لم يذكر مكان تواجدها ولا ما آلت إليه.²⁸ وقد ذكر المنوني الخبير بالمخطوطات المغربية، أن هناك نسخة أخرى مبتورة الآخر بخزانة خاصة بمراكش، لكن دون أن يحدّد اسم الخزانة.²⁹

مناسبة تأليف الرحلة:

ألف المشرفي هذه الرحلة تلبية لطلب أحد أقاربه وهو تلميذه مصطفى المشرفي، حيث ورد في فاتحة الكتاب ما نصه: "فقد ورد علي مكتوب من لا تسعني مخالفتي، وتؤكد علي بالقرابة

إجابته، أن أضع تقييدا قاصرا على سيرة ملوك الأتراك... كما طلب مني ما نعلمه من سيرة ملوك الدولة العلوية، ونسبتهم الشريفة النبوية... فلبيته لما دعاه وأجبتة لمسعاه، وإن كنت لست أهلا لذلك، ولا ممن يسلك أوعر المسالك، والله الموفق لرقم الجواب، والهادي إلى أقوم طريق الصواب بمنه وفضله، ومنه وعدله"³⁰ "وسميته ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول، وبادرت لامتنال ما به المكتوب ورد، لينجز حر ما وعد، وهذا الباعث على تسطير هذه الرسالة، ولم أماطل في تسويد أوراق العجالة".³¹

وصنف العربي المشرفي مؤلفه على عادة المؤرخين القدامى في مقدمة، ستة أبواب وخاتمة. وما يهمنا هنا هو الباب الخامس الذي سرد فيه أطوار المرحلة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره بشيء من التوسع في ذكر تاريخ الأتراك، ثم الاحتلال الفرنسي للجزائر.

مضامين الرحلة:

توزعت مواضيع الرحلة - الباب الخامس منها- على شكل مواضيع قدم من خلالها مشاهداته عن الجزائر بعد زيارته لها، الأولى سنة 1849 والثانية سنة 1877 بعد أن كان مقيما بالمغرب أرض المهجر.

وقد أرخ المشرفي في هذا الباب للفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره، متسائلا عن أسباب تراجع المسلمين رغم ما يتمتع به الدين الإسلامي من غنى وتميز مقارنة مع النصرانية، مستشهدا بتعدد الزوايا والطرق وأدبيات التصوف، وكتب الطبقات والمناقب³²، كما أفرد حيزا هاما لتاريخ الجزائر وأحوالها خلال الحكم التركي، وإبان الفترة الاستعمارية، وفيما يلي تحليل لمضامين هذه الرحلة:

1- وصف الحكم التركي بالجزائر:

في حديثه عن الأتراك نجد المشرفي يعرض لأصلهم حين يقول: "دولة الأتراك المضادين لدين الإشراف، فالخير عنهم وعن شعوبهم، فالحكم أنهم من الأمم القديمة، وهم من نسل ترك بن كומר بن يافث، بن نوح عليه السلام".³³

كما نقل إلينا بعض مشاهداته في وهران عنهم، فأشار إلى تعسفهم وظلمهم وجورهم حين قال: "إلا أنهم أبادهم الله من المغرب، لما طغوا وبغوا طغيان الجور والفساد، حيث عتوا عتوا كبيرا،

وعاثوا في الأرض وأفسدوا، ومدّوا أيديهم بنهب الأموال، وسفك الدماء بغير حق، وهتك المحارم، وأحيوا ظلمهم القديم، ورجعوا لوصف آياتهم الذميمة³⁴، "ما أظنهم إلا من تلك الفئة الطاغية، والشرذمة الباغية"³⁵، وفي المقابل نوه بحبهم للعلماء، خاصة علماء أسرة المشارف.

2- ثورة الدرقاوين والتيجانيين على عهد الأتراك:

ثم تكلم صاحب الرحلة بشيء من التفصيل عن ثورة درقاوة، وما آلت إليه البلاد من تردّ في الأوضاع السياسية جرّاءها، مشيراً إلى بعض من سبقه في الكلام عن هذه الثورة مثل الشيخ أبي راس. يقول المشرفي: "ففي حدود العشرين من قرننا هذا ثار عليهم "درقاوة" أهل النظافة في الدين والنقاوة، فأول ملك منهم هزمه "مصطفى باي" المكنتي بـ"أبي كابوس" بمجرد مقابلة سيد هذه الطائفة الآتي ذكره للباي المذكور وهو في شرذمة قليلة، اهزم وترك محاله مبنية في وادي "فرطاسة" في أرض الحشم، ولم يثن عنان فرسه إلى أن دخل وهران"³⁶.

وقد تعرض بعد الحديث عن هذه الثورة، إلى انتقام الأتراك منهم، على أنه لم يطل الحديث فيها، حيث يقول: "فبعد تفرق الجموع والمواكب، استقرّ المطاوع لشيخه بجبل الكواكب، ومدّت الأتراك أيديهم في الرعية بالنهب وفعل الدنيّة، وأهل النسبة عندهم هم الأعداء، ومن جهر بكلمة الشهادة يسفك دمه من غير قبول شفاعة فيه وإلا قد أعضل الداء، فلا فاجر عندهم أعظم ممن يعلن بالهيللة أو يوحد الله رافعا صوته بالبسملة والحمدلة، إذ كل ذاكر عندهم درقاوي ييغضونه من بين غراوي وشرقاوي، حتى حسموا لهذه الطائفة المادة، ولم تبق في آياتهم ما تعدّه منهم العادة"³⁷.

لينتقل إلى الكلام عن ثورة التيجاني الذي اعتبره إحدى مظاهر عدم رضا الشعب الجزائري بالحكم التركي، يستشف ذلك من قوله: "وما كان مع ابن السيد أحمد التيجاني دفين فاس المحروسة، فقد ثار عليهم ابنه السيد محمد وجاءهم في نفي من رماة الصحراء، وساعدته قبائل الحشم ومن جاورهم وأعلنوا له بالنصر"³⁸.

3- الحديث عن مدينة الجزائر: ثم تكلم الرحالة المشرفي عن مدينة الجزائر وتاريخ

بنائها إذ يقول: "وكانت الجزائر هي أم مدائن الواسطة وقاعدة ملكهم معدة لحرب العدو، وأبراجها من جهة البحر محصنة بطبقات المدافع كأنها شعلة نار، أسفل الطبقات تضرب على وجه البحر،

وأعلاها تضرب ما طال من صاري السفينة"³⁹، وتحدث عن وليها عبد الرحمن الثعالبي⁴⁰ وتلميذه أحمد بن عبد الله⁴¹، ثم عرّج على ذكر دخول الفرنسيين إليها⁴².

4- مقاومة الأمير عبد القادر:

كما أشار المشرفي من خلال هذه الرحلة إلى مقاومة الأمير عبد القادر⁴³. وفي حديثه عنها، نجد موقفه من الأمير عبد القادر ينقلب رأسا على عقب مما ورد في "طرس الأخبار". فقد أشاد كثيرا به وبأعماله، ليعدل عن موقفه العدائي منه، والنص التالي يعبر بصدق عن ذلك: "ولما كانت نية الحاج عبد القادر خالصة في دينه، وملة نبيه صلى الله عليه وسلم، لم يعاقبه الله في الدنيا، فكانت معيشته ومعيشة أهله، على يد عدوه وصديقه، وأسكنه الله الأرض المقدسة، فصار يمشي بأرض تردد فيها جبريله على كل نبي ورسول، فيألفها من مشية بين قبور الأنبياء، وأهل الصلاح والأولياء، بعد أن جرد سيفه على الأعداء، وأضلهم مناضلة الصحابة والأشداء... سل عن تردده في الميدان ييجو وأحبار الرهبان، وسل عن تردده في الصفوف أودية سيك وشعاب خروف... فسبب سنة الجهاد التي أحيها في آخر الزمان، أحيا الله ذكره، وبتقديم والده المذكور، وحاز حمد الله وشكره"⁴⁴.

5- ثورة أولاد سيدي الشيخ:⁴⁵

وفي حديثه عن هذه الثورة نجده يقول: "فاقتحموا المشاق والمهالك، وثاروا ثورة المنون، وقالوا إنا لنا أجرا غير ممنون. تأمر الكبير منهم سنون وأعواما، وقتل بوالده جيوشا نصرانية وأرواما، ومات قرير العين يأخذ الثأر، وخلفه أخوه وما قال العثار، وشنّ على عدوه الغارات، وقتل من في الحصن وداخل المغارات، إلى أن مات ساكن الفؤاد، حيث قتل في والده الرؤساء والقواد وأمرأ الجيوش والأجناد، وخلفهما الأخ الثالث فأقسم بالسبع المثاني ورب المثلث، ليأخذ بئار الأخوين والوالد، ويحي تلك المشاهد، وما اندرس من تلك المعاهد". ويواصل المشرفي قائلا: "ولما رأى الفرنسيين الفتنة حول ساحته تحوم، وخيلها تخرج في تلك السحاري والتخوم، واستوطن الفتان له كورة سجلماسة خاطب سلطان المغرب ذا الرأي والحماسة أبو علي مولانا الحسن بن مولانا أمير المؤمنين محمد ليكشف عنه الفتان الذي هو في بلاده وبين رعيته يتردد".

وانتقل المشرفي بعد الحديث عن ثورتي الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ للحديث عن الإفرنج، وبعضاً من تاريخهم وأعمالهم بالجزائر، كإنشاء المدن وتوسيعها، وبناء الموانئ، وإنشاء الطرقات، واستصلاح الأراضي، وإنجازاتهم في قطاع التعليم.⁴⁶

6- الحديث عن العلماء والقضاة:

كما نجده في السياق ذاته، ينوه ببعض علماء الجزائر ويقدم تراجم وافية لبعضهم، فقد ترجم لكل من الحسن بريهمات⁴⁷، وأحمد قدورة⁴⁸ وعلي العمالي⁴⁹، ووالده أحميدة العمالي⁵⁰، وحمودة القاضي⁵¹، وجملة أخرى من العلماء، خاصة منهم علماء الأسرة المشرفية، وعلماء مستغانم وتلمسان.⁵²

ثم أفرد للقضاء فصلاً مستقلاً، وتكلم عن فضله وخطورة تقلده، حيث عدّه من أعظم الخطط الدينية الست دون الخلافة، أكمل قدراً عند الله تعالى⁵³، حيث يقول: "فاعلم أن أعظم الخطط الست دون الخلافة القضاء، وأكملها عند الله قدراً، فإلى القاضي المرجع في الجليل والحقير، ويختص بالنظر في الجراحات والتدميات".⁵⁴

ويؤكد المشرفي، على ضرورة حسن اختيار أعوان القضاء وتحديد أوصافهم، وضرورة رجوع القاضي للعلماء، باستشارتهم فيما يستجدّ من النوازل، إذ يقول: "وللقاضي، أن يتفطن أيضاً لأعوانه، ولا يرشح لإعانتة إلا العون الخير، بحيث يكون كالشاهد حراً ذكراً غير مغفل، لا يخدع ولا يقدح في عدالته، لأنه ترجمان القاضي وأمين سرّه وهديه وأمره...ومن سنة القاضي أن لا يستغني عن مشورة العلماء في كل نازلة نزلت، بل يستعين بهم في جليل الأمر وحقيقه، ومن أعرض عن مشورهم عميت عليه إفتاء الوجه الشرعي، وانطمست آثاره".⁵⁵

كما نجده يوصي "من ابتلي بالقضاء، والحكم بين العباد، أن يكون عاقلاً، عفيفاً، مرضياً، يغلب خيره على شرّه، فإن الحكم مبني على ميزان الاعتدال، فمتى رجح أو مال، تلفت به نفس ومال"⁵⁶. وقد أنهى المشرفي هذا الباب بخاتمة مطوّلة، تحدث فيها عن مدن المغرب الأوسط ومدينة أم العساكر:

7- مدينة أم العساكر: ⁵⁷ ذكرها المشرفي قائلا: "ومن مدن المغرب الأوسط أم العساكر وما سرير الملك ولا ينتقل الملك منها إلى وهران إلا إذا اشتد الحر على عساكره يذهب بها إلى ساحل البحر إلى أن يعتدل الهواء فيرجع إليها. وهي مدينة عامرة الديار، واسعة الأقطار، اشتملت على مدينة عرقوب إسماعيل وبابا علي والباب الشرقي والعين البيضاء وسيدي علي بن محمد، والكل محذون بالقصبة التي هي دار المخزن ومحل ديوانه وأحكامه. قد استدارها من جميع جهاتها ونواحيها بساتين التين وكرم العنب، وتينها أحسن التين لونا و أكبرها حجما وأنعمه شحما وأحلاه طعما، حتى يقال: " أنه ليس في الدنيا مدينة يوجد فيها هذا التين". ومنها يحمل التين والزبيب إلى سائر الأقاليم، من عدم تسويسه ويدخر لشدة السنين وتطول مدته، يجعلونه أعدالا ويسافرون به برا وبحرا ولا يتغير لونه ولا طعمه لامتزاجه في ظرفه فلا يتوصل لقسمه وقت المناولة إلا بآلة الحديد".

ويضيف المشرفي في وصف هذه المدينة قائلا: "وهواء هذه المدينة طيب لا وخم فيه، قليلة العلل كثيرة الغلل، لا تجتمع بها السفلى، تنفر الفجار وتقبل على التجار، لا تكسد السلع في أسواقها ولا تبور المنفقين في أرزاقها، للغريب عرين ولأهلها نعم المتبوء والقرين، اختطها حكيم الدولة بجبل الذهب، وبنائها للدين مأوى وحفظا لما ينتهب، يحجى إليها من الراشدية كل خير، ويذب عنها أهل غريس إساءة الغير، ويكفون عنها الأيدي العادية، فلا تعدو على أحوازها عادية، واستغنوا عن الحاجة، بمزارع عواجة، وبطحاء غريس أغنت الفرنج اليوم عن باريس، فحصن أسوارها، وتحف أدوارها وأطوارها، فخمّر عنبها، وخندريس تينها وعناها، لا يوجد في قطر من الأقطار، ولا يستعمل في مصر من الأمصار، توزن بالصرف، وتزلزل العقول إذا شربت حال الصرف".

8- أقاليم المغرب الأوسط: ذكر الرحالة المشرفي أن المغرب الأوسط اشتمل على مدائن عظيمة وأقاليم جسيمة وهي:

1.8- إقليم معسكر: ⁵⁸ فمن الأقاليم التي عرّف بها المشرفي هذا الإقليم ذكره قائلا: "إقليم معسكر المذكور، فيه ثغور بحرية معدة للأسطولات كمستغانيم ووهران، ومدائن برية كقلعة راشد

ومدينة اتيلوانت ومدينة البرج التي لا يوجد عندها إلا في النيروز، وإبان الحرث وقت فقد سائر الثمر، والحبّة منه تملأ الفم ولونه داكن يميل على السواد وجله أحمر قاني".

ويضيف قائلاً بعد ذكره جبل العمور: "وجبل العمور هذا من إقليم المعسكر وسائر قرى التل والصحراء، فتاقدمت التي أحيّاها الأمير عبد القادر بن محي الدين كانت لعبد القوي وقد ذكر "المغيلي" سطوته وقوة جنوده، بينها وبين المعسكر مسافة القصر أربعة برود فأكثر. وقصور الصحراء: قصر بوعلام، والخضراء، وتاويلا، والغاسول، وابرينة، والأبيض، والشاليتين القبيلة والظهرانية، وأبو سمغون، والعين الصفراء. وينتهي إقليم المعسكر إلى فجيج الذي هو محسوب من إقليم المغرب الأقصى.

كما تكلم المشرقي عن المدن التي أحدثها الفرنسيون بهذا الإقليم قائلاً⁵⁹: "وأحدث الإفرنج مدائن عظيمة حوالي المعسكر من سائر الجهات، فقد أحدث بوادي سيك بالكاف المعقودة، وبوادي هبرة مدائن، وزوّل السدر الهائل شوكة والرم والأثل والقطف بالقاف المعقودة، وغرس الأشجار ذات الثمار في موضع التي لا تثمر، وردّها جزيرة خضراء حبة الإحاص فيها أو التفاح تزن الرطل أو ما يقرب منه، وعنقود العنب من طازج ثمرته يشبع الاثنين والثلاثة إذا لم يكن فيهم شره وطمعة".

ويضيف قائلاً: "كما أحدث بوادي مينة مدائن وحضرّها للتجار، تعمر أسواقها من سائر الأقطار، وسائر البناءات على ضفة وادي شلف إلى الأصنام، مدينة عظيمة لم تكن في زمن الإسلام، واتخذ لها جسراً عظيماً يقرب من نصف الميل، بناه أولاً بالألواح، ثم بناه بعد ذلك بالحجر المنجور بناء وثيقاً". كما تكلم صاحب الرحلة عما آل إليه أمر هذه المدينة زمن الأمير عبد القادر ثم بعد استيلاء الفرنسيين عليها، حين يقول: "وفي زمن الحاج عبد القادر بن محي الدين جمعت أعشار قبائل بني "بوخنوس" على يد رئيسهم القائد أحمد بن الزيتوني، وجعلتها في سرب واحد وما ناصفته. وبعد استيلاء الإفرنج أحيّاها واتخذها محكمة لقبائل البربر الذين هم في سفح جبل ونشريس ومنهم

العلامة المنشريسي صاحب المعيار، ولمقابلتهم في عدوة أولاد القصير ومدائن مجاجة وأولاد فارس وأحميس إلى ثغر أنس".

2.8- إقليم مليانة والمدية:⁶⁰ قدم لنا صاحب الرحلة معلومات مهمة عن هذا الإقليم، فنجدته يذكر أن: "من أقاليم المغرب الأوسط أيضا إقليم مليانة والمدية، امتد من ثغر شرشال إلى أعراب تيطري وسر يمينا من جبل بني امناصر إلى جبال أبراز وجبال أهروات في عدوة وادي شلف الأخرى إلى مدينة "طازي" التي أحيها الأمير عبد القادر بن محي الدين، إلى جبل البخار إلى جبل بوسعادة إلى قبائل أولاد مقران إلى جبال أزواوه المحتوية على ألوف من القرى والمداشر".

3.8- إقليم الزاب:⁶¹ ومن الأقاليم التي عرّفها المشرفي وقدمنا لنا وصفا دقيقا عنها إقليم الزاب، الذي يقول عنه: "ومن أقاليم المغرب الأوسط إقليم الزاب المحتوي على مدائن وقرى، قاعدته بسكرة ومسيلة وقسمطينة، وثغوره عنابة وبجاية، وامتد هذا الإقليم إلى خط الجريد، تبيء إليه من نقطة وتوزر وسوف ثمرات النخيل، وعجوته الفائقة على تمره دقلة النور أحلى من السكر وشهد العسل، إلا أن الذي سقطت أسنانه لا يقدر على مضغها إلا إذا دقت وسفّ دقيقتها يجد حلاوها ونفعها، وينتهي هذا الإقليم يمينا إلى قرى امزاب وعين ماضي والأغواط الشرقي لجبل العمور".

خاتمة: وعموما فإن هذه الرحلة تعتبر من الرحلات الفريدة من نوعها فيما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال القرن التاسع عشر خاصة إذا وضعنا في الحسبان أن الوصف الذي قدمه المشرفي عن الجزائر هو وصف لا نكاد نجد له مثيلا في الكثير من المؤلفات الجزائرية في هذه الفترة عدا التقارير الفرنسية.

الهوامش:

1- عن حياة العربي المشرفي بالتفصيل؛ راجع كتابنا حول هذه الشخصية: "العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفى 1895-حياته وآثاره"، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرباط، ط1، 2011.

2- العربي المشرفي، الحسام المشرفي و9و. وهذا المخطوط قمنا بتحقيقه إلى نهاية الترجمة الرابعة في إطار أطروحة دكتوراه تاريخ ونوقشت سنة 2012. وسيطبع المخطوط كاملا بتحقيقنا قريبا إن شاء الله.

3- المصدر نفسه، و365و.

4- عباس بن إبراهيم، الإعلام، ص: 27.

- 5- وردت العبارة في نزهة الأبصار. ينظر: العربي المشرفي، نزهة الأبصار، ص: 307.
- 6- العربي المشرفي، الحسام المشرفي، و33ظ.
- 7- العربي المشرفي، نزهة الأبصار (نسخة الخزنة الحسنية)، ص: 3.
- 8- ألف المشرفي بعد إتمام الحسام مباشرة مخطوط الآيات والحوادث الذي ذكر فيه بعض الإشارات عن الحسام وكان ذلك في 29 صفر 1285هـ/ 1868م أي شهرا ونصف بعد الانتهاء من الأول، وهو ما يجعلنا نقول بأن التاريخ الذي ذكره عن تأليف الحسام صحيحاً، إلا أنه يكون قد بلغ أكثر من خمسين سنة عند تأليفه. ينظر: العربي المشرفي، الآيات والحوادث، و10ظ.
- 9- العربي المشرفي، الرد على أبي راس، ص: 04.
- 10- العربي المشرفي، ديوان نظم، و111و.
- 11- العربي المشرفي، طرس الأخبار، ص ص: 180-182.
- 12- راجع الرواية في: طرس الأخبار، ص ص: 198-199.
- 13- ابن سودة، إتحاف المطالع، ص: 2805.
- 14- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 303.
- 15- فقد ذكر أنه ولد وتعلم بتلمسان. ينظر: ابن سودة، إتحاف المطالع، ج7، ص: 2805.
- 16- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، ص: 232.
- 17- ذكر المشرفي شيوخه في هذه المرحلة في ديوانه. ينظر: العربي المشرفي، ديوان نظم، و111ظ.
- 18- عن شيوخه في هذه المدينة راجع: العربي المشرفي، ذخيرة الأواخر ص: 09.
- 19 - Henri Pérès, l'Algérie vue par deux voyageurs musulmans. p : 261.
- 20- عبر عنها بقوله: "ففاجأاً" خروج الإفرنس دمره الله للثغر الجزائري، فلم يتم لنا المراد في قراءة التفسير ومتون الصحاح، فرجعت لغريس ظافراً بالنعوت والفقيها والحمد لله، وانتصبت في حياة والدي للتدريس وقرت بي عينه". ينظر: العربي المشرفي، ديوان نظم، و111ظ.
- 21- لم يذكر المشرفي اسمي هذين العالمين. ينظر: العربي المشرفي، باقوتة النسب، ص: 35.
- 22- محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، ص: 91.
- 23- عن ترجمته راجع مقدمة تحقيق الحلل البهية، بتحقيق: إدريس بوهليلة.
- 24- عن ترجمته راجع: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص: 72.
- 25- عبد السلام بن سودة بن عبد القادر، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، بيروت: دار الفكر، ط1، 1997م، ص: 100.
- 26- المصدر نفسه، ص: 100.
- 27- نفسه، ص: 100.
- 28- أبو القاسم سعد الله، "مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر"، الثقافة، تصدر عن وزارة الثقافة الجزائرية، عدد 75، سنة 13، 1983م، ص: 81.
- 29- محمد المنوني، المصدر السابق، ج2، ص: 91.
- 30- المصدر نفسه، ص: 91.
- 31- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 03.
- 32- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص: 404.
- 33- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 04.
- 34- المصدر نفسه، ص: 06.
- 35- نفسه، ص: 07.
- 36- نفسه، ص ص: 04-09.
- 37- نفسه، ص: 09.
- 38- نفسه، ص: 11.

- 39- نفسه، ص: 12.
- 40- **النعالي**: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد، الشهير **النعالي**، مفسر، محدث، فقيه، وصوفي من كبار علماء الجزائر. ولد عام 786هـ شرقي مدينة الجزائر، من آثاره: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. توفي سنة 875هـ بالجزائر. ينظر: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: منشورات مكتبة دار الحياة، مج2، ج4، ص: 152.
- 41- **أحمد بن عبد الله**: الزواوي الملوي المغربي المالكي، نزيل الجزائر، فقيه متكلم صوفي، صاحب القصيدة المشهورة في التوحيد الموسومة **المنظومة الجزائرية**، التي كان الشيخ السنوسي أحد شراحها. توفي سنة 884هـ. ينظر: السخاوي، المصدر السابق، مج1، ج1، ص: 374.
- 42- العربي المشرقي، الذخيرة، ص: 19 - 21.
- 43- المصدر نفسه، ص: 39 - 45.
- 44- نفسه، ص: 20.
- 45- نفسه، ص: 46 - 48.
- 46- نفسه، ص: 24 - 27.
- 47- **الحسن بريهمات**: فقيه عالم مشارك، ولد حوالي عام 1821م. توفي سنة 1833م. ينظر: الحفناوي أبو القاسم محمد بن إبراهيم، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق وتقديم محمد أبو الأحناف وعثمان بطيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، تونس: المكتبة العتيقة، ط1، 1982م، ج2، ص: 120.
- 48- **أحمد قدورة**: من علماء الجزائر وفقهائها، تولى الإفتاء بعد وفاة أخيه محمد سنة 1107هـ. وقد توفي مقتولا عام 1118هـ/ 1706م **بأمر** من الباي محمد بكداش. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 356.
- 49- **علي العمالي**: بن أحمد بن محمد أبو الحسن، فقيه مشارك من كبار علماء الجزائر في العهد الاستعماري قرأ على والده أحميدة العمالي. ولد سنة 1848م، وتوفي عام 1906م. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص: 546 - 548.
- 50- **أحميدة العمالي**: فقيه محدث، ولد سنة 1812م، توفي عام 1873م، ودفن بروضة الإمام النعالي. من آثاره رسالة في أحكام المياه، رسالة في ترتيب القضاء. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص: 154.
- 51- **حمودة القاضي**: فقيه عالم بفروع المذهب المالكي، ومداركة. قدمه الولاة من بين العلماء لأهليته بصناعة القضاء، وسياسته الدينية والدنيوية، ودكائه وفطنته. ينظر: العربي المشرقي، الذخيرة، ص: 33.
- 52- المصدر نفسه، ص: 23 - 34 و ص: 38 - 49.
- 53- نفسه، ص: 33 - 36.
- 54- نفسه، ص: 29.
- 55- نفسه، ص: 32 - 33.
- 56- نفسه، ص: 34.
- 57- نفسه، ص: 25.
- 58- نفسه، ص: 25.
- 59- نفسه، ص: 25.
- 60- نفسه، ص: 25.
- 61- نفسه، ص: 25.

دور فرنسا في الإصلاحات العثمانية خلال عهد سليم الثالث 1789-1807 الأسناد كمال حسنة، جامعة تيارت

الملخص:

شهدت فترة حكمه السلطان العثماني سليم الثالث 1798-1807 مجموعة من الإصلاحات في ميادين مختلفة ابررها الميدان العسكري، الذي مثل الحلقة الأضعف في الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ونظرا لتأثره بالنموذج الفرنسي طالب من فرنسا الحصول على مهندسين وضباط لتكوين العثمانيين على المناهج الحديثة.

يمكن تقسيم الدور الفرنسي في الإصلاحات العثمانية إلى مرحلتين، الأولى قبل الحملة الفرنسية على مصر، والتي كان فيها للمهندسين والمدرسين وحتى السفراء الفرنسيين باسطبول دورا كبيرا في دعم البرامج الإصلاحية العثمانية، خاصة في الميدان العسكري، والتي سمحت للسلطان العثماني بتأسيس ما سمي "بالنظام الجديد".

رغم القطيعة العثمانية الفرنسية بسبب الحملة على مصر إلا أن المساعدات الفرنسية عادت من جديد بعد الصلح بين الطرفين، وهي المرحلة الثانية من الدور الفرنسي في الإصلاحات العثمانية، حيث وافق نابليون في عهد القنصلية والإمبراطورية بمواصلة دعم السلطان العثماني في إصلاحاته، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تقوية مكانة فرنسا لدى الباب العالي، ومواجهة النفوذ الروسي الذي بقي يهدد العاصمة العثمانية باستمرار.

كان الاعتماد على الفرنسيين والأوروبيين أحد الأسباب التي أدت إلى ظهور المعارضة ضد سليم الثالث قبل التيار المحافظ، الذي تمكن من الإطاحة به، وراح بذلك ضحية إصلاحاته التي أرادها أن تكون على النمط الغربي الأوروبي.

The Summary : The reign of the Ottoman Sultan Salim III (1798-1809) witnessed several improvements in different domains, especially the military field. The later was the weakest link in the Ottoman state during the second half of the eighteenth century. He was influenced by the French model, therefore he asked France about inspectors and officers to form his military on their modern methods.

We can divide the French role in the Ottoman reforms into two stages. The first stage is before the French campaign upon Egypt; in fact there were French engineers, teacher, and also ambassadors who played a significant role in supporting the Ottoman changes at the level of military, the fact that brought "The Modern System" to life.

Besides the Ottoman French disagreements on the French campaign, the French aids continued after the reconciliation of both countries, and this is the second stage of the French role. Napoleon agreed to support the Ottoman reforms during his imperial; he aimed to strength the French position against the Russian authority which threat the Ottoman's capital constantly.

The French and the European depending was one of the reasons that made the opposition against Salim III appeared before the conservatives overthrew him. Indeed, he was victimized by his new changes that he wanted to be as the European style.

الكلمات المفتاحية:

سليم الثالث، نابليون، الإصلاحات العثمانية، فرنسا، النموذج الفرنسي، المساعدات الفرنسية، المهندسين الفرنسيين، النظام الجديد، الميدان العسكري.

Salim III, Napoleon, Ottoman reforms, French, French model, French engineers, The French aids, The Modern System, Level of Military,

مقدمة:

إن التحالف الذي وُقِع بين سليمان القانوني وفرنسا الأول منذ الربع الأول من القرن السادس عشر لم يكن شكلاً من غير مضمون، بل وعلى العكس من ذلك فقد كان لفرنسا على الدوام مركزاً مميزاً داخل الدولة العثمانية، لذلك فالسلطة السياسية في اسطنبول لم تكن قادرة على النظر إلى كل دول أوروبا كقوى معادية من غير تمييز¹.

هذا ما يفسر إقدام سليم الثالث قبل وصوله إلى العرش، على بعث رسالة إلى الملك الفرنسي لويس السادس عشر، عبر له فيها عن رغبته في إقامة علاقات ودية وتحالف ثابت مع فرنسا، كما أنه قد أرسل أحد أعوانه وهو إسحاق باشا إلى باريس، للتشاور حول مستقبل العلاقات الفرنسية العثمانية، ومن جهة أخرى كان سليم الثالث معجباً بالحضارة الغربية منذ صباه².

وصل سليم الثالث إلى سدة الحكم في عام الثورة الفرنسية 1789، لكن هذا الحدث لم يغير من أفكاره حول التحالف العثماني الفرنسي وإمكانية التحديث المعتمد على المساعدة الفرنسية. والإشكالية المطروحة في هذا الصدد: ما هي أبرز مظاهر الدعم الفرنسي للإصلاحات العثمانية خلال عهد السلطان سليم الثالث؟

سليم الثالث والإصلاحات:

إن سليم الثالث هو أحد سلاطين القرن الثامن عشر الذين دفعهم خلافهم مع قوات الإنكشارية وعدم اقتناعه بقدراتهم، إلى الاندفاع في تيار الإصلاح، أما البارز في عهده فهو إقامته لأول تجربة من نوعها في الإطار الإسلامي، وتتمثل في إصلاح عسكري واقتصادي شامل، أما نموذج الإصلاح فهو المثال الفرنسي.

ولتجسيد مشروعه الإصلاحية أحاط سليم الثالث نفسه بمهينة استشارية³، تتكون من 22 شخصا لتحضير برامج الإصلاح، من بينهم فرنسي يسمى برتروند (Bertrand)، الذي عمل في الجيش العثماني، إضافة إلى المترجم الأرمني موروجا دوهسون (Mouroudja D'ohsson) الذي كان يتكلم اللغة الفرنسية جيدا⁴.

وهذا بحد ذاته ذو مغزى فلم تكن الاستعانة بغير مسلم لمنصب رفيع لتعيق هذا السلطان، الذي وضع نصب عينيه نموذجا أوروبيا يحتذ به، وبالتالي فإن قيام عهد سليم الثالث قد وضح بأن السلطة الحاكمة في إسطنبول قد قطعت شوطا كبيرا في علاقاتها مع الدول الأوروبية⁵.

أما عن الدور الفرنسي في الإصلاحات العثمانية فلقد كان فعالا من دون شك، حيث ساهم الضباط والخبراء الفرنسيون في إنجاح مشاريع الإصلاح، عن طريق مساعدة الدولة العثمانية في التدريب والتدريب، وتسيير المؤسسات العسكرية⁶. ويمكن تقسيم هذا الدور إلى مرحلتين أساسيتين.

مرحلة ما قبل الحملة الفرنسية على مصر: كان الدور الفرنسي في إصلاح المؤسسات العسكرية العثمانية بارزا، حتى قبل عهد سليم الثالث، حيث تكررت المبادرات الفرنسية طيلة القرن الثامن عشر⁷، فالسلطان مصطفى الثالث وخليفته عبد الحميد الأول استعانوا بخبرات البارون دو توت (Le baron de Toot) الفرنسي، الذي كان عليه بموجب مهمته أن يدرب و يدرس طلابه من الضباط العثمانيين الفنون العسكرية والرياضيات الحديثة، كما استقبلت إسطنبول في عهد عبد

الحמיד الأول عام 1784 بعثة فرنسية⁸، مكونة من عشرات الخبراء على رأسها السفير الفرنسي باسطنبول وعضو الأكاديمية الفرنسية قوفيه (Gouffier)⁹، الذي كان من مهامه المساهمة في إصلاح المؤسسات العسكرية والإدارية العثمانية، فدعي إلى ضرورة الأخذ بالوسائل العلمية الحديثة. هذا بالإضافة إلى الدور الكبير الذي لعبه الجنرال الفرنسي لافيت (Lafitte)¹⁰، في إنجاح مشاريع الإصلاح، من خلال إشرافه على تعليم العثمانيين مختلف مناهج وفنون الحرب الحديثة¹¹.

في تلك الفترة كانت فرنسا مستعدة لاستقبال البعثة العثمانية التي أعدها الوزير خليل حميد، و التي كانت ترمع الالتحاق بمعاهد فرنسية، لكن البعثة لم تغادر اسطنبول¹²، بسبب المؤامرة التي أطاحت بالوزير حميد¹³، من قبل التيار المعارض للإصلاح¹⁴. أقدمت فرنسا على تقديم هذه المساعدات والتسهيلات من اجل تقوية الدولة العثمانية، بعد ما رأت أن الطموح الروسي يهدد مصالحها في المنطقة¹⁵، لذلك استمر الدور الفرنسي في الإصلاح العثماني خلال عهد سليم الثالث، والذي يعتبر امتداد للمجهودات التي بذلتها فرنسا في القرن الثامن عشر.

لكن في الفترة الممتدة من بداية الثورة الفرنسية إلى غاية 1792 ليس لدينا ما يشير إلى وجود مبادرات فرنسية مماثلة، وهذا راجع إلى انشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية بسبب ثورتها، في حين كانت الدولة العثمانية لا تزال في حروب مع النمسا وروسيا.

بإدار سليم الثالث إلى طلب المساعدة الفرنسية رسمياً خلال خريف 1793، حيث أرسل الباب العالي إلى فرنسا قائمة باحتياجات الدولة، من الضباط والتقنيين لتنفيذ التدريبات وإدارة المعاهد الجديدة ولقد لبت الحكومة الفرنسية الطلبات العثمانية، وكان نابليون (Napoléon) عام 1794 يفكر في العمل على خدمة السلطان العثماني وقيادة قواته المدفعية، حيث أن طموحاته غير المحدودة جعلته يفكر في مغادرة فرنسا ليصنع اسماً له في المشرق¹⁶.

رغم أن نابليون قادته الأحداث إلى حروب في أوروبا، بدلاً من أن يتوجه إلى اسطنبول لمساعدة السلطان العثماني في إصلاحاته، إلا أنه أكد في 30 أوت 1795 أنه في وقت وطدت فيه قيصر روسيا كاترين الثانية (Cathrine II) صداقتها مع النمسا، أصبح من مصلحة فرنسا أن تعمل

كل ما في وسعها لتحسين وتطوير الجهاز العسكري العثماني، وأضاف أن قوات السلطان عددها كبير لكنها تجهل فنون القتال الحديثة.

أما فيما يخص المساعدات التي طلبتها الدولة العثمانية من فرنسا فقال نابليون: "... بعدما أحس الباب العالي بضعف قواته، طلب عدة مرات ضباط المدفعية، ولدنا بعضهم الآن لكن عددهم قليل وليسوا مكونين بما فيه الكفاية لتدريب وتدريب العثمانيين ... " 17.

ومن جهة أخرى أكد نابليون رغبته الكبيرة في الذهاب إلى اسطنبول ومن جملة ما قاله في الموضوع "... لقد قمت ببعض التمارين والتحضيرات في قيادة جسم المدفعية لجيوشنا في مراحل مختلفة، خاصة مع القوات الموجودة بطولون، وسأطوع للذهاب إلى اسطنبول إذا طلبت مني الحكومة الفرنسية ذلك، وسأصطحب معي ستة أو سبعة ضباط، كل واحد منهم يكون متخصصا في ميدان من العلوم التي لها علاقة بالحرب..." 18.

كان نابليون يرغب في الخروج من فرنسا لتحقيق طموحاته، لو منحت له الفرصة من قبل الحكومة الفرنسية، لكن التطورات التي حدثت في أوروبا دفعته إلى خوض حروب توسعية في إيطاليا بدل التوجه إلى المشرق، ومنذ ذلك الوقت أكد انه رجل مغامر أراد أن يصنع اسما لنفسه خارج القارة الأوروبية.

إن اهتمام حكومة الإدارة بمساعدة الدولة العثمانية في إصلاحاتها بدأ يأخذ وتيرة متصاعدة، خاصة وأن فرنسا كانت قد خرجت من أزمتها الداخلية منذ سنة 1795، لذلك كلفت الحكومة الفرنسية سفيرها الجديد في اسطنبول ريمون فرينيك (R.Verninac) بمساعدة الدولة العثمانية في إصلاحاتها العسكرية ، حيث وضعت تحت تصرفه عدة ضباط فرنسيين ، عملوا من اجل الدخول في خدمة الباب العالي 19، ومساعدة السلطان العثماني في إصلاحاته خاصة العسكرية منها 20.

كانت حكومة الإدارة تكلف سفرائها في اسطنبول بمساعدة الباب العالي في الإصلاحات العسكرية، وبعد أن تم تعيين أوبير دوبي (A.Dubayet) سفيراً لها باسطنبول في أكتوبر عام 1796، كلفته بدوره بأخذ بعض المدافع لاستعمالها كنماذج في التدريبات، كما رافق هذا السفير إلى اسطنبول بعض الضباط ورجال المدفعية، قصد القيام بتكوين العثمانيين، وتوجيه الأعمال

الخاصة بصناعة الأسلحة ، إضافة إلى تقديم دروس للجيش العثماني حول طريقة استعمال الأسلحة²¹ .

استمرت المساعدات الفرنسية ببعث ضباط ومكونين إلى اسطنبول، حتى سنة 1798 حيث كان السلطان سليم الثالث يطلب في كل مرة خبراء ومدرسين خاصة من فرنسا والسويد.²²

أما عن الإنجازات التي حققت في هذه المرحلة والتي كان للفرنسيين فيها دورا بارزا، فقد تجلت في ميدان الهندسة العسكرية والبحرية، حيث نجد أن سليم الثالث قد أحس بمدى أهمية وجود مهندسين عسكريين ذو كفاءة عالية، لذلك قام بإعادة فتح مدرسة سولتزي (Sultzé)²³ من جديد، مع الاستغناء عن المدرسين والمسؤولين السابقين فيها واستبدالهم بأساتذة جدد، أغلبهم كانوا تلاميذ الجنرال الفرنسي لافييت²⁴.

لكن الملفت للانتباه هو القبول باستخدام اللغة الفرنسية كلغة مساعدة في التعليم، الذي كانت برامج حديثة إلى أقصى الحدود، ففي مدرسة الهندسة كان الطالب يتلقى خلال أربع سنوات من الدراسة معلومات في الرياضيات والجغرافيا، والجبر و الهندسة وحساب المثلثات، بالإضافة إلى اللغتين العربية والفرنسية، وغير ذلك من المواد، كما حصلت حركة ترجمة واسعة للكتب العلمية والعسكرية (25) .

ولقد تخرج من مدرسة الهندسة عثمانيون تحصلوا على درجة مهندس كالفا (Calfa) أو مهندس مساعد، و بذلك تم تكوين نخبة جديدة من المهندسين العسكريين وفقا للبرامج الأوروبية الحديثة. كما تم إنشاء مكتبة احتوت على آلاف الكتب الفرنسية حول فن الحرب، والعلوم الفيزيائية والرياضيات، إضافة إلى كتب أرسطو (Aristote)²⁶، كما تم إصدار الموسوعة الفرنسية وساهم فيها لأول مرة طلاب مدرسة سولتزي²⁷ ، والتي أصبحت فيما بعد مطلوبة بكثرة.

كان السلطان سليم الثالث يزور تلك المدرسة باستمرار، ويسأل الطلاب بنفسه، ويقوم بتفحص المخططات بعناية كبيرة، مع إطلاعه على المشاريع الجديدة للإنجازات العسكرية، كما أنه كان يشجع الأساتذة والمهندسين لبذل مجهودات أكثر²⁸.

أما في ميدان البحرية فقد تم الاستغناء عن نظام الصناعات البحرية القديمة، واختار السلطان لقيادة البحرية العثمانية، القابودان كوت شوك حسن، هذا الأخير طلب من سليم الثالث إحضار

مهندسين من فرنسا والسويد، وبذلك بعثت فرنسا إلى إسطنبول كل من برون (Brun) وبونو (Bounoit)، كما بعثت السويد عدة مهندسين من بينهم روبي (M.Robé) ²⁹ الذين كان لهم دوراً كبيراً في بعث قوة البحرية العثمانية من جديد، ³⁰ هذا بالإضافة إلى دور العلي انجلز مصطفى ³¹ في تدريب وتكوين العثمانيين ³².

كما قام سليم الثالث بفتح مدرسة البحرية ³³ من جديد، حيث أعيد تنظيمها من قبل القبودان كوشوك حسن، الذي كلف مهندسين أوروبيين بتكوين أكثر من مائتي طالب عثماني، قسموا إلى فوجين الأول لضباط البحرية، والثاني لتكوين مهندسين لصناعة السفن، أما عن التدريب فقد عمل المهندسون الفرنسيون على تكوين العثمانيين على التنظيمات التي تدربوا عليها في ميناء طولون.

وفي بداية إصلاحاته قام سليم الثالث بفتح عدة ورشات لصناعة السفن، وفي وقت وجيز، تم صنع حوالي عشرين سفينة كبيرة، يمكن مقارنتها بأحسن السفن الفرنسية. ³⁴ ولقد أشار السيد مصطفى إلى القوة البحرية العثمانية ³⁵، حيث قال: "... أما بالنسبة للبحرية والتقدم الذي أحرزته خلال وقت قصير، فإننا نحيله إلى أصدقائنا من الأوروبيين الذين جاءوا إلى إسطنبول، والذين كانوا شهود عيان على مدى قوتنا البحرية ³⁶، ومدى صلابته بناء سفننا، ونرجوهم أن يفصحوا عن مشاعرهم بهذا الخصوص... " ³⁷.

إن كل هذه الإصلاحات كانت قد أنجزت خلال سنوات قليلة، مما زاد من القوة البحرية العثمانية إلى درجة أن جوشرو (Juchereau) ³⁸ قال: "... أنه يمكن وضع الأسطول العثماني في تلك الفترة في مصاف الأساطيل البحرية للدول الأوروبية الكبرى... " ³⁹.

وخلال الفترة الممتدة بين 1792-1798، أمكن القيام بالعديد من الإصلاحات المذكورة أعلاه ⁴⁰، والتي كان فيها الدور الفرنسي بارزاً، لكن العلاقات الدبلوماسية الفرنسية - العثمانية قطعت بين 1798-1802 ووضع القائم بأعمال فرنسا في إسطنبول قيد الاعتقال، بسبب غزو نابليون لمصر، مما أثر على سير البرامج الإصلاحية، وشجع السفير الروسي لدى الباب العالي على الطعن فيها ⁴¹.

كما أن الحملة الفرنسية على مصر أدت إلى ازدياد نشاط التيار المعارض للإصلاحات والمتكون من العلماء المحافظين والجيش الإنكشاري⁴²، حيث نشبت ثورات في عدة مناطق بين الجيش الإنكشاري والجيش الجديد، ولقد وصلت هذه الثورات حتى مشارف العاصمة إسطنبول⁴³. استغل سليم الثالث فرصة إعلان الحرب على فرنسا في الفاتح سبتمبر 1798 لتجريب الجيش الجديد⁴⁴، في الدفاع عن مدينة يافا، حيث أظهر استماتة كبيرة أمام الجيش الفرنسي⁴⁵. إن الاستقرار السياسي الذي عرفته الدولة العثمانية، منذ عام 1792 أتاح للسلطان سليم الثالث تجسيد العديد من أفكاره الإصلاحية، وفي وقت وجيز استطاع أن يعيد شيئاً من هيبة الدولة العثمانية، خاصة في الميدان العسكري، لكن الحملة أدت إلى تعطيل العديد من المشاريع الإصلاحية، وتخريب بعض الانجازات المحققة⁴⁶، لذلك يمكن اعتبار الحملة حداً لنهاية مرحلة هامة من الإصلاحات التي قام بها سليم الثالث، إذ توقفت المساعدات الفرنسية للعثمانيين مدة تفوق ثلاث سنوات.

مرحلة ما بعد الحملة الفرنسية على مصر:

عادت العلاقات العثمانية -الفرنسية إلى طبيعتها بعقد معاهدة عام 1802، مما أدى إلى عودة البعثات الفرنسية بخبرائها وضباطها إلى إسطنبول⁴⁷، ففي عهد القنصلية، أبدى نابليون استعداداً كبيراً لمساعدة الدولة العثمانية لتقوية جيشها، وهو ما أكدته في رسالة إلى سفيره في إسطنبول الجنرال برون (Brune)، في 4 مارس 1804، حيث قال: "...أبلغ السلطان العثماني أننا نرغب في مساعدة الدولة العثمانية لتسترجع قوتها...."⁴⁸، وكان نابليون يهدف من وراء هذه المبادرة إلى استرجاع مكانة فرنسا المتميزة لدى الباب العالي، والتي فقدتها منذ إقدامه على غزو مصر.

استعادت فرنسا مكانتها لدى الباب العالي، بعد وصول الجنرال سباستياني (Sébastieni) إلى إسطنبول في صائفة عام 1806⁴⁹، حيث أن هذه الفترة عرفات دخول نابليون في حرب مع أغلب دول أوروبا، لذلك كانت مهمة الجنرال الفرنسي تتمثل أساساً في التصدي لأية محاولة تقارب بين الدولة العثمانية من جهة وروسيا من جهة أخرى⁵⁰، ومساعدة الدولة العثمانية في حالة إقدام هاتين الدولتين على دخول الأراضي العثمانية⁵¹.

في الفترة الممتدة بين نهاية سنة 1805 و 1807 كثرت المراسلات بين نابليون وسليم الثالث⁵² ، وتمخض عن ذلك قيام فرنسا بتقديم مساعدات كبيرة قصد تقوية الدولة العثمانية، حيث أمر نابليون في 29 جانفي 1807 ببعث مدافع وذخيرة، وكذا خمسة ضباط ورجال مدفعية إلى إسطنبول، وأكد نابليون : "...أنه يجب على الضباط الفرنسيين أن يجوبوا كل المقاطعات العثمانية لنثبت مدى رغبتنا في مساعدة سليم الثالث..."⁵³ ، ويبدو أن نابليون كان مستعداً لمنح السلطان العثماني كل ما يطلب منه وهو ما أشار إليه في رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية في 11 سبتمبر 1807، حيث قال " ... أما فيما يخص الضباط الذين طلبتهم الدولة العثمانية، يجب أن تحدد عددهم وأسلحتهم، وأن تكتب لنا طلباً مفصلاً حول ذلك..."⁵⁴.

رغم محاولات نابليون تقديم المساعدة للسلطان العثماني في إصلاحاته خلال هذه المرحلة إلا أن تراجع مكانة فرنسا لدى الباب العالي، بعد الحملة الفرنسية على مصر إثر بشكل واضح على التواجد الفرنسي في اسطنبول، خاصة في ظل المعارضة القوية من قبل التيار المحافظ، مما أدى إلى فشل المشروع الإصلاحية لسليم الثالث.

أسباب فشل إصلاحات سليم الثالث:

في وسط هذا الدعم الفرنسي واصل سليم الثالث إصلاحاته بإعادة تنظيم الجيش والبحرية التي يعتبرها البعض أحد أهدافه الرئيسية، لكن العثمانيين لم يكونوا مهياًين بعد لتقبل هذه الإصلاحات، خاصة الانكشارية الذين رأوا في النظام الجديد خطراً يهددهم⁵⁵ ، لذلك ثاروا وقاموا بقتل العديد من دعاة الإصلاح، ثم فرضوا حصاراً محكماً حول قصر السلطان وأرغموه على إصدار فرمان يقضي بإلغاء النظام الجديد، وتسريح الجنود الذين التحقوا به فقام سليم الثالث بإلغائه، إلا أن تراجعه عن مشروع إصلاح الجيش لم يقنع الانكشارية، حيث خشوا أن يعود يوماً ما إلى تنفيذ هذا المشروع ، فقرروا عزله بعد أن استصعدوا فتوى من شيخ الإسلام جاء فيه "...إن كل سلطان يدخل نظم الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكن صالحاً للملك..."⁵⁶.

وبذلك كانت كل المؤشرات في بداية سنة 1807 توحى بنهاية سليم الثالث، حيث تساءل شيخ الإسلام عطا الله أفندي وقال "...سلطان لم يحترم القرآن، هل يستحق أن يبقى على العرش⁵⁷ فذهب بنفسه إلا سليم وأوضح له ما يريد الشعب، ودخل عليه مطأطأ رأسه قائلاً "...يا مولاي

لقد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان وليس يخفا على عظمتكم أن عموم العسكر نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطاناً عليهم، ولا سبيل إلى المقاومة فالتسليم لأمر الله أوفق وأسلم من كل شيء..."، فأظهر السلطان تجليداً ولم تبدو عليه علامات الضيف والقدر من هذا الحديث وقبل كلام الشيخ⁵⁸ فاستلم سليم الثالث من دون مقاومة، ثم أودع السجن لكنه ندم على استسلامه بسهولة حيث قال في آخر أيامه "...كان من الأجدر أن أموت واناً أدافع عن حقوقي..."⁵⁹، وفي 29 ماي 1808، قتل سليم الثالث من قبل الجيش الانكشاري وتم إلغاء النظام الجديد⁶⁰، ويقول الجبري فيما يخص عزل السلطان وقتله "... في جمادي الثانية سنة 1223 للهجرة ووردت أخبار من إسطنبول عن عزل السلطان سليم ومحبي مصطفى فأبطل النظام.... لكن السلطان مصطفى أرسل جماعة وقتلوا سليم في مكان الذي يختبأ فيه بالخنجر..."⁶¹.

خاتمة:

يمكن تقسيم الدور الفرنسي في الإصلاح العثماني إلى مرحلتين، أولها كانت قبل الحملة الفرنسية على مصر، التي كانت فيها فرنسا تبعث الضباط والمهندسين إلى إسطنبول لتكوين الطلبة العثمانيين، أما المرحلة الثانية فكانت في غضون السنوات الأخيرة من عهد سليم الثالث، إضافة إلى إرسال الخبراء العسكريين إلى إسطنبول، كانت فرنسا تبعث ضباطاً لمساعدة الجيش العثماني⁶² في الدفاع عن أراضيه، كون المرحلة الثانية شهدت دخول فرنسا في عدة حروب بسبب توسعات نابليون في أوروبا، وحلمه بالسيطرة على المشرق.

لذلك يمكن القول إن الدور الفرنسي في الإصلاح العثماني كان يتماشى وفقاً للمصالح الفرنسية في المشرق، أما عن أغراض فرنسا وراء ذلك فكانت متعددة الأوجه، فمن ناحية مواجهة الخطر الروسي والإنجليزي، ومن ناحية أخرى الرغبة في الوصول إلى آسيا ومواجهة النفوذ الإنجليزية في الهند.

لقد أدرك سليم الثالث ضرورة الإصلاح وكان له الإرادة في تحقيقها، لكنه لم يستطع القضاء على العائق الممثل في الجيش الانكشاري، الذي استمر خطره حتى في عهد السلطان محمود الثاني (1808-1839)، لذلك لا يمكن الحكم أن سليم الثالث فشل كلية في إصلاحاته، فالرجل قد

حكم في خضم فترة صعبة تخللتها أخطراً خارجية جمّة، وثورات داخلية في الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، لكن رغم ذلك حاول ضمان أمن دولته من خلال قيامه بتبني مشروع إصلاحات على النمط الأوروبي، شمل كافة مؤسسات الدولة وذلك بمساندة من أوروبا عامة وفرنسا خاصة .

الهوامش:

- 1 - خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1983، ص.70.
- 2 - خالد زيادة، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1983، ص.21.
- 3 - خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، مرجع سابق، ص.71.
- 4 - M. Devez, L'Europe et le Monde a la fin de 18^{eme} siècle, édition Albine Michel, paris, 1970, p.620.
- 5 - خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، مرجع سابق، ص.71.
- 6 - خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسات في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص.54.
- 7 - خالد زيادة، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص.20.
- 8 - حملة فرنسية مصغرة تذكر بحملة نابليون على مصر بعد خمسة عشر سنة.
- 9 - خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، مرجع سابق، ص.70.
- 10 - بعثه الملك الفرنسي لويس السادس عشر إلى اسطنبول، أين بقي حوالي أربعة عشر سنة ، وكون عدة تلاميذ بعدما انشأ مدرسة الرياضيات ولقد كلف ببعض العمليات العسكرية خلال الحرب العثمانية الروسية سنة 1787.
- 11 - L.B. Juchereau, Histoire de l'empire ottoman depuis 1792 jusqu'a 1844, T.1, imprimerie de Guiraud, paris, 1844, p.317.
- 12 - خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، مرجع سابق، ص.70.
- 13 - عين صدر أعظم عام 1782 ، عمل بجدية لدفع برامج الإصلاح نحو الأمام في عهد السلطان عبد الحميد الأول، مما أدى إلى قتله من طرف التيار المحافظ، انظر خالد زيادة:تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا .
- 14 - S .Mardin, L'influence de la révolution française sur l'empire ottoman, in revue internationales des sciences sociale, N.119, Unesco ères, février, 1989, p.25.
- 15 - خالد زيادة، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر مرجع سابق، ص.20.
- 16 - خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، مرجع سابق، ص.54.
- 17 - L.B.I De Testa, Recueil des traités de la porte ottomane avec les puissances étrangère, T. 2, Amayot éditeur des archives diplomatique, paris, 1867, p.208.
- 18- Ibid., pp.208, 209.
- 19 - المسؤولون العثمانيون لا يدخلون مسيحيين في نظامهم إلا كمهندسين عسكريين و كمكونين في الأسلحة و البحرية ، وكان يجب على كل مسيحي يريد قيادة القوات العثمانية أن يعتنق الدين الإسلامي. انظر جوشرو.
- 20 - L.B.I De Testa, Op.cit, p.208

- 21 - L.B. Juchereau, Op.cit, p108.
- 22- E. De Mercière, Une ambassade à Constantinople, la politique orientale de la révolution Française, T 2, librairie Félix Alcan, paris, 1927, p.213.
- 23 - هذه المدرسة أسسها الجنرال الفرنسي لافييت ، توقف نشاطها لبعض الوقت ثم أعيد فتحها من قبل سليم الثالث ، وكان يدخلها أطفال بين 8 و 12 سنة وقصد تشجيعهم كانت تمنح لهم منحة تقدر ب 15 بيزاستر . انظر مارسير الجزء الثاني .
- 24 - L.B Juchereau, Op.cit, p.371.
- 25 - خالد زيادة، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر مرجع سابق، ص.24.
- 26 - ولد سنة 384ق.م بمستعمرة يولانية تسمى فستجير ، و توفي سنة 322ق.م و من بين كتبه نجد التحليلات الأولى و التحليلات الثانية.
- 27 - الملاحظ هو أن المدراء العامين لهذه المدرسة في تلك الفترة كانوا فرنسيين.
- 28 - L.B. Jucheraeu, Op.cit, p.371-373.
- 29- ليس لدينا معلومات حول حياة أو أعمال هؤلاء المهندسين حيث لم نعر على ادني إشارة إليهم في كل المصادر و المراجع التي عدنا إليها.
- 30 - L.B. Juchereau, Op.cit, p397, 398.
- 31 - ضابط انجليزي اعتنق الإسلام ، أسس عدة ورشات لبناء السفن ، كما كلف أيضا بتدريب العثمانيين . انظر جوشرو .
- 32 - G .Bremond, L'islam et les questions musulmanes des points du vue français, Charles lavau zelle, édition militaire, paris, 1924, pp.49,50.
- 33 - هذه المدرسة أسسها البارون دو توت الذي جاء إلى اسطنبول في عهد السلطان مصطفى الثالث (1757-1773) و هو ضابط فرنسي من اصل مجري أرسلته الحكومة الفرنسية لإجراء تحقيق حول القوة العسكرية العثمانية ، فمكث وقتا طويلا في اسطنبول ، وأسهم في إحداث العديد من المؤسسات . انظر: مذكرات البارون دو توت الجزء الثالث.
- 34 - L.B. Jucheraeu, Op.cit, p.398.
- 35- كانت البحرية العثمانية قد استعادت شيئا من قوتها في نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر ن لكن بعد وفاة كوتشوك حسن في سنة 1803 و عزل سليم الثالث سنة 1807 ، عادت إلى ما كانت عليه من قبل.
- 36 - يبدو أن السيد مصطفى كان واثقا من قوة البحرية العثمانية لذلك طلب من الأوروبيين أن يشهدوا على ذلك.
- 37 - السيد مصطفى، نقد حالة الفن العسكري و الهندسة و العلوم في القسطنطينية سنة، 1803، تحقيق خالد زيادة، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت 1979، ص.82.
- 38 - ضابط فرنسي ساهم في تكوين و تدريب العثمانيين له كتاب حول تاريخ الدولة العثمانية في أربعة أجزاء.
- 39 - L.B Jucheraeu, Op.cit, p.399.
- 40- اشرنا إلى بعض الإصلاحات العثمانية و التي كان فيها الدور الفرنسي بارزا و لم نذكر كل الإصلاحات التي قام بها سليم الثالث .
- 41- خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، مرجع سابق، ص.55.
- 42 - M. Devez, Op.cit, p.621.
- 43- Y. Fehmi, Histoire de la Turquie, Librairie Académique, paris, 1909, p.173.
- 44 - استعمل الجيش العثماني الجديد لأول مرة ضد الفرنسيين، الذي كان لهم دورا بارزا في إنشائه. انظر: يوسف فهمي .
- 45 - L.B Jucheraeu, T.2, Op.cit, pp, 109,110.
- 46 - G .Bremond, Op.cit, p.50.

دور فرنسا في الإصلاحات العثمانية خلال عهد سليم الثالث ————— كمال حسنة

- 47 - خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، مرجع سابق، ص.55.
- 48 - Correspondances de Napoléon 1^{er}, vol. 9, Henri Plon, paris, 1860, p.290.
- 49 - خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، مرجع سابق، ص.55.
- 50 - كان نابليون يهدف في تلك الفترة إلى الوصول بقواته إلى أقصى الشرق ، لذلك أراد أن يقوي الدولة العثمانية و التي في حالة وجود صراع عسكري ستقوم بغلق الدانوب في وجه أعدائه خاصة إنجلترا و روسيا .
- 51 - G. Remerande, Les grandes figures de l'orient, T.2, orientaliste Paul Gauthier, paris, 1928, p.11.
- 52 - لتفاصيل أكثر انظر: ثستا الجزء الثاني ، أو مراسلات نابليون الجزء 12 و 14 و 15.
- 53 - L.B.I De Testa, Op.cit, pp.391 ,392.
- 54 - Ibid., p .300.
- 55 - C. Lamouche, Histoire de la Turquie depuis ces origines jusqu'a nos jours, Payot, paris, 1953, pp. 205,206.
- 56 - عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، 1984 ، ص.529.
- 57 - Y.Fehmi, Op.cit, pp.177, 178.
- 58 - عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية، الطبعة الأولى، دار ابن حزم للطباعة و النشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص.422.
- 59 - Y.Fehmi, Op.cit, pp, 178.
- 60 - C. Lamouche, Op.cit, p.206.
- 61 - عبد الرحمن الجبرتي ، المصدر السابق ، ص.80.
- 62 - يمكن أن نذكر في هذا الصدد دور الجنرال الفرنسي سباستياني في الدفاع عن اسطنبول أثناء التهديد الإنجليزي لها سنة 1807.

نظرة بعض القناصل الأمريكيين

للعلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني

الأسناد بن حادة مصطفى، جامعة تيارت

الملخص: تنوعت وتعدد العلاقات الجزائرية الفرنسية من خلال ما كتب حولها من طرف مختلف الشخصيات سواء كانوا تجارا، مساجين، رحالة وخاصة القناصل الذين مثلوا بلدانهم دبلوماسيا في الجزائر، حيث تعتبر المرحلة التي دون فيها القناصل الأمريكيين طبيعة العلاقات الجزائرية الفرنسية محطة هامة من المحطات التاريخية التي عرفتها الجزائر خلال الفترة العثمانية. إن اهتمام الأمريكيين بعلاقات الجزائر مع مختلف الدول الأوروبية خاصة فرنسا منها كان له أبعاد سياسية حاولت من ورائها والولايات المتحدة الأمريكية معرفة كل صغيرة وكبيرة عن أيلة الجزائر.

لقد وصف وليام شالر من خلال ما دونه في مذكراته أن فرنسا تقربت من الجزائر من خلال مجموعة من المعاهدات الغرض منها معرفة كل نقاط ضعفها لكي تتمكن منها، وهو ما كان لها ذلك فيما بعد، نفس الغرض تحدث عنه القنصل كاثكارت حيث دون كل ملاحظاته حول ما يجري ما بين الجزائر وفرنسا من خلال مذكراته: "كاثكارت أسير الداوي قنصل امركا في المغرب" حيث تعتبر من المصادر الهامة الذي وصفت التنافس والعداء بين الجزائر وفرنسا، وان هذه الأخيرة تعمل جاهدة لخدمة مصالحها من خلال عدم احترام بنود المعاهدات التي أبرمت بين البلدين.

الكلمات المفتاحية: الجزائر العثمانية - أيلة الجزائر - وليار شالر - كاثكارت - العلاقات الجزائرية الأمريكية - العلاقات الجزائرية الفرنسية - الأسرى الأمريكيون

مقدمة: تعتبر الجزائر محطة من المحطات التاريخية التي استقطبت اهتمام الرحالة بمختلف انتماءاتهم وجنسياتهم، حيث أن الظروف التجارية والدبلوماسية والدينية والسياسية والحربية ساعدت الرحالة العرب والفرنسيين على أن يكتبوا عن الجزائر كثيرا، وكان الاهتمام منصب على مدينتي الجزائر العاصمة ووهران خاصة، إن للجزائر العثمانية مصادر متنوعة⁽¹⁾ وهامة، وقد ساهم بعض المؤرخين الجزائريين في تقديم دراسات عن بعض الرحالة الأجانب، حين ترجموا أجزاء من أعمالهم إلى اللغة

نظرة بعض القناصل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

الفرنسية من أمثال أبو العيد دودو، وأبو القاسم سعد الله، ولم تتضح صورة الجزائر جيدا خلال العهد العثماني من خلال المصادر العربية والتركية، لكنّ الغربيين خاصة منهم الأوروبيين الرحالة منهم أو القناصل أو الأسرى أعطوا الصورة الكاملة للجزائر في جميع النواحي خاصة العلاقات الخارجية منها العلاقات الجزائرية الفرنسية، إن الرحلات الاستطلاعية إلى الجزائر كانت متعددة، حين زار نيكولاي (Nicolay) الجزائر عام 1551، كما أن الإنجليزي الدكتور شو (Shaw) من خلاله ما دونه في voyage dans la régence d'Alger قد استطاع من إعطاء لمحة عن الجزائر في مختلف المجالات، كما أن بريس Bruce القنصل الإنجليزي في الجزائر عام 1768م⁽²⁾، وكتب عن صورة الجزائر وتبقى أعمال فانتير دي بارادي الذي زار الجزائر عام 1789م لها أهمية كبرى بالنسبة لتاريخها من خلال ما دونه في الجزائر خلال القرن الثامن عشر حيث يتضمن معلومات هامة عن الإيالة⁽³⁾ وقد نشرت في المحلة الإفريقية، كما أن هايدو دون كل شيء عن الجزائر من خلال Topographie et histoire générale d'Alger، كما أن الرحالة الألمان كان لهم النصيب في تدوين صورة الجزائر المختلفة حيث ألفوا كتباً كثيرة تخص البلاد، وخير دليل على ذلك ما قدمه سيمون برايفر⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى اهتمام الأوروبيين بالجزائر، كان هناك الأمريكان والروس، حيث باركت روسيا الحملة الفرنسية، أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد تمكن مفوضيها من تقديم تقارير أمريكية عن الجزائر ومختلف معاملاتها، وهو ما قام به القنصل وليام شالر (1816م/1824) من خلال مذكراته⁽⁵⁾، كما قام فرانسوا فيليب دولاماي وهو ضابط في الجيش الفرنسي بتدوين معومات جدّ هامة عن مدينة الجزائر في فترة أسره التي دامت حوالي 17 شهرا من 10 أبريل 1799م إلى 07 سبتمبر 1800م حيث أسفر في الحياة اليومية للسكان في العاصمة، كما أكد على ضعف مدينة الجزائر عسكرياً، وبإمكان فرنسا غزوها بكل سهولة، وهناك روايات أخرى تركها الأسرى المسيحيون عن الجزائر وعلاقاتها الخارجية نجد منهم أسير الداوي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب الأقصى، كما أن رواية دومان الذي بقي حوالي 34 سنة في الجزائر يروي فيها كل الأحداث التي وقعت في المدينة بما فيها علاقاتها الخارجية، كما كان هناك أسيرات أورييات روين حالة الجزائر منهنّ امرأة سويدية والتي انتقلت إلى اسطنبول.

نظرة بعض الفناحل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

العلاقات الجزائرية الفرنسية من خلال قراءة القنصل وليام شالر:

وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر ما بين 1816 إلى 1824م كان مفاوض الجانب الأمريكي مع الجزائر في بداية الأمر ثم تقلد منصب القنصل العام⁶، فهذا القنصل يركز كثير على العلاقات بين بلاده الولايات المتحدة الأمريكية والجزائر لكنه تطرق إلى ملامح علاقات الإيالة مع بقية الدول الأوربية خاصة مع فرنسا.

إن الأسطول الجزائري الذي يتمتع بشهرة عظيمة، قد تحكم وبسط سيطرته خاصة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، فالجزائر تقوم في نظامها السياسي على ما يسمى بالجهاد البحري، وكان الجزائريون يعلنون الحرب على أي دولة مسيحية ما لم تكن قريبة منهم من خلال معاهدة صلح⁽⁷⁾، إن علاقات كل من بريطانيا، هولندا، الولايات المتحدة وفرنسا مع الجزائر كانت تنظمها اتفاقيات ومعاهدات.

لقد مدح القنصل الأمريكي العلاقات التي كانت تربط بلده بالجزائر، فرغم الأحداث التي وقعت لأمريكا، خاصة في سنة 1783م عندما اعتقلت السفن الحربية الجزائرية سفينتين أمريكيتين في عرض المحيط الأطلسي، ومن ثم كانت التجارة الأمريكية شبه مستحيلة في البحر المتوسط، لقد تدخلت البرتغال التي كانت آنذاك في حرب مع إيالة الجزائر لمنع السفن الجزائرية من الخروج من البحر عبر الحراسة في مضيق جبل طارق حتى تمر التجارة الأمريكية في المحيط الأطلسي، كانت التجارة الأمريكية مهددة حتى سنة 1793م لأن الجزائر كانت قد عقدت معاهدة صلح مع البرتغال في وقت سابق⁽⁸⁾.

إن سوء العلاقات التي كانت بين الولايات المتحدة والجزائر نجم عنها زيادة عدد الأسرى الأمريكيين في الإيالة، حيث بلغ عددهم حوالي مائة أسير.

قامت الولايات المتحدة بخطوات هامة للتفاوض مع الجزائر، فدخلت فعلا في مفاوضات جدية، حيث كلّف جوزيف دونالدسون بالذهاب بعقد معاهدة صلح، حيث تعهدت الولايات المتحدة بدفع مبلغ 725000 دولار فدية للأسرى الأمريكيين، كما تعهد الداوي لمساعدتهم على عقد معاهدات صلح مع كل من إيالة طرابلس وتونس.

نظرة بعض الفناحل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

شالر والعلاقات الجزائرية الفرنسية: بالرغم كون العلاقات الجزائرية الأمريكية كانت تتأرجح تارة بالحرب وأخرى بالسلم إلا أنه في الأخير توجت بعدة معاهدات صلح بين الطرفين أنهت العديد من المشاكل بينهما، فكيف يا ترى كانت العلاقات بين إيالة الجزائر وفرنسا؟.

يرى شالر، إن العلاقات بين البلدين، لم تكن مستقرة، أي كانت أحيانا حسنة وأحيانا وأخرى سيئة، لكن في المقابل كانت فرنسا الأقرب إلى الجزائر من أي دولة أخرى⁽⁹⁾، حيث كانت السبابة إلى عقد معاهدة مع الباب العالي سنة 1535م في عهد سليمان القانوني⁽¹⁰⁾، كما أصبحت الوحيدة التي بإمكانها وقف القرصنة الجزائرية، هذا ما خلف في نفوس الجزائريين أثار عميقة، حيث كانوا يرون أنهم يجب ألا يثيروا أعمالا عداوية ضدها.

إن فرنسا الدولة الوحيدة التي تحصلت على امتياز صيد المرجان قبل الثورة الفرنسية والتي كانت في ولاية قسنطينة وذلك بمبلغ شبه مجاني، واحتفظت بحامية في منطقة القالة بالقرب من عنابة، كانت فرنسا تستغل الفرص عندما تكون إيالة في حروب مع دوليات الأخرى المرادفة للبحر المتوسط، فتقرب كثيرا في الجزائر وكان لدى قناصلها كفاءة عالية ويحافظون جدا على مصالح بلادهم، حيث يقذفون الهدايا والرشاوى لكي يكون لهم نفوذ حكومة الداى.

إن الجزائريين قد فهموا سياسة الفرنسيين لذلك فكانوا أحيانا يتعرضون للسفن التي تحمل العلم الفرنسي رغم المعاهدات المبرمة بينهم⁽¹¹⁾، لقد تعودت فرنسا على دفع ضريبة سنوية إلى حكومة الجزائر، حيث كانت تقدم هدايا فاخرة، حيث كان ما تدفعه فرنسا أكثر مما تدفعه بقية الدول الأخرى للإيالة، وجعلت نفسها دائما قريبة من الجزائر حتى وإن تخبئ لها الكثير العدا والكرهية.

أثناء قيام الثورة وقعت هناك قطيعة رغم أن الجزائر وقفت موقفا نبيلًا تجاه فرنسا فألغت كل القيود المفروضة عليها، وفي زمن الحملة الفرنسية على مصر، جاء أمر من الباب العالي إلى الجزائر بأن تعلن الحرب ضد فرنسا، لكنها كانت حريًا شكلية فقط، وأن نابليون وبفضل ذكائه ودهائه قام بتجديد التحالف مع الجزائر، وثم بدأ يستعمل نفوذه لتأمر على إيالة، حيث طلب إطلاق سراح

نظرة بعض الفناحل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

كل المحتجزين داخل الجزائر وينتمون إلى الدويلات الإيطالية التي احتلها الإمبراطور وضمها إلى فرنسا، حيث أنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية الفرنسية⁽¹²⁾.

وبتزايد قوة الأسلوب البريطاني في المنطقة بدأ النفوذ الفرنسي في الزوال، وتراجع دورها في الجزائر وحلت محلها بريطانيا في امتياز صيد المرجان، وتفوقت على فرنسا في جمع المحاللات، وكانت سياستها تجاه الجزائر نفسها التي كانت فرنسا تريد تحقيقها⁽¹³⁾ فأرادت أن تتمتع بنفس الاعتبار والمكانة التي وصفت بها عدوها فرنسا، حيث كان الصراع مستمرا بين هاتين الدولتين حول من يكسب ودّ الجزائر التي كانت محل أنظار وأطماع جميع الدول الأوروبية والأمريكية، رغم تحالف هذه الدول في 1816م عندما تجرأت وقصفت مدينة الجزائر إلا أنه كان هناك صراع نفوذي بينهم حول من يتقرب أكثر من الحكومة الجزائرية، فصراع الدول الأوروبية ظل قائما حول الجزائر إلى أن سقطت الإيالة في 1830م.

كاتكارت والعلاقات الجزائرية الفرنسية: كان لكاتكارت أسير الداوي قنصل أمريكا في المغرب الفضل في تدوين كلّ ملاحظاته حول علاقات المغرب والجزائر مع كلّ دول العالم بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية منها بريطانيا، هولندا، الدانمارك، اسبانيا وخاصة فرنسا من خلال ما كتبه في مذكراته "مذكرات أسير الداوي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب"، الذي يوضح فيه علاقات البلدان الأنجلوسكسونية بالمغرب والجزائر. هذه المذكرات مهمة من حيث الدراسات حيث أنها يوميات تعكس انطباعات وآراء وأحداث وقعت في الربع، الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي. كاتكارت الذي تحمل وطأة الاضطهاد بكلّ شجاعة، لم تؤثر على طريقة تفكير وملاحظاته حين كتب مدوّاته بكلّ موضوعية، فرغم اهانتته إلا أنه احتفظ بعقيدته المسيحية، ورفض الاعتناق بالإسلام رغم كلّ الإغراءات التي قدمت له لكنه في المقابل يحترم الدين الإسلامي والقرآن الكريم. كان كاتكارت رجل مهم لدى الولايات المتحدة، لذا اسندت له مهام القنصلية في المغرب وغيره من البلدان، فهذا الرجل كان صادقا وفيا لوطنه.

تعتبر مذكرات كاتكارت من المصادر الهامة التي دونت علاقات بلاده الولايات المتحدة مع دول المغرب ومنها الجزائر حيث تولى بنفسه المفاوضات مع داي الجزائر في كلّ مراحلها لعقد

نظرة بعض الفناحل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

المعاهدة الأولى¹⁴، حيث استغل معرفته للداي وكذلك علاقات الجزائر الخارجية مع الدول الأوروبية حيث يصل القنصل الأمريكي هذه العلاقات بكلّ ما تحمله من تنافس وعداء من أجل المصالح السياسية والتجارية¹⁵، أو من أجل التقرب أكثر في الجزائر خاصة التنافس بين بريطانيا وفرنسا اللذين تنافسا من أجل حصول على ود الجزائريين خلال العهد العثماني حتى سقوط مدينة الجزائر.

لقد وصف كاثكارت العلاقات التي كانت بين الجزائر ومختلف الدول الأوروبية، نذكر على سبيل المثال اسبانيا، بريطانيا وفرنسا هذه الأخيرة الذي قامت بوساطة بين الجزائر والولايات المتحدة لإبرام اتفاقية ومعاهدة سلام، لأنها كانت قريبة من الإيالة في عهد الجمهورية. قامت فرنسا للتدخل لدى حكومة الداى حسن من أجل مصالح الأمريكان في بلدان المغرب عامة والجزائر خاصة وذلك طبقا للمادة الثامنة من المعاهدة الأمريكية الفرنسية التي عقدت في السادس من شهر فبراير 1778م، لكن فرنسا لم تقم بأي مجهود من شأنه أن يخدم بلده¹⁶، الولايات المتحدة، كانت فرنسا الوحيدة التي تتحكم في علاقات الجزائر الخارجية، فكم من مرة طالبت الدول الأوروبية والولايات المتحدة منها التدخل لدى الجزائر من أجل إبرام معاهدات مختلفة خاصة التجارية منها، ففرنسا وخاصة في عهد الإمبراطور تقربت من الجزائر لأنّ هذه الأخيرة كانت قد وقفت موقفا نبيلًا اتجاه الثورة الفرنسية فألغت كلّ القيود التي كانت مفروضة عليها، ولكن رغم ذلك قامت فرنسا في هذا العهد بدراسة كلّ المحاولات للاستيلاء على مدينة الجزائر من خلال تقارير قناصلها وخاصة جواسيسها. لقد حققت فرنسا عدّة انتصارات في خلال ما أحرزه الجيش الفرنسي في مختلف معاركه في أوروبا¹⁷ لكن رغم ذلك فإنّ داي الجزائر لم يتوقع أبدا أن فرنسا بإمكانها غزو الجزائر وليس لها القدرة بأن تجهز أسطولا لتنفيذ هذه المهمة، يؤكد كاثكارت بأنّ بلاده لم تنكر الجميل الطي قدمته لهم فرنسا عند تدخلها لدى دول الغرب خاصة الجزائر لعقد مختلف المعاهدات والاتفاقيات.

كانت فرنسا تعمل لخدمة مصالحها في الجزائر، والنظر للمعاهدة الجزائرية الأمريكية، بدأت تتدخل لدى الجزائر لعدم احترام كلّ بنود المعاهدة المبرمة بين الطرفين حتى تكون الوحيدة التي تتمتع بحقوقها داخل الإيالة، فبدأت نستعمل نفوذها لتوقف مصالح أمريكا في الجزائر، يصف كاثكارت فرنسا بأنّها الدولة الأكثر تقربا في الجزائر وذلك لتوفر عدّة عوامل منها قرب البلدين في البحر المتوسط والعلاقة الحسنة التي كانت تربطها مع الباب العالي، لقد عملت فرنسا كلّ مجهودها لتبعد

نظرة بعض الفناحل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

الدول الأخرى عن إيالة الجزائر. وقد تيقنت مختلف الدول منها الولايات المتحدة باستحالة قيام فرنسا بمساعدتهما للتقرب من الجزائر وذلك لأنها نرى تقارب بين المصالح الأمريكية والبريطانية وهي العدو اللدود لها. وقد قدم مونرو تقريراً إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول فيه: "يسرني أن أبلغكم أن هذه الحكومة (الفرنسية) سوف تمدنا بتأييدها الكامل في مفاوضاتنا مع الجزائر"¹⁸.

لقد شجعت فرنسا وأيدت المعاهدة المبرمة بين الأمريكان وبريطانيا التي وقفت في وجه علاقاتهم مع الجزائر، حتى لا يكون لها منافسا جديدا لتجارتها في البحر المتوسط، حيث كانت الغرفة التجارية في مرسيليا أشد أعداءها¹⁹، قامت فرنسا بمساعدة الدول الأوروبية ومنها الولايات المتحدة لتحسين علاقاتها مع إيالة تونس وطرابلس وأبعدتهم عن إيالة الجزائر وقد عرفت كل الدول الأجنبية أن فرنسا تلعب معها دورا مزيفا لتشويه صورها لدى الجزائريين. استغلت فرنسا نفوذها داخل الإيالة لتمنح تقارب بين الجزائر مع مختلف الدول الأخرى، فكل المعاهدات التي أبرمتها الدول الأجنبية مع الجزائر وقفت ضدها فرنسا وعملت على عدم احترامها حتى تكون الأولى في التعامل في مختلف المجالات مع إيالة الجزائر.

أكد مونرو وأن لبلاده سوف تلقى الدعم الكافي من الحكومة الفرنسية لتحسين العلاقة مع الجزائر، ففرنسا التي استطاعت هزم معظم الدول الأوروبية خاصة النمسا، اسبانيا، إنجلترا والبرتغال²⁰، فهي بالفعل قوية، وبدون مساعدتهما للأمريكان لا يمكن إيجاد حلول للتقرب من الجزائر ولا بدّ المرور عليها حتى تستفيد الولايات المتحدة في علاقاتها مع الإيالة.

لقد ساءت العلاقة بين الجزائر وفرنسا في أكثر المناسبات حيث كانت تتسم بالتذبذب، فاستغل القراصنة الجزائريون ضعف فرنسا أثناء حروها داخل القارة الأوروبية، فاستولوا على تجارتها في أكثر من مرة، وقامت الجزائر بإهانة فرنسا في الكثير من الأحيان.

يرى كاثكارت أن الجزائر كانت في موقف قوة تجاه الحكومة الفرنسية فهذه الأخيرة عملت كل ما في وسعها للتقرب منها حتى تتحصل على امتيازات دون غيرها في الدول الأجنبية الأخرى.

نظرة بعض الفناحل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

خاتمة: من خلال هذا العرض حول تطور العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال العهد العثماني (1519-1830م)، وأهم الملاحظات التي أثارت انتباه واهتمام الرحالة الأمريكيين، نستخلص ما يلي:

بدأت العلاقات الجزائرية الفرنسية متأثرة بالعلاقة العثمانية الفرنسية المشهورة التي فتحت عهد الامتيازات سنة 1535م، حيث لعب "خير الدين باشا" مؤسس الإيالة الجزائرية دور الوساطة بين السلطان العثماني "سليمان القانوني" والإمبراطور الفرنسي "فرانسوا الأول" انعكست إيجاباً على تطور العلاقات الجزائرية الفرنسية.

رغم غلبة الطابع السلمي على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال العهد العثماني، فإنها لم تعرف استقراراً وشهدت عدة اضطرابات ساهمت في توتر هذه العلاقات وتطورها، نميز فيها بين ثلاث مراحل أساسية وهي:

شهدت العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال المرحلة الأولى الممتدة بين (1535-1600م) استقراراً خاصة في عهد نظام حكم البايلربيات (1519-1587م)، حيث كان هناك تقارب بين الدولتين، وغلب عليها طابع الود، بعدما حاولت فرنسا كسب عطف وصدقة إيالة الجزائر القوية بأسطوها ضد العدو المشترك إسبانيا، ولهذا كانت فرنسا أول الدول الأوروبية التي عقدت اتفاقيات مع الجزائر للحصول على امتيازات، وشهدت أول تسمية لقنصل فرنسي في الجزائر في 15 سبتمبر 1564م.

تغيرت طبيعة هذه العلاقات في المرحلة الثانية بين (1600-1789م)، حيث تداخل السلم والتوتر في تطورهما، وشهدت العلاقات حالات من المد والجزر، لم تؤثر على السير العادي للعلاقات باستثناء بعض الاحتجاجات والتوترات، بل شهدت توقيع مجموعة من المعاهدات، انطلاقاً من معاهدة 1619م التي مكنت فرنسا والجزائر من إقرار السلم بينهما، والحد من القرصنة بين سفن البلدين، حتى معاهدة سنة 1790م التي جددت تمديد الصلح بين البلدين.

وتبقى المرحلة الثالثة الممتدة بين (1789-1830م) أخطر مراحل تطور العلاقات الجزائرية الفرنسية، تحت تأثير التطورات السياسية الفرنسية بعد انطلاق الثورة الفرنسية (1789-

نظرة بعض الفناحل الأمريكيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني — بن حاده مصطفى

1799م)، واندلاع حروب نابليون بونابارت (1799-1812م)، ثم إقرار سياسة الوفاق الأوروبي في مؤتمر فيينا سنة 1815م، وبداية تطبيق المخططات الأوروبية ضد الجزائر. وكان للرحالة الذين مروا على الجزائر دور كبير في توضيح ملامح العلاقات الجزائرية الفرنسية.

كما أثارت انتباه الرحالة الفرنسيين، نخص بالذكر:

- "وليام شالر" الذي أضاف لتطور العلاقات الجزائرية الأمريكية أهم ملامح العلاقات الجزائرية الفرنسية، فوصفها بالود رغم بعض ملامح التوترات التي هددتها.
- "كاتكارت" الذي يصف العلاقات الجزائرية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة، حيث رأى أن فرنسا كانت تعمل على خدمة مصالحها في الجزائر.

ويبقى أشهر هؤلاء الرحالة الأمريكيين الذين أولوا اهتماما بالغاً لتطور العلاقات الجزائرية الفرنسية إذن يتبين أن موضوع العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال العهد العثماني حاسم في تطور تاريخ البلدين، كما وضحتها الرحالة والقناصل، ونستنتج من خلالها مجموعة من الحقائق أهمها:

* كانت فرنسا الدولة الأوروبية الأولى التي نجحت في ربط علاقات متنوعة مع إيالة الجزائر.

الهوامش:

-
- 1 من أهم ما تركه الباحثون، الباحث حمّاش حليفة، كشاف الوثائق عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني، مجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 13-14 زغوال، تونس، 1996م.
 - 2 عميرايوي، حميدة، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص33.
 - 3 Venture De paradis Alger au 18 Siècle, présentation de fà gan, p : 272-273.
 - 4 ولد سنة 1810م، قدم كتاب مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب الدكتور أبو العيد دودو.
 - 5 وليام، شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1818م/1824م وتعريب وتعليق وتقديم إسماعيل الغربي.
 - 6 مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الجزائر، ماي 1977، ص: 9.
 - 7 نفسه، ص: 10.
 - 8 تمكنت الجزائر من اعتقال إحدى عشر سفينة تجارية أمريكية بعد عقد صلح مع البرتغال.

- 9 وليام، شالر: المصدر السابق، ص: 131.
- 10 يحي، جلال: مرجع سابق، ص: 42.
- 11 وليام، شالر: المصدر السابق، ص: 132.
- 12 وليام، شالر: المصدر السابق، ص: 133.
- 13 كانت بريطانيا من خلال سياستها المتبعة تجاه الجزائر تهدف نفس الأهداف التي كانت فرنسا تسعى لتحقيقها.
- 14 أبرمت أول معاهدة بين الجزائر والولايات المتحدة في 5 سبتمبر 1795م.
- 15 مذكرات أسير الداى كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص7.
- 16 مذكرات كاثكارت، المصدر السابق، ص 196.
- 17 نفسه، ص198.
- 18 تصريح المستر مونرو في أكتوبر 1778، ولم يكن له علم يعقد معاهدة السلام مع الجزائر في سبتمبر من نفس السنة، حسب كاثكارت.
- 19 مذكرات كاثكارت، المصدر السابق، ص200.
- 20 حسب كاثكارت، فإن فرنسا هي الدول القويّة بفضل هزمها المعظم الدول الأوروبية من مذكرات كاثكارت، المصدر السابق، ص205.

البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية

ما بين 1551 م - 1639 م

الأسنادة سحابات زهيرية، جامعة تيارت

ملخص:

مع بداية القرن 16 م برزت الجزائر كقوة بحرية وطرف فعال في الصراع الدولي الذي دار على أشده بين القوتين الدولة العثمانية من جهة والاسبانية المسيحية من جهة أخرى، وبحكم تبعيتها للدولة العثمانية الإسلامية كان لزاما عليها مشاركتها في حروبا، بداية من استكمال تحرير باقي مناطق المغرب الإسلامي كطرابلس عام 1551 م وتونس عام 1574 م، كما ساهمت في الدفاع عن مصالح وممتلكات الدولة العثمانية والمشاركة في المعارك الكبرى منها مالطة 1565 م وليبانت 1571 والبنادقة 1633 وهذه المساهمة والمساندة تبين لنا قوة البحرية وحنكة الرياس ومكانة الإيالة الجزائرية في منطقة البحر المتوسط آنذاك، كما تظهر لنا عمق العلاقة الطيبة بين الإيالة الجزائرية والدولة العثمانية.

الكلمات المفتاحية بالعربية: الجزائر-الدولة العثمانية-البحرية -البحر المتوسط-طرابلس -تونس.

Abstract:

With the beginning of the 16th century emerged Algeria as a force freely and effectively is a party to international conflict that took place at its peak between the two forces the Ottoman Empire on the one hand and the Spanish Christian on the other hand, by virtue of their subordination to the Ottoman state Islamic had to participation in the wars, the beginning of completing the liberation of the rest of the Morocco Islamic Tripoli the year 1551 and Tunis in 1574, also contributed to the defense of the interests and the Ottoman Empire, and participate in major battles, including Malta 1565 property and lepanto 1571 and the Venetian sin 1633 and this contribution and support show us marine power and statesmanship Rias and the status of the Algerian in the sea area average, also

show us the good relation ship between the Algerian and depth of the Ottoman Empire.

Keywords : Algerian-Marine- Ottoman Empire- the Mediterranean- Tripoli- Tunis- Malta.

لا خلاف في أن انضمام الجزائر الى الدولة العثمانية سنة 926هـ / 1520م يمثل بداية مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر السياسي، فستشهد هذه المرحلة بروز الشخصية السياسية والعسكرية للجزائر نتيجة لإحاقها وانضمامها للدولة العثمانية من جهة و لطبيعة موقعها الجغرافي والاستراتيجي من جهة أخرى، والدور الريادي الذي لعبته منذ تاريخ انضمامها، وعليه فإن استراتيجية الدولة العثمانية في منطقة شمال افريقيا قامت على الحرب ضد الاسبان و المتحالفين معهم فالمعركة بالنسبة لهؤلاء كانت معركة بقاء، حيث كان لها ذلك بعد إلحاق وضم أجزاء هذه المنطقة عبر مراحل وبمساندة البحرية الجزائرية لها.

وعليه فإن بروز الجزائر كقوة بحرية في منطقة البحر المتوسط دولة ذات سيادة يعود الفضل به إلى العثمانيين، وهذا كان لزاما عليهم تقديم المساعدة لها وقتما احتاجت، ولهذا كان السلطان العثماني يستدعيهم للمشاركة في حروبه، وهذا بمقتضى فرمان¹ يرسله الى حاكم الجزائر يأمره فيه بالاستعداد و التجهيز، وهاته الفرمانات جزء من الدفاتر المهمة أو "مهمة دفترية"²، وما هو مهم في هذا الموضوع التاريخي هو تلك المعلومات والمعطيات التاريخية القيمة الموجودة و المتاحة في هاته الوثائق الأرشيفية ومن خلالها سنظهر ونبرز الدور الذي لعبته الجزائر في منطقة المتوسط بعد اعلان تبعيتها للدولة العثمانية.

ولتجلية هذا الموضوع طرحنا الاشكاليات التالية: كيف كانت مساهمة الجيش البحري في مساعدة دول المغرب الإسلامي على التحرر من الاحتلال الاسباني؟ وما هو الدور الذي لعبه رياس البحر والأسطول الجزائري في الحروب العثمانية؟

وللإجابة على هاته الاشكاليات اعتمدنا على المنهج التاريخي الاستقرائي والتحليلي، لما يتناسب مع طبيعة الموضوع فالاستقرائي من خلال قراءتنا التاريخية للوثائق وتحليلها حسب المعطيات التاريخية الموجودة.

ولقد اعتمدنا على بعض الوثائق الأرشيفية من علبة رقم 01 و 05 والتي تحتوي على بعض الرسائل التي أرسلها السلطان العثماني إلى بايلربايات³ الجزائر تختلف مضامينها منها ما كان غرضها حصار مالطة و منها من أجل معركة ليبانت و منها ما كان هدفها تحرير تونس و غيرها من الوثائق، ومحاولتنا هذه تهدف انطلاقا من قراءة استقرائية لبعض الوثائق الارشيفية المرسلة إلى حكام الجزائر، بالاعتماد على بعض المصادر منها التذكار لابن غلبون الطرابلسي فيما يخص تحرير ليبيا والمؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس لابن أبي الدينار و الذي أفادنا في تحرير تونس، صف إلى ذلك كتاب الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا لألتر عزيز سامح و هو من أهم المراجع المتخصصة في التاريخ العثماني و غيرها من الكتب.

ومن هنا نتطرق بالنسبة البحرية الجزائرية بكل ما تملكه من رجال وعتاد لمساندة الأسطول العثماني في فتوحاته وحروبه، والذي نستعرض خطوطه العريضة حسب التسلسل الزمني والكيفية التالية:

أولا: تحرير طرابلس 1551م:

وقبل أن نباشر بعرض اسهامات البحرية الجزائرية ودورها في تحرير منطقة ليبيا من الاسبان يجب أن نستعرض ونعطي لمحة عامة عن الوضع السياسي للمنطقة قبل التدخل العثماني والجزائري بها.

استولى الإسبان على طرابلس الغرب عام 1510م واستمروا بها حتى عام 1535م حينما استغنى عنها الإسبان لفرسان القديس يوحنا⁴، الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مقرا لهم بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من جزيرة رودس وقد ظلوا يحتلون ليبيا حتى عام 1551م⁵، وإن كان تسليم إسبانيا طرابلس إلى القديس يوحنا أمر أغضب السلطان، ومهما تكن الأسباب والدوافع فإن وجود الجزائر كإالة عثمانية وتميز ولائها بالقوة وروح المغامرة قد طمأن السلطان العثماني وهياً له الأسباب في الإقدام على فتح طرابلس.

وفي هذه الأثناء كان نجم الدولة العثمانية يسطع على الحوض المتوسط، ولهذا قرر وفد من أهل تاجوراء الليبية بالذهاب لصاحب القسطنطينية يطلبون منه الإعانة، وكانوا لا خبرة لهم بلغة الترك فلما حضروا إلى القسطنطينية استغرب أهلها وسألوهم من أي البلاد أنتم؟ فأخبروهم أنهم من طرابلس الغرب قدموا لحضرة السلطان مستغيثين به⁶، ولقد قبل السلطان العثماني إغاثة ونجدة سكان طرابلس فسمح مراد أغا⁷ مع الوفد في خوف من العساكر الذين نزلوا في قرية تاجوراء الليبية⁸، وفور وصوله بأشر بتحصينها ثم قام بإعداد قوة من الأهالي إضافة إلى من معه من جنود، وبدأ بشن هجومات متفرقة ضد الفرسان⁹، وكان درغوث باشا¹⁰ قد اتخذ من مدينة المهدية مركزه الرئيسي وأمر شارل الخامس¹¹ كلا من أندريا دوريا «Andre doria» وخوان دي فيجا «Don juan devega» نائب ملك صقلية بإعادة الاستيلاء على هذه المدينة فتمكنوا من ذلك رغم دفاع درغوث باشا عنها سنة 1551م، وكان شارل الخامس يرغب في منح المهدية إلى منظمة فرسان مالطة الذين رفضوا ذلك وحتى لا يتركها في أيدي الأتراك فقد عزم هذا الإمبراطور على تخريبها فسحب منها الحامية وهدم تحصيناتها بالديناميت¹².

ولقد كان مراد آغا يطلع الدولة العثمانية عن كل ما يحصل في طرابلس من قتل وتشريد، إلا أن درغوث باشا لم يقتنع بهاته المراسلات وتوجه بنفسه إلى اسطنبول، وقدم شرحا وافيا حيال هذه القضية وما يفعله المسيحيون بحق مسلمي المغرب العربي، وفي هذه الأثناء طلب السلطان من القبطان سنان باشا¹³ بتجهيز الأسطول والتوجه إلى طرابلس الغرب لطرد الفرسان منها وتحرير وهران وبجاية وتونس في طريقه¹⁴، باعتبار أن الجزائر هي عصب الدولة العثمانية في شمال إفريقيا وهي الركيزة التي تعتمد عليها لفتح باقي مناطق المغرب الاسلامي و لا بد من تحقيق الاستقرار الكامل.

ولقد جاء رد السلطان العثماني سريعا وحاسما لما جرى على مدينة المهدية واسترقاق أهلها من طرف الإسبان¹⁵، ولهذا جهز سنان باشا وعلى الفور بطلب من السلطان العثماني أسطولا ضخما مكونا من 112 سفينة و 52 مركبا بين صغير وكبير واصطحب على متن الأسطول ثمانية 8 آلاف إنكشاري و 400 محارب وصانع 600 فارس بخيولهم وكميات كبيرة من المؤن والمعدات اللازمة كما عهد إلى الرئيس درغوث قيادة بعض السفن الأخرى.

وما إن علم فرسان مالطة بقرار السلطان العثماني أصابهم الذعر والإرباك فطلبوا من نائب ملك صقلية إمدادهم بالجنود والعتاد¹⁶، وبمساعدة صالح رايس بايلرباي الجزائر ودرغوث رايس وقبل الوصول إلى طرابلس هاجم الأسطول الإسلامي مالطة عام 1551م، غير أن استبسال الفرسان في الدفاع عن جزيرتهم حال دون سقوطها، فانسحب سنان باشا ورفاقه إلى جزيرة قوزو واحتلوها¹⁷، ووصلت الحملة في 4 أوت 1551م إلى مدينة طرابلس الغرب وحاصرها العثمانيون لمدة 10 أيام حيث أصبح سقوط المدينة أكيدا¹⁸.

ولقد تمكن الأسطول الإسلامي من ضرب منشآت الميناء ودخلوا المدينة بعد قصفها وطرد الفرسان منها، وتم تعيين مراد آغا واليا عليها، وأضحت بذلك طرابلس منذ عام 1551م ولاية عربية تحت السيادة العثمانية⁽¹⁹⁾، ولكن شؤونها تدبرها الجزائر نيابة عنها، وهذا ما يبرز لنا أهمية و مكانة الجزائر بالنسبة للدولة والسلطان العثماني، ولعل إعطائها لهذا الامتياز يمكن ارجاعه كمكافأة لها و لبحارتها مقابل تحرير طرابلس الغرب.

ثانيا: حصار مالطة (Le siège de Malte 1565):

وبعد تحرير طرابلس الغرب من فرسان مالطة، قرر السلطان العثماني سليمان القانوني²⁰ القيام بحملة تاديبية على جزيرة مالطة التي كانت مركز فرسان القديس يوحنا، حيث أصبحوا يقلقون أقاليمها بتصرفاتهم، كما كانوا يشكلون خطرا على المراسلات بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة، أما من جهة أخرى أصبح هؤلاء الفرسان يقفون في وجه توسعات الدولة العثمانية على الحوض الغربي للمتوسط²¹.

ولهذا بدأ السلطان سليمان القانوني بإرسال فرمانات إلى كل الولايات العثمانية يطلب منها المشاركة في حصار مالطة، ومنها إيالة الجزائر بالخصوص التي طلب من حاكمها آنذاك حسن باشا²² الاستعداد للانضمام للأسطول العثماني في ربيع 1565م المتوجه لحصار مالطة²³ حيث أورد السلطان في رسالته "...تم تعيين الدستور المكرم وزير مصطفى باشا أدام تعالى معاليه قائدا بنية غزو و فتح جزيرة (قلعة) مالطة الواقعة في ديار الغرب و كما هو معروف منذ أمد بعيد بأن تلك

الجزيرة هي بمثابة مقر للكفار أصابهم الدمار ، الذين لا يرتدعون عن قطع طريق الحجاج و التجار القاصدين مصر برا ملحقين بهم كل أنواع الخسائر ...²⁴، كما أشار في رسالته الى أهمية المعركة و شراستها ضف الى ذلك فإنه سيكافئ كل من يقدم المساعدة للأسطول حيث قال "...وإني أولي هذه الغزوة اهتماما زائدا و سيكافئ كل حسب قدره و لن يضيع أجر أحد منهم ..."²⁵، و عليه سارع حسن باشا حاكم الجزائر إلى تجهيز عمارة بحرية و هو على رأسها .وكانت تشمل 25 سفينة وثلاثة (3) آلاف رجل²⁶، ولقد وصلت هذه العمارة البحرية إلى مالطة في 5 جويلية 1565م²⁷. للاطلاع على نص الوثيقة ينظر الملحق رقم 01.

وتكون الأسطول العثماني من قوة بحرية جزائرية بقيادة حسن باشا ومن الدولة العثمانية بقيادة بيالي باشا قائد القوات البحرية ومصطفى باشا قائد القوات البرية ومن طرابلس وجربة بقيادة درغوث باشا²⁸.

وفي 18 ماي سنة 972هـ/1565م وصل الصدر الأعظم مصطفى باشا قائدا للجيش وبيالي باشا أمرا على الأسطول، واتجه الاثنان إلى مالطة ثم لحق بهم أمراء الشمال الإفريقي، ولقد رافقهم علج علي²⁹ باي الإسكندرية وكان يحمل معه أربعة أو ستة سفن وعلى متنها 900 رجل مصري ولقد وصلوا إلى مالطة يوم 24 ماي³⁰، وعلى الفور باشروا بمحاصرة سانت ألم (Burc-sent-Elm) وبمقربة من المحاصرة أصيب درغوث باشا بشظية في رأسه توفي على إثرها ولقد خلفه علج علي كخليفة في الحرب³¹.

أما حسن باشا فلقد وصل في 5 جويلية 1565م أي بعد انتهاء المرحلة الأولى من المعركة³²، وأثناء عمليات الهجوم توفي هذا الأخير-أي درغوث باشا-فقام حسن باشا بنفسه بمهاجمة قلعة سان ميشال وتمكن من إلحاق خسائر فادحة بالمدافعين عنه، وقد أكسبته قيادته لعمليات الهجوم شهرة عظيمة، وحالما رغب الصدر الأعظم بفك الحصار قرر حسن باشا وعلج علي الاستمرار بمتابعة الحصار، لكنهما لم يحققا أي نجاح يذكر، وبما أن حسن باشا أصيب ببعض الجروح فقد وافق الصدر الأعظم على طلبه، وعاد حسن باشا بعدها إلى الجزائر بعد أن فقد نصف جيشه³³.

وعلى الرغم من الحصار الذي ضرب لمدة خمسة (5) أشهر إلا أن العثمانيين انسحبوا لما أرسل نائب ملك صقلية قوة صغيرة إلى مالطة، وكان الأتراك يعتقدون أنها كبيرة، ولقد تركوا ورائهم الكثير من التجهيزات والمؤونة وغيرها³⁴.

ونظرا للدور الفعال الذي قام به حسن بن خير الدين³⁵ في هذه المعركة وما أظهره من شجاعة وبسالة حتى الأخير، فقد أرسل في طلبه السلطان العثماني وعينه أميرال على البحرية سنة 974هـ/1567م وغادر الجزائر هائيا³⁶، ضف إلى ذلك فلقد كشفت معركة مالطة الوقوف الدائم للإيالة الجزائرية جنبها الى جنب مع الباب العالي ومساندتها في كل حروبا وهذا يدل على رغبتها الدائمة في حمل راية الإسلام والمسلمين والدفاع عنهم.

ثالثا: معركة ليبانت 1571م (Lepante 1571) :

وكما ذكرنا آنفا فإن الجزائر قد رفعت شعار التضامن الاسلامي مع الدولة العثمانية في مواجهتها وحروبها المتواصلة، وفيها برز بحارها بقيادة علي كآحسن رجال البحر من خلال مشاركته في معركة ليبانت، حيث تلقى العلي علي الأوامر من السلطان بتجهيز أكبر عدد ممكن من السفن والتوجه إلى قبرص للانضمام إلى الأسطول العثماني الذي حضر نفسه لمواجهة الأسطول المسيحي المتحالف، ومما جاء في نص الأمر ماييلي: "...بعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق جل وعلا، والتوسل والاستناد إلى آيات معجزات سرور الكائنات عليه وعلى آله أفضل الصلوات، فقد تقرر في هذه السنة الخيرة غزو الكفار من البر والبحر وإلحاق الخسارة بجزيرة المعادية وأسطوله- هزمه الله-و كذلك بقصد دفع ورفع مضرتة وفساده وتلقينهم درسا لن ينسوه..." وتلبية لهذه الدعوة خرج علي علي من الجزائر في ربيع 1571³⁷.

ولقد تخوف السلطان العثماني في هذه الفترة بالذات من أن تتعرض إحدى الإيالات إلى أي هجوم من طرف الإسبان، لأنهم سوف يستغلون غياب قلع علي الذي كان مشاركا في الأسطول الهمايوني "معركة ليبانت" و الإيالة الجزائرية دون خليفة يرعاها³⁸، ولهذا أرسل فرمانا يقضي بإرسال قلع علي مع بعض القوات إذا حدث أي طارئ، ولهذا عليكم التفطن وأخذ الحيطة والحذر من

أجل حفظ الأمن والأمان في كل من إيالة تونس والجزائر، كما عليكم إعلامي بأي أخبار تردكم عن العدو...³⁹، وهذا الفرمان ماهو إلا دليل على أهمية الإيالة الجزائرية لدى الباب العالي، ويصر السلطان على المحافظة عليها من أي عدوان خارجي.

كما ابلى السلطان في رسالة موجهة إلى بايلر إي الجزائر يخبره بمعدات الاسطول المسيحي والمتكون من مائتين وثلاثين قاذرة وسبعين فرقة وثمانية وعشرين بارجة وهي بقيادة شقيق ملك دون جوان الذي جهزها وأعدّها للإبحار باتجاه كورفوس⁴⁰ للاطلاع على نص الوثيقة ينظر الملحق رقم 02، أما الأسطول العثماني فكان يضم 250 سفينة ويتكون من الأسطول الجزائري بقيادة علق علي في الميسرة والأسطول الإسباني في الميمنة، وأسطول الدولة العثمانية الذي كان يحتل القلب بقيادة القبطان علي باشا⁴¹ الذي وصفته المصادر الأوربية برجل البحر الأول ولقد لعب دورا كبيرا في هذه المعركة التي بدأت يوم 7 أكتوبر 1571م⁴².

ولقد أكد السلطان العثماني تخوفه من غدر الإسبان ولهذا جدد طلبه من الرغم من أنه قد أرسل حكما حيال هذا الموضوع حيث قال: "...فإذا كان هناك ثمة ما يدعو للحذر في أطراف الغرب (الجزائر) فإنني أمرك بالإسراع للوصول إلى هناك والعودة لملاقاة أسطولي الهمايوني في الربيع المبارك... وإذا ما وقفت واطلعت على أخبار ولاية الغرب (جزائر الغرب) وإن اقتضى الأمر ذهابك إلى هناك، فلا تتأخر ولا تتوقف لحظة، وعليك بالقيام بما يجب عمله بمقتضى فرماني الجليل القدر...⁴³.

وبعد ساعات قليلة من بداية المعركة هزم أسطول الدولة العثمانية وقتل علي باشا، أما علق علي قائد الأسطول الجزائري الذي كان في مسيرة الأسطول الإسلامي، فلقد حقق انتصارات كبيرة ضد الحلف المقدس حيث استولى على 10 سفن وقتل ما يقارب 500 جندي، وبعد مقتل علي باشا قائد الأسطول العثماني تولى قيادة الأسطول علق علي⁴⁴، وبعد استيلاء العلق على السفينة التي تحمل الراية البابوية، كان الحلفاء قد استولوا على الراية الكبرى للأسطول العثماني وقد جاء بها الأتراك من مكة.

ولقد كانت خسارة الأسطول العثماني كبيرة وضخمة فقد أغرق الأوروبيون 94 سفينة واستولوا على 130 سفينة أخرى عليها نحو 300 مدفع و 30 ألف رجل، ولقد أرجع جون وولف أسباب انتصار الأسطول المسيحي إلى عاملين أساسيين وهما: وجود السفن الستة الضخمة التي تعود للبندقية وكون أغلبية الجنود المسيحيين والبحارة يحاربون بالدروع الضخمة، أما الجنود الأتراك فلا يكادون يتوفرون عليها من جهة وكون جل الجنود المسيحيين مسلحين بالأسلحة النارية من جهة أخرى في حين كان الجنود الأتراك باستثناء عدد قليل يحاربون بالأقواس والسهم والرمح والسيوف المحدبة⁴⁵.

ومن أسباب الفشل أيضا التحضير السيئ والسريع والمقابل عم أوروبا الفرح بسبب الانتصار الأول ضد المسلمين⁴⁶، وبالرغم من هزيمة الأسطول العثماني إلا أنه برز من خلالها هبة وقوة الأسطول الجزائري من جهة، ومن جهة أخرى ظهور رجال أكفاء أمثال علق علي الذي أشاد به السلطان العثماني سليم الثاني بعدما قام بإنقاذ ما تبقى من الأسطول العثماني.

رابعا: تحرير تونس 1574م:

لتونس أهمية كبيرة في توطيد الحكم العثماني في الجزائر بل وفي شمال إفريقيا، والمعروف تاريخيا ان تواجد العثماني في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط كان بتونس عام 1504م حيث اتخذ الإخوة بربوسا مدينة جربة التونسية مركزا لنشاطهم البحرية، وقد أدرك خير الدين⁴⁷ أهميتها لا سيما بعد أن عانى من مؤامرات سلطان تونس منذ أن كان بيلربايا، فيما بعد استلم قيادة الأسطول العثماني في سنة 1533م/941هـ، وكانت أولى أعماله البارزة هو الإقدام على ضم تونس إلى الدولة العثمانية في سنة 941هـ/1534م وتمهيد لبسط السيادة العثمانية على باقي مناطق شمال إفريقيا⁴⁸.

ولقد كانت تونس الحفصية تعرف صراعات من أجل الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة، وهذا ما جعل سكانها يرسلون وفدا إلى البايبراي خير الدين سنة 1532م لنجدتهم⁴⁹، وكانت الفرصة مواتية لأتراك الجزائر والدولة العثمانية للسيطرة على تونس التي كانت تمثل موقعا استراتيجيا هاما في

حوض المتوسط قبل أن تسقط بيد الإسبان الذين كانوا يريدونها لوقف توسع العثمانيين في الحوض الغربي المتوسط، وهذه الأسباب لم يتردد خير الدين في تنظيم حملة على تونس وشرع في نفس السنة.

ولقد سار خير الدين إلى القسطنطينية رفقة مولاي الرشيد حاملا معه مشروع إسقاط السلطان الحسن، ولقد هاجم في طريقه سفنا إسبانية واستولى على بعضها مع بحارها في القسطنطينية، وعين خير الدين على إثرها أميرا للأسطول العثماني، ومنح له لقب البايلاي فقفل راجعا تاركا وراءه الرشيد الحفصي محبوسا في العاصمة العثمانية.

كان أسطول خير الدين يحمل على متنه حوالي 1800 إنكشاري وحوالي 6500 رجل من أصول ألبانية وأناضولية ويونانية، وحوالي 600 من الأعلاج، توقف الأسطول عدة مرات في كلابريا لجمع الغنائم والعبيد والماء والخشب، لما بلغ عنابة وجد في انتظاره إمدادات جاء بها حسن أغا، وسار الجيش التركي برا نحو بنزرت وبحرا نحو حلق الوادي⁵⁰، دخل هذا الأسطول مدينة تونس دون مقاومة ولقد خرج مها السلطان الحفصي حسن فارا إلى عرب البادية، بل أن خير الدين لقي الترحيب من قبل سكان مدينة تونس إلا أن سكان المدينة ما لبثوا أن ثاروا عليه لما علموا أنه لم يصطحب معه الأمير الرشيد الحفصي لتنصيبه كما أشاع حسب اتفاقهم مع خير الدين، وأنه أخذ تونس باسم السلطان العثماني سليمان القانوني، وعلى إثرها رجع السلطان حسن الحفصي وقاد ثورة ضد خير الدين إلا أن هذا الأخير تمكن من القضاء على ثورتهم بعنف، وفر حسن ثانية إلى طوائف العرب في داخل تونس بينما قبل سكان تونس العاصمة بالأمر الواقع⁵¹.

وبعد فتح خير الدين لتونس وطرد الإسبان منها، لم يبق أمام حسن المخلوع سوى العمل بنصيحة أحد أعلاجه وهو من أصل ألماني⁵²، الذي طلب منه أن يستنجد بشارل الخامس لاستعادة عرشه المسلوب، وفي 31 ماي 1535م انطلق الأسطول الإسباني المتكون من 450 قطعة بحرية تحمل 30 ألف رجل من برشلونة تحت قيادة شارل الخامس الذي بلغ خليج تونس يوم 15 جوان على الرغم من المقاومة العنيفة إلا أنه استطاع الاستيلاء على حلق الوادي، ما اضطر خير الدين إلى الانسحاب خاصة بعدما تدعم الصف الإسباني بعرب القيروان ومولاي حسن حليف الإسبان⁵³، كما تدعموا بالسجناء المسيحيين الذين هربوا من السجن، ولقد بقي خير الدين ومن معه طوال

الليل تحت أسوار المدينة، وفي الصباح الباكر قرروا التوجه إلى الجزائر بعد هذه الهزائم المتلاحقة، حيث خسروا 87 سفينة و300 قارب سقطوا في أيدي المسيحيين⁵⁴.

انتصر شارل الخامس الذي أعطى الضوء الأخضر لجنوده بنهب المدينة عقابا لسكانها الذين لم يحسنوا استقبال المولاي حسن بحفاوة⁵⁵، وعلى إثر هذا الانتصار وقع مولاي حسن معاهدة مع شارل الخامس، وإن كانت هذه المعاهدة قد وضعت مولاي حسن في أدنى مراتب الذل والإهانة وقد تضمنت المعاهدة على مايلي:

1/ إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس.

2/ السماح للمسيحيين بالتجارة، وبناء الكنائس في تونس العاصمة.

3/ دفع 12 ألف دوقية سنويا 12 حصانا للملك.

4/ السماح لهم بالصيد في الشواطئ التونسية.

وفي المقابل توعدهم إسبانيا بحماية تونس مقابل هذه البنود⁵⁶، وإذا تخلف مولاي حسن عن أي شرط سيدفع 50 ألف دوقية وفي المرة الثانية 100 ألف دوقية وفي المرة الثالثة تؤخذ البلاد منه⁵⁷.

وبقيت تونس بين المد والجزر ونظرا لانشغال شارل الخامس وأخيه ملك النمسا في قتال الأتراك والفرنسيين في أوروبا لم تبذل إسبانيا جهدا كبيرا لدعم وجودها في تونس وكذا ولمدة ربع قرن تقريبا، أدت الخلافات بين الأمراء الحفصيين المتتاليين على السلطة إلى تآرجحهم بين التحالف مع الأتراك أو مع الإسبان⁵⁸.

فاغتنم علق علي الذي حكم الجزائر عام 1568 مالأوضاع المتردية فيها في عهد السلطان حميدة بن الحسن الحفصي والدعوة التي تلقاها من بعض الناقمين على الوضع من أعيان تونس ورجالها ومنهم الطيب الحضار وغيره، وانشغال الإسبان بقضية الأندلسيين في جانفي 1569 م⁵⁹، فشن حملة برية على تونس في أكتوبر 1569 م وكان معه قوة تتألف من 5 آلاف رجل وخرج بمحلة عظيمة، وفي سيره انضمت إليه قوات أخرى من المتطوعين من قبائل عمراوة وقرقة

وسويد قدرت بنحو سبعة (7) آلاف رجل⁶⁰، والواضح من حركة عالج علي و رغبته في تحرير تونس نهائيا و لكن لحساب الدولة العثمانية و دون الخروج عن الاستراتيجية العامة التي تعمل بها الدولة في اطار التوسع في منطقة شمال افريقيا، ومن هنا يتضح لنا أن مهمة البحرية الجزائرية بغض النظر عن دورها الاقتصادي البارز، قد ارتكزت اساسا على إحباط مخططات الإسبان و خصوصا و الأوروبيون عموما و الدفاع عن أرض الاسلام .

وتمكن عالج علي من تحرير تونس وانتصر على السلطان الحفصي أحمد في معركتي حاجة وسيدي علي الحطاب وفر هذا الأخير إلى الإسبان، كما أرسل عالج علي في طلب الأسطول العثماني وقوات عثمانية كبيرة للقضاء على الحصن الإسباني القوي في حلق الوادي إذ بدون القضاء على الحصن تبقى تونس معرضة للخطر من طرف الإسبان في كل لحظة، ولكن السلطان العثماني كان بحاجة إلى الأسطول لفتح قبرص فلم يجبه التالي بطلبه وعاد إلى الجزائر وبقيت حلق الوادي محتلة⁶¹.

في هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية في صراع مع البندقية التي كانت تعترض طريق بحارها، إلا أن اهتمامات السلطان بإيالاته كانت إحدى أولوياته، ولهذا وفي رسالة مؤرخة بتاريخ 978/05/22 هـ موجهة إلى أمير أمراء جزائر الغرب يخبره فيها بأنه قد أرسل 150 قطعة إلى حلق الوادي من أجل تحريرها كما طلب منهم المساعدة وإعلامهم بما عندهم من عتاد حربي من أجل تجهيزها وضمها إلى الأسطول العثماني لتحرير حلق الوادي من الإسبان والتي سوف تكون في الربيع القادم⁶²، كما أكد على ضرورة الاستعداد و التجهيز السريع للحملة و جلب المعدات اللازمة من السفن (القادرغات والقاليتات) من الاطراف المحاورة لتدعيم الاسطول الجزائري و ملاقة الأسطول الهمايوني في الموعد المحدد⁶³.

كما كانت الدولة العثمانية متأكدة من نية الإسبان، وخاصة أن هذه الأخيرة على علم بانشغال إيالاتها بحروها، وخافت من أن تغتنم الفرصة وتقوم بشن حملة ضد إيالاتها بشمال إفريقيا وخاصة تونس والجزائر، ولهذا أرسلت رسالة إلى القائد رمضان قائم مقام ووكيل أمير أمراء جزائر الغرب علي-دام اقباله- مؤرخة بتاريخ 979/10/25 هـ الموافق لـ 28 شوال ردا على رسالة أبو

الطيب وأعيان مدينة تونس و اللذين كانوا قد ارسلوا رسالة الى السلطان العثماني يشيدان بها امير امراء الجزائر عالج علي و بحسن سيرته و مقامه و معاملته الطيبة للأهالي حيث قالوا: "...بعث أبو الطيب و سائر أعيان ولاية تونس بخطابات يشيدون فيها بحسن استقامتك و معاشرتك لأهالي الولاية من كل الوجوه..."⁶⁴.

كما نص في الرسالة على المساهمة في إرساء الأمن والأمان في كامل أرجاء الإيالة ونواحيها والأخص تونس ومجاورها.⁶⁵ وهذا النص كان قد ادرج من قبل و يتمحور تقريبا في نفس المعنى تقريبا حيث أرسلت رسالة من قبل بتاريخ 979/01/02 هـ إلى أمير أمراء الجزائر الغرب يطلب منه الإسراع في إلحاق القيروان إلى باقي المناطق وحماية البلاد من الإسبان⁶⁶، وتشير رسالة أخرى من بين العديد من الرسائل التي تخص هذا الموضوع أرسلت من طرف السلطان العثماني إلى أمير أمراء الجزائر الغرب بتاريخ 979 هـ تنص على "...يجب إلحاق الضرر بأسطول الكفار و عليك أمير أمراء الجزائر لحماية الجزائر وتونس..."⁶⁷، وأغلب هذه الرسائل أرسلت إلى أمير أمراء الجزائر الغرب لمكانة الجزائر الدولية والإقليمية آنذاك ولهيبتها وقوتها البحرية.

و المرجح هنا و بعد هذه المعطيات التاريخية فإن السلطان العثماني يحمل إيالة الجزائر المسؤولية الكاملة سواء فيما يخص التحرير للمناطق الخاضعة للإسبان أو حتى فرض الاستقرار في المنطقة كما يشيد بقوتها العسكرية حيث يطلب منها عدم التخاذل و الاسراع بإلحاق القيروان إلى باقي المناطق و حماية البلاد من الاسبان، ضف إلى ذلك فإن الرسائل تشير إلى رغبة السلطان واصراره الدائم على تحرير تونس كاملة وضمها لممتلكاته باعتبار أن المنطقة من الناحية الجغرافية استراتيجية بامتياز و من الناحية السياسية فهي تآمن الحدود الشرقية لإيالة الجزائر وهاته الأخيرة التي تعتبر عصب الدولة و حامله لمشعلها و رايتها في شمال افريقيا.

وفي رسالة أخرى موجهة إلى أمير أمراء الجزائر الغرب يخبره بنية الدولة العثمانية في إرسال أسطول إلى حلق الوادي وسائر القلاع الحربية الأخرى لتحريرهم، ويكون الأسطول تحت قيادة القابودان علي باشا وتطلب الرسالة منه أن يرسل لملاقاة الأسطول الرجال والأسلحة مع العتاد الحربي⁶⁸.

كما حثهم في الرسالة على تحفيز الجزائريين وتحريضهم على قتال الكفار، وطلب من علي علي أن يساند القابودان باشا وأن يكون وجهان لعملة واحدة وهذا ما أورده في الرسالة: "...وعليكما ببذل المقدور لتحصيل ما من شأنه تبيض وجهيكما، و أن كل من سيشارك ويبذل خدماته في سبيل الجهاد، سيحف بأنواع عنايتنا و عطفنا، وستحقق أمله انشاء الله تعالى، وعليه يجب ترغيب و استمالة أبطال الجزائر الشجعان ز تحريضهم على القتال». للاطلاع على نص الوثيقة ينظر الملحق رقم 03.

إلأن هذه الحملة لم يكتب لها النجاح حيث واجهت قلع علي عاصفة أجبرته على الالتجاء إلى موانئ اليونان بأسطوله، ومع ذلك تضررت سفنه واضطر في الأخير أن يرجع إلى اسطنبول استعداد لتجديد محاولة أخرى ولكن مصيرها لم يكن أحسن من الأولى فأجل العملية إلى وقت لاحق⁶⁹.

وتمكن الإسبان من الاستيلاء على تونس مرة أخرى في شهر أكتوبر 1573م⁷⁰ بعد أن قام دون خوان ملك النمسا بحملة ضدها هذا الأخير الذي كان متأكدا من وقوع حملة عثمانية على تونس من أجل استرجاع حلق الوادي، ولم تكن عملية استعادة تونس مهمة إيالة الجزائر فحسب بل كانت مهمة الدولة العثمانية بكاملها لما تكتسيه هذه المنطقة من أهمية استراتيجية كبيرة في الصراع العثماني والإسباني، ولهذا تحركت هذه الأخيرة بسرعة لاستعادة تونس وحلق الوادي معا⁷¹.

ولهذا أرسل السلطان سليم الثاني سلسلة من المراسلات لقاداته في مختلف الولايات العثمانية في شمال إفريقيا من أجل تحرير تونس⁷²، كما أرسل في نفس الوقت رسالة إلى أمير كوكو يطلب المساعدة منه وتأمين ما يمكن من الذخيرة والالتحاق بالأسطول العثماني من أجل الأمر ذاته⁷³، ولقد وصلت القوات التركية في الأيام الأخيرة من شهر جوان حيث جاءت من طرابلس قوات تتكون من أربعة (4) آلاف رجل وجاءت من جربة والقيروان قوات تتكون من ستة (6) آلاف فارس، ومن قسنطينة وعنابة قوات ألفين رجل، وانضمت إلى هذه القوات أعداد غفيرة من الأهالي، ضرب الجميع خيامهم بالقرب من مدينة تونس في 1 جويلية، وعلم الإسبان في تونس باقتراب الأسطول العثماني، هذا الأخير الذي تكون من 280 قطعة بحرية بقيادة علي وساعده حسن باشا.

ولقد أرسى الأسطول العثماني يوم 13 جويلية بالقرب من رأس قرطاجة قبالة حلق الوادي، وأمر القائد الأسطول البري بضرب الحصار على تونس تحت قيادة حيدر شيخ القيروان ودعمها أربعة (4) آلاف تركي من جنود الأسطول وثمانية (8) مدافع كبيرة وصغيرة، وفي يوم 17 جويلية شرع في قصف حصن حلق الوادي من جهتين، وفي 10 أوت وصل القائد رمضان إلى تونس مع خمسة (5) آلاف تركي من الجزائر وعدد كبير من الأهالي، أما في 13 سبتمبر سنة 1574م، فلقد تمكنوا من فتح تونس ومن وقتها تخلّى الإسبان عن فكرة احتلال تونس نهائياً⁷⁴، وبسقوط الحصن سقطت الدولة الحفصية وانتهت مرحلة الاحتلال الإسباني على تونس، وأصبحت هذه الأخيرة إحدى إيلات الدولة العثمانية، وعين حيدر باشا واليا عليها وكلفه بوضع نظام مشابه للنظام العثماني السائد في الجزائر⁷⁵.

خامسا: حرب البنادقة 1639م (La guerre Venice):

استمرت الدولة العثمانية في الاعتماد على البحارة الجزائريين وعلى الأسطول الجزائري ففي سنة 1639م دخلت الدولة العثمانية في حرب مع البنادقة في الساحل الدماشي بالبنانيا، وكان السلطان العثماني قد استنجد بالأسطول الجزائري الذي قاده البحار الجزائري علي بوتشين إلى هناك، وبسبب حدوث زوابع بحرية شديدة التجأ الأسطول الإسلامي إلى خليج فالونا، واغتنم البنادقة نزول البحارة إلى البر وانفصلوا على المراكب وقتلوا 1500 شخص وحرروا 4643 أسير مسيحي كانوا على ظهر المركب⁷⁶.

كما استولى البنادقة على 12 غليوطة وغرق 4 غاليوطات كما فقدوا سفينتين من نوع برغانطة، ولم ينج من الراس إلا القليل في حين تمكن علي بوتشين من الخروج بسلام لكنه تعرض إلى أضرار كبيرة لأن المجدفين والسفن كانوا من ملكه الخاص⁷⁷.

وإن كانت هذه الحادثة قد مثلت منعرجا خطيرا وحاسما في تدهور البحرية الجزائرية التي كانت هي الدعامة الأساسية التي تركز عليها الجزائر، ولم تتمكن هذه الأخيرة منذ هذه الواقعة من استرجاع قوتها كما كانت، لأنه إن كان من السهل بناء المراكب البحرية نظرا لازدهار صناعة السفن

في الجزائر، فإنه من الصعب إعداد ما تتطلبه السفن الجديدة من بحارة وقادة بقطع النظر عن الأسرى اللّازمين لتسيير البواخر الحربية، وبالرغم من أن الباب العالي قد وعد الجزائر بتعويض خسائرها وتجهيزها بـ 25 باخرة حربية كبيرة، لكنها لم تف بوعدها⁷⁸.

ومن آثار هذه الواقعة أن تعهد الرّياس بعدم المشاركة في مثل هذه الحروب، حيث أنهم وحدهم من دفعوا الثمن غاليا وضحوا بدمائهم وأموالهم، ولهذا فقد قطعوا وعدا على أنفسهم بعدم القيام بمثل ذلك والتزموا بوعدهم⁷⁹، وأصبحوا ينظرون إلى كل المطالب الواردة من الدولة العثمانية نظرة الإرتياب والشك⁸⁰.

خاتمة:

- أن البحرية الجزائرية برزت كقوة عالمية في منطقة البحر الابيض المتوسط مع بداية القرن 16م، وطرف فعال في الصراع الاسلامي المسيحي خاصة بعدما ألحقت رسميا بالدولة العثمانية وحملت معها شعار التضامن الاسلامي.

- إن الدور المشرف الذي لعبته البحرية الجزائرية إلى جانب الدولة العثمانية من خلال صد الحملات الأوروبية عامة والاسبانية خاصة على دول المغرب الاسلامي وتحريره هائيا، وضمه إلى الممتلكات العثمانية وكمكافأة امتياز للبحرية الجزائرية أسندت للجزائر مهمة الاشراف على الايالتين طرابلس وتونس إداريا نيابة عنها، ومما نستنتجه أيضا من هذا أن لولا البحرية الجزائرية لما اكتمل المشروع التوسعي العثماني في شمال افريقيا.

- اشتراك الاسطول الجزائري مع الاسطول العثماني في الحروب المتوسطية حيث شاركت في عدة معارك حربية كبيرة خاضتها ضد التحالفات الأوروبية أبرزها ليبانت ومالطة وغيرها برز فيها بحارها أمثال عالج علي وعلي بوتشين، وهذا من أجل حفظ كرامة ومكانة الدولة العثمانية الدولية، وفي نفس الوقت برهنت هذه المشاركات قوة الاسطول الجزائري وإن كانت موقعة فالوفا قد هزت نوعا ما هاته الميزة لكن سرعان ما استرجعتها.

البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية _____ سجلات زهيرة
الملحق رقم 01: رسالة من السلطان العثماني إلى أمير أمراء الجزائر يطلب منه المشاركة في حصار مالطة



علبة رقم 01 مهمة دفترى 06 حكم 565 صحيفة 266 تاريخ 972/5/25 هـ.

البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية _____ سجلات زهيرية

الملحق رقم 02: رسالة من السلطان العثماني إلى أمير أمراء الجزائر يبلغه

بمعدات الأسطول المسيحي المجهز لمعركة ليبانت ويطلب منه المشاركة في المعركة.

علبة رقم 05 مهمة دفتری 16 حكم 40 صحيفة 24 تاريخ 979/5/20 هـ.



رئاسة الجمهورية
الأمرة العامة

الجنرال ق :

مهمة دفتری رقم 16 ص 24 حكم رقم 40

بتاريخ 979/5/20

أعلى إلى أحمد جاوش في 979/5/23

حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب

أرسلت خطابا تعلم فيه ، انه اثنا جمع الذخيرة والمهمات لا سطولي البهايويني بعويوب الحكم العرسل ، قد تم ارسال قاتلتيين إلى تونس وأغرين إلى أطراف قنطرة () وأن تلك القاتلتيين صكت من أخذ بعض الأسرى من أسطول الكفار الطغور ، وبعد استجوابهم الأسرى ، فقد أقروا بأن سفن وقادرات الكفار (الهندقانيين) بما في ذلك سفن أسبانية الغرايطة في كريت بلغ عددها مائتين وثلاثين قادرة وسبعين فرقة () وثمانية وعشرين بارجة ، وأن شقيق ملك أسبانية المدعو دون جون - الخائب - وقد نصب قائدا عاما عليها وأنه قد جبر تلك السفن وأعدتها للإبحار بها باتجاه كبرفوس (جزيرة كورفو) كما تعلمنا بأن الدستور الكريم يبري وقيوداني يرفع باشا - أدام الله أجائه - مهتم ومقدم على القيام بالامر المتعلقة بالدين والدولة وأعداد أسطول البهايويني وأن جمع ما ذكرت أصبح معلوما بالنظم بيش الله وجهك ، فانه من رجال القديمين والمعتنين بخدماتي البهايونية ، أن أسطولي القرون يهزتي بوشك على الرجوع إلى ممتلكاتنا انشا الله تعالى ، فإذا كان هناك صاع ما يدعوا للحد من في أطراف الغرب (الجزائر) فأنني أتوك بالاسراع للوصول إلى هناك والعودة لمناكنا أسطولي البهايويني في الربيع المبارك . وأمرت :

حال وصوله ، فلا تقص عن بذل التقدير في سبيل خدماتي البهايونية ، وغيره بالاستمرار على ما كنت عليه ، وإذا ما ولفقت وأطلعت على أخبار ولاية الغرب (جزائر الغرب) ، واقتضى الامر ذهابك إلى هناك ، فلا تتأخر ولا تتوقف لحظة ، وغيره بالقيام بما يجب عليه بمقتضى فرمائي الجليل القدر ، ومن ثم يجب العودة في الربيع الخير للتواجد في أسطولي البهايويني وعيك بهذل وإظهار أنواع مساعدته الجميلة في سبيل الامر المتعلقة بالدين الحق ودولتي الأبدية .

تعريب : محمد داود الصبي

البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية ————— سجلات زهيرة

الملحق رقم 03: رسالة من السلطان العثماني إلى أمير أمراء الجزائر يأمره بالاستعداد والتجهيز وملاقاة الأسطول العثماني

من أجل تحرير حلق الوادي وسائر القلاع الحربية بتونس

علبة رقم 06 مهمة دفترى 21 حكم 637 صحيفة 266 تاريخ 980/12/16هـ



الهوامش:

- 1 فرمان لفظ فارسي معناه أمر أو حكم أو دستور موقع من الملك استعمله الأتراك في العهد العثماني بمعنى الأوامر السلطانية. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، ص338.
- 2 مهمة دفتري أو ما يصطلح عليه بالمواد الدبلوماسية و هي تحتوي على مراسلات من مختلف الأنواع موجهة من السلطان الى الولاة، و أغلبها يصدر على شكل فرمات وأوامر سلطانية. ينظر: مصطفى أحمد بن حموش، فقه العمران الاسلامي من خلال الارشيف الوطني العثماني الجزائري 1646-1830م ط1، دار البحوث للدراسات و الاسلامية و احياء التراث، الامارت، 2000، ص18.
- 3 البايلاي أي بالي البايات أو أمير الأمراء لقب حمله حكام الجزائر في الفترة الممتدة من 1519م إلى غاية 1587م ويعينون لفترة محددة. ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص 93-95.
- 4 بدأت هذه المجموعة حياة كمنظمة خيرية ودينية، وكان القدس مأوى لهم، إلأن طردهم صلاح الدين الأيوبي، وبعد نشوب الحروب الصليبية تحولت على منظمة عسكرية تعني بالأخص الجرحى في المعارك الحربية، وأصبحت جزيرة رودس مركزا لهم. ينظر عمر محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952، ص 75.
- 5 رأفت الشيخ، ريخ العرب الحديث، مطابع دار رونا، برينت، 1994، ص 297.
- 6 أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي، ريخ طرابلس الغرب المسمى التذكاري فيمن ملك طرابلس وما كان عليها من الأخبار، تع: طاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349، ص 93.
- 7 أصله إيطالي من مواليد راقوسا أسره القراصنة ثم باعوه و آل أمره إلى فصر السلطان العثماني سليم، فيما بعد انظم إلى أسطول خير الدين عام 1538، عين واليا على طرابلس الغرب من 1551 الى غاية 1553. ينظر: الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس الغرب من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد العثماني، ط1، دار الفتح للطباعة و النشر، بيروت، 1970، ص ص 153، 154.
- 8 أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي، المنهل العذب في ريخ طرابلس الغرب، مشورات مكتبة الفرجاني، ليبيا، د.س.ن، ص 188.
- 9 محمود علي عامر، ومحمد خير فارس، ريخ المغرب العربي الحديث. المغرب الأقصى لبيبة، الجمعية الثانوية للطباعة، دمشق، د.س.ن.، ص 160
- 10 درغوث باشا أسندت له ولاية طرابلس الغرب من عام 1553-1555م، و هي السنة التي توفي فيها درغوث أثناء عمليات إنزال القوات التركية بالمطلة. ينظر: مامولكر بحال، افريقيا، تر: محمد حجي و آخرون، دار المعرفة للنشر و التوزيع، ط1، الرباط، 1984، ج3، ص125.
- 11 ولد سنة 1500م وورث ملك اسبانيا عن والدته جان ابنة فرديناند وايزابيلا وانتخب أميرا لألمانيا بعد موت جده لأبيه الامبراطور ماكسيمليان وقضى أيامه في محاربة فرانسوا الأول، وحارب خير الدين باشا أمير البحر كشمير بارا روس وقصد الاستيلاء على مدينة الجزائر، ولكن لم يفلح بذلك، تنازل ملك اسبانيا لابنه فبايب وعن ألمانيا لأخيه فرديناند، كما اعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة 1658م. ينظر ابراهيم سعيود، القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة "القرصنة الايطالية نموذجاً"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، رجب 1432هـ/جوان 2011م، ع 11، غرداية، ص161.

12 فيرو شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العثماني حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق وتقديم، محمد عبد الكريم الوافي، ط:3، مشورات جامعة سقايونس، ليبيا، 1994. ص 89.

13 سنان باشا عين أميرالا على الاسطول العثماني، كلفه السلطان بتحرير طرابلس الغرب و طرد فرسان القديس يوحنا منها، كما شارك في معركة مالطة. ينظر: محمود علي عامر، المرجع السابق، ص ص 162، 163. نفسه، ص 14.161

أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي، المصدر السابق، ص 15.189

محمود علي عامر، المرجع السابق، ص 16.161

محمود سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط: 1، دار النفائس، بيروت، 1995، ص 17.216
جون وولف، الجزائر وأوربا 1500م-1830م ت، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 18.68

19 يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 218.

20 سليمان القانوني ولد في 1 شعبان 900هـ، تولى الحكم عام 926هـ، نفى الزايدة من الدولة، وهو الذي عين خير الدين أميرال على البحرية العثمانية، وكان قد وسع دائرة النفوذ للدولة العثمانية. ينظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، تح: إحسان حقي، ط:1، دار النفائس، بيروت، 1981، ص-ص 88-95.

صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م-1830م، ط:2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.س، ص 2189
22 حسن آغا كان عبدا خصيا من جزيرة سردينيا، تولى خير الدين تربيته تربية اسلامية و اشرف على تعليمه، تولى إدارة الجزائر في غياب خير الدين حيث بذل جهدا كبيرا في تحصينها. ينظر: بسام العسيلي، خير الدين بربروسا (الجهاد في البحر)، ط:1، دار النفائس، بيروت، 1980، ص 127.

علبة رقم 01 مهمة دفترتي 6 حكم رقم 565 صحيفة 266 تاريخ 972/5/25 هـ. 23. نفسه 24

نفسه 25

يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ط:2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص 26179
27 De Grammont(H.D), Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Paris, Ernest Leroux, 1887, p100.

صالح عباد، المرجع السابق، ص 2889

29 علج علي أصله من كلابر اسر وعمره عشرون سنة، لقب بالفرطاس، اعتنق الاسلام وعمل بحار ثم انظم الى درغوث في طرابلس، من اهم انجازاته مشاركته في حرب مالطة وليبانت ومساندته لمسلمي الاندلس وتحريره لتونس، ولقد عين بالبراب للجزائر عام 1568م، نفسه، ص 90.

30 Defontin(Maxange), Alger avant La conquête Eulg Ali ,Paris ,A.Pedone Editeur, 1930 ,p 84.

31 Ibid., p88.

32De Grammont(H.D), op.cit., p 100.

33عزير سامح ألت، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط:1، دار النهضة المغربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989، ص 219.

صالح عباد، المرجع السابق، ص 34.89

35هو كرغلي ابن خير الدين من امرأة جزائرية، عين كئائب لوالده في الجزائر عام 1544م و يالري عام في 1546م، عزله الجيش لكن أعيد إلى منصبه مرتين و للمزيد من التفاصيل ينظر: عمار عمورة ، الجزائر بوابة التاريخ من ما قبل التاريخ الى 1962م، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ج2، ص129.

36عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب 923هـ-1069هـ / 1518م-1659م، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، 1983، ص 47

محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر عالج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2009، ص ص 150، 151.37

علبة رقم 05 مهمة دفترى 14 حكم 48 صحيفة 40-41 ريخ غرة صفر 979 هـ.38
نفسه 39

علبة رقم 05 مهمة دفترى 16 حكم 40 صحيفة 24 ريخ 979/5/20 هـ.40

صالح عباد، المرجع السابق، ص 4194

42Nettement(M.alfred), Histoire de La conquête d'Alger, Libraire jacques Lecoffre,p54.

علبة رقم 05 مهمة دفترى 16 حكم 40 صحيفة 24 ريخ 979/5/20 هـ.43

D), op.cit., p 108..44De Grammont(H

صالح عباد، المرجع السابق، ص 4595

46Belhamissi (Moulay), Histoire de la marine algérienne 1516-1830, ENAL, Alger ,1983, p139.

47خير الدين بربروس 1470م-1546م هو حاكم الجزائر وقائد الاسطول العثماني ولد في جزيرة لسبوس، توفي في الأستانة، اسمه الحقيقي خضر بن يعقوب ويلقب بخير الدين .ينظر: نيكولاي ايفانوف، الفتح العرب للأقطار العربية 1516-1574م ، ترجمة وتحقيق: يوسف عطا الله، ط:2، دار الفرائي، ، 2004، ص 101.

48عمار بن خروف، المرجع السابق، ص32.

49جون وولف، المرجع السابق، ص46.

50صالح عباد، المرجع السابق، ص62

عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 5132

لم يذكر اسمه في المصادر والمراجع.52

صالح عباد، المرجع السابق، ص، 53.62

54Alphonse (Rousseau), Annales Tunisiennes ou aperçu sur la régence de Tunis, Tunis ,éditeurBouslama,1980 ,p 19.

صالح عباد، المرجع السابق، ص، ص 62، 63.55

56. Alphonse(R),op.cit., p 20.
57. عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 12.
- نادية محمد مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص 58.39
- عمارين خروف، المرجع السابق، ص 59.50
- إبن أبي الدينار، المؤنس في ربح إفريقيا وتونس، ط:1، مطبعة دولة تونس، تونس، 1869، ص 60.163
- عمارين خروف، المرجع السابق، ص 61.50
- علبة رقم 05 مهمة دفترى 14 حكم 603 صحيفة 403 ربح 978/05/22 هـ. 62. نفسة 63
- علبة رقم 03 مهمة دفترى 12 حكم 1037 صحيفة 541-543 ربح 979/10/25 هـ الموافق ل 28 شوال 979 هـ. 64. نفسة 65
- علبة رقم 05 مهمة دفترى 10 حكم 10 صحيفة 1 ربح 979/01/02 هـ. 66
- علبة رقم 05 مهمة دفترى 14 حكم 49 صحيفة 41 ربح 979 هـ 67
- علبة رقم 06 مهمة دفترى 21 حكم 637 صحيفة 266 ربح 980/12/16 هـ. 68
- محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 69.198
- أحمد إبن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تلمسان وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ج 2، ص 70.19
- صالح عباد، المرجع السابق، ص 71.96
- عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 72.246
- علبة رقم 06 مهمة دفترى 23 حكم 783 صحيفة 349 ربح 981/12/18 هـ. 73
- صالح عباد، المرجع السابق، ص 74. 96
- إبن أبي الدينار، المصدر السابق، ص 75.189
- يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500م-1830م، د.ط، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 76.73
- عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 77.365
78. محمد بن مبارك الملي، ربح الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج:3، ص 166.
- عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 79.365
- محمد بن مبارك الملي، المرجع السابق، ص 80.166

جرائم فرنسا إبان الثورة التحريرية
بين مسؤولية الدولة والفعل المعزول
الدكتور نور الدين محسال، جامعة بلعباس

الملخص:

يتناول هذا المقال إشكالية هامة ما زالت تثير الكثير من الجدل حول قضية التعذيب الذي مورس على نطاق واسع أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر لا سيما الفترة الممتدة بين 1954-1962 فقد مارس الجيش والشرطة الفرنسيين أساليب غير إنسانية في عملياتهما العسكرية ضد المجاهدين والشعب الجزائري، الأمر الذي أثار آنذاك تنديدا واسعا من قبل المجتمع الدولي، غير أن السلطات الفرنسية اعتبرت ما قامت الأجهزة الأمنية مطابق للقانون، بينما حالات التعذيب هي مجرد أعمال معزولة.

الكلمات المفتاحية: الثورة - التعذيب - الفعل المعزول.

Abstract

this article raises the important problem which removes to the present day much politeness. This is the torture that was practiced on large scale pedaling the colonial period and overtou between 1954-1962 where the French army and police practiced inhuman methods against the civilian population and the moujahedeen, but the French state considered its methods is in accordance with the law and its cases are individual facts.

تمهيد:

يعتبر التعذيب أحد أهم ملفات الحرب الجزائرية، فقد كان وسيلة نشر الرعب بفرنسا من ملكية جويلية 1830 إلى جمهورية مايو 1958، نظمت أو تركت هذه الظاهرة تتطور حسب الحالات والزمن فاستعمال التعذيب كان من هانوي إلى تاناناريف إلى دكار ومن الرباط إلى تونس. إن فهم هذا الامتداد لا بد من العودة إلى الفكر الاستعماري، الذي جاء لنشر الحضارة للأقلية الموجهة من الخارج والتي تهدد هذا الوجود، وبالتالي فالعنف المستعمل يتحول إلى عمل للدفاع عن النفس ليس ضد شعب فقط بل إلى عمل لاجتثاث العناصر المخربة وأي عنصر من الأهالي يخرج عن هذا الإطار فهو خارج القانون، فالتعذيب ليس مجرد حادث ولا مجرد خطأ

فالاستعمار لا يعقل أن يبقى بدون إمكانية ممارسة هذا الفعل فهو أساس في العلاقات بين المحتل والواقع عليه الاحتلال، ووفق هذا المنظور فإن الشرطي الذي يعذب لا يخترق أي قانون فأعماله تتم في إطار المؤسسة الاستعمارية وإذا يعذب فإنه يبدي وفاء حقيقيا للنظام فواجب كل فرد وأن يتصرف كمعذب، وبذلك يكرس الاحتلال العسكري الدائم، ويحافظ على منظمة بوليسية قوية.

أ- قانون حالة الطوارئ: La loi d'état d'urgence

في ليلة 31 أكتوبر 1954 استيقظت فرنسا على عمليات عسكرية عبر كامل التراب الجزائري، قامت بها وحدات جيش التحرير الوطني، ومنذ الشهور الأولى رفض المسؤولون الفرنسيون اعتبار هذه العمليات ثورة ضد الاستعمار، فقد صرح "منديس فرانس" Mandes France في 12 نوفمبر 1954: "لا تنتظروا منا أي رحمة تجاه الفلاقة، فعملات الجزائر جزء من الجمهورية منذ زمن طويل"، أما "فرانسوا متيان" فيؤكد: "كل الوسائل سوف توفر حتى يتسنى لقوة الأمة تحقيق الانتصار مهما كانت الصعاب، الجزائر هي فرنسا من الفلانندو إلى الكونغو، فهناك القانون وأمة واحدة"، كما ذكر أنتوان بيناي "Antoine penay": "أي عمل ضد الحكم الفرنسي، والسلطة التقليدية، لا يمكن قبوله على أرض شمال إفريقيا، أو على أي أرض الأم، فعلينا قمعه بدون رحمة"⁽¹⁾.

لم تكن الإدارة الاستعمارية قادرة على مواجهة الثورة في بدايتها فعدد أفراد الناحية العاشرة في أكتوبر 1954 لم يتعد 49500 رجل من بينهم 5000 رجل من قوات الصحراء، وبذلك يبقى أقل من 45 ألف رجل للعمليات الثلاثة بالجزائر، كما يقدر العدد الموجود في قيادة أركان الجيش وأجهزة العتاد، والجهاز الصحي، العدالة العسكرية، والمتربصين، وعدد آخر في المستشفى أو في عطله مرضية، والمكلفين بحراسة الثكنات، وقوات الاتصال والهندسة بـ 30 ألف.

إن العناصر الوحيدة التي بإمكانها الحفاظ على النظام تقتصر على وحدات المصفحات، والخيالة، مما يعني 15500 رجل، ويجدر الإشارة أن هذه القوات لم تكن تتوفر لا على الوسائل، ولا على الأوامر للقيام بعمل الشرطة⁽²⁾. وكانت القوات المسلحة الفرنسية موزعة كما يأتي:

على الحدود التونسية الجزائرية كتيبتان من المظليين وفرقة من اللفياف الأجنبي ثلاث كتائب، ثلاث أرباع من الوحدة الرابعة عشر للمدفعية وفوجان وفوج ثالث يتحرك من المدية إلى قسنطينة، والكتيبة الصحراوية، ولم يكن عدد القوات المدنية للحفاظ على الأمن عشية اندلاع الثورة كبير

حيث جمعت في "مديرية الأمن العام للجزائر" التي كانت لها مهمتين الأولى حماية الأشخاص، والأملاك، والحفاظ على الأمن العام، والثانية ضمان الأخبار لإدارة الإقليم والحاكم العام والوالي. لقد نشرت عدة نصوص بالجريدة الرسمية الصادرة بالجزائر في 29 جوان 1954 تحدد توزيع أفراد الشرطة الجزائرية التي كانت في حدود 6836 شخص تحت قيادة إدارة مدير الأمن العام، إضافة إلى 51 موظف تحت سلطة مدير مراقبة الإقليم مختص في البحث واستغلال المعلومات المتعلقة بالنشاطات الخارجية التي تمس الأمن الخارجي للدولة⁽³⁾.

ويتشكل جهاز الأمن العام من الشرطة القضائية وشرطة المعلومات العامة والشرطة الإدارية. الشرطة القضائية مهمتها تسجيل المخالفات للقانون الجنائي وتجميع الأدلة والبحث عن منفذي الجرائم وضم 584 موظف، و34 محافظ للشرطة و09 من الضباط في عمالة الجزائر، و07 بمركز بنية الحد و07 لعمالة وهران، ومركزين بـكولومب بشار و20 لعمالة قسنطينة، ومركز واحد بجيجل، أما شرطة المعلومات العامة فهي تحت إدارة الوالي مهمتها البحث واستغلال المعلومات المتعلقة بالوضعية النفسية للسكان، وردود فعل الرأي العام تجاه الأحداث الداخلية والخارجية والحركات السياسية المحلية الفرنسية، وضمت 356 موظف منهم 16 محافظ يمارسون عملهم في العمالات الثلاث، والشرطة الإدارية ضمت أشخاص مدنيون أو مرتدين الزي الرسمي مؤطرة من طرف 113 محافظا للشرطة، بمجموع 5890 موظف⁽⁴⁾.

إن هذه الإمكانيات لم تكن لتسمح للاستعمار الفرنسي بمواجهة هذا الوضع الجديد، فمع بداية 1955 اشتدت أعمال جيش التحرير الوطني، وبدأت السلطات الفرنسية تدرك أن الأمر لم يكن من عمل جماعة، وإنما وراءه جهاز منظم، مما دفعها إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات للسيطرة على الوضع منها عزل "روجي ليونارد" "Roger Leonard"، وعينت مكانة جاك سوستيل "Jacques Soustelle" الذي أعلن في أول خطاب له أمام المجلس الجزائري "إن فرنسا لن تغادر الجزائر مثلما يستحيل عليها أن تغادر مقاطعة لافوفانس أو لافروطان، أن فرنسا اختارت سياستها، وهذه السياسة هي الإدماج"⁽⁵⁾.

وأمام تصاعد الاضطرابات في الجزائر فكرت الإدارة الاستعمارية بإنشاء نظام حقوقي يكفل القيام بعمل عنيف ضد أولئك الذين كانت تسميهم بالمتمردين، ولما كان لهذه الظروف

صفة الاستثنائية، فقد رأت من الضروري الاعتماد على تشريع استثنائي سيظهر تطوره في التخلي التدريجي من قبل السلطات الشرعية الممنوحة للبرلمان والحكومة لحساب القوة المباشرة في مكافحة جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني، وإرغام الجزائريين على مهادنة فرنسا وقبول الأمر الواقع، وهكذا اضطرت الحكومة الفرنسية إلى طلب من البرلمان الفرنسي اتخاذ القوانين التي طبقها في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية، ففي 15 مارس 1955 يوافق مجلس الوزراء بتطبيق قانون 11 جويلية 1938 الخاص بتجهيز الأمة في حالة الحرب⁽⁶⁾.

في بداية الأمر ظهرت فكرة حالة الحصار "L'état de siège" التي كان هدفها إعطاء للقيادة العسكرية الإمكانات اللازمة المتعلقة بالسياسة الأمنية التي تسمح في إطار التشريع الاستثنائي بمنع الأقلية من التمرد على سلطة الدولة⁽⁷⁾، فالنص الفرنسي يرى أنه لا يمكن إعلان عن حالة الحصار في المитروبول إلا بقانون لكن بالنسبة للحكومة الفرنسية فالجزائر ليست فرنسا بل مستعمرة، ولم تكن دولة أبدا، فهي تعرف منذ القديم انقسامات بين العناصر المكونة للمجتمع الجزائري، خاصة بما يتعلق بالحقوق المدنية الفرنسية، أو حتى بالنسبة للقوانين الجنائية المشار إليها في قانون الأهالي، فملتهم الجزائري والأوربي لا يعاملون بنفس الطريقة.

لذا لم يكن الحاكم العام متحمسا لهذه الفكرة لأنها تعني تخلي عن السلطة المدنية لصالح السلطة العسكرية، فلا يمكن أن تعطي صلاحية الحفاظ على الجمهورية إلا عندما تكون الإدارة المدنية أو الحكومة قد تجاوزتها الأحداث، وقد رفضها الحاكم العام "روجي ليونار" لاعتبارين أساسيين هما:

أولاً: الجانب البسيكولوجي تجاه السكان الجزائريين. على المستوى الخارجي فهذه الثورة ليست انتفاضة شعبية، لكن أعمال معزولة لأفراد محدودين وهذا يدخل في إطار صلاحية الشرطة، وبالتالي لا يمكن المساس بالسيادة الوطنية.

ثانياً: الوسائل الضعيفة التي يشكلها الجيش الإفريقي بالقوات التي يقودها الجنرال شارليار Charriere لا يمكنها مواجهة الثورة⁽⁸⁾.

هذا الرفض لحالة الحصار لا يعني القبول بالأسلحة القانونية التي تتوفر عليها التي أدت إلى امتعاض الكثير من أفراد الجيش.

ومع بداية سنة 1955 اعتبر الجنرال "زيلار Zeller" أن الإجراءات الحالية غير كافية لتحقيق هذا الهدف، لذا دعا إلى تسريع الإجراءات القضائية وتدعيم الجهاز القمعي في الجزائر. بعد الضربات التي وجهها جيش التحرير الوطني للقوات الاستعمارية كلف الرئيس الفرنسي "ادغافور Edgafor" بتشكيل حكومة جديدة في 23 فيفري 1955، ويعين "بورجيس مينوري" وزيرا للداخلية بدل "فرانسوا ميتران"، وكان "ادغافور" قريبا جدا من جاك سوستيل، ففي أول تصريح له أكد أن الجزائر تكون مع فرنسا وحدة لا يمكن فصلها وتجزئتها⁽⁹⁾.

بدأ "جاك سوستيل" في عرض برامجه على المجلس الجزائري والسياسة التي سيتبعها، مؤكدا على أن الجزائر بجميع سكانها هي جزء كامل من فرنسا وغير قابلة للتقسيم وإن فرنسا لن تغادر الجزائر أبدا، مقتنعا أن الإجراءات الاجتماعية والاقتصادية غير كافية لإعادة الأمن، فكيف يمكن مواجهة هذه الأعمال والانتفاضات في مختلف مناطق البلاد؟

في ظل هذه الظروف عرض "جاك سوستيل" على وزير الداخلية والحكومة الفرنسية على أن تكون أول مبادرة هي وضع مشروع قوانين أكثر ملاءمة للوضع الحالي متحججا بضرورة وضع حد للشعور بالأمن والخوف الذي ينتاب سكان الجزائر، والذي سمح بإعطاء مصداقية أكثر لضعف فرنسا، وعدم قدرتها على حماية ممتلكات وحياة الأشخاص، وتواصل الأمن يعود بالأساس إلى عدم كفاية الوسائل لمواجهة وضعية استثنائية، كما أن الحكومة كانت ترفض دائما حالة الحصار التي اعتبرت حلا فعالا لإعادة النظام، بيد أنها ستؤدي حتما إلى التأثير سلبا على التطور الاقتصادي للبلاد، وكان يدرك أن البرلمان لن يوافق على حالة الحصار، لأنه كان ينظر بعين الحذر للعسكريين، وسيدفع باللجان القضائية والداخلية إلى إدخال بعض التعديلات على بعض النصوص الخاصة بقانون حالة الطوارئ.

إن حالة الطوارئ تختلف عن حالة الحصار من حيث أن الإدارة تتمتع بكل الصلاحيات في إطار محدد فالحالة الأولى كان هدفها إعطاء للقيادة العسكرية إمكانيات هامة في السياسة الأمنية لمنع القوة المضادة للسلطة الحاكمة، أما الحالة الثانية فهدفها منع القوى الثورية من تقديم مطالب سياسة ونشرها في أوساط الشعب، وبذلك كان هذان القانونان يمنحان نوع من الضمانات⁽¹⁰⁾.

هذا القانون ليس جديدا بل وضع في عهد الجمهورية الثانية سنة 1849 لمواجهة حالة الحرب الخارجية أو التمرد العام المسلح، ولكن نظرا لخطورته فإن فرنسا استعملته أربع مرات⁽¹¹⁾:

الأولى في 1852 بمناسبة الانقلاب الذي أسقط الجمهورية الثانية.

الثانية في 1870 أثناء الحرب البروسية الفرنسية.

الثالثة في 1914 عند بداية الحرب العالمية الأولى.

الرابعة 1939 عند بداية الحرب العالمية الثانية.

تعود أصل الفكرة من خلال إنشاء "المفتشيات العامة للإدارة في مهمة غير عادية Générale, Administrative, Mission extraordinaire Inspection" سنة 1950 وكان دورها تنسيق الإدارة العسكرية والمدنية، فظهر تنظيم جديد حول العلاقة بين الإدارة المدنية والجيش، وفي السنوات الآتية تم دراسته من طرف معهد الدراسات العليا للدفاع الوطني بوضع تنظيم جديد أوسع من حالة الحصار.

في 19 مارس 1955 تقدمت حكومة "ادغافور" ووزير داخليتها "بورجيس مينوري" بالمشروع إلى البرلمان الفرنسي وحاولت الحكومة الدفاع عنه من خلال بيان وزارة الداخلية الفرنسية الذي جاء فيه: "أن حالة الطوارئ تشكل حلا وسطا بين الحالة العادية، حيث الاحترام الكلي للحريات، بينما حالة الحصار تنقل السلطات إلى العسكريين، أما حالة الطوارئ، تبقى هذه السلطات بيد الحكم المدني"⁽¹²⁾، وفي 23 مارس 1955 عقدت الجمعية الوطنية الفرنسية دورة استثنائية لدراسة المشروع وبرزت ثلاثة آراء حوله:

- الأول يرى أن تطبيق حالة الطوارئ يعني اعتراف صريح بالحرب في الجزائر.

- الثاني يرى أن تطبيقه حالة الطوارئ مخالفة للدستور

- الثالث يرى بضرورة القضاء على الثورة في مهدها.

عرفت المناقشات داخل الجمعية الوطنية الفرنسية اختلاف وجهات حول نص المشروع، فهناك من أيده كالنائب "جيتون Giptone" في جلسة 30 مارس 1955 مصرحا: "إن حالة القطر الجزائري لا تستدعي إصلاحات اقتصادية فقط، بل الواجب على الحكومة أن تبادر بتنفيذ إصلاحات سياسية واجتماعية ويجب تمكين الحكومة من سلاح قانوني لإرجاع الأمن"⁽¹³⁾، وهناك

من عارضه كالجنرال "كاترو Catro" الذي صرح قائلاً: "إن هذه الحالة التي تريد الحكومة فرضها على الجزائر ستكون سببا في إيجاد نفسية سيئة، ويمكن لسائر الناس عند إعلاننا حالة الطوارئ أن يصدقوا الأنباء التي تذيعها الجامعة العربية"⁽¹⁴⁾.

في ظل هذا التجاذب بين المؤيدين والمعارضين تدخل وزير الداخلية الفرنسي بورجيس مينوري في جلسة 31 مارس 1955: "إننا نواجه الحالة في القطر الجزائري، يجب أن نقابلها باستعداد في الميدانين الحربي والإداري، فقد قدمت النجدة العسكرية، وقد زدنا من جهة أخرى في نفوذ الحكام، فإن الثائرين والخارجين عن القانون في تلك الجهات بقيادة رجال أجنب، وحالة الطوارئ تمكن الحكومة من استعمال الوسيلة الكفيلة بإعادة الأمن والقضاء على التمرد"⁽¹⁵⁾.

جرت المناقشات في جلسة 01 إبريل 1955 ودامت أكثر من 15 ساعة ونصف ساعة تمت المصادقة على المشروع بـ 379 صوتا بنعم و 219 صوتا بلا، ثم عرض على المجلس الجمهوري الذي يصادق عليه كذلك بـ 333 صوتا بنعم و 77 صوتا بلا⁽¹⁶⁾.

بدأ التطبيق الفعلي لحالة الطوارئ ابتداء من 03 أبريل 1955 على منطقة القبائل والأوراس وشرقي مقاطعة قسنطينة لمدة 06 أشهر وفي 06 أبريل توسع إلى باتنة وتبسة بسكرة والوادي، وخلال شهر ماي عمم على كامل عمالة قسنطينة وعدة جهات من عمالة الجزائر، ووهران، وفي شهر أوت على كامل الجزائر وفي 08 أبريل وجه الحاكم العام أوامره إلى الولاة لتطبيق هذا القانون قائلاً: "إن حالة الطوارئ هي أداة مؤقتة من أجل وضع حد لكل أشكال الفوضى وزرع الطمأنينة، والمساهمة في مهمة التهدئة، كما أن تقييد الحريات التي تسمح بها القانون يجب أن تكون محدودة عند الحاجة، ولا تمثل عقاباً جماعياً، فهذه الإجراءات ليست مقتصرة على الفرنسيين المسلمين فقط، بل يجب أن تطبق على الأوروبيين الذين يتعاونون مع الثوار والمتمردين"⁽¹⁷⁾.

وبمقتضاه منحت السلطة الإدارية سلطات واسعة لتحديد إقامة الأفراد وفرض الرقابة على تنقلاتهم وإبعاد بعضهم عن الجزائر دون محاكمة ومنع الاجتماعات ومراقبة المحلات العامة وإنشاء محاكم عسكرية لتحل محل المحاكم الجنائية ولا يستطيع أحد الطعن في أحكامها، وغلق المقاهي وقاعات السينما والمسارح وإجراء التفتيش ليلاً نهاراً ومنع الصحف والمنشورات والروايات المعادية

للخط الذي وضعته الإدارة الاستعمارية، وبإمكان السلطات الإدارية، أو وزارة الداخلية، أو الحاكم العام، أو الولاية اتخاذ جميع التدابير لضمان الأمن العام (المادة 18)⁽¹⁸⁾.

وفي 28 أبريل 1955 عين الجنرال "Parlange" قائدا عاما للجهات التي تشملها حالة الطوارئ الذي قام بحملة دعائية واسعة لتمجيد المظليين وإرهاب الأهالي، ثم وجهت الحكومة الفرنسية تعليمات بزيادة عدد المحتشدات ومراكز التجميع، وفي 10 جوان 1955 أصدرت قانونا جديدا يعمم تطبيق حالة الطوارئ في الميدان القضائي، وذلك بإحالة الأعمال التي ارتكبت بعد 30 أكتوبر 1954 ضد أمن الدولة على المحاكم العسكرية في كل دوائر قسنطينة، باتنة، عنابة، بجاية، قالمة، سطيف، تيزي وزو، تلمسان، وفي 06 جويلية 1955 تم تمديد حالة الطوارئ بـ 06 أشهر ابتداء من أكتوبر 1955⁽¹⁹⁾.

وفي 17 مارس 1956 صدر قانون في إطار قانون السلطات الخاصة بتوسيعه إلى جميع وسائل التعبير فكل الكتابات المطبوعة يمكن لها أن تتعرض للحجز الإداري والقضائي، كما يسمح للوالي حسب المادة 10 لقانون الإجرام، التي تحولت إلى المادة 30 من قانون الإجراءات الجنائية أن يحجز مؤقتا الكتب التي تحتوي على مخالفة لأخلاقيات الصحافة استنادا إلى قانون 29 جويلية 1881 فيما يتعلق بالمس بآمن الدولة⁽²⁰⁾.

ويظهر من هذا القانون أن السلطة المدنية تبقى السلطة العليا تجاه السلطة العسكرية نظرا مع احتفاظ السلطة التشريعية بصلاحياتها، لكن لمدة قصيرة ذلك أن الحكومة الاشتراكية التي كان يرأسها "غي مولي Guy molley" تحصلت في الجمعية الوطنية يوم 16 مارس 1956 الموافقة على التمتع بالسلطات الخاصة التي تسمح باتخاذ كل التدابير التي تفرضها الظروف من أجل إعادة النظام أي التوقيع على بياض تمنحه السلطات التشريعية للسلطة التنفيذية.

وفي 17 ماي 1958 أعيد تمديد هذا القانون لحساب حكومة بفليملان Pflimlin، وفي 03 جوان من نفس السنة لحساب حكومة ديغول، وفي 07 أكتوبر 1958 تصدر الحكومة مرسوما يلغي المادة السادسة من قانون 16 مارس 1956 التي ترغم كل حكومة جديدة بأن تطلب من البرلمان تحديد هذه الصلاحيات، وهذا توسعت صلاحيات السلطة التنفيذية على

حساب السلطة التشريعية التي ستمحى تجاه التوسع في اللجوء إلى المراسيم التي لها سلطة القانون ويتحول الجيش من مجرد منفذ في الجزائر إلى مركز تقرير حقيقي⁽²¹⁾.

وفي فليب فيل وبقرار مؤرخ في 05 ديسمبر 1955 أنشئت قيادة عسكرية ومدنية، ثم أن الوزير المقيم في الجزائر "روبرت لاکوست Robert lacoste" الذي أصبح حاكما عاما للجزائر بقرار 15 فيفري 1956 وامتلك سلسلة من التفويضات ذات سلطة واسعة، فوض بها بدوره العسكريين بحكم المادة 10-11 عن هذا القرار، وهكذا فإن قرار 17 ماي 1956 يكلف السلطات العسكرية بحفظ الأمن في محافظة قسنطينة ثم يأتي قرار 14 ديسمبر 1956 لتكليفها بمثل ذلك في وهران وتلمسان.

وفي 17 جانفي 1957 يسلم للجنرال "ماسو" مسؤولية حفظ النظام في العاصمة بقرار من محافظ الجزائر، وفي 13 ماي 1958 يمنح الجنرال " سالان Salan " السلطات المدنية والعسكرية في الجزائر الذي أنشأ بقرار منه يوم 21 ماي 1958 قيادة مدنية وعسكرية في كل منطقة، وعند مجيء ديغول ثبت له هذه السلطات بتاريخ 09 جوان 1958⁽²²⁾، وبذلك تصبح حالة الطوارئ هي دستور الجزائر التي تسمح بقهر الشعب الجزائري وتحولت إلى مذهب واضح، ولا يمكن إيجاد أي منطق وراء هذه العملية لأن فرنسا لا تعترف بحرب الجزائر.

ب- قانون السلطات الخاصة Loi des pouvoirs spéciaux

احتقرت فرنسا القدرات الفعلية لإمكانات الثورة الجزائرية التي عمقت جذورها في أوساط الشعب، ورغم كل الإجراءات التي اتخذتها فإن الثورة أصبحت أكثر شمولية بداية من سنة 1955 وأصبحت سيدة الموقف في عدة مناطق من البلاد، خاصة على الحدود الشرقية والغربية، وفي منطقة الأوراس، والقبائل، العسكرية، فحسب تصريح "روبرت لاکوست" انتقلت الحسائر الشهرية الفرنسية من 30 ضحية في نوفمبر 1954 إلى 285 ضحية في جانفي 1955⁽²³⁾.

دفعت هذه الوضعية حكومة " ادغافور " إلى التنحي عن السلطة لتجرى انتخابات تشريعية في 02 جانفي 1956 أين حقق الاشتراكيون الأغلبية المطلقة، واضعين نصب أعينهم تحقيق السلم والأمن كأحد أولوياتهم في حملتهم الانتخابية، نتيجة لذلك قرر رئيس الجمهورية الرابعة ريني كوتي

René coty تكليف الاشتراكي غي مولي بتشكيل الحكومة الجديدة التي تحصلت على أغلبية مطلقة في المجلس الوطني، حيث صوت 400 نائب لصالحها من بينهم 150 نائبا شيوعيا. في هذه الأثناء أراد رئيس الحكومة الجديد أن يعين الجنرال "كاترو" كحاكم عام للجزائر لكن بالنسبة للمعمرين هذا التعيين يعني بداية الحوار مع الثورة الجزائرية الأمر الذي رفضوه لتتطلق مظاهرات لقدماء المحاربين بالجزائر العاصمة في 28 جانفي 1956 فقد طلب "جورج روكس Georges roux" رئيس قدماء الكومندوس بإفريقيا بتنفيذ أحكام الإعدام في حق الجزائريين وكان إلى جانبه "أميدي فروجي Amedee Froger" ووافق المتظاهرون على تصريح يطلب من الحكومة بتنفيذ الأحكام التي أصدرتها المحكمة في أسرع وقت.

وعند وصول "غي مولي" في 06 فيفري 1956 إلى الجزائر استقبل بمظاهرات عنيفة طالب فيها المتظاهرون بإقالة الجنرال "كاترو" الذي رضخ للأمر الواقع وقدم استقالته. وفي 07 فيفري من السنة نفسها استقبل رئيس المجلس جمعيات قدماء المحاربين الذي صرح قائلا: "أريد أن نستعمل الجيش بطريقة أحسن من أجل إنجاز مهمته وإنجاح سياسة التهدئة" (24)، ثم وافق في 09 فيفري 1956 على تعيين "روبرت لاكوست" وزيرا مقيما بدلا من الجنرال "كاترو"، وكان هذا الأخير يشغل منصب الشؤون الاقتصادية الأمر الذي اعتبرته الأوساط الأوربية بالجزائر انتصارا لها، بينما تحفظت الأوساط الجزائرية عن التعليق معتبرة أن اسم الشخص ليس له أهمية فالأمر الأساسي هي السياسة الجزائرية وضرورة الاعتراف بالأمة الجزائرية، وفي أول تصريح له بعد وصوله إلى الجزائر قال: "إن الإصلاحات التي تحتاجها البلاد لا يمكن تطبيقها إلا بشرط واحد: العودة إلى السلم" (25).

في نفس الوقت وجد "غي مولي" الوضعية السياسية والعسكرية قد ازدادت خطورة، فصرح في 16 فيفري قائلا: "إن أول واجب فرنسا هي الحفاظ على الأمن، وحماية حياة الأوربيين والمسلمين الجزائريين" (26)، لكن تبقى الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية وعودة الأمن رهينة بالوضع العام في الجزائر، فالتوار بداية من شهر فيفري أصبحوا أكثر قوة، لذا كان لابد من اتخاذ إجراءات جديدة أكثر فعالية من حالة قانون الطوارئ، وبالتالي إعادة النظر في السياسة العامة للحكومة الفرنسية في الجزائر، وبعد عودة "روبار لاكوست" إلى باريس وافق مجلس الوزراء بوضع مشروع قانون يسمح للحكومة باتخاذ جميع الإجراءات الاستثنائية لإعادة النظام العام والحفاظ على

الإقليم، ثم أضاف في 20 فيفري أمام الجمعية الوطنية: "يجب أن تكون في الجزائر سلطة مستقرة ومتوازنة لتنسيق العمل السياسي، الإداري، والقضائي، وإعادة النظام، وحماية الأشخاص والممتلكات والحفاظ على سلامة البلاد، هذه السلطة لا يمكن لها أن تعمل ألا بمنحها سلطات واسعة" (27).

وخلال النصف الأول من شهر مارس 1956 عرفت الحياة البرلمانية الفرنسية جدلا كبيرا حول المشروع المعروف بـ "معركة السلطات الخاصة" مما زاد الوضع تعقيدا، فقرر الجنرال "ماري اندري زيلار Marie André, Zeller" قائد أركان الجيش تقديم استقالته إلى جانب المفتش العام للجيش البري والجنرال أوغسطين غيوم Augustin Guillaume قائد أركان الجيش العام، لتقرر الحكومة تعيين بول إليي Paul Ely والجنرال بلان Blanc والجنرال بيات Piatte.

أمام هذا الوضع المتأزم تم وضع مشروع قانون السلطات الخاصة على مكتب المجلس الوطني في 01 مارس، وفي يوم الجمعة بعد الظهر الثامن منه بدأت المناقشات حتى ليلة 09 و 10 مارس، حيث تم تسجيل أكثر من 20 تدخلا لنواب المجلس في جلسات علنية، ومحاولة منه لإقناع نواب المجلس تدخل "رويار لأكوست" قائلا: "إن المتمردين قد سيطروا على ثلث الشمال الجزائري، فوقت الوعود قد فات، وما هو آت هو وقت العمل الصارم والسريع. نريد أن نعطي المثل لبلد يبني في العاصفة، رغم التهديدات والصعاب" (28)، وفي تلغراف للجنرال "افميرون Avmeran" نائب المجلس الوطني ذكر فيه: أن توسع الإرهاب هو نتيجة عدم معاقبة المسؤولين. إن مجموع السكان يعتبرونكم شركاء للمجرمين بموقفهم المعارض بتنفيذ أحكام الإعدام"، وفي 02 مارس ينشر مشروع القانون تحت عنوان هل يمكن للحكومة أن تطبق حالة الحصار بالجزائر؟

بداية من 06 مارس يلتقي "غي مولي" بكل رؤساء المجموعات البرلمانية لإقناعهم بضرورة تأييد هذا المشروع، وقد علق أحد أعضاء الحزب الاشتراكي "لومبار Lambert": "نعتقد أن تطبيق حالة الحصار سيكون وسيلة فعالة، إني أحارب هذا الشعار فحالة الحصار هي انتقال السلطة المدنية إلى العسكريين، وهذا لا يمنح لهم أي سلطة جديدة، زيادة على عدم تنفيذ أحكام الإعدام، لهذا اعتبر أن قانون السلطات الخاصة ضرورة" (29).

في 07 مارس وعلى بعد 60 كلم من الجزائر العاصمة بمنطقة بالسترو هاجم المجهدون 06 مزارع وقتل 07 أوريبيين، مما أدى إلى هيجان الرأي العام الفرنسي الذي طالب بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة للقضاء على الثوار، في اليوم الموالي عادت المناقشات في المجلس الوطني حيث تدخل النائب الديغولي "ريموند درون Rymond Dronne" قائلا "إن الوضعية زادت سوءا، إننا أصبحنا سجناء للقوانين القضائية لماذا؟ لأن نتائج انتخابات 02 جانفي قدمت للسكان الجزائريين على إهماء إرادة فرنسا في الانسحاب وتركهم... إن الحملة القذرة التي تقوم بها بعض الجرائد الخاصة لـ Express أضرت بالقضية الفرنسية أكثر مما أحقته عشر وحدات من الفلاقة. إن ضياع الشمال الإفريقي يعني انهيار فرنسا، وفقدانها لهيبتها الدولية لذا أتمنى من البرلمان أن يصوت لصالح هذا القانون لمواجهة هذه الوضعية الاستثنائية"⁽³⁰⁾.

أما المتطرف جون ماري لوبان Jean Marie Le Pen فقد عبر عن امتعاضه من عدم التصويت على هذا المشروع: "إن مشكل الجزائر هو عسكري، أنه مشكل إعادة النظام، أنه من الضروري توحيد القيادة بين المدني والعسكري، على أن تكون لصالح هذا الأخير إننا ننتظر من الحكومة أن تقول لنا، إننا لا نتأخر في تقديم أي تضحية ممكنة. إننا ننتظر من الحكومة أن تقدم كل الإمكانيات للجيش من أجل إعادة النظام، وإعلان حالة الحصار، لكنها لم تفعل. إننا ننتظر من الحكومة تنفيذ أحكام الإعدام ضد القتلة الموجودين في السجون الجزائرية، لكنها لم تفعل. إننا ننتظر من الحكومة أن تضع الجيش في حالة الهجوم، لكنها لم تفعل. إننا ننتظر أن تراقب الصحافة والمعلومات وحملاتها المغالطة والتي تمس معنويات الجيش والأمة لكنها لم تفعل. إن الحرب المعلنة ضدنا في الجزائر ستخوضها عاجلا أم آجلا، فمن الأفضل أن نقوم بها الآن، فرنسا لم تتردد في 1914 في خوض حرب خسرها فيها 1.5 مليون شخص من أجل أن تصبح الألزاس واللورين فرنسية وفرنسا لن تخشى أن تقدم نفس التضحيات إذا كان ذلك ضروريا"⁽³¹⁾.

وأثناء مناقشة المشروع ظهرت معارضة شديدة من طرف المهاجرين الجزائريين بفرنسا فقد شن العمال الجزائريون في 9 مارس إضرابا عن الطعام لمدة 24 ساعة، هذه الحركة وجدت تأييدا بضواحي باريس خاصة في معامل ستروان للسيارات، وبلغت نسبة المشاركة 90 % في الصناعة الكيماوية والحديد والبناء، بينما ظلت المقاهي والمحلات التجارية مغلقة، وفي الصباح توجه العديد

من العمال الجزائريين إلى مسجد باريس حيث أقيم حفلا دينيا وفي الساعة الحادية عشرة تجمعهم الآلاف من الجزائريين في الطرقات رافعين العلم الوطني على باب المسجد إيذانا ببداية مظاهر نحو المجلس الوطني الفرنسي لتسليم عريضة احتجاج إلى رئيس المجلس.

غير أن الشرطة ردت بعنف من خلال ضرب المتظاهرين بأعالي نصح "سان مارسال" Saint Marcel متسببة في جروح خطيرة إلى جانب اعتقال المئات.

رغم المعارضة الشديدة إلا أن المناقشات تواصلت داخل المجلس حتى يوم 12 مارس واجتمعت 03 لجان لدراسة مشروع الحكومة، فصوتت لجنة الداخلية بـ 16 صوتا بنعم و12 صوتا بـ لا، أما لجنة الدفاع الوطني فصوتت بالأغلبية المطلقة، وأضافت إلى القانون مقترح للدفاع عن معنويات الجيش، ومنع أي حملة إشهارية جماعية أو فردية ضد الجيش الفرنسي⁽³²⁾.

وفي 09 مارس 1956 على الساعة الثانية صباحا ترفع الجلسة بعدما طرح "غي مولي" قضية منح الثقة حول المشروع، وفي 12 منه بعد الظهر تتم الموافقة بأغلبية مطلقة بـ 455 صوت بنعم ضد 75 صوت بلا، وبعد التصويت على المشروع صرح الوزير المقيم "روبار لاكوست" قائلا: "إن المصير الجزائر وفرنسا واحد، فيمكن أن يكون الرأي العام الفرنسي منقسما، لكن ليس هناك فرنسي يقبل أن يرى فرنسا تخرج من أرض استقرت بها ونشرت الحضارة الإنسانية"⁽³³⁾، ثم قام الرئيس الفرنسي بعد ذلك "روني كوتي" إضافة إلى غني مولي، روبر لاكوست، فرانسوا ميتران، موريس بورجيس مينوري، بول رمادي بالتوقيع على المشروع.

بعد عودة الوزير المقيم إلى الجزائر في 18 مارس عقد ندوة صحفية وكان محاطا بـ "ماكس لوجون Max Lejeune" كاتب الدولة للقوات المسلحة صرح فيها "كل الفرنسيين مقتنعين أن مستقبل فرنسا يتحدد في الجزائر، سنفاجئ المتمردين، والرأي العام الفرنسي متحد حول المسألة الفرنسية. لقد تقرر إعطاء الأولوية للحاجيات الجزائرية بمضاعفة عدد الجيش ووضع بيده كل الوسائل الميكانيكية والجوية"⁽³⁴⁾.

وتضمن قانون السلطات الخاصة ما يأتي⁽³⁵⁾:

المادة الأولى: إن الحكومة تستطيع بالمراسيم المتخذة في مجلس الوزراء، وفقا لتقرير الوزير المقيم، وبعد استشارة مجلس الدولة أن تتخذ جميع الإجراءات المتعلقة بالجانب الاقتصادي

والاجتماعي والمالي والإداري، وتجهيز المدارس، والمستشفيات وإصلاح النظام العام، ودخول المسلمين إلى الوظائف العامة، وإنشاء صناعة جديدة.

المادة الثانية: المصادقة من طرف البرلمان في أجل لا يزيد عن عام المراسيم التي نصت على تغيير الإجراءات التشريعية.

المادة الثالثة: يسمح للحكومة اتخاذ عن طريق مراسيم، وفقا لتقرير وزير الشؤون الاقتصادية، وبعد استشارة اللجان المالية والمجلس الوطني ومجلس الجمهورية أن يسمح بالاقتراض لتنفيذ المراسيم السابقة، هذه المراسيم يصادق عليها البرلمان في مدة أقصاها عام بداية من صدورها.

المادة الرابعة: تستطيع المراسيم المقررة في مجلس الوزراء وفقا لتقرير الوزير المقيم بالجزائر، وتوسيعها على الجزائر وتكييفها إذا اقتضت الضرورة.

المادة الخامسة: تتمتع الحكومة بالجزائر بسلطات واسعة من أجل اتخاذ إجراءات خاصة التي تتطلبها الظروف بهدف إعادة النظام وحماية الأشخاص والممتلكات، والحفاظ على الإقليم، بواسطة مراسيم:

مرسوم رقم 268/56: يعطي كل السلطات القضائية إلى المحاكم العسكرية، وتشمل المخالفات في الطرق، وجرائم ضد الأمن الداخلي للدولة، وينطبق على كل الأحداث الواقعة بداية من 30 أكتوبر 1954، كما أن المحاكم الاستئناف الدائمة لقوات الجيش الموجودة بالجزائر العاصمة هي الوحيدة المخول لها استقبال الطعون ضد قرارات المحاكم العسكرية.

مرسوم 269/56: يعطي إمكانية عرض أي شخص بطريقة مباشرة على المحاكم العسكرية، والمشاركة في عمل ضد الأشخاص والممتلكات، ويتعرض صاحبها إلى الإعدام.

مرسوم 270/56: الإعدام للأشخاص الذين يفرون بالسلاح أو بالخديرة.

مرسوم 271/56: يسمح لوزير الدفاع استدعاء الضباط الاحتياطيين أو المنتدبين، فيما يخص الجهاز القضائي العسكري وبالتالي استدعاء قضاة متطوعين للعمل في المحاكم العسكرية.

مرسوم 274/56: تعطى للمحاكم العام سلطات واسعة في إنشاء المناطق المحرمة، وفرض الإقامة الجبرية، بوضع أي شخص يعتبر نشاطه خطير على الأمن العام في المعتقلات كما سمح بمنح صلاحيات الشرطة إلى السلطة العسكرية⁽³⁶⁾.

المادة السادسة: السلطات الممنوحة بمراسيم سابقة ينتهي العمل بها بنهاية عهدة الحكومة، وفي حالة استقالة الحكومة أو كان رئيس المجلس في عطلة، فالحكومة الجديدة تطلب التأكيد من طرف البرلمان بمنحها وقت لا يتعدى 10 أيام من تاريخ منح الثقة من طرف البرلمان، وفي حالة عدم تقديم هذا الطلب في التاريخ المحدد فإن القانون يصبح ملزماً.

وبذلك أصبح هذا القانون القاعدة القانونية لكل الإجراءات الخاصة المتخذة بالجزائر في إطار سياسة التهدئة، وأثره على الحريات الفردية، مما سمح لـ روبر لاكوست بتنفيذ إصلاحات محدودة التي اعتبرها البعض تطبيق لمخطط "جاك سوستيل"، ففي مرسوم 12 أفريل 1956 الذي وضع حدا لوجود المجلس الجزائري، إلى جانب مرسوم 13 جويلية 1956 الخاص بإصلاحات زراعية وولوج المسلمين إلى الوظيف العمومي، وتحويل البلديات المختلطة والكاملة، كما اقترح مشروع مراسيم قدمت لمجلس الوزراء في جويلية 1956 حول مخطط تقسيم الجزائر إلى 12 مقاطعة⁽³⁷⁾، وكان هدف هذه الإصلاحات هو كسب ثقة المسلمين الذين تلقوا ضربة قاسية حينما قررت الحكومة بحل جميع البلديات الكاملة والمحالس العامة.

لقد علقّت جريدة المجاهد بعد التصويت بأن البرلمان الذي صوت بتجديد العمل بالسلطات الخاصة وتوسيعها إلى الأراضي الفرنسية يعني تنظيم الحرب على الجزائريين بفرنسا، هذا التصويت هو إعطاء الشرعية للأعمال الممارسة بالجزائر والتي هي عار على الإنسانية فهناك ملفات أكدت للعالم بالتصرفات البربرية الفرنسية وقانون السلطات الخاصة سيسمح بترسيخ بقلب أوروبا نظاماً قمعياً موجهاً ضد الجزائريين، إن الرأي الدولي سيعرف كيف تستعمل فرنسا الوسائل التي رفضها وندد بها في العالم المتحضر في محكمة نورمبورغ، و بالتالي فإن التصويت الأخير للبرلمان الفرنسي هو اعتراف صريح لفشل المرحلة الأولى في حرب الجزائر، فقد اعتقدت فرنسا سنة 1954 أنها ستقضي على الثورة الجزائرية بالاستعانة بكل قواتها العسكرية والشرطة ومليون جندي مجهز بأحدث الأسلحة، ومنذ 03 سنوات تخوض فرنسا حرباً شاملة بالجزائر مانحة للجنود الحرية الكاملة في قتل المدنيين وتعذيب النساء، وقنبلة وتدمير القوى بأكملها⁽³⁸⁾.

والملاحظ من خلال عملية التصويت أن 132 عضواً من الحزب الشيوعي قد صوتوا لصالح المشروع وفي محاولة لتبرير هذا الموقف الشيوعي صرح الأمين العام للحزب "موريس توراز Maurice

thorez" في 27 مارس 1956 " إن تصويت الحزب الشيوعي لصالح المشروع كان هدفه الحفاظ على وحدة الشيوعيين والاشتراكيين" (39).

حاولت الأمانة العامة للحزب الشيوعي تبرير هذا الموقف ففي سؤال لجريدة Quotidien d'Oran لـ "ماري جورج بوفي Marie george buffet" ردت قائلة: "لا يمكن حصر موقف الحزب الشيوعي أثناء حرب التحرير الجزائرية في التصويت على هذا القانون، لأن كان لدينا موقفا شجاعا ضد الحرب والقمع ضد الجزائر وإن كان هذا التصويت يمثل مشكلا للحزب الشيوعي الفرنسي، فلا يمكن أن ننسى الظروف والوضعية المعقدة لتلك الفترة، فلقد اتخذ الرفقاء هذا الموقف اعتقادا منهم أن الحكومة ستميل نحو إجراءات التهدئة والسلم، غير أن حكومة "غبي مولي" اختارت الحرب الشاملة" (40).

خاتمة:

إن الممارسات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر طيلة فترة الاحتلال لم تكن أبدا عملا فرديا بل هي سياسة عامة تبنتها من أجل القضاء على المقاومة الوطنية الجزائرية، فقد استعمل التعذيب على نطاق واسع ووضعت القوانين والمراسيم بغية شرعنة التقتيل وفي نفس الوقت حماية مرتكبي الجرائم من أي متابعة قانونية لدى المحاكم وظلت الدولة الفرنسية إلى يومنا هذا ترفض رفضا قاطعا الاعتراف بمسئوليتها المباشرة في عمليات القتل والإبادة المبرجة في حق الشعب الجزائري.

الإحالات:

- 1-Moine (André), Ma guerre d'Algérie. Editions sociales, Paris, 1979, p147.
- 2-Vanjour (Jean), de la révolte a la révolution au premier jour de la guerre d'Algérie, éditions Albint Michel, 1985. p56.
- 3-Ibid, p 56.
- 4-Ibid., p59.
- 5-بوعزيز(يحيى)، ثورات القرن التاسع عشر والقرن العشرون، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزء الأول الطبعة الثانية، الجزائر، 1984، ص 215.
- 6-بومالي (الحسن)، إستراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى 1954-1956، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1984، ص 160.
- 7-Hartmut (EL Scnhans), La guerre d'Algérie 1954-1962, La transition d'une France à une autre. Editions public sud, 1999, p477.
- 8-Vanjour (jean), op.cit, P354.
- 9-Ibid, P430.

10-Hartmut (El Senhans), op.cit, P478

11-بومالي (الحسن)، مرجع السابق، ص 161.

12-نفسه، ص 162

13-نفسه، ص 163.

14-نفسه، ص 164.

15-نفسه، ص 166.

16-Vanjour (Jean), op.cit, p 432.

17-Ibid, P 433

18-بوعزيز (يحيى)، ثورات القرن التاسع عشر...، مرجع السابق، ص 215.

19-بومالي (الحسن)، مرجع السابق، ص 172.

20-Stora (Benjamin). La gangrène et l'oubli, la mémoire de la guerre d'Algérie, Edition la découverte, paris, 1992, p 26.

21-الشيخ (سليمان). الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين (ترجمة، محمد الحافظ الجمالي) دار القصة للنشر، 2003، ص 219.

22-نفسه

23-Martin (Claude). Histoire de l'Algérie française 1830-1962, éditions des 04 fils Aymon, paris, 1963, p 390.

24-Einaud (Jean luc), Pour l'exemple :l'affaire, Fernand iveton enquête, édition, Lharmattan, paris, 1986, p 52.

25-Ibid, p51.

26-Quentin (Antoine), La batailles, Des pouvoirs spéciaux" Historia magazine N° 213, 31 Janvier1972 ,p630.

27-Einaudi (Jean Luc), op.cit, p54.

28-Quentin (Antoine), op.cit, p632.

29-Einaudi (Jean Luc), op.cit, p 55.

30-Ibid., P56.

31-Ibid., p57.

32-Jurquet(Jacques),Années de Feu, Algérie 1954.1956,éditions, harmattan, Paris1997,P279.

33-Idem.

34-Quentin(Antoine), op.cit, p633.

35-Einaudi (Jean Luc), op.cit, P61

36-Evno (Patrick) et planchais (jean), La guerre d'Algérie, Editions l'aphomic, Alger, 1991, p96.

37-Oppermann (Thomas), le problème algérien, traduit de l'allemand par j le cerf, éditions François Maspero, paris, 1961, p 167.

38-El Moudjahid, N°08, 05 Août 1957.

39-Jurquet (Jacques), op.cit,p 246.

40-Le Quotidien D'Oran : N° 2993, 31 Octobre, 2004.

التنظيم الإداري الاستعماري في الجنوب الجزائري

(1902 – 1960)

الدكتور محمد برشان، جامعة طاهري محمد بشار

الملخص: إنّ لجوء السلطات الكولونiale في الجزائر إلى استصدار جُملة من القوانين والتشريعات الاستثنائية المتعلقة بتنظيم أقاليم الجنوب الجزائري منذ احتلاله، والتي أعطت في النهاية استقلالية مالية وإدارية لمجموع أقاليم الجنوب، جاءت في الواقع لتكريس بداية مشروع فصل جنوب الجزائر عن باقي أقاليم الجزائرية الأخرى، وتبلور ذلك المشروع بشكل جليّ بعد اكتشاف البترول والغاز الطبيعي بهذه الأقاليم سنة 1956، وإنشاء المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية O.C.R.S في 10 جانفي 1957، ومع الإعلان عن إنشاء وزارة الصحراء في 13 جوان 1957 تجسد مشروع الفصل النهائي للصحراء الجزائرية عن الوطن الأم في إطارها القانوني والتنظيمي.

The allowance of colonial authorities' in Algeria to issue exceptional rules and regulation concerning the southern regions of the country, since its colonization led to the grant of administrative and economic (budget) Independence to all those regions. These laws came out to bring into reality the Project of separating the Algeria south from the other parts of the country, especially after the discovery of petroleum GAZ in this region in 1956 and the creation of the common organization for southern regions C.O.S.R in January, 10, 1957 and also with the announcement of the creation of SAHARA ministry on the 13 of June 1957 all these to lead the final separation of the Algeria Sahara from the mother country from both legal organization sides.

مقدمة: لقد حاولت السلطة الاستعمارية منذ أن وطئت أقدامها المناطق الصحراوية قطع الارتباط والاتصال بين شمال الجزائر وجنوبها وبخاصة بعدما أُكِّدت الدراسات الكولونiale من خلال الحملات الاستكشافية التي سبقت عملية الاحتلال أنّ الجنوب الجزائري يكتنز مخزونا كبيرا من الثروات الطبيعية، ولتحقيق ذلك استندت على قوّة إدارتها ذات الخبرة في مجال التفرقة والتشتيت والإزاحة والتهميش، مُستندة على ترسانتها القانونية، وبالتالي أخضعت الجنوب الجزائري إلى منظومة قانونية استثنائية خاصّة تمهيدا لفصله وعزله عن المناطق الشمالية.

من خلال هذا المقال نحاول الإجابة عن بعض الأسئلة المرتبطة بمحور الموضوع نلخصها فيما يلي: لماذا لجأت السلطات الاستعمارية إلى تطبيق النظام العسكري في الجنوب الجزائري في الوقت الذي ألغته عن المناطق الشمالية بموجب قرار 29 مارس 1871؟ ما هي الأهداف التي توختها فرنسا من إخضاع المناطق الجنوبية الجزائرية للنظام العسكري ؟

الأهداف

*- إن طبيعة الجنوب وجغرافيته الوعرة صعب من عملية التغلغل العسكري الاستعماري إلى هذه المناطق، من ثمّ أضحى النظام العسكري بمنظور السلطات الاستعمارية النموذج الملائم والأنسب للتسريع من عمليات التوسع من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ هذا النظام يقطع التواصل بين الشمال والجنوب خاصة بما تعلق بمسألة الإمدادات المادية والبشرية التي تلقتها المقاومات في الجنوب من سكان شمال لأنّ التجربة التاريخية بالنسبة للفرنسيين أثبتت أنّ الارتباط بين شمال الجزائر وجنوبها بقي متواصلا حتى أثناء التوسع الاستعماري في الجزائر.

وهذا ما أكدته وجسدهت المقاومات الشعبية التي قامت في الشمال، والتي أوجدت قواعد لها في الجنوب. كما أنّ المقاومات التي انطلقت بالجنوب كان لها امتداد وانتشار في الشمال. وهذا ما نستشفه من قول الرحالة الألماني "جيرها رد رولف" "Friedrich Gerhard Rohlfs" الذي زار مناطق الجنوب خاصة منطقة الجنوب الوهراني وعانين أحداثها وتفاصيلها، حيث يُشير في نصيحة قدمها للفرنسيين قصد توسيع دائرة الاحتلال إذ يقول: "... قبل كل شيء على الفرنسيين نقل حدودهم إلى نهاية وادي الساور، فمن هناك بالضبط تنبعث كلّ المصاعب وكلّ الفوضى ما دام الفرنسيون لم يستولوا على هذه الحدود الطبيعية، ولن يكون هناك أيّ هدوء دائم في جنوب مقاطعة وهران." (1)

وهذا ما يؤكد بأنّ المشاكل التي كانت تعاني منها السلطة الاستعمارية في الإقليم الشمالي كان مصدرها الجنوب، وهي إشارة إلى حركات المقاومة التي اتخذت من الجنوب معقلا لها، اتخذته

كمركز للدعم وإعادة الانبعاث. لذلك أدركت فرنسا أنّ هذا الارتباط أضحى يُشكل خطرا على السياسة الكولونiale في الجزائر، وصار من العقبات التي يجب إزاحتها بشكل ممنهج ومقنن.

وفي جانب آخر شكّلت الحدود الجزائرية مع الدول المجاورة خاصّة الغربية منها هاجسا كبيرا في تنفيذ مشروعاتها الاستعمارية، من خلال احتضانها ودعمها للمقاومة الجزائرية، وتجلّى ذلك بشكل واضح في مقاومة الشيخ بوعمامة (1881-1905) التي اتخذت من إقليم فقيق المغربي معقلا آمنا لها، وبالتالي أصبحت الوضعية الأمنية في الجنوب الوهراني بحسب السلطة الاستعمارية جدّ خطرة بفعل ما سُمّي بالفوضى المغربية.

وهو ما عبّر عنه الجنرال ليوتي 'Lyautey' عندما صرّح بأن: «...المشاغبين توغلوا إلينا بسهولة لأنّ معاهدة سنة 1845 المتفق عليها بين المغرب وفرنسا تُشير إلى عدم وجود حدود إقليمية مُقامة بين البلدين ما دامت الأراضي في الجنوب غير مزروعة»⁽²⁾. وقد كان للإعلام المقروء دور كبير في تضخيم قضية تفاقم الوضع الأمني المتدهور بالجنوب الوهراني لاتخاذ ذلك وسيلة لتبرير التدخل العسكري في المنطقة.

*- اشتداد التنافس الأوروبي في شمال المغرب الأقصى والصحراء الغربية خاصة بين فرنسا، ألمانيا واسبانيا، وخوفا من انتقال دائرة التنافس والصراع إلى الصحراء الجزائرية سارعت السلطة الاستعمارية إلى تسوية الأزمة المغربية والصحراوية عن طريق الحلّ الدبلوماسي بعقد مؤتمر دولي بالجزيرة الخضراء - Algesiras سنة 1906 جاء ذلك تنويفا للاتفاقيات السرية المبرمة مع الدول المعنية بالصراع، والتي أطلق عليها "اتفاقيات اللصوص".

وفي الوقت نفسه سرّعت فرنسا من عملية احتلال الصحراء الجزائرية وإخضاعها للنظام العسكري توجسا من اعتبارها منطقة خالية، وهو ما أشار إليه المارشال سولت - Soult في التقرير الذي قدمه سنة 1845م إلى الملك لويس فليب يقول فيه: "...يجب أن تُؤلف الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى المناطق الواقعة بعد التلال صنفا ثالثا من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا أثر فيها للمعمّرين ولا تطوّها الجيوش إلا عرضا لقمع الفوضى، أو لإعداد ظروف

ملائمة لإقامة العلاقات التجارية، أو توسيعها وهي مناطق تفتح المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة.⁽³⁾

*- رفض الكولون الجزائري تمويل الحملات العسكرية بالجنوب الجزائري من ميزانية الجزائر التي أصبحت مُستقلة عن باريس منذ سنة 1900 مُعتبرين ذلك من صلاحيات حكومة باريس، حتى أن دوكاستري اعتبر بأن الجنوب الجزائري قد ضيَّع لحكومة باريس نصف قرن من الزمن، وبدد الأموال الضخمة التي قُدِّرت بالملايين كان من الأجدر استثمارها في توسيع نفوذ فرنسا في مناطق حيوية كالمغرب الأقصى مثلا. ⁽⁴⁾ خُلف هذا الموقف أزمة بين السلطة السياسية والقيادة العسكرية في باريس نتج عنها نوع من التردد بل التراجع عن مشروع احتلال الصحراء الجزائرية ولو إلى حين.

يرى شارل أندري جوليان - Julien (Ch-A) في تحليله لهذه الوضعية بأن احتلال منطقة الجنوب الجزائري عامة والجنوب الوهراني بشكل خاص كان طويلا وصعبا وفي الوقت نفسه، وُرجع ذلك إلى أسباب دينية وجغرافية، وهي الأسباب التي كلفت الحكومة الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وتسببت في حدوث أزمة سياسية خانقة، وضجة إعلامية صاحبة بفرنسا، حيث طالب البرلمان والصحافة بضرورة انسحاب القوات الفرنسية من العمليات العسكرية التي تخوضها من أجل احتلال الجنوب الصحراء الجزائرية. ⁽⁵⁾ ومن ثم فقد كان الهدف من إنشاء الفرق العسكرية الصحراوية أو ما عُرف بالمخزن للتقليل من النفقات المالية، والخسائر البشرية التي واجهتها الحكومة الفرنسية، وتكبدتها قواتها في المنطقة ⁽⁶⁾. وتألّفت من مجندي القبائل المتعاونة مع السلطات الاستعمارية، وهي مقسمة إلى وحدتين: وحدة المشاة، ووحدة الخيالة والفرسان، وكانت أول شبكة صحراوية قد أنشئت بإقليم توات سنة 1902. وظفت قوات المخزن بحكم معرفة عناصرها بخبايا الصحراء وجغرافيتها الصعبة في ملاحقة رجال المقاومة، التي كانت تتخذ من منطقة الجنوب معقلا لها وملادا آمنا لتجميع قواتها وتنظيم صفوفها، ولا تختلف المهمة التي أُنيطت بها هذه الفرق شبه العسكرية عن مهمة مكاتب الشؤون العربية « Bureaux des Affaires Arabes » ودور فرق قوم « Goums ».

الأمر الذي جعل القيادة العسكرية الفرنسية تُراجع على مطلب إخضاع الجنوب الجزائري إلى منظومة قانونية خاصة تتأقلم وطبيعته الأمنية تمهيدا لفصله عن المناطق الشمالية. فتجسدت أول خطوة في هذا الإطار عندما احتدم النقاش بين نواب البرلمان حول إصدار قانون يتضمن مشروع تنظيم مناطق الجنوب، ووضع ميزانية خاصة لها. هذا القانون اقترحتة الحكومة الفرنسية في 21 مارس 1902، وبعد مناقشات حادة بباريس والجزائر تمت المصادقة عليه يوم 24 ديسمبر 1902⁽⁷⁾.

والواقع أن الصحراء الجزائرية لم تكن تمثل في نظر الحكومة الفرنسية بباريس مخزونا اقتصاديا فحسب، بل مركزا آمنا وموقعا استراتيجيا يؤمن موقعها في القارة الإفريقية عموما والساحل الإفريقي بشكل خاص. من ثم حاولت عزلها وفصلها عن باقي أقاليم الجزائر عبر جملة من القوانين والتشريعات الاستثنائية، حتى تصبح إقليما فرنسيا خاصا. وهو ما أكدّه المارشال سولت - Soult في تقريره.

الجنوب الجزائري في المنظومة القانونية الفرنسية.

حدد القانون المؤرخ في 14 أوت 1902 الوضع القانوني العسكري للمناطق الجنوبية للجزائر، كما حددت ميزانيتها بموجب قانون 30 ديسمبر 1903، حيث تُصرف الموارد المحلية في الاحتياجات المدنية وتكاليف الاحتلال العسكري تبقى على كاهل حكومة باريس. وفي الحقيقة فإن هذه القوانين وإلى غاية هذه المرحلة لم تُنشأ كيانا سياسيا، وإنما اكتفت بإحداث تنظيم جديد من النوع الإداري بعد أن اعترفت في مضمونها بأن أراضي الجنوب جزء لا يتجزأ من الجزائر، وبالتالي جزء من فرنسا، بمعنى أن نوايا فرنسا من فصل الجنوب عن الجزائر لم تتوضح بعد.

لأن الهدف من إقرار البرلمان الفرنسي على إنشاء وحدة إدارية سُميت بالجنوب الجزائري كان لاعتبارات مالية حيث أفصح البرلمان عن رغبته في أن يرى نفقات احتلال أراضي الجنوب الجزائري، مقصورة على ما هو جد ضروري، ومن بين الوسائل المؤدية إلى هذه النتيجة وسيلة أشارت إليها لجنة الميزانية في المجلس العام سنة 1902، وهي ضرائب محلية. ولقد اقر المجلس على

هذا الأسلوب و صادق في 23/12/1901 مشروع قرار نص على " على أن المجلس يدعو الحكومة إلى دراسة مشروع تنظيم إداري ومالي للجنوب الجزائري" (8) وهنا تجدر الإشارة إلى أن السلطات الكولونالية أبقت على الضرائب العربية بمختلف أشكالها بالجنوب الجزائري في الوقت الذي تم إلغاؤها بموجب مرسوم 01 ديسمبر 1918 بالمناطق الشمالية.

وجاء مرسوم 04 أوت 1904 ليضع الهيكل والشكل الإداريين لهذه المناطق، وهو ما دعمه مرسوم 14 أوت 1905 الموضح للتنظيم الإداري والعسكري لأقاليم الجنوب، والتي تتأقلم وطبيعتها الأمنية التي لم ترق إلى نهايتها⁽⁹⁾. إلا أن التجسيد الفعلي للتقسيم الإداري العسكري تأخر إلى غاية 05 أوت 1920. وهذه الطريقة تمت معاقبة السكان في الجنوب الجزائري بقانون. الأهالي. قانون الأندجينا وقانون الحكم العسكري.

تبعاً لذلك قُسم الجنوب الجزائري على أربعة أقاليم، وهي: الإقليم العسكري للعين الصفراء، ومقره الإداري العين الصفراء، الإقليم العسكري غرداية ومقره الإداري الأغواط، الإقليم العسكري تڤرت ومقره الإداري تڤرت، الإقليم العسكري الواحات ومقره الإداري ورقلة. عُيّن على رأس كل واحد منها قائد أعلى برتبة رائد وكلّ إقليم قُسم إلى دوائر Cercles وملحقات Annexes، وكلّ ملحقة جُزئت إلى مراكز عسكرية يُسيّرُها ضابط عسكري⁽¹⁰⁾. ومن بين هذه الأقاليم كان الإقليم العسكري للعين الصفراء، الذي ضمّ الملحقات التالية: العين الصفراء، المشربة، البيض، بشار والساورة "بني عباس" وملحقة توات "تيمون". وضمّ الإقليم العسكري لتڤرت مركز أولاد جلال وملحقة بسكرة وتڤرت وواد سوف، وقُسم الإقليم العسكري للواحات ملحقات الواحات، عين صالح، الهقار.

تجدر الإشارة إلى أن ملحقات العين الصفراء، المشربة والبيض أنشأت بموجب قرار 20 مارس 1882 بعد قيام انتفاضة بوعمامة، وقرار 19 جانفي 1904 ثُبّتت رسمياً كملحقات بدل دوائر⁽¹¹⁾. علماً بأنّ هذه الملحقات كانت تابعة إدارياً إلى مقاطعة وهران وعرفت تبعاً لذلك بمنطقة الجنوب الوهراني. بمقتضى قوانين 1902 – 1903 – 1905 أصبحت أقاليم الجنوب

الجزائري مستعمرة خاصة لها إدارتها وميزانياتها المالية، وهذه الطريقة تمت معاقبة السكان بقانون الأهالي وقانون الحكم العسكري.

وفي 11 جانفي 1929 أصدر مرسوماً تضمن تعديلاً جديداً فيما يتعلق بالتقسيم الإداري لأقاليم الجنوب الجزائري، خاصة المادة الثالثة منه، حيث أشارت إلى أن الإقليم العسكري للعين الصفراء أضحي يتكون بموجب هذا التعديل من ملحقات المشربة، البيض، العين الصفراء التي ينتمي إليها مركز بني ونيف، وملحقة بشار، يُضاف إلى ذلك دائرة الغرب الصحراوي التي يوجد مقر إدارتها في بني عباس والتي تضم كل من ملحقات: توات، قورارة مع مركز تميمون، وملحقة الساورة. وجاء هذا التعديل كما ورد في المادة الثانية من المرسوم بعد أن تمكنت فرنسا من بسط سيطرتها الكاملة على جميع أقاليم الجنوب الوهراني، وعملت على تنظيمه وفق ما يخدم مصالحها عن طريق إعداد المراسيم والقرارات.⁽¹²⁾

تضمن مشروع بلوم - فيوليت الذي طالت مناقشته في البرلمان الفرنسي (1931-1935) ثمانية فصول وخمسين مادة، منها مادة تقترح إعطاء بعض أجزاء المناطق العسكرية في الجنوب الحالة المدنية في شكل بلديات مختلطة على غرار ما كان واقعاً في الشمال.⁽¹³⁾ إلا أن ذلك لم يُطبق على أرض الواقع بسبب رفض ومقاومة الكولون للمشروع.

وبعد الحرب العالمية الثانية صدق المجلس الوطني الفرنسي على القانون الأساسي الجديد للجزائر، وأمضاه رئيس الجمهورية بتاريخ 20 سبتمبر 1947 وهو يحتوي على 60 مادة من بينها المادة (50) التي نصت على إزالة الحكم العسكري عن أراضي الجنوب، وضمها إلى الشمال طبقاً لنص المادة: "يلغى النظام الخاص بأراضي الجنوب وتعتبر هذه الأراضي ولايات تُحدد بقانون".

على الرغم من أن القانون الأساسي 20 سبتمبر 1947 يلغي صراحة الأقاليم العسكرية بالجنوب، إلا أن ذلك بقي حبراً على ورق خاصة المادة: 50 من القانون التي نصت على تعويض تلك الأقاليم بمحافظات، لكن هذه المادة لم يكتب لها التنفيذ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى

فإن ميزانية أقاليم الجنوب أُدمجت في ميزانية الشمال مع بداية سنة 1948، إلا أنَّ الإدارة بقيت بإشراف ضباط عسكريين إلى غاية سنة 1957. (14)

وعلى الصعيد الإقليمي ومع تصاعد المد التحرري للثورة الجزائرية أحرزت كل من تونس والمغرب الأقصى على استقلالهما، وبموجب قانون 27/57 الصادر في 10 جانفي 1957 تم إنشاء "المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية O.C.R.S

والذي نصّ في مادته الأولى من القانون الخاص على: "...تُنشأ منظمة مشتركة للمناطق الصحراوية وهدفها الارتقاء والتوسع الاقتصادي، والتطور الاجتماعي للمناطق الصحراوية للجمهورية الفرنسية، وتشارك في تسييرها كل من: الجزائر، موريتانيا، النيجر، وتشاد" السودان الفرنسي". (15) على أن تكون بإشراف المباشر لحكومة باريس مادامت هذه البلدان خاضعة لفرنسا.

ما نستشفه من هذا كلّهُ أنَّ مشاركة الجزائر كعضو في تسيير المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية يُبرز بأنّ الصحراء الجزائرية لم تعد تُشكّل جزءاً من الجزائر. حيث كان من الأهداف المعلنة من إنشاء المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية استغلالها لموارد الصحراء لفائدة الصحراويين أولاً ثم لفائدة الأقطار المتاخمة للصحراء ثانياً، ثم لفائدة الاقتصاد الفرنسي ثالثاً، ومن جملة أهداف المنظمة المشتركة الاحتفاظ بوحدة الصحراء الكبرى.

إنّ تشكيل الهيئة المشتركة لاستغلال المناطق الصحراوية كمنظمة اقتصادية وُضعت في منظور فيدرالي للدولة الفرنسية حسبما أقره دستور الجمهورية الخامسة. وكان الهدف من ذلك تحقيق الفصل النهائي للجنوب الجزائري عن الوطن الأم الجزائر، وتجسيد تنمية اقتصادية لسكان الجنوب باعتبار أنّهم يُشكلون مع دول الساحل الإفريقي وحدة ترابية متماسكة. وبالتالي لا توجد أيّ علاقة بالشمال والجنوب الجزائريين، والدول المتاخمة للجنوب الجزائري أحق بموارده وثرواته. وأصبح وزير الصحراء هو المشرف العام على المنظمة. (16)

مع إنشاء وزارة الصحراء في 13 جوان 1957 برئاسة ماكس لوجان - Max Lejeune اكتسبت المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية إطارها القانوني والتنظيمي، ومن ثمّ تحققت أفكار المنظرين الكولونيين، وطُبق التنظيم الإداري لأقاليم الجنوب الجزائري بموجب مرسوم 57-903 الصادر في 7 أوت 1957 الذي أعاد التنظيم الإقليمي لأقاليم الجنوب، حيث نصّ في مادته الأولى على أنّ المناطق الصحراوية تُقسم إلى عمالتين: الواحات والساورة. ووضعها تحت سلطة وإدارة وزارة الصحراء. وهو القانون الذي فصل الصحراء بشكل نهائي، ومن ثمّ لم تعد بعد هذا التاريخ تحت سلطة الحاكم العام في الجزائر، بل تحت إشراف وزير مكلف بالشؤون الصحراوية. ونصّ مرسوم 60-1291 الصادر بتاريخ 3 ديسمبر 1960 على تقسيم عمالة الساورة إلى ست دوائر: كولومب بشار - الأبيض سيد الشيخ، بني عباس - تندوف - تيميمون - أدرار. (17)

طلّت الصحراء الجزائرية تشكل مسألة خلاف مستمر خلال المفاوضات الجزائرية الفرنسية بسبب تعنت الطرف الفرنسي وتمسكه بالصحراء مدعيا بأنها لم تكن موجودة من قبل، بل الاستعمار هو الذي كوّنهما، بمعنى التأكيد على مبدأ الحقوق المكتسبة أي أنّ الصحراء خلقت من عدم. من النظرة نفسها فصل الجنرال ديغول الصحراء في سياسته عن مبدأ تقرير المصير للجزائر، المُعلن في 16 سبتمبر 1959، وحاول إقناع الغرب والدول المحاورة بالتجنّد مع فرنسا على اعتبار أنّ الصحراء الجزائرية أرض خالية من السكان، ويمكن استغلالها كقاعدة انسحاب للدول الغربية في حالة قيام حرب نووية في أوروبا.

وقد أدّت سياسة محاولة فصل الصحراء عن الشمال في إطار حق تقرير المصير الذاتي إلى تعثر المفاوضات الجزائرية الفرنسية لأنّ الوفد الجزائري بقي متمسكا بمطلب الوحدة الترابية للجزائر، ورفض التنازل عن أيّ شبر من الجزائر. وإلى غاية مارس 1961 رفض الجنرال ديغول أيّ مناقشة حول الصحراء من الناحية الجوهريّة مقترحا الصيغة التالية: " إعلان عام عن الاختلاف حول السيادة الشعبية على الصحراء، وتأجيل التفاوض حول هذه القضية بعد تقرير المصير. " أما جورج بومبيدو Pompidou فقد صرّح بأنّ الصحراء بحر له سواحل تسكنها شعوب ساحلية والجزائر

واحدة من تلك الشعوب، وعلى فرنسا أن تستشير الجميع رداً على موقف ممثلي الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الذين تمسكوا بمسألة الوحدة الترابية. (19)

وفي النهاية سينتهي حلم المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية O.C.R.S مع استقلال الجزائر وينتهي معها حلم الصحراء الفرنسية، ويعود فشل المشروع الواعد بالنسبة لفرنسا في إفريقيا الصحراوية عامة والصحراء الجزائرية بشكل خاص إلى عدة أسباب نذكر منها ما يلي:

* - معارضة الجمعية الجزائرية Assemblée Algérienne بنواها المسلمين والكلون لهذا المشروع وطالبوا ببقاء أقاليم الجنوب جزائرية لكل طرف أهداف في ذلك، وأكدوا على أن مشروع وحدة الصحراء الإفريقية في إطار قانون خاص يتعارض مع المادة 50 من القانون الخاص للجزائر والتي نصت على إزالة الحكم العسكري عن أراضي الجنوب، وضمها إلى الشمال طبقاً لنص المادة: "يلغى النظام الخاص بأراضي الجنوب وتعتبر هذه الأراضي ولايات تُحدد بقانون". وتجلى هذا الموقف بشكل جدي في 05 جويلية 1955 عندما رفضت الجمعية الجزائرية اقتطاع أي جزء من أقاليم الصحراء الجزائرية. الأمر الذي دفع السلطات الكولونيلية بالمتروبول إلى حل الجمعية الجزائرية Assemblée Algérienne بمرسوم 15 أبريل 1956 ونقل صلاحيتها إلى الوزير المقيم.

* - دخلت المنظمة المشتركة في متاهات إلى غاية فبراير 1959 نظراً للتحويلات التي جرت في مسيرتها والتداخل بين المنحى الاقتصادي والاجتماعي والتوجه السياسي الذي ميز وزارة الصحراء، زيادة على رفض الدول الإفريقية المعنية بالمنظمة المشاركة فيها، لأن صلاحيات وزير الصحراء تركز على الصحراء الجزائرية. (20)

* - شمولية الثورة الجزائرية والتي أوجدت لها قواعد خلفية حتى داخل دول المنظمة الصحراوية "جبهة مالي". وموقف جبهة التحرير الراض لفصل الصحراء.

* - موقف سكان الجنوب الجزائري الراض للمشروع عبر مظاهرات شملت عدداً من المدن الجنوبية.

*- تردد الدول الإفريقية المستقلة من الانضمام إلى المنظمة ماعدا النيجر التي انضمت في 1959/05/12 وتشاد في 1959/09/04 حيث وقعتا اتفاقيات تعاون مع فرنسا.

خصائص الإدارة بالجنوب

انطلاقا من تلك الترسنة القانونية التي خصصتها السلطات الكولونiale في إدارة الجنوب أضحت مناطق الجنوب الجزائري من الناحية القانونية مستعمرة خاصة تتمتع باستقلالها الإداري والمالي. بموجب هذه الاستقلالية أضحي من حقها عقد الصفات العمومية، ومنح امتيازات السكك الحديدية. ولا ترتبط مع الجزائر إلا كونهما تابعة بشكل مباشر لسلطة الحاكم العام في الجزائر، باعتباره هو الرئيس الأعلى للإدارة في الجنوب. كما يشرف على إعداد مشروع ميزانية الأقاليم العسكرية بالجنوب وعرضها على مجلس الإدارة في الولاية العامة، حيث توجد مصالح خاصة بإدارة الجنوب وتنفيذ الميزانية بواسطة قرار بعد عرضه على وزير الداخلية.

ومن ثمّ يكمن القول بأنّ التنظيم الإداري بأقاليم الجنوب مثل شكلا ثالثا خاصا بها، فهو يختلف عن التنظيم الإداري المدني الذي طُبّق في شمال الجزائر، وعن نظام الحماية الذي فرضه الاستعمار لفرنسي بدول الجوار (تونس، المغرب)، حيث يُجسّد النظام العسكري في الجنوب الجزائري الإدارة المزدوجة والمكونة من الإدارة الفرنسية والإدارة الأهلية. فالإدارة المحلية في الجنوب كانت تجمع بين السلطة العسكرية والوظائف القضائية، والصلاحيات الإدارية. (21) ووضعت سلطة التسيير الإداري تحت إشراف قادة عسكريين يخضعون مباشرة لسلطة الحاكم العام، أي أنّ الحاكم العام كان الرئيس الفعلي والأعلى للإدارة في الجنوب الجزائري.

وقد أدخل على النظام العسكري لمناطق الجنوب بعض التعديلات لتحقيق التجانس الإداري على كافة القطر الجزائري. وفي هذا الإطار اتخذ الحاكم العام جول كاردي - Jules Carde - " عددا من القرارات انتقلت بمقتضاه السلطات البلدية إلى أيدي متصرفين إداريين، وهم حكام مديون في البلديات المختلطة بعد أن كان يتولى هذه السلطات ضباط عسكريون في بلديات الجلفة، الأغواط، بسكرة، تفرت، المشيرة وعين الصفراء.. (22)

ويمكن اختصار خصائص الإدارة في مناطق الجنوب في أن أنواع البلديات الموجودة في الشمال غير موجودة في الجنوب ماعدا البلديات المختلطة *Communes mixtes* وهي القاعدة العامة في التنظيم الإداري الاستعماري، أما البلديات فإنها تُسمى دوائر وملحقات فضلا عن مكاتب الشؤون العربية، فالبلديات المختلطة في الجنوب يرأسها ضابط بخلاف بلديات الشمال التي يرأسها متصرف إداري. ومن ثم فقد وجدت سبع بلديات مختلطة في الجنوب، يرأسها ضابط (23).

تمتلك البلديات المختلطة بأقاليم الجنوب خصوصية تميزها عن البلديات الكاملة في الشمال الجزائري، حيث يرأسها إما ضابط أو إداري للشؤون المدنية... ومستشارو البلدية يُنتخبون لمدة ست سنوات، والأعضاء الآخرون يتشكلون من رؤساء الجماعة والقياد، وأما في البلديات الأهلية *Communes Indigènes* كان يرأس اللجنة البلدية قائد الملحق وهو عسكري... أما بالنسبة للمسلمين كانوا ممثلين من قبل قياد وأعيان القبائل المكونة لإقليم البلدية. (24)

وعلى العموم فإنّ اللجان البلدية كانت مكونة من أعضاء أوروبيين منتخبين وأعضاء من الأهالي مُعينين، لأنّ مرسوم 06 فبراير 1919م لم يطبق في أقاليم الجنوب، إذ حُرّم السكان المسلمون في الأقاليم العسكرية من كلّ الحقوق المدنية، ومنعوا من الترشح والانتخاب، على الرغم من أنّ هذا المرسوم سمح . للأهالي . المسلمين المشاركة في الانتخابات المحلية. واستمرت هذه الوضعية على الأقل إلى غاية سنة 1947. أي إلى غاية صدور القانون الأساسي للجزائر في 20 سبتمبر 1947 .

يُضاف إلى ذلك كلّه فإنّ الإدارة العسكرية تسمح بدعم السلطة الشخصية لقادة العسكر وفرض الغرامات، أو الأحكام بالسجن بحسب رتبهم العسكرية، وليس بمقتضى خطورة المخالفات. ومن ثمّ فقد استخدمت هذه الصلاحيات بشكل تعسفي تكرر القمع القضائي في إطار تلك الأحكام الاستثنائية، التي رزح تحتها سكان الجنوب. وكان الهدف الأساسي من ذلك

إحكام القيد على المناطق الجنوبية للجزائر، والعمل على قهر سكانها باسم القانون، وكذا محاولة إحلال التصور الغربي الحديث لنظام القضاء محل التصور المحلي المتشبع بالثقافة الإسلامية.

ارتبط السكان الجزائريون بهذه الأقاليم بطغيان المحاكم الزجرية التي كانت تحت إشراف الإدارة العسكرية، وهي إدارة تتكون من مجالس عسكرية مهمتها النظر في المخالفات، والجرائم العامة، وتتفرع عن هذه المجالس لجان الضبط التأديبية، يُضاف إلى ذلك الصلاحيات الواسعة التي حوّلها القانون للقادة العسكريين في توقيع العقوبات. (25)

وعلى الرغم من أنّ الطبيعة القانونية لمجلس الحرب ولجان الضبط التأديبية التي حدّدت صلاحياتها بمقتضى منشور الحاكم العام للجزائر في 19 نوفمبر 1902 هي في الأصل محكمة استثنائية، إلا أنّ وجود نشاطها بالأقاليم العسكرية يُكرّس الظلم، ويُفقد العدالة بين الجزائريين والأوروبيين، الأمر الذي جعلها تفقد اختصاصها بمعنى أنّ هذه المجالس كانت موجهة لقمع الجزائريين في الأقاليم الجنوبية، وغالبا ما كانت أحكامها تتميز بالتشدد والقسوة، وفي كثير من الحالات تنازل مجلس الحرب على الاختصاص لصالح اللجان التأديبية للبت في الجنح البسيطة، أو التنازل عن الانتصار للقادة العسكريين. (26)

وجاءت هذه المؤسسات القضائية الزجرية في مجملها كمُحصلة للوضع الجديد الذي أفرزته سياسة الاستعمار بالأقاليم العسكرية في الجنوب الجزائري، وسمحت للقادة العسكريين بممارسة التعسف على أوسع نطاق وهو ما نستشفه من الكلمة التي ألقاها الأمير خالد في محاضرة أمام اثني عشر ألف مهاجر في باريس شهر جويلية 1924 حيث قال: "إنّ أهالي مناطق الجنوب هم تحت رحمة حكامهم الطغاة في دوائهم، فهؤلاء الضباط لهم صلاحيات مطلقة يمدّدونها ويُقلّصونها حسب هواهم، إنّ هذا النظام هو أشنع من قانون الأهالي لا يخضع لرقابة ولا حدود له، إنّ البدوي الراحل قد دُمّر وحوّل إلى مُتَسَوِّل". (27) ويستمر هذا الحكم القهري في المنطقة، حيث بقي العمل بقانون الاندجينا ساري المفعول في الجنوب الجزائري مع إلغائه في الشمال سنة 1944.

الخاتمة: نخلص من هذا كله أنه إذا كان قانون 19 ديسمبر 1900م قد منح للجزائر الشخصية المعنوية والاستقلالية المالية تحقيقا لمطالب وضغط المعمرين، فإنّ قانون 24 ديسمبر 1902 المتعلق بتنظيم أقاليم الجنوب الجزائري، أعطى استقلالية مالية وإدارية لمجموع أقاليم الجنوب عن الشمال، وجاء ليُكرّس بداية فكرة فصل جنوب الجزائر عن شمالها، ولا نرى تفسيراً آخر له.

إنّ طبيعة الأحكام الاستثنائية والقوانين التعسفية التي طُبقت على السكان في الأقاليم العسكرية بالجنوب الجزائري حرمتهم من كلّ الحقوق المدنية والسياسية، ومنعتهم من الترشح والانتخاب، وجعلتهم يُعانون من تفاقم القمع الضريبي بمختلف أشكاله في الوقت الذي تمّ إلغاء الضرائب العربية بموجب مرسوم 01 ديسمبر 1918 بالمناطق الشمالية. وهذه الطريقة تمت مُعاقبة سكان الجنوب الجزائري بقانون الأهالي وقانون الحكم العسكري.

الهوامش:

- 1- مياسي إبراهيم، التوسع الاستعماري بالجنوب الغربي (1881-1912)، المتحف الوطني، الجزائر، 1996، ص. 77.
- 2-Lyautey, Lyautey (Pierre). Vers le Maroc, Lettre Du Sud Oranais (1903-1906), Librairie Armand Colin , Paris 1937, P. 06.
- 3- ايف لكوست، برينان أندري، أندري نوشي، الجزائر بين الماضي والحاضر ترجمة اسطنبولي رابح وآخرون الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغبة، الجزائر، 1984، ص. 385.
- 4- نفس المصدر، ص. 387.
- 5-Tillion André, marie joseph, Roger Alfred, Conquête Des Oasis sahariennes au Tidikelt, au Gourara au touât, dans la zouzfana et dans la Saoura en 1900 et 1901, Henri Charles – lavauzlle Édition militaire, paris. P. 628.
- 6-Ibid. P. 629.
- 7-Lehuraux (Léon), «Le Statut Territorial Des Territoires Du Sud De l'Algérie », Revue Africaine, N° 81, 1937, P.171. Voir aussi : Lehuraux (Léon), « La Réorganisation des Territoires du Sud de L'Algérie, Encyclopédie Mensuelle D'Outre –Mer, Septembre 1951, Document N°01. PP.2.11.
- 8- بجاوي محمد، الثورة الجزائرية والقانون، ترجمة علي الخش، مراجعة محمد الفاضل، الطبعة الأولى، دار اليقظة المغربية للتأليف والترجمة والنشر، تونس، 1961، ص. 353.

- 9-L Algérie et Sahara, Encyclopédie de l'Empire Français, Paris , T II. 1946, P. 283.
- 10-L'Ehuraux (Léon), «Le Statut Territorial Des Territoires... op.cit. P 172.
- 11-Mesnier, Territoire Militaire D'Ain-Sefra (Sud Oranais)- Imprimerie L. Fouqué, Oran , 1914.P.47.
- 12-Le Journal Officiel De l'Algérie, Du 11 Janvier 1929.
- 13- سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ج3، ص.19.
- 14-Claude, Colot, Les Installation De L'ALGERIE Durant La Période Coloniale (1830 – 1962), Offices des Publications Universitaires, .Alger, 1987. P.45. Voir aussi : - Nouschi (André). La Naissance Du Nationalisme Algérien (1914 1954), Paris, 1962. P.152.
- 15- Treyer, Claude. Sahara 1956/1962, Première Edition, Publications de L'Université de Dijon, Paris, ,1966 P.78
- 16- Ibid. P. 83.
- 17- Bulletin de Liaison Saharienne, Nouvelles Sahariennes- Imprimerie LATIPO LITHO, Alger mars 1961, Tome12, N°41.P. 83.
- 18- Yazid Ben Hounet, Op.cit. P .75.
- 19- بن خدة بن يوسف، نهاية حرب التحرير في الجزائر، اتفاقيات إيفيان، تعريب لحسن زغدار، محل العين جبائلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987، ص.21.
- 20- Treyer, Claude. Op.cit. P..78
- 21- Yazid Ben Hounet, Op.cit. P.47.
- 22- محمد بجاوي، المرجع السابق، ص ص. 356 – 359.
- 23- شيخي عبد الحميد، الإدارة الفرنسية في الصحراء حتى الاستقلال، سلسلة الملتقيات، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ص.ص.213-222.
- 24- Yazid Ben Hounet, Op.cit. P.47.
- 25- إيف لكوست، برنان أندري، أندري نوشي، نفس المصدر، ص.397.
- 26- فارس رشيد، التنظيم القضائي إبان الاحتلال بين المبدأ العام والتميز، الملتقى الوطني حول القضاء إبان الثورة، جامعة الأمير عبد القادر، فسنطينة، 16-17 مارس 2006، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص.ص.27.84.
- 27- Nadia Bouzar Kasbadji, La Situation des Musulmans D'Algérie par L'EMIR KHALED, Première Edition, Offices des Publications Universitaires, Alger, 1987, P. 34.

مبادئ ومجالات الإصلاح

عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931م-1954م

الدكتور رشيد مياذ، جامعة المدية

الملخص باللغة العربية:

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تيار إصلاحى اجتماعى تربوي ركزت جهودها على الدفاع عن الشخصية الجزائرية وعروبته وإسلامها والمحافظة على قيمتها الروحية والتاريخية، فتعددت ميادين الإصلاح عندها لتشمل عديد المجالات:

ففي المجال الديني أدركت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الأهمية القصوى التي تمثلها العقيدة في حياة الأفراد، مما جعلها تتخذها كإطلاقة لمشروعها التغييري والإصلاحى.

وفي المجال الثقافى والاجتماعى عملت على مقاومة الأمية، وتربية وتعليم الناشئة والاهتمام بالطفولة ومحاربة الآفات الاجتماعية واهتمام بالمرأة.

في المجال الاقتصادى: ومن مظاهر اهتمام جمعية العلماء بهذا الجانب، أقدمت على تأسيس العديد من الجمعيات المهنية، كجمعية التجار المسلمين التي أسستها الجمعية بقسنطينة، والجمعية الاقتصادية، وذلك لتحقيق الاستقلالية الاقتصادية للشعب الجزائرى.

أما عن المجال السياسى فبرغم أن القانون الأساسى للجمعية يؤكد أنها لا تخوض في الأمور السياسية إلا أنها خاضت في عديد القضايا السياسية، فقد عملت على مقاومة سياسة التجنس ومقاومة الإدماج وغيرها.

لقد كانت دعوة ابن باديس وجمعية العلماء صريحة في التخطيط لانتشال الأمة الجزائرية من الوضعية المزرية التي آلت إليها من جراء معاول الهدم الاستعمارية التي فرضت عليها، وكان ذلك

بمناخ الأرضية التي تشكلت عليها ملامح النضال السياسي والعسكري، الذي مارسه الجيل الذي فجر الثورة التحريرية الكبرى التي حررت الوطن والشعب من سجن الاستعمار الفرنسي البغيض.

كلمات مفتاحية:

The Association of Algerian Muslim Scholars (Ulama)- Illiteracy-Reconstruction/reformation- Independence- Fight- Algerian identity- Economic independence- Political issues.

الملخص بالإنجليزية:

The Association of Algerian Muslim Scholars (**Ulama**) is an educational ,social and reformative movement .It focused on defending the Algerian identity and religion in addition to protecting the spiritual and historical values by using different ways to reach reconstruction in all domains.

The **Ulama** was aware about the importance of Islamfo the algerian society and in the individual s life mainly ,hence Islam was the starting point of change.Concerning the cultural and social sides ,The Ulama fought illiteracy and other social problems ,besides it worked hard to educate children ,took care of them and women .In the economic side ,the association gave birth to professional associations for example Muslim 's Trade Association and the Economic Association in order to realize the economic independence for the algerian population .As far as the political side is concerned ,the association worked on many political issues although it had no business on them for instance it rejected the "Algeria is a french country "belief .

The scholars of this association and their leader IbnBadis were doing their best to better up the Algerian society this lead to the appearance of political and military fight against the enemy ,in return it lead too to the greatest revolution which regained our independence latter .

المقدمة:

تعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أو كما يسميها الأستاذ محمد الهادي الحسني خير جمعية أخرجت للناس، من أبرز الجمعيات التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين ولعبت دورا كبير في الحفاظ على الشخصية الإسلامية الجزائرية، من خلال الأهداف والبرامج التي رسمتها

منذ تأسيسها سنة 1931م، إذ أن نشاطها كان على علاقة مباشرة بالواقع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي الذي كان يعيشه المواطن الجزائري؟ فما هي مجالات وميادين عمل الجمعية وما هي أبرز القضايا التي اهتمت بها؟ وإلى أي مدى نجحت في انتشار الشعب الجزائري من الواقع الذي كان يعيشه؟

تأسيس الجمعية:

برزت الجمعية إلى الوجود كحركة إسلامية ذات جذور اجتماعية قوية، وذلك في إطار الصحوة الإسلامية، وحركات التحرر العربية، فقد ظهرت في الوقت الذي تكاثرت فيه الحديث عن اندماج الجزائر في فرنسا، والدعوة للتخلي عن الهوية الإسلامية، للحصول على الجنسية الفرنسية⁽¹⁾، حيث جاء المرجع فيها العودة إلى نصوص الدين من كتاب الله، وصحيح السنة، وإجماع السلف⁽²⁾.

عشية الحرب العالمية الأولى غادر الجزائر جماعة من العلماء الشبان إلى تونس، والمغرب والحجاز ومصر، والشام، بغية الحصول على الثقافة العربية والإسلامية، حيث معاهد العلم الكبرى، بعد أن حوصرت منابع العلم الأصلية من طرف الإدارة الاستعمارية، وبعد عودتهم إلى الجزائر عملوا على نشر الجرائد المختصة في تناول همزة الجزائر الثقافية، وهذا ما جعلها تتطرق للقضايا السياسية، من منطلق دعوتها إلى الإصلاح الديني وتحقيق الوحدة الإسلامية والعربية⁽³⁾.

وكنتيجة للشعور بضرورة وحدة العلماء في أعمالهم - كما كان ذلك في مقاصدهم - فقد ظهر سنة 1924م، تنظيم يسمى "الإخاء العلمي"، والذي كان يهدف إلى توحيد صفوف العلماء المسلمين الجزائريين⁽⁴⁾، على أن الهدف الأسمى لمجموع العلماء، كان إنشاء جمعية إسلامية تقوم بمهمة إعادة بعث التراث العربي الإسلامي في الجزائر، والدعوة إلى التمسك به، ولعب الشيخ عبد الحميد بن باديس⁽⁵⁾، دورا بارزا في الترويج لهذه الفكرة التي تجسدت بالفعل في 05 ماي 1931م⁽⁶⁾، يقول الشيخ البشير الإبراهيمي عن ميلاد الجمعية ما يلي: "تكوّنت في شكلها القانوني أواسط عام 1931 ميلادية، وكأن الله جعلها تنقيصا للاستعمار، فقد كان نشوان بخمرة الفرح لمرور مائة سنة على استقراره في الجزائر، وقد قضى السنة التي قبلها في مهرجانات صاحبة دعا

إليها العالم، فما لبى إلا قليل، فما دخلت السنة الثانية حتى فوجئ بتكوين جمعية العلماء، في غمرة من ابتهاج الأمة بهذا المولود الجديد .."(7).

وقد ضمت 72 عالما جاءوا من مختلف أنحاء القطر، ومن مختلف الاتجاهات الدينية، حيث تم الاجتماع بنادي الترقى، وانتخب الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيسا للجمعية في غيابه، وفي هذا الصدد يقول بن باديس: "... لكنكم بتواضعكم وسلامة صدوركم، وسمو أنظاركم، جئتم بخلاف اعتقادي في الأمرين، فانتخبتموني وأنا غائب"(8) كما انتخب الشيخ البشير الإبراهيمي(9)، نائبا للرئيس، بالإضافة إلى نخبة من رجال الإصلاح، أمثال الأمين العمودي (أمينا عاما)، الطيب العقبي (الأمين العام المساعد)، والشيخ مبارك الملي (أمين المال)، والشيخ إبراهيم بيوض (نائب أمين المال). (10).

- أهداف الجمعية ومبادئها:

لقد أعلنت الجمعية في بيان تكوينها أنها جمعية ثقافية(11)، وغير مهتمة بالشؤون السياسية، وهذا ما نلاحظه عند تصفحنا للقانون الأساسي للجمعية(12)، وهو الشيء الذي يجعلنا ندرك عمق الفهم الذي كان عليه مؤسسوها الأوائل، وحسن تقديرهم، ومعرفتهم لحقيقة وغاية الإدارة الاستعمارية، فلقد أصرت الجمعية من أول يوم على أن تنأى بنفسها عن السياسة مع الإدارة الفرنسية، وأن تنصرف إلى تربية الشعب الجزائري فقد كان زعماء الجمعية يرددون أن مهامها العمل على إصلاح المجتمع وتقويمه في إطار ديني اجتماعي، أما السياسة فهي من غير اختصاصها -على حد تعبير الرئيس الثاني للجمعية " الشيخ البشير الإبراهيمي -" في مقال نشرته صحيفة البصائر، ونشره عبد الرحمن بن العقون(13)، ومما جاء فيه: " لجمعية العلماء أعمال ومواقف، ولها أعمال في الميدان الديني، لا يتطرق إليها التبديل والتغيير، لأن المرجع فيها نصوص الدين، ولها أعمال في ميدان التعليم العربي، ولا يعتريها الفتور ولا النكوص ولا التراجع، ولها في الحياة السياسية والاجتماعية للأمة الجزائرية آراء، محصتها التجربة، وأيدها المنطق، ومواقف لم تراع فيها إلا المصلحة المحققة أو الراجحة، ولم تبال في مواقفها بمن طار وبمن وقع، وجمعية العلماء أصدقاء وخصوم، ومن أعداء الجمعية الاستعمار وأنصاره وصنائه، ومن خصومها تلاميذ الأقسام الابتدائية في السياسية،

من أفراد، وأحزاب يضادونها كلما جروا من الأهواء فلم توافقهم، وكلما أرادوا احتكار الزعامة فلم تسمح لهم".

وهذا ما نلمسه بوضوح في قانونها الأساسي الخاص، والتي اتسمت بالمهادنة، لذلك وافقت إدارة ميرانت (MIRANTE)، مسؤول الشؤون الأهلية، على طلبها بعد خمسة عشر يوم فقط من تقديمها. (14)

ولعل أهم تعبير عن أهداف الجمعية ومبادئها، ما جاء على لسان الشيخ عبد الحميد بن باديس وأوردته مجلة الشهاب سنة 1937م حين قال: "العروبة، والإسلام، والعلم، والفضيلة، هذه أركان لقضيتنا، وأركان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا، ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية كما كانت تفقهننا في الدين، وتنيرنا بالعلم، وتخلقنا بالأخلاق الإسلامية العالية والفضيلة، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا، وتربطنا بوطينتنا العربية الإسلامية...". (15)

كما لخص الشيخ البشير الإبراهيمي أهداف الجمعية بقوله: "إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتطالب باستقلال قضائه، وتطالب بحرية التعليم، تدافع عن الذاتية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن". (16)

أما عن مبادئها فتتمثل في (17):

- إحياء الدين الإسلامي، وتطهيره من الشوائب التي علقت به.
- تطوير الثقافة العربية الإسلامية.
- توحيد أبناء الشعب الجزائري تحت راية العروبة والإسلام.
- توعية الشباب الجزائري بالشخصية الجزائرية، وهيئته للنضال في المستقبل.
- إقامة جسور للتعاون بين الجزائر والدول العربية الإسلامية.
- الدعوة إلى توحيد العمل المشترك مع أبناء تونس والمغرب.
- نشر تعليم عربي مستوحى من الوحدة العربية الإسلامية.

1- مجالات عمل الجمعية: من أجل تحقيق الأهداف التي رسمتها الجمعية لنفسها وضعت برنامجا، ومنهاج عمل يعتمد على مجموعة من الأسس، لخصها الأستاذ أحمد مريوش في النقاط التالية:

- الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والسلف الصالح، وتلك هي المرجعيات الأساسية في سياسة الإصلاح الذي تبنته الجمعية.
- مخاطبة العقل، والدعوة للحدثة، ومحاربة الجمود، والتصدي للطرقية، والخرافات والبدعة التي عشت في عقلية الجزائريين .
- الاعتماد على المرحلة في النهج الإصلاحي، وكذا التعايش مع الطرف الآخر، بغرض تهيئة الذات الوطنية واستعادة ما استلب منها، ونبذ الخلاف لرسم معالم التوجه الجديد.
- توظيف الكيف لضمان الاستمرارية في الحقل البنائي لحركة المجتمع المعاصر⁽¹⁸⁾.

وفي العموم فقد اتخذت الجمعية شعارا لها: "الجزائر وطننا، العربية لغتنا، الإسلام ديننا" وهي تشكّل المحاور الكبرى لبرنامج عملها والقضايا التي اهتمت بها، المنبثقة أساسا من واقع المجتمع الجزائري، في ظل الاستعمار الفرنسي وسياساته المنتهجة في جميع المجالات، ويمكن تلخيصها هذه كما يلي:

أ- المجال الديني:

إدراكا من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للأهمية القصوى التي تمثلها العقيدة في حياة الأفراد، جعلها تتخذها كانطلاقة لمشروعها التغييري والإصلاحي وتركز معظم أعمالها عليها، لتحقيق بها الإصلاح الفعال الذي يقوم على أولوية البناء الداخلي الذي يتوقف صلاحه على صلاح العقيدة التي تملأه، ويتمثل المنهج الذي اعتمدته الجمعية في تغيير نفس الإنسان الجزائري بتخليصه من ركام الأفكار والتصورات الخاطئة التي تدفعه إلى الركود والانحراف كما يلي:

- 1- تطهير الإسلام مما علق به من الشراكيات والبدع والخرافات: إن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الدين بتنقيته من الخرافات والبدع التي طمست على عقول المسلمين، وكانت سببا في تأخرهم،

لقد كان الجزائريون زمن الجمعية يعتقدون اعتقادات فاسدة كالتيبرك بأضرحة الأولياء ، والاعتقاد في قدراتهم وأدعاء قدسية شيوخ الطرق والرقص والتهتك في الاحتفالات المبتدعة، واختراع أدكارا محرّفة، وقرابات مخالفة للكتاب والسنة ، بلغت بهم إلى درجة الوثنية التي وصفها المبارك الميلي بالجاهلية الحاضرة ، بعد جاهلية عصر الوحي، بل انه ذهب إلى أبعد من ذلك في الوصف فقال: "انه لا فرق بينهما في الجهل بما ينافي التوحيد ولا في الابتلاء بالمبتدعين والدجالين، ولا في التبرك بالآثار احتماء من الأقدار، ولا في التقرب من الأحجار والنفور من المرشدين والأخيار، ولا في عصيان من خلقهم وعبادة ما تحتوه، ولا في افتراق الكلمة والانقسام إلى شيع متعادية." (19)

لقد أدركت الجمعية خطورة الوضع الذي بلغه المجتمع الجزائري من جراء الانحرافات الكثيرة التي نسبت إلى الدين، وتركت آثارا سيئة للغاية في المجتمع الجزائري، فكانت الدعوة إلى العودة إلى الإسلام الصحيح المستمد من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ألف الشيخ مبارك الميلي كتاب "رسالة الشرك ومظاهره"، كما تولى الإمام ابن باديس تأليف كتاب "العقائد الإسلامية"، وقد جاء في أصول هذه الدعوة ما نصه: "فكل شرك في الاعتقاد أو في القول ، أو في العمل فهو باطل، بناء القباب على القبور، وقد سرج عليها، والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال في أعمال الجاهلية" (20)، والإصلاح هنا لم يكن بتعليم عقيدة جديدة إنما بتطهير ما هو كائن، وتحديد فعاليته في المجتمع كما يقول مالك بن نبي: "أن المشكلة لا تكمن في تعليم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي." (21)

2- محاربة الزوايا والطرقية المنحرفة:

قاومت الجمعية الطرقية الضالة التي كانت أداة طيعة للاستعمار، خصوصا أن المخططين لها من كبار فلاسفة الاستعمار ومفكره، هذا ما جعلهم يطلقون شعارات باطلة منها "من لم يكن له شيخ، فشيخه الشيطان" الأمر الذي جعل العلماء المصلحين يشرحون للرأي العام زيف الترهات

والأباطيل المنافية للإسلام، ويكشفون للناس تواطؤ بعض أولئك الرؤساء والشيخوخ، مع حكام الاستعمار، أعداء الإسلام وخصوم كل نهضة ويقظة وتقدم.⁽²²⁾

وكان رد ابن باديس والإبراهيمي: " أن هذا البلاء المنصب على الشعب المسكين، آت من جهتين متعاونتين عليه ... استعمار مادي، وهو الاستعمار الفرنسي، واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب أو المتاجرون باسم الدين، والمتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطوعية.⁽²³⁾

وتحت عنوان لماذا حاربت الشهاب الطريقة ؟ علق ابن باديس " حاربنا الطريقة لما عرفنا فيها -علم الله - من بلاء على الأمة من الداخل والخارج، فعملنا على كشفها، وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب ..."⁽²⁴⁾، ورغم أن هذه الحرب لم ترق للطريقين، إلا أن الكثير رحبوا بها أمثال مالك بن نبي الذي أيد الجمعية في هذا الجانب.⁽²⁵⁾

3- محاربة حركة التبشير المسيحي:

يعد التبشير سبيلا للسيطرة السياسية والروحية ، لذا حاولت فرنسا القضاء على كل ما ليس نصرانيا ، لإظهار النصرانية في مظهر الديانة الإنسانية، وهذا ما يعلل تحملها على الدين الإسلامي، الذي تعتبره خطرا عليها ، لذلك على إتباع كل السبل للحد من انتشاره، وكانت الجمعية تنظر إلى التبشير على انه : "نتيجة من نتائج التعصب المسيحي المسلح، ومولود من مواليد القوة الطاغية التي تسمي كل ما ترضى عنه من الأعمال المنكرة حرية الدين أو حرية الفكر، وانه أداة من أدوات السياسة في ثوب ديني، وشكل كهنوتي دفعته أولا ليكون رائدا في الفتح وقائدها في الاستعمار.⁽²⁶⁾

وكانت الجمعية ترى انه من المعقول أن يثمر التبشير في بلد كالجائر لتوفر الظروف المواتية لذلك فعملت الجمعية على القضاء على هذه الحركة ومقاومتها عن طريق المحاضرات والدروس العامة، ومن خلال تعليمها للشعب الجزائري قيمة دينهم وضرورة التمسك به وبأنه جزء مهم في هويتهم وشخصيتهم التي لا تقوم إلا على المبادئ التي تنادي بها الجمعية (الإسلام ديننا ، والعربية

لغتنا ، والجزائر وطننا) ونجحت في ذلك إلى حد بعيد، فلم تتمكن الحركة التبشيرية من تحقيق مرادها أمام تصلب الجزائري في دينه مهما بلغت به العامية والأمية والفقر.⁽²⁷⁾

4- المطالبة بفصل الدين عن الدولة:

أدركت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بأنه لا يمكن المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية طالما أن مساجد المسلمين وأوقافهم تستغلها الحكومة الفرنسية، فكانت المطالبة بتطبيق قانون فصل الدين على الدولة.⁽²⁸⁾

وقد بينت الجمعية مقاصدها من خلال تقديمها لتقرير يتعلق بالشؤون الدينية، جاء بعبارة: نحن باسم الدين وباسم الأمة نتمسك بفصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية، نريد تطبيقه على الكيفية الآتية:

- فصل الدين الإسلامي عن الحكومة فصلا حقيقيا، بحيث لا يتدخل في شيء من شؤونه لا ظاهرا ولا باطنا، لا في أصوله، ولا في فروعِهِ.
 - تسليم ذلك كله إلى أيدي الأمة الإسلامية صاحبة الحق المطلق فيه، وتعزيز سلطتهم على أمور دينهم تقريراً فعلياً خالصاً لا التواء فيه.⁽²⁹⁾
- ب- المجال الثقافي والاجتماعي:

يمكننا اختصار الدور الثقافي والاجتماعي الذي قامت به الجمعية، من أجل إخراج الشعب الجزائري من الوضعية التي كان يعيش فيها في النقاط التالية:

- مقاومة الأمية، وتربية وتعليم الناشئة:

أدركت الجمعية أن التعليم هو السبيل إلى التحرر، فالأمة الجاهلة لا يمكنها الحصول على الاستقلال ولا المحافظة عليه، ولأجل ذلك انطلقت الجمعية في نشر التعليم، في سبيل الوصول إلى القضاء على الجهل، ونشر الوعي الصحيح، من خلال تأسيس المدارس العربية الحرة التي فاق

مجموعها حسب الشيخ البشير الإبراهيمي 140 مدرسة، احتضنت نحو 50.000 تلميذ من الذكور والبنات، وبلغ مجموع معلّميها نحو 400 معلّم.⁽³⁰⁾

- نشر الوعي الديني والاجتماعي، والثقافة، في أوساط الشبيبة والعمال وعامة الناس، بواسطة الجرائد والمجلات، وتنشيط مئات الجمعيات العلمية والخيرية والدينية والرياضية، وعشرات النوادي.

- محاربة الآفات الاجتماعية: كمعاقرة الخمو، وتعاطي المخدرات، ولعب القمار، وغيرها...

- الاهتمام بالطفولة: فقد حاول دعاة الإصلاح من رجال الجمعية الإلزام بما هو يخص المجتمع واهتموا بالطفولة والأرامل والأيتام ولذلك حاولوا أن يؤسسوا هذه الجمعية التي تهتم برعاية الأطفال والجمعيات الخيرية لإنقاذ الطفولة والنشء من التشرّد والضياع لأن الإسلام قد أعطى أهمية بالغة لهذه الشريحة من المجتمع وشد على الاهتمام بها⁽³¹⁾.

- الاهتمام بالمرأة: من خلال التوعية المسجدية، والتعليم الذي شمل في سنة 1952م، نحو 13.000 بنت في مدارس الجمعية⁽³²⁾، فقد كانت المرأة المسلمة في الجزائر قبل ظهور الحركة الإصلاحية تعاني الجمود والكود والجهل والحرمان، بسبب العادات والتقاليد الفاسدة، والفهم الخاطئ للدين الإسلامي، وتشير الجمعية إلى الدور المهم الذي تلعبه المرأة في الأمة الواحدة، فتري "أن الأمة كالطائرة لا تطير إلا بجناحين وجناحاهما هما الرجل والمرأة، لا يمكن أن تطير إلا بهما، ومن ثم فإن الأمة التي تقصر التعليم على الرجل دون المرأة، ستكون هائيتها السقوط لا محالة."⁽³³⁾

ج- المجال الاقتصادي:

إذا كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قد ركزت عملها على الجانب الثقافي والاجتماعي، فليس معناه أنها كانت بعيدة عن واقعه الاقتصادي، فقد طالبت السلطات الاستعمارية بتحقيق العدالة من حيث الأجر، ووقت العمل بين الجزائريين والفرنسيين أثناء العمل، بالإضافة إلى إلغاء كل القوانين التي تعيق المواطن الجزائري من أجل خدمة أرض، وتجسدت هذه المطالب في:

- تساوي الأجور إذا تساوى العمل.
- تساوي الرتبة إذا تساوى الكفاءة.
- توزيع إعانات الميزانية الجزائرية للفلاحة، صناعة، تجارة.
- السماح بتكوين جمعيات تعاونية فلاحية، ومراكز التعليم الفلاحي.
- الإفلاع عن انتزاع ملكية الأرض من الجزائريين
- توزيع أراضي البور الشاسعة على صغار الفلاحين وعمال الفلاحة.
- المطالبة بإلغاء قانون الغابات.⁽³⁴⁾

ومن مظاهر اهتمام جمعية العلماء بهذا الجانب، أقدمت على تأسيس العديد من الجمعيات المهنية، كجمعية التجار المسلمين التي أسستها الجمعية بقسنطينة، والجمعية الاقتصادية، وذلك لتحقيق الاستقلالية الاقتصادية للشعب الجزائري، وإنعاش مصادر رزقه وعيشه، حتى لا يحتاج لفرنسا، وذلك أمّا - أي فرنسا - كانت تستغل الفقر لابتزاز الشعب، ومعظم التجار كانوا من اليهود.⁽³⁵⁾

- محاولة تأسيس البنك الإسلامي الجزائري:

كانت هناك محاولات لتأسيس هذا البنك من طرف كبار تجار العاصمة من بينهم السيد محمد عباس التركي، حيث دخلت جماعته في مفاوضات مع السلطة الفرنسية، من أجل الحصول على الاعتماد لهذه المؤسسة المالية، لكن السلطات الاستعمارية عارضت فكرة المشروع، ورفضت بشدة معتبرة إياه شيء يميز الهوية الإسلامية، وهي لا تريد بأي شكل من الأشكال للمظاهر الإسلامية أن تظهر.⁽³⁶⁾

- جمعية الزكاة: اجتهد العلماء في إعادة الاعتبار لممارسة الزكاة المنتظمة التي طالما أهملها الجزائريون⁽³⁷⁾، وهذا أملا في أن يستفاد منها لتحسين الاقتصاد العام في الجزائر، حيث تمكنت الجمعية من جمع أموال طائلة، من أموال الزكاة، أنفقتها في وجوها الشرعية، لكن تماطل بعض من يملك أموال الزكاة في دفعها، ورؤيتهم على أن كل واحد يدفعها بنفسه أدى إلى تعطل

المشروع⁽³⁸⁾، إن دعوة العلماء من أجل أداء الزكاة في حينها تهدف إلى ترقية التضامن الاجتماعي والاقتصادي في صلب الأمة، حيث كان التضامن بالنسبة لهم أمرا مستعجلا، لاسيما وأن النظام الاستعماري لم يكن يظهر كبير عناية للتحرر الاقتصادي للشعب الجزائري.⁽³⁹⁾

في سنة 1936م برزت الجمعية ككتلة سياسية متماسكة، بعدما شاركت في المؤتمر الإسلامي، وهو أول مؤتمر يحاول أن يخرج بكلمة وطنية موحدة، يواجه بها حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا، وألقى فيه الشيخ عبد الحميد بن باديس خطابا، أكد فيه مبادئ الجمعية، مع ضرورة إعطاء حقوق الجزائريين⁽⁴⁰⁾، و انعقاد المؤتمر الإسلامي⁽⁴¹⁾، يوم 07 جوان 1937م في الجزائر، والذي تزعمته جمعية العلماء، باقتراح من رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس⁽⁴²⁾، حيث رأى أنه " انجاز أكثر واقعية، وأكثر عملية للاتحاد والتنظيم المنشودين "، وقد لخص مطالب المؤتمر في وثيقة، أعطى لها عنوان " الميثاق المطلي للشعب الجزائري المسلم ".⁽⁴³⁾

لقد أظهر المؤتمر الجمعية بمثابة قوة معنوية وسياسية هامة في الساحة الوطنية، فمن خلال خطبهم ومشاركتهم الفعالة في لجنته التنفيذية، ووفده الذي سافر إلى باريس، اعتبروا الممثل الأكثر أهلية للأمة الجزائرية، فقد أظهر المؤتمر الجمعية كأهم الممثل الشرعي والشعبي والمؤسسي الوحيد التي تتكلم باسم الأمة الجزائرية، وتمثل جميع مطالبها الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

رغم كل ما سبق نجد أن علي مراد يؤكد أن المذهب الإصلاحى الجزائري لم يول العناية اللازمة لمشاكل الاقتصاد العينية للأوجه المختلفة لاستثمار رؤوس الأموال، فلم يتمكن ابن باديس وأصحابه، إما بدافع الحذر، أو لانعدام مذهب مبلور كما ينبغي في هذا المجال من إرضاء أتباعهم الأوفياء، ويؤكد أن الإصلاحيين لم يكونوا مبالين للجانب الاقتصادي، ذلك أن النزعة الأخلاقية كانت تطفئ عليهم⁽⁴⁴⁾، لكن في المقابل كانوا يشجعون المبادرات الفردية في هذا الجانب، ويدعمونها.⁽⁴⁵⁾

د- المجال السياسي: رغم أن القانون الأساسي للجمعية يؤكد أنها لا تخوض في الأمور السياسية، كما ذكرنا سابقا، إلا أن هذا لا يعني أنه ليس لها موقف أو وجهات نظر في هذا الجانب، بدليل :

- مقاومة سياسة التجنس:

يحدثنا الشيخ البشير الإبراهيمي عن حرب جمعية العلماء، بقيادة ابن باديس لسياسة التجنس والاندماج، وكيف واصلت هذه الحرب حتى قضت عليها، فيقول⁽⁴⁶⁾: " حاربت جمعية العلماء، سياسة الإدماج في جميع مظاهرها، فقاومت التجنس، ونأزلت أنصاره الحمس، ودعائه المقاويل، حتى قهرهم، وأخرستهم، وقطعت عليهم الحبل في أيديهم، ثم أفتت فتواها الجريئة فيه⁽⁴⁷⁾، يوم كانت الجرأة في مثل هذه المسائل بابا من العذاب، فكان ذلك منها تحديا للاستعمار، وإبطالا لكيده، وتعطيلا لسحره، وأثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها ."

- مقاومة الإدماج:

جعل الشيخ ابن باديس من دروسه ومقالاته في جرائد الجمعية، وسائل لمحاربة الفرنسة والاندماج، وقد عبر عن رفضه لسياسة الإدماج في جريدة الشهاب، بقوله⁽⁴⁸⁾: "إنّ هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا تريد أن تصبح فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها ، لا تريد أن تندمج، ولها وطنٌ محدود معين هو الوطن الجزائري ..."

كما نددت الجمعية بالحكم الاستعماري وممارساته الظالمة، بالإضافة إلى المطالبة بحق الجزائريين كافة في الانتخاب، كما كانت تسعى لتحقيق الوحدة بين العربية والإسلامية، وتبني قضائهم وفي مقدمتها قضية فلسطين⁽⁴⁹⁾، كما تجاوزت الجمعية كل هذه المطالب، والرفع من سقفها بالمطالبة بالاستقلال، ولو بطريقة غير مباشرة، حيث صرح بذلك ابن باديس سنة 1936م، أمام جمع من الأنصار قائلا : " وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف ؟ وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال." ⁽⁵⁰⁾ ، لكن للأسف نجد من يشكك في هذه الحقيقة، أو ينكرها من المناهضين للجمعية وفكرها .

لقد كانت دعوة ابن باديس صريحة في التخطيط لانتشار الأمة الجزائرية من الوضعية المزرية التي آلت إليها من جراء معاول الهدم الاستعمارية التي فرضت عليها، فنجد في جريدة الشهاب

نصائح يعطيها الشيخ للجزائريين، وهي نصائح متعددة الأهداف تسعى لترقية الأمة الجزائرية، ما أوجنا للعمل بها في وقتنا الحالي (51).

2- الوسائل التي استعانت بها الجمعية لتحقيق أهدافها: يمكن اختصارها فيما يلي:

- تأسيس المدارس والمساجد الحرة، وإصدار الصحف والمجلات.
- بعث التاريخ الوطني لإبراز انتماء الجزائري العربي الإسلامي.
- تكوين الكشافة (52)، والفرق الرياضية والمسرحية، وفتح النوادي.

اختلفت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اختلافا كبيرا عن الحركات الأخرى، فهي لم تكن ثورية، ولا موالية للفرنسيين، بل كان علمائها قبل كل شيء مصلحين وطنيين، فقد أعطوا الأولوية للتعليم العربي الإسلامي، وكانوا قد عارضوا بشدة دمج الجزائر في فرنسا، إذ أن برنامجهم كان تابعا من واقع المجتمع (53).

خاتمة:

عملت الجمعية منذ تأسيسها على جميع الأصعدة وفي جميع المجالات وهذا في إطار دعوة إلى تحقيق إصلاحات شاملة، لم تصل إلى درجة المطالبة بالاستقلال، رغم أن الجمعية بنيت على مبادئ حساسة هم كل الجزائريين، ومحمل القول، أن الجمعية لعبت دورا بارزا في تاريخ الجزائر، حيث أسهمت في يقظة الجزائريين وتنوير فكرهم وتحريره من البدع والخرافات ونجحت في تكوين جيل متمسك بعروته وإسلامه، استطاع أن يعطي لمفاهيم العروبة والإسلام عمقا أمكن بواسطته الدفاع عن الهوية الوطنية، وكان من نتيجة ذلك أن هذا الجيل انصهر فيما بعد في حركة التحرر الوطني التي قامت في سنة 1954م، بفعل وصول الحركة السياسية إلى قمة نضجها.

الهوامش:

- 1- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2005، ص ص 244-245.
- 2- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر 02، الشبكة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.، ص 323.

- 3- الجليلي صاري ومحفوظ قداش، الجزائر في التاريخ، المقاومة السياسية 1900-1954، الطريق الإصلاحي والثورة، ترجمة عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987م، ص24.
- 4- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية بين 1931-1956. الطبعة الثانية، الشبكة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1981، ص39.
- 5- ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1889م، في قسنطينة، درس العلوم الإسلامية على يد الشيخ حمدان لونيسي، واصل تعليمه في تونس، حيث حصل على شهادة التحصيل، ثم عاد إلى قسنطينة وبدأ برعايته للتعليم في جامع سيدي لخضر، كما حدد برنامج عمله السياسي منذ البداية، وهو الدفاع عن اللغة العربية وبعث نهضة إسلامية في الجزائر، ومن ثمّة قام بتوظيف رجال الإصلاح وتحفيزهم للعمل السياسي ووصولهم إلى تأسيس جمعية العلماء سنة 1931 م، للمزيد انظر : بشير بلّاح، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830-1989، ج1، دار المعرفة، 2006، ص 399 وما بعدها
- 6- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985. ص 101-102
- 7- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي (1954-1956)، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997، ج 4، ص 164-165
- 8- محمد البشير الإبراهيمي، "أنا"، مجلة الثقافة، العدد 87، ماي / جوان 1985، ص 23
- 9- ولد الشيخ البشير الإبراهيمي بسطيف سنة 1889م، مارس تعليمه الابتدائي في زاوية شلاطة، وفي سنة 1912م هاجر إلى الحجاز، تعرف على الشيخ ابن باديس في المدينة المنورة، فكتشف أنه يشترك معه في هموم وطنه الجزائر الذي ابتلي بالاستعمار الفرنسي، فوضعا هناك لبنة تأسيس الجمعية، في سنة 1917م شد الرحال إلى دمشق، وأصبح يلقي الدروس في الجامع الأموي، عاد إلى أرض الوطن سنة 1920م وللمزيد أنظر : بلّاح، مرجع سابق، ص 411، وما بعدها .
- 10- بوحوش، المرجع السابق، ص 251.
- 11- سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، قسنطينة، 1937
- 12- هذا القانون مقسم إلى 05 أقسام و23 فصل، حدّد في القسم الأول اسم الجمعية ومقرها، أما القسم الثاني فحدّدت مقاصد هذه الجمعية وغاياتها وأهدافها، والقسم الثالث تطرّق إلى أعضاء الجمعية، والقسم الرابع تطرّق إلى المالية وكيفية إدارتها، أما القسم الأخير فوضّح فيه الاجتماعات الإدارية والعامة، وكيفية تسييرها.
- 13- عبد الرحمان بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص376.
- 14- الخطيب، المرجع السابق، ص 98.
- 15- جريدة الشهاب، مجلد 13، سنة 1937م، ص 20.
- 16- الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 12
- 17- بوحوش، المرجع السابق، ص264.
- 18- احمد مريوش، محاضرات في تاريخ الجزائر 1900-1954، ج2، ط1، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، 2013، ص 222.

- 19 - مبارك الفيلي، رسالة الشرك ومظاهره، دار الغرب الإسلامي، ط5، 2000، ص 109.
- 20 - آثار الإمام ابن باديس، ج3، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والجزائر، ط1، 1991، ص155.
- 21 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، الجزائر، دمشق، ط5، 1986، ص 54.
- 22 - محمد الصالح رمضان، جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي، مجلة الثقافة، عدد83، السنة الرابعة عشر، سبتمبر /أكتوبر 1984، ص 362.
- 23 - نصر الجويلي، جمعية العلماء المسلمين بين الدين والسياسة، المحلة التاريخية المغربية، السنة الخامسة عشرالعدد49/50، جوان 1988، تونس، ص 109.
- 24 - نفسه، ص. 110
- 25 - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، العادة الرابعة، ط2، 1427هـ-2004.
- ، ص 386
- 26 - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين المنعقد بمركزها العام "نادي الترقى" بالجزائر، دار الكتاب الجزائر، ص72.
- 27 - نفسه، ص73.
- 28 - يتمثل هذا المطلب بالتحديد في :- تحرير المساجد برفع يد الحكومة عنها - تحرير الأوقاف الإسلامية بإرجاعها إلى المسلمين - تحرير رجال الدين الإسلامي من الحكومة المسيحية - تحرير القضاء الإسلامي برفع القيود عنه - تحرير الحج بعدم تدخل بعدم تدخل الحكومة في أي شأن من شؤونه - تحرير الصوم بإبعاد الحكومة عن شؤونه للمزيد أنظر : الإبراهيمي، عيون البصائر، ص46 .
- 29 - الخطيب، المرجع السابق، ص 173.
- 30- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 175.
- 31 - عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ط1، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، 1983، ص 10
- 32- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص170.
- 33 - زبير بن رحال، عبد الحميد بن باديس، رائد النهضة العلمية والفكرية (1889-1940)، دار الهدى، الجزائر، 1997، ص 63.
- 34 - رايح توكي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط 5، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، 2001. ص 108.
- 35 - عبد الرشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913-1940)، دار الشهاب، بيروت، ط1، 1999، ص 193.
- 36 - احمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009، ص 177.

- 37 - يرجع علي مراد أسباب التخلي النسبي عن الزكاة في الوسط الجزائري إلى الظروف الاقتصادية الخاصة بالأمة الإسلامية، فالضرائب المباشرة التي تثقل كاهل المسلمين الجزائريين، لم تترك لهم الوسائل التي يواجهون الفريضة الشرعية للزكاة، أنظر: علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي 1925-1940، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة للطباعة والنشر والترجمة، الجزائر 2007، ص 400؛ الشهاب، عدد جولية سنة 1932
- 38 - المدني، حياة كفاح، ج2، ص 178.
- 39 - مراد، المرجع السابق، ص 369.
- 40 - Claud callot, Jean Robert Henry, **le mouvement national algérien**, textes 1912-1954, 2ème édition, Alger, o. p. u et l'harmattan, Paris, 1981. P. 64
- 41 - صادق المؤتمر على عدة نقاط أهمها: -إلغاء جميع القوانين الاستثنائية - إبقاء قانون الأحوال الشخصية، بالإضافة إلى مطالب اجتماعية واقتصادية مثل التعليم الإلزامي وبناء المدارس، وإنشاء تعاونيات زراعية ومراكز تثقيف الفلاح، وإلغاء القانون الغابي.
- 42 - احمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص195.
- 43 - صاري وفدّاش، المرجع السابق، ص 30.
- 44 - مراد، المرجع السابق، ص 372.
- 45 - مقابلة شخصية مع عضو المكتب الوطني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التهامي الماجوري بولاية المدية 03 جانفي 2015 على هامش تنصيب المكتب الولائي للجمعية
- 46 - توكي، ابن باديس رائد الإصلاح، ص438.
- 47 - أنظر نص الفتوى: جريدة البصائر، عدد95، 1938/01/14، ص02.
- 48 - الشهاب، مجلد 12، محرم 1355هـ/أفريل 1936، ص. 44
- 49 - حول اهتمامات الجمعية بالقضية الفلسطينية، احمد مريوش، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ج1، ط1، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، 2013، ص 274.
- 50 - عمار طالي، ابن باديس، حياته وأثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، 1983، ص89.
- 51 - الشهاب، العدد 49، الموافق ل أوت 1926
- 52 - تشكّل أول فوج للكشافة الجزائرية بسعي من الشهيد محمد بوراس، وبوحي من الشيخ ابن باديس بالعاصمة عام 1935م، باسم فوج "الفلاح"، ثم توسعت في عام 1937م، لتغدو حركة كشفية وطنية، عقدت أول مؤتمر لها تحت شعار جمعية العلماء " الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا"، في يوليو 1939، برئاسة بوراس، الذي أعدمته فرنسا عام 1941م، بنهمة التحريض على الثورة.
- 53 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1930-1945، الجزء3، دار الغرب الإسلامي، ط4، بيروت، لبنان، 1992، ص406.

من سياسة الإبادة الفرنسية

محرقة غار الفراشيش 19 جوان 1845

الأستاذ غانم بouden، جامعة تيارت

الملخص:

تتطرق هذه الدراسة لإبراز وجه من أوجه معاناة الشعب الجزائري من السياسة الاستعمارية الفرنسية المسلطة عليهم منذ بداية الاحتلال، والتي اعتمدت على التدمير بالحديد والنار متجاوزة كل المفاهيم الأخلاقية للحروب، ومنافية لادعاءات التحضر التي تبنتها فرنسا زوراً، حيث سجل قادة جيش الاحتلال سبقاً في الوحشية والفظاعة من خلال ما ارتكبه من جرائم في حق الجزائريين العزل.

وتعتبر محرقة غار الفراشيش 19 جوان 1845 من أفظع ما ارتكب في العقد الثاني للاحتلال، حيث أُبِيدت قبيلة أولاد رباح خنقاً وحرقاً بدم بارد من قبل العقيد بيليسي (Péllissier) بعد أن تحصّنت بكهوف الظهرة هروباً من سياسة نزع السلاح التي طبقتها سلطات الاحتلال لإخماد نار المقاومة المشتعلة في كل أنحاء الوطن، كما تبرز هذه الدراسة الإجماع الفرنسي على إبادة الإنسان الجزائري لتثبيت الاحتلال وتوسيع رقعته من خلال مساندة وزارة الحربية والصحافة الاستعمارية في باريس لقادة جيش الاحتلال في جرائمهم ضد الجزائريين، والدفاع عنهم، وتبرير تجاوزاتهم من خلال مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

الكلمات المفتاحية: السياسة الاستعمارية، المحرقة، الإبادة، المقاومة، الظهرة.

Abstract:

This study addresses to highlight the aspect of the suffering of the Algerian people from the French colonial policy inflicted on them since the beginning of the occupation, which relied on the destruction of iron and fire, surpassing all moral concepts of wars, and contrary to the allegations of civilization adopted by France falsely, where the occupation army leaders scored a scoop in the brutality and horror of during their crimes against Algerians insulation.

The Holocaust Ghar Alfarachich June 19, 1845 of the worst committed in the second decade of the occupation, which wiped out the tribe of Ouled Rayah strangled and burned to death in cold blood by Colonel Péllissier after being holed caves Dahra escape disarmament policy applied by the occupation authorities to put out the fire burning resistance in all parts of the country, as this study highlights the French consensus on the Algerian human annihilation to install the occupation and extend its territory by supporting the Ministry of war and the press colonial in Paris the leaders of the occupation army in crimes against Algerians, and defend them, and justify their excesses through the principle of the end justifies the means.

Keywords: Colonial policy, the Holocaust, genocide, resistance, Dahra.

مقدمة:

إن دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر سنة 1830 يعتبر جريمة في حد ذاته كونه أطاح بسيادة دولة وانتهك حقوق شعب في الحياة والحرية، وبعد توقيع معاهدة الاستسلام في 05 جويلية 1830 تكسّر الطابع الإجرامي للجيش الفرنسي بالجزائر، واستباح حقوق الجزائريين وأملاكهم ومعتقداتهم رغم العهود باحترامها. ومع توسع الجيش الفرنسي خارج العاصمة اصطدم بمقاومة شرسة نظمتها مختلف القبائل أعاققت تحركاته وصعّبت من مهامه في إخضاع كل الجزائر، ذلك أن الفرنسيين اعتقدوا أن سقوط العاصمة -مقر السلطة- مثل سقوط كل مقاومة محتملة.

ولأجل التغلب على المقاومة الوطنية لجأ الجيش الفرنسي إلى حرب إبادة شاملة تجاوزت كل حدود الفظاعة والهمجية معتمدا على السلب والتخريب والمجازر ضد السكان العزل، والحرق والخنق، حيث دشن بذلك قادة جيش الاحتلال عهد الهولوكوست الذي مثل وجها آخر للحضارة الفرنسية من خلال محرقة أولاد صبيحة سنة 1844 في الشلف ومحرقة غار الفراشيش 1845 سنة بمنطقة الظهرة.

وسأخص هذه الورقة بدراسة محرقة غار الفراشيش التي أبيدت فيها قبيلة أولاد رياح بكهوف الظهرة بعد رفضها نزع السلاح وإعلان الخضوع للسلطة الاستعمارية، التي كانت تدخل في إطار سياسة بيجو في قمع المقاومة الوطنية في جبال الظهرة حيث كانت لا تزال مشتتة بقيادة بومعزة رغم دفع الأمير عبد القادر إلى الجنوب الغربي تحت تأثير الضغط العسكري الفرنسي، وذلك

بالتطرق لظروف منطقة الظهرة ودورها في حركة المقاومة الوطنية، وتأثيرها على السياسة الاستعمارية التي لم يتمكن قادتها من احتواء هذه المقاومة إلا باللجوء إلى أسلوب الإبادة لإنجاح سياسة التوسع الاستعماري.

1-الوضع العام في منطقة الظهرة قبل المحرقة:

عرفت الجزائر جبهات عديدة للمقاومة الوطنية التي عملت على محاولة وقف الزحف الاستعماري بعد سقوط العاصمة، وكانت أهمها مقاومة الأمير عبد القادر التي شملت مناطق واسعة من الوطن خاصة في الغرب والوسط أين عطلت المشروع الاستعماري، وأجبرت الحكومة الفرنسية على تغيير دائم لحكامها العامين في الجزائر لعجزهم عن إخمادها. وكان أكثرهم قسوة ووحشية المارشال بيجو⁽¹⁾ (le Marechal Bugeaud) الذي تولى الحكم في الجزائر من 1841 إلى 1847، وتميز عهده بكل ممقوت من أعمال الاستعمار الحديث⁽²⁾ من خلال تطبيقه سياسة الأرض المحروقة لإجبار الجزائريين على الخضوع وعزلهم عن المقاومة، حيث سلك سياسة القهر والعنف، وسياسة حرب الإبادة تجاه المقاومة ممثلة عندئذ في الأمير عبد القادر، فعمل على تجريد كل القبائل من محاصيلها الزراعية وماشيتها، وتوسيع صلاحيات المكاتب العربية، كما أصدر أوامره بإبادة الحرائق وإتلاف الأرزاق وارتكاب المجازر، وتسليط العقوبات الجماعية،⁽³⁾ ذلك أن بيجو وغيره من الفرنسيين كانوا يرون أن بقاء الأمير حرا جعل الوطنية العربية ترفض التناحي، لأنه يجسد مائة قبيلة، أمة، تقاليد، دين، عائلة، عرق كامل يتنفس به ولن يسقط إلا معه،⁽⁴⁾ كما كانوا يرون أن أنسب شيء لتثبيت الأوربيين بالجزائر وتمكين الاستيلاء عليها لا يتم إلا من خلال تدمير الجزائريين، وهذا التدمير يبقى هو الإبادة فقط.⁽⁵⁾

وقد أدت سياسة بيجو إلى انحسار مقاومة أين لاحقته سلطات الاحتلال وتدخلت في المغرب عسكريا في معركة إيسلي 1844⁽⁶⁾ التي كانت ضربة للأمر،⁽⁷⁾ وما إن حلت سنة 1845 حتى وجهت فرنسا أنظارها إلى الجزائر، نحو نجاح ومهارة المارشال بيجو الذي -في نظرهم- أنجز الغزو، وأخذ الزمالة، وقوّض قوة الأمير، وكرس السيادة الفرنسية بنصر إيسلي، ومع ذلك كانت ثورات منعزلة تندلع في مختلف المناطق⁽⁸⁾ تعبر عن موقف جماعي لرفض الوجود الاستعماري، ورغم

معاهدة لالا مغنية سنة 1845 التي حجزت الأمير في وسط المغرب فقد بقي الهيجان في الجزائر بدعوة من المرابطين، ولأجل قيام ثورة كانت الحاجة إلى شرارة، وفي غياب الأمير كان بومعزة⁽⁹⁾ هو من أعطى الانطلاقة لهذه الثورة،⁽¹⁰⁾ التي عُرِفَتْ بانتفاضة الظهرة⁽¹¹⁾ سنة 1845 التي أعادت الأمل بالنصر على العدو، ولكنها كانت قصيرة التأثير،⁽¹²⁾ وقد دأب الاستعمار على التقليل من قيمة الثورات الوطنية بتسميتها بالانتفاضات والتمردات.

وتفيد المصادر الفرنسية أنه مع بداية سنة 1845 انتشر عدة مرابطين في البلاد ينادون بطرد الفرنسيين، ويعددون جرائمهم مبشرين بمجيء شريف من أصل الحسن يظهر خلف النهر ويحارب الفرنسيين بتجنيد أبناء الظهرة،⁽¹³⁾ وقد عُرِفَتْ هذه الانتفاضة عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية،⁽¹⁴⁾ شاركت فيها على الخصوص القادرية، والرحمانية، والدرقاوية، والطيبية وفروعها،⁽¹⁵⁾ وبومعزة من أتباع الطريقة الطيبية التي تنسب إلى الطيب الوزاني، وكان بومعزة الذي اعتزل لمدة طويلة في كهوف الظهرة قد بدأ بإثارة الجزائريين في الشلف وحشدهم حيث رفع راية الثورة انطلاقاً من قبائل أولاد يونس على ساحل البحر،⁽¹⁶⁾ وجال في القبائل داعياً الأهالي لأجل الجهاد المقدس،⁽¹⁷⁾ وعندما عُرِف واشتهر أخذ اسم الشريف وشكل مجموعة من الأنصار⁽¹⁸⁾ أعلن بها الثورة في الظهرة، فهاجم قايد مديونة المدعو الحاج صدوك، وسلب القبيلة بعد أن قتل شيخها ورماه في دوار بلقاسم أحد أعوان فرنسا،⁽¹⁹⁾ وفي ربيع 1845 قتل بعض المعمرين، وهب القبائل المعاندة، وجمع في وقت قصير أكثر من (6000) مناصر مسلح،⁽²⁰⁾ وفي 20 أفريل 1845 هجم على مفرزة في تنس، وجرح أربع أشخاص، وأخذ خيام المفرزة، وهاجم قطارا يرافقه (560) جندي فرنسي.⁽²¹⁾

وقد انتشرت الثورة بسرعة مخيفة ولأجل احتوائها استلزم الأمر تحريك عدة فيالق عسكرية، لكنها لم تحقق نتيجة ولجأ بومعزة إلى الظهرة،⁽²²⁾ وكثرت العمليات العسكرية بين تنس ومصب نهر الشلف، حيث هجم الثوار على مخيم للعمال وأخذوا ما فيه، وأصبح الجنود الفرنسيون لا يحصلون على يوم للراحة يطاردون بلا توقف الثوار أين نجحوا في تهدئة الوضع قليلاً في قبائل تنس، ووضع الثوار سلاحهم لكن رغم هذا بقيت الظهرة بعيدة عن الاستقرار خاصة أعاليها حيث تجمع الثوار

وشكلوا تهديدا خطيرا.⁽²³⁾ وقد شكل اختفاء بومعزة وظهوره مجددا عاملا مشجعا للقبائل والأنصار على الثورة رغم الحملات العسكرية الفرنسية الكبرى التي أجبرته فيما بعد على الانسحاب إلى قبائل فليته غير الخاضعة كلية للسلطة الفرنسية، واستقبل من قبل قبائل فليته في ربيع 1845 بمنطقة مستغانم كرجل الساعة الذي سيخلص البلد من المسيحيين ويبريهم في البحر.⁽²⁴⁾ حيث نادى هذه القبائل بالجهاد الذي اتخذ حجما واسعا في كامل الجزائر،⁽²⁵⁾

ولمواجهة خطر ناز المقاومة المشتعلة قاد العقيد سانت أرنو (Saint Arnaud) حملة في ربيع 1845 على الضفة اليمنى لنهر الشلف، وبدأ بمتابعته وقتاله في قبيلة أولاد يونس التي شهدت الخطوات الأولى لدعوته،⁽²⁶⁾ وتمكن من قتل (200) رجل من أتباع بومعزة الذي اختفى لوقت بعد التضيق عليه من قبل الأغا الحاج أحمد الذي قتل كل مرافقيه باستثناء فارسين وبومعزة،⁽²⁷⁾ وقام سانت أرنو بعدة معارك أثناء ملاحقته الثوار في كل مكان مستخدما قوات مهمة خوفا من إعطاء متسع من الوقت لعبد القادر الثاني - حسب تعبير قائد فيلق القناصة كانروبير (Canrobert) في رسالة مؤرخة في 1845/06/05 - ينشئ قوة قد لا تكون كبيرة جدا ولكنها ليست أقل إخافة،⁽²⁸⁾ فالفرنسيون كانوا يرون في ثورة بومعزة امتدادا لمقاومة الأمير عبد القادر التي أرهقتهم كثيرا، فقد ورد في رسالة لسانت أرنو مؤرخة في 06 أوت 1845: "كان من البديهي إذا تركنا بومعزة في البلد سوف ينتهي بنا الحال إلى مجيء الأمير عبد القادر، وكان بومعزة يشيع في العرب أنه يعمل لصالح الأمير، وكان محتالا وجريئا، واستغل جيدا التعصب العربي".⁽²⁹⁾

وكانت السلطات الاستعمارية قد لجأت سنة 1845 إلى وسيلة جديدة مع الجزائريين وهي نزع سلاحهم، وكان سانت أرنو هو مدشن أسلوب نزع السلاح خاصة وأن العرب محاربون.⁽³⁰⁾ وفي 09 ماي 1845 جاء الجنرال بيجو إلى الونشريس وقام بنزع سلاح مختلف قبائل المنطقة، ولم تبقى إلا قبائل واد الشلف لم تدخل تحت السيطرة، فقامت عدة معارك انتهت بنزع سلاحها، وتمكن سانت أرنو من تبديد عدة قبائل في 21 ماي في واد سيدي بلعابد، بينما عاد بومعزة الملاحق إلى أولاد يونس منطلقه الأول.⁽³¹⁾

2- أولاد رياح ومقاومة نزع السلاح:

تعتبر قبيلة أولاد رياح من القبائل المحاربة، مستقرة في منطقة الظهرة على سلسلة جبلية بين الشلف والبحر، وتظهر أرض القبيلة في شكل متاهة مقسمة لمسالك كثيرة بواسطة الحجارة، الجبال والحفر التي تضم كهوفا تشبه كهوف قبيلة صبيحة ولكن مدخلها أصعب،⁽³²⁾ وعلى غرار بقية القبائل التحقت بثورة بومعزة،⁽³³⁾ وكان ييجو قبل عودته إلى مقر قيادته بالعاصمة في 12 جوان 1845 من حملة نزع سلاح القبائل الثائرة قد أمر ضباطه بمعاينة القبائل التي انضمت إلى بومعزة، فتشكلت ثلاثة فيالق يقودها العقيد سانت أرنو (Saint Arnaud)، والعقيد لاميرول (Lamirault)، والعقيد بيليسي (Péllissier)، وغزت هذه الفياق الظهرة ولاحتقت بومعزة؛ الفرقتان الأوليان أخضعتا القبائل المتمردة (الثائرة)، بينما فرقة بيليسي ستقوم بعملية فظيعة،⁽³⁴⁾ وهي إبادة قبيلة أولاد رياح حرقاً وخنقاً.

وقاد بيليسي قوة قُدرت بـ (2254) جندي من مختلف التشكيلات العسكرية مهمتها إخضاع الأهالي الثائرين وتجريدتهم من السلاح،⁽³⁵⁾ فغزا قبيلة أولاد رياح وحطم أملاكها وأحرق ما وجد منها طبقاً لسياسة الأرض المحروقة التي جاء بها سيده ييجو، وقد فرت القبيلة وهي تحارب ناحية غار محصن نوعاً ما يسمى بغار الفراشيش،⁽³⁶⁾ وقد وجدهم أقل انقيادا لنزع السلاح عكس جيرانهم⁽³⁷⁾ فتوغلوا في وسط الجبال، ورفضوا الاعتراف بالسلطة الفرنسية، ولم يجرؤ شخص على ملاحظتهم في المتاهات الطبيعية التي تحمي إقامتهم وهم من يعرف المخارج، فحاول بيليسي المغامرة، وعند اقترابه لجأ الثوار بعائلاتهم وقطعائهم إلى كهوف الفراشيش التي أمنت لهم محباً حصيناً⁽³⁸⁾ في 17 جوان 1845 بعدما أرهقتهم ملاحقة الجيش الفرنسي،⁽³⁹⁾ وقد احتمت القبيلة بغار الفراشيش، وكان عدد أفرادها أكثر من (1000) شخص بحيواناتهم، ويطلق العدو على أفراد القبيلة اسم الثوار بما في ذلك الأطفال والحيوانات، وتذكر مصادر الفرنسيين أن الغار عبارة عن حصن طبيعي، فإذا تمكن الثوار المسلحون من مدخله فإنهم يظلون أسياد الموقف.⁽⁴⁰⁾

3- وصف مغارات الفراشيش:

تتواجد بالسلسلة الجبلية لمنطقة الظهرة، وتسمى بكهوف الظهرة، وتقع بالضبط في جبال تاوسنان (Taousnan) على بعد (30 كم) شرق مصب الشلف، حفرت بمياه الينابيع في أرض

كلسية تمتد في شكل رواق عميق بطول (180 م)،⁽⁴¹⁾ وقد ورد وصف دقيق لها في جريدة جورنال دي ديبا (Journal des débats) كما يلي:⁽⁴²⁾

"تأخذ شكل حصن طبيعي آمن، وتحتوي على مغارتين: الأولى أساسية لها مدخلين، والثانية لها مدخل واحد، وهذه المخابئ الأرضية مغلقة بالمياه السائلة، ويسمى الجزء الأعلى بالقنطرة لأنه تشكل جسرا هائلا، وتدخلها مياه السيول من فتحة متسعة تأخذ مسار (320 م) وتخرج من الشرق على مسار (70 م) أسفل سدّ لتعود إلى واد الفراشيش من معبر آخر بـ(100 م)، ويشكل مدخل ومخرج المياه تحت القنطرة أبوابا للمغارة الكبرى التي يبلغ طولها (320 م) في شكل رواق طويل على (02 م) كمعدل عرض، والارتفاع المتوسط هو (04 م)، وتضم بعض الغرف أكبرها تبلغ (16 م) طولاً، و(08 م) عرضاً، ويتشكل السطح من كتل كلسية مع وجود منحدرات ما بين (02 م) إلى (05 م) إرتفاع أين تجعل الحركة داخل المغارة صعبة وخطيرة، وعلى بعد (80 م) إلى الغرب توجد فتحة ثانية، إنها المغارة الأخرى."

وقد تشكلت هذه المغارات بواسطة السيول الغزيرة التي حفرت قنوات أرضية تستغلها مختلف القبائل في طمر مؤنّاهم وعدّاهم وممتلكاتهم، كما تلجأ إليها مع حيواناتهم،⁽⁴³⁾ ويفيد الوصف أن المغارات حصينة تؤمن الحماية للاجئين، وتضمن لهم السيطرة على الموقف أثناء الهجوم بترصد كل من يدخل إليها، كما أنّها لا تسمح بدخول قوات ووسائل هجوم منظمة بحكم ضيقها.

4- محاصرة قبيلة أولاد رياح:

لما لجأت قبيلة أولاد رياح إلى غار الفراشيش في جبال الظهرة وسط الغابات الكثيفة كانت مستعدة لحصار قد يطول ويهق جيش الاحتلال، لكنها لم تضع في حساباتها الطبيعة الدموية والوحشية لقادته الذين يلجأون إلى أفطع الوسائل في حروهم.

في 18 جوان 1845 أصر بيليسي على إخضاع أولاد رياح فقاد فيلقان للمشاة، وسرية للخيالة، ونصف مجموعة من جنود المدفعية، ومفرزة لجنود سلاح الهندسة، وفرقة إسعاف واتجه نحو كهوف غار الفراشيش وحاصره من كل النواحي،⁽⁴⁴⁾ وطالب القبيلة بالاستسلام فأجابته

بالرصاص.⁽⁴⁵⁾ وتشير بعض المصادر الفرنسية أن ببليسي أرسل رسلاً إلى أولاد رياح يعدهم بالأمان وحرية أملاكهم لكنهم رفضوا وقتلوا واحداً من الرسل فقرر حرقهم، وكانت اللهب جاهزة،⁽⁴⁶⁾ فقام العقيد الشجاع رافع راية الحضارة والإنسانية بجلب أكداس الحطب وأحاط بها الغار، وأخذ في إيقادها عند المداخل ليحجر القبيلة على الاستسلام أو الموت اختناقاً الدخان،⁽⁴⁷⁾ فبدأ يرمي القذائف على الغرفة الموجودة أعلى المغارة،⁽⁴⁸⁾ مقلداً العقيد كافينياك⁽⁴⁹⁾ (Cavaignac) - في الهولوكوست الذي سبقوا فيه الألمان - الذي قام بحرق قبيلة بني صبيح⁽⁵⁰⁾ بالشلف سنة 1844 عندما رفضت الخضوع للسلطة الاستعمارية، وكان قرار الحرق قد اتخذ من قبل مما يعكس الطبيعة الوحشية لببليسي وقائده ييجو الذي أمره في 11 جوان 1845 بحرقهم إذا لم يعلنوا خضوعهم ويسلموا سلاحهم فكتب إليه: "إذا لجأ هؤلاء الأوغاد إلى كهوفهم، افعل مثل كافينياك في صبيحة، شدد في حرقهم مثل الثعالب"⁽⁵¹⁾

" Si ces gredins se retirent dans leurs cavernes, imitez Cavaignac au Sbehas, fumez-les à outrance comme des renards"

وقد ادعى ببليسي أنه أُجبر على فعل ذلك لأن ضيق المغارة سيؤدي إلى موت كل رجاله قبل دخولهم إليها،⁽⁵²⁾ وفي الليل تمركز الجنود في مواقعهم لإفشال أي محاولة للهرب وضاعف العقيد النار، وكان الليل مقمراً مما سهّل عملية المراقبة، ومع ذلك فرّ عربي من الغار عن طريق الوادي المتصل به بعد أن أصيب برصاصة، ووصل إلى قائد الزريقة سيدي العربي ليخبره أن القبيلة في حاجة إلى الماء.⁽⁵³⁾

وفي اليوم الثاني 19 جوان تواصلت النيران على مداخل المغارات، ووصل شيخ الزريقة إلى قائد الجيش كرسول يمثل أولاد رياح لتبدأ محادثات شكلية عرض فيها ببليسي الأمان، وتعهد باحترام حريتهم وأملاكهم، ولأن الفرنسيين مصممون على ارتكاب المحرقة راحوا يبررون فشل المحادثات مع الثوار بأن هدفها لم يكن إلا كسب الوقت والسماح لهم بإدخال بعض القطعان التي بقيت خارجاً إلى المغارة،⁽⁵⁴⁾ وهذا رغم وجود مختلف وحدات الجيش الفرنسي التي تحيط بالمغارة ومنطقة الظهرة كلها.

تفنن بيليسي في تكويم الحطب عند مداخل الغار طوال اليوم الثاني، وأصر على الموت الزؤام خلال ربع ساعة أو الاستسلام، وضاعف عملية التدخين في مداخل الغار "عملية تجميع العرب وشوائهم على النار بدم بارد" واستمرت النار في الليلة الثانية،⁽⁵⁵⁾ حيث كانت النار تُدفع بكثرة من الساعة الثانية والربع زوالا إلى غاية الساعة الثامنة مساءً،⁽⁵⁶⁾ مما يعكس روحا قاسية كانت تستمتع بالام الجزائريين المحتضرين، فقد كانت أكداس الحطب التي تُرمى كالطعم الجاذب لإخراج الجزائريين من المغارة بينما ترصد الجنود، وحاصروا كل الطرق في انتظار خروج العدو مدفوعا بالنار، لكن بعد ساعات لم يظهر عربي، فقط كان هناك صياح وتأوه يدوي في المكان، ثم ساد الصمت.⁽⁵⁷⁾ وتوقفت كل حركة داخل المغارة دليلا على موت من فيها، فقد وقع تدافع كبير جراء الاختناق بحثا عن هواء نظيف من طرف القبيلة والحيوانات الهائجة التي رفست بأقدامها كل من وجدته أمامها.

وقبل طلوع نهار 20 جوان بنحو ساعة وقع انفجار مهول في قلب الغار، وكان ذلك إعلانا باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار الذي تحاصره النيران والدخان منذ يومين وليلتين،⁽⁵⁸⁾ وقد وصف كاميل روسي (Camille Rousset) هذا المشهد الرهيب بالعبارات التالية: "كان الحريق قد وصل إلى أمتعة اللاجئين، وفي الليل خيل للجنود أنهم يسمعون ضجة لا تكاد تبين، وصيحات خافتة، ثم ساد صمت عميق، وفي وقت مبكر من الصباح استطاع بعض الرجال أن يخرجوا من المغارات فسقطوا مخنوقين الأنفاس أمام الحرس، وكان الدخان الذي انتشر في المغارات كثيفا مؤذيا إلى حد أن الجنود لم يتمكنوا في بداية الأمر من الدخول"⁽⁵⁹⁾

ويضيف: "على أننا كنا بين الحين والآخر نرى مخلوقات بشرية مشوهة تخرج من المغارات زحفا على البطون فيحاول آخرون ممن بقي متمسكا بمبادئه إلى آخر رمق أن يمنعوهم من الخروج، وحين تمكنا في آخر الأمر من زيارة ذلك الجحيم بعد أن خمدت فيه النيران عددا أكثر من خمسمائة من الضحايا ما بين رجال ونساء وأطفال، وقد أصيب جميع الحاضرين بوجوم شديد لهول الفاجعة"⁽⁶⁰⁾

وبعد انطفاء النار دخل الجنود المغارات فوجدوا مظهرها رهيبا (800) جثة ملقاة على الأرض، نساء، أطفال، شيوخ، آلاف الأغنام والماعز اختنقت مثل مالكيها، أمهات متصلبات

متشجعات على الجدران رافعات لأبنائهن المختنقين نحو شقٍ لاستنشاق هواء نظيف، وفي الأرض شيوخ وفتيان ممدّين،⁽⁶¹⁾ كما وصف مصدر آخر المشهد: "صمت محزن ومتقطع لحشرات بعيدة، في المدخل حيوانات غُطيت رؤوسها لكي لا ترى ولا تجار مرمية محروقة، وهناك أم مختنقة في وقت كانت تدافع عن ابنها ضد هياج ثور، وهناك جثث عارية يخرج الدم من أفواه أصحابها، أطفال رضع اختنقوا مع المؤن، وآخرون اختنقوا تحت ملابس أمهاتهم، وفي الأخير كتل من اللحم الكثير تم الدّوس عليها أثناء المعركة الداخلية شكلت نوعاً من العصيدة البشرية، وقبيلة أولاد رياح لم تعد موجودة".⁽⁶²⁾

إنها معركة في غاية الحسة والفضاعة لم تُطلق فيها ولو رصاصة أراد بها صاحبها شرف إخضاع القبائل الثائرة فخلف بعمله المخزي (780) جثة من الضحايا البريئة بين رجال، ونساء، وأطفال مفككة الأوصال، ممزقة الأشلاء تحت أقدام الثيران والحيوانات التي دفعتها غريزتها نحو الباب فداست كل شيء ثم لقيت حتفها، ومن أقطع ما شوهد داخل الكهف رجل أسلم الروح وهو ممسكٌ بقرن أحد الثيران دفاعاً عن امرأته وابنه، وقد مات الرجل والمرأة والولد والثور وهم على ذلك الوضع.⁽⁶³⁾

وقد اختلفت المصادر الفرنسية حول عدد الضحايا فجريدة جورنال دي ديبا (Journal des débats) كتبت أن الضباط عدوا (499) جثة في المغارة الكبرى، و(30) جثة في المغارة الأخرى،⁽⁶⁴⁾ بينما يتفق البعض أن عدد المختنقين تجاوز الألف، وبعضهم جعل الرقم (750) جثة، وبعضهم ألفاً، وبعضهم (800)، أما التقرير الرسمي فقد تحدث عن أكثر من (500) شخص، ولما قام بيليسي بنفسه بعملية العد فإذا بالرقم وصل إلى (600)، ولاحظ أحد الكتاب أن هذا الرقم لم يأخذ في الحسبان الأطفال الرضع الذين كانوا ملتصقين بأثداء أمهاتهم، أو داخل ثيابهن، وأهمّل عدد الجثث التي كانت متراكمة فوق بعضها،⁽⁶⁵⁾ ولو افترضنا أن عدد اللاجئين إلى المغارة كان ألفاً، والنظر إلى أنه لم يخرج منها بعد الحرق إلا حوالي ستين (60) شخصاً مات أربعون منهم في الحال، وبقي عشرة (10) في حالة خطيرة، وعشرة (10) فقط استطاعوا التغلب على الموت⁽⁶⁶⁾ فإن العدد يفوق (980) ضحية.

5- صدى المحرقة في الأوساط الاستعمارية:

لا شك أن ضباط جيش الاحتلال كانوا يعملون بحرية مطلقة في الجزائر، وارتكبوا مجازر فظيعة ضد المقاومة الوطنية أو السكان العزل كقبيلة العوفية بوادي الحراش 1832 التي دُبحَت عن آخرها ظلما (70) ضحية بأمر من القائد العام لجيش الاحتلال الدوق روفيقو (Duc de Rovigo)، لكن أن يتجاوز القمع والتنكيل أعراف الحروب ويصل إلى إحراق الناس وهم أحياء فهذا أمر يفوق حدود الوحشية، فقد طبق بيليسي وقبله كافينياك بعام لأول مرة طريقة تشبه الإعدام في غرف الغاز مع الاستعاضة عن غرف الاختناق بالمغارات، وعن الغاز بدخان النار التي كانت توقد عدة ساعات بل عدة أيام.⁽⁶⁷⁾

وقد أدت هذه المأساة الفظيعة في فرنسا إلى شعور بالاشتمزاز والنفور،⁽⁶⁸⁾ كما أحدث هذا الإعدام الرهيب ذهولا كبيرا وإدانة لقيادة العقيد بيليسي من طرف الغرفتين والصحافة التي وصفت الحرب بالوحشية وغير المشرفة للجيش،⁽⁶⁹⁾ ووجدت المعارضة في هذا الحادث فرصة للهجوم على الحكومة، وصرخت الجرائد بكل مقت وكره معلّقة أن بيليسي يعمل بعيدا عن العدالة،⁽⁷⁰⁾ فهي تنتقد عمل بيليسي وغيره من الضباط دون أن ترفض الاحتلال، وتنظر بعين النقد للسياسة الاستعمارية في الجزائر دون أن تنظر إلى واقع الجزائر المستعمرة. أما وزير الحربية المارشال سولت (Soul) الذي تتبعه الجزائر إداريا فقد حاول إخفاء حجم الجريمة بالتكتم عن التقرير الذي جاءه من بيليسي⁽⁷¹⁾ لكن أمره فُضح فاستنكر وتأسف عليه أمام غرفة باريس لكنه قال فيما بعد: "إن للحرب ضرورتها، وربما لو كنت في مكان العقيد لم أكن لأتصرف بشكل مختلف"⁽⁷²⁾ مما يعكس الرغبة المشتركة لدى ضباط جيش الاحتلال في إبادة العنصر الوطني متجاوزين كل المفاهيم الأخلاقية والإنسانية.

أما بيجو فقد بقي متمسكا أمام الرأي العام حيث أيد هذا العمل الفظيع، وتحمل كقائد عام كل المسؤولية،⁽⁷³⁾ ودافع عن بيليسي بحماسة، وانتهى بتحقيق انتصار على المعارضة، وشيئا فشيئا انتهى الهيجان، لكن بقيت ميزة القسوة والبربرية تضغط على ذاكرة العقيد.⁽⁷⁴⁾ وفي رسالة وجهها بيجو إلى سولت في 14 جويلية 1845 بين أن هذه الوسيلة المتطرفة لم يلجأ إليها بيليسي

إلا بعد أن استوفى كل مصادر التفاهم، ومن متطلبات الحرب استخدام كل الوسائل الحازمة مهما كانت لتحقيق الهدف،⁽⁷⁵⁾ والملاحظ أن في عرف بيجو وضباطه طلب الاستسلام أو الموت هي أهم وسائل التفاهم، وبعد أن شرح بيجو طبيعة تضاريس الظهرة وكهوفها ذكر وزيره بما قام به كافينياك في السنة الماضية مع قبيلة صبيحة عندما حاول استخدام الوسائل العادية فحسر ضابطا، فأضرم النار في المغارة التي لجأت إليها، وقال بأن الصرامة التي يستعملها هو وضباطه ستكون فعالة وتضمن احتلالا سهلا، واستقرارا طويلا، وأن الضرب بقوة مرة واحدة خير من الضرب كثيرا.⁽⁷⁶⁾ هذه هي عقيدة ضباط جيش الاحتلال يبررون ارتكابهم لجرمة بارتكاب جرمة أخرى قبلها وكأنهم يتنافسون في ذلك للفتك بأكبر عدد ممكن من السكان.⁽⁷⁷⁾

أما صحيفة الديبا (Journal des débats) فقد امتدحت ضباط الجيش على عملهم في الجزائر،⁽⁷⁸⁾ وروت أحداث محرقة الفراشيش وفق الرؤية الاستعمارية، وكتبت بأنها ستوقف كل الكلام الساخط على ضباط الجيش الإفريقي الذين بذلوا جهدا لأجل منع هذه الكارثة الفظيعة بدون فائدة، والتي تُصنّف ضمن الأعمال الوحشية في الحرب،⁽⁷⁹⁾ وحملت قبيلة أولاد رياح مسؤولية المحرقة حيث برّرت أنها كانت الحل الوحيد الذي تركته أمام بيليسي فكتبت: "كانت ثلاث وسائل أمامنا لجلب العدو لمصالحة؛ إما الهجوم بقوة عسكرية، أو الحصار، أو حرقهم لإجبارهم على الخروج من المغارة، أما الهجوم فيؤدي إلى خسائر كبيرة من الفرنسيين فتم إبعاد هذا الحل، وأما الحصار فلم يكن قابلا للتطبيق بحكم المون التي تمتلكها القبيلة وتجعلها تقاوم الحصار، فلم يبق إلا الحل الثالث وهو استعمال النار في مدخل المغارات لنجبر الثوار على الخروج مثل المجاعة في مدينة محاصرة"،⁽⁸⁰⁾ وأهملت الجريدة لنظرهما الاستعمارية في تفسير الأحداث أن الحصار كان وسيلة مهمة، وأن بيليسي كان بإمكانه أن ينتظر بعض الوقت لأن القبيلة كانت ستخرج لا محالة مادامت في حاجة إلى ماء.⁽⁸¹⁾

وتدعي الكتابات الفرنسية أن بيليسي لما استعمل النار في مدخل المغارات أراد إخافة القبيلة لكن الوقت كان متأخرا فحلت الكارثة،⁽⁸²⁾ وهل تكون الإخافة بإشعال النار لمدة أربع وعشرين ساعة؟ إن بيليسي فعل فعلته بدم بارد وبتعمد واضح لأن عملية التدخين كانت تجري

بانتظام وتفنن.⁽⁸³⁾ وبموافقة بيجو الذي دافع عن بيليسي: "إن العقيد اعتقد بأن اللهب التي رماها ستخرجهم، وفاوضهم لمدة خمس ساعات، وقتلوا مفاوضا فواصل النار حتى تلاشى أولاد رياح بعنادهم القاتل."⁽⁸⁴⁾ ولم يذكر بيجو أنه أعطاه الأمر بحرقهم في مغارهم كالشعالب في 11 جوان 1845 إذا رفضوا الخضوع. كم ادّعت بعض المصادر الفرنسية أن المحرقة كانت حادثا غير متوقع وغير مقصود تسبب في موت عدد من الضحايا، كان العقيد أول المتأثرين والمتأسفين عليه،⁽⁸⁵⁾ وحاولت نفس المصادر تبرئة بيليسي معللة سبب اشتعال النار في المغارة بدوران الهواء بسرعة مما أدى لكثرة دخانها فجزعت الحيوانات ودهست حراسها، وأخذ الأطفال والنساء في الصراخ والجري في كل مكان يطلبون الخضوع الذي رفضه الرجال، وفي هذا الوضع بدأ الموت يعمل عمله، وأضافت أن وراء الخشونة والحزم فإن بيليسي يملك قلبا نبيلًا.⁽⁸⁶⁾

كما التمس بعض المصادر العذر لبيليسي على جرمه الفظيع وكتبت عنه وعن كافينياك: "إذا كان هؤلاء الضباط لم يجدوا في قلوبهم شيئا يمنعهم من الوصول إلى آخر حدّ تسمح به القوانين، فمن المحتمل أن الفظاظة المرتكبة من طرف الثوار لا تسمح بالعفو"⁽⁸⁷⁾ فأصبحت مقاومة الخضوع وسياسة نزع السلاح جريمة تفوق قدرة الغزاة على العفو، وتفوق حتى جرائمهم. وبعد أن سردت الديبا (Journal des débats) روايتها للحادثة المشؤومة لغار الفراشيش تساءلت: "أمام هذا الحادث المشؤوم، والذي جعلته الظروف لا مناص منه، نحن نطالب إذا كانت هناك وسيلة لتجنب هذا القرار الشنيع الذي نأسفنا على نهايته"⁽⁸⁸⁾

خاتمة:

إن هذه المحرقة تعكس طبيعة جيش الاحتلال الذي ادّعى قاداته أنهم ينشرون الحضارة، بأنه جيش همجي لا تحكمه أخلاق ولا ضوابط ولا شرف، كما تعكس اتساع وقوة المقاومة الوطنية في كامل الجزائر وخاصة منطقة الظهرة التي قاومت بشدة الغزو الاستعماري وعارضت نزع السلاح حيث أجبرت المارشال بيجو على الخروج من العاصمة مقر قيادته لأجل قمعها وإخضاعها ونزع سلاحها، كما تبين الطبيعة الحربية لقبيلة أولاد رياح التي رفضت نزع السلاح والاعتراف بالسلطة الاستعمارية، وفضّلت الموت حرقا وخنقا على الاستسلام للعدو والتنازل عن شموخها وإبائها.

كما تعكس الجريمة إجماع الحكومة الفرنسية على مساندة جيش الاحتلال في وحشيته وقمعه للمقاومة الوطنية حيث جندت السلطات الاستعمارية صحافتها لتبرير الجريمة وتحميل الضحايا كامل المسؤولية، لأنهم عاندوا أوامر الخضوع ورفضوا الاستسلام مما جعل هؤلاء الضباط في منأى عن العقاب حتى أن بيليسي رقي إلى جنرال ثم مارشال وخلال الستينات أصبح حاكما عاما على الجزائر.

الهوامش:

في 1784/10/15 وتوفي بباريس في 1849/06/10، مارشال فرنسا Limoges ولد في 1Thmas Robert Bugeaud -
(C.H. DIDEVILLE:Le Marechal Bugeaud d'après sa correspondanceintime et des documents inédits 1784-1849,t 3,Librairie de Firmin-Didot,Paris,1882,p 1.) ودوق ايسلي.أنظر:

حاز لقب دوق ايسلي بعد انتصاره في المغرب الأقصى 1844، تولى الحكم في الجزائر بين 1841-1847 اتبع سياسة القهر ضد الجزائريين، صاحب سياسة السيف والحراث المعتمدة على الاستيطان واغتصاب الأراضي، وبأسلوب الإبادة تجاه المقاومة الوطنية أحرز على لقب قاهر الجزائر وعلى عصا المارشالية بعد محرقة غار الفراشيش.أنظر: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1900)، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص 227.

2- نفسه: ص 195.

3- نفسه: ص 217.

4-Léonce ANDRE:les compagnes d'Afrique,récits populaires et anectodiques,Paris,1868,p288.

5-Desjobert:!'Algérie en 1846,Guillaumin libraire-éditeur,Paris,1846,p16.

6- معركة إيسلي 14 أوت 1844 بالأراضي المغربية، هزم فيها المغرب بقيادة محمد ابن السلطان عبد الرحمان أمام قوات المارشال بيجو الذي حاز على لقب دوق إيسلي بعد هذا النصر.

7-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص 218.

8-Derrecagaix:lemarechalPéllissier et les asphyxiés des grottes du Dahra,la revue hebdomadaire,t 7,juillet 1892,Paris,p 456.

9- تقول المصادر أنه من المغرب الأقصى والضبط من رودانت، من أتباع الطريقة الطيبية بناحية وزان، و كان يصطحب معه معزة يشرب حليبها فسمي ببومعزة أما اسمه فهو محمد بن عبد الله، كان في نظر الفرنسيين نموذجاً للمحارب المتعصب، حل بالجزائر سنة 1838 ونزل بناحية الشلف، بعد الضغط على الأمير عبد القادر بدأ ببومعزة الجهاد واستخدم طريقة قتل المتعاونين مع الاستعمار كالقياد والأغاوات، تنقل بين 1845-1847 في نواحي عديدة من الجزائر: الظهرة، الشلف، فليطة، الونشريس والصحراء. جرح جرحاً بليغاً في واد قصي(Ksa) في 1846/03/15 وأجبر على التوقف بعد أن قتل معظم أنصاره، ثم فر إلى الصحراء وقام بإثارة سكان الزيبان في الجنوب القسنطيني خاصة أولاد جلال أين هزم في 1847/01/10، حيث عاد إلى الونشريس وأسر في الشلف 1847/04/13.أنظر:

) Ferd hugonnet:Français et Arabes en Algérie, Ferd Sartorius édit,Paris,1860,p221-222(

بعد هذا التاريخ سجن في فرنسا، وبعد إطلاق سراحه سنة 1849 توجه إلى المشرق العربي، وانخرط في الجيش العثماني في حرب القرم. للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص 291-292.

10-Léonce ANDRE:Op .Cit,p 288.

11- الظهرة تقع بين البحر والشلف ومن تنس حتى مصب النهر بطول حوالي (200 كم)، وعمق (80 كم) أو أكثر، وهي من أغنى المناطق في إقليم الجزائر، تقطنها قبائل محاربة منها قبيلة أولاد رباح. أنظر:

Achille FILLIAS:Histoire de la conquête et de la colonisation de l'Algérie 1830-1860,Arnauld de Vresse libraire-éditeur,Paris, 1860,p 314.

12-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص218.

9.Léonce ANDRE:Op .Cit,p 28-13.

14- مدارس دينية تعمدت المجاهدات والأذكار والزهد ونحوها في التقرب إلى الله، بدأت في الانتشار في الجزائر منذ القرن 16م وتوسعت في النصف الثاني من القرن 19م وبداية القرن 20م، أهمها القادرية، الشاذلية، الدرقاوية، الرحمانية، الستوسية والبيجانية، لعبت دورا بارزا في مواجهة الاستعمار بتغذية فكرة الجهاد وحافظت على التعليم العربي الإسلامي. أنظر: نور الدين أبو لحية: جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية والتاريخ العلاقة بينهما، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، ط1، 2015، ص74.

15-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص228.

16- Berard:Les deux villes de Tenez et Boumaaza,Challamel Ainé libraire-commissionnaire, Paris,1864,p 34.

17-Ferd hugonnet:Op .Cit,p221.

18-Derrecagaix:opcit,p457.

19-Achille Fillias:Op .Cit,p 312.

20-Ferdhugonnet:opcit,p221.

21-C.H. DIDEVILLE:Op .Cit,p 8.

22-Achille Fillias:Op .Cit,p313-314.

23-Bugeaud et autres:compagnes d'Afrique 1835-1848,lettres adressées au maréchal Decastellane,Librairie Plon Nourrit imprimeurs-éditeurs,Paris,1898,p 408.

24-Berard:Op .Cit,p 76.

25-Charles Richard:Etude sur l'insurrection du Dahra,bulletin trimestriel de la société des sciences,belles,lettres et arts du département du VAR,n 3/4,Toulon,1864,p 232-233.

26-M. BLANC:Souvenirs d'un vieux zouave,t 2,2 édition,Paris,1880,p 151.

27-C.H. Dideville:Op .Cit,p14-15.

28-Bugeaud et autres:Op .Cit,p408-409.

29-SAINT-Beuve:Lettres du maréchal Saint Arnaud 1832-1854,t 2,3 édition, Paris,1864,p 25.

30-C.H. Dideville:Op .Cit,p15.

- 31-Péllissier de REYNAUD:Annales Algériennes,t 3,Librairie militaire Dumaine éditeur de l'empereur,Paris,1854,p 166.
- 32-M. BLANC:Op .Cit,p 154.
- 33-Derrecagaix:Op .Cit,p458.
- 34-Achille Fillias:Op .Cit,p314.
- 35-Derrecagaix:Op .Cit,p458.
- 36-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص228.
- 37-Péllissier de Reynaud:Op .Cit,p167.
- 38-Achille Fillias:Op .Cit,p314.
- 39-Derrecagaix:Op .Cit,p459.
- 40-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص228.
- 41-Derrecagaix:Op .Cit,p460.
- 42-Journal des débats: 27 juillet 1845.
- 43-Léonce Andre:Op .Cit,p 292.
- 44-Journal des débats: 27 juillet 1845.
- 45-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص228.
- 46-C.H. Dideville:Op .Cit,p21.
- 47-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص228.
- 48-Journal des débats: 27 juillet 1845.
- 49- Cavaignac جنرال فرنسي ولد بباريس سنة 1802، خدم في الجزائر ساهم في سياسة الاحتلال الشامل باعتماد المجازر وحرب الإبادة، أصبح حاكم عام سنة 1848، توفي سنة 1857.أنظر:شهرزاد شلبي: ثورة واحة العامري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن 19م،مذكرة ماجستير في التاريخ،جامعة بسكرة،(2008-2009)،ص44.
- 50-في 1844 خرج كافينياك في حملة عسكرية على الضفة اليسرى من الشلف متوجها إلى قبائل صبيحة (بني صبيح) التي اعتصمت بالمغارات، وكان أفرادها قد رفضوا جميع الأوامر التي صدرت إليهم بالاستسلام، وعندئذ أصدر الكولونيل أمره بمهاجمة إحدى المغارات بواسطة تفجير لغم، كما أمر بإشعال نار كبيرة أمام مدخل مغارات أخرى، وفي اليوم التالي اضطر المحاصرون الذين مات بعضهم اختناقا على أن يخرجوا.للمزيد أنظر:مصطفى الأشرف:الجزائر الأمة والجمعة،تر حنفي بن عيسى،دار القصبة للنشر،الجزائر،2007،ص112.
- 51-Derrecagaix:opcit,p459.
- 52-Péllissier de Reynaud:Op .Cit,p167.
- 53-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص228.
- 54-Journal des débats: 27 juillet 1845.
- 55-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص229.
- 56-Journal des débats: 27 juillet 1845.
- 57-Léonce Andre:Op .Cit,p294-295.
- 58-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص229.
- 59- مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص112-113.

60- نفسه: ص 113.

61-Léonce Andre:Op .Cit,p295.

62-Achille Fillias:Op .Cit,p315.

63-أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 91-92.

64-Journal des débats: 27 juillet 1845.

65-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 229-230.

66- نفسه: ص 230.

67-مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص 112.

68-Léonce Andre:Op .Cit,p296.

69-Achille Fillias:Op .Cit,p 315-316.

70-Derrecagaix:Op .Cit,p470.

71-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 230.

72-Achille Fillias:Op .Cit,p 316.

73-Ibid,p 316.

74-Derrecagaix:Op .Cit,p457.

75-Ibid,p471-472.

76-Ibid,pp474-476.

77-مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص 112.

78-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 230.

79-Journal des débats: 27 juillet 1845.

80-Ibid.

81-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 230-231.

82-C.H. Dideville:Op .Cit,p21.

83-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 231.

84-C.H. Dideville:Op .Cit,p22.

85-Derrecagaix:Op .Cit,p457.

86-Ibid,p477-478.

87-Péllissier de Reynaud:Op .Cit,p169.

88-Journal des débats: 27 juillet 1845.

من أصول الهوية الجزائرية

الأستاذ سماعيل شعلال، جامعة تيارت

ملخص:

تمثل المرجعية الدينية للغرب الإسلامي على غرار الشرق الإسلامي المرتكز الأساس للهوية الدينية والعلمية الثقافية للمغرب الأوسط (الجزائر حاليا)، وشكل كل من علم العقيدة والفقه والتصوف - أو علم تركية الأخلاق كما يُصطلح عليه - المعين الذي أخذ منه الجزائريون طيلة القرون الخمسة عشر لعمر الإسلام في هذه الأرض الطاهرة، ووقفت هذه المرجعية صامدة أمام محاولات الطمس التي تعرض لها أبناء هذا المصر العزيز عبر التاريخ، وكان للعلماء الذين حملوا لواء هذه العلوم الدور الأبرز في حفظ هذه الهوية، يضاف إليهم ذوي الفضل من الخلفاء والأمراء الذين حموا بسلطانهم عقول الرعية من التشّت والضياع بين شواذ الأفكار والمذاهب، وجنبوهم الوقوع في كثير من فتن الغلو والتشدد والتطرف، والتأويل الخاطئ لنصوص الدين ووقائع الأحداث، فهل ما تزال هذه المرجعية تلقي بظلالها على المجتمع الجزائري، أم هناك محاولات لطمسها من جديد... هذا ما سيحاول الإجابة عليه في هذا المقال إن شاء الله.

SUMMARY:

Like in the east , the religion resources is considered as the foundation of it, the scientific, and the cultural identity for the middle maghreb (algeria). Theology, islamic legislation, and soufisme are the main religious resources in the last fifteen centuries of islam in this purified land. These resources are still stading and resisting the falsfying trials through times in this loving land. It is through the scholars of the religious referances that the identity is conserved in addition to khoulafaa and princes, who by their authority kept people's rational attitudes safe and away from exceptionalism. The question here: Is these references (mentioned above) escisting in the algerian society, or is there any king of denying them? The answer will be in this artical.

تعدّ الهوية ومكانتها في المجتمع على جانب كبير من الأهمية والخطورة، نظرا لتعلقها بالمرجعية الدينية والفكرية العلمية التي ينتمي إليها الوطن، أو بمعنى آخر هي عمدة الأجيال التي لا غنى عنها

في ظلّ التغيّرات الطارئة على المجتمعات الإنسانية؛ فالجزائر ليست بمنأى عن هذه التغيّرات، والواجب إذن التعريف بأصول هذه الهوية الدينية وحمايتها من التزييف والتدليس والطمس الذي قد يطالها، ولا يتأتى ذلك إلا بتحسين الشباب علما ودراية وفهما.

1_ المذهب المالكي:

المذهب الفقهي: هو مجموع الآراء الاجتهادية لإمام من الأئمة الذين دُوت آراؤهم وحُررت، وما تلاه من اجتهادات أصحابه على وفق قواعده وأصوله تحريجا وترجيحا. ويشمل المذهب اجتهادات إمام المذهب، واجتهادات أتباعه من تلامذته ومن تلاهم، بشرط أن تكون هذه الاجتهادات صادرة عن قواعد الإمام وأصوله، بما يجعل الاجتهاد منسوبا للمذهب ومعزوا إليه؛ فمذهب المالكية هو مذهب الإمام مالك بن أنس في آرائه الاجتهادية، ومذهب ابن القاسم وأشهب، وابن وهب، وأصبغ بن الفرج، والقاضي إسماعيل، وابن أبي زيد القيرواني، والمازري، وابن رشد، وابن الحاجب، والقراقي، والشاطبي، وخليل، والخرشبي، والعدوي، إلى غيرهم من علماء المذهب وفقهائه¹.

والمذاهب الفقهية هي مذاهب الفقهاء الأربعة المجتهدين الحنفي، المالكي، والشافعي، والحنبلي، وهي المذاهب المعمول بها عند جمهور المسلمين إلى اليوم والتي كُتب لها البقاء والتغلّب على سواها من مذاهب أهل السنة، كمذهب سفيان الثوري بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، والأوزاعي بالشام والأندلس وغيرهما، ومحمد بن جرير الطبري وأبي ثور ببغداد، في كثير من البلدان وغيرها من مذاهب فقهاء الأمصار².

وكانت الفتيا تؤخذ في عصر الصحابة عن القراء منهم، وهم الحاملون لكتاب الله، العارفون بدلالاته؛ فلما انقضى عصرهم، وخلف من بعدهم التابعون، اتّبع أهل كل عصر فتيا من كان عندهم من الصحابة، لا يتعدّوها إلا في اليسير ممّا بلغهم عن غيرهم، فاتّبع أهل المدينة في الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر. وأهل الكوفة فتاوى عبد الله بن مسعود، وأهل مكة فتاوى عبد الله بن عباس وأهل مصر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين. وأتى بعد التابعين

فقهاء الأمصار كأبي حنيفة ومالك وغيرهما ممن ذكر، فاتبع أهل كل مصر مذهب فقيه في الأكثر، وكان موطاً³ الإمام مالك سببا رئيسا في استفاضة المذهب بالغرب الإسلامي⁴.

وانتشرت المذاهب السنية الأربعة الصحيحة لأن أئمة المذاهب قاموا بشرح الكتاب والسنة، وقام العلماء من بعدهم بالتأليف استنادا على هذه الشروح، وقدّموا بذلك خدمة جليلة للإسلام⁵. وانتشر المذهب المالكي في رقعة واسعة من بلاد العالم الإسلامي شرقا وغربا، وكان للمذهب في البلاد التي انتشر فيها علماء أسهموا بدروسهم ومؤلفاتهم في نمو الفقه ودفعه للأمام، بتقعيد أصوله وتنويع فروعه، وملاحقة حاجات العصر ومشاكله، فكان للمذهب في تلك الآفاق مدارس لها سمّة المجتمع الذي تأسست فيه، ولا سيما في المدينة ومصر والعراق والغرب الإسلامي عموما، وكان من دأب علماء كل بلد تدريس المذهب، حتى استقرّ بين علماء المذهب مصطلح المدنيين والعراقيين والمغاربة⁶.

وارتحل الناس إلى مالك بن أنس رضي الله عنه لطلب العلم من كل قطر فروّوا عنه الموطأ، والحديث، ومسائل الرأي فبلغوا الألف رجل ممن روى عنه، وكان من أشهرهم ابن القاسم وابن وهب وابن مهدي والشافعي وابن الماجشون وابن الفرات وابن عبد الحكم والليث بن سعد وابن حنبل وغيرهم، ومنهم عبد الله بن ثافع الذي أخذ عنه كثير من أهل العلم، ومن أهل المغرب سحنون ويحيى الليثي وتفقه على تلاميذ مالك بالمدينة المنورة جُلّة من علماء المغرب والأندلس، ومن الآخذين علم مالك أهل مصر التي خرجت عددا كبيرا من الفقهاء والمحدثين والعلماء، وبفضلهم وعلى أيديهم تتلمذ كبار علماء إفريقية والمغرب والأندلس⁷.

2_ العقيدة وعلم التوحيد (علم الكلام):

مفهوم الإيمان والعقيدة ينتظم ستة أمور: **أولا-** المعرفة بالله، والمعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العاليا والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون. **ثانيا-** المعرفة بكتب الله المنزلها لتمييز الحقّ والباطل والخير والشرّ والحلال والحرام والحسن والقيبح. **ثالثا-** المعرفة بأنبياء الله ورسله، المختارين ليكونوا أعلام الهدى، وقادة الخلق إلى الحقّ. **رابعا-** المعرفة بالعالم غير المنظور، من

ملائكة وجنّ وما إلى ذلك. خامسا- المعرفة باليوم الآخر، وما فيه من بعث وجزاء، وثواب وعقاب، وجنة ونار. سادسا- المعرفة بالقضاء والقدر، والتالي سير نظام الكون في الخلق والتدبير⁸.

ويهدف علم العقيدة إلى تهذيب السلوك، وتزكية النفوس، وتوجيهها نحو المثل الأعلى، نحو التخلّق بأخلاق الله سبحانه وتعالى، وبأخلاق أنبيائه ورسله الأطهار عليهم السلام. وقد حدّثنا الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه، عن هذا العلم، بأنه الفقه الأكبر وهو أساس الفقه في دين الله⁹.

ولمّا حدثت الفتن بين المسلمين، وغلب البغيّ على أئمة الدين، وظهر اختلاف الآراء، والميل إلى البدع والأهواء، وكثرت الفتاوى والوقاعات، والرجوع إلى العلماء في المهمّات، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الأبواب والفصول، وتكثير المسائل بادلّتها، وإيراد الشبه بأجوبتها، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات، وتبيين المذاهب والاختلافات. ولأنه إنّما يتحقّق بالمباحثة وإدارة الكلام بين الجانبين، وغيره قد يتحقّق بالتأمّل، ومطالعة الكتب، ولأنه أكثر العلوم خلافا ونزاعا فيشتدّ افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والردّ عليهم، ولأنه ولقوة أدلّته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من العلوم. كما يقال للأقوى من الكلامين: "هذا هو الكلام"، ولأنه لا يثنائه على الأدلة القطعية المؤيّد أكثرها بالأدلة السمعية أشدّ العلوم تأثيرا في القلب وتغلغلا فيه، فسمي بالكلام المشتق من الكلّم، وهو الجرح. وهذا هو كلام القدماء. ومعظم خلافه مع الفرق خصوصا المعتزلة الذين توغلّوا في علم الكلام، وتشبّثوا بأذيال الفلاسفة في كثير من الأصول وشاع مذهبهم فيما بين الناس. وعمل أبو الحسن الأشعري ومن تبعه على إبطال آراء المعتزلة، وإثبات ما وردت به السنّة، ومضى عليه الجماعة فسُمو أهل السنّة والجماعة¹⁰.

وهذه هي جهات شرف العلم لا تعدوها، فهو إذا أشرف العلوم¹¹. والإمامين الجليلين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي¹² انتصبا دليلين على طريق السلف الصالح ينافحان عن معتقداهم ويذيان عن الكتاب والسنّة، وهرع العلماء لنصرهم، وانتهضوا لتأييدهم ونشر

طريقتهم¹³. واشتهر الإمامان الأشعري والماتريدي بمعرفتهما الواسعة بعلم العقيدة الذي ورثاه عن أئمة المذاهب الأربعة الصحيحة، حيث قاما بنشر المعرفة العقائدية لأهل السنة، وهما العمدة في ذلك¹⁴.

وانتشر علم الكلام والعقيدة على مذهب الإمام الأشعري بالمغرب والأندلس عن طريق جُلّة من العلماء منهم إبراهيم بن عبد الله أبو إسحاق الزيدي¹⁵ المعروف بالقلانسي، وكان عالما بالكلام، والردّ على المخالفين، والردّ على الرافضة¹⁶، ومن الذين كان لهم بالغ الأثر في نشر هذا العلم ببلاد المغرب الإسلامي، محمد أبو بكر الباقلاني (ت 403هـ)، وهو من أعلام الأشاعرة البارزين¹⁷. ويعدّ أبو بكر الباقلاني من أبرز المتكلمين الأشاعرة الذين كان لهم أثر كبير في إدخال الأشعرية إلى إفريقية وإرساء دعائمها، فبعد اشتهاؤه في العراق قصده علماء القيروان للأخذ عنه، وشدّوا الرحلة إليه لكونه فقيها من فقهاء المالكية الكبار، وكونه من النظار الأوائل للأشاعرة. قال ابن عساكر: "وكان القاضي أبو بكر فارس هذا العلم مباركا على هذه الأمة، وكان يلقّب "شيخ السنة ولسان الأمة"، وكان مالكا فاضلا متورعا ممن لم تحفظ عليه زلة قط، أو انتسب إليه نقيصة"¹⁸.

وهناك تلميذان لأبي بكر الباقلاني، وإليهما يرجع الفضل في تأسيس المدرسة الاشعرية بالقيروان هما: أبو عبد الله الحسين بن حاتم الأذري¹⁹، وأبو طاهر البغدادي، وخلف الباقلاني بعده من تلاميذه جماعة تفرّقوا في البلاد أكثرهم بالعراق وخراسان ونزل منهم إلى المغرب رجلان أحدهما أبو عبد الله الأذري، وبه انتفع أهل القيروان وترك بها تلاميذ مبرزين مشاهير، وكان رجلا ذا علم وأدب، والثاني أبو طاهر البغدادي الناسك الواعظ، كان رجلا صالحا شيخا كبيرا، وكان أبو عمران الفاسي يقول: "لو كان علم الكلام طيلسانا ما تطيلس به إلا أبو طاهر البغدادي"، ومن المثبتين للمذهب الأشعري بإفريقية أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني وأبو الحسن القابسي، وكان هذين العَلَمَين أثر كبير في ذلك بفضل التلاميذ والأتباع²⁰.

والشيخ المتكلم عليّ بن محمد بن خلف المعافري، المعروف بابي الحسن القابسي، وانتشر علم الكلام عن طريق مصنفاته وتلامذته²¹، وأبرزهم أبو عمران الفاسي الذي أخذ عنه الناس من

أقطار المغرب والأندلس²². يضاف إلى هؤلاء العلامة أبو عمر عثمان بن عبد الله السلاحي، الذي يُعدّ إمام أهل المغرب في الاعتقاد، أخذوا عن ابن حزمه والتادلي²³.

3_ علم التصوف (السلوك وتزكية الأخلاق):

قال الأستاذ الشيخ الإمام القشيري: «غلبت هذه التسمية على هذه الطائفة، فيقال رجل صوفي وللجماعة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف، وللجماعة المتصوفة، وليس يُشهد لهذا الاسم اشتقاق من حيث العربية ولا قياس وإلا ظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال: إنه من الصوف، وتصوف إذ لبس الصوف، كما يقال تَمَصَّصَ إذ لبس القميص، فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، وقول من قال: إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة للصف، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يُحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق، وتكلم الناس في التصوف ما معناه، وفي الصوفي من هو؟ فكلٌّ عبر بما وقع له»²⁴.

والتصوف عبارة عن قصد طريق طائفة مخصوصة سُمُّوا بالصوفية، إذ كان الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم يُسمَّون بالصحابة، فلا فضيلة فوقها، ثم من أدرك الصحابة يسمَّون تابعين، ثم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فسمي خواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين، الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله، الحافظون قلوبهم من طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر لهم هذا الاسم قبل المئتين من الهجرة²⁵.

وقال أستاذ الطائفة الجنيد بن محمد الفقيه: «التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع»²⁶، وقال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل -أحد أكابر هذه الطائفة-: «التصوف الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم»²⁷، وقال أبو الحسين أحمد بن محمد النوري -شيخ الطريقة: «التصوف ترك كل حظ للنفس»²⁸، وقال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد: «التصوف الصبر

تحت الأمر والنهي»²⁹. وقال أبو محمد الجبري: «التصوّف الدخول في كل خلق سني³⁰ والخروج من كل خلق دني». وقال محمد بن علي: التصوّف أخلاق كريمة»³¹، وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: «التصوّف علم تُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية. ويقول الشيخ زروق: التصوّف علم قُصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقّه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول علم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتخليّة الإيمان بالإيقان، كالطّب لحفظ الأبدان، وكالتبحر لإصلاح اللسان إلى غير ذلك»³².

وظهر التصوّف بالمغرب لكثرة رحلات عبّاده إلى بلاد المشرق، الذين التقوا بالمتصوّفة وأخذوا عنهم، ومن هؤلاء موسى بن معاوية الصمادحي الذي صحب وكيعا والفضيل بن عياض وأبا معاوية الضرير، وكان أبو سليمان ربيع بن عبد الله القيرواني كثير السباحة والتغرّب، كما التقى أبو عبد الله المغربي السوسي (ت 279هـ) بعبد الله بن الجلاء الصوفي المشهور بمكة، وتلمذ عليه الصوفيان إبراهيم الخوّاص وإبراهيم بن شيبان، وكان الخوّاص من أقران الجنيد سيّد طائفة الصوفية³³.

ورحل إلى المشرق أيضا أبو هارون الأندلسي المتصوّف المغربي من الأبدال يتأسى بأهل الصفة³⁴. ولقي أبو هارون الأندلسي وأبو عقّال غلبون المتصوّف القيرواني، وأبو عبد الله محمد بن أبي حميد السوسي المستجاب من الأبدال، لقّوا هشام بن عمّار وأحمد بن أبي الحواري الذي يضعه السلمي في الطبقة الأولى من الصوفية. ومحمد بن طيّب المصري المتعبّد بسوسة صحب الخراز من كبار الصوفية ببغداد، وأبو القاسم المغربي تلميذ أبي بكر بن سعدان الذي كان من أصحاب الجنيد وأبي الحسين النوري، ومنهم أبو الخير الأقطع التيناني صحب ابن الجلاء الصوفي وغيره من مشايخ الصوفية، ومحمد السدري، وأبو القاسم الحسن بن مفرج، وأبو عثمان سعيد بن سلام المغربي الذي صحب عددا من أجلاء مشايخ الصوفية كأبي علي الكاتب³⁵.

ومنهم أيضا حبيب المغربي وأبي عمرو الزجاجي والنهرجوري وغيرهم، إذ حملوا إلى المغرب علوم الصوفية وطريقتهم ومذهبهم ونشروا ذلك في أهل المغرب³⁶. ومن أهل طرابلس الغرب من كبار الصوفية على طريقة الإمام الجنيد، الشيخ العارف بالله عبد الله الشعاب (ت 243هـ) أخذ عن

جماعة من الفضلاء، وكان شديد الزهد، ملازما للنسك والاعتكاف متمسكا بطريق السلف، وصدرت منه دعوات مجابة، وحُفظت له كرامات ظاهرة، داعيا إلى الله على هج الكتاب والسنة³⁷.

وعُرف التصوّف في المغرب بالزهد، واصطلاحا ظهر بالمشرق ثم انتقل إلى بلاد المغرب بالحج، وطلب العلم، والكتب والمؤلفات، والتجارة، ويعتبر أبو عمران الفاسي من الذين أدخلوا تعاليم الجنيد إلى إفريقية، أما فصول المؤلفات الصوفية فكانت من حظّ عبد العزيز التونسي، ومن الذين جلبوا التصوّف من المشرق أبو يعزى، وأبو مدين شعيب الذي يعتبر أحد أوّاد التصوف بالمغرب الإسلامي، أما بالنسبة للمغرب الأوسط فقد انتشر التصوّف على مدى واسع، ففي كل بقعة منه زاوية أو مقام وليّ صالح، وحلقة ذكر أو شيخ طريقة يدعو إلى التمسك بالشرعية والافتداء بسنة سيّدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم³⁸.

وكان من أوائل من نشر التصوف بالجزائر الشيخ عبد السلام التونسي، وأبو مدين الغوث³⁹، ومن أقطابه عبد الرحمان الثعالبي، وأحمد بن عبد الله الزواوي، وإبراهيم التازي، والإمام السنوسي، وابن زكري، وأحمد زروق، وأحمد بن يوسف الملياني وغيرهم. وانتشر التصوّف بالجزائر نتيجة لعوامل فكرية وسياسية وأخرى اجتماعية، فالفكرية تمثلت في:

1- وجود أعلام صوفية عملوا على نشر هذه الطريقة بكامل المغرب الإسلامي، كأبي يعزى، وأبي مدين، وعبد الحق الإشبيلي، وابن مسرة الذين أثّروا بسلوكهم وعلمهم حيث كانت الناس ترى فيهم أنموذج الصلاح والتقوى، إذ تولّى معظم أعلام التصوف وعلمائه مهمة التدريس. 2- ظلّ متصوفة المغرب على اتصال دائم ووثيق بمتصوفة المشرق، "كأبي مدين الغوث مع عبد القادر الجيلاني"، ويذكر "الغبريني" الكثير من متصوفة المغرب الذين انتقلوا إلى المشرق وأخذوا مختلف العلوم كأبي زكريا يحيى بن محجوبة السطيفي، وداود بن مطهر الوجهاني، وإبراهيم بن ميمون الوجهاني، ويذكر ابن مريم جماعة منهم أخذوا بالشرق ونقلوا تلك العلوم إلى المغرب منهم عبد الله بن عبد الواحد المحاصي الشهير "بالبكاء"، وابن مرزوق الجدّ، ومحمد بن عمر الهواري... واهتموا بالمؤلفات الشرقية كابن النحوي يوسف بن محمد التوزري (ت 513هـ) الشيخ العالم الفيلسوف الصوفي، لقّب بأبي حامد الصغير، كتب كتابه "التفكر فيما يشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات" وعنه أخذ

لقبه. وأبو مدين الغوث كان يدرس "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" للغزالي، وذلك بزاوية أبي زكريا الزواوي ببجاية. والإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ) اختصر كتاب "الرعاية" للصوفي "الحارث بن أسد المحاسبي" ⁴⁰.

وذاع علم التصوف لأسباب عدة منها: 1- سقوط الدولة الموحدية المواجهة للأسبان، فلم يجد الناس عزاء إلا عند الصوفية وزواياهم في حماية أنفسهم وأموالهم وطرقاتهم. 2- الغزو الأسباني لسواحل المغرب الإسلامي، وتحمل مواجهة الغزو إثر سقوط الدولة، الصوفية وذلك بإنشاء الرابطات والزوايا على طول الساحل الغربي. وحتى بعد قدوم الأتراك استمر الصوفية في أداء دورهم الجهادي ومساعدة الأتراك في محاربة الغزو الإسباني، ومواقف أبي طالب المازوني، وأحمد بن ثابت التلمساني شاهدة على ذلك. وقد ذهب كل من "المشرقي" و"الزباني" إلى أن تحرير وهران من الأسبان كان بجموع الطلبة والصوفية المرابطين حول المدينة، لا بعساكر الأتراك، ودعوة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي إلى الجهاد ورسالته في ذلك شاهدة بدورها. ويذكر لنا التاريخ أن زاوية إبراهيم التازي بوهران كانت مليئة بالأسلحة والذخائر. 3- هجرة كثير من صوفية الأندلس إلى الجزائر، وهناك من هاجر إلى المشرق تاركاً أثره وتلامذته وطريقة كاملة، ولعل من أشهرهم "الإشبيلي، والحارلي، وابن سبعين"، وكان تأثيرهم قوياً. 4- انتشار البذخ والترف، وهذا ما أثر على مشاعر الطبقات الكادحة، التي وجدت في الصوفية ملاذاً بعد أن عجزت دولة المرابطين عن معالجة الوضع المتردي اجتماعياً وأخلاقياً واقتصادياً. 5- تراجع القيم الدينية والأخلاقية وأهمها الخاصة والعامة الكثير من مبادئ الدين وسلوكه القويم، وقد حارب الصوفية هذا الانحراف. يقول يحي هويدي: "ففي هذه القرون التي أعقبت تفكك الموحدين وسقوط دولتهم... سرّت في جميع أجزاء المغرب الإسلامي روح غريبة جعلت الشعب يُقبل إقبالاً لم يعرفه من قبل على أمور المجاهدة والكشف، وينخرط في الزوايا والربط ويؤمن بالأولياء وكراماتهم" ⁴¹.

ويذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله "رحمه الله" عن التصوف وعلم الكلام "أن أبرز المنتجين في العقائد عبد الرحمان الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي، ولكن بجاية قد سبقت الجزائر وتلمسان بمدرسة عبد الرحمان الوغليسي (ت 786هـ). ومنهم محمد الهواري وعيسى بن سلامة البسكري

وغيرهم. فكانت "الوغيلسية" في الفقه موضع دراسة واهتمام اللاحقين لفترة طويلة. كما سبقت قسنطينة بمدرسة حسن بن باديس صاحب "السينية" التي تبارى بعض العلماء في شرحها وتقليدها بل والتبرك بها لأنها في مدح الشيخ "عبد القادر الجيلاني" دفين بغداد. وقد امتد تيار هاتين المدرستين شاملا البلاد كلها. فكان في مدينة وهران محمد الهواري وتلميذه إبراهيم التازي، وكان بمدينة الجزائر عبد الرحمان الثعالبي وتلميذه أحمد الجزائري، وفي تلمسان محمد السنوسي الذي أصبح هو نفسه إماما في هذا الميدان وله تلاميذ كثيرون وفي ندرومة "يوسف الندرومي" صاحب "قبس الأنوار وجامع الأسرار"، وفي قسنطينة محمد الزواوي الفراوسني صاحب "المرائي" و"بركات القسنطيني"، وفي بسكرة "عيسى بن سلامة البسكري" وهكذا.⁴²

4_ علماء الجزائر في الفقه والعقيدة والتصوف:

كتاب "عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، الذي صنفه فقيها وقاضيا ومؤرخها أبو العباس الغبريني، ترجم فيه لأكثر من مائة وأربعين من رجال القرن السابع الهجري في العهد الموحد والحفصي، أحفل الحقب بهذه المدينة في علوم الدين من أصول وفقه وتصوف، ونثر وشعر وتاريخ.⁴³ ومن العلماء المبرزين ببجاية الشيخين القاضي أبو علي المسيلي وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي، ومن أجلة العلماء الشيخ الفقيه القاضي العالم المتقن المحدث أبو محمد عبد العزيز بن عمر مخلوف المعروف بـ "خزانة مالك رضي الله عنه" ممن ولي القضاء بمدينة بجاية وبسكرة ثم قسنطينة ثم الجزائر.⁴⁴

وأشهر العلماء ببجاية الشيخ الفقيه المحقق شيخ مشايخ الإسلام في عصره، إمام العباد والزهاد أبو مدين شُعيب الذي كان يشيد بشيخه "أبي يعزى" وكتاب "الإحياء للغزالي" وكان صاحب فنون في العلم، ومن أهل الصفاء وخاصة الأولياء.⁴⁵ تخرج على يده ألف شيخ من العلماء ومن الأولياء.⁴⁶

وقد أورد الشيخ الحفناوي في كتابه "تعريف الخلق برجال السلف" أخبار علماء أولياء البر الجزائري وما يليه من الأقطار كالسودان، والعلوم التي برعوا فيها كالتفسير والحديث والفقه والأصول والتصوف والعربية والبيان وغيرها، والشيخ الذين أخذوا عنهم، وذكر نبذا من أحوال الصلاح فيهم.⁴⁷

ومن العلماء ذوي الجهد في علوم الدين، والتشريع، والأصول، واللغة والادب وغيرها، استيعاباً وتديساً وتأليفاً، ولبعظهم دور خارج الجزائر في الأندلس والمشرق حتى إلى نيسابور في بلاد فارس ابن أبي سحمة أبو الوليد مروان المسيلي (ت 240هـ) كان معاصراً للقاضي المصنف الإمام سحنون بن سعيد القيرواني الذي كان من المدافعين عنه لعلمه ومكانه، ومحمد بن حسين الطبري ولد بطبنة عاصمة الزاب -بسكرة حالياً- وصفه ابن بشكوال بسعة العلم (ت 394هـ). وأبو علي الحسين بن رشيق المسيلي أحد أعلام اللغة والأدب عند المسلمين، حيث اعتكف على الدراسة بالقيروان، وله "شرح على موطأ الإمام مالك"، وكتاب الشهير الفريد "العمدة في صناعة الشعر"، وكتاب "ميزان العقل في تاريخ الدول" توفي بصقلية عام (463)هـ. وأبو العباس أحمد الباغائي (ت مطلع القرن 11هـ) كان عالماً من الاعلام في علوم القرآن وفقه مالك، حتى قال عنه ياقوت الحموي أنه لا نظير له على مذهب الإمام مالك -رضي الله عنه-. والشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي أصله من مدينة المسيلة، وقيل من بسكرة، ومن الذين وقفوا ضد الشيعة العبيدين وكفر كل من يدعو لهم على المنابر، توفي سنة (402هـ)، ومن تأليفه "النامي" وهو شرح لموطأ الإمام مالك. وكتاب "تفسير القرآن الكريم" الذي أخذ عنه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان". وفي كتب العقيدة "الإيضاح في الرد على القدرية"، وله كتاب "الأصول"، و"النصيحة" وهو شرح لصحيح البخاري، وكتاب "الأموال". والشيخ أبو محمد عبد الله الأشيري كان إماماً في الفقه والحديث والأدب وكان الطلبة والناس والأمرء والوزراء يفتخرون بمجالسته والأخذ عنه. والعلامة أبو عبد الله محمد بن علي ابن الرمامة تنقل بين بجاية والجزائر للدراسة والتحصيل ثم انتقل إلى الأندلس لطلب العلم، من تأليفه "تسهيل المطلب في تحصيل المذهب" و"التقصي في فوائد التقصي" و"التبيين في شرح التلقين" وقام بتحقيق كتاب "البسيط" للغزالي، وجمع نكتة ومباحثة. وأبو علي حسين بن علي بن محمد المسيلي، الملقب "بأبي حامد الصغير" تشبهاً بأبي حامد الغزالي "رحمه الله" من أهم تأليفه "التفكير" وهو كتاب في علوم القرآن، و"التذكير في أصول الدين" و"النبراس في الرد على منكري القياس" (ت 580 أو 584هـ). والعلامة محمد بن حامد القلعي (ت 628هـ) أصله من برج حمزة -البويرة حالياً- درس ببجاية على الشيخ أبي مدين شعيب بن الحسين وغيره وتنقل بين عواصم المغرب الإسلامي طلباً للعلم ورواية للكتب

حتى بلغت مروياته مائتين واثنين وعشرين كتاباً، منها "الديباجة في أخبار صنهاجة" الذي اعتمد عليه ابن خلدون في تاريخه. وعدد من المستشرقين مثل ليفي بروفنسال، وعمار الصقلي في كتابه "المكتبة الصقلية" و"عجالة المودع" و"تلخيص تاريخ الطبري" و"شرح مقصورة ابن سريد"، و"شرح الإعلام بفوائد الأحكام" لعبد الحق الاشبيلي و"شرح الأربعين حديثاً النووية"⁴⁸.

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري القلعي، وكان حجة في القراءات والنحو واللغة، وهو شيخ المشايخ بالجامع الأعظم. وأبو محمد عبد الله بن محمد عمر القلعي فقيه محدث ومؤرخ وكان حجة في فقه مالك، من تلاميذه الشيخ أحمد الغبريني صاحب "عنوان الدراية"، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر عيادة القلعي كان محدثاً ومؤرخاً، وعضواً بمجلس القضاء ومشاوراً من أمراء بجاية وديوان القلعة، من تلامذته الشيخ الغبريني، (ت 669هـ). وأبو عبد الله محمد بن الحسين بن علي بن ميمون القلعي (ت 673هـ) نحوي ولغوي أديب، ومؤرخ من تلامذته العلامة الغبريني، وكان يقول الشعر في الزهد، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله:

أَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْنُوا فُؤَادُكَ مُغْرَمٌ *** وَقَلْبُكَ خَفَّاقٌ وَدَمْعُكَ مُسْجَمٌ

وابن الخراط أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعافري القلعي؛ المدرّس والعلم في جامع القصبة والخطيب والإمام به، وفي الجامع الأعظم، وانتفع به خلق كثير. وابن ييكى أبو محمد عبد الكريم بن عبد الملك بن عبد الله بن طيب الأزدي القلعي من علماء بجاية، وأهل الدين والمكانة، دفن بالرابطة التي تحمل اسمه "رابطة ابن ييكى". وابن صمغان أبو عبد الله محمد القلعي تلميذ عبد الحق الاشبيلي متضلّع بالعلوم وكان يُدرّس بداره. وابن منصور أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القلعي كان فقيها وفرضياً وراضياً، والشيخ عمر بن عبد المحسن الصواف الوجهاني عالم وفقه، حجّ واعتمر واتّصل بالعلماء، ودرّس بالأزهر الشريف وتفوّق، رأس في الفتوى برأي راجح، وهو من بني وجهان شرق وادي الصومام. والشيخ عيسى بن أحمد الهنديسي "ابن الشاط البجائي"، متضلّع في علوم الشريعة، وأصولي، وأديب، تولّى الافتاء والإقراء والخطابة بجامع بجاية، وقد تحدّث عنه السخاوي في "الضوء اللامع"، وذكره الشيخ زروق وقال أن له تعليقات على كتاب "مسلم في الحديث"، و"المزوني في نوازل"⁴⁹.

ومن علماء الجزائر البارزين المفسر الكبير محمد بن مرزوق، والعالمين المؤلفين أحمد بن يحيى الونشريسي، ومحمد السنوسي، وصاحب "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وصاحب "البدر المنير" الشيخ محمد المغيلي، وطائفة تعدّ بالآلاف، ومنهم العلماء الشعراء والمؤلفين الفلكيين مثل الشيخين القلصادي وابن قنفذ، والشيخ أحمد المقرّي صاحب "نفع الطيب"⁵⁰. الذي يصف نفسه بانتمائه إلى المذهب المالكي في الفقه، والعقيدة الأشعرية في علم التوحيد وأصول الدين في مقدمة كتابه هذا، الذي ترجم فيه لعدد كبير من العلماء والصلحاء والزهاد والمتصوفة⁵¹.

وتزخر مدينة تلمسان وتفخر بعلمائها وأوليائها الذين ملأت أخبارهم الآفاق، من الذين جمعوا بين الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوّف السني على طريقة المحقّقين. ويعتبر كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم من المصادر البارزة في هذا الفن من التصنيف، حيث جمع سير جُلّة من العلماء والصالحين بالمنطقة وذكر أحوالهم ومؤلفاتهم، وأثنى عليهم وعلى مؤلف الكتاب الشيخ محمد بن علي السنوسي صاحب كتاب العقائد الذي نوّه بالمكانة الخطيرة التي امتاز بها العلماء والأولياء في كل زمان⁵².

وعرفت مدينة قسنطينة ومنطقة الشرق الجزائري عالما بارزا صاحب كتاب "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" وهو الشيخ عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم التميمي القسنطيني (ت 1073هـ) رحمه الله، وهو ابن عائلة ذات تاريخ عريق ومنها العلماء والمتصوفة، والقضاة البارعين، بل منها من ثل الشهادة أثناء الغزو الإسباني لتونس سنة 1535م، والشيخ عبد الكريم أبرز أفراد هذه العائلة علما وعملا وسمعة، هذه العائلة التي كان لها نفوذ روحي كبير، ولهم بقسنطينة زاوية باسمهم، ومدرسة لتعليم الطلبة من الجزائر وغيرها، يتبعون الطريقة الزروقية الصوفية "طريقة الشيخ أحمد زروق" رحمه الله، ويذكر في كتابه شيوخه الذين أخذ عنهم حفظ كتاب الله عزّ وجلّ، والفقه والفرائض وعلم الكلام "العقيدة" والنحو. وقد ترك الشيخ تاليف كثيرة وهي في الدين والأدب والنحو، وله أشعار نظمها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم متوسّلا بها طلبا للشفاء، وامتألاً كتاب "منشور الهداية" بأخبار وكرامات الأولياء والمتصوفة الذين يرى فيهم الشيخ الفكون البركة والصلاح⁵³.

ولقد كان الجزائريون طيلة مدة الجمهورية الجزائرية العثمانية، يتبارون أتركا وعربا في أعمال الخير، ووقف الأوقاف الطائلة على المساجد والمدارس والمنشآت العامة، أما التعليم الابتدائي فكان يلقي في ثلاثة آلاف "كتاب". وقد نبغ في هذا العهد رجال أفذاذ، من أشهرهم عيسى بن محمد الثعالبي، ويحيى بن صالح الملياني صاحب التأليف الشهيرة وسعيد المقرري، وأحمد بن عمار الجزائري، وعمر بن محمد المنقلاقي، وطائفة عظيمة من شيوخ الإسلام وعظماء المدرسين الذين أفادوا بعلمهم وعملهم⁵⁴.

وكان للزوايا والمدارس، والمساجد والمعاهد والمعمرات دورا رائدا وأساس في تكوين هذا الحشد من العلماء والمفكرين والمثقفين، خاصة في الفترة الاستعمارية الأوروبية، إذ تعتبر من أحلك وأظلم فترات تاريخ الجزائر، ويتأكد من خلال ذلك أصالة وعراقة الشعب الجزائري المؤمن والمسلم والمجاهد، الذي شارك بحضارته في إثراء الحضارة العربية الإسلامية⁵⁵.

5_ الحملة الصليبية على الجزائر:

هل تستطيع فرنسا الاستعمارية الجبارة الطاغية، أن تمحو تحت حكم السيف والنار كل هذا التاريخ؟ وأن الجزائريين لا حق لهم في وطن، ولا في جنسية، ولا في علم، إنما هم قوم من الفرنسيين؟ وهذا ما قامت ضده الأمة الجزائرية بدماء الشهداء وأرواح الضحايا في جهاد اشترك فيه الأجداد والآباء والأحفاد، بقيادة الحاج أحمد "باي قسنطينة"، وكانت له مع الجند الفرنسي وقائع مشرقة. وبويع الأمير عبد القادر بن الشيخ محيي الدين الهاشمي بعد مؤتمر عقد بمسجد معسكر، وجاء في الرسالة التي بعث بها أمير المؤمنين إلى لويس فيليب ملك الإفرنسيين يبين له حق الجزائريين المسلمين في الدفاع عن أرضهم⁵⁶.

وعمل الأمير عبد القادر الجزائري منذ البداية على تنظيم التعليم العام ونشره بين القبائل وقد تحدث عن ذلك بقوله: "كان من واجبي كحاكم مسلم أن أدعم علوم الدين وأن أبعثها". وكان الذين يريدون مواصلة تعليمهم بعد ذلك يُرسلون إلى الزوايا والمساجد لتعلم التاريخ وعلوم الدين، حيث قال: «خصّصت للطلبة رواتب على حسب معارفهم ودرجاتهم، وظهر أن العلم هام جدا، فعملت على تشجيعه. ولكي أساعد الطلبة على دراستهم بذلت أقصى جهد ممكن للمحافظة على الكتب والمخطوطات من الضياع»⁵⁷.

والمقابل فإن ما وقع من الفرنسيين في ميادين الحكم، والمجتمع، والاقتصاد، والتشريع، إنما هو محاولة مستمرة لتحطيم الجزائريين وتشيت شملهم وقتل إحساسهم، وجعلهم بلا دين، ولا لغة، ولا أخلاق، ولا علم ولا راية، أي أمة من العبيد في يد شرّ النخاسين⁵⁸. وعملت السلطات الفرنسية على تقويض العائدات والإعانات التي كان يقدمها المحسنون إلى المؤسسات الدينية والقضاء عليها كالمساجد والزوايا والكتاتيب، وساءت بهذا حالة الطلبة بالزوايا ومعهم حالة العلماء والمثقفين في الجزائر⁵⁹.

وامتاز المسلمون بتقاليدهم الخاصة، الموجودة في الدلالات الاجتماعية والثقافية في الحركة الوطنية الجزائرية المقاومة للاحتلال الفرنسي، والتي عرفت بالفعالية المستمدة من فعاليات المؤسسات العربية الإسلامية التي منحت للجزائريين الجانب الروحي، والفكر الاجتماعي السياسي في هذه المقاومة⁶⁰. وقد جمع الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر حول سمعة جدّه أنصار الشخصية الجزائرية برفض التجنس والدفاع والتجمع وراء مطامح الجماهير في السيادة الوطنية، وبعد انتخابه بالمجلس المالي والبلدي استعمل كل صلاحياته للمطالبة بالحق العام للجزائريين المسلمين الذين كان يمثلهم، كما ندد بمساوئ الاستعمار، واعترفت به الحكومة الفرنسية كرئيس للحزب المناهض للفرنسيين، وكزعيم للوطنية العربية، وعوض أن تناقشه قامت بنفيه إلى مصر⁶¹.

وبدون شك فإن المقاومات ضد الاحتلال الفرنسي ساندتها وبطريقة حاسمة اندماج المسلمين في المدينة، ومنهم ثوار المنظمة الخاصة (L'OS)، والراдикаليون بحزب الشعب الجزائري (P.P.A)، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية (M.T.L.D)، والتحرريين لحزب اتحاد أحباب البيان الجزائري (U.D.M.A)، أصحاب المقاومة الشرعية والبرلمانية، لتعباً كل طبقات المجتمع تحت لواء جبهة التحرير (F.L.N) التي قادت الشعب إلى التحرر⁶²، والتي جمعت شتات الحركة الوطنية وسط شعب يعيش بؤساً فظيعاً⁶³؛ فالجزائريون معروفون بالأصول والأنساب والأعجاب، وهم عصبية واحدة هي عصبية الإسلام، وأمة واحدة هي أمة القرآن، وجماعة واحدة هي جماعة القومية الجزائرية، قد اعتنقوا الإسلام دينا منذ القرن الأول الهجري بصفة جماعية واتخذوا العربية لساناً، والسنة المحمدية مذهباً⁶⁴.

وهكذا فإن ما أسفر عنه المحمول في صدور الرجال وبطون الكتب من العلم وتاريخ هذه الأمة المحمّدة، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنّ هوية هذا الوطن واحدة على مرّ القرون الخمسة عشر لعمر الإسلام بأرضها، ومع هذا الإرث الأصيل الذي توارثته أجيال الوطن الجزائري لن تستطيع التيارات الدخيلة، أو المغالطة باسم الدين من أن تعبت بهذا الموروث غير المفترط فيه.

الهوامش:

- 1- أي حاتم - الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت - ط1 - 1432هـ/2011م - صص 18-19.
- 2- تيمور باشا أحمد - المذاهب الفقهية الأربعة - دار الآفاق العربية - القاهرة - ط1 - 1421هـ/2001م - ص 47.
- 3- الموطأ: جمع الإمام مالك رضي الله عنه كتابه الموطأ في نحو من أربعين سنة واشتمل على نحو عشرة آلاف حديث، فلم يزل ينظر فيه كل سنة ويسقط منه حتى بقي هذا. وهو من كتب الصحاح في السنة. قال الشافعي: "ما على ظهر الأرض كتاب أصح من كتاب مالك". أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي - موطأ الإمام مالك - مؤسسة الأهرام - القاهرة - 1998م - صص 12-13.
- 4- تيمور - المرجع السابق - صص 47 - 48 - 68 - 69.
- 5-KHALID-IBAGHDAD - foi et islam - traduit par feyzullah de kamah - wakfiikhlas - istanbul turque - 7 eme édition - 1991 - pp 52 - 53.
- 6- الخليفة عبد العزيز - الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي - دار الحديث الحسنية - الرباط - ط1 - 1414هـ/1993م - ص 256.
- 7- محمد زينهم محمد عزب - الإمام سحنون - تقديم حسين مؤنس - دار الفرجاني - القاهرة - صص 78 - 7985.
- 8- الملا أحمد علي - دراسات في علم العقيدة الإسلامية - قصر الكتاب - البلدة - ط1 - 1406هـ/1986م - صص 13-14.
- 9- المرجع نفسه - ص 14.
- 10- التفتازاني سعد الدين - شرح العقائد النسفية - تحقيق أحمد حجازي السقا - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ط1 - 1407هـ/1987م - صص 10-12.
- 11- المصدر نفسه - صص 8-9.
- 12- الإمام الماتريدي: هو الإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الأنصاري؛ إمام الهدى، وإمام المتكلمين، وهو مصحح عقائد المسلمين، وهو رئيس أهل السنة، ولاصرها والمدافع عنها. وقد ألف الإمام الماتريدي في العقيدة وأصول الفقه وتأويل القرآن الكريم. توفي سنة 333هـ/944م. أبو منصور محمد بن محمد السمرقندي الماتريدي - كتاب التوحيد - تحقيق بكر طويال أوغلي ومحمد آروشي - دار صادر - بيروت - مكتبة الإرشاد - استانبول - 1422هـ/2001م - صص 8-17.

- 13- السنن حمد والعنجري فوزي - أهل السنة الأشاعة شهادة علماء الأمة وأدلتهم - دار الضياء - الكويت - ط 1 - 2006م - صص 73 - 74.
- 14-KHALID - IBAGHDADI - op.cit - pp 59 - 60.
- 15- الزبيدي: رجل صالح فقيه فاضل، له تآليف حسنة، سمع من محمد السوسي، وقرات، وخلق كثير. روى عنه إبراهيم بن سعيد وأبوجعفر الداودي، وغيرهما. (ت 361هـ). ابن فرحون أبو إسحاق إبراهيم بن علي المالكي - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1417هـ/1996م - ص 144.
- 16- ابن فرحون - المصدر نفسه - ص 144.
- 17- المصدر نفسه - ص 363.
- 18- المصلح محمد - الإمام أبو الحسن اللخمي - دار البحوث للدراسات الإسلامية - دبي - ط 1 - 1428هـ/2007م - ج 1 ص 112.
- 19- الأذري: يعرف بالأزدي، وهو الحسين بن حاتم أبو عبد الله الأزدي المتكلم صاحب القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلائي، قدم دمشق وسمع بها أبا محمد بن أبي نصر، وعقد بها مجلس الوعظ. وعقد مجلسه في التوحيد بعدما اشتهرت دمشق بالحشو وكان شيوخها إذا سمعوا كلامه خرجوا وهم يقولون أحد أحد، خرج الأزدي بعد ذلك عن دمشق ونفذ إلى الغرب. أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - دراسة وتحقيق عمر بن غرامة العمروي - دار الفكر - بيروت - 1415هـ/1995م - ج 14 ص 49 - ج 54 ص 188.
- 20- المصلح - المرجع السابق - ج 1 صص 112 - 113.
- 21- المرجع نفسه - ج 1 صص 296 - 297.
- 22- المرجع نفسه - ج 1 ص 422.
- 23- مخلوف محمد بن محمد - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - المطبعة السلفية ومكبتها - القاهرة - 1349هـ - ص 163.
- 24- القشيري أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري الشافعي - الرسالة القشيرية - تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن الشريف - مؤسسة دار الشعب - القاهرة - 1409هـ/1989م - ص 464.
- 25- الأدفوي أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب المصري - الموفي بمعرفة التصوف والصوفي - تحقيق محمد عيسى صالحية - مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت - 1408هـ/1977م - صص 37 - 38.
- 26- القشيري - المصدر السابق - ص 466.
- 27- الأدفوي - المصدر السابق - ص 35.
- 28- المصدر نفسه - ص 36.
- 29- المصدر نفسه - ص 36.

28- سني: أسنائه: رفعه. وسنائه تسنيته: سهله وفتحته. وسنائه: رضاه ودائاه، وأحسن معاشرته. وسني كرضي: صار ذا سناء. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزي - القاموس المحيط - تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - اشراف محمد نعيم العرقسوسي - مؤسسة الرسالة - ط8 - 1426هـ/2005م - ص 1297.

31- الأدفوي - الموفي - ص 37.

32- عبد القادر عيسى - حقائق عن التصوف - دار المقطم - القاهرة - 1426هـ/2005م - ص 23.

33- البيلي محمد بركات - الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس - دار النهضة العربية - القاهرة - 1993م - ص 94.

34- أهل الصفة: كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يابوهم بمسجده ويعوهم. وهم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض. وجعلهم قدوة للمتجدين من الفقراء. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني - حليه الأولياء وطبقات الأصفياء - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1409هـ/1988م - ج1 - صص 373 - 339.

35- البيلي - الزهاد والمتصوفة - صص 94 - 96.

36- المرجع نفسه - صص 96 - 97.

37- محمد الشريف ناصر الدين - الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية - دار البيادق - الأردن - ط1 - 1420هـ/1999م - صص 44 - 45.

38- القاسمي عبد المنعم الحسني - أعلام التصوف في الجزائر - دار الخليل القاسمي - بوسعادة المسيلة - ط1 - 1427هـ - صص 24 - 25.

39- أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري: ولد بشبيلية بالأندلس عام 520هـ - 1126م، هاجر إلى المغرب والتقى بشيخه بن حرزهم العالم الزاهد. تأثر أبو مدين بالإمام الغزالي، وأبو يعزى يلنور ليأخذ عن الأخير التصوف وعلم الباطن بعدما تزود بعلوم الظاهر. توفي رحمه الله عام 594هـ - 1197م، ودفن بتلمسان. بوعزيز يحيى - أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط1 - 1995م - ج1 - ص 13.

40- القاسمي - المرجع السابق - ص 28.

40- هويدي يحيى - دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ط1 - 1965م - صص 28-31.

42- سعد الله أبو القاسم - تاريخ الجزائر الثقافي - دار البصائر - الجزائر - 2007م - ج1 - صص 88 - 89.

43- الغبريني أبو العباس أحمد - عنوان الدراية في عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية - تحقيق عادل نويهض - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط2 - نيسان أبريل 1979م - صص 7 - 8.

44- المصدر نفسه - صص 22 - 32.

45- ابن مريم أبو عبد الله محمد - البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان - مراجعة محمد بن أبي شنب - المطبعة الثعلبية - الجزائر - 1908م - صص 223 - 228.

- 46- الغبريني - عنوان الدراية - صص 25 - 62.
- 47 - الحفناوي أبو القاسم محمد - تعريف الخلف برجال السلف - مطبعة بيبير فونتانة الشرقية - الجزائر - 1326هـ/1906م - صص 1 - 15.
- 48- بوعزيز - أعلام الفكر - ج 1 صص 28-35.
- 49- بوعزيز - أعلام الفكر - صص 35 - 38.
- 50- المدني أحمد توفيق - هذه هي الجزائر - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 2001م - ص 67.
- 51- المقرري شهاب الدين أحمد - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - 1408هـ/1988م - ج 1 ص 1.
- 52- ابن مريم - البستان - صص 1-8.
- 53- الفكون عبد الكريم بن محمد - منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية - تحقيق أبو القاسم سعد الله - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط 1 - 1987م - صص 7 - 24.
- 54- المدني - هذه هي الجزائر - صص 83 - 85.
- 55- بوعزيز - أعلام الفكر والثقافة - ص 7.
- 56- العسلي بسام - الامير عبد القادر الجزائري - دار النفائس - بيروت - ط 3 - 1986م - ص 171.
- 57- المرجع نفسه - صص 57-58.
- 58- المدني - هذه هي الجزائر - صص 86 - 95.
- 59_ YUCEF TURIN - affrontement culturels dans l'Algérie colonial - ENAL - Alger - 1983 - PP 234 - 235.
- 60_ GEORGE ATALIADOROS - la culture politique arabo - islamique et la naissance du nationalisme algérien 1830 - 1962 - ENL - Alger - 1985 - P 21.
- 61- قداش محفوظ - الفرص الضائعة - مجلة التاريخ الإفريقي - المركز الوطني للدراسات التاريخية - الجزائر - عدد 6 - 7 - ديسمبر 1977م - ص 3.
- 62 _ FAROUK BENATIA - Alger agrégat ou cité - préface JAQUE BERQUE - SNED - reghaia - 1980 - P 77.
- 63_ طيفوري رحمان بوزينة أحمد - بنية الأحزاب السياسية في الجزائر - رسالة ماجستير في علم الاجتماع السياسي - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الجزائر - 2006/2007م - ص 61.
- 64- المدني - هذه هي الجزائر - ص 28.

السيرة والمسيرة التعليمية

للدكتور أبو القاسم سعد الله

خالدي مريم، طالبة دكتوراه، جامعة بلعباس

الملخص باللغة العربية:

أبو القاسم سعد الله مفكر ومؤرخ ، واحد أبرز أقطاب المدرسة التاريخية الجزائرية، تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه البدوع بوادي سوف ، بعدها شد الرحال طالبا العلم في العديد من الأصقاع كتونس ، والقاهرة، والولايات المتحدة الأمريكية ،أثرى المكتبة الوطنية بمجموعة من التأليف خاصة في ميدان التاريخ وهو الامر الذي لا يخفى على أي دارس ومهتم بتاريخ الجزائر، و أعمال الراحل أبو القاسم سعد الله؛ لأن أعماله الأكاديمية المتميزة جعلت منه معينا ومرجعا، لا يمكن تجاهله في دراسة تاريخ الجزائر، والحديث عن شيخنا العلامة أبو القاسم سعد الله واسع ومتشعب، بل متعدد المجالات بدايتا بدراسته الادب، وانتهائه بحقل الدراسات التاريخية؛ بالإضافة الى عديد الاعمال المحققة والمترجمة.

الملخص باللغة الإنجليزية:

Abou-Elkacem Saad Allah is a thinker , a historian as well, and one of the most prominent poles of the Algerian History School. He got his first education in his birth area, Albidoua, in Al-Oued district. Later, he moved to various areas to study and sake of knowledge such as Tunisia, Cairo and the USA. He enriched the National Library with a series of his editions in the field of History, a matter that all know about it. Abou Alkecem's work made of him distinct and a reference to everyone having the will to learn about the history of Algeria. It a wide space to make when talking about such a great personality; Abou-Alkacem Saad Allah. However, before the study of history, he had learned a lot about literature and his reviewed and translated work as well. -

السيرة والمسيرة التعليمية للدكتور أبو القاسم سعد الله ————— خالدي مريم

الكلمات المفتاحية: أبو القاسم سعد الله - المسيرة التعليمية - المسيرة التكوينية - المعالم الثقافية - النشأة والتكوين - الدراسة الأدبية والتاريخية - العناية بالنخيل - السيرة الذاتية - الزيتونة - أمريكا - التحول والتوجه التعليمي.

مقدمة:

أبو القاسم سعد الله من أعلام الفكر والثقافة البارزين بالجزائر، عرفته الساحة الثقافية بمجموعة من التأليف التي أثرت المكتبة الوطنية و العربية بها، فلا يخفى على أي دارس ومنهم بتاريخ الجزائر أعمال الراحل أبو القاسم سعد الله، فأعماله الأكاديمية المتميزة جعلت منه معينا ومرجعا لا يمكن تجاهله في دراسة تاريخ الجزائر، والحال فإن رحيل الدكتور أبو القاسم سعد الله عن دنيانا يمثل خسارة فادحة للحياة الثقافية و الفكرية الجزائرية، فقد قدم الراحل لسنوات نموذجاً رائعاً ونادراً للمثقف بعيداً عن مغريات السلطة التي نأى بنفسه عنها طوال حياته. والحديث عن شيخنا العلامة أبو القاسم سعد الله واسع ومتشعب متعدد المجالات لغنى مواهبه وسعة علمه وإطلاعه.

والدارس لسيرة الراحل يدرك حجم و ثراء هذه القامة التي تركت رصيداً ثرياً ومتنوعاً يؤسس لمدرسة متكاملة المعالم والأسس. من هذا المنطلق سنحاول من خلال هذه الورقة العلمية التطرق الى جانب من جوانب هذه الشخصية ألا وهي المسيرة التعليمية لراحل التي تميزت بعصامية وطموح عالي قلبى نظيره، فكيف كان المسار التكويني والتعليمي للأستاذ أبو القاسم سعد الله، وما هي اهم المعالم الثقافية التي ميزت مساره العلمي؟

1- أبو القاسم سعد الله النشأة والتكوين :

تذكر جل المراجع التي ترجمت للأستاذ أبو القاسم سعد الله بأنه ولد حوالي سنة 1930م، بقممار ولاية وادي سوف¹، ونذكر هنا كلمة حوالي لان المعني نفسه لا يحدد بين سنتي

السيرة والمسيرة التعليمية للدكتور أبو القاسم سعد الله _____ خالدي مريه

1930م و 1931م² فيقول " ولد في البدوع بجوار مدينة قمار بوادي سوف ولا يذكر أهله سوى انه ولد في صيف شديد الحرارة عام ترميم الجامع الكبير ومدرسته بقمار، عام 1930م او 1931م³.

وعن البدوع مسقط رأسه يقول " ولدت بمنطقة ذات هواء طلق وهي أكثر من صحراوية، إنما واحات مفتوحة للرمال والرياح، تربتها قاحلة بعيدة الماء غالبا قليلة الإنتاج، معظم إنتاجها غرسات نخيل وشجيرات دخان.... كما اشتهرت سوف أيضا بالحفاظ على اللغة العربية فهي من اللسان الدارج القريب جدا من الفصحى، وأما العلم فيتمثل في احترام أهله والرحلة في طلبه وخصوصا إلى تونس، وأما شظف العيش لا سبيل لأهل سوف إلا الصبر على المعاناة والجوع والتعرض للخطر"⁴.

وعلى غرار باقي مدن الجزائر وبواديها فقد رحب أهل وادي سوف بالطرق الصوفية التي مألأت الفراغ الروحي الذي اصاب الدين والأخلاق، وكان لسكان قمار أيضا حظهم من الحركة الاصلاحية التي شهدتها الجزائر، فرحبوا بزعماؤها ومدارسها وفلسفتها، كما رحبوا بالحركة الوطنية المتمثلة بحزب الشعب، وأسهموا بعد ذلك في الثورة وذلك بتجهيز السلاح والتطوع في جيش التحرير وخوض المعارك.

1-1: عائلته:

ينتسب أبو القاسم سعد الله إلى عرشين كبيرين هما أولاد عبد القادر من جهة الأب وأولاد بوعافية من جهة الأم، عرفت عائلتهم باسم " أولاد علي مسعودة " وعلي هو جد والد أبو القاسم سعد الله الذي عرف بين الناس بأمه فكان يقال له 'علي بن مسعودة'، وعرفت عائلتهم بهذا الاسم — أولاد علي مسعودة — إلى غاية ظهور الحالة المدنية على يد الفرنسيين سنة 1934م⁵ وعندئذ

لقبهم كبير العائلة عبد الله عم أبو القاسم سعد الله بلقب سعد الله، استنادا إلى جدهم (سعد)، فأبو القاسم هو ابن احمد بن علي بن محمد بن سعد بن مبارك بن جحيدر⁶.

وقد كانت نشأته في أسرة فقيرة تمتهن الزراعة، وأهله من أوائل الفلاحين الذين عمروا قرية البدوع بغرسة النخيل، وقد قال أبو القاسم عن نفسه التي تكلم عنها بضمير الغائب مقتا للأثانية " كان عند خروجه إلى الدنيا - يقصد نفسه- وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء " ، كما قال أيضا " أنهم يذكرون عند ميلاده كانوا لا يفترشون سوء الرمال ولا تظله غير سقائف من جريد النخيل " ⁷.

ومن شدة الفقر هذه كان وإخوته يقتاتون على خمس ثمرات للفرد الواحد يوميا وفي هذا يقول أبو القاسم سعد الله " أتذكر مثلا أن الناس عندما كانوا يتناولون أوراقا من النباتات الجافة عوض نبتة الشاي وكأني بهم يتخيلونها شايًا، وكنا نأكل في اليوم ثمرات معدودات لكل واحد منا خمس حبات حتى لا نموت جوعا، والوالد (رحمه الله) هو من كان يقنن هذا الأمر". أما اللباس فكان الثوب يبلى ويقصر ويتركه الأخ لأخيه والأخت لأختها " وكنا لا نلبس جديدا الكبير منا يترك لباسه لأصغر منه وهكذا أي أن الألبسة الواحدة كان يتداولها الأولاد، اذكر أيضا ان أول قميص ارتديته لم يكن جديدا لأنه كان لباسا عسكريا بلون كاكي من مخلفات الحرب العلمية الثانية، اشتراه لي والدي مكافأة على ختم القرآن الكريم " ⁸.

وقد شارك أبو القاسم سعد الله والده وإخوته في فلاحه الأرض والعناية بالنخيل، واستنبت بعض الخضروات، وزراعة مساحات من التبغ الذي كان يدر على العائلة مردودا في تجارته. ومنذ السنوات الأولى لطفولته أحس كغالبية أبناء الجزائر بالفقر والغبن والحرمان جراء سياسة الاحتلال الفرنسي الجائرة التي اعتمدت على سحب خيرات الجزائريين ويقول سعد الله في هذا الشأن "... كنت أمارس الفلاحة مع أهلي في الواحة (قمار) وكانت الشركات الفرنسية تمتص عرق جبين والدي

السيرة والمسيرة التعليمية للدكتور أبو القاسم سعد الله _____ خالدي مريم

وإخوتي، لأنها كانت تأخذها بأجناس الأثمن وتبيعها في أوروبا بأعلى الأثمان، وقد شاهدت في صغري ما يصنع الجهل والفقر والمرض بالإنسان"⁹.

وبالرغم من شدة الفقر التي كانت تعيشها عائلته إلا أن والده أحمد الذي يقول عنه أبو القاسم أنه ولد حوالي عام 1896م،¹⁰ لم يكن يلزم ابنه أبا القاسم بالاشتغال بالأعمال الفلاحية أكثر من اشتغاله بالعلم وقراءة القرآن فكان يقول رحمة الله عليه " إن بلقاسم¹¹ قد سبلته للعلم فانا أكفيه هم الحياة"¹².

وقد توفي والده في 17 نوفمبر 1957م، ولم يتمكن من توديعه في مثواه الأخير، لغرفته آنذاك بالمشرق لاستكمال دراسته هناك آملا عند عودته بإدخال الفرحة على والده وهو محمل بالشهادات العلمية التي طالما انتظرها منه، والغربة لم ترحمه مرة أخرى إذ شاءت الصدفة أن يختطف القدر هذه المرة والدته العبيدية هالي وهو منكب في تحرير كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي " في الولايات المتحدة الأمريكية يقول في ذلك : " وأثناء تحريري للكتاب توفيت والدتي هالي العبيدية رحمها الله، وكان بيني وبينها المحيط والقارات وكانت تنتظر عودتي و انتظر رؤيتها وكنت امني نفسي بحمل الكتاب إليها لتقبيله كما كانت تفعل مع كتي الأخرى ولكن خطفها الموت ولم استطع رؤيتها في لحظات الحياة الأخيرة"¹³.

عاش أبو القاسم سعد الله في أسرة كبيرة العدد متكونة من 5 إخوة من جهة الأب وهم: البشير والطاهر والصادق وخيرة، أما إخوته الأشقاء فهم: علي وإبراهيم وعمر وأبو بكر ومباركة¹⁴.

وبعد عودته من رحلته العلمية واستقراره بالجزائر أتم أبو القاسم سعد نصف دينه وتزوج من السيدة حفصة بنت عمر بن سالم من أسرة محافظة من ولاية المسيلة، كانت طالبة عنده بقسم التاريخ بجامعة الجزائر وحينها كان مترجما قد تجاوز سن الأربعين حين تقدم لخطبتها رفقة، رفيقه

عبد الله الركبي ومحمد مهري، وكان زواجه منها يوم 24 جويلية 1969م. كما حضر حفل الزفاف كل من رفقاءه عبد الله الركبي وعبد الله عثمانية وخاله فيصل هالي وأمه وإخوته إبراهيم وخاله¹⁵.

وفي سيرته تحدث عن دعم زوجته له من خلال تفهمها لطبيعة عمله أولاً بتوفير شروط العمل رغم الصعوبات التي عايشها معا وثانياً إعانتته بشتى الوسائل وإبداء الرأي أحياناً فيما يكتب فهي على حد قوله "صاحبة رأي حصيف وثقافة واسعة"¹⁶. ويذكر أيضاً ".... وهي التي واستني حين ضاعت محفظتي الثمينة وكدت أصاب باليأس والإحباط وهي التي شددت من أزرى كلما واجهتني عراقيل وتحملت معي الغربة وشظف العيش والحرمان"¹⁷. ويضيف "وكان تفرغي لأبحاثي وكثرة أسفاري يحرمانها أحياناً من بعض حقوقها ومع ذلك كانت تقبل ذلك بكل رضى وطيب خاطر وتشجعني على مواجهة الصعاب في سبيل هدي النبيل"¹⁸. وقد رزق مترجماً فيما بعد بابنه الوحيد أحمد سعد الله وكانت فرحة الوالد بابنه كبيرة عند ولادته وقد سمي بأحمد على اسم والد أبو القاسم سعد الله¹⁹.

1-2: وفاته:

توفي الشيخ أبو القاسم سعد الله عن عمر ناهز 83 سنة بالمستشفى العسكري في عين النعجة بالعاصمة يوم السبت 14 ديسمبر 2013 م، بعد صراع مع المرض كما رفض نقله إلى فرنسا للعلاج وفضل البقاء في الجزائر، وقبل أن يشتد به المرض مباشرة بعد عيد الفطر رفض أبو القاسم سعد الله أن يتنازل عن صيام رمضان رغم تحذيرات طبيبه الخاص، حيث أتم صيام الشهر الفضيل إلى غاية 26 منه حيث أصابته وعكة صحية لينتقل إلى مستشفى عين النعجة بالعاصمة وتوفي هناك، وموته فقدت الجزائر مشعلاً ينير تاريخها وسقط ركن ركين في تاريخ الجزائر وأعلم شخص بثقافتها وأكثر من كتب عنها وعاش حياته كلها في خدمة الجزائر وتاريخها وثقافتها.

2 - تعليمه:

كانت بداية عهده بالتعليم وهو طفل في سن الخامسة من عمره، وأول محطة تعليمية له كانت بالمدرسة القرآنية بقريته على شاكلة اقرانه في تلك الفترة، وهو تقليد قديم عند أهل قمار وعموم البلاد العربية والإسلامية يقتضي بدخول الولد الجامع حتى يحفظ شيء من القرآن الكريم حتى يتمكنوا من ممارسة شعائرهم الدينية والتسلح بمبادئ الدين الإسلامي²⁰.

والظاهر أن الظروف المأسوية التي كانت عليها الجزائر في تلك الفترة هي التي دفعت به مثل غيره إلى دخول الكتاب والقوانين التي فرضتها إدارة الاحتلال الفرنسي آنذاك في مجال التعليم لم تكن تسمح لأبناء الجزائر من التحصيل العلمي²¹، وكانت والدته فيما يذكر حريصة على تحفيظه وتعليمه القرآن اقتداءً بأخيها الشيخ الحفناوي هالي الذي حفظ القرآن من قبل وتخرج من جامع الزيتونة فاكسب بذلك حظ كبير من الاحترام والتقدير، فكانت أمنيته أن يصبح مثله من حفظة القرآن وحملة العلم²².

حفظ الطفل أبو القاسم القرآن الكريم حوالي سنة 1944م، وذلك على عهد شيخه المعلم أبو القاسم بن البرية، وهذه المناسبة أقام له والده تكريمين، كان التكريم الأول معنوي وهو ذبح كبشين وجمع الناس فيه في حفل هيج، تسامر فيه الناس على القرآن وترديد المدائح الدينية، أما التكريم الثاني فكان مادياً وهو شراء اللباس المذكر سابقاً وهو أول قميص يلبسه بلقاسم. وبعد أن كرره ثلاثة مرات أصبح ينوب عن شيخه في صلاة التراويح، وبقي على هذا الحال سنتين متتاليتين (1944م-1946م)، ويعود السبب في هذا التأخر في حفظ القرآن الكريم لعدم استقرار معلمي القرآن بمنطقة البدوع إلى أن استقر بيع المعلمان ابن البرية والشيخ الزبيري²³.

وبعد إتمام أبو القاسم سعد الله حفظه القرآن واستيعاب المبادئ الأولية للغة العربية وقواعد الشرع الحنيف، اشترأت نفسه وتعلقت بتلقي المزيد من العلم والمعرفة، فكانت الوجهة جامع الزيتونة الذي كان آنذاك قبلة لطلاب العلم من الجزائر وحلم كل راغب. ويقول سعد الله عن العوامل التي حفزته للسفر إلى تونس من أجل مواصلة دراسته، هو انتشار افكار الحركة الإصلاحية في منطقة وادي سوف آنذاك، خصوصا بعد زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1936م، والزيارة لم تكن لشخص عادي فهو العلامة الإصلاحي الذي زاع صيته عبر مدن وقرى ومدشر الجزائر، وقد تأثر لذلك وهو صغير السن حيث يقول عن ذلك أنها اذكت روح النهضة بين سكان المنطقة وقريته بالذات وهذا ما حفز العديد من شباب منطقة قمار للتوجه إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وحسب ما ذكر أن عددهم كان في تزايد مستمر، فكان هؤلاء الشباب يعودون في صيف كل عام فيتصلون بشبان جدد وينشرون بينهم أفكار جديدة²⁴.

كما كان تشجيع والدته له رحمها الله في حفظ القرآن والالتحاق بجامع الزيتونة أسوة بأخيها الحفناوي هالي، يقول في ذلك: ".... وقفت والدتي ورائي في حفظ القرآن الكريم في جامع البدوع بقمار، ثم الدراسة بجامع الزيتونة تونس أسوة بأخيها(خال) لأكون مثله عالما محترما، معتقدة ان الله قد فتح عليها القدري (ليلة القدر) وأنا طفل فلم تطلب من الله شيئا غير العلم الشريف، وهي التي رسخت في هذه الفكرة حتى عشت بها كل حياتي معتقدا في قرارة نفسي إني رجل قدري وان الله قيد اختارني لمهمة وهي خدمة العلم الشريف وأني لم أخلق لغير هذه المهمة"²⁵.

وبالرغم من أن والد أبو القاسم سعد الله كان يأس الحاجة إليه من اجل الوقوف إلى جانبه ومساعدته في الفلاحة والزراعة، إلا انه لم يجبره على قطع مواصلة دراسته، كما فعل مع إخوته، وفي شهادة لابن عمه عبد الرحيم سعد الله يقول في ذلك ".... وعندئذ تقرر إرساله إلى جامع الزيتونة بعد جدال بين الأم والأب، فالأم مصرة على إرساله لطلب العلم والأب يرى وجوب معاملته مثل

إخوته الأكبر منه، فكلهم يريد أن يتعلم والظروف المعيشية لا تتحمل غيابهم، لكن بتشجيع من الشيخ طاهر التليلي عدل عمي عن رأيه²⁶.

فالطاهر التليلي الذي كان صديق الوالد وعديله كان له أيضا دور في تشجيع وسفر أبو القاسم سعد الله إلى الزيتونة، فهو أيضا من خريجي الزيتونة ومنتمي إلى الحركة الإصلاحية، ولتقارب الرؤى بينه وبين والده وتأثر أيضا هذا الأخير بالحركة الإصلاحية جعلته يوافق على فكرة سفر ابنه أبو القاسم دون غيره من إخوته لدراسة²⁷.

واستعد بلقاسم لذهاب لزيتونة سنة 1946م، إلا أن المادة لم تتوفر لوالده في تلك السنة، فانتظر بذلك إلى حين توفر مصاريف السفر. كما نصحه ممن سبقوه لدراسة هناك بحفظ المتون الأساسية قبل ذهابه، فحفظ المصنفات والمتون في النحو والصرف والفقه والعقائد، للاستعداد للاختبار الذي سوف يجريه قبل دخوله²⁸.

2-1: أبو القاسم سعد الله في الزيتونة (1947-1954م):

أتاحت الفرصة لأبي القاسم سعد الله للالتحاق بالزيتونة سنة 1947م، عندما استكمل والده جمع مستحقات السفر إلى تونس، فأرسله رفقة شباب من قمار سبقوه في الدراسة بالزيتونة، ويذكر انه بمناسبة سفره الأول جيء له بحذاء من مخلفات إخوانه فلما لبسه أحدث له جراحا في قدميه مما أعاقه على المشي تماما فاشتري له اصدقاء له حذاء آخر على نفقتهم الخاصة من قسنطينة ليواصل به الطريق²⁹.

التحق أبو القاسم سعد الله بالزيتونة وهو ذو المستوى البسيط على حد تعبيره الذي لم يؤهله لأكثر من التسجيل في السنة الأولى، لان حفظ القرآن وحده لا يؤهل لدخول لزيتونة مباشرة "... وجدت نفسي لا أحسن حتى تحرير رسالة بل لا اعرف كيف أرتل القرآن ولا مبادئ الحساب ولا

قواعد الفقه لذلك خضعت لامتحان عسير". فتمكن من الدخول إلى السنة أولى رغم أن هناك طلبة تم أهيلهم للسنة الثانية والثالثة.

ولأول مرة كان تدرسه بأسلوب حدائي حيث استعملت فيه السبورة بدل حلق الذكر، فدرس الفقه والأصول والتوحيد والنحو والصرف والتاريخ والفيزياء والكيمياء والحساب، وحسب سعد الله فإن أهم ما ميز الدراسة بتونس هو طغيان المواد الدينية والتاريخية والأدبية على المواد العلمية والقضايا المعاصرة³⁰.

أما شيوخه الزيتونة فكان من أبرزهم الشيخ على الأصرم، مصطفى المؤدب، والصادق بسيس، محمد العناي، ومختار الوزير... الخ. وأثناء فترة دراسته بها أقام الطالب أبو القاسم السنة الأولى في مدرسة صاحب الطابع الحفاوين، أما السنوات الستة الباقية فقد قضاها بجامع القصر بحي باب المنارة مع قيم الجامع الشيخ محمد ماما الياجوري، الذي كان له بتونس عوض الأب في أول غربة له، وحسب قول أبي القاسم سعد الله، والذي لولا رعايته له ماديا طيلة ستة سنوات لما استطاع مواصلة دراسته في جامع الزيتونة³¹.

ونشير هنا إلى الظروف القاسية التي عايشها مؤرخنا في تلك الفترة للوصول إلى هدفه النبيل، فقد تحمل أعباء دراسته بنفسه، حيث اضطر أحيانا كثيرة أن يشتغل ليوفر قوت يومه، فكان يقوم في الصباح الباكر لبيع الحليب، ويوزع زجاجاته على بعض البيوت مقابل بعض الدريهمات ليشتري بها طعاما لا يسمن ولا يغني من جوع، وكان لسد الرمق فقط، فكان إذا تغذى في النهار لا يتعشى في الليل والعكس صحيح³².

ورغم هذه الصعوبات فقد تكللت مجهودات مترجمنا بالنجاح والتفوق مما جعله ينتقل من سنة إلى أخرى بنجاعة إلى أن تحصل على شهادتي الأهلية في عام 1951م، ثم التحصيل عام 1954م، بتقدير ممتاز بترتيب الثاني في دفعته، وهو ما يبين تطور مستواه الفكري والثقافي، بفعل

حيويته واجتهاده، سواء من خلال المنافسة العلمية بينه وبين زملائه في حلقات الدروس ويذكرنا بإحداها فيقول " اذكر أن شابا تونسيا كان يجلس إلى جانبي في حلقة الدرس (الطريقة) وهو ابن حميدة، وكان ينافسني في مادة الأدب إلى حد بعيد". أو من خلال تشجيع مشايخه له كما فعل شيخه على الاصرم حينما قال له "إنني فخور بك يا سعد"³³

فبدا يظهر تفوقه على زملائه من خلال مساجلته معهم ومن الطريف أن أحد زملائه كان يحفظ شعر الشابي وينسبه إلى نفسه، مما جعل أبو القاسم يشعر بالحرج، فشعره لم يبلغ مستوى شعر الشابي، فما كان من ذلك إلا أن كان دافعا وتحديا لخلق روح تنافسية أكبر لمواصلة قراءة وقرض الشعر. وهو أيضا إلى جانب الدروس النظامية كان كثير التردد على دور المكتبات تحذوه رغبة جامحة في التحصيل والاطلاع، فكان يقصد جبلا صغير يسمى الرابطة يطل على تونس ينظم الشعر ويطالع الكتب والمجلات لساعات طويلة دون أن يحس بالجوع أو العطش ودون أن يحمل معه أي غذاء من الصباح إلى المساء. وكان لكل تلك الكتب التي كانت تستهويه وخصوصا المؤلفات الشعرية ككتب الشابي وجبران خليل جبران.... الخ، الأثر البالغ في تكوينه وتحصيله العلمي وصل إلى مواهبه في مجال الشعر والفن القصصي³⁴.

وفي تونس نجح في نشر أولى ابداعاته الشعرية وتجارية القصصية في الصحف التونسية منها الزهرة والنهضة والأسبوع وبعض المجلات مثل المعارف، والبصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين التي كان يرسلها بقطع شعرية ومقالات وقصص، وأيضا بنشاط البعثة الطلابية الزيتونية التي كان رئيسها³⁵.

ويتحدث أبو القاسم سعد الله عن الاتجاهات التي أثرت في حياته وهو في تونس بالقول " غير أن هناك ثلاثة اتجاهات قد أثرت في حياتي أثناء دراستي بتونس":

- الاتجاه الأول: وهو التربية الدينية والأخلاقية التي تلقيتها بالزيتونة

- الاتجاه الثاني: وهو التربية الوطنية التي اكتسبتها³⁶:

أ- عن طريق مشاركتي في نشاط جمعية الطلبة الجزائريين منذ 1948م.

ب - عن طريق اشتراكي سنة 1953م مع الطلبة الجزائريين في تمثيل رواية "الخليفة العادل" في عدة مدن بالجزائر.

ج - عن طريق قراءتي لجريدة "البصائر" منذ سنة 1948م.

- الاتجاه الثالث وهو التربية الأدبية التي حصلت عليها بفضل مطالعاتي لإنتاج الشرق العربي وخصوصا. قراءتي "للمسالة" و"أبوللو" و"الأداب البيروتية"³⁷.

وبعد نجاحه وتخرجه من جامعة الزيتونة بتقدير ممتاز بترتيب الثاني في دفعته، ومع رغبته الشديدة في استكمال دراسته خاصة وأنه كان يدرك أنه لن يجد مستقبل لثقافته العربية في الجزائر في ظل رذوحتها تحت وطأت الاستعمار، ففكر في الذهاب لدراسة في إحدى الجامعات العربية بالشرق، خصوصا وأن جمعية العلماء ومنذ سنة 1953م، فتحت مجالا لما أسمته البعثات إلى المشرق وكان ذلك بإشراف الشيخ البشير الإبراهيمي الذي تولى تسهيل مهمة الحصول على منح من بعض الدول العربية والإسلامية لصالح الطلبة الجزائريين ليدرسوا ثم يعودوا لتأطير الطلبة في الجزائر³⁸.

فتقدم من تونس بطلب منحة من جمعية العلماء، إلا أن الجمعية رفضة طلبه لالتحاق بالجامعة ضمن هذه البعثات لكونه لم يكن طالبا في معهد ابن باديس فقد سافر إلى تونس في نفس السنة التي افتتح فيها المعهد إلا أن هذا الرفض لم يحبط من عزمته فرغبته الملحة وتمسكه الشديد بمواصلة دراسته كانت إحدى أهم مميزات شخصيته، فقرر العودة إلى الجزائر ليوفر قدرا من المال يخوله السفر إلى المشرق من أجل إتمام دراسته على حسابه الخاص³⁹.

2-2- أبو القاسم سعد الله في الجزائر (1954-1955م):

عاد أبو القاسم سعد الله من تونس إلى الجزائر يوم 19 نوفمبر 1954م، واستقر بمدينة الجزائر العاصمة ولم يكن له سابق معرفة بها ويذكر سعد الله أنه أحس بغربة ووحشة قاتلة في العاصمة جراء الاحتلال الفرنسي وممارساته "لقد شعرت لأول مرة بالاحتلال يجرم على صديري ويخنقني"، وبعد وصوله، عين مدرسا مؤقتا في مدارس الجمعية الحرة، فدرس بمدرسة الثبات بالحراش تحت إدارة الربيع بوشامة، ثم بعد بضعة أشهر انتقل إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة بضواحي العاصمة والتي كانت تحت إدارة الشيخ محمد الحسن فضلاء⁴⁰.

وقد أسند إليه تدريس تلامذة صغار في السن، قسم لروضة في الصباح وبعد الظهر قسم سنة أولى تحضير، وحسب شهادة مديرها فقد كان ممتازا في ثقافته وخلقه ومعاملته لتلاميذه⁴¹. وإضافة إلى الدروس اليومية كان يلقي أحيانا دروسا مسائية على الكبار في التاريخ الإسلامي، ونوعا آخر من الدروس لعامة الناس بمصلى الحي بعد صلاة المغرب، تمثلت في مسائل فقهية وموضوعات دينية وأخلاقية، معاملات، تفسير آية قرآنية.... الخ. ولأنه كان صغير السن آنذاك مقارنة بالشيخوخة الذين يقدمون الدروس في المساجد فقد لقب "بالشيخ الصغير" تفريفا بينه وبين الشيخ الأكبر منه سنا⁴².

وبعد حوالي سنة من التدريس تمكن سعد الله من توفير تكاليف السفر حوالي 100 ألف فرنك، ليبدأ رحلة البحث عن جواز سفر لذهاب إلى المشرق بمكانياته الخاصة، بعد أن تم رفض طلبه في الحصول على جواز سفر لعدم تمكنه من الحصول على شهادة إقامة وكذا رفض سلطات الاحتلال التصريح له قبل أدائه الخدمة العسكرية⁴³.

أمام هذا الوضع لم يكن أمامه خيار سوى الذهاب إلى تونس لعله يجد من يساعده في هذا الأمر، وهناك اتصل بأحد أصدقائه المقيمين بتونس وهو الشيخ على خلف الذي كان صهرا لشيخ الطاهر جميل شيخ الجالية القمارية القاطنة بتونس وبتدخل هذا الأخير تمكن أبو القاسم سعد الله من الحصول على شهادة الإقامة بسهولة باعتباره أقام ودرس بتونس⁴⁴. وهذه الإقامة استخرج جواز سفر فرنسي بعد أن سجل في وكالة سياحية "الروضة للحج والسياحة" لصاحبها نور الدين بن حمودة مدير جريدة الأسبوع التونسية، وكان تسجيله فيها على أساس ذهابه إلى الحج.

عاد أبو القاسم سعد الله إلى الجزائر إلى حين استخراج جواز سفره، وللمشاركة في المناظرة (المسابقة) التي نظمتها جمعية العلماء المسلمين للالتحاق المعلمين بمدارسها الحرة يوم 25 أوت 1954م، وقد أشرف على المسابقة حينذاك الشيخ إبراهيم مزهودي، وقبل ظهور النتائج وصلته برقية من تونس تخبره بأن جواز سفره قد أصبح جاهز، فالتحق بتونس ومنها إلى القاهرة. مع العلم انه نجح في المسابقة التي قدم عليها بترتيب الثاني في المجموع العام، والتي ستخوله التدريس بإحدى مدارس الجمعية، إلا أن السفر إلى مصر لمواصلة دراسته في التعليم العالي كانت دائما تشغل باله وتفكيره فلم يكن مستعدا بعد لتدريس إلا بعد نهاية دراسته العليا بإحدى الجامعات بالمشرق⁴⁵.

2-3: أبو القاسم سعد الله في القاهرة (1955-1960م):

سافر أبو القاسم سعد الله إلى مصر مروراً بتونس ثم ليبيا التي بقي بها ثلاثة أيام بسبب الإجراءات الإدارية المشددة كالمساءلات والحصول على التأشيرة.... الخ. مما اضطره لإطالة مدة السفر، فوصل القاهرة يوم 24 سبتمبر 1955م، يقول في ذلك ".... نزلت بنا الطائرة في مطار المازة ليلاً، وبعد استكمال إجراءات التحقيق المطولة... خرجت من المطار، وكنت لا أدري أين اذهب لأنني لم أكن أعرف أحداً هناك فكان معي عنوان مكتب جمعية العلماء بالقاهرة الذي أخذته

منا الشيخ العربي التبسي في الجزائر فغامرت وتوجهت إلى حيث المكتب وطرقت الباب بعد منتصف الليل ففتح لي الشيخ البشير الإبراهيمي بنفسه، واستقبلني فيه"46.

نزل أبو القاسم سعد الله ضيقا عند الشيخ الإبراهيمي، لمدة خمسة عشرة يوما، إلى حين تمكنه من ترتيب أموره الدراسية، لتأخره عن موعد التسجيلات التي تمت في شهر جويلية وحضوره كان في شهر سبتمبر عام 1955م يقول عن ذلك " بدأت المساعي لتسجيل في الدراسة الجامعية ولكنها باءت بالفشل في البداية، وأصبح الشيخ البشير الإبراهيمي محرجا من حضوري، ففرص التسجيل في جامعات القاهرة ضئيلة والمشكلة عويصة، اخذ يفكر أهل يقيني معه؟ أو يرسلني إلى العراق التي جامعاتها ما تزال تقبل تسجيل الطلبة في تلك الأيام وإمكانية الدراسة بها أسهل من مصر"47.

وبعد عناء شديد لتسجيل بإحدى الجامعات، ثم قبوله بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، بعد نجاحه في اجتياز امتحان القبول في 12 سبتمبر 1955م، والذي أشرف عليه الأستاذ عمر الدسوقي، يقول في ذلك "وبعد الاختيار أو المقابلة قبلت في كلية دار العلوم وفتح لي المجال بعد ذلك للإقامة والحصول على منحة جامعة الدول العربية، وقد أنقذني أمام اللجنة حفظ القرآن الكريم وقراءة أبيات من قصيدتي (الطين)"48.

وكان الطالب أبو القاسم خلال إقامته بالقاهرة، يسكن ضاحية المعادي، في عمارة بسكن اجاري يملكها الخواجة نقولا وهو رجل من أصل يوناني أو أرمني، وشاركه فيها بعض من زملائه الطلبة الذين كانوا يدرسون وقتها بالقاهرة منهم بلقاسم الجبالي و التارزي الشرقي والتركي رابح ومحمد بلعيد، بالإضافة إلى إخوان لبييان عبد السلام حمودة وقريبه عمر الزليطي، وأختان شقيقان من السودان، ولم يكن الوضع مستقرا دائما فقد كان زملاءه يغيرون سكنهم من وقت لآخر، إلى

أن سكن في غرفة مستقلة لم يكن يزعجه فيها سوى صوت القطار على حد قوله الذي كان يمر تحت نافذته فيوقظه ويعرقل دراسته في اغلب الأحيان .

كان الجدول اليومي لأبي القاسم سعد الله حسبما ذكر في يومياته في اغلب الأحيان هو ذهابه للقاهرة مرتين مرة في الصباح للدراسة ويعود بعدها لطبخ الغذاء والقيلولة ومرة في المساء للمشاركة في النشاط الطلابي وتلبية المواعيد وحضور الدروس الحرة في اللغات الأجنبية أو دخول السينما، هذا بالنسبة لأيامه العادية إما إذا اقترب الامتحان، فكان غالبا يعتكف في البيت للمذاكرة، وعند انتهائه عاد مجددا إلى زيارة القاهرة مرتين في اليوم.

وطبعا رحلته في طلب العلم في القاهرة لم تكن بأحسن من غيرها فالمصائب والمشاكل التي عاناها والتي يقول عنها: "أثما كادت تلقي بيه في مهاوي اليأس " لولا صبره وعزمته على النجاح، فكانت المأساة التي صادفها بدايتا مع الشيخ الإبراهيمي وهو سوء الفهم الذي حصل بينهما بادئ الأمر بعد ما كان مقيما في مكتبه بالقاهرة، حيث أخرجه منه بطريقة مشينة ويذكر أبو القاسم سعد الله في يومياته سبب ذلك قائلا " وكان الشيخ عشية نزولي عنده يعاني من تقدم السن، ومن وضع سياسي متأزم مع ممثلي جبهة التحرير في القاهرة لاختلاف في الرؤية، ومع السلطات المصرية لصلته بالإخوان المسلمين، ومن خروج بعض طلبة البعثة عليه، وغير ذلك من المشاكل والتي بحكم سني وبعدي لم أكن اعرفها، ومع ذلك استقبلني كأحد أبنائه...إنني أسجل هذا هنا لكي اقول لان ما جاء في (بين هذه اليوميات)، هو مجرد انفعال ناتج عن سوء فهم، وقد توطدت علاقتي بالشيخ بعد ذلك فكان يدعوني 'سعد السعود' وكنت أزوره في بيته في مصر الجديدة بعد رجوعه للقاهرة".⁴⁹

ويضيف سعد الله إن هذه المعانات لم تكن وليدة الظروف فقط بل أن هناك أشخاص كان لهم دخل كبير ومباشر في تضخيم ذلك اليأس وذلك بسبب كلمة كتبها في جريدة البصائر عن

الشيخ الإبراهيمي وعن أعماله في سبيل الجزائر والطلبة ونشاطه، حتى جلبت عليه نقمة ممن كانوا مع وضد الشيخ البشير الإبراهيمي، أي أن من كانوا ضد الشيخ فقد حسبوا أن الشيخ يصدق عليه المال وأنه من أنصاره المخلصين فاضرموا له عدواة، ومن كانوا مع الشيخ حكموا عليه انه على اتصال مع من هم ضده مقابل مال يتقاضاه منهم، فأصبح على حد قوله ليس "من هؤلاء ولا هؤلاء ظلما وهتانا وعدوانا"⁵⁰.

وقد أثرت هذه الفاجعة في مؤرخنا أيما تأثير، فبالإضافة الى فشله في دخول إحدى الجامعات في تلك الفترة والتي كادت ترغمه العودة للجزائر التي خرج منها بشق الأنفس، ولكن سرعان ما حلت المشكلة الناتجة عن سوء الفهم، ومعروف بعد ذلك علاقة الدكتور أبو القاسم بجمعية العلماء المسلمين ووفائه الكبير لرجالها وشخصياتها وتمسكه بمبادئها وأفكارها⁵¹.

وخلال إقامته بالقاهرة عان أبو القاسم سعد الله كثيرا من الظروف المادية الصعبة، فبرغم من أن الحكومة المصرية كانت تضمن منح 5 جنيهاً لكل طالب في الجامعة، بالإضافة إلى إعانة السكن التي كانت الجمعية تمنحها لمبتعثيها هناك⁵²، إلا أنها لم تكن كافية لتغطية مصاريفه اليومية، إذ يذكر انه كثير ما كان يضطر إلى الاكتفاء بوجبات خفيفة رخيصة الثمن، أو يلجأ إلى أكل طعام مر عليه ثلاثة أيام أحيانا دون أن تكون عنده وسائل للتبريد أو حفظ الطعام، ويذكر انه كان إذا دعاه احد لاحتساء القهوة فانه كان يشبعها بالسكر ليولد ذلك عنده طاقة⁵³.

وبالرغم من الظروف العسيرة التي التحق بها بكلية دار العلوم، والحرمان وشظف العيش، فقد كان من أنشط الطلبة وأقدرهم على الإبداع والكتابة، وكان يحرص على تنظيم وقته، وبرمجة نشاطاته، فكان وقته مسخرا للبحث والدراسة والمطالعة، يقول في ذلك " إن جاز لي أن أتحدث عن نفسي مثلا فاني كنت انجح كل سنة وكانت معدلاتي العامة دائما جيدة ". فتمكن في جويلية 1959م من الحصول على شهادة ليسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية، وأيضا بالموازاة مع

دراسته بالجامعة، تحصل عن طريق الدراسة الحرة على دبلوم الصحافة 1957م، كما درس لغات أجنبية كالإنجليزية، وأنشطة أخرى كالرقن على آلة الكاتبة... الخ⁵⁴.

وبعد حصوله على شهادة ليسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية كما سبق، تقدم إلى وزارة الثقافة بثلاثة مطالب في نفس الوقت، أحدها التعليم في البلاد العربية، والثانيهما الدراسة في إحدى البلاد الأجنبية، والثالثهما مواصلة دراسته الماجستير بالقاهرة، ولأنه كان يميل إلى استكمال مشواره الدراسي على الاشتغال بالتدريس فقد سجل لدراسة الماجستير بكلية دار العلوم، بعدما تم رفض طلبه للحصول على منحة لدراسة بالخارج من طرف الاتحاد الطلابي بسويسرا، بحجة أنه غير مؤهل لدراسة بالدول الأمريكية والأوروبية⁵⁵.

فسجل في مكانين مختلفين لمواصلة دراسته في الماجستير 'الأول' هو كلية دار العلوم نفسها تخصص أدب، فأتمى الدبلوم في صائفة 1960م، وكان على استعداد للمناقشة إلا أن القانون لا يسمح بمناقشة الرسالة في السنة أولى من الدراسة، وكانت رسالته فيها حول شعر محمد العيد آل خليفة 'محمد العيد: رائد الشعر الجزائري'، ولكن بعد وصوله خبر حصوله على منحة في أمريكا ترك الرسالة مخطوطة عند الشيخ الإبراهيمي ليجد لها ناصرا وكان هذا الأخير معجب بشعر محمد العيد آل خليفة، فقام بكتابة تصدير لها وطبعها لدى دار المعارف بالقاهرة.

أما الجهة 'الثانية' التي سجل فيها الماجستير فهي معهد البحوث والدراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية شعبة الأدب والنقد، وكان من بين المحاضرين في هذا التخصص سهيل إدريس وإسحاق موسى الحسيني وسلمى الدهان، ويحي حقى وجودة السحار وغيرهم. فأكمل السنة الأولى أيضا، وبينما هو بصدد إجراء الامتحان وصلته برقية حصوله على المنحة وضرورة التوجه لتونس فسافر قبل أن يكمل الامتحان⁵⁶.

2-4: أبو القاسم سعد الله في أمريكا (1960م-1965م):

تم رفض طلب أبو القاسم سعد الله كما أسلفنا في الحصول على المنحة لاستكمال دراسته في إحدى الدول الأجنبية، باعتباره غير مؤهل للدراسة، إلا أن أبو القاسم أصر وأعاد إرسال طلب آخر إلى الحكومة في محاولة إلى إعادة النظر خاصة بعد التمام وحدة الصف الطلابي تحت مظلة الاتحاد العام.

وقد كان هذا الرفض أيضا بمثابة صدمة للطلاب بفرع القاهرة، فقد كان أبو القاسم سعد الله في نظرهم من انجح الطلاب من حيث الدراسة فكيف يتم رفض طلبه للحصول على منحة؟. فكثر الكلام في الكواليس، وان هناك احتكار للمنح من قبل الاتحاد العام لصالح الطلاب في أوروبا، خصوصا وان هذا الأخير كان مقره في لوزان بسويسرا، فكان ذلك من العوامل التي ستؤدي إلى نقل مقر الاتحاد من أوروبا (لوزان) إلى تونس فيما بعد.

في شهر أكتوبر من سنة 1960م، تم الرد بالقبول على طلبه للمنحة، فتم توجيهه إلى الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية، ويورد أبو القاسم سعد الله الحثيات التي تم فيها قبول طلبه لدراسة الخارج، فبعد التحرك الذي قام به الطلبة بالمشرق والضحجة التي أثّرت حول توزيع المنح الغير العادل، والتي فهم منها البعض أن هناك احتكار لها من طرف الاتحاد، أن تصرف الوزير عبد الحميد مهري ومخابرات عبد الحفيظ بوصوف للاحتواء الوضع، فكانت المنحة التي تحصل عليها أبو القاسم هذه المرة 'استثناء' على حد قوله، وذلك لإرضاء تيار الطلبة الذين كانوا يدرسون بالعربية وخوفا من وقوع انشقاق في الاتحاد على أساس ثقافي.

توجه سعد الله إلى تونس في 9 نوفمبر 1960م، لإتمام إجراءات السفر، أين تحصل هناك على جواز سفر تونسي وذلك لانعدام التمثيل الدبلوماسي بين الجزائر وأمريكا حينذاك، لان أمريكا

لم تكن نعترف بالجزائر وقتها، وبعد انجازه شؤون التأشيرة وهيئة للسفر، تسلم وثيقة من طرف الوزارة تضمنت تعليمات وتوجيهات يسلمونها عادة لكل طالب مسافر إلى الدراسة في الخارج⁵⁷.

سافر أبو القاسم إلى أمريكا في 30 نوفمبر 1960م، وهي أول بلد أجنبي يزوره غير البلاد العربية يقول في ذلك "... كان هذه أول مرة أتعلم فيها على بلد غير العربي.... غير أن أهم مشكلة كان علي أن أحلها بسرعة هي اللغة...". والفعل كانت العزيمة تحده للقضاء على هذه المعضلة، وبعد فترة وجيزة قاربت 3 أشهر ونصف تمكن من تعلمها وإتقانها⁵⁸.

أما الجامعة التي سجل فيها أبو القاسم هي جامعة 'مينيسوتا' Minnesota، وقبل ذلك كانت الجامعة المعنية له للدراسة فيها هي جامعة 'كنساس' Kansas 'تخصص الدراسات الأمريكية إلا أنه وبعد تعلمه اللغة في فترة وجيزة قرابة 3 أشهر في حين إن المدة المقررة كانت 6 أشهر على الأقل لإتقان اللغة، فاستطاع بفضل عزمته البدء مبكرا في الدراسة، فبحثوا له عن جامعة تعمل بنظام الفصول الأربعة فكانت جامعة مينيسوتا أول جامعة تخرجهم بقبوله لان الدراسة فيها تستأنف في نهاية شهر مارس فسجل فيها⁵⁹.

وعن تخصصه بالجامعة في البداية تم توجيهه إلى تخصص الدراسات الأمريكية وهو موضوع حضاري يشمل الأدب والفلسفة والتاريخ الاجتماعي، وقد تم توجيهه لهذا التخصص باعتبار دراسته بكلية دار العلوم تجمع بين الآداب واللغة العربية والدراسات الإسلامية، وبعد بضعة أسابيع في الدراسة في التخصص المذكور ظهر له تغيير جهة الدراسة لمحاولة فتح آفاق ثقافية أوسع. فسجل في تخصص التاريخ والعلوم السياسية، لان هذا الموضوع سيفتح له أبواب ثقافية أخرى لم يدرسها من قبل، ولان الشهادة فيها ستتيح له العمل بها في الجزائر مستقبلا⁶⁰.

سجل أبو القاسم سعد الله بقسم التاريخ تحت أشرف الدكتور هارولد دويتش، **ب**أطروحة حول الحركة الوطنية الجزائرية (1930-1954م)، وبعد خمس سنوات من الاجتهاد والمثابرة تمكن سنة 1965م من الحصول على شهادة الدكتوراه دولة في التاريخ والعلوم سياسية⁶¹.

خاتمة:

من الصعب ان يختزل المرء مسيرة رجل في بضعة أسطر خاصة إذا كان بحجم الدكتور أبو القاسم سعد الله، فالقارئ لسيرة المؤرخ أبو القاسم سعد الله يقف مذهولا امام شخصية تربت على قيم اخلاق عالية، رغم كونه ينتمي الى عائلة فقيرة كانت تعتمد في معيشتها على ما تجنيه من الفلاحة، فكان مغامرا في طلب العلم ومجازفا في اقتناص الشهادات متحديا في ذلك العديد من الصعاب التي لو صادفت غيره لأخذت منه مأخذا عظيما. ومن خلال تتبعنا للمسار التعليمي للدكتور أبو القاسم سعد الله نستنتج ما يلي:

- كانت البيئة التي نشأ فيها الدكتور أبو القاسم سعد الله بيئة تقليدية، قاسية لم تنه عن عزيمته في البحث والترحال، فقد بثت فيه روح الصبر وتحمل الشدائد والعزيمة والإصرار وما لاحظناه أيضاً أنّ المجتمع السوفي كانت تربطه علاقة انسجام وترابط وهذا ما كان له انعكاس ايجابي على شخصية مترجمنا.

- ارتباط المحيط العائلي بحب العلم وتقدير العلماء ورجال الاصلاح خاصة وهذا ما اوجد لمترجمنا جوا علميا وتربويا كان دافعا له لاستكمال دراسته، فوالدته التي وقفت وراءه في حفظ وتعلم القرآن الكريم، ثم والده الذي آثره على اخوته لمواصلة دراسته، ليصبح عالما مصلحا ويشارك بدوره في الحركة الاصلاحية التي عرفتها الجزائر عامة ووادي سوف خاصة، ثم دعم زوجته له التي وقفت الى جانبه وتحملت معه ظروف صعبة من اجل تحقيق هدفه النبيل.

- المتتبع للمسار التعليمي لأبي القاسم سعد الله يلاحظ تمتع سعد الله بالروح الوطنية فهو حريص على التعريف بقضية بلده، وهو ما يدل على تكوينه المبني على الوطنية والعربية والإسلام وهذا ما انعكس على نشاطه الصحفي والعلمي فقد نشط في مختلف القضايا التي شهدها العالم العربي والإسلامي.

- شكلت الأماكن التي قصدها لأجل الدراسة دور بارز في رسم ملامح شخصيته، فتونس هي أول عاصمة حل بها أدخلته إلى عالم الحواضر بما فيها من تناقضات، كما تعلم فيها الدين والأدب وعاصمة الجزائر التي قضى فيها عاماً واحداً (1954م-1955م) جعلته يكتشف غربته في وطنه الذي اغتصبه الأجنبي، والقاهرة التي كانت مركز إشعاع فكري وسياسي في وقته، جعلته يؤمن بوحدة التاريخ والمصير العربي كما عرفته بشرائع أدبية جديدة فاختلف بها وناقش ونشر واكتشف ذاته بين الذوات الأخرى، أما رحلته إلى أمريكا فقد كانت نقطة التحول في توجه سعد الله التعليمي من دراسة الأدب إلى الدراسات التاريخية.

الهوامش:

- 1- قمار تبعد عن مدينة وادي سوف بحوالي 15 كلم
- 2- يذكر أبو القاسم سعد الله انه لم يكن يعرف آنذاك ما يسمى بالنكوة أو النعمة (بطاقة التعريف الشخصية) لذلك قدروا عمره تقديراً بسنة ترميم الجامع الكبير والتي من الأرجح كان عام 1930 م .
- 3- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، الجزائر: عالم المعرفة، 2011، ص 177
- 4- مراد وزاجي، حديث صريح مع الدكتور أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، الجزائر: منشورات الحبر، 2008، ص 18
- 5- وهو التاريخ الذي وصلت فيه عمليات التلقيب (الاسم العائلي) إلى منطقة وادي سوف، وكانت هذه العملية قد بدأت في المناطق في الشمالية من الوطن سنة 1882
- 6- أبو القاسم سعد الله، يوميات مسار قلم، ج 5، الجزائر: عالم المعرفة، 2011، ص ص (155-156).

-
- 7- أبو القاسم سعد الله ، أفكار جامحة ، المرجع السابق ، ص 177
- 8- مراد وزلاجي، المرجع السابق ، ص 17
- 9- مجموع مداخلات اربعينية المرحوم أبو القاسم سعد الله، من وحي الذاكرة، المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية، وادي سوف: 2014، ص 66
- 10- مراد وزلاجي، المرجع السابق، ص 81
- 11- بنطق ثلاث نقاط على حرف القاف وهو الاسم الذي كان والد أبو القاسم سعد الله يناديه به
- 12- محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، الجزائر: مطبعة دار هومة ، ص 12
- 13- أبو القاسم سعد الله، يوميات مسار قلم، ج 3، الجزائر: عالم المعرفة، 2011، ص 14.
- 14- أبو القاسم سعد الله، يوميات مسار قلم، ج 5، ص ص (9-10)
- 15- أبو القاسم سعد الله، يوميات مسار قلم، ج 3، ص 184
- 16- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المرجع السابق، ص 222
- 17- حمادي بشير، "جيل الثورة سلم الراية لمن لا يستحقها"، مجلة الحقائق، العدد 19، ماي 2007، ص 7
- 18- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المرجع السابق، ص 222
- 19- أبو القاسم سعد الله، يوميات مسار قلم، ج 3، ص 404
- 20- مصطفى عبيد، النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، مجلة عصور الجديدة، العدد 13، ابريل 2014، ص 228.
- 21- بوضرساية بوعزة، المدرسة التاريخية الجزائرية، الجزائر: دار الحكمة، 2007، ص 105.
- 22- مراد وزلاجي، المرجع السابق ، ص 19
- 23- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 228
- 24- بوضرساية بوعزة، المرجع السابق، ص 106
- 25- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المرجع السابق، ص 222
- 26- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المرجع السابق، ص 224

-
- 27- من وحي الذكرى، المرجع السابق، 2014، ص 113
- 28- مراد وزجاجي، المرجع السابق، ص 20
- 29- من وحي الذكرى، المرجع السابق، ص 113
- 30- مراد وزجاجي، المرجع السابق، ص ص (22-31)
- 31- محمد الأمين بلعيت، أبو القاسم سعد الله بأفلام أحيائه، الجزائر: البصائر، 2014. ص 278
- 32- بوعزة بوضرساية، المرجع السابق، ص 107
- 33- محمد حسن الفضلاء، المرجع السابق، ص ص (12-13)
- 34- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامعة، المرجع السابق، ص ص (183-184)
- 35- مولود عويمر، "أبو القاسم سعد الله يتحدث عن تجربته في الصحافة"، جريدة البصائر، العدد 703، 11 ماي 2014، ص 25
- 36- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011
- 37- المرجع السابق نفسه، ص 45
- 38- مراد وزجاجي، المرجع السابق، ص 32
- 39- المرجع السابق نفسه، ص 36
- 40- بوعزة بوضرساية، المرجع السابق، ص ص (110-111)
- 41- محمد الحسن فضلاء، المرجع السابق، ص 13
- 42- مراد وزجاجي، المرجع السابق، ص 39
- 43- المرجع السابق، ص ص (40-41)
- 44- من وحي الذكرى، المرجع السابق، ص 116
- 45- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 234
- 46- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 235

-
- 47 - من وحي الذكرى، المرجع السابق، 117
- 48- مراد وزاجي ، المرجع السابق، ص ص (46-47)
- 49- أبو القاسم سعد الله، يوميات مسار قلم، ج1، الجزائر، دار عالم المعرفة، 2011، ص 11
- 50- المرجع السابق نفسه، ص 22
- 51 - المرجع السابق نفسه، ص 22
- 52- نذكر هنا أن سعد الله لم يدرس في معهد ابن باديس ولم يذهب لزيتونة والقاهرة بمنحة من جمعية العلماء، بل سافر على سافر على حسابه الخاص، وانما العلاقة التي جمعت بينه وبين الشيخ الإبراهيمي، فخصص هذا الأخير مبلغا ماليا له مثله مثل الطلاب المبتعثين
- 53- من وحي الذكرى، المرجع السابق، ص 119
- 54- مراد وزاجي، المرجع السابق، ص ص (54-47)
- 55- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، ص ص (48-49)
- 56- مراد وزاجي، المرجع السابق، ص ص (82-83)
- 57- أبو القاسم سعد الله، الغائب الحاضر الأستاذ مهري، مركز الأصالة لدراسات، 2013
- 58- بوعزة بوضرساية، المرجع السابق، ص ص (112-114)
- 59- أبو القاسم سعد الله، يوميات مسار قلم، ج3، المرجع السابق، ص 17
- 60- المرجع السابق نفسه، ص 28
- 61- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المرجع السابق، ص 50.

قراءة في فلسفة اللامعقول من لاعتقلانية نيتشه إلى لاعتقلانية فيرايند الأستاذ شاذلي هواري، جامعة تيارت

ملخص:

سادت العقلانية كل نماذج الفهم ومقولات التفكير، واعتبر العقل أساس الحقيقة الذي يكشف المجهول وينبر طريق العلم في فهم الطبيعة والمجتمع، هذا التصور الشامل الذي يؤمن بالعقل إيماناً مطلقاً، أدي إلى ظهور تيار معاكس كشف عن دلالات أخرى للعقلانية، بل فتح مجال اللامعقول، وإعادة بناء علاقة بين المعقول واللامعقول وفق تصور يضع المعقول في محك التساؤل الفلسفي النقدي، وحول الفكر من الحديث عن العقل الظاهر المنتصر كما عبرت عنه تيارات العقلانية الكلاسيكية إلى العقل المنكسر المحدود كما صورته الاتجاهات المعاصرة التي أسست لمعالم فكر فلسفي مختلف تبدلت فيه النظرة إلى نماذج العقلانية وتم إعادة الاعتبار لمقولات التعددية والاعتراف بالخصوصية الفكرية لمجالات توصف عادة باللامعقول كالدين والفن وجميع التقاليد المختلفة.

ويعود الفضل في تقديم هذا الطرح لفيلسوف المطرقة "فريدريك نيتشه"، الذي أسس لنزعة تفكيكية رافضة لمشروع الحداثة الغربية القائمة على العقلانية العلمية، في صورها المادية، إضافة إلى تداعيات أكثر خطورة سجلت على مستوي الفكر تتمثل في انحصار الذات وسجنها داخل إطار نسقي جامد، وبذلك مثلت فلسفة "نيتشه" تحول كبير وضعت كل معارف وقيم الفلسفة الغربية وتصوراتها موضع الشك، واعتبرتها مجرد تأويلات وأوهام سرعان ما تتحول إلى أصنام.

كان لهذا الطرح تأثيراً قوياً على فلسفة "بول فيرايند" الذي أبدى إعجاباً كبيراً بفلسفة "نيتشه"، واستخدم نفس الطريقة التفكيكية في رفض المنهج الصارم واليقين العلمي واعتبرها وسائل دوغمائية، كانت سبباً في إقصاء معارف أخرى، وتقاليد مرتبط بالمجتمع لها أهمية بالغة في تطور العلم.

الكلمات المفتاحية: لا عقلانية، الفوضوية، عقلانية، العلم، الحقيقة، الصبرورة، إرادة القوة.

Abstract :

Rationality prevailed in all the categories of understanding and thinking models, and the mind was considered as the basis of the fact that revealed the unknown and illuminated through science in understanding the nature and society. This comprehensive vision that believed in the mind in an absolute manner, led to the emergence of an opposite trend that detected other indications of rationality, but it opened an area to the absurd and rebuilt a relationship between the reasonable and unreasonable, according to an imagination that put the reasonable into critical philosophical questioning, and changed the thought from the talk on the mind, the triumphant victor, as expressed by the classical rationalism currents to the refractor limited mind as portrayed by the contemporary trends that founded to a different philosophical thought that changed the theory to rationality models. There was the re-consideration of the arguments of pluralism and the recognition of intellectual privacy of domains commonly prescribed as absurd such as religion, art and all the different traditions.

The favour in presenting this different proposal goes back to the philosopher "Frederick Nietzsche" who founded a deconstruction trend, rejecting the project of Western modernity based on scientific rationality in its physical image. In addition to more serious repercussions recorded at the level of thought represented in the self-receding of the self and its imprisonment within a rigid systematic framework, and thus Nietzsche's philosophy represented a big shift and put all the knowledge and values of Western philosophy and its perceptions into question, and considered it as just interpretations and illusions that quickly turn to idols.

This argument had a strong influence on the philosophy of "Paul Feyerabend" who showed great admiration to the philosophy of "Nietzsche" and used the same method of deconstruction in the rejection of the process of the scientific certainty considering it dogmatic ways, through which other knowledge and traditions of extreme importance in the development of science, associated with the community, were excluded.

Key Word: Irrationalism, Anarchism, Rationalism, Science, Knowledge, Truth, Happening, Will force.

يوصف اللامعقول في أبجديات الفكر العقلاني بذلك النمط من التفكير الساذج الخارج عن النسق العقلاني المنطقي، والذي لا يتفق مع مبادئ العقل، فهو يشكل في نظر أنصار العقلانية مظهر من مظاهر انتكاس العقل والعلم معاً، والتفلسف عندهم لا يكون عقلاً إلا بتابع البناء

قراءة في فلسفة اللامعقول من لامقلانية نيتشه إلى لامقلانية فيرايند ————— شاذلي هواري

الشكلي المتناسك، لقد ترسخ هذا الطرح عبر تاريخ الفكر الفلسفي فالفلسفة اليونانية ومنذ بداياتها الأولى عرفت توجهاً عقلانياً في الفكر والخطاب والفعل ووضع ثقة كاملة في العقل ومقولاته ونصب نفسه حكماً لكافة أشكال اللامعقول فأصبحت العقلانية مفهوماً أساسياً حظيت باهتمام الفلاسفة والمفكرين، على امتداد تاريخ هذا الفكر، واستمر هذا البحث في الفلسفة الحديثة ليقدم لنا تفسيرات شاملة قائمة على أساس المعقولية، التي كانت دليل على وجودها، واعتبرت العقل عنوان الحقيقة الوحيد الذي يكشف المجهول، وينير طريق العلم في فهم الطبيعة والإنسان وتسخير هذا الفهم لصالح البشرية.

لقد مست العقلانية كل نماذج الفهم ومقولات التفكير، خاصة تلك التي صاغت عقلانية الحداثة مع لحظة التأسيس الديكارتية، وتوابعها المعرفية، لكن ومن جهة أخرى يكشف لنا تاريخ الفكر الفلسفي، تعدد دلالات وصياغات العقلانية وتنوعها داخل مجال المعقولية نفسها، ويفتح مجال أمام اللامعقول، ويعيد بناء علاقة بين المعقول واللامعقول وفق تصور يضع المعقول في محك التساؤل الفلسفي النقدي، وبحولنا من الحديث عن العقل الظاهر المنتصر كما عبرت عنه تيارات العقلانية الكلاسيكية، إلى العقل المنكسر المحدود كما صورته الاتجاهات المعاصرة، التي أسست لمعالم فكر فلسفي مختلف تبدلت فيه النظرة إلى نماذج العقلانية، وتم إعادة الاعتبار لمقولات التعددية والاعتراف بالخصوصية الفكرية، بمجالات توصف عادة باللامعقول كالدين والفن وجميع التقاليد المختلفة، والظفر بالمساءلات النقدية لنماذج العقل بمعناه الحداثي، ولقيم التنوير الفلسفي ونظراته في التقدم الحضاري. ومن بين هذه المحاولات ما قدمه "بول فيرايند" (Paul Feyerabend) من تصور مثل به مرحلة أخرى من مراحل التفكير الفلسفي المعاصر المتفتح على مختلف التقاليد والقيم الفكرية المتعددة. لذا حاولنا في هذا المقال تبيان مدي تأثير "بول فيرايند" بالفلسفة العدمية عند "نيتشه" (Nietzsche) التي تطرقت بالنقد لمركزية العقل.

فما هي دلالات فهم اللامعقول في الفلسفة "نيتشه"؟ وإلى أي مدي أثرت في فلسفة اللامعقول عند "فيرابند"؟

بعد نيتشه من الفلاسفة الألمان الدين أسسوا وبصورة واضحة لنزعة جديدة تفكيكية رافضة لمشروع التحديثي الغربي، القائم على العقلانية العلمية في صورها المادية، هذه العقلانية شكلت واجهة المشروع العلمي في العصر الحديث، وأصبح العلم يشكل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية بسبب قوانينه الموضوعية والدقيقة، والتي جعلت من مجتمع الحداثة فضاء خالياً من كل غائية وصار العقل المعيار الأساسي في ضبط النشاط العلمي والتقني، بل امتد أيضاً إلى النشاطات الثقافية والاجتماعية وإلى أنظمة الحكم والتسيير الإداري، وإلى التحكم في السلوك والعواطف. فصيغت أنساق ثابتة وأسست أنظمة معرفية تستند إلى نقطة ثبات غير قابلة للتغيير، بل أصبحت هذه الأنظمة معياراً أساسياً للعلمية. في ظل هذا التصور الغربي الذي رسمته الفلسفة الغربية الحديثة مثله في التيار العقلاني سواء في جانبها الثوري الإيجابي، الذي أدى إلى التقدم العلمي الحضاري وما ترتب عليه من ثورات تكنولوجية مهمة أسهمت في خدمة البشرية وجانبها السلبي، الذي دفع بالعقل إلى التحول لمجرد أداة أنتج ما يسمى بأزمة الحداثة وتداعياتها الراهنة، من أحداث دامية أصبحت تهدد البشرية، إضافة إلى تداعيات أكثر خطورة سجلت على مستوى الفكر تتمثل في انحصار الذات، وسجنها داخل إطار نسقي جامد، جاءت فلسفة "نيتشه" لتمثل لحظة تبلور وتحول كبير وضعت كل معارف وقيم الفلسفة الغربية وتصوراتها موضع الشك، موجهةً مطرقة نقدية لمختلف المفاهيم الكبرى كالمعرفة، والعقلانية، والموضوعية حيث مزق الحجج والأقنعة عنها، ليفتح مجال اللامعقول، ويبعد طريق النقد الفلسفي لكثير من الفلاسفة من بعده أمثال ميشال فوكو (Michel fauault) و"جاك ديردا" (Jacques derrida) جيل دولوز (Gilles deleuze) ووصولاً إلى "بول فيرابند" (Paul feyerabend).

لقد انتبه "نيتشه" لخطورة الثوابت التي وضعها فكر الحداثة على الفكر الإنساني الحر وعلى إرادة الإنسان في الخلق والإبداع، فقدم مساءلات نقدية للتخلص من هيمنة العقل، ويفتح مجال اللاعقل واللائظام واللاحقيقة مقتحماً فكرة مركزية العقل الأوربي مزعزعة أركانه، ممهداً الطريق نحو اللاعقلانية، والتي يري فيها خلاصاً للإنسان من أصنام وأوهام المقدس، مؤكداً "أن كل ما ينتجه العقل من مفاهيم وأنظمة فلسفية وعلمية هو مجرد تأويلات وأوهام سرعان ما تتحول إلى أصنام، إن الحقيقة هي شيء آخر لا يمكن لكل هذه المنظومات والأنساق الإبانة عنها، بل على العكس، إنها

تتكاثف لتضع دون الحقيقة حججاً صلبة، يصعب إزاحتها أو زحزحتها بغير هدمها¹. فكل المفاهيم التي يدعي أصحابها أنها يقينية بحكم العقل مثل العلية والحتمية، لا تخلوا من المصلحة والتحيز، فهي مجرد أوهام وأساطير ابتدعها البعض لتمكين سيطرتهم وسلطتهم على الغير، وقبولنا لأفكار الآخرين هو مجرد خضوع "لإرادة القوة"²، وليس انتصاراً لمنطق العقل، هذا التصور له ما يشابه في فلسفة "فيرابند" عند ما يعتبر العقلانية وسيلة من وسائل الإقصاء، لكل المحاولات المعرفية التي تقوم بها التقاليد الأخرى، والتي توصف باللاعقلانية، كالأسطورة والفن والدين، إذ يقول: "إن الدين يدعون بالعقلانية اخترعوا مبررات لتفضيل ما يعتقدون به، وأضافوا عليه صفة العقلانية، وهم في ذلك يقصون كل التجارب الإنسانية"³.

إن الحقائق والتفسيرات العقلية تخضع لتوازن القوي، والحقيقة التي يدعيها أصحاب العقلانية لا تماثل الواقع، ولا تقترب منه وإنما هي انعكاس لإرادة القوة فالمعرفة عند نيتشه هي أداة للقوة، وكلما تزداد هذه القوة تزداد معها المعرفة، هكذا يتخذ نيتشه من إرادة القوة مبدأ لسن شريعة التأويل الفاعل وأساس لتوكيد الحياة وتقويمها خاصة وأن الحياة هي المبدأ الذي من أجله تقوم إرادة القوة، بمنح العالم والأشياء مدلولاً لها، فحيثما تتغير شروط الحياة والوجود تتغير معها الدلالة المعرفية، " فالمعرفة عملية تفسيرية تقوم على احتياجات حيوية وتعبر عن إرادة السيطرة وعلى فيضان الصيرورة المبهمة ويذهب نيتشه إلى أن المعرفة النافعة خليط لا شكل له من الانطباعات والعلاقات، فإذا تصورنا أن هذا الخليط يمثل الواقع الحقيقي أو الصيرورة نكون قد جانبنا الصواب"⁴. فالوجود الحقيقي الذي نسعى لمعرفته يتجسد على مستوى المظاهر لا على مستوى الجوهر، وهو تعبير عن أوهام واعتقادات مختلفة، فحقيقة الشيء في ذاته تختلف عن تصوراتنا له، فما نعتقد أنه معرفة هو مجرد تأويلات تحمل بخلفيات ثقافية واجتماعية وسياسية، فالحقائق العلمية والفلسفية وهم وزيف لا تعكس المعرفة الخالصة بقدر ما هي وسيلة للتأقلم فرضتها الحاجة، "إن العقلنة الفلسفية والعلمية للواقع هي وسيلة ذرائعية لتيسير الحياة الإنسانية، وتدل العقلنة على الكشف عن حقائق مطلقة أو جوهرية للعالم"⁵.

تجسد هذا التصور لدي فلاسفة العلم المعاصرين، حيث بين "هانسون"⁶ (Hanson) أن تجاربنا ومعطياتنا الحسية، إنما محملة بالنظرية، وهي مجرد تأويلات تشكلت بواسطة الخلفية الثقافية

للباحث، فلا وجود على الإطلاق لمعطيات ثابتة محايدة، فما يكون ملحوظاً لا يمكن ملاحظته كواقعة مفردة، بل يمكن ملاحظته فقط من خلال ارتباطه بوقائع أخرى وكما يقول فتجنشتين (Wittgenstein) "فكما لا نستطيع تخيل الأشياء المكانية خارج المكان، ولا الأشياء الزمانية خارج الزمان كذلك لا نستطيع أن نتخيل شيئاً معزولاً عن ارتباطه بأشياء أخرى"⁵.

يؤيد "فيرابند" تصور "هانسون"، فكل ما يتم ادراكه لا يخرج عن إطار الحمولة الثقافية والاجتماعية التي تشكل الخلفية العامة لمفاهيم النظرية العلمية، "فكل ما هو مدرك يعتمد على ما هو معتقد"⁶.

إن العقل مهما بلغ من درجة اليقين غير قادر على إدراك المعارف بالصورة التي هي عليها، وما ندعيه معرفة هو مجرد وهم لا يحمل الحقيقة، هذه الأفكار شكلت نقاط تداخل بين فلسفة "نيتشه" وفلسفة "فيرابند"، ما يبين مدي تأثير هذا الأخير "بنيتشه" الذي يؤكد من جهته أن معارفنا تزور الواقع، ولا تقدمه على حقيقته، فهو يرفض موقف الفلاسفة الذين يفسرون العالم على أنه مظهر مطلق ثابت، فلا يوجد أشياء تحمل الحقيقة في ذاتها، وإن وجدت هذه الحقيقة يتعذر عنا معرفتها، والعالم الحقيقي ما هو إلا عالم الظاهري الذي تم صياغته وتنظيمه حسب متطلبات المنفعة والحياة، والصورة التي نضيفها للعالم هي صورة خلقتها وسائلنا الخاصة في المعرفة، وهي من تكوين ذهن الإنسان المشبع والحمل بخلفيات ثقافية اجتماعية.

جعل "نيتشه" المعرفة تخضع لإرادة القوة، ومقياس الرغبة في المعرفة يعتمد على هذه الإرادة، التي تجعل الموجود في متناول التفكير، لغرض الحفاظ على الحياة "فأداة المعرفة بأسرها هي أداة للتجريد والتبسيط، وهي موجهة من أجل السيطرة على الأشياء والإستلاء عليها وعلى هذا لا يوجد إدراك إلا بمقدار ما يكون نافعا"⁷.

يتضح أن المعرفة عند "نيتشه" لا تعكس حقيقة الواقع بل تعكس إرادة معينة مدعمة بقوة تجعلها قادرة على تغيير المسار المعرفي حسب النفع والمصلحة، فالإنسان هو الذي يصوغ المعايير التي يقرر من خلالها قيمة الأشياء، ويضع أنساق يسميها بقواعد الفكر والمنطق فيصف بعضها بأنه حقيقة والبعض الآخر بأنه زيف. فالمبادئ التي تعتمد عليها المعرفة مجرد أوهام وأساطير وعقائد

قراءة في فلسفة اللامعقول من لامقلانية نيتشه إلى لامقلانية فيرايند ————— شاذلي هواربي

واستراتيجيات، ابتدعها البعض ليبرر فشله وعدم قدرته على مسايرة حالات الصيرورة، والتغير الدائم التي تعرفها الحياة.

يرفض "نيتشه" كل الأفكار والمفاهيم التي يدعي أصحابها بأنها أزلية ثابتة ومثالية "فيصف أفلاطون بمنحط الأفكار والمفاهيم المجردة البعيدة عن متغيرات الحياة والزمن والتي فقدت معناها، وأصبحت بدون جدوى مشبه هذا الأسلوب بطريقة الفراعنة في تحنيط الكهنة والزعماء قصد تخليدهم".⁸ فلا وجود لمعرفة حقيقية حسب المفهوم الأفلاطوني، كل المعارف من اختراعنا، واللغة المستخدم في المعرفة مجرد خداع. فالمفاهيم المطلقة "المثل" "الجوهر" "الهيولي" "الله" في نظر "نيتشه" غير موجودة في حد ذاتها، وما هو موجود تشكل من خلال تلك الشظايا المختلفة والمتفرقة من شتات المعطيات والتخيلات والتفاسير الفوضوية، التي نقوم نحن بتشكيلها وترتيبها حسب إرادتنا ونسميها في الأخير بالمعرفة. فالأشياء لا توجد لها قيمة في حد ذاتها لكن قيمتها تنتج عن فعل التقويم الذي يعبر به الإنسان عن رغباته وغرائزه، يعني عن إرادته للقوة فالإنسان هو الذي يحدد ما هو صحيح وما هو خاطئ، وهو الذي يعطي الأشياء معناها ويقومها ويجعلها إنسانية تابعة له، فالصيرورة هي الواقع الوحيد، ولكنها غير قابلة للإدراك أو المعرفة، ولا يمكن التعبير عنها بصدق لأنها تحمل التناقض ومنافية للواقع الحقيقي، الذي لا يدركه أحد، فلا يوجد وقائع معطاة لنا مباشرة، وإنما توجد تأويلات. يقول "نيتشه" لا يجب أن نبحث عن الظاهرية في غير موضعها، فليس هناك شيء أكثر ظاهرية، وتعبير أدق ليس هناك وهم أكبر من هذا العالم الخارجي الذي نراقبه بذلك الحس الباطني الشهير"⁹. هذه النزعة الشكية النقدية وجدت بكل معانيها في فلسفة "فيرابند" الذي يدعوا إلى إعادة التفكير فيما نعتقد أنه صحيح، وعدم الإيمان بالظواهر والقوانين المحيطة بنا دون فحصها، ونقضها والسعي لتغييرها، لأنها لا تحمل الحقيقة فالعلم باعتباره معرفة يمارس نوع من الاستبداد عندما ينصب نفسه معياراً للتمييز بين ما هو مشروع وما هو ممنوع، لكن في الأصل هو مشروع فوضوي، فلا وجود لنظرية علمية متماسكة خالية من شوائب الزيف واللاعلم. "فالعلم في نظره عمل فوضوي والفوضوية أكثر إنسانية من العلم، ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام"¹⁰.

إن النقد الذي وجهه نيتشه للمعرفة لا يخلو من نقده للعقل، وهنا يبدو تأثير "نيتشه" على "فيرابند" جلياً من خلال رفض مركزية العقل والتفتح على اللامعقول، فالفكر الفلسفي طيلة تاريخه آمنة بقدرة العقل في التحكم في العواطف والسلوك والسيطرة على الطبيعة وإعطاء الأولوية في تحقيق الوعي والتميز بين ما هو حقيقي وما هو زائف وجعل بعض القدرات الأخرى كالإرادة والرغبة أفعال لاحقة للعقل، ووضع تقاليد المجتمع وثقافته وفنونه ومعتقداته في خانة اللامعقول، هذا التصور الذي رسخته النزعة العقلية التي تبنت مركزية العقل مع "ديكارت" (Descartes) و"سبينوزا" (Spinoza) وغيرهم من دعاة العقلانية الذين تبنا مركزية العقل. رفضه الكثير من الفلاسفة ابتداء من "شوبنهاور" (Schopenhauer) الذي أسس لترتيب جديدة وضع الإرادة في قمة الهرم وجعل العقل تابع لرغباتها، "فالعقل في الفلسفات السابقة، مثل القدرة التي يتجوهر بها الإنسان في الكون، وبه اعتبر غاية الوجود، وجوهره، وبأن الكون بأسره خلق من أجله فإن المعادلة ستقلب مع "شوبنهاور"، الذي لم يتوان في الانقلاب عن العقل، وثانياً على الإنسان، ككائن ظل طويلاً يتوهم أنه حيوان عاقل" ¹¹. هذه الإرادة التي تحدث عنها "شوبنهاور" تبناها "نيتشه" ليفتح جبهة جديدة من الفلسفة، ويشق لنفسه حقلاً معرفياً جديداً

قوامه النقد لكل الثوابت والقيم. ومن أهم انتقاداته تلك التي وجهها لمبادئ العقل، فينزع عنها صفة الحقيقة، ويعتبرها قوانين ذاتية خالصة تخضع لحركة الحياة وصيرورتها المتغيرة، "فمبدأ الهوية الذي ينص على بقاء الشيء على حاله ومطابقته لذاته دوماً، فإن هذا الأمر لا يتماشى مع حالات الصيرورة، فمبدأ الهوية وسيلة يصنعها العقل للاهتمام إلى نقطة واضحة خلال تيار الصيرورة الذي لا ينقطع" ¹².

يعتبر "نيتشه" أن مبادئ العقل مجرد أوهام يستخدمها الإنسان ليبر نفعه من الناحية العملية، وهي لا تخرج عن إرادة القوة، وأكبر وهم أمانة به الناس هو العقل فلا نحتاجه في حياتنا، فهو يشكل خطر باعتداده الإقصاء الذي يمارسه على التقاليد الأخرى بحكم أنها لا تتماشى مع العقل ومبادئه. كما أنكر "نيتشه" الكثير من المفاهيم واعتبرها مجرد صيغ اصطلاحية، فالذات وموضوع، وعلة ومعلول، والجوهر والكينونة، كلها معاني لا وجود لها وهي من نتائج اللغة لا غير، ومجرد مقولات نحوية بعيدة عن الواقع وليست عقلية أو وجودية. أما بالنسبة لمقولة "الضرورة التي

قراءة في فلسفة اللامعقول من لامعقلانية نيتشه إلى لامعقلانية فيرايند ————— شاذلي هواري

تعتبر الركيزة الأساسية للعقل العلمي، فهي مجرد تعبير عن قوة ما. والغائية ما هي إلا نشاط من التفاعلات تعبر عن نظام القوة، ولا يوجد ما يسمى بالعلة أنها مجرد خوف من الأمور غير المألوفة إنما مجرد بحث عن المألوف، والقول بالعلة والمعلول ليس إلا محاولة لتنظيم العالم على نحو يجعله معقولاً ومقبولاً¹³.

إن حقيقة الوجود وجوهره يتناقض مع العقل الذي يدعي معرفة كل شيء، فلا يمكن معرفة العالم المتنوع والمتعدد بواسطة العقل المحدود، لأن معطيات الحياة ليست على نمط موحد مما يجعل العقول تختلف في تأويلاتها إزاء الأمر الواحد، والتأويل المشروع الذي يفرض منطقته وتفسيره هو التأويل الذي يمتلك مؤوله القوة، فيحقق نجاحاً يوصف بالحقيقة، لا يوجد عقل إنساني واحد، وإنما توجد عدة عقول تتميز بتمايز الظروف والأحوال والإرادات، فتختلف الآراء باختلاف العقول، فالحقيقة الثابتة ليست في متناول إدراكات العقل، بل هو مجرد تعبير عن عناصر متلازمة في الواقع، فكثير من الدوافع المظلمة لا يدركها العقل، رغم ما يدعيه من عقلانية في تفسير الظواهر فالواقع يشهد حركة دائمة يسميها "نيتشه" بالضرورة التي لا يستطيع عقل الإنسان احتوائها بصفة شاملة، فما يعرف بأنه حقيقة فهي من منظور معين لا تعكس حقيقة الواقع في ذاته بل تعكس حقيقة منطق القوة، أو كما يسميها "نيتشه" الحقيقة "الديونزية"^{***}.

يرى "نيتشه" أن اللاعقلانية تمثل البديل لعلاج كل التصورات المغلقة التي يعتقد أصحابها أنها تمثل الحقيقة "فالاعتقاد السائد بأن العقل الإنساني قادر على التوصل إلى علم يستطيع أن يزوده بمعرفة يقينية وانساق أخلاقية (أي أن يوسع العلم والعقل أن يحل محل الدين) هو وهم ليس إلا"¹⁴. يتخذ "فيرابند" موقفاً مماثلاً إذ يبين أن العقل غير قادر على إدراك المعارف بالصورة التي هي عليها، والعقلانية ما هي إلا قناع يستخدم من طرف أصحاب المذاهب والأيدلوجيات يجسدون بها مواقف خفية، ويمارسون السلطة لإقناع الآخرين، ويستخدمون البراهين العقلية حسب الحاجة يقول فيرايند: "إن البراهين العقلية التي يدعي أصحابها أنها عقلانية لا يمكنها أن تكون مقنعة إلا بالنسبة للأشخاص الذين هيئوا للاقتناع بها مسبقاً"¹⁵.

يقترح "فيرابند" بدائل ضد الذوغمائية التي يمارسها العقل على أنماط التفكير المختلفة، ليثبت أهمية اللامعقول في تقدم العلم وتحرير الفكر من قيود العقلانية، لأن ذلك يفتح مجال التنافس

أمام مختلف التقاليد، الفنية والدينية والثقافية للمشاركة في عملية التطور، يؤكد "فيرابند" على أهمية إنجازات الحضارات القديمة في ميدان علم الفلك والهندسة والطب. ويشير إلى "حقباً مشهورة في العلم يفخر بها علماء وفلاسفة، بل عامة الناس لم تكن عقلانية، فهي لم تحدث بطريقة عقلانية حيث أن العقل لم يكن هو القوة المحركة لها، ولم يتم الحكم عليها بصورة عقلانية"¹⁶. فالعلم ليس نظاماً معرفياً مقدساً ولا يشكل أرقى أشكال المعرفة، إنما هو ينمو ويزدهر وسط شتات من الأنظمة المعرفية الأخرى التي تحيط بنا، وتحركها عوامل الوعي الحضاري للمجتمع عبر مراحل الزمن المتواصل، وضرورة الحياة كما يعبر عنها "نيتشه". فالعلم لا يمتلك تلك السلطة العقلانية المطلقة التي توجه باقي الأنشطة الاجتماعية، لأنه نتاج لتضافر نشاطات كثيرة إنسانية واجتماعية، لذا يجرد "فيرابند" العلم من سلطته المطلقة على المجتمع ويدعو إلى تحرير المجتمع من سلطة العلم، ويضع مجال المعرفة أمام المنافسة الحرة اتجاه كل التقاليد، وهذا تماشياً مع النزعة الفوضوية التي يري فيها حلاً لتجاوز الأطروحات المغلقة التي عرفتھا الاتجاهات المعاصرة في فلسفة العلم سواء، داخل النزعة التحقيقية^{****} التي دعت إليها جماعة "حلقة فينا"^{*****} أو النزعة التكوينية، كما دعي إليها "كارل بوبر" (karl popper).

إن العالم الذي دعي إليه "نيتشه" هو نفسه العالم الذي تبناه "فيرابند" "عالم بدون مركزية ولا سلطوية، فلا يوجد عقل إنساني واحد متكامل وشامل يصدر أحكام كلية على حقائق الوجود، فالعقل ليس مستقلاً عن العناصر المحيطة به في الواقع، فالمنطق والأفكار الثابتة لم تكن ثمرة رغبة في المعرفة الحقيقية، وإنما الدافع الحقيقي من وجودها هي السيطرة والامتلاك، يقدم "فيرابند" تفسيراً مشابهاً، فهو يدعو إلى تحرير العلم من سيطرة السلطة، وفصل السياسة عن العلم، لقد تم تقديس العلم إلى درجة أنه أصبح الوسيلة الوحيدة لحل كل مشاكل الإنسان، وفك كل أسرار الكون، فأصبح العلم عقيدة قوية، أدت إلى إقصاء أنساق معرفية أخرى وصفت باللاعقلانية، ومن ثم أصبح العقل العلمي هو المصدر الوحيد للتطور المادي والتشريع الاجتماعي والأخلاقي وتعاليت صيحات تدعو إلى علمنة السلوك البشري وثقافة المجتمع، كمحاولة لمراقبة النشاط الإنساني والاجتماعي، كما هو الأمر في ميدان الطبيعة، فالعلم هو نتاج جهد اجتماعي يشارك فيه جميع أفراد المجتمع، يقول

"فيرابند": "فعندما يتولي الرجل العادي الإشراف على العلم، يضحى العلم والعلماء خاضعين للمجتمع، وليسوا أسياداً عليه"¹⁷

كما يرفض "فيرابند" القول بالمنهج الصارم الوحيد في المعرفة العلمية، ويشيد بالتعدد والاختلاف الذي يمكن الفرد من إبراز طاقاته، ويسمح له بالمشاركة في أي انجاز علمي أو معرفي، وهذا ما أشار إليه "نيتشه" من قبل، إذ يلح على ضرورة اكتساب معاني جديدة وأطروحات غير مألوفة تحل محل الثابت المقدس، وتخترق مجال اللامعني واللاعقل، وتسقط جميع التأويلات التي أصبحت تلف العالم والوجود، فالقول بالحقيقة المطلقة والمنهج الصارم هو ضرب من ضروب التعصب، يقول نيتشه "لقد تم استعمال وتشجيع الحقيقة، أعني المنهج العلمي، من طرف أولئك الذين خمنوا فيها أداة حرب عملاً هداماً... ولكي يتم الاعتراف بهم كخصوم احتاجوا فضلاً عن ذلك إلى أداة شبيهة بتلك التي استخدموها: - كانوا يظهرون فكرة الحقيقة بشكل مطلق مثلما يفعل خصومهم - أصبحوا متعصبين"¹⁸.

إن "نيتشه" لا يعترف بالحقيقة الموضوعية، ويعتبرها مجرد اختراعات من إبداع العلماء والفلاسفة لأسباب ذرائعية ونفعية، فلا يمكن اعتبارها نموذجاً للمعرفة الحق فهي لا تعكس الواقع على حقيقته، فلا علاقة بين استنتاجات العقل الفلسفي والعلمي وبين الواقع، إن العقل حسب "نيتشه" سواء في شكله الفلسفي أو في شكله العلمي الرياضي غير قادر على استيعاب المظاهر المختلفة للوجود، والحياة ولا الإحاطة بها ولا تفسيرها موضوعياً، يقول "نيتشه": "إن الإنسان الموضوعي مرآة متعود على الرضوخ لكل شيء يريد أن يعرف"¹⁹. ففهم الوجود لا يكون على المستوي النظري، بل يستخلص من معايشة المظاهر وهي تختلف باختلاف الاعتقادات والتصورات، فالعقل لا يمكنه فهم كل مستويات الحياة، خاصة تلك المرتبطة بالرغبة والعاطفة، فالإنسان يحوي مستوي آخر مغاير لمستوي العقل الموضوعي، يتمثل في مختلف التقاليد الأخرى، فدراسة الفن والموسيقى والمسرح، وكل مظاهر الحياة المتعددة التي يعيشها الإنسان لا تخضع بالضرورة للتفسير العقلي الموضوعي.

تجسد هذا الطرح في فلسفة "فيرابند" من خلال رفضه للموضوعية التي يري أنها جردت الإنسان من إنسانيته، مقترحاً الفوضوية كبديل لها، لأنها تقدم الفرص لكل الأفكار والتقاليد لكي

تنموا على قدم المساواة، دون تعطيل إحداها بداعي الموضوعية، فلا يمكن أن ننقل الواقع بصورة موضوعية كما هو، بل نصفه من خلال تصوراتنا الخاصة المحمل بالطابع الثقافي والاجتماعي، لذا فالقول بالموضوعية لا أساس له من الحقيقة، لأن الباحث لا يمكنه أن يتجرد من هذه التصورات، ومن طابعه الذاتي، فأصحاب التصورات المختلفة يقولون بالموضوعية لإطفاء صفة الشرعية على أفكارهم لا غير، فكل تصور أصبح يصف ما يقوله بالموضوعية، ويصفون أفكار غيرهم بالذاتية. فتطور العلم يقتضي عدم التمسك بفكرة الموضوعية، لأن ذلك سوف يؤدي إلى إقصاء الكثير من النظريات بحكم أنها غير موضوعية، فالعلم في نظر "فيرابند" "ذو طابع إنساني ومن الطبيعي أن تؤثر فينا الذاتية الإنسانية، وإذا أردنا أن نكون موضوعين، فإن ذلك سيكون على حساب إنسانيتنا"²⁰ لكن ومن جهة أخرى فإن "فيرابند" يرفض أن نربط العلم بالإرادة الإنسانية، والتي هي إرادة لتحقيق مصلحة ما، "أصبح أساس العلم المصلحة الإنسانية، وبدا فقد العلم عقلانيته الموضوعية في الطبيعة وصار تابعاً لقرارات الإرادة الإنسانية ومصلحتها، فهي كأية إيديولوجية تصدر عن الإرادات الإنسانية"²¹.

خاتمة:

من خلال التحليل السابق يظهر مدي قوة تأثير فلسفة "نيتشه على أفكار "فيرابند" فإن كان "نيتشه" قد وجه مطرقته على كل القيم الاجتماعية والأخلاقية، فإن "فيرابند" استعارة منه هذه المطرقة لوجهها وبنفس الطريقة، على العقل والعلم والمنهج. ليشق طريق البحث اتجاه مساءلة العقل وفتح مجال اللامعقول، والسبب يعود إلى ممارسات العلماء في ميادين البحث، التي لم تتمكن من الوصول إلى الحقيقة العلمية.

الهوامش:

- 1- البكاري كمال، ميتافيزيقا الإرادة، أرخيا المعني في الذات والسلطان، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2000م، ص75.
- *مبدأ كوني يحدث التناهي في الأشياء، ويبرز ذلك موجودة الوجود بمعنى أن قيمة الأشياء تتغير تبعاً لتحول الاعتبار الموجود، فالشيء يتخذ معني مغاير كلما غير المؤول من الزاوية أو المنظور الذي يؤول من خلاله.
- انظر أويغن فنك، فلسفة نيتشه، ص220.
- 2- Feyerabend Paul. Adieu la raison.tr de l'anglais par B. Jurdant edition -seuil.paris 1996.p341.
- 3-عبد السلام صفاء علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر(د ط)1999م، ص294.

قراءة في فلسفة اللامعقول من لاهوتانية نيتشه إلى لاهوتانية فيرابند — شاذلي هواربي

- 4- العنبري رجاء، جدلية المعقول واللامعقول، دار سحر للنشر، تونس، (د ط) 2001م ص 49
**الإسم الكامل نوروود راسل هانسون، فيلسوف علم أمريكي ذو نزعة براغماتية (1924-1967).
- 5- لدفيج فتجنشتين، رسالة منطقية فلسفية، ترجمة د عزمي اسلام، مكتبة الأنجلو المصرية (د ط) 1968م، ص 64.
- 6-feyabend paul; (problems of empiricism) in beyond the edge of certainty; ed; by; r colodny; prentice-hall Englewood cliffs; 1966; p220.
- 7- عبد السلام صفاء علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، مرجع سابق ص 294.
- 8- بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه ومهمة الفلسفة، قلب تراتيب القيم و التأويل الجمالي للحياة، دار العربية للعلوم ناشرون، ط 1 2010م، ص 130.
- 9- نيتشه فريدريك، إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم، ترجمة وتقديم محمد الناجي، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط) 1991م، ص 202.
- 10- فيرابندبول، ضد المنهج، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي، طبعة للطلبة، 2005 م، ص 21.
- 11- بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه و مهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص 39.
- 12- عبد السلام صفاء علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، مرجع سابق، ص 299.
- 13- عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، مرجع سابق، ص 300.
- ***هي الحقيقة التي يؤمن بها الرجل الأعلى المتفوق.
- 14- عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجدور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت، (ط 1)، 2010م، ص 173.
- 15-Feyerabend paul. adieu la raison. op. cit. p341.
- 16- فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد، نشر منشأة المعارف الإسكندرية (د ط) (د س) ص 208.
- ****هو جملة العمليات التي تضع لها فرض من الفروض موضع الفحص التجريبي وينصب بوجه عام على حالة معينة. انظر المعجم الفلسفي
مذكور براهيم ص 170.
- *****نشأت حلقة في فيينا عام 1922م، لغرض مناقشة الأفكار العلمية والفلسفية، مبدأها العام ما أقره العالم أرنست ماخ، ومؤداه أن العلم أساسه وصف للتجربة والخبرة، ترأس هذه الحلقة موريس شلينك، أستاذ العلوم الاستقرائية بجامعة فيينا، سميت فيما بعد بالوضع المنطقية، حيث لعبت دوراً بارزاً في تشكيل طابع التفكير العلمي والفلسفي، من أهم روادها كارل بوب، فتجنشتاين، نيوتن، فيكتور كرافت.
- 17- عوض عادل، الإستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (ط 1) 2004م ص 55.
- 18- نيتشه فريدريك، إرادة القوة، مرجع سابق، ص 195.
- 19- نيتشه فريدريك، ما وراء الخير والشر، تباشير فلسفية للمستقبل، دار الفارابي، (د ط) 1885م، ص 161.
- 20-Dissake emmanuel mallalo. ferabend. épistémologie anarchisme et société libre ; paris : puf. 2001 ; p66.
- 21- حاج اسماعيل، حيدر، بنية الثورات العلمية، دراسة منشورة في مجلة الاعراب والتفكير العلمي، العددان الثالث والعشرون والرابع والعشرون، بيروت، 2008م، ص 112.

المنهج الفينومينولوجي وإشكالية المعرفة

"قراءة في فلسفة إدموند هوسرل"

الدكتور لـ كحل فيصل، جامعة تيارت

ملخص: يبين إدموند هوسرل في مؤلفه "أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا المتعالية" وكذلك "فكرة الفينومينولوجيا" أن الفلسفة بحاجة إلى منهج دقيق يتوافق مع موضوعاتها، وقد حدد المنهج الفينومينولوجي، كمنهج جديد ينبغي على الفلسفة أن تتجدد من خلاله، إن الفينومينولوجيا موضوع ومنهج، فهي موضوع من حيث أنها علم بالظواهر، ومنهج من حيث أنها خطوات محددة تتوافق مع العلم بهذه الظواهر.

الكلمات المفتاحية: المعرفة، العلم، الفينومينولوجيا، المنهج، العقل، الظاهرة، الشعور.

Edmund Husserl shows, in his book "The Crisis of European Science" and "Transient Phenomenology", as well as Phenomenology, that philosophy needs a precise method in line with its themes. The phenomenological method has been defined as a new method in which philosophy should be renewed. Phenomenology is a subject in that it is a science of phenomena and method. And a methodology in that they are specific steps that correspond to the knowledge of these phenomena.

key words : Knowledge, Science, Phenomenology, method, Mind , Phenomenon , Feeling.

مقدمة: إن ما يميز فلسفة إدموند هوسرل (1859-1938 Edmund Husserl)

هو كونه أعادت بشكل فلسفي جديد طرح سؤال المنهج، لأن الفلسفات السابقة في نظره أخطأت هدف الفلسفة الأساسي ولم تتمكن من أن تطال موضوعاته بسبب تغييب المنهج الملائم الذي يمكن من خلاله البحث في موضوعات الفلسفة، وبذلك كان هدف مؤلفه الأساسي "أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا المتعالية" وكذلك مؤلف "فكرة الفينومينولوجيا" و"التأملات الديكارتية" هو التوضيح والبيان النظري للمنهج الفينومينولوجي باعتباره بديلا عن المناهج الفلسفية الكلاسيكية وكونه موضوعا ومنهجاً جديداً للفلسفة. فالفلسفة في نظره تجد موضوعها ومنهجها في الفينومينولوجيا، وهذا راح هوسرل يؤسس الدعائم الإيجابية والأنطولوجية للفينومينولوجيا كموضوع ومنهج من

خلال مبادئ الفينومينولوجيا وخطواتها المنهجية. لكن: ما هي أبعاد المنهج الفينومينولوجي الذي أسس له هوسرل؟ وكيف يمكن من خلاله قراءة المشكلات الفلسفية الميتافيزيقية؟ وهل يعد بالفعل المنهج البديل الذي يمكن للفلسفة أن تُحدد ذاتها من خلاله؟

1- خطوات المنهج الفينومينولوجي وسؤال المعرفة:

إن معنى لفظ الفينومينولوجيا عند هوسرل يدل على معنى مزدوج، "الفينومينولوجيا: (لفظ) يدلّ على علم وعلى نظام من الميادين العلمية، غير أن ((فينومينولوجيا)) تدل كذلك وفي الأصل على المنهج وعلى موقف للفكر: ((موقف الفكر الفلسفي)) بخاصة، و((المنهج الفلسفي)) بخاصة"^[1]، إن الفينومينولوجيا علم بالظواهر وهي في الوقت نفسه منهج للمعرفة.

إن الخطوة الأولى من خطوات المنهج الفينومينولوجي هي (إيبوخي (Epochè)، و"إيبوخي (Epochè): مفهوم يستعيره هوسرل من النزعة الشكية القديمة للدلالة على الإجراء المنهجي الذي يتيح للفينومينولوجيا الانتقال من الموقف الطبيعي إلى الموقف الفلسفي الترنسندنتالي"^[2]، غير أن الإيبوخي يختلف عن معنى ومضمون الشك بالمعنى الفلسفي الكلاسيكي، كونه خطوة منهجية إجرائية لا تكمن في تهديم أو إنكار المعرفة، وإنما هو تعليق الحكم اتجاه الظواهر والموضوعات المعطاة لنا في العالم أو وضعها بين ((قوسين)) ريثما تتجلى ماهيتها وحقيقتها في أفق الذات.

إن مسار الإيبوخي في نظرية المعرفة عند هوسرل لا يتوقف عند تعليق الأحكام اتجاه الذات السيكلوجية العارفة، وإنما هو يطال كل ما وصل من التاريخ من معارف وأحكام جاهزة، والتي ينبغي أن يطالها الإيبوخي يقول هوسرل "إننا نحن المتفلسفون الجدد، ننجز الإيبوخي كتغيير للموقف انطلاقاً من موقف الوجود البشري الطبيعي الذي هو الموقف الأسبق ليس لأسباب عرضية، بل ماهوية، بل انطلاقاً من ذلك الموقف الذي لم ينقطع أبداً في الحياة والعلم طوال تاريخية الوجود البشري بأكملها"^[3]، إن المعرفة إذ تأخذ بالبعد المنهجي الفينومينولوجي من خلال الإيبوخي فإنها تلغي الأحكام المطلقة والجاهزة التي تضمنتها العلوم والمعارف الدغمائية والثوقية التي جب أن تخضع إلى مطلب المنهج الفينومينولوجي للكشف عن ماهيتها، "بل مع الإيبوخي يصبح في الواقع نظر الفيلسوف متحرراً تماماً وقبل كل شيء متحرراً من ذلك القيد الداخلي الأقوى والأشمل والأكثر خفاءً، من قيد العطاء المسبق للعالم. ومع هذا التحرر وفيه يتم اكتشاف ذلك التعالق الشامل، المنغلق

مطلقا على ذاته والمستقل مطلقا، بين العالم ذاته ووعي العالم"^[4]، لأن العالم موجود معطى لنا كمجموعة أشياء وظواهر قابلة للمعرفة من جهة الذات والتالي فإن الوعي هو من يحرر الأشياء والموضوعات من وجودها الغفل بأن يجعلها موجودة بالنسبة للوعي.

إن المنهج الفينومينولوجي في مرحلة الإيويخي لم يصل إلى ما يجب أن يؤسس المعرفة الترندنتالية الممكنة لأن المعرفة لا تحصل بمجرد التوقف عند النقد الفينومينولوجي وتعليق الأحكام اتجاه الآراء والمواقف التاريخية، أو إزاء الظواهر المعطاة لنا في فعل المعرفة، "الفينومينولوجي لا يتوفر أبدا بمجرد إنجاز الإيويخي على أفق مشاريع جديدة ممكنة تلقائيا، فلا يوجد أمامه مباشرة حقل ترندنتالي للعمل مشكل مسبقا في نمطية تلقائية. إن العالم هو المجال الوحيد لتلقائيات معطاة مسبقا"^[5]، إذ يحتاج المنهج الفينومينولوجي أن يثبت فعاليته من خلال مرحلة البناء والتأسيس، لأن الإيويخي يعد الخطوة التي تمهد السبيل في هذه المهمة.

تعتبر القصدية^[6] الخطوة الثانية من خطوات المنهج الفينومينولوجي، وقد استمد هوسرل الـ"قصدية (Intentionalitat) من برنتانو الذي استعاره بدوره من الفلسفة السكولائية. يعتبر برنتانو أن القصدية هي السمة الأساسية التي تطبع الظواهر النفسية وتمكننا من تمييزها. تعني القصدية عموما أن كل وعي هو وعي بشيء ما، أي بالمقارنة مع فلسفت سابقة، بل حتى مع التصور قبل الفلسفي"^[7]، ذلك أن نقطة الاختلاف التي يتميز بها المنهج الفينومينولوجي عن بقية الفلسفات السابقة هو أن الذات باعتبارها أساسا للمعرفة لا يمكنها أن تحوي وعيا وشعورا فارغا من كل محتوى، أو وعيا يحوي أفكار مسبقة كما اعتقد ديكارت (الأفكار الفطرية) أو كانط (المقولات القبلية)، وإنما هو وعي وشعور يحمل موضوعات وظواهر، لأن المعرفة هي في الأخير معرفة هذه الموضوعات والظواهر ذاتها، ولا توجد معرفة بدونها.

يقول هوسرل: "نجد أنفسنا إزاء علم لم يصل معاصرونا بعد إلى تصور مداه الواسع. صحيح أنه علم للشعور، لكنه مع ذلك ليس علما للنفس. إنه علم لظواهرات الشعور في مقابل علم طبيعي عن الشعور"^[8]، وهكذا يكون مضمون الفينومينولوجيا كمنهج للمعرفة مختلف عن المعرفة السيكلوجية، لأن المعرفة السيكلوجية تبقى على مستوى ما هو نفسي، أي كعلم بأحوال النفس وحالاتها وتغيراتها، "إن علم النفس يهتم بالشعور التجريبي"، أي بالشعور من وجهة النظر

التجريبية، والشعور بوصفه موجودا هناك (آنية) في مجموع الطبيعة أما علم الظاهرات فيهتم بالشعور "الخالص" أي الشعور من وجهة النظر الظاهرية"^[9]، فالشعور بالمعنى الفينومينولوجي إنما هو علم بظاهرات الشعور التي تتجلى للشعور في علاقته القصدية بموضوعات المعرفة. "وللفظ ظاهرة معنى مزدوج بمقتضى التضاييف الجوهرية الذي بين ((الظهور)) و((الظاهر)). إن (فاينومنون) تعني بالأخص الظاهر، ومع ذلك يرجع استعمالها للدلالة على الظهور عينه، الظاهرة الذاتية (إن جاز استخدام هذه العبارة، وهي أقرب أن تفهم بالمعنى النفسي الفج)^[10]، إن الظاهرة ليس لها أي معنى مستقل إلا بالنسبة للذات فالظاهرة تكمن في اعتبارها معطى قابل للمعرفة الذاتية. بل أن هوسرل اعتبر أنه لا يوجد خارج الذات عالم موجود، لأن كلمة "Est" ليست لها خارج هذه الذاتية أية دلالة^[11]

إن كل ما هو قابل للمعرفة إنما يعطى نفسه من جهة ما هو موضوع للذات، ولكن ما تعيشه الذات كقصد للمعرفة إنما يختلف بطبيعته عن الموضوع الفعلي الذي يعطى لنا في علاقة القصدية، "إن المعيشات المعرفية تنطوي، بحسب طبيعتها، على قصد (intentio)، أي أنها تقصد شيئا ما وتعلق بهذا النحو أو ذاك بموضوع. إن فعل التعلق بموضوع هو شيء منها، في حين أن الموضوع ليس كذلك، بل الموضوع بإمكانه أن يظهر، وأن يكون له في ظهوره نحو من الإنعطاء، في حين أنه غير حال مع ذلك في الظاهرة المعرفية فعلا (reel)، ولا هو موجود بأي نحو بوصفه فكرا. إن إيضاح ماهية المعرفة ورفع تساؤلات الماهية التي تنتمي إليها إلى (رتبة) الإنعطاء بالنفس إنما يدل على سير البحث في ماهية المعرفة"^[12]، إن ما يضمن فعالية المنهج الفينومينولوجي في المعرفة هو أن المعرفة بناء يتكون، لأنها ليست معطاة لنا في الظاهرات بشكل مباشر ولا هي كامنة في أفق الذات بشكل قبلي أو مسبق، إن العلم بالماهيات هو الغاية القصوى للمنهج الفينومينولوجي.

إن القصدية باعتبارها فعلا معرفيا انعكاسيا للعلاقة بين الذات والموضوع في عملية المعرفة، إنما تقود إلى عملية الرد^[13]، ذلك أن القصد لا يبقى حبيس الموضوع المقصود، وإنما يعود إلى الذات محققا المعرفة، ولذلك فـ"مفهوم "الرد الفينومينولوجي" يلقي تحديدا أقرب وأبلغ ويتخذ معنى أوضح: إنه ليس رفعا للمفارق الفعلي (ربما بمعناه النفسي-التجريبي)، وإنما رفع المفارق بعامة من حيث هو وجود يمكن الإقرار به، أي كل ما ليس بمعطى بديهي بالمعنى الأصل، معطى كمطلق للنظر

المحض^[14]، فالرد الفينومينولوجي لا يعطي للذات مشروعية المفارقة إلا لأن الذات قد حققت بفضل القصد المعنى، حيث أن القصد يجلب معه معنى الظاهرة أو ماهيتها في بنية الذاتية المتعالية التي يتحول معها المعنى إلى وعي محض، قد تخلص بفضل الإيبوخي من الأحكام والافتراضات المسبقة للأنا السيكولوجي، وبذلك يرتبط المعنى بـ(علم الماهيات).

إن الذات في قصدها للظواهر تفارق هذه الظواهر ذاتها في محاولة فهمها ومعرفتها، "إنه ظاهر أن أمر التعلق بالمفارق (Das sich-auf-Transzendentes-beziehen) قصده على هذا النحو أو ذاك إنما هو من الصفات الذاتية للظاهرة. ولعله يبدو أن علما فقط بالأفكار المطلقة هو أمر مطلوب.^[15]، فالمفارقة أمر ضروري بالنسبة للوعي الذي بإمكانه أن يصل إلى معرفة محضة اتجاه هذه الظواهر، لأن البقاء على مستوى الأنا السيكولوجي، لا يمكن من الوصول إلى الماهيات إلا من خلال مفارقة الظواهر إلى العلم بماهياتها في الوعي المحض. "إن مفارقة الشيء تقتضي أن نضعها موضع سؤال إذ نحن لا نفهم كيف يمكن للإدراك أن يبلغ المفارق في حين أننا نفهم كيف يمكن للإدراك أن يبلغ المحايث على شاكلة إدراك تأملي ومحايث محض^[16]، إن الوعي لا بد له أن يفارق الظواهر والموضوعات حتى يمكنها أن يدركها وأن يعرفها، ولذا فإن الـ"مفارقة (Transcendenz/ Transcendence) تمثل النقيض الفينومينولوجي لمفهوم المحايثة من جهة إحالتها على كل ما يستمد وجوده وشرعيته من خارج الوعي ونظامه. إن المفارقة هي أصل الإشكال لأنها لا تحمل إمكانها ولا ماهيتها، أي مبدأ معقوليتها في نفسها من جهة أنها تثير ضرا من المباشرة الأنطولوجية بين جنس وجود الوعي وبين جنس موضوعاته. والمفارقة ليست علامة على موضوعات أو أشياء بعينها، أو أوضاع أشياء أو أمور فقط، وإنما على آلية تفكير تفترض إضفاء الموضوعية على الموضوعات قبل السؤال عن إمكانها ومن دون ماهية هذا الإمكان بالنسبة إلى الوعي. ولذلك فإن الفرق هين بين المفارقة والمحايثة الفعلية^[17]، إن الفرق بين المفارقة والمحايثة في الاعتبار المعرفي الفينومينولوجي^[18] هو أن المفارقة تكمن من جهة العودة إلى الذات أي في تخارج الوعي ومفارقته للذات، أما المحايثة فتكمن في تحقيق هذه العودة بشكل يقيني ومطلق، حيث تتحقق الهوية والمطابقة، في عودة الوعي لذاته وقد حقق المعرفة.

يبين هوسرل أن "البحث لا بد أن يوجه صوب معرفة علمية ماهوية للشعور، صوب ذلك الذي يجعل الشعور ذاته "هو ما هو" حسب ماهيته في أشكالها القابلة للتمييز، ولكن لا بد أن يوجه، في الوقت نفسه، إلى ما يدل عليه الشعور، وبالمثل يوجه صوب تلك الأساليب المختلفة التي بمقتضاها- طبقا لماهية هذه الأشكال المشار إليها من قبل"^[19]، فالفينومينولوجيا لا تهتم في البداية بالشعور الخالص وإنما هي تهتم بما يقصده الشعور أي بموضوعات المعرفة، ووفق ما تقتضيه القصدية، وفعل المعرفة يحصل من خلال العلاقة القصدية بين الذات والموضوع، ونتيجة لعملية الرد الفينومينولوجي بمعناه المزدوج، تنتج المعرفة بالماهيات. ذلك أن الفينومينولوجيا علم بالماهيات الخاصة في علاقة الشعور القصدية بين الذات والموضوع، والتي تكون نتيجتها بعد عملية الرد الوصول إلى الماهيات وحدها دون غيرها. "وطالما أن الظاهرات الخالصة بوصفها علما تظل خالصة ولا تفيد من عملية وضع الطبيعة على نحو وجودي، فإنها لا يمكن أن تكون إلا بحثا في الماهية ولا يمكن إطلاقا أن تكون بحثا في الآنية (أي الموجود هناك)"^[20] Dasein

بعد إنجاز الإيويخي والإرجاع الفينومينولوجي تبقى المهمة المطروحة على الفلسفة الفينومينولوجية هي تفسير كيف يتوصل الوعي إلى الاعتقاد بوجود موضوعات متعالية عليه، أي كيف يتخطى دائرته الداخلية وينسب للموضوعات في العالم وجودا قائما بذاته"^[21]، والبناء-Constitution، هو المهمة التي تحقق ذلك، إذ بعد حضور الوعي لذاته وإجراء عملية الإيويخي، يكون الوعي وعيا بالماهيات وهو مبرر فعل المعرفة الذاتية Ego individual والمعرفة البيذاتية Inter Subjectivité^[22]1929

يبدو أن الوعي الفينومينولوجي معرفة بالظواهر، ولكنه لا يتوقف عند خصائص هذه الظواهر كما تهدف إلى ذلك الفلسفة التجريبية الحسية وإنما هو يبحث في ما وراء هذه الظواهر عن الماهيات التي تكشف عنها الذات وتؤسس لها في بنية الشعور القصدي المعنى الفينومينولوجي، "إن منهج نقد المعرفة هو المنهج الفينومينولوجي الفينومينولوجيا بما هي نظرية عامة في الماهية التي يدخل فيها علم ماهية المعرفة"^[23]، إن الفينومينولوجيا الهوسرلية ليست معرفة بالموضوعات وفقط، بل هي معرفة بالماهيات، وما يقصد بالماهية في الاعتبار الفينومينولوجي يختلف عن التحديدات الميتافيزيقية،

لأن الماهية التي يتم الوصول إليها فينومينولوجيا إنما هي الصورة المكتملة لمعرفة الظواهر كما تبدو عليه في عملية الوعي بالنسبة للذات العارفة.

إن الوعي يفتح على قصدية الشعور بالمعنى العيني Concrete المعيش^[24]، الذي تعيشه الذات باعتباره شعورا ترونسندناليا يتحقق في الكوجيتو عن طريق القصدية، حيث العالم يعطي نفسه بنفسه للشعور الذي يعطيه معناه، بعد أن يكون القصد قد تم من الذات إلى الموضوع، وكنتيجة لعملية الرد من الموضوع إلى الذات تتحقق الماهية في المحايثة، ويكتمل تحقق الشعور الأصيل في الذات المتعالية، التي لا تبقى على مستوى الموضوع المقصود بل أنها تلامس قصد الشعور ذاته، حيث يتصل مضمونه بما هو ملموس ومعيش Concret، بيد أن العالم بعد عملية الرد الفينومونولوجي ستأخذ منه وقائعيته، ليصبح كمجرد ظاهرة محايثة للشعور بمعناه الفينومينولوجي^[25]

يفهم هنا أن فعل المعرفة الذي هو قصد مزدوج بين الذات والموضوع إنما يمنح للذات في الأخير القدرة على احتواء الظواهر والتأسيس لها في بنية الوعي الماهوي، "إن الذات كجزء من العالم تبتلع، إذا صح التعبير العالم بأسره والنتيجة تبتلع، نفسها هي أيضا"^[26]، فالقدرة التي تملكها الذات لا تكمن فيها بشكل مسبق كما اعتقد ديكاوت وكانط وإنما الذات تملك تلك الفاعلية في المعرفة من خلال استحوادها على الموضوعات التي تبدو كظواهر بالنسبة للذات، لأن الذات في الأخير هي التي تعطي لعالم الموضوعات والظواهر حقيقته وماهيته الحققة. لأن "جديد المنهج الفينومينولوجي عند هوسرل هو تجاوز الفهم الكلاسيكي لعلاقة المعرفة بين الذات والموضوع والذي تأسست عليه الميتافيزيقا الغربية، من خلال مفهوم القصدية - L'intentionnalité حيث تتأسس أفعال الوعي على مسألة القصد في مباشرة الذات لموضوعها"^[27]، فالمنهج الفينومونولوجي لا يبقى إلا على الماهيات المحتجبة وراء الشعور التي هي وحدها مصدر كل ما هو قطعي وبديهي، بما فيه وقائعية العالم وتجربة الوعي في معرفته للعالم، هذا بعد التخلص من كل ترسبات الوعي السيكلوجي الساذج الذي يرد إلى أساسه المتعالي "الذات المتعالية"، مبرر كل معرفة متعالية يمكن أن تصبح علما، كما أن الأحكام المسبقة التي تطلقها الذات على الموضوع انتهت مع هوسرل إلى البداهة، التي تمنح صفة اليقين لكل حكم، هذه البداهة هي ما تحققه القصدية في تطابق القصد مع موضوعه.^[28]

إن الفكر الفينومينولوجي الذي يفكر الظواهر لا يوجد منعزلاً، لأن الذات توجد في عالم مع غيرها من الذوات الأخرى التي تفكر هذا العالم نفسه، ومن ثم يكون العلم بالظواهر تفكيراً مشتركاً، "إنني لا يمكن أن أفكر ذاتي دون آخرين، دون إجماع معهم، إنني أولد داخل الجماعة، وبذلك فأنا مدين للتواصل الدائم مع الذوات الأخرى بمضمون تمثيلي للعالم، ولهذا، فإن العالم له مسبقاً بالنسبة لي ولكل إنسان معنى ((عالم للجميع))"^[29]، والمعنى الذي يتشكل في بنية الذات العارفة إنما هو معنى مشترك بين الذوات، وبالتالي فإن هدف الفينومينولوجيا هو الانتقال من الذاتية العارفة إلى البين-ذاتية.

لكن الاعتراض الذي يمكن أن يطرح على المنهج الفينومينولوجي، هو كيف يمكن للذات العارفة أن تكون أساساً للمعرفة في الوقت الذي هي ظاهرة من بين ظواهر المعرفة، يقول هوسرل "ما شأن سؤالنا المطروح الآن عن البشرية كذاتية تبني العالم ومع ذلك تندرج هي ذاتها في العالم؟"^[30]، لقد كان هوسرل على وعي بالاعتراضات التي يمكن توجيهها للمنهج الفينومينولوجي في ما يخص الدور الذي يمكن أن يغال الذات العارفة في علاقتها بموضوعات المعرفة، فالذات تكون موضوع للمعرفة وفي الوقت نفسه كفاعل منتج للمعرفة، إن القصدية تجعل من الذاتية بعداً موضوعياً متحققاً في الظواهر، فهي المعنى أو التصور الذي تحقق من خلاله الذات فعاليتها المعرفية كما أنها تعطي للظواهر معناها ومعقوليتها، "إن الفلسفة الفينومينولوجية، إذ تجعل من عمق الحياة الترنسندنتالية للذاتية التي يتم فيها بناء كل وجود موضوعي بوصفه معنى للوجود، قيمة لتأويل قصدي تحليلي توضح أيضاً في الوقت نفسه كيف يحصل ترنسندنتاليا الوجود الموضوعي للذات في العالم، وجودها نفساً بشرية. وبذلك تدرك طبيعة الإنسان الثنائية المتسمة بالغمز: من جهة حياة ذاتية — منجزة لكل ما هو موضوعي، ومن جهة أخرى موضوعاً بين الموضوعات"^[31]، إن الذات العارفة/ المتعالية في نظر هوسرل أساس معرفة العالم في الوقت الذي تندرج هي ذاتها في هذا العالم، كظاهرة من بين الظواهر، وبالتالي فإن معرفتها تابعة لمعرفة الظواهر وقصدها لذاتها إنما يمر عبر وسائط، وليس بصفة حدسية مباشرة كما اعتقد ديكارت. إن الذات في عملية المعرفة تقصد الموضوعات، ولكن ما هو شأن القصد بالنسبة للذات ذاتها؟ هل يمكن للذات أن تقصد ذاتها في عملية المعرفة؟ إن معرفة الذات لذاتها عند هوسرل تختلف هنا عن الاعتبار الديكارتي الذي ينظر إليها بمنظور الاستبطان

الذي تؤسس من خلاله الذات يقين معرفتها بذاتها، عن طريق حدس مباشر، إن هوسرل يذهب إلى اعتبار معرفة الذات كموضوع للمعرفة وكقصد عارف، حيث لا تحوي الذات في بداية الأمر سوى القصد الذي يتجه بها إلى عالم الموضوعات والظواهر، والذات بما هي ذات هي ظاهرة في شكل موضوع معطى في العالم ومن ثم فإن معرفة الذات لذاتها تمر بوسائط تجعل فعل المعرفة ممكناً وموضوعياً.

2- المنهج الفينومينولوجي كبديل للأنساق المعرفية الكلاسيكية:

إن الفلسفات القديمة سواء كانت قبل سقراط أو مع أفلاطون أو أرسطو كان هدفها الأساسي (العلم/ المعرفة) بجملة الكائن في كليته وشموليته، لذلك كانت كلها فلسفات ميتافيزيقية تسعى إلى بلوغ الحقيقة المطلقة وبالتالي "كانت الفلسفة في انبثاقها القديم تريد أن تكون ((علماء))، معرفة شاملة بكلية (Universum) الكائن، لا معرفة يومية فضفاضة ونسبية: (Do'xa)، بل معرفة عقلية (Epistème). لكن الفلسفة القديمة لم تبلغ بعد الفكرة الحقيقية للعقلانية وفي ارتباط مع ذلك الفكرة الحقيقية الجديدة للعلم الشامل — كان هذا اقتناع مؤسسي العصر الحديث. إن المثل الجديد لم يصبح ممكناً إلا مع نموذج الرياضيات وعلم الطبيعة اللذين تم تجديدهما^[32]، لكن الفلسفات القديمة لم تبلغ المعنى الحقيقي للمعرفة العقلانية ولا أن تكون علماً بالمعنى الحق، لأن فكرة العلم الشامل إنما هي فكرة الحداثة الغربية التي انبثقت مع تطور الفيزياء والرياضيات، وذلك منذ أن سعى ديكارت إلى تطبيق المنهج الرياضي على موضوعات الفلسفة، وتأسيس الميتافيزيقا انطلاقاً من مبادئ وقواعد المنهج الرياضي.

لقد كانت نظرية المعرفة هي السمة البارزة للإشكالات الفلسفية الكبرى التي طرحتها الفلسفة منذ بداياتها الأولى، ولكنها لم تكن في شكل نسقي ومنهجي منظم إلا مع العصر الحديث ابتداءً مع ديكارت ومع جون لوك ودافيد هيوم وكانط، وقد كانت الفلسفة بذلك صراعاً بين النزعة الوضعية والنزعة الذاتية مثلما كانت قديماً صراعاً بين النزعة العقلية والنزعة الحسية، استمر هذا الصراع طوال تاريخ الحداثة، كانت الفلسفات العقلانية والمثالية والذاتية ترى في الاتجاه نحو الذات وإثبات قدراتها المعرفية أساساً للمعرفة التي تكونها حول الموضوع انطلاقاً من قدراتها وفعاليتها، ومن هنا كان "تاريخ الفلسفة كله منذ ظهور ((نظرية المعرفة)) والمحاولات الجديدة لفلسفة ترنسندنتالية

هو تاريخ التوترات الشديدة بين الفلسفة ذات النزعة الموضوعية والفلسفة الترنسندنالية تاريخ المحاولات الدائمة للمحافظة على النزعة الموضوعية وبنائها في شكل جديد، ومن جهة أخرى محاولات النزعة الترنسندنالية للتغلب على الصعوبات التي ترتبط بفكرة الذاتية الترنسندنالية والمنهج الذي تقتضيه [33]

لقد كان هوسرل واعيا بمختلف التشكلات الفلسفية التي حوّاها تاريخ الفلسفة وخاصة تاريخ الحداثة في ما يخص إشكالية المعرفة، إن الصراع الذي ظهر بين مختلف الفلسفات حول نظرية المعرفة إنما كان اختلافا حول المنهج الذي يمكن أن يقتضيه التأسيس لنظرية المعرفة، حيث كانت المعرفة منظورا إليها كعودة للذات العارفة كما ظهر عند ديكارت وسبنوزا وكانط، أو بمنظور العودة إلى الموضوع وإلى التجربة الحسية كما ظهر عند فرنسيس بيكون وجون لوك ودافيد هيوم، هذا الانشطار كان بسبب سوء فهم مقتضيات المنهج الذي يمكن للفلسفة أن تتبعه من أجل تأسيس نظامها المعرفي.

من هنا يعيد هوسرل طرح سؤال المنهج في علاقته بسؤال المعرفة، حيث كشف من خلال قراءته لتاريخ الفلسفة وللفلسفة الحديثة خصوصا أن الأمر المفقود هو سؤال المنهج، حيث لم تعمق هذه الفلسفات سؤال المنهج وفق ما يقتضيه سؤال المعرفة بالشكل الذي يتلاءم فيه موضوع المعرفة مع سؤال المعرفة ذاته، ولأجل هذا قدم هوسرل نقدا فلسفيا عميقا لأشهر الفلسفات التي راحت تؤسس سؤال المعرفة إنطلاقا من نظرة ضيقة للمنهج الفلسفي.

إن الفلسفة الديكارتية أسست للمذهب العقلاني انطلاقا من المنهج الرياضي المستوحى من الرياضيات حيث اعتبر المنهج الرياضي المنهج الملائم لجميع العلوم والمعارف، والذي لا بد للفلسفة أن تؤسس معارفها عليه، ولكن المنهج الرياضي الذي أسست عليه العقلانية الديكارتية قاد الميتافيزيقا الديكارتية إلى إستحالات عدة، في ما يخص تأسيس يقين وجود الذات العارفة التي تحررت من الشك المطلق، وكذا في علاقتها بيقين وجود الله والعالم الخارجي، إن الميتافيزيقا الديكارتية بدت ميتافيزيقا وثوقية دوغمائية أكثر من اللازم، وأنه للسبب ذاته لم يكن المنهج الرياضي منهجا بديلا، لأن منهج الرياضيات ليس من طبيعة موضوعات الفلسفة تتطلب موضوعات الفلسفة منهجا ملائما لموضوعاتها وإشكالاتها. تبدو سلسلة اليقينيات التي أكدها ديكارت استعجالا

لتثبيت الميتافيزيقا على أرض صلبة (المنهج الرياضي)، ولكن لا يمكن تعميم هذه اليقينيات المفترضة افتراضاً، لا يمكن للعلوم الأخرى أن تتأسس على الميتافيزيقا الديكارتية التي اعتبرت المنهج الرياضي منهجاً لكل العلوم والمعارف. "ديكارت لم يحقق بالفعل الجذرية الأصلية لأفكاره، من أنه لم يخضع كل آرائه المسبقة والعالم في كليته للإيخوي لم يضع ذلك ((بين قوسين)))، من أنه بسبب تلهفه على هدفه لم يستخلص بالضبط أهم ما بلغه في أنا (ego) الإيخوي من أجل أن ييسط في ضوئه فقط دهشة (thaumazein) فلسفية"^[34]، إن منهج الشك الذي اتخذه ديكارت طريقاً من أجل الوصول إلى الحقيقة وإلى اليقين الميتافيزيقي الذي كان ينشده إنما كان شكاً منهجياً مقصوداً وليس شكاً فعلياً راديكالياً، يجد هوسرل في المنهج الفينومينولوجي من خلال الخطوة الأولى له (الإيخوي) بديلاً عن الشك الديكارتي، ذلك أن (الإيخوي) يعني وضع كل الأحكام والافتراضات المسبقة بين (قوسين)، وذلك يعني تعليق كل الأحكام التي من شأنها أن تثبت شيئاً ما اتجاه وجودها واتجاه العالم، أي اتجاه كل الظواهر المعطاة ريثما تتجلى بوضوح للوعي، وهذا يختلف عن الأحكام الميتافيزيقية الديكارتية التي أقرها ديكارت مسبقاً باعتبارها يقينيات لا يطالها الشك، لأن الإيخوي ليس رفضاً لوجود الظاهرة وإنما هو تعليق الحكم عليها أي عدم الحكم عليها في البداية سواء بالإيجاب أو السلب، لكن الظواهر في نظر ديكارت ذات يقين تفره الذات المفكرة.

يعيد هوسرل النظر الفلسفي في إشكالية المعرفة إلى البدء الديكارتي والضبط إلى الكوجيتو باعتباره البدء النظري للحدث الغريبة برمتها، والتالي فإن كل الفلسفات التي تأسست إنما كانت قراءة وفهم جديد للاعتبار الديكارتي، بل أن نظرية المعرفة التي بلغت هالتها العليا في النظرية النقدية الكانطية لم تنفذ بشكل عميق إلى النظرية الديكارتية على الرغم من أنها شكلت نقطة البدء بالنسبة لها، "لم ينفذ كانط أبداً إلى الأعماق الهائلة إلى الاعتبار الأساسي الديكارتي، كما أن إشكاليته الخاصة لم تدفعه أبداً إلى أن يبحث في هذه الأعماق عن التأسيسات والقرارات الأخيرة"^[35]، لذلك نجد أن هوسرل يعود في تأسيسه للمنهج الفينومينولوجي إلى الاعتبار الديكارتي في نظريته للمعرفة من خلال قراءة عميقة لمؤلفاته وخاصة مؤلف "تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى" والتي أعاد استئنافها بشكل فينومينولوجي جديد في مؤلفه "تأملات ديكارتية"، ولكن هذا بعد تعديل عميق لها وتصحيح لمسارها.

يقول هوسرل "ألاحظ على هامش ذلك أن الطريق الأقصر جدا إلى الإيخوي الترنسندنتالي في كتابي أفكار من أجل فينومينولوجيا خاصة وفلسفة فينومينولوجية، الذي أسميه ((الطريق الديكارتي)) وذلك لأن بلوغه تم بمجرد تعمق متمعن في الإيخوي الديكارتي لكتاب التأملات بفضل تطهير نقدي له من أحكام ديكارت المسبقة وأخطائه، له عيب كبير يتمثل في أنه، وإن كان يقود دفعة واحدة إلى الأنا (ego) الترنسندنتالي، إلا أن هذا الأخير يظهر، بسبب غياب كل بسط (Explication) سابق كما لو كان فارغا من أي مضمون"^[36]، إن الأنا العارف عند ديكارت أنا فارغ لا يحوي في ذاته أي معرفة بالظواهر المعطاة لنا وفق ما تقتضيه طبيعة المنهج الفينومينولوجي، وأنه لهذا الاعتبار بالذات نجد هوسرل يرفض الطرح الديكارتي في ما يخص نظريته للأنا العارف لأن ديكارت اعتبر ومنذ البداية أن الأنا العارف أنا مطلق يملك يقين معرفته بذاته بمعزل عن الظواهر والعالم، لكن الأنا العارف بالنسبة لهوسرل ظاهرة كغيره من ظواهر العالم.

إن الخطأ الواقع في الاعتبار الديكارتي اتجاه المعرفة هو أن النفس / المفكرة بعد إجراء عملية الشك عليها تتحول مباشرة إلى يقين أول لا يمكن الشك فيه مطلقا، لكن "النفس الخالصة ليس لها في الإيخوي أي معنى اللهم إلا (كنفس) بين ((قوسين))، أي مجرد ظاهرة (phenomen) مثلها مثل الجسد. ينبغي أن لا ننسى هذا المفهوم الجديد ((للظاهرة)) الذي نشأ لأول مرة مع الإيخوي الديكارتي"^[37]، فالوضع بين ((قوسين)) يطال النفس المفكرة ذاتها كما يطال البدن أيضا، لا يستثني هوسرل من الإيخوي النفس المفكرة مثلما فعل ديكارت وإنما يجعل من الإيخوي تعليقا لكل الأحكام والافتراضات المسبقة، إن النفس ظاهرة لا بد أن تخضع هي أيضا مثلها مثل الجسم للاعتبار الفينومينولوجي في خطواته الأولى (الإيخوي). لكن "ماذا يميز إذن التغيير الذي يحدثه الإيخوي الفينومينولوجي؟ لا شيء سوى أننا نمتنع عن أن ننجز في كيفية طبيعية، ببساطة ومباشرة، تجربة العالم وكل أنواع من الفعالية المتجهة نحو العالم، بحيث أننا بدل الموقف الأصلي الموضوعي النزعة ننجز الموقف الذاتي النزعة المقابل له، أي باتجاه حياة الوعي المعالقة التي فيها يستمد كل وجود موضوعي صلاحيته وإثباته الكامل بهذه الدرجة أو تلك. إننا لم نفقد مع الإيخوي شيئا من عالمنا الواقعي. لكنني أحرزت بفضل وبفضل مواصلة الإنعكاس الفينومينولوجي شيئا كبيرا"^[38]، إن خطوة الأيخوي لا تلغي يقين وجود الذات، لأنه "عند إنجاز الإيخوي يكون الأنا معطى في يقين

قطعي، لكن معطى "كعينية خرساء" يجب تأويلها والتعبير عنها، وذلك في "تحليل" قصدي نسقي يسأل ارتداديا انطلاقا من ظاهرة العالم. في هذا النهج النسقي نبلغ في البداية تعالق العالم والذاتية الترنسندنتالية الموضوعة في البشرية^[39]، إن وجود الذات في مرحلة الإيويخي يحتاج إلى تأويل قصدي معين لعلاقتها بالعالم وبالظواهر، حيث المعرفة تكمن في التعالق القصدي بين الذاتي الترنسوندوننتالي والعالم.

إن منظور هوسرل للعالم المعطى يختلف عن المنظورات الفلسفية المذهبية التي جاءت قبله، "العالم هو كلية الأشياء، الأشياء التي تشغل في صورة العالم المكانية- الزمانية ((محلات)) بكيفية مزدوجة (حسب الموضع المكاني والموضع الزماني)، كلية الكائنات (onta) المكانية- الزمانية. بذلك تكمن هنا مهمة إنشاء أنطولوجيا لعالم العيش مفهومة كنظرية عامة عينية لماهيات هذه الكائنات (onta)^[40]. إن العالم هو مجموع الأشياء التي في المكان والزمان والتي تعطى لنا في ماهياتها الخالصة في مجال الوعي الترنسوندوننتالي الذي يؤسس يقين وجود العالم، فالعالم يتأسس في بنية الوعي بما هو كذلك في إطاره الزماني والمكاني بما فيها تجربة الوعي كجزء من هذا العالم، وبالتالي فالعالم هو العالم الذي تعيشه الذات كيقين، "أن نعيش يعني دائما أن نعيش في يقين من العالم. أن نعيش يقطين بمعنى أن نكون يقطين للعالم، أن نكون ((واعين)) دائما وفعليا بالعالم وبنفسنا بصفتنا نعيش في العالم، أن نعيش بالفعل يقين وجود العالم، أن ننجزه بالفعل، إنه معطى مسبقا في كل حال بحيث تعطي معه كل مرة أشياء فردية".^[41]

إن العالم كتجربة معرفية للإدراك معطى قبلي سابق عن كل الظواهر البعيدة، حيث العالم هو تنجزه الذات وما تفعله في عالمها المعيش، فيقين وجود العالم لا يمكن أن تقره سوى الذات التي تؤكد يقين وجوده.

يبدو أن سبب عودة هوسرل في تأسيس الفينومينولوجيا إلى ديكاوت، هو أنه وجد في الديكاوتية أساس الحداثة ومبدأها النظري، المبدأ الذي أعاد ترتيب سؤال المعرفة انطلاقا من العقل النظري فتحا جديد للفلسفة سارت على هديه جل الفلسفات التي جاءت بعده، وما كان لكانط سوى أنه عمق بكثير من التعقيد والغموض القصد الديكارتي وزج به في ثنائيات ومقولات للفهم ما كان له أن يعيد تأسيسها بشكل منهجي منظم، كما أن ميتافيزيقا المعرفة عنده لم تجد مجالها الواسع

في التأسيس النظري لها، يظهر ذلك في تناقضات العقل التي ذكرها في مؤلفه "نقد العقل الخالص" والتي جردت العقل من فعاليته الميتافيزيقية التي منحها له ديكارت، ويظهر من جهة أخرى في تفريقه بين العقل والفهم من خلال إحصائه لمجموع المقولات الأرسطية إضافة إلى مقولتي الزمان والمكان التي نظر إليها باعتبارها ما يتوسط بين عمل العقل (لواء المبادئ) والحس ومن ثم فإن "كانط يسقط بالفعل في نوع من الأحاديث الأسطورية التي يحيل معناها اللفظي بالفعل إلى ما هو ذاتي، لكن إلى كيفية من الذاتي لا يمكننا مبدئياً أن نجعلها تعطي حدساً، لا من خلال أمثلة واقعية ولا بواسطة ماثلة (Analogie) حقة. ولو حاولنا ذلك مع المعنى الذي يمكن تصريفه حدسيا والذي تحيل إليه الألفاظ وجدنا أنفسنا أمام المجال الشخصي البشري، المجال النفسي السيكلولوجي" [42]، إن الذات العارفة/ الترونسوندنتالية بالمنظور الكانطي إنما هي ذات سيكلوجية أكثر من كونها ذات خالصة الوعي بالمعنى الفينومينولوجي، لأن النقد الكانطي آل في الأخير إلى المواجهة في نظرية المعرفة بين الاعتبار الذاتي العقلاني والاعتبار التجريبي، و"ربما يبرز نقد أعمق أن كانط، رغم معارضته للنزعة التجريبية، بقي تابعا، في تصوره للنفس ولمهام السيكلوجيا، لهذه النزعة التجريبية بالذات، وأنه ظل يفهم النفس بمعنى النفس التي تم إضفاء صفات الطبيعة عليها وتفكيرها كمكون للإنسان السيكلوفيزيائي، في زمان الطبيعة، في المكانية- الزمانية. وبناء على ذلك لا يمكن طبعاً أن يكون الذاتي الترنسندنتالي هو النفسي" [43]، إن انشطار النقد الكانطي بالتبعية إلى ما هو عقلائي وما هو تجريبي في الوقت نفسه جعل سؤال المنهج غامضاً في نظرية المعرفة الكانطية بالشكل الذي طغى فيه النقد وإعادة التأسيس من جديد على الإجراء المنهجي الفعلي الذي يمكن للمعرفة أن تتأسس من خلاله. "كما أن البدء الجديد لكانط لم يتمكن بدوره من تأسيس فلسفة ترنسندنتالية نسقية في روح علمية صارمة وبكيفية نهائية. لم يبلغ كانط بداية حقيقية قائمة على التحلل الجذري من كل الاعتقادات التقليدية العلمية وقبل العلمية. إنه لم ينفذ إلى الذاتية المطلقة التي تبني كل كائن في معناه وفي صلاحيته وإلى منهج للوصول إليها في قطعيتها ومساءلتها وتأويلها على نحو قطعي" [44]، لم يبلغ كانط البعد الترونسوندونتالي بشكل قطعي في نظريته للمعرفة وذلك لأن الذات العارفة لا تخضع لمنهج محدد يكشف عن إمكاناتها وقدراتها المطلقة.

يوجه هوسرل نقدا لاذعا للمذاهب والأنساق الفلسفية المثالية التي تأسست بعد كانط، أهمها فينومينولوجيا الروح الهيكلية، والمثالية الذاتية عند فخت، والمثالية الموضوعية عند شلنج، "لنفكر مثلا في التفسيرات القوية لفخته (Fichte) في مشاريع كتابه نظرية العلم أو لهيجل في ((تصدير)) كتابه فينومينولوجيا الروح لماذا بقوا مقيدين بأسلوبهم في التكوين الأسطوري للمفاهيم ويتأويل العالم في إستباقات ميتافيزيقية غامضة، ولم يتمكنوا من الوصول إلى مفاهيم ومناهج صارمة علميا، ولماذا تصور كل أتباع السلسلة الكانطية من جديد فلسفة هي هذا الأسلوب يتضمن المعنى الخاص للفلسفة الترنسندنتالية أنها نشأت من تأملات انعكاسية حول ذاتية الوعي (Bewußtseinssubjektivität) التي فيها تتم معرفة العالم، سواء العلمي أو اليومي -الحدسي، وإنجاز صلاحية وجوده بالنسبة لنا، وأنها وجدت نفسها بسبب ذلك مضطرة لإنشاء اعتبار روحي محض للعالم"^[45]، إن كل هاته الأنساق الفلسفية لم تعمل حسب هوسرل سوى على إعادة تعبئة المعرفة بترسانة مفاهيمية جديدة لا تختلف عن المفاهيم السابقة سوى في أسلوب وطريقة الطرح يظهر ذلك في المفاهيم التي طرحها هيجل (الروح الذاتي/ الروح الموضوعي/ الروح المطلق)، والتي وجود في المنهج الجدلي تفسيرا لطبيعة العلائق بينها، غير أن المنهج الجدلي لم يكن ليؤسس المعرفة بشكل نهائي ومطلق، ينطبق الأمر كذلك في نظر هوسرل في نسقي كل من فخته وشيلنج، ذلك أنه بسبب عجزها عن تفسير العالم راحت تقيم تفسيرات روحية محضة له، كما أن هذه الفلسفات افتقدت إلى الصرامة المنهجية العلمية التي يقتضيها البحث في نظرية المعرفة بشكل فلسفي صارم.

لكن الفينومينولوجيا ليست نظرية علمية نسقية تأخذ بالبعد الموضوعي للعلم، ذلك أنها تهدف إلى بلوغ العلم والمعرفة بالماهيات، "إن الفينومينولوجيا تحررا من النموذج القديم الموضوعي النزعة للنسق العلمي للصورة النظرية لعلم الطبيعة الرياضي، وتحررا بعد ذلك من فكرة أنطولوجيا للنفس يمكن أن تكون مثيلا للفيزياء"^[46]، ولذلك فإن المنهج الفينومينولوجي ليس منهجا علميا على غرار موضوعات الفيزياء والرياضيات، ذلك أنه ولئن كانت هذه العلوم رمزا للموضوعية والتجريد العلمي، ومعياري لليقين والدقة، إلا أنها لا يمكن أن تكون مناهجا للبحث في المعرفة، لأن المعرفة الفينومينولوجية تستمد منهجها من طبيعة موضوعات الفلسفة ذاتها. بل أن هوسرل يعتبر أن أزمة

العلوم سواء في الفيزياء أو الرياضيات إنما كانت بسبب أزمة في فهم الإنسان "إن أساس أزمة العلوم هي أزمة الفهم الذاتي للإنسان. لا يمكن تجاوز هذه الأزمة إلا بتعميق الفهم الذاتي للإنسان"^[47]، لأن علوم الإنسان هي أساس فهم العلوم الأخرى، وبالتالي فإن المعرفة بالإنسان من خلال تعميق الفهم الذاتي في مشكلاتها وموضوعاتها إنما هو السبيل إلى بحث ما يترتب عنها من علوم ومعارف.

خاتمة:

يبدو من خلال التحليلات السابقة لنظرية المنهج والمعرفة عند إدموند هوسرل أنها تجمع في توليفة واحدة بين مقتضيات المعرفة والمنهج الذي يتطلبها، ولذا ينتقد هوسرل الفلسفات القديمة وحتى فلسفات الحداثة من منطلق عدم تأسيسها لمنهج يلائم طبيعة موضوعات المعرفة الفلسفية، إن المنهج الفينومينولوجي الجديد الذي أسس له يتجاوز المناهج الفلسفية الكلاسيكية، لأنها في نظره لم تكن ذات منطلقات فلسفية، بل أنها كانت من خارج اهتمامات الإشكاليات المعرفية (المنهج الرياضي/ المنهج الهندسي/ المنهج الجدلي...)، والمنهج الفينومينولوجي يستجيب لمقتضيات المعرفة الفلسفية الحقة، ذلك أنه يراعى مطلب العلم الكلي والشامل، كما أنه يؤسس المعرفة من خلال التأليف بين البعد الذاتي والبعد الموضوعي، كما يظهر ذلك في تحقيقه لمطلب المحايثة والمفارقة، وكذا في البعد المتعالي الذي يعيد للذات معقوليتها المعرفية في عملية الرد الفينومينولوجي المتعالي/ القطعي.

لقد وظف هوسرل الكثير من المعطيات التي إستمدتها من الفلسفات والعلوم السابقة، ولكن هذا بعد نقدها وإعادة تأسيسها بشكل يستجيب لمقتضيات العلم بالظواهر/ الشعورية، من ذلك أن (الإيويخي) بديل عن (الشك) الديكارتي، ويختلف الإيويخي عن الشك في كون أنه خطوة أكثر معقولة تعتمد على النظر الفلسفي العميق في موضوعات المعرفة دون اتخاذ أي موقف/ حكم، بينما الشك الديكارتي شك عدمي سالب، يعمل منذ البداية على تهديم المعرفة ثم إعادة بنائها من جديد بشكل غير مبرر، إذ كيف يمكن الانتقال مباشرة من الشك المطلق إلى اليقين المطلق الذي يتحقق في الكوجيتو؟ وهل تكفي فرضية الضمان الإلهي ليقين المعرفة أن تكون المعرفة الحقة التي تنشدها الفلسفة؟

يبدو أن هناك الكثير من التساؤلات التي لا يمكن أن نجد لها تبريرات كافية من داخل العقلانية الديكارتية.

كما استمد هوسرل مفهومه عن (القصدية) من فرانتر برينتانو الذي استعاره بدوره من الفلسفة السكولائية. يعتبر برنتانو أن القصدية هي السمة الأساسية التي تطبع الظواهر النفسية وتمكننا من تمييزها. أما في منظور هوسرل فهي تعني عموماً أن كل وعي هو وعي بشيء ما، أي بالمقارنة مع فلسفت سابقة، بل حتى مع التصور قبل الفلسفي، أما (الرد الفينومينولوجي المتعالي/ القطعي) فهو اكتشاف الفينومينولوجيا الهوسرلية التي تعيد تأسيس يقين المعرفة الفلسفية في الذات المتعالية، هذا اليقين الذي يجمع بين بعدي المحايثة والمفارقة وبين البعد الذاتي والبعد الموضوعي في آن. وهذا بعكس الفلسفات الميتافيزيقية السابقة التي تجاهلت أحد هذه الأبعاد وراحت تقيم يقينها على افتراضات مسبقة لا تخضع لمعقولية فلسفية حققة، ومن هنا تتأكد مدى وجاهة الفينومينولوجيا الهوسرلية، كونهما نظرية في المعرفة وفي المنهج في آن.

هوامش المقال:

- [1] - إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، تر: فتحي أنقزو، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007، ص56.
- [2] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، ترجمة د.إسماعيل المصدق، مراجعة جورج كتورة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008، ص640. (الكلام للمترجم).
- [3] - المصدر نفسه، ص241.
- [4] - المصدر نفسه، ص241.
- [5] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق، ص279.
- [6] - يستمد هوسرل مفهوم القصدية من فرانتر برينتانو والتي فحواها أن كل شعور هو شعور قصدي يرتبط بموضوع معين إن الفكر لا يمكن أن يكون فكراً فارغاً بل هو فكر يحوي موضوعات، والقصدية هي إتجاه الفكر نحو الموضوع وهي مبرر المعرفة الممكنة، إذ هناك فرق بين فعل التفكير الذي يحتويه الفكر Noèse وموضوع التفكير Noème، أنظر في هذا الصدد:- لكحل فيصل، "إشكالية تأسيس الدزاين Dasain في أونطولوجيا مارتن هايدغر"، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص86.
- [7] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق، ص644 (الكلام للمترجم).
- [8] - إدموند هوسرل، "الفلسفة علماً دقيقاً"، تر: محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ط1، 2002، ص42.
- [9] - المصدر نفسه، ص43.
- [10] - إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، مصدر سابق، ص44.
- [11] - بونفقه، تادية، "فلسفة إدموند هوسرل، نظرية الرد الفينومينولوجي"، تقديم، عبد الرحمان بوقاف ديوان المطبوعات الجامعية، ط1 2005، ص134.

- [12] - إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، مصدر سابق، ص 94.
- [13] - "ردّ (Reduktion/ Réduction) هذا المصطلح ضبط هوسرل مفهوم المنهج الذي تختص به الفلسفة الفينومينولوجية وتتميز عن باقي الفلسفات والمناهج. فالرد الفينومينولوجي هو عنوان لمنهج ولكنه كذلك عنوان لمقام فكري وروحي يكون بمقتضاه التحول والإنقلاب من الحياة الطبيعية السابقة على الفكر إلى حياة الوعي المتيقظة والناظرة في نفسها ونظامها وماهيتها نظراً تأملياً"، أنظر في هذا الصدد: إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، مصدر سابق، ص 130.
- [14] - إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، مصدر سابق، ص 39.
- [15] - إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، مصدر سابق، ص 83.
- [16] - المصدر نفسه، ص 87.
- [17] - المصدر نفسه، ص 132.
- [18] - "محايثة (Immanenz/ Immanence) هي الصفة الفينومينولوجية الأولى للوعي ومبدأ قوانينه كلها. غير أنه يجب التمييز بين المحايثة الفعلية والمحايثة الفينومينولوجية الخالصة، الأولى تتصل بانضمام فعلي للموضوع إلى الوعي وكأنه وعاء يحوي موضوعاته وهي التي نجدتها في التصور النفسي أو الطبيعي للمعرفة، أما الثانية فمحايثة خالصة هي التي تعطي الوجود الواثق والمطلق وتمكن للإنعطاف بالنفس ولشروط معقوليته: البدهة الحدى، اليقين، المطابقة..."، أنظر في هذا الصدد: إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، تر: فتحي أنقزو، مركز دراسات الوحدة العربية ط 2007، ص 131.
- [19] - المصدر نفسه، ص 41.
- [20] - إدموند هوسرل، "الفلسفة علماً دقيقاً"، مصدر سابق، ص 69.
- [21] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص 641، ص 642. (الكلام للمترجم).
- [22] - Husserl Edmund: "Méditations cartésiennes, trad: Paul Ricoeur, Paris, p.U.f. Epimithée 1981.
- [23] - إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، مصدر سابق، ص 32.
- [24] - يرى هوسرل أن كلمة "عالم العيش (Lebenswelt): تتربك من شقين: Welt عالم وLeben حياة، عيش بمعنى حياة الوعي من حيث هي حياة قصدية"، أنظر: إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق، ص 643. (الكلام للمترجم).
- [25] - "أدائية بونفقة"، فلسفة إدموند هوسرل- نظرية الرد الفينومينولوجي"، مرجع سابق، ص 134.
- [26] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص 279.
- [27] - بن مزيان بن شرقي، "التاريخ ومشكلة الأصل في الفلسفة المعاصرة"، مقال ضمن أعمال ملتقى الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة أيام 21- 22، ماي 2002، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 160.
- [28] - "أدائية بونفقة"، فلسفة إدموند هوسرل- نظرية الرد الفينومينولوجي"، مرجع سابق، ص 134.
- [29] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص 489.

المنهج الفينومينولوجي وإشكالية المعرفة _____ لـ **لحل فيدل**

- [30] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص281.
- [31] - المصدر نفسه، ص516.
- [32] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص126.
- [33] - المصدر نفسه، ص132.
- [34] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص145.
- [35] - المصدر نفسه، ص171.
- [36] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص245.
- [37] - المصدر نفسه، ص147.
- [38] - المصدر نفسه، ص511.
- [39] - المصدر نفسه، ص289.
- [40] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص228.
- [41] - المصدر نفسه، ص228، ص229.
- [42] - المصدر نفسه، ص191.
- [43] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص192.
- [44] - المصدر نفسه، ص303.
- [45] - المصدر نفسه، ص106.
- [46] - إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية- مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية"، مصدر سابق ص385.
- [47] - المصدر نفسه، ص515.

تمثّلات الصحة النفسية عند طلبة علم النفس

دراسة ميدانية لطلبة علم النفس ماستر جامعة تيارت

الدكتورة قريصات الزهرة، جامعة تيارت الدكتورة تواتي عطا الله حياة، جامعة مسنغانم

الملخص:

إن الصحة النفسية كحالة من التكامل بين النواحي النفسية والجسمية والاجتماعية والعقلية هي مبتغى الأفراد والمؤسسات وعلم النفس كتخصص يتداخل مع هؤلاء الفاعلين لتحقيقها وفق مبدأ التكامل والتساند الوظيفي لمكونات أنساق الرعاية الصحية، داخل النسيج الثقافي في ظل مقارنة القيم المتجاذبة في المجتمع الجزائري. بحيث يهدف تخصص علم النفس العيادي من خلال التكوين الأكاديمي المقدم للطلبة الى الارتقاء بهذا التخصص عن التنافس اللاواعي بين العلم المؤسس والترهات والخرافات المترسخة في انظمة تمثّلات القيم. ولكن الملاحظ انه وبعد التحاق الطلبة بسوق العمل كمختصين نفسانيين يتجابه المتكونون بنظام من التبريرات والانكارات اللاواعية للعلاج النفسي فالمعاش البيثقافي للأفراد يشكل عائقا امام هذه الفعالية لتخصص علم النفس وتجسيده في الواقع.

من خلال هذه الدراسة الميدانية نكشف عن: تمثّلات الصحة النفسية عند طلبة علم النفس العيادي في ظل التقاطب بين التكوين الأكاديمي وفعالية ممارسات العلاج التقليدي في المجتمع. البحث في التمثّلات البيثقافية بين التقليدي والحديث في الصحة النفسية عند طلبة الماستر عيادي.

الكلمات المفتاحية: التمثّلات، البيثقافي، منظومة القيم، البنية.

Abstract:

The psychological Health as a state of integration between the psychological, bodily, social, and mental aspects stands to be the desire of individuals and institutions.

Psychology, as a discipline, interferes with these actors to realize it according to the principle of integration and functional synergy of the health care contexts components inside the cultural web under the confronting values approach in the Algerian society in which the discipline of clinical psychology. It aims through the academic formation given to students at upgrading this specialty from the unconscious competition between the institutionalized science and nonsense and myths rooted in the values representations systems. However, what is observed, once students move to the world of work as psychologists is they find themselves face to a system of unconscious justifications and denials of the psychological therapy as the enviro-cultural life of individuals forms an obstacle in front of this effectiveness of the discipline of psychology and to concretize it.

Throughout this study we discover:

- The psychological Health representations among Clinical Psychology students under the polarization between the academic formation and the traditional therapy practice effectiveness in the Algerian society.
- Researching in the enviro-cultural between the traditional and the modern in the psychological health among Clinical psychology Master Students.

Key words: Representation - Enviro-cultural - Values system - structure

مقدمة:

يعتبر موضوع تمثّلات الصحة النفسية من المواضيع الأكثر تعقيدا من حيث تحديد مدلولاتها وهذا راجع لتداخل الاهتمامات والمقاربات كل من زاويتها ومن وجهة نظرها الخاصة، والتطورات التي يشهدها العالم اليوم في شتى المجالات، تعد أكثر تأثيرا على الانسان بحيث يتميز كل مجتمع بنظام للصحة العامة ومؤسسات لضمان خدماتها، ولكن بالمقابل نجد نظاما آخر من القيم والتمثّلات المتعلقة بالصحة أنتجت ثقافة المجتمع وتمثّله الأفراد في فهمهم للأمراض وعلاجهم لها مرتبط بالمعتقدات وبفعالية العلاج التقليدي، هذه الفعالية وبعيدا عن مدى صحتها من عدمها يغذي استمرارية هذه التمثّلات وترسيخها في المجتمعات المختلفة بصور مختلفة الشكل ولكنها تلتقي في أنه نظام خاص يقف إما بجانب النظام المؤسس للصحة العامة أو يقف عائقا أمام تطوره وتمثّل الأفراد له .

إن الصحة النفسية كحالة من التكامل بين النواحي النفسية والجسمية والاجتماعية والعقلية هي مبتغى الأفراد والمؤسسات وعلم النفس كتخصص يتداخل مع هؤلاء الفاعلين لتحقيقها وفق مبدأ التكامل والتساند الوظيفي لمكونات أنساق الرعاية الصحية، بحيث يهدف تخصص علم النفس العيادي من خلال التكوين الأكاديمي المقدم الطلبة الى الارتقاء بهذا التخصص عن التنافس اللاواعي بين العلم المؤسس و الترهات والخرافات المترسخة في أنظمة تمثّلات القيم .و لكن الملاحظ انه وبعد التحاق الطلبة بسوق العمل كمختصين نفسانيين يتجابه المتكونون بنظام من التبريرات والانكارات اللاواعية للعلاج النفسي فالمعاش البيثقاني للأفراد يشكل عائقا امام هذه الفعالية لتخصص علم النفس وتجسيده في الواقع داخل النسيج الثقافي في ظل مقارنة القيم المتجاهة في المجتمع الجزائري . وهذه الدراسة الميدانية تهدف إلى :

- تمثّلات الصحة النفسية عند طلبة علم النفس العيادي في ظل التقاطب بين التكوين الأكاديمي وفعالية ممارسات العلاج التقليدي في المجتمع.
- البحث في التمثّلات البيثقافية بين التقليدي والحديث في الصحة النفسية عند طلبة الماستر عيادي.

مفهوم التمثل هو مفهوم شائك والبحث فيه يدعو للبحث في مرجعيات عديدة، كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس التحليلي، والمعري، وهو مفهوم لا يتعلق فقط بالعملية الذهنية بل يتعداها إلى فهم ما يتبع هذه العملية من مواقف وكيف تؤدي فيما بعد إلى السلوك وهذا التنبؤ هو ما يجعل للتمثّلات دلالتها في القيام ب"فعل السلوك " .

يعرفها كل من ج.لابلانز، ج.باتتاليس¹ التمثل على أنه: من المصطلحات التقليدية في الفلسفة وعلم النفس، ويستعمل للدلالة على ما تصوره وما يكون المحتوى المحسوس لفعل التفكير وخصوصا لاسترجاع ادراك سابق " .

التمثل الاجتماعي "التمثل هو صور تكثف مجموعة من المعاني أو أنساق مرجعية تهتم بترجمة ما يحدث، واعطاء معنى لغير المتوقع، أو هي فئات تمكّن من تصنيف الظروف، الظواهر، الأفراد الذي يتعامل معهم وهي أيضا نظريات التي تسمح بالحكم عليهم، أي هي أسلوب ترجمة وتفكير واقعنا اليومي في شكل معرفة اجتماعية " ²

أما موسكوفيسي « التمثيلات هي شكل من أشكال المعرفة الخاصة بالمجتمع، إنها نظام معرفي وتنظيم نفسي كما تعتبر جسر بينهما لما هو فردي وما هو اجتماعي، إذ تسمح للأفراد والجماعات بالفهم بواسطة الاتصال والذي يدخل في البنية الديناميكية المعرفية " ³.

ومنه يمكن القول ان التمثل هو عبارة عن محتويات من معارف وخبرات واتجاهات واستعداد لأداء الفعل تتشكل من خلال تجاربنا وتفاعلاتنا اليومية التي نتحصل عليها او نقوم بنقلها بواسطة التنشئة الاجتماعية، والتعلم، التربية والاتصال الاجتماعي والعادات والتقاليد وردود أفعالنا مع ذاتنا ومع الآخرين . التمثيلات تكتسي بعدا اجتماعية فهي أنظمة تفسر علاقتنا مع العالم ومع الآخرين، وظواهر معرفية تعبر عن الانتماء الاجتماعي للأفراد من خلال استدماجهم للممارسات والخبرات والنماذج السلوكية والفكرية

وللتمثيلات بنية يصفها ابريك أنها تتكون من نواة مركزية تعتبر العنصر الأساسي في التمثل بحيث تحدّد في الوقت نفسه المعنى (المدلول) والتنظيم الخاص بالتمثل، كما تؤمّن وظيفتين أساسيتين هما: الوظيفة المولدة وهي النواة التي تخلق وتحول مدلول عناصر أخرى للتمثل إضافة إلى أنه يعطي معنى وقيمة لهذه العناصر، والوظيفة المنظمة وهي التي تحدّد طبيعة العلاقات التي تربط بين عناصر التمثل وبالتالي تكون العامل الموحد الذي يعمل على استقرار التمثل ويؤمّن دوام الظروف والأحداث المتطورة.

النظام المحيطي: يعتبر المكمل الضروري للنواة المركزية وفي هذا الصدد يقول ابريك " أن العناصر المحيطية للتمثل تنظم حول النواة المركزية وأن تواجد هذه العناصر، توازها قيمتها ووظيفتها تحدّد كلها بواسطة النواة وهي تستجيب لثلاثة وظائف: وظيفة تجسيد، وظيفة تكييف، وظيفة تفرد.

ويمكن تقسيم التمثّلات إلى نوعين: " تمثّلات ايجابية وهذا النوع يساعد ويدعم عملية التعلّم، المعرفة والعلم فإن تسلّح المتعلّم بتمثّلات ايجابية سليمة تسهل عليه عملية التعلّم واكتساب معارف جديدة كما يدعم بناءه للمعرفة الموضوعية وهي دائما نسبية أما التمثّلات السلبية فهي معيقة للتعلّم وغالبا ما يبينها الانسان إنطلاقا من تكيفه مع المحيط الذي يعيش فيه "4 .

يحدد وظائف التمثّلات في 5:

الوظيفة المعرفية التي تسمح للأفراد بفهم وتفسير الواقع، يتم ذلك بإدماجهم في اطار قابل للاستيعاب، منسجم مع القيم والأفكار والآراء التي يؤمنون بها . ووظيفة الهوية وهي تسهم التمثّلات في التعريف بهوية الجماعة وتسمح بالحفاظ على خصوصيتها وبذلك تسهم في عملية المقارنة والتصنيف الاجتماعي. أما وظيفة التوجيه فتعمل على توجيه السلوك والممارسات، ونظام تغيير الواقع الذي تشكّله هذه التمثّلات ويلعب دور موجه للفعل . ووظيفة التبرير فتسمح بالتبرير البعدي للسلوك والمواقف التي يتبناها الأفراد حيث تحدد السلوك قبل القيام به وتبرره بعد ذلك .

كل التمثّلات تحمل تاريخا فهي تنشأ وتستقر ثم تتحول وتموت وبالتالي فهي تستدخل عمليات تساهم في هذه السيرونة التي تعمل من خلالها التمثّلات، ولهذه السيرونة عمليتان أساسيتان:

أ- التوضيع: يعرف موسكوفيسي التوضيع بأنه " الازالة التدريجية للمعاني الرائدة وهذا عن طريق تجسيدها، و هذه العملية تتميز هذه المرحلة " بانتقاء المعلومات " حيث تعمل كمصفاة تحتفظ بعناصر معينة وتتخلّى عن عناصر أخرى فالمعلومات المنتقاة هي مستنبطة من السياق النظري الذي ينتجها ويعيد صياغتها واعادة تشكيلها النوعي من طرف الأفراد، و هي تتميز ب"المخطط الشكلي "أو "المرحلة التكوينية" النواة الشكلية من خلال العناصر المنتقاة سابقا، وهي بنية تصويرية تعيد انتاج بنية مفاهيمية بطريقة ملموسة.

تمثّلات الصحة النفسية عند طلبة علم النفس الدخولة ————— فريسات الزهرة - نواتي عطا الله حياة

مرحلة التطبيع: حين يدخل المخطط الشكلي لموضوع ما للمجتمع وتنتشر بداخله فإنه يصبح بديلاً عنه بالتالي ففي هذه المرحلة تصبح العناصر الشكلية ملموسة وتتحول من صورة مبسطة عن الموضوع إلى حقيقة ذلك الموضوع .

ب-الترسيخ: تشير هذه العملية إلى الطريقة التي يجد بها الموضوع الجديد مكانته في النظام الفكري السابق للأفراد.

التمثّل بالمألوف: تشير هذه العملية إلى ادراج عناصر جديدة في تفكير قائم وتدخل في اطار وأفكار ونماذج فكرية موجودة مسبقاً، إذن فالترسيخ يترجم ميل الأفراد إلى استعمال ما هو متداول كمرجعية تسمح بتحويل موضوع غير معروف إلى ميدان معروف سلفاً.

ومن هنا نستخلص أن عمل التمثّلات هو معالجة المعلومات المقدمة وهذا بالتركيز على التوجيه الانتقائي وتحضير العناصر في التشكيل الجديد، ويتم عبر سيرورات: وهما التوضيع والترسيخ اللذان يرتبطان ويتكاملان ويتعاونان في بناء الواقع كما يشتركان في كل تطور أو تحول.

أما الصحة النفسية فقد عرفت منظمة الصحة العالمية عام 1948 مفهوم الصحة النفسية على أنها: "حالة السلامة والكفاية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة وليست مجرد الخلو من المرض أو العجز"⁶ .

يرى كيلاندر (1968) الصحة النفسية للفرد: بأنها تقاس بمدى قدرته على التأثير في بيئته، وقدرته على التكيف مع الحياة مما يؤدي بصاحبه إلى قدر معقول، من الاشباع الشخصي والكفاءة والسعادة"⁷.

ومن خلال ما تم التعرض إليه من تعاريف يمكن اعتبار الصحة النفسية حالة شعورية مستمرة ودائمة نسبياً من النضج الانفعالي والاجتماعي وتوافق الفرد مع نفسه ومع العالم الخارجي، والقدرة على تحمل مسؤوليات الحياة ومواجهة ما يقابله من مشكلات واضطرابات نفسية، وتقبل الفرد لواقع حياته، والشعور بالرضا والسعادة والارتياح النفسي الذي يحقق تكاملاً في الشخصية.

ويرى سيدني 1983 أن الصحة النفسية هي حالة من الإيجابية تضمن التمتع بصحة العقل والجسم، وليست مجرد الغياب أو الخلو من أعراض المرض النفسي والجسمي وبالتالي فإن مفهوم الصحة النفسية يعني أمرين أساسيين هما: غياب الاضطرابات. والمظاهر الإيجابية المحسنة في التوافق الذاتي، التوافق الاجتماعي، الشعور بالسعادة، الاتزان الانفعالي التفوق العقلي، تحقيق الذات الدافعية إلى الانجاز، الصمود أمام الشدائد.

الصحة النفسية في منظور التحليل النفسي ففرويد يعتقد أن الفرد الذي يتمتع بالصحة النفسية والشخصية المتوافقة مرهونة بقوة الأنا، والأنا وظيفتها الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقها مع البيئة وحل الصراع بين الفرد والواقع أو بين الحاجات المتعارضة، والعمل على إحداث التوازن بين الهو والأنا الأعلى " فالصحة النفسية تتمثل في قدرة الأنا على التوفيق بين مركبات الشخصية المختلفة ومطالب الواقع" ⁸.

ركزت كارين هورني في النظرية النفسية الاجتماعية على الخصائص المتعلّمة للسلوك المضطرب المكتسبة من الأسرة والثقافة الاجتماعية للفرد والعلاقات الأسرية في سنوات الطفولة، وركزت على الحاضر أكثر من الماضي ⁹، ومنه فالاضطرابات النفسية مرتبطة أساسا بظروف الفرد الاجتماعية والاقتصادية كالتفكك الاجتماعي والضغوطات الاجتماعية .

الصحة النفسية في المنظور الانساني يرى ابرهام ماسلو " أن الفرد الذي يتمتع ب الصحة النفسية هو الفرد الذي حضي بأشباع حاجاته الأساسية ومحققا لذاته ¹⁰، وهي تتحقق بصورة متدرجة ولو جزئيا. ومنه ف الصحة النفسية للفرد لا تتحقق بصورة كاملة ما لم يتوفر للفرد شروط تسمح للطبيعة الانسانية أن تأخذ مداها واستمرار تحقيق ذاته . " الصحة النفسية في المنظور المعرفي تعتمد على الأقل جزئيا على الطريقة التي يفسر بها الأفراد خبراتهم وأحاسيسهم و يقيمون الحوادث والمهارات في البيئة، و يرون أن زيادة الاحساس بالفعالية الذاتية يسهم في تعزيز صحتنا النفسية والجسدية، وذلك من خلال استخدام استراتيجيات معرفية مناسبة ¹¹. منه نرى أن التوافق يعتمد على الطرق المختلفة التي يدرك بها الأفراد الأشياء والوقائع وكيف يفكرون فيها وكيف يفسرونه، وهذا ما يسمى بالأساليب المعرفية.

وتتمثل «مؤشرات الصحة النفسية في التوافق الاجتماعي، التوافق الذاتي، الشعور بالرضا والسعادة، ارتفاع تحمل الاحباط، الانتاج الملائم، الجهود البناءة، هذا يبين أن المؤشرات تعطي انطبعا بتمتع الفرد بصحة نفسية وأن تلك المؤشرات تختلف في حدتها وأثرها من انسان لآخر وفقا لبعض المعطيات الخاصة، لكن لا يختلف المختصون بأن وجودها يعطي دلالات على تمتع صاحبها بصحة نفسية»¹².

و يمكن إجمال أهمية الصحة النفسية بصفة عامة في ضوء ما صاغه العلماء فيمايلي: الصحة النفسية تسمح للفرد ببناء أسرة سوية التي تعتبر أساس المجتمع، تجعل الفرد متزنا ومتمتعاً بالنضج الانفعالي بعيدا عن التهور والاندفاع، تساعد الفرد على انسياب حياته النفسية وجعلها خالية من التوترات والصراعات. كما تساعد الفرد على حسن الاختيار واتخاذ القرار المناسب بسهولة وأكثر قدرة على الثبات والصمود، و فهم نفسه وفهم الآخرين وجعله قادرا على التحكم في عواطفه وانفعالاته ورغباته مما يجعله يتجنب السلوك الخاطئ، فالفرد الذي يتمتع بصحة نفسية هو فرد متوافق مع نفسه ولم يستنفذ قواه الداخلية وطاقاته في الصراع مما يعمل على زيادة نشاطه وقدرته على الانتاج. كما تعتبر عاملا مهما في الوقاية من الأمراض النفسية والجسمية.

وتتمثل الأهداف المتعلقة بالصحة النفسية فيما يلي¹³:

تقديم الخدمات للمرضى خارج اطار المؤسسات بالذات خارج اطار المستشفيات، ابتكار وتنمية خدمات جديدة ومبتكرة للمرضى لتلبية احتياجاتهم الفعلية، العمل على سرعة اعادة المريض إلى المجتمع، علاج مجتمعي وليس اكلينيكي فقط فالصحة النفسية تبحث في تكوين الأفراد وفي علاجهم وفي وقايتهم من العيوب السلوكية أو النفسية ومشاكلهم الاجتماعية في مراحل نموهم المختلفة. يوجد 3 استراتيجيات لتحقيق الصحة النفسية وهي على النحو التالي¹⁴:

المنهج الانمائي: يسمى كذلك بالمنهج الانشائي ويتضمن زيادة السعادة والكفاية والتوافق لدى الاسوياء والعاديين للوصول بهم إلى أعلى مستوى ممكن من الصحة النفسية خلال مراحل نموها.

تمثّل الصحة النفسية عند طلبة علم النفس المحتورة ————— فريسات الزهرة - نواتي عطا الله حياة

المنهج الوقائي: هذا المنهج يهتم بالأسوياء قبل اهتمامه بالمرضى بهدف وقاية الأسوياء من مسببات المرض النفسي من خلال تعريفهم بهذه الأسباب وإزالتها وتهيئة الظروف التي تحقق الصحة النفسية.

المنهج العلاجي: يهتم بعلاج المشكلات والاضطرابات النفسية حتى العودة إلى حالة التوافق فهو يهتم بأسباب المرض النفسي وتشخيصه ومن ثم القيام بعلاجه وتقديم الرعاية الصحية لجميع المضطربين نفسياً وعقلياً.

تعتبر الصحة النفسية ضرورية في كل مرحلة من مراحل العمر واعتلالها له أثر هام على حياة الفرد والمجتمع وفي عصرنا بما يجمله من توترات وصراعات لا بد من الاهتمام بموضوع الصحة النفسية وضرورة تحقيقها للأفراد لحمايتهم من الوقوع في الاضطرابات النفسية.

الجانب التطبيقي:

أداة القياس:

استناداً على الأدبيات والأطر النظرية المرتبطة بالموضوع والدراسة الاستطلاعية تم تصميم دليل مقابلة، صيغ في ستة محاور بناء على مؤشرات الصحة النفسية، لكل محور 05 بنود مرتبطة بتلك المحاور والتي بلغ عددها 30 بنود .

المحور الأول: التوافق النفسي والاجتماعي (مفهوم التوافق، مؤشرات التوافق النفسي والاجتماعي، اسهام التوافق في التحقيق الصحة النفسية عند الطالب)

المحور الثاني: الشعور بالسعادة (مفهوم السعادة، تمثّل السعادة في الحياة اليومية، أهميتها، تأثيرها في الصحة النفسية للطالب)

المحور الثالث: تحقيق الذات (مفهوم الذات، العوامل المساعدة على تحقيق الذات، علاقة ذلك بالصحة النفسية)

المحور الرابع: الأعراض العصابية والذهانية (تصور المرض، استراتيجيات علاج المرض، التكوين الأكاديمي ودوره في فهم الصحة والمرض)

المحور الخامس: الدافعية والانتاج الملائم (الدافعية وعلاقتها بالانتاج، الدافعية وتحقيق الأهداف)

المحور السادس: تمثّلات الصحة النفسية (تمثّلات الطلبة اتجاه المرض الجسدي والنفسي، تأثير التمثّلات المجتمعية على ممارسة المختص النفسي، مؤشرات الصحة النفسية)

مسّ هذا التحقيق 23 طالبا من مجموع 74 طالب في السنة الثانية ماستر بشكل عشوائي وقد تم اختيار هذه العينة بطريقة عشوائية، وقد تم اختيار هذا المستوى في تخصص العيادي اذا اعتبرنا أن هؤلاء الطلبة تحصلوا على تكوين يؤهلهم للدخول في النسق العلاجي في المؤسسات المختلفة وفعالية تدخلهم ترتبط ارتباطا مباشرا بتكوينهم الأكاديمي وقدرتهم على استثماره في التكفل النفسي بالآخرين من خلال التشخيص السليم لاضطراباتهم وامكانية مساعدتهم بما يتوافق مع تمثّلاتهم ومرجعياتهم، كما أن عدم القدرة على تمثّل مظاهر الصحة النفسية عند الطالب يقف عائقا أمام تحقيقه للآخرين "ففاقد الشيء لا يعطيه". تم الاعتماد على المنهج الكيفي في تحليل نتائج دليل المقابلة من خلال المعايير الميدانية .

النتائج العامة

المحور الأول: التوافق النفسي والاجتماعي (مفهوم التوافق، مؤشرات التوافق النفسي والاجتماعي، اسهام التوافق في التحقيق الصحة النفسية)

تأرجحت اجابات الطلبة بين أن "التوافق هو انسجام الحالة النفسية والاجتماعية مع الذات، كما أنه يشعر بتوافق نفسي إلى حدّ كبير في الشخصية وهو عامل مهم في الصحة النفسية والمحيط الاجتماعي له دور كبير في ذلك"، "هو التوازن بين ما هو نفسي وما هو جسدي أي هو الموازنة" ومحاولة التأقلم مع مختلف الأطياف ومختلف المواقف .و لكن اجابات الطلبة تبين أن هناك سوء توافق نفسي نتيجة الضغوط الحياتية وأن التوافق النفسي هو السبيل للوصول إلى الصحة النفسية

والاختلال في هذا التوافق لا يسمح بالتمتع بالصّحة النفسيّة الجيدة والوصول إليها يستدعي المرور بالتوافق الاجتماعيّ مع مختلف أنماط الحياة والعادات الاجتماعيّة كضرورة من ضرورات الحياة، و هذا يتفق مع ما جاء به يرى أدلر في أن العوامل الاجتماعيّة لها دور كبير في حياة الفرد وأن سعادة الانسان ونجاحه يرتبطان باهتمامه الاجتماعيّ. يعرف حامد زهران (1978) الصّحة النفسيّة بأنّها حالة دائمة نسبيا يكون فيها الفرد متوافقا نسبيا ويشعر بالسعادة مع نفسه ومع الآخرين ويكون قادرا على تحقيق ذاته واستغلال قدراته وامكانيّاته إلى أقصى حد ممكن ويكون قادرا على مواجهة مطالب الحياة .

ينتهج الطلبة عدة استراتيجيات للتمتع بصّحة نفسيّة جيدة أهمّها التفاعل الاجتماعيّ، التفرّغ الانفعاليّ، و يعتمدون في مجملهم على ما جاءت به المدرسة الانسانية التي ترى أن الفرد الذي يحظى بأشباع حاجاته الأساسيّة المحققة لذاته هو الشخص المتمتع بالصّحة النفسيّة¹⁵ .

هناك تصور واضح صحيح نسبيا عند الطلبة حول مفاهيم الصّحة النفسيّة ولكن التصور يبقى غير تامّ إذا لم يتمثّل الطالب في مواقفه وممارسته اليوميّة وهذا ما ستمّ الاجابة عنه في المحاور التالية فالتمثّل لا يمكن قياسه إلا إذا اكتملت أبعاده الثلاثة من صورة ذهنيّة، موقف، تنبؤ السلوك.

المحور الثاني: الشعور بالسعادة (مفهوم السعادة، تمثّل السعادة في الحياة اليوميّة، أهميّتها، تأثيرها في الصّحة النفسيّة)

تتشرك إجابات الطلبة في أن "السعادة هي حالة نفسيّة جيّدة وحالة اجتماعيّة متزنة، كما يدرك أنّها دليل على الطمأنينة النفسيّة فهي تعكس الحالة الإيجابيّة، والراحة النفسيّة هي السلم النفسي مع الذات والسعادة تساعد في اعتدال الشخصية وتطورها، السعادة هي الوصول إلى الاستقرار النفسي أو التوازن النفسي وبلوغ أسمى مراتب الايمان وهي دليل على الطمأنينة النفسيّة والخلو من النزاعات والاضطرابات النفسيّة.

يفهم الطلبة السعادة كمفهوم تجريدي ورغم إجاباتهم التي تبين مقدار المعارف المكتسبة عن السعادة إلا أن إجاباتهم كانت مجحفة فيما يتعلق بتمثّل السعادة في الحياة اليوميّة بحيث بينت المقابلات أن

الطلبة يربطون السعادة خاصة بالعلاقات مع الجنس الآخر ونجاحها، و اكتمال العائلة، ويهمل الطلبة المفهوم العام للسعادة وتمثّلها في الحياة اليومية وكل ما يتعلق (بالسلام في العلاقة مع الجسد ومع الذات، الألوان، العلاقة مع المرأة، العلاقة مع الآخرين على اختلاف مسافات علاقاتهم، التفاعلات بين الأصدقاء، العلاقة مع الأكل، اللباس، مع الدراسة، في السكن، مع البحر، مع النباتات). إن مفهوم السعادة هو مفهوم واسع وعميق، بسيط أيضا ويحمل الكثير من الدلالات التي يعجز الطلبة عن ادراكها في مفاهيم معرفية وهذا العجز المعرفي يرجع للنسق الثقافي المحيط بالطلبة والذي يحصر مفهوم السعادة عند الطالب ذكر "تلقى خدمة" و عند الطالبة الأنثى "ديري دار"، النسق الثقافي المحيط بالطلبة لا يحفز المعرفة الواسعة الأفق لهذه المفاهيم المتعلقة بجودة الحياة والتي تفتقد في المجتمع عامة، إن انحصار مفهوم السعادة يجعل عملية التمثّل في الواقع صعبة لأن عوامل التمثّل فيها لا تكتمل وهذا يمكن القول أن تمثّل مفهوم السعادة ودورها في الصحة النفسية لا يتحقق إلا بجزء بسيط (أقل من 25 بالمئة). و يعرف أحمد عبد الخالق الصحة النفسية أنّها حالة دائمة نسبية فهي ليست استاتيكية ثابتة بل إما تتحقق أو لا تتحقق، وإنّما هي حالة ديناميكية متحركة ونسبية وتتغير من فرد لآخر، ولدى الفرد ذاته من وقت لآخر كما تختلف معاييرها تبعاً لمراحل النمو التي يمر بها الفرد ويتغير تبعاً لتغير الزمان وتغير المجتمعات. المجتمع الجزائري والطلّابي عموماً لا يحفز البحث في مدلولات السعادة حقاً بل هي ترتبط مباشرة برضا الله، والوالدين وهذا يبين أن الوازع الديني .

المحور الثالث: تحقيق الذات (مفهوم الذات، العوامل المساعدة على تحقيق الذات، علاقة ذلك بالصحة النفسية)

الذات هي مجموع مبادئ ومسلمات والوصول إليها يبدأ من الرضا النفسي، الوصول إلى أسمى الأخلاق وبلوغ الأهداف المرجوة أما العوامل التي تساعد على تحقيق الذات هي تعزيز الثقة بالذات في المواقف الصعبة، تكوين شخصية متماسكة وواثقة وناجحة في المجتمع، تحقيق المستوى العلمي الأكاديمي، التخلص من التوتر يساعد على تحقيق الذات لأن يوميات الحياة اليومية وظروفها الضاغطة تجعل من الفرد محل توتر مهما بلغ تحقيق ذاته.

هناك تعاريف مختلفة ولكن متقاربة وتنتهي إلى نفس المعنى حول مفهوم تحقيق الذات ولكن يجد الطلاب صعوبة كبيرة في إيجاد التقنيات التي تساعد على تحقيق ذواتهم ويبدأ الخلل من المفاهيم المرتبطة بذلك "ما هو تحقيق الذات عند الطالب ' من الصعب أن يحدد الطالب مؤشرات تحقيق الذات مما يجعله غير قادر على وضع خطة عملية لتحقيق ما يريده حقا وما يرمي إليه ولكن الطلبة في معظمهم يجعلون تحقيق الذات هو الرضا ^{الله} وعن الذات ولكنهم لا يستطيعون تفكيك المفهوم إلى معطيات عملية تتعلق بهم كمرحلة عمرية وكمتطلبات خاصة لهذه المرحلة .

المحور الرابع: الأعراض العصبية والذهانية (تصور المرض، استراتيجيات علاج المرض، التكوين الأكاديمي ودوره في فهم الصحة والمرض)

إجابات الطلبة متقاربة "المرض ابتلاء ^{راني} وخلل نفسي ووظيفي والأمراض العصبية والذهانية نتيجة للضغوط النفسية والاجتماعية وتصور المرض هو وجود خلل أو مجموعة من الأعراض الوظيفية في الشخصية، أو خلل عضوي " والخلو من الأمراض دليل على الصحة النفسية.

تعريف العصاب والذهان كان صحيحا نوعا ما ولكن الاجابات المتعلقة بالتكفل العلاجي في جلها كنت جد مجحفة، هناك قصور واضح في تمثّل العلاج للأمراض المذكورة بحيث أهمل الطلبة تماما دور الطبيب النفسي وما يمكن أن يقدمه وتقريره في عملية التكفل العلاجي ^{بالمريض} (صعوبة في التشخيص، ضرورة اشراك فاعلين من النسق الصحي في التكفل العلاجي...)، "كنت أعتقد أن بعض الأمراض مرتبطة ^{بالسحر العين والجّن} " الازدواجية البيثقافية في تفسير المرض حاضرة خاصة في تعلق ^{بالأمراض الوظيفية} ويرجع الطلبة هذه الازدواجية إلى عجز الطب والمؤسسات الاستشفائية عن التكفل الفعلي بهذا النوع من الأمراض مما يترك مجالا للمعطيات الشعبية ^{بالاجابة} عن هذه الاسئلة. ففعالية الرقية والعلاجات التقليدية في علاج بعض الحالات يترك مجالا للعلاج التقليدي في بناء مكانة في النسق الصحي العام لتمثّلات الأفراد والطلبة .

يرى الطلبة أن "استراتيجيات التخلص من القلق والاكتئاب هي الدعم العائلي، العلاج النفسي، الاسترخاء، تفرغ المكبوتات، اللجوء إلى العلاج الديني(القرآن)" في حين لا يمتلك الطلبة معارف

واضحة حول المرض والعلاج وتقنياته يستندون دائما إلى العلاج الديني كأحد الدعائم الأساسية في تحقيق الفعالية دون ادراكهم لشروط العلاج القرآني. مما يجعلهم يعانون خلطا بين التكوين الأكاديمي يصنع الضياع بين المعتقدات والأمراض و"استخدام الصبر وتفويض الأمر لله والعلاج الديني، الرقية".

هناك تشبع ثقافي اجتماعي في تصور المرض بتصورات غيبية محضة ، يونغ يقول "الجسد ليس مستودعا للغرائز والدوافع البدنية بل هو مخزن للتراث الثقافي "كما أشار إلى العامل الجنسي أنه مجرد عامل هزيل أمام الكم الهائل من التراث الانساني وبذلك فقد فتح مجالا واسعا للدراسات الانثربولوجية الميثولوجية التي يمكن من خلالها التعرف على أسباب الاضطرابات النفسية للفرد بسلامة المعتقدات "16.

المحور الخامس: الدافعية والانتاج الملائم (الدافعية وعلاقتها بالانتاج، الدافعية وتحقيق الأهداف)

"الدافعية هي المحفزات النفسية، الاجتماعية والمادية المستندة على نوع الشخصية ويعتقد أنها تساعد على الانتاج لأنها خزان للمحفزات، ويرى أنها وراثية وفي نفس الوقت مكتسبة وهي تساعد في تحقيق الأهداف الفكرية والاجتماعية، الدافعية تساعد على الانتاج لأنها هي الرغبة في الاصرار على النجاح والتطور، كما تسمح الدافعية بتحقيق الأهداف وهي مكتسبة ترجع لشخصية الفرد ومهاراته وطموحه " هذه الاجابة العامة كانت لطلبة علم النفس العيادي.

تظهر الاجابات فهما واسعا لمفهوم الدافعية من حيث المعارف والمقابل يعجز الطلبة عن تحقيق الكثير من أهدافهم لأنهم يعانون مشكلا في بناء طموحاتهم وامكانية تحقيقها في المجتمع بسبب العوائق الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي يرونها سببا في ذلك، يفتقد الطلبة إلى الليونة في تكييف طموحاتهم حسب مراحل الحياة ومتطلباتها، كما أنهم يحصرون طموحاتهم في تحصيل دبلوم دراسي ومهنة مستقرة، تختفي عندهم الهوايات والرغبة في التميز والتفوق ويحملون المجتمع وثقافته هذا القصور بحيث يعجزون عن بناء هوية خاصة بهم بما يتوافق مع متطلبات المجتمع الحديث، هناك

نكوص لتحميل النسق الثقافي المجتمعي أخطاء عدم التحفيز دون المرور للمبادرة مما يبين أن هناك جدلا قائما في الصور الذهنية عند الطلبة بين المفاهيم وتمثلها ففي حين يستطيع الطلبة تعريف الدافعية للإنتاج يعجزون عن تحديد اتجاهاتهم الدراسية والمهنية والحياتية ولا يستطيعون تمثيلها في شكل ممارسات ترتقي بهم إلى تحقيق طموحات تعبر عن هويتهم .

المحور السادس: تمثّلات الصحة النفسية (تمثّلات الطلبة اتجاه المرض الجسدي والنفسي، تأثير التمثّلات المجتمعية على ممارسة المختص النفسي، مؤشرات الصحة النفسية)

"الصحة النفسية هي الراحة النفسية والتوافق في جميع المجالات، الصحة النفسية هي التوازن في الانفعالات وأهمها السلوكيات الايجابية يحتزل مفهوم التمثّلات عند الطلبة في التصورات الذهنية ويهملون المكونات التابعة المتمثلة في المواقف وإرادة أداء الفعل مما يجعلهم غير قادرين على ممارسة المفاهيم والمعارف المدروسة في حياتهم اليومية لا من حيث المواقف والاختيار الاتجاهات والقرارات ولا ممارسة هذه المعارف في حياتهم العادية، هذا الانتقال من الصورة الذهنية إلى الممارسة السلوكية تقف العوائق الثقافية عائقا أمام تحقيقه بسبب نظام التمثّلات المجتمعي الذي يفرض نفسه على النسق الصحي العام والذي مازال مرتبطا بالمعتقدات والغيبيات، هناك تمسك بالعادات، و الرقية خاصة، و الطب الشعبي .و يرجع ذلك غالبا لفعالية هذه العلاجات في تحقيق العلاج السريع والفعلي للكثير من الحالات كما أن عدم نجاعة العلاجات النفسية في بعض الأمراض وغياب النماذج الممارسة يؤثر سلبا على تمثّلات الطلبة اتجاه ممارسة التكفل النفسي والعلاجي . وتبين المقابلات في مجملها أن التفاسير المتعلقة بالصحة النفسية التي تتعلق بالأمور الغيبية لا تزال تحافظ على مكانتها في مجتمعاتنا بصفة عامة والمجتمع الجزائري خاصة وهذه التفاسير تتعارض مع التطورات التي يشهدها اليوم والتي تجعل من التكوين القاعدي في العيادي. غير كاف لتمثّل الصحة النفسية بطريقة صحيحة محفزة لتحقيق التفرد والتميز في المجتمع والتوافق مع المعطيات المجتمعية دون اهمال الامكانيات والفروق الفردية.

"أكركنيشت" يقول "إن المرض وعلاجه يتم من خلال عمليات بيولوجية بحتة ولكن احتمالات إصابة الشخص بالمرض ونوع العلاج يتوقف إلى حد كبير على العوامل الاجتماعية كما يرى

الانثربولوجيون الطبيون في دراساتهم الوبائية وأسباب المرض بأن الأمر يتعدى ذلك إلى دراسة كيفية إدراك الناس لعالمهم وخصائص الانسان الاجتماعية والانسانية والقيم الاجتماعية¹⁷ .

تبين الحالات أنها كانت ترجع تفسيراتها في بادئ الأمر إلى الغيبيات وبعد تلقيها تكوينا أكاديميا في علم النفس تغيرت أفكارها وأصبحت تعتمد على قاعدة موضوعية قائمة على أسس علمية دون اهمال النظرة الدينية للصحة النفسية والتي يرى الطلبة أنها مهمة في البرامج المسطرة للتكوين في علم النفس العيادي وقد أشار بعض الطلبة إلى أن الدين الاسلامي مصدر للهداية والتشريع وإدارة شؤون الحياة وقد أشار القرآن الكريم إلى مرض القلوب في أكثر من موضع لقوله "في قلوبهم مرض فزادهم مرضا" كما أنه تحدث عن أحوال النفس الانسانية فأشار إلى النفس الأمارة بالسوء التي تزين لصاحبها الشهوات، وحث على المحافظة على الجسد، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام "اللهم عافني في بدني"، الدعاء بسلامة الجسد من العلل وسلامة النفس من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن وقهر السلطان فهذا من ضرورات الصحة النفسية .

تستعمل الثقافة مكونات سلوكية وعادات وتقاليذ ذات علاقة بالصحة والمرض وتؤثر في سلوك ومواقف واتجاهات الناس حول الصحة والمرض لأنها توفر اجابات جاهزة لكثير من مظاهر السلوك الصحي والعلاقات العلاجية والوقائية في التعامل مع المرض والصحة. كما تملّي كيفية وطبيعة مواجهة متطلبات علاج المرض. فهي تعتبر اطارا عاما داخل مؤسسات الرعاية الصحية فكلما كانت الثقافة متطورة ساعدت على تقدم وتطور هذه المؤسسات .هناك تمثّل واضح في تمثّلات الصحة والمرض في أوساط المجتمع الواحد أو بين المجتمعات والشعوب في ولذا فقد يرهّن العلم أن لا شيء يخرج عن نطاق المجتمع وهذا ما أشار إليه François FINOLD " المجتمع ليس له خارج" وهذا المفهوم يوضح أن المجتمع لا يتوقف عند حدود أبواب الفرد أي أنه يخترقها، وهذا التاريخ المدمج فينا هو ما أطلق عليه بورديو "الهائتوس" "و هو طريقة فردية للتعرف والتفكير تعكس إنتاج وانخراط الانسان داخل المجتمع"¹⁸ .

يرى صامويل مغاريوس(1974) أن مؤشرات الصحة النفسية قادرا على تقبل حدودحدود امكانياته، الاستمتاع بعلاقاته الاجتماعية، نجاح الفرد في عمله ورضاه عنه، الاقبال على الحياة بوجه

عام، كفاءة الفرد في مواجهة احباطات الحياة اليومية، اتساع أفق الحياة النفسية، اشباع الفرد لدوافعه وحاجاته، ثبات اتجاهات الفرد، تحمل الفرد لمسؤولية قراراته وأفعاله، التمتع بالانتران الانفعالي.

يفهم الطلبة نسبيا هذه المؤشرات ولكنهم غير قادرين على تمثّلها في حياتهم اليومية نتيجة العوائق الثقافية المجتمعية المحيطة بهم في المحيط الجامعي وفي الأسرة وفي المجتمع عامة. ونتيجة الخدار مستوى دافعتهم في تحقيق ذواتهم وأهدافهم وطموحاتهم التي أصبحت محدودة بعروض المجتمع الضئيلة للنجاح وغياب النماذج التي يعتمدون عليها في بناء هوياتهم وبذلك فهناك مشكل قائم في تمثّلات الطلبة اتجاه الصحة النفسية رغم تكوينهم الأكاديمي الذي يفتقد إلى الكثير من معطيات جودة الحياة وبناء الذات كممارسة وليس كنظرية.

خاتمة: إن تمثّلات الصحة النفسية والمرض تشكل عائقا كبيرا في مجتمعنا اليوم بل ويتعدى الأمر ذلك، و هي في تزايد كبير بحيث ترجع المشكلة في التمثّلات الخاطئة حول منشأ المرض وكيفية الحفاظ على الصحة العامة والصحة النفسية خاصة فالمجتمع الجزائري يؤمن بأساليب الطب اللاهوتي ويقدها ويعتمد عليه في معظم الممارسات العلاجية بدءا بالايان والاعتقاد في ذات الله المطلقة والقادرة على كل شيء إلى رقية الماء وشربه، ممارسة الساليب المختلفة للطب الشعبي، و ما يلاحظ أن التعامل مع هذه الاساليب تغير شكلها في كل مرة ولكنها تعتمد على سمتين أساسيتين: الايمان القاطع بهذه التمثّلات وتعميمها على مجالات الحياة، ضعف التوعية سواء الدينية أو المؤسساتية ونقص الاهتمام بالجانب الفكري النفسي على حساب الجانب الصحي العضوي.

وبالرغم من المستوى التعليمي للأفراد إلا أننا نجد تفسيرات مغايرة تماما لواقعهم الأكاديمي وتسيطر عليهم هذه المعتقدات في حين أن التفسيرات الأكاديمية مرتبطة بالأقلية منهم وخاصة هؤلاء الذين ينتمون إلى ميدان علم النفس وتلقوا تكوينا فيه، فالمجتمع يفسر الأمراض وخاصة البعض منها تفسيرات خاصة به تفسيرات نجدها في الخيال الجمعي للناس أو تصوراتهم وبالتالي تصبح الصحة والمرض وسيلة للتعبير عن المعتقدات والقيم التي يؤمنون بها. إن الاطلاع على التمثّلات الطلابية للصحة النفسية يفيد في رسم استراتيجية شاملة بهدف نشر ثقافة صحية، ان لم يتم التأثير في نوعية

الثقافة المتعلقة بالمرض والصحة فإنها ستصبح كوابح ثقافية تحول دون الاستفادة من الخدمات الصحية.

الهوامش:

- 1- ج.لابلان، ج.باتاليس: معجم التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، المؤسسة الوطنية للدراسات، ط 3 بيروت 1997 ص 180
- 2 . بوبكر بوخرية المفاهيم والعمليات الأساسية في علم النفس الاجتماعي، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر 2006 ص 1542
- 3 . Moscovici.S, Les représentations sociales in Les grands dictionnaires de psychologie, Larousse 1992 p 668
- 4- تيم المصطفى: التمثيلات وتوظيفها في اكتساب المعرفة، جمعية البحث والتأليف والترجمة والنشر 2002 ص 90
5. Abric.J.C,Pratiques sociales et représentations, éd PUF ,Paris1994 p 15
- 6 . أثرمن بو غاليز - أ موسى: تعزيز الصحة النفسية، المفاهيم، البيانات المستجدة، الممارسة، المكتب الاقليمي لمنظمة الصحة العالمية الشرق البحر المتوسط (شركة توشكي)، القاهرة 2005 ص 16
- 7 . سيد محمد الطواب: الصحة النفسية والارشاد النفسي، مركز الاسكندرية للكتاب، الإسكندرية 2008 ص 37
- 8 . الشاذلي عبد الحميد محمد: الصحة النفسية سيكولوجية الشخصية، المكتبة الجامعية، ط 2، الإسكندرية مصر 2001 ص 70
- 9 . محمود كاظم محمود التميمي: الصحة النفسية، مفاهيم نظرية وأسس تطبيقية، دار الصفاء، ط 1، عمان الأردن 2013 ص ص 87-88
- 10 موسى جبريل وآخرون: التكيف ورعاية الصحة النفسية، الشركة العربية للتسويق والواردات بالتعاون مع جامعة القدس المفتوحة، القاهرة 2009 ص 24
- 11 سيد محمد الطواب: مرجع سابق ص 27
- 12 . وداد الموصلي، حسن عبد الغني محمود: الصحة النفسية، دار زهران، عمان، الأردن 2009 ص 75
- 13 . اسماعيل يوسف: الصحة النفسية، دار الكتب، جمعية التنمية الصحية والبيئية، مصر 2005 ص 272
- 14 . الزبيدي كامل علوان: الصحة النفسية من وجهة نظر علماء النفس، دار علاء الدين للنشر، ط 1، دمشق سوريا 2009 ص 18
- 15 . موسى جبريل وآخرون: مرجع سابق ص 24
- 16 . عبد العزيز القوصي، أسس الصحة النفسية ط 4 ملتزمة الطبع والنشر 1952 ص 39
- 17 يحي مرسى: أصول علم الانسان - أنثروبولوجيا - ج2، دار الوفاء، ط 1، الاسكندرية 2007 ص 161
- 18 . نادية محمد سيد عمر: علم الاجتماع الطبي المفهوم والتطبيقات، دار المعرفة الجامعية، مصر 2003 ص 55

العلوم الاجتماعية بين التكوين الأكاديمي ومتطلبات الواقع الاجتماعي

نظرة تحليلية في ظل النظام الجديد LMD

الدكتور براخلية عبد الغني، جامعة تيارت

الدكتور بيسار عبد المطلب، جامعة المسيلة

الملخص:

سنحاول من خلال هذه الدراسة اكتشاف محتوى الإصلاح الجديد للتعليم العالي، أو ما يسمى بنظام (L M D)، وواقع التكوين في تخصصات العلوم الاجتماعية مقارنة مع التكوين في النظام القديم، وذلك انطلاقاً من ثلاث مستويات هي: الهياكل والتجهيزات القاعدية، البرامج التكوينية ومحتواها مقارنة بالنظام القديم، والبحث العلمي وما توفره له الدولة من إمكانيات.

Abstract:

We will try through this study to shed light on the new reform of the contents of higher education, or the so-called (LMD) system, and the reality of training in the disciplines of social sciences, compared with the configuration in the old system. We will do this on three levels: the structures and base equipment, formative programs and content compared to the old system, scientific research and what possibilities are provided by the state.

مقدمة:

لقد دأب الباحثون والعلماء والدارسون بشكل عام على تقسيم المعارف والعلوم إلى علوم طبيعية أو تجريبية تشمل الفيزياء والرياضيات وعلوم الحياة وعلوم الأرض، وفي المقابل هناك العلوم الاجتماعية، ويطلق عليها البعض علوم البشر، وتشمل علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا وغيرها... وكثرت المقارنات السطحية والساذجة بينهما حول أفضلية العلوم الطبيعية على الأخرى، إلا أن الواقع المعاش أثبت وبشكل قاطع عجز العلوم الطبيعية على إيجاد حلول كثيرة للمشاكل الاجتماعية المعقدة، بل تسببت في كثيرة منها في بعض الأحيان.

تعتبر العلوم الاجتماعية من بين العلوم المهمة والضرورية، لما لها من دور في بناء الفرد والمجتمع وتحليل ودراسة التحولات والتغيرات التي تحدث في المجتمع، وهذا ما يؤكد التقرير العالمي

للعلوم الاجتماعية 2010 بعنوان (الفجوات المعرفية)، الصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونيسكو) والمجلس الدولي للعلوم الاجتماعية¹، على أن العالم اليوم بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى العلوم الاجتماعية لمواجهة التحديات الكبيرة التي تواجه البشرية، لذلك أولت الدول المتقدمة عناية خاصة بها من خلال فتح مراكز البحث الخاصة بمختلف العلوم الاجتماعية، أما في العالم العربي فقد تم تأسيس المرصد العربي للعلوم الاجتماعية الذي أصدر تقريره الأول سنة 2015 عن أشكال حضور العلوم الاجتماعية في العالم العربي، بالإضافة إلى فتح التخصصات الأكاديمية للعلوم الاجتماعية في مختلف الجامعات، والجزائر من بين الدول التي سعت إلى فتح مراكز البحث في العلوم الاجتماعية كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس، بالإضافة إلى فتح التخصصات الأكاديمية في الجامعات منذ الاستقلال.

ويحتل التعليم العالي مكانة متميزة في بناء المجتمع الجزائري، كما يعتبر مصدرا أساسيا لتزويد سوق العمل باليد العاملة المؤهلة من حيث المهارات والخبرات لأداء الدور المنتظر منها في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع، وتضم الشبكة الجامعية الجزائرية تسع وتسعين 99 مؤسسة للتعليم العالي، موزعة على ثلاثة وأربعين (48) ولاية عبر التراب الوطني. وتضم تسع وأربعون 49 جامعة، و10 مراكز جامعية وأربع ملحقات، وعشرون 20 مدرسة وطنية عليا، وثمان 08 مدارس عليا للأساتذة، وست 06 مدارس تحضيرية، وثلاث 03 أقسام تحضيرية مدمجة².

لذلك أبدت الجهات المختصة اهتماما واضحا بالتعليم العالي من خلال مجموعة الإصلاحات التي قامت بها منذ الاستقلال إلى غاية اليوم، ولعل أكبر وأهم الإصلاحات التي تمت على مستوى التعليم العالي في الجزائر هو الإصلاح الشامل والعميق ذي الأطوار التكوينية الثلاث، ليسانس - ماستر - دكتوراه، (ل م د، LMD) سنة 2004.

وكانت دواعي هذا الإصلاح الجذري للمنظومة التعليمية حسب تقرير اللجنة الوطنية التي أوكلت لها مهمة إصلاح التعليم العالي، هي أن النظام السابق المستعمل في التدريس يحتوي على اختلالات كبيرة أصبحت تتراكم عبر السنوات، وهذا لعدم استجابة هذه المنظومة الجامعية للتحديات التي يفرضها التطور السريع في مجالات العلوم والتكنولوجيات والاقتصاد والإعلام والاتصال، وعدم تلبية احتياجات المحيط الاجتماعي والاقتصادي، وكذا عدم التواكب مع

الدينامكية المتسارعة في عصر العولمة والانترنت وعصر التكنولوجيا المتطورة، وحسب هذا التوجه فإن إصلاح التعليم من شأنه أن يجعل الجامعة تلعب دورا مركزيا يتمثل من جهة في تطلع المواطنين لاسيما فئة الشباب، نحو بناء مشروع مستقبلي بالاستفادة من تكوين عالي نوعي يمددهم بمؤهلات ضرورية للإندماج الأمثل في سوق الشغل، ومن جهة أخرى في تلبية متطلبات القطاع الاجتماعي والاقتصادي الذي يطمح إلى التنافسية و النجاحة، وهذا بمداده بموارد بشرية نوعية قادرة على التجديد و الإبداع، مع التكفل بجانب هام في مسعى ازدهار البحث العلمي والتنمية تماشيا واحتياجات الدولة والمجتمع في كل الجوانب.

هذه الأسباب أدت على غرار معظم بلدان العالم إلى تبني نظام (ل م د LMD) وتطبيقه في الجامعة الجزائرية بداية من سبتمبر 2004 وهذا من أجل³:

- توفير تكوين نوعي لمسايرة العصر.
- تحقيق استقلالية المؤسسات الجامعية وفق السير الحسن.
- المساهمة في تنمية البلاد.

وفي دراستنا هذه سوف نحاول أن نحلل هذا الواقع ونسبر أسبابه وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية:

- هل يقدم التعليم الجامعي تكوينا ميدانيا يساعد الطالب على فهم متطلبات الواقع في ظل الإصلاح الجديد (ل م د، LMD)؟

1-التعريف بنظام (ل م د، LMD):

هو عبارة عن هيكل تعليمي مستوحى من الدول الغربية يحتوي على ثلاث شهادات هي: شهادة

ليسانس ل L شهادة ماستر م M شهادة دكتوراه D

ينظم التعليم في سداسيات، تتضمن وحدات تعليمية وتجمع التكوينات في ميادين تكوين. إن ميدان التكوين هو بناء متجانس يغطي عدة تخصصات تقدم التكوينات في شكل عروض تكوين، تتفرع إلى ميدان، فرع، تخصص. لا يقاس التعليم والتكوين المحصلين بسنوات الدراسة وإنما بأرصدة:

- يجب اكتساب 180 رصيدا للحصول على الليسانس.

- يجب اكتساب 120 رصيداً للحصول على الماجستير.

إن الأرصدة هي وحدة حساب تسمح بقياس عمل الطالب خلال السداسي (دروس، أعمال موجهة، أعمال تطبيقية، تربص، بحث، عمل شخصي...) والأرصدة قابلة للاكتساب والتحويل من مسار لآخر⁴.

2- هيكل النظام الجديد:

أ/ شهادة الليسانس: هي شهادة تحضر في 03 سنوات، وتشمل تكوين قاعدي (أولي) متعدد التخصصات مدته من سداسي واحد إلى أربعة سداسيات (جذع مشترك)، وتهدف إلى الحصول على المبادئ الأولية للتخصصات المعنية بالشهادة وكذا معرفة مبادئ منهجية الحياة الجامعية واكتشافها، ويتبع هذا التعليم المشترك الذي يمتد على سنتين، بسنة للتخصص بحيث يتلقى فيها الطالب تكوين يؤهله لأن يكون جاهز للحياة العملية والتحضير لنيل شهادة الماجستير.

ب/ شهادة الماجستير: وتحضر هذه الشهادة في ظرف سنتين بعد اللسانس ويسمح لكل طالب حاصل على شهادة ليسانس تتوفر فيه شروط الالتحاق، ويتلقى فيها الطالب تكوين يؤهله لأن يكون جاهز للحياة العملية والتحضير لنيل شهادة الدكتوراه.

ج/ شهادة الدكتوراه: وتحضر هذه الشهادة في ظرف ثلاث سنوات من أجل تعميق المعارف في التخصص، والتدريب على البحث العلمي من خلال الإعداد لأطروحة التخرج النهائي.

3- العلوم الاجتماعية المفهوم والواقع:

3-1- مفهوم العلوم الاجتماعية: الشأن الاجتماعي موجود منذ وجد الإنسان ومع ذلك لم يتم السعي لتأسيس علم بخصوص ما هو اجتماعي حتى نهاية القرن 19، حين بدأ صرح السوسيولوجيا بالتكون واتخاذ أهداف ومناهج وأطر فكرية تحاول الإجابة على مجموعة من الأسئلة مثل كيف يتماسك المجتمع؟ كيف يفرض النظام السياسي؟ هل هناك قوانين تحكم الحياة الاجتماعية؟ ما الذي يوجه فعل الأفراد؟ ما هي التفسيرات والمعالجات المقدمة إلى الظواهر الجماعية مثل الانحراف والعنف...⁵

ويشير مصطلح العلوم الاجتماعية إلى العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان ومجتمعه، مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإنسان وعلم الاقتصاد وعلم السياسة والإعلام... لكن الاصطلاح

دائماً يعني تطبيق الطرق العلمية على دراسة شبكة العلاقات الإنسانية المعقدة، وأنواع النظم الاجتماعية التي تمكن الأفراد من العيش سوية على شكل جماعات تنتمي لمجتمعات مختلفة⁶.

3-2-واقع العلوم الاجتماعية:

تبنى العلوم الاجتماعية على فرضية أساسية وهي أن الواقع الاجتماعي قابل للفهم العلمي، ويعني الفهم العلمي النظر إلى الظواهر من بعد كاف يسمح للباحث أن يتحرر من سلطة المسلمات، وأن يدرس الفرضيات بمنهجية أكثر موضوعية، وأن يحلل الواقع بناء على معطيات قابلة للإثبات، وأن يتحلى بروح نقدية شاملة⁷.

ازدادت أهمية العلوم الاجتماعية في الدول المتقدمة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما قام مجموعة من العلماء بتطبيق طرق البحث على دراسة الظواهر الاجتماعية، ففي بريطانيا مثلاً تأسست الجمعية الوطنية لتطوير العلوم الاجتماعية عام 1875، ورغم من نجاحها إلا أن آثارها في تطوير الدراسات الاجتماعية كانت محدودة المجال، غير أنها كانت السبب في تأسيس الجمعية الأمريكية للدراسات الاجتماعية عام 1865، والتي لعبت دوراً كبيراً في تطوير البحوث والدراسات الاجتماعية⁸.

وواصلت العلوم الاجتماعية نموها نوعياً وكمياً في مختلف أرجاء العالم، لاسيما في النصف الأخير من القرن الماضي، بشكل يواكب دراسة مجتمعات حديثة بدت وكأنها دائمة التغير سواء نحو آمال تحررية شملت إشراك الشعوب في تقرير وتحسين أوضاع الفئات المهمشة فيها، أو نحو اتجاهات كارثية شملت ازدياد القدرة التدميرية للصراعات، خاصة في حالة الحروب الحديثة، وتفاقم الصراعات الاجتماعية بشكل أدى في حالة بعض المجتمعات إلى حروب أهلية أو شلل الحياة السياسية، ومحاولات لهندسة التغير الاجتماعي بشكل سطحي لا يأخذ في الاعتبار رأي ضحايا التغير أو المشاكل الاجتماعية والبيئية المتعلقة بالتنمية⁹.

فمن الناحية الكمية شهدت العلوم الاجتماعية نمواً كبيراً في أعداد الباحثين والدارسين، وكمية الدراسات المنشورة وعدد الأقسام الجامعية والمؤسسات البحثية، والجمعيات العلمية في مختلف أنحاء العالم، ومن الناحية النوعية شهدت العلوم الاجتماعية خلال الفترة ذاتها تعاملاً مطرداً

للتخصصات، وبرز منهجيات جديدة للبحث العلمي، ومساحات كبيرة للاختلاف النظري، وتوظيف للمناهج والنظريات في بعض السياسات الحكومية ومبادرات المجتمع المدني¹⁰. تعتبر العلوم الاجتماعية إحدى أدوات التخطيط لعمليات التنمية البشرية والاجتماعية، ومحركاً أساسياً لكافة عمليات التغير الاجتماعي ومركزاً للحركات الاجتماعية، وذلك إن دل على شيء فإنه يدل على العلاقة المتبادلة بين الفكر المتمثل في العلم وبين الواقع، فالعلم كشكل أعلى للمعرفة يتأثر بالواقع الاجتماعي، كما أن الواقع يصوغ الفكر ويشكله ويؤله إلى التقدم وإسراع الخطى إلى المستقبل، كذلك فإن الفكر يسهم في تغيير الواقع والعمل على جعله أكثر ملائمة للفكر الحديث، وذلك عن طريق إعمال العقل وتبني النزعة النقدية التي تجعل الإنسان أكثر وعياً وأكثر قدرة على إيجاد واقع اجتماعي يتلاءم مع حاجات الإنسان ومتطلباته، فالعلوم الاجتماعية تعمل على رفع المستوى الذهني والفكري لدى أفراد المجتمع ومن ثم تزويد الفرد بمواقف واتجاهات سلوكية تعمل على خلق مجتمع قادر على الارتقاء بذاته والتكيف مع المستجدات والتحديات المعاصرة، وهذا ما دفع العالم المتقدم إلى الاعتماد على هذه العلوم وتشجيعها والعمل على مساندتها من خلال تقديم كافة أنواع الدعم والإمكانيات لها كي تقوم بدورها في خدمة المجتمع وتنميته، الأمر الذي جعل الولايات المتحدة الأمريكية تقوم بإطلاق اسم خاص على العقد الحالي من الألفية الثالثة وهو "عقد السلوك" وهذا يدل على مدى أهمية العلوم الاجتماعية ومشاركتها في إحداث التقدم والتغير، فلم يعد إحداث التغير مقصوراً على العلوم الطبيعية فحسب بل باتت العلوم الاجتماعية قاسماً مشتركاً في عملية التغير، ذلك التغير الذي يمر به العالم أجمع والذي اجتاحت كثير من مظاهر الحياة على سطح الأرض وعمل على إحداث تحولات سريعة ومفاجئة أدت إلى قيام الإنسان المعاصر بتعديل رؤيته إلى العالم الجديد السريع التغير والبحث عن معنى جديد للإرادة الإنسانية ومحاولته تحرير نفسه من القيود التي تكبل انطلاقه لتحقيق ذاته والقدرة على التعامل مع التحديات التي تواجهه، والرغبة في التخلص من الأوضاع التي لا تتفق مع رؤيته الخاصة وطموحاته، وعلى ذلك يمكننا القول أن العلوم الاجتماعية بما تحويه من أفكار ومعارف تعمل على تعليم الإنسان كيفية الوصول إلى حقيقة أبعاد وضعه الإنساني في هذا العالم والتفتيش في أعماقه الداخلية لكي يستطيع

التحكم في نتائج أفعاله والوصول إلى أهدافه دون أن يخل بالقيم والمبادئ والمعايير المتفق عليها في المجتمع الإنساني.

وللتوصل إلى إحداث تغيير إيجابي في المجتمع يجب أن تتوفر في الذين يقومون بهذا التغيير عدة مقومات من أهمها الوعي والإرادة، فلكي يتم التغيير لابد أن يكون لدى أفراد المجتمع وعيا وإدراكا بما يحيط بهم من وقائع وأحداث، وكذلك أن يكون لديهم إرادة قوية قادرة على الوصول إلى الأهداف المرغوب تحقيقها والتخطيط للمستقبل بطريقة واعية، وبقليل من التأمل سوف نجد أن كلا من الوعي والإرادة يتم خلقه وتنميته من خلال الاطلاع على العلوم الاجتماعية ودراساتها، فهذه العلوم تقوم بإذكاء روح المثابرة وإثراء الفكر الإنساني بمزيد من الأفكار و المعارف التي من شأنها إعداد أفراد أكثر قدرة على تطبيق العلم والإدارة الحكيمة وخلق مستقبل أكثر تقدما واستقرارا، وبذلك يتمثل دور العلوم الاجتماعية في خلق الوعي والإرادة لدى أفراد المجتمع، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى المساهمة في تكوين الفكر وتنميته على المستويين الفردي والمجمعي من خلال إنتاج المعرفة العلمية وتطبيقها عن طريق المؤسسات التعليمية والبحثية، الشيء الذي من شأنه أن يعمل على الارتقاء بالمستوى الفكري والمعيشي للفرد والمجتمع.

فما أحوجنا الآن لتطبيق هذه العلوم الاجتماعية من أجل الوصول إلى عالم أكثر استقرارا وتقدما، ويبقى التأكيد على أهمية العلوم الاجتماعية كطليعة للنهضة وإحداث التقدم... فقد أصبحت تلك العلوم بؤرة الحياة الثقافية، كما أصبح دورها إيجابيا في إنتاج المجتمع¹¹.

إلا أن العلوم الاجتماعية مازالت في الجزائر منذ نشأتها في الجامعات الجزائرية إلى اليوم تستهلك فقط وتدرس بشكل نظري بعيدا عن مبادئ الواقعية الفلسفية.

وتمثل الواقعية فلسفة جديدة ومقابلة للمثالية، فقد جاءت كرد فعل للآراء التي قدمتها الفلسفة المثالية، فبعد أن كانت المثالية ترى أن العقل هو مصدر المعرفة، ظهرت الفلسفة الواقعية لتبين أن العقل لا يعد مخزنا للحقائق بذاته، وإنما هي موجودة خارج الذهن وعلى الإنسان أن يحصلها بنفسه، أي أن المعرفة هي إدراك الأشياء كما هي في الواقع بوساطة آلات الإدراك.

الواقعية ترى أن الحواس هي أداة الوصول إلى الحقيقة، وأن الواقع المادي المحسوس هو مصدر الحقائق، وأنه يملئ أوامره على العقل، ومن أبرز فلاسفتها أرسطو الأب المؤسس للفلسفة

الواقعية، ومن المنظرين التربويين للواقعية (هربرت سبنسر-جون لوك - فرانسيس بيكون-علماء النفس السلوكيين)، وتقوم الواقعية الفلسفية في مجال التربية والتعليم على عدة مبادئ نذكر أهمها فيما يلي:

- الواقع يشمل المعرفة بجميع مجالاتها.

- المعرفة ومصادرها موجودة في عالمنا الحسي الذي نعيش فيه.
- تستدل على الحقيقة عن طريق الحواس والتجربة كونها صادرة عن الواقع الحسي.
- يمكن التعرف على العالم بالعقل والحواس معا.
- معرفتنا بحقائق العالم تتزايد بالاكشاف والتحليل الموضوعي والتفسيرات العلمية.
- إن المجتمع يسير وفق قوانين طبيعية لا تتغير، وكلما أطاع الإنسان هذه القوانين واحترمها كان المجتمع ناجحاً.
- اكتشاف حقائق وقوانين جديدة مكتملة لما سبق وغير مخالفة لها.

ففي الوقت الذي يجب فيه على العلوم الاجتماعية أن تزيد من اهتمام الطلبة بكثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحاضرة، والاتجاه نحو المشاركة الواعية فيما يواجه المجتمع من مشكلات وتحديات، نجد أنها في الواقع مازالت استهلاكية ويتعلم فيها الطالب تاريخ هذه العلوم ونظرياتها التي اكتشفت في أزمنة غابرة، في مجتمعات غابرة.

4- واقع التكوين الأكاديمي في نظام (ل م د):

تعتبر الجامعة المؤسسة الأساسية للتعليم الذي يرتبط بالمجتمع من خلال سعيها إلى تكوين نخبة تساهم بدورها في تفعيل حركة الإنتاج والإبداع داخل المجتمع، لكن الملاحظ أن الجامعة الجزائرية واجهت ولازالت تواجه مجموعة من التحديات والرهانات التي تعيقها عن أداء دورها المنوط بها في تكوين الطلبة تكويناً أكاديمياً يتماشى ومتطلبات الواقع الاجتماعي، وعلى الرغم من الإصلاح الجامعي الذي تم على مستوى هيكل الجامعة والمنظومة التعليمية بشكل عام والذي دخل حيز التطبيق سنة 2004، إلا أن أزمة الجامعة الجزائرية على مستوى مخرجاتها من الموارد البشرية التي تفتقر إلى الخبرة اللازمة والفعالية المنتجة لا تزال قائمة، مما يجعلها غير مؤثرة في متطلبات الواقع الاجتماعي والاقتصادي، ويرجع الأمر إلى اختلالات كانت تعاني منها المنظومة الجامعية في النظام السابق أو ما يعرف بالنظام الكلاسيكي، ولم تستدرك في الإصلاح الجديد، وحسب مختلف

الدراسات¹² التي أجريت في هذا المجال فإن هذه الاختلافات كانت على مستوى التجهيزات والهيكل القاعدية، وعلى مستوى البرامج التكوينية، وعلى مستوى التأطير والبحث العلمي، وفيما يلي نفصل في كل مستوى:

أ/ على مستوى التجهيزات والهيكل:

يعتبر قطاع التعليم العالي من القطاعات الحساسة التي تحتاج إلى ميزانية كبيرة وعقلانية في التسيير، وذلك من أجل توفير التجهيزات والهيكل اللازمة العملية التعليمية والتالي تطوير البحث العلمي في الجامعة مثل الهياكل التعليمية (قاعات التدريس)، المكتبات، قاعات الإعلام الآلي، المكتبات الرقمية، فالجامعة الجزائرية كانت ومازالت تعاني من نقص واضح على مستوى التجهيزات والهيكل القاعدية مثل المرافق البيداغوجية (قاعات التدريس)، حيث يعتمد النظام الجديد على التقليل من عدد الطلبة في القاعة، إلا أن ما نلاحظه هو الاكتظاظ الكبير للطلبة داخل القاعات مما يجعل عملية إيصال المعلومة للطلاب وقدرته على الاستيعاب في غاية الصعوبة، بالإضافة إلى التجهيزات الخاصة بالسير الحسن للحرص البيداغوجية، خاصة ما يتعلق بتوفير التجهيزات التكنولوجية الحديثة مثل الأنترنت وأجهزة العرض، والتي حتى وإن وجدت تبقى غير مستعملة، وهذا ما أثبت في دراسة فتيحة كركوش¹³، حيث يقر معظم الأساتذة بعدم توفر الإمكانيات المادية والتمويل اللازم لتطبيق (ل م د)، فحتى الآن مازال الأستاذ يعتمد على الوسائل التي أصبحت بدائية بالنسبة إلى التطور التكنولوجي، مثل الطباشير والسبورة.

ب/ على مستوى البرامج التكوينية:

كان الهدف الأساسي من إصلاح المنظومة الجامعية هو وضع برامج واضحة وذات أهداف حقيقية مرتبطة بسوق العمل وحركية الإنتاج ومتطلبات الواقع الاجتماعي بصفة عامة، بالإضافة إلى إكساب الطالب أكبر قدر ممكن من المعلومات والمعارف المرتبطة بالتخصص من خلال نظام السداسيات المتبع، لكن في الواقع أنه تم تغيير المنظومة من حيث الهيكل فقط، بمعنى الانتقال من النظام السنوي للمواد إلى النظام السداسي، إلا أن محتوى البرامج التعليمية مازال قاصرا على تلبية متطلبات الواقع الاجتماعي، وعلى تزويد سوق العمل بالموارد البشرية المؤهلة، وهذا راجع إلى أن هذه البرامج مازالت تركز على الجانب النظري من التعليم، ومازال الطلبة إلى حد اليوم يدرسون

تاريخ العلوم ولم يستطع النظام الجديد التخلص من النزعة الاستهلاكية لدى الطلبة وحتى لدى الأساتذة والباحثين.

بالإضافة إلى أن طلبة ليسانس يدرسون سنة أولى جذع مشترك علوم اجتماعية، وسنة ثانية جذع مشترك علم النفس أو علم الاجتماع، وفي السنة الثالثة يدرسون التخصصات الموجودة في هذين العلمين، أي أن تكوين الطلبة وتدريبهم المعارف المرتبطة بالتخصصات الفرعية في علم النفس وعلم الاجتماع، يتم فقط في سنة واحدة، وهي غير كافية تماما.

والنظر إلى ما ينص عليه الإصلاح الجديد وما هو واقع في المؤسسات الجامعية، فإن هناك نوع من التناقض، حيث يقدم الإصلاح الجديد ديناميكية جديدة في بناء عروض التكوين العالي، وهذا الصدد¹⁴:

- يوكل إلى الوزارة تحديد الإستراتيجية الكاملة للتعليم العالي لرسم خطوط موجهة لمخطط وطني توجيهي للتكوين العالي.

- يوكل إلى مؤسسات التعليم العالي تحديد واقتراح سياستها الخاصة في التكوين والبحث بالارتكاز على كفاءاتها وكذا على المعطيات والإمكانات التي يتيحها المحيط.

- يوكل إلى اللجان الجهوية للتقييم وإلى اللجنة الوطنية للتأهيل للقيام بالتقييم والمصادقة على التكوينات المقترحة والقيام بتأهيل مؤسسات التعليم العالي لضمان التكوينات الملائمة.

إلا أن الواقع يثبت أن لكل جامعة برامج تكوين خاصة بها في مختلف التخصصات وغير موجودة في الجامعات الأخرى، إلى أن تم تدرك هذا الخلل باعتماد الوزارة الوصية توحيد برامج التكوين في كل التخصصات على المستوى الوطني بحيث أن الطالب الذي يدرس مادة معينة في تخصص ما في أي جامعة، يدرسها نفسها طالب آخر في جامعة أخرى، وقد حدث هذا الإجراء على مستوى الليسانس ولم يعمم إلى غاية هذه السنة (2016) على مستوى الماستر والدكتوراه.

ج/ على مستوى التأطير والبحث العلمي:

يعد البحث العلمي الدعامة الأساسية التي تنطلق منها الدولة من أجل ترقية قطاعاتها، كما يعتبر مقياسا لمدى تقدم أو تخلف الدولة، وغياب تصور واضح وشامل عن أهمية البحث

العلمي، يبدد ويشتت شمل الكفاءات البشرية مما يتسبب في تفكيك عملية التراكم المعرفي الذي لا مكان بدونه لأي تطور أو تقدم، ولاشك أن البحث العلمي الناجح يحتاج إلى تبني منظومة تعليمية تشجع على الابتكار والإبداع، بالإضافة إلى استثمار معتبر من ميزانية الدولة في البحث العلمي وإنشاء مراكز البحث، لذلك فإن مكانة البحث العلمي تفوق كل ما هو مقرر له من إمكانيات داخل الدولة، والمتتبع لتطور البحث العلمي في الجزائر منذ الاستقلال إلى اليوم يجد أنه لا يوجد اهتمام واضح بإنشاء مخابر بحث خاصة بالعلوم الاجتماعية على وجه الخصوص، فعلى الرغم من أن الجزائر صنفت الأولى عربيا في عدد مراكز البحث سنة 2014، إلا أن هناك مركز واحد في الجزائر مخصص للعلوم الاجتماعية، هو مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC) الكائن مقره بولاية وهران ويحتل المرتبة 737 دوليا، في مقابل العديد من مراكز البحث المخصصة للعلوم التطبيقية. ورغم أن الوزارة قامت باستحداث وحدات بحث كبرى تشمل جميع التخصصات، وتمثل في وحدة البحث (CNEPRU) وبرامج البحث الوطني (PNR)، إلا أن هذه المشاريع غير موجهة نحو قضايا المجتمع الأساسية.

الخاتمة:

لقد أصبحت الحاجة ملحة للاهتمام بالعلوم الاجتماعية في الجزائر على المستوى الأكاديمي والمهني على السواء، من خلال دعمها وتمويل بحوثها وتأسيس المزيد من مراكز البحث التي تعنى بالقضايا الاجتماعية الراهنة، مثل العنف والجريمة، والمخدرات، وحالات الطلاق، والاحتجاجات، بما يواكب التطورات والتغيرات السريعة التي حدثت في المجتمع.

يتبين أيضا أن الإصلاح الجديد يواجه صعوبات كبيرة في التطبيق كونه ليس متعلقا بالجامعة وحدها بل يتعداها إلى الشريك الاقتصادي الذي هو الآخر يخوض تجربة جديدة متمثلة في الخوصصة والمؤسسات الصغيرة وفتح المجال للاستثمار الأجنبي، يضاف إلى ذلك عدم استعداد واستيعاب الأسرة الجامعية للتحديات التي يفرضها النظام الجديد، فهذا الأخير يستوجب تسخير جميع الإمكانيات المادية والبشرية.

وما يلاحظ كذلك هو عدم سن القوانين المناسبة المسيرة له والاكتفاء بقوانين النظام القديم، مثلا الشروط التي تتحكم في إعادة التوجيه والتحويلات، لذا غالبا ما نجده يعبر عنها بعبارة يتحدد

لاحقا وهو ما يظهر جليا في القرارات الوزارية التي يحدد تنظيم التعليم وضبط كيفية مراقبة المعارف والانتقال بين الأطوار الثلاث وحتى داخل الطور الواحد، إضافة إلى عدم وضوح النصوص القانونية التي تضبط كيفية الانتقال من الليسانس إلى الماستر ومن الماستر إلى الدكتوراه. والعلوم الاجتماعية نفسها مازالت لم تفرض نفسها في أدائها لدورها المهم في التنمية الاجتماعية وحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تواجه المجتمع.

الهوامش:

- 1 International Social Science Council, world social science report, United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization, 2010.
- 2 <https://www.mesrs.dz/reseaux-universitaires>.
- 3 <https://www.mesrs.dz/le-systeme-lmd>.
- 4 <https://www.mesrs.dz/le-systeme-lmd>.
- 5 فيليب كايان، جان فرانسوا دورتيه، ترجمة إلياس حسن، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية . أعلام وتواريخ وتيارات .. دار الفرق، ط1، سورية، 2010، ص5.
- 6 معجم علم الاجتماع، دار الطليعة، ط1، بيروت 1981، ص 207.
- 7 المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، التقرير الأول للمرصد، العلوم الاجتماعية في العالم العربي . أشكال الحضور، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية، بيروت، 2015، ص6.
- 8 معجم علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 207.
- 9 المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص5.
- 10 نفس المرجع، ص6.
- 11 حمدي عبد الحميد، العلوم الاجتماعية، العلوم الاجتماعية ودورها في تنمية الفرد والمجتمع، http://hamdisocio.blogspot.com/2010/07/blog-post_8240.html
- 12 الزيد نذيرة، صعوبات تطبيق (ل م د) حسب تصورات الأساتذة الجامعيين في الجامعة الجزائرية - دراسة ميدانية بجامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد 10، الجزائر 2015.
- 13 فتحة كركوش، اتجاهات الأساتذة نحو نظام (ل م د) . دراسة ميدانية بجامعة البليدة، دراسات نفسية وتربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، العدد 8، الجزائر، 2012.
- 14 <https://www.mesrs.dz/le-systeme-lmd>.

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري

دراسة ميدانية على عينة من الأسر المقيمة بمدينة فرندة

الأستاذة بن مفتاح خيرة، جامعة تيارت

الأستاذ الدكتور مراد مولاي حاج، جامعة وهران 02

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على أهم المصادر المنتجة والناقلة للقيم الموجهة لسلوك الطفل في المجتمع الجزائري، في ظل الثورة التكنولوجية التي يشهدها العالم خاصة في مجال الإعلام والاتصال، حيث استخدم المنهج الوصفي للتحقق من الافتراض الذي تبنته الدراسة من خلال استجواب عينة قصديه تتكون من 60 أسرة مقيمة بمدينة فرندة بولاية تيارت تم اختيارها بطريقة غير احتمالية، عن طريق الاستبيان المعد من قبلنا. وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج تتمحور حول مصدرين متباينين من حيث طريقة إنتاج ونقل القيم للطفل الجزائري، والمتمثلين أساسا في الأسرة بأساليبها التنشيطية الصارمة، وعناصر الربط بشبكة الانترنت والبث التلفزيوني بقنواته الفضائية كوسيلتين تكنولوجيتين بأساليب عرضها المبهر والجذاب ومحتوياتها (الراقية والمتدنية) الناقلة لجملة من القيم التي قد تتوافق وما يوجد في المحيط الأسري للطفل فتعززها وتقويها، أو القيم التي تتناقض مع ما يتعلمه الطفل خلال عملية تنشئته — إيجابيا وسلبا.

الكلمات المفتاحية: الطفل، الأسرة، تكنولوجيا الإعلام والاتصال، القيم، السلوك، التنشئة الاجتماعية.

Summary: This research aims to shed light on the most important productive and transmitting values towards to the behavior of the child in the Algerian society in light of the technological revolution taking place, especially in the field of information and communication. As we used the descriptive method to verify the

assumption adopted by the study through questioning a chosen sample consisting of 60 families living in the town of Frenda, in the wilaya of Tiaret. They were chosen in a no probabilistic way, through the questionnaire that we prepared. In fact, the research has led to a number of results showing two distinct methods of educating and transferring of values to the Algerian child, and represented by mainly by a kind of family with strict upbringing methods, and linking elements as the access to Internet and television broadcasting satellite with its channels as two technological means displaying in dazzling and attractive ways with contents (with high and low quality). These ways might be carrying a number of values that could correspond to what there is in the family environment for the child,, and strengthen and intensify it, or values that are contrary to what the child learns through upbringing - positively and negatively-..

مقدمة:

تألت القيم من الأهمية ما لم تبلغه العديد من المواضيع المدروسة، ذلك لأنها أحد أهم محاور تربية الفرد وضبط سلوكه، تحدد المرغوب وغير المرغوب في تصرفاته، كما أنها تمنح الأشياء وزناً وقيمة وتوفر للأفراد الحافز لتحقيق ذواتهم وإثبات وجودهم. وقد جاءت هذه الدراسة للبحث عن أهم المصادر المنتجة لها، مع التركيز على مصدرين أساسيين ألا وهما الأسرة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال، كونهما من الجماعات المرجعية الأكثر إشرافاً على التنشئة الاجتماعية للفرد بصفة عامة والطفل بصفة أخص.

الإشكالية:

تعد تكنولوجيا الإعلام والاتصال أحد أهم العناصر التي كان لها عظيم الأثر في حدوث تغيرات مست كل المجتمعات بشتى البنيات والمؤسسات التي تشكلها، حيث أنها امتدت بمكانتها إلى أدق الأجزاء التي يتكون منها المجتمع وفي مقدمتها الأسرة، التي تنسب إليها أهم الوظائف ألا وهي التنشئة الاجتماعية، التي من خلالها يتحول الأفراد - الأطفال على وجه الخصوص - من كائنات بيولوجية إلى كائنات اجتماعية لها نظم أساسية، تسيروهم خلال تفاعلهم اليومي مع المحيط

الاجتماعي الذي ينشئون فيه، كذلك تساعد الأفراد على غرس هوية قومية وتكوين شخصياتهم من خلال أخذ القيم والمعايير الاجتماعية المحددة لسلوكياتهم وأدوارهم داخل الجماعات الاجتماعية التي ينتمون إليها، وفي واجهتها الأسرة كمؤسسة أولية للتنشئة الاجتماعية.

إن القيم هي ما يحدد سلوك الأفراد وأفعالهم ومواقفهم الاجتماعية، وتعتبر من الركائز الهامة التي يستندون عليها في تحقيق أهدافهم، لكن مع التطور الذي يشهده العصر أصبحت هذه الأخيرة تنقل إلى الأفراد والأطفال خاصة عن طريق عدة مصادر وأوعية تختلف مضامينها باختلاف طبيعتها ومكان نشأتها وظروف تلقيها واستخدامها، وقد جاء هذا البحث للكشف عن هذه المصادر خاصة في المجتمع محل الدراسة، وعليه نظر التساؤل التالي: ما هي المصادر المنتجة للقيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري؟ وللإجابة عن التساؤل الرئيسي وجب الإجابة على التساؤلات الفرعية التالية:

- 1) كيف تساهم الأسرة في نقل القيم لأطفالها؟
- 2) كيف تساهم تكنولوجيا الإعلام والاتصال في نقل القيم للأطفال المستخدمين لها؟
- 3) ما هي أهم القيم الموجهة لسلوك الأطفال والتي تنقلها كل من الأسرة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال لهم؟

فرضيات الدراسة:

الفرضية العامة: تعد الأسرة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال من أهم المصادر الناقلة للقيم الموجهة لسلوك الطفل في المجتمع الجزائري.

الفرضيات الجزئية:

- 1) تقوم الأسرة بإعادة إنتاج القيم لأطفالها عن طريق الضبط والتنشئة الاجتماعية الصارمة.

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

- (2) تساهم تكنولوجيا الإعلام والاتصال في نقل القيم الغربية للأطفال من خلال المضامين الجذابة والمتنوعة المعروضة عبر القنوات التلفزيونية الفضائية والانترنت.
- (3) تعد القيم الدينية والقيم الاجتماعية من أهم القيم التي يكتسبها الأطفال من الأسرة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال.

أهداف الدراسة:

1. الإشارة إلى دور الأسرة في نقل القيم عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال.
2. التعرف على أساليب التنشئة الأسرية المنتهجة لنقل القيم لأطفالها.
3. الإشارة إلى دور تكنولوجيا الإعلام والاتصال في نقل وغرس القيم.
4. التعرف على أساليب القنوات التلفزيونية الفضائية المستعملة لنقل وترسيخ القيم للأطفال.
5. الإشارة إلى دور الانترنت في إنتاج ونقل القيم للأطفال.
6. التعرف على أهم القيم التي تساهم هذي التقنيات في نقلها للأطفال.

مفاهيم ومصطلحات الدراسة:

الطفل: "هو الذي تمتد فترته العمرية من الميلاد وحتى طور البلوغ، وتنقسم هذه الفترة إلى مرحلتين: المرحلة المبكرة التي تمتد من الميلاد حتى السادسة تقريبا، والطفولة المتأخرة التي تمتد من السادسة إلى الثانية عشر سنة، وفي هذه المرحلة يكتسب الطفل الوعي، المعرفة وسائر مقومات الثقافة ويكون قابلا للتكيف والتلاؤم مع البناء الثقافي والاجتماعي المحيط به. وفي هذه المرحلة يقطع الطفل شوطا كبيرا من النمو العقلي، والذي يتمثل في نمو الذكاء والتفكير والوصول إلى مرحلة القدرة على تكوين المفاهيم¹.

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

الأسرة: "درج العرف في تراث الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع على أن الأسر هي وحدات قرابية وأن الأسرة ينبغي تعريفها في سياق الإقامة المشتركة".²

والأسرة الجزائرية كما يعرفها القانون الجزائري هي "الخلية الأساسية للمجتمع وتتكون من أشخاص تجمعهم صلة الزوجية وصلة القرابة".³

تكنولوجيا الإعلام والاتصال: حسب سمير عبده، تعرف التكنولوجيا بأنها "الأدوات والوسائل التي تستخدم لأغراض عملية تطبيقية، والتي يستعين بها الإنسان في عمله لإكمال قواه وقدراته وتلبية تلك الحاجيات التي تظهر في إطار ظروفه الاجتماعية".⁴

أما تكنولوجيا الإعلام والاتصال فهي "مجموعة من التقنيات والأدوات أو الوسائل أو النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الإعلامي والاتصالي الذي يراد توصيله من خلال عملية الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو الجمعي أو التنظيمي أو الواسطي، أو التي يتم من خلالها جمع المعلومات والبيانات المسموعة أو المكتوبة أو المصورة، أو المرسومة أو الرقمية من خلال الحاسبات الالكترونية أو الكهربائية حسب مرحلة التطور التاريخي لوسائل الاتصال والمجالات التي يشملها التطور".⁵

القيم: يعرفها عبد الرحمان عزي بأنها "ما يرتفع بالفرد إلى المنزل المعنوية، ويكون مصدرها الدين"⁶، أي أن القيمة هي "ما يعلو عن الشيء ويرتبط بالمعاني الكامنة في الدين. إعلاميا فإن دراسة الأثر وتأثيرات وسائل الإعلام لا تتم من دون مرجعية تربط محتوى وسائل الإعلام بالقيمة".⁷

وهي مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه، وهي فكرة يعتقد بها الإنسان ويعتقد أنها الإنسان ويعتنقها قصد التكيف مع جماعته ومجتمعه، وقد ميز روكيتش بين نوعين من القيم، القيم الغائية التي تعكس الأهداف التي يسعى الفرد إلى تحقيقها كالحرية

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

والاحترام... وقيم وسائلية أو الأنماط السلوكية المتبعة لتحقيق الأهداف الغائية مثل الطاعة والشجاعة...

أما عبد الله بوجلال فيرى أن القيم "عبارة عن نظام معقد يتضمن أحكاما تقويمية إيجابية وسلبية تبدأ من القبول إلى الرفض، ذات طابع فكري ومزاجي نحو الأشياء وموضوعات الحياة وحتى الأشخاص، وهي تعكس أهدافنا واهتماماتنا وحاجتنا والنظام الاجتماعي والثقافة التي ينشأ فيها بما تتضمنه من نواحي دينية واقتصادية وعلمية."⁸

السلوك: "على الرغم من أن بعض الباحثين يستخدمون مصطلحي: فعل وسلوك بنفس المعنى، إلا أن اصطلاح السلوك أعم من الفعل لأنه يشمل كل ما يمارسه الفرد، ويفكر فيه، ويشعر به، بغض النظر عن القصد والمعنى الذي ينطوي عليه السلوك بالنسبة للفرد، والذي هو استجابة أو رد فعل للفرد، لا يتضمن فقط الاستجابات والحركات الجسمية، بل يشتمل على العبارات اللفظية والخبرات الذاتية..."⁹

منهج الدراسة:

تعرف مادلين غراويتز المنهج على أنه: "وسيلة للوصول إلى مظهر من مظاهر الحقيقة، وللإجابة بشكل خاص جدا على سؤال كيف؟"¹⁰ والمعنى العام للمنهج هو الأسلوب الذي يقود إلى هدف معين في البحث. وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الوصفي الذي يعرف بأنه: "طريقة لوصف الظاهرة المدروسة وتصويرها كمياً، عن طريق جمع معلومات مقننة عن المشكلة وتصنيفها، وتحليلها، وإخضاعها للدراسة الدقيقة."¹¹

أدوات جمع البيانات: كانت الاستمارة هي الأداة التي اعتمدناها في جمع بيانات حول الموضوع محل الدراسة، وقد قمنا بمقابلة الأفراد وملئنا انطلاقاً من إجاباتهم التي كانت ضمن البدائل التي

وضعناها من قبل والخاصة بكل سؤال. وقد احتوت على (43) سؤالاً موزعة على ثلاث (03) محاور، كان أولها متعلق بالسّمات الخاصة للمبحوثين، والثاني حول الأسرة، التنشئة الاجتماعية والقيم، أما الثالث فقد خصصناه لتكنولوجيا الاتصال والقيم. وبما أن الأسئلة لا تتناسب ودرجة وعي الأطفال ومستواهم الثقافي، قمنا بمساءلة الوالدين انطلاقاً من ملاحظاتهم اليومية لأطفالهم، كذلك لتواجههم المستمر معهم وتفاعلهم واحتكاكهم بهم.

عينة الدراسة:

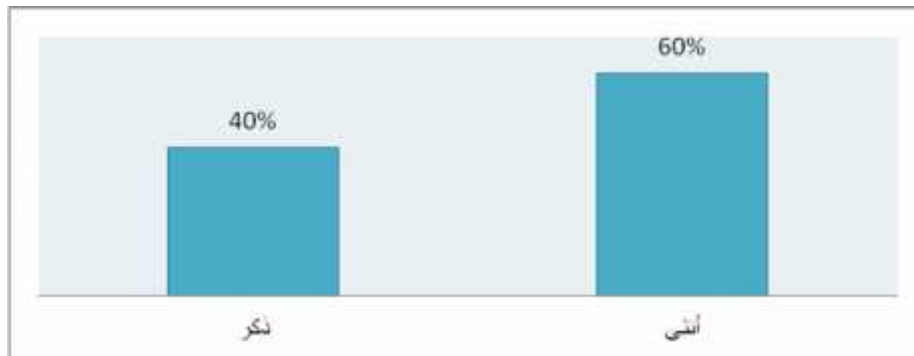
تعرف العينة على أنها تلك المجموعة من العناصر أو الوحدات التي يتم استخراجها من مجتمع البحث ويجري عليها الاختيار والتحقيق¹². ونظراً لصعوبة الوصول لحصر شامل لعدد الأسر المقيمة بمدينة فرندة — والتي تمثل مجتمع بحثنا— فقد تم اختيار عينة بطريقة غير احتمالية عشوائية على مستوى الأسر من أحياء مختلفة بمدينة فرندة، شرط أن تتوفر على أطفال في الطور الابتدائي من التعليم ما بين سن 05 و 12 سنة، كما اشترط توفر الأسر على وسيلة التلفزيون بقنوات تلفزيونية فضائية وتوفر خدمة الانترنت بالمنزل مكان الإقامة. وقد كان تقسيمها حسب أحياء المقيمة بها كما يلي:

الرسم البياني رقم 01: توزيع الأسر حسب الحي المقيمة به



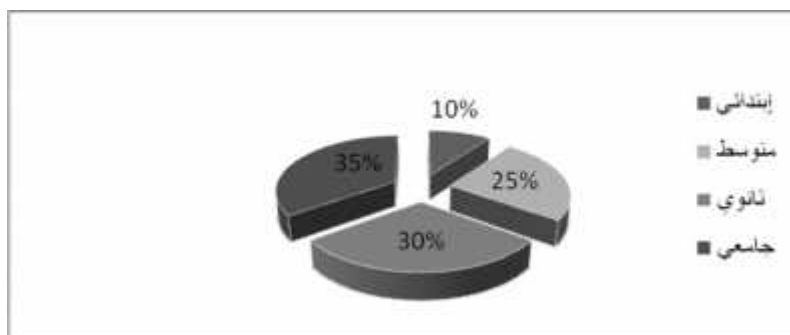
خصائص العينة:

الرسم البياني رقم 02: توزيع أفراد العينة حسب متغير النوع.



من خلال الرسم البياني أعلاه، يتضح لنا أن نسبة الإناث الذين تم استجوابهم قدرت ب 60%، في حين أن نسبة الذكور كانت 40%، وهذا راجع إلى طريقة اختيارنا للعينة، والتي كانت الأسر المقيمة بمدينة فرندة والتي غالبا ما نجد فيها المرأة داخل بيتها، بينما الرجل يكون خارج البيت إما للعمل ولانشغالات أخرى، الأمر الذي سمح لنا باستجواب الإناث أكثر من الذكور.

الرسم البياني رقم 03: توزيع أفراد العينة حسب متغير المستوى التعليمي.

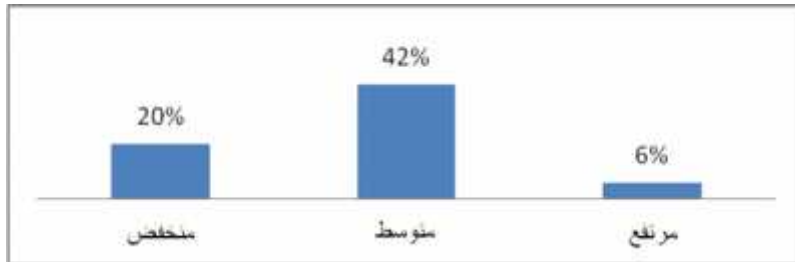


من خلال الرسم البياني أعلاه، يتضح أن أعلى نسبة قدرت ب 35%، والتي كانت لذوي المستوى التعليمي الجامعي، تليها نسبة الأفراد ذوي المستوى التعليمي الثانوي والمقدرة ب 30%، ثم

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

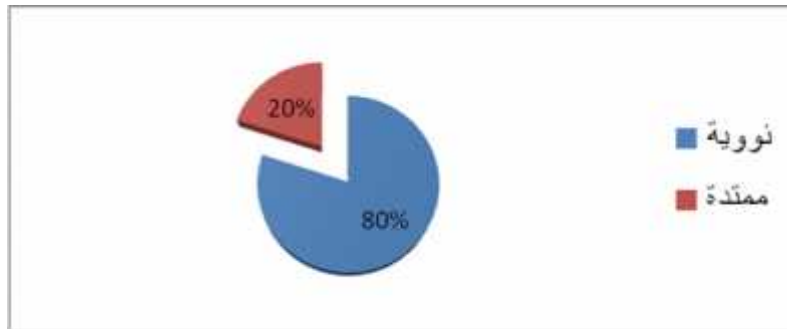
المستوى التعليمي المتوسط ب 25%، فالابتدائي بنسبة 10%، في حين لم نسجل أي نسبة لذوي المستوى التعليمي الأمي. وقد تم عرض هذه النتائج ليتم ربطها لاحقا مع أسلوب التنشئة المعتمد من قبل الوالدين وكذلك مع طريقة استخدام الأطفال لتكنولوجيات الاتصال وأسبابه.

الرسم البياني رقم 04: توزيع أفراد العينة حسب متغير المستوى المعيشي



تظهر النتائج المبينة في الرسم أعلاه أن الأسر من ذوي المستوى المعيشي المتوسط قدرت نسبة تواجدها في العينة ب 42%، تليها بعد ذلك نسبة الأسر من ذوي المستوى المعيشي المنخفض ب 20%، ثم ذات الدخل المرتفع بنسبة 06%. وقد قمنا بعرض هذه النتائج قصد ربطها فيما بعد بعادات استخدام الأطفال للتكنولوجيات التي توفرها لهم أسرهم.

الرسم البياني رقم 05: توزيع أفراد العينة حسب نوع الأسرة



يتضح لنا من خلال الرسم البياني أعلاه، أن نسبة 80% تعود إلى الأسر النووية، في حين أن 20% من الأسر الممتدة، يرجع ذلك إلى طريقة اختيارنا للأسر والتي كانت بصفة عشوائية،

لكن يمكن أن يعكس لنا ذلك جزء من التغير البنيوي الذي عرفته الأسرة الجزائرية، ويتوجب علينا الإشارة إلى أن الأسرة تبقى ممتدة من حيث العلاقات، التضامن المادي والمعنوي بين أفرادها خاصة في المناسبات، أما الأسر النووية فهي موجودة ظاهرياً وتتجلى في استقلالية السكن أو مكان الإقامة في أغلب الأحيان.

عرض ومناقشة النتائج:

1. التنشئة الاجتماعية الصارمة وإعادة إنتاج القيم في الأسرة الجزائرية:

الأسرة وحسب تراث الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، هي "وحدة قرايية"¹³ وهي الخلية الأساسية للمجتمع، تشرف على وظيفة التنشئة الاجتماعية لأفرادها والتي يصفها إميل دوركايم **Durkheim** بأنها "عملية إزاحة الجانب البيولوجي البحث من نفسية الطفل وإحلال نماذج السلوك الاجتماعي محله، كما أنها العملية التي تنقل الثقافة من جيل إلى آخر"¹⁴، هذه الثقافة يقول **Murdock** ماردوك بأنها "ليست شيئاً غريباً ولا فطرياً ولا تنتقل بيولوجياً، بل هي مكونة من عادات واتجاهات مكتسبة من خلال خبرة الفرد الذاتية"¹⁵.

وقد كشفت لنا عينة البحث عن أسلوبها المنتهج للقيام بعملية التنشئة الاجتماعية، والذي يركز أساساً على الضبط والصرامة من أجل السيطرة على تصرفات أطفالها، وفرض معايير السلوك المرغوب فيه، حيث صرح 75% باهتمامهم بمكان تواجد أطفالهم إذا ما تأخروا عن العودة إلى البيت، ويحرص 65% من المبحوثين على معرفة الأصدقاء الذين يرافقهم أطفالهم، "خاصة لما لجماعة الرفاق من مكانة وقدرة على التأثير في سلوك الطفل، كونها تضم جماعة متناسقة من حيث العمر ومستوى التفكير، ويمكنها أن تعلم الطفل خبرات وقيم لا يمكن أن يكتسبها في الأسرة"¹⁶.

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

هذا ويهتم 80% من أفراد العينة بالنتائج الدراسية للأطفال، ويتابعونهم طيلة مشوارهم الدراسي خاصة خلال مراحل الأولى، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على اهتمام الأولياء بقيمة العلم والمعرفة، ورغبتهم في غرسها في شخصيات أطفالهم خاصة وأن أغلبهم - وحسب ما جاءت به نتائج الدراسة- من مستويات تعليمية ثانوية وجامعية (30% و 35% على التوالي).

إن للمستوى التعليمي للوالدين بالغ الأثر على شخصية الطفل، إذ أنه "كلما كان مرتفعاً، كلما أدى ذلك إلى رفع مستوى طموح الطفل، خاصة في ظل محيط آمن وجو ملائم للنجاح ومحفز للتفوق، كما أن له انعكاس على نوع وأسلوب التنشئة المتبع لتطبيع الطفل، حيث يؤدي إلى تهذيبه وتعويدته على المعاملة الإيجابية، كما يؤدي إلى إثراء القاموس اللغوي للطفل خاصة إذا كان الحوار الأسري قائماً وفعالاً بين أفراد الأسرة، إن الأهل يورثون أطفالهم بشكل غير إرادي إراثاً ثقافياً يكون أكثر أهمية كلما تلقى الأهل بالذات تعليماً أعلى وكلما شغلوا مناصب أهم"¹⁷.

والحديث عن أسلوب التنشئة الاجتماعية المتبع لتطبيع الطفل، صرح 20% من المبحوثين بتوبيخهم للطفل أمام إخوته في حال ما قام بسلوك غير مرغوب فيه، وذلك لضبط تصرفاته من جهة، ولتمرير نفس الرسالة لبقية إخوته إذا ما أراد أحدهم تكرار نفس السلوك، كذلك من أجل إظهار عواقب القيام بمثل تلك الأفعال غير المرغوب فيها في الأسرة، وهي وسيلة - حسب ما يرى المبحوثين- لتعليم الأطفال قيمة المسؤولية، بدءاً من مسؤولية تحمل عواقب الأفعال التي يقومون بها إلى غاية مسؤولية الإشراف على التربية السوية لأطفالهم - كجيل ثالث بعد جيل الآباء والأبناء- مستقبلاً. لكن هذا الأسلوب من التنشئة عادة ما "يفقد الطفل إحساسه بالأمن النفسي والطمأنينة"¹⁸ لأن إثارة الألم النفسي "وإشعار الطفل بالذنب كلما أتى بسلوك غير مرغوب فيه غالباً ما ينتج عنه شخصية إنسحابية، منطوية وغير واثقة من نفسها، مرتبكة وتوجه عدواناً نحو ذاتها"¹⁹.

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

ويفضل 50% من المبحوثين استعمال أكثر من أسلوب في عملية التنشئة الاجتماعية لأطفالهم، وقد ذكروها كما يلي: الحرمان من بعض الحاجيات المادية والعاطفية، التجاهل، العقاب الجسدي، والتسامح. قد تستعمل فردا أو قد يتم جمعها كلها وانتهاجها، وذلك حسب نوع السلوك الصادر من الطفل ودرجة مخالفته لما هو مرغوب في داخل الأسرة.

أغلب هذه الطرق تعكس أسلوب الضبط والصرامة المنتهجة خلال عملية التنشئة الاجتماعية، "وهو الأسلوب الذي تميل إليه أغلب الأسر الجزائرية للسيطرة وفرض معايير السلوك التقليدية باستخدام السلطة"²⁰.

إن استخدام هذه الأساليب لا يمنع المبحوثين من منح بعض الحرية لأطفالهم إزاء بعض الأمور، حيث يترك 70% من أفراد العينة لأطفالهم حرية اختيار اللباس الذي يرتدونه، لكن في حدود أن يكون محتشما وغير فاضح خاصة بالنسبة للإناث. هذا التصرف يرى المبحوثين أنه يساعد الأطفال على تعلم قيمتي الحرية والحياء، لكن دائما في حدود الفضاء الذي يرسمه الوالدان دون إظهار معاملة لأطفالهم، وهي الفكرة التي أشار إليها جون جاك روسو بقوله: دع الطفل يعتقد أنه سيد نفسه، وكن أنت سيده. وعن الحرية فهو يرى بأنها "كينونة صماء لا تقبل التجزئة والانقطاع، ولا يمكن لإنسان ما أن يكون حرا في المستوى العقلي أو العاطفي بجسد مهزوم ومحاصر"²¹. إضافة إلى الحرية، يستعمل الأولياء أسلوب الحوار من أجل إقناع أطفالهم بضرورة الإقلاع على السلوك غير المرغوب فيه وعدم تكراره، وذلك من خلال منح بديل إيجابي للسلوك السلبي، حيث صرح 35% من المبحوثين بقيامهم بذلك، مقابل 65% منهم ممن يفضلون تقديم الحجاج والبراهين لشرح وتفسير السلوك وعواقبه، وهي حجج مستقاة من أصول دينية بنسبة 23% ومن أصول ثقافية بنسبة 77% كما هو موضح في الجدول رقم 01.

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

الجدول رقم 01: توزيع أفراد العينة حسب كيفية إقناع أطفالهم للإقلاع عن السلوك الخاطئ.

كيفية الإقناع		التكرار		النسبة المئوية	
منح بديل للسلوك السلبي		21		35%	
تقديم الحجج والبراهين	ذات أصول دينية	39	09	65%	23%*
	ذات أصول ثقافية		30		77%*
المجموع		60		100%	

* نسبة المبحوثين من مجموع 39 الذين يفضلون تقديم الحجج و البراهين.

في هذه المرحلة، يظهر لنا وبصفة جلية كيف يقوم الأولياء بإعادة إنتاج القيم التي توارثوها هم في حد ذاتهم من آباؤهم وأجدادهم من جهة، والتي اكتسبوها من تعليمهم من جهة أخرى والجدول رقم 02 يقدم لنا دلالات أكثر وضوحا حول ذلك. إذ يصرح 20% من المبحوثين على أن الحجج التي يقدمونها لأطفالهم ذات الأصول الثقافية تعكس العادات والتقاليد الموروثة من أجدادهم، وبنفس النسبة يصرح المبحوثين على أن الحجج مستقاة من الأساطير والخرافات والقصص الخيالية التي اكتسبوها من التراث الثقافي الشفوي الذي كان أجدادهم يروونه لهم في صغرهم قصد تخويفهم من عواقب سوء تصرفهم (الغولة، العواوة، عروسة السماء، اللماسة، مولاة العتبة، بولولو...)، بينما يعتمد 20% من المبحوثين على الحقائق العلمية والبراهين المنطقية لشرح وتفسير السلوك ونتائجه، ليبقى 40% ممن يجمعون بين كل المراجع سابقة الذكر قصد تغيير السلوك الخاطئ الصادر من الطفل، ولكن دائما حسب درجة الخطأ والمستوى العقلي والفكري للطفل.

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

"إن الرأسمال الثقافي له دور حاسم في عمليتي تحديد وإعادة إنتاج الواقع والأدوار الاجتماعية"²²، كذلك إنتاج القيم ونقلها من الأسرة إلى أطفالها وإدماجها في شخصياتهم وذواتهم من أجل تكوين علاقات اجتماعية (زمالة، صداقة، قرابة...) و"مواقف تفرض على الطفل الالتزام بقواعد السلوك والامتثال للمعايير الاجتماعية التي تحكمه، وهو ما يشكل الرأسمال الاجتماعي للطفل الذي يحدد مكانته وأدواره داخل الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها، ويمنحه الهبة والسيرة الحسنة والسمعة الطيبة، والتي تعد كلها دلالات للرأسمال الرمزي"²³.

الجدول رقم 02: توزيع أفراد العينة حسب مصادر الحجج الثقافية المعتمدة في الإقناع.

النسبة المئوية	التكرار	مصدر الحجج الثقافية
20%	06	العادات والتقاليد
20%	06	الحقائق العلمية تعليمية
40%	12	العادات والتقاليد + الحقائق العلمية
20%	06	أكثر من مصدر
100%	30	المجموع

كما سبق عرضه، نجد أن المعطيات الميدانية تثبت لنا انتهاج الأسر محل الدراسة لأسلوب السيطرة والضبط عن طريق العقاب البسيط والإقناع والحوار، وهي سيطرة مقصودة للتدخل حتى لا يصل الطفل إلى درجة الانفلات والانحراف، كما أنها تهدف إلى زرع قيم الانضباط واحترام الوقت من خلال الاهتمام بمعرفة أماكن تواجد الأطفال خارج البيت وعدم التأخر في العودة إليه، قيمة المسؤولية بموجب تحمل عواقب الأخطاء والأفعال غير المرغوب فيها، قيمة العلم المحسنة في حرص الوالدين على النتائج الدراسية لأطفالهم، قيمتي الحياء والحرية خاصة في اللباس... كلها قيم مستقاة

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

من مرجعية دينية ومن العادات والتقاليد التي نشأ عليها الأولياء وتعلموها من محيطهم الاجتماعي والتي يسعون إلى توريثها لأطفالها خلال عملية تنشئتهم وتربيتهم.

تتفق هذه النتيجة وما تم التوصل إليه في دراسة للباحث عزى حسين بعنوان²⁴ الأسرة ودورها في تنمية القيم الاجتماعية لدى الطفل في مرحلة الطفولة المتأخرة، حيث أكد على الدور الذي تلعبه الأسرة في تنمية القيم الاجتماعية كقيمة التعاون، العفو والأمانة.

2. تكنولوجيا الإعلام والاتصال: الاستخدام والآثار.

تعرف تكنولوجيا الإعلام والاتصال على أنها "مجموعة من التقنيات والأدوات أو الوسائل أو النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الإعلامي والاتصالي الذي يراد توصيله من خلال عملية الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو الجمعي أو التنظيمي أو الواسطي، أو التي يتم من خلالها جمع المعلومات والبيانات المسموعة أو المكتوبة أو المصورة، أو المرسومة أو الرقمية من خلال الحاسبات الإلكترونية أو الكهربائية حسب مرحلة التطور التاريخي لوسائل الاتصال والمجالات التي يشملها التطور"²⁵.

وقد حددت هذه الوسائل من قبل الباحثين فيما يلي: التلفزيون بقنواته الفضائية، خدمة الانترنت عبر الحاسوب المحمول والمكتبي والهاتف واللوحات الإلكترونية، Play station والألعاب الإلكترونية المختلفة، إذ يقبل 60% من الأطفال -حسب تصريحات الباحثين- على استخدام كل هذه الوسائل استخدامات متعددة، بينما يؤكد 40% منهم على استخدام أطفالهم فقط لتقنيتي التلفزيون بقنواته الفضائية (الخاصة والعمومية، المتخصصة والعامة، العربية والأجنبية) وخدمة الانترنت على حواملها المتعددة، ويحتل استخدام التلفزيون الصدارة مقارنة بالحاسوب كونه الأقدم من الناحية التاريخية والأوسع من ناحية الانتشار.

لقد دخل المجتمع الجزائري ميدان البث التلفزيوني الفضائي منذ منتصف الثمانينات مع إطلاق فرنسا لقمريها الصناعي في أكتوبر 1985، حيث كان امتلاك الهوائيات في البداية حكرا على المؤسسات العامة والفئات الميسورة اجتماعيا فقط، وبظهور الهوائيات الصغيرة ذات الاستعمال الفردي والأسعار الميسورة، زاد انتشارها وأصبحت ملكا لأغلب أفراد المجتمع ولم يبق استخدام الهوائيات حكرا على المدن، بل حتى الأرياف والقرى وأصبح المواطن الجزائري يتلقى كما هائلا من القنوات الفضائية الحاملة لقيم المجتمع الغربي، بل تمتد هذه القيم لتسوق معها العادات والتقاليد فاسحة المجال للصراع الدائم بين الأنا والآخر، بين الأصيل والدخيل، بين الثقافة الوطنية الأصلية والثقافة الوافدة المصنعة²⁶. عموما يمكن تفسير أسباب انتشار الهوائيات بعاملين اثنين: العامل المادي والعامل الثقافي الاجتماعي، ونظرا لخصائص العينة لا يمكن أن نعتبر المستوى التعليمي للوالدين والمستوى المعيشي عائقا أمام استخدام أطفالهم لهذه التكنولوجيا.

وفيما يخص خدمة الانترنت، فقد عرفت إقبالا متزايدا من قبل أفراد المجتمع الجزائري، خاصة مع مشروع كمبيوتر لكل أسرة والمسمى بـ: Ousratic، الذي تم إطلاقه في أواخر عام 2005، "ويقوم على توفير حاسوب لكل عائلة الهدف منه تعميم أجهزة الحواسيب المصغرة وخدمة الانترنت في المنازل الجزائرية، بحيث يتيح للأسر المهتمة اقتناء قرض بنكي ابتداء من 3200 دينار جزائري للشهر من أجل شراء باك يتكون من حاسوب مكتبي Micro-ordinateur واشتراك انترنت ADSL"²⁷.

هذا الانتشار طرح إشكالا حول استخدام الأطفال لهذه التكنولوجيات، ومن ثم الآثار الناتجة عن هذا الاستخدام، وقد صرح 70% من أفراد العينة على جمع أطفالهم بين الاستخدام الصحيح والخطأ معا لهذه التقنيتين (التلفزيون والحاسوب)، ليبقى الحد الفاصل بين الصحيح والخطأ معيارين أساسيين هما أسباب الاستخدام وطبيعة المحتويات المستهلكة.

فحول أسباب الاستخدام، تشير المعطيات الميدانية إلى أن 45% من المبحوثين يميل أطفالهم لاستخدام القنوات التلفزيونية الفضائية لما لها من مميزات تتمثل في سهولة الاستخدام بالدرجة الأولى، تليها أساليب العرض، قوة الجذب، تنوع البرامج، شخصيات وأبطال العرض، وهي عناصر من شأنها أن تشبع حب الإطلاع لديهم وتمكنهم من معرفة العالم حولهم وإلى حد ما تمنحهم فرصة عيش أدوار خيالية لا تسمح لهم الأسرة بتقمصها وعيشها خلال تفاعلهم اليومي داخل فضاء المنزل. أما عن الانترنت فيصرح 55% من المبحوثين أن أطفالهم يستخدمونها لغرض الترفيه ثم التواصل الاجتماعي فاللعب وأخيرا من أجل الدراسة وبدرجة أقل.

وعن طبيعة المحتويات التي تعرضها هذه التكنولوجيات، يرى 65% من المبحوثين أنها تتعارض مع ديننا وثقافتنا وواقع مجتمعتنا وأخيرا مع قيمنا، وقد كشفت الدراسة عن قدرة القنوات التلفزيونية الفضائية على إكساب أطفالهم مجموعة من القيم، حيث صرح 85% أن هذه القنوات استطاعت غرس قيمة الوطنية في سلوك أطفالهم. وعن قيمتي المصلحة العامة والاستقلالية فقد أجمع 70% بالتساوي على أن أطفالهم اكتسبوا من خلال مشاهدتهم لهذه القنوات. وصرح المبحوثين ونسبة 60% لصالح القنوات الفضائية وقدرتها على غرس قيمة التعاون في أطفالهم، وما نسبته 55% لقيم: الانتماء، الواجب والطاعة، وفيما يخص قيمة التسامح، فيقر نصف أفراد العينة - بنسبة 50% - أن أطفالهم تعلموها بسبب مشاهدتهم للقنوات التلفزيونية الفضائية، وعن قيمة الأمانة، الاحترام، العدل فقد أجمع 65% من المبحوثين عن عدم قدرة الفضائيات على غرسها في سلوك أطفالهم خاصة أن لها منابع أخرى تستقي منها أولها الأسرة، وحول نفس الرأي السلبي تجاهها، يرى 55% أنها لا تقوم بغرس قيمتي الحياء والكذب في شخصيات أطفالهم، والجدول رقم 03 يوضح ما تم الحديث عنه بصفة أكثر دقة.

الجدول رقم 03:

القيم التي تقوم القنوات التلفزيونية الفضائية بغرسها في الأطفال من وجهة نظر الوالدين

القيم	نعم		لا		المجموع	
	ك	%	ك	%	ك	%
الانتماء	33	55%	27	45%	60	100%
الكذب	27	45%	33	55%	60	100%
الوطنية	51	85%	09	15%	60	100%
الواجب	33	55%	27	45%	60	100%
الحياء	27	45%	33	55%	60	100%
الطاعة	33	55%	27	45%	60	100%
العدل	21	35%	39	65%	60	100%
المصلحة العامة	42	70%	18	30%	60	100%
التسامح	30	50%	30	50%	60	100%
استقلال الفرد	42	70%	18	30%	60	100%
التعاون	36	60%	24	40%	60	100%
الأمانة	21	35%	39	65%	60	100%
الاحترام	21	35%	39	65%	60	100%

لكن هذا لا يعني أنها لا تغرس البعض من القيم السلبية خلال ترويجها للمسلسلات والأفلام والبرامج الإعلامية ذات الإنتاج الغربي خاصة، فقد توصل الباحث عيسى الشماس في دراسة قام بها على عينة من طلبة كلية التربية بجامعة دمشق، كانت بعنوان: تأثير الفضائيات التلفزيونية الأجنبية

مصادر القيم الموجهة لسلوك الطفل الجزائري ————— بن مفتاح خيرة-مراد مولاي حاج

على الشباب، إلى نتيجة مفادها أن للفصائيات الأجنبية القدرة على خلخلة القيم الاجتماعية، حيث أنها تتسبب في حدوث تغيرات واضطرابات في العلاقات الاجتماعية، وتعمل على تنمية الذاتية / الفردانية والتحلل من الالتزام الاجتماعية (الجماعي) كما أنها تعرض القيم السلبية (القسوة، العنف، التعصب، العدوانية، الخيانة، السرقة، الخداع...) والتي تعارض القيم والعادات الأساسية في المجتمع العربي²⁸.

لم تكن القيم هي الجانب الوحيد الذي تأثر باستخدام تكنولوجيا الاتصال، بل هناك عدة آثار نتجت عن استخدام الأطفال للإنترنت خاصة، هذه الآثار تتجسد في السلوكيات التي تظهر يوميا على الأطفال، وهي كما يوضحها الجدول رقم 04.

الجدول رقم 04: اتجاهات الوالدين نحو الآثار الناتجة عن استخدام أطفالهم للإنترنت

آثار الاستخدام	موافق		محايد		معارض		المجموع	
	ك	%	ك	%	ك	%	ك	%
الإحساس بالعزلة	36	60%	06	10%	18	30%	60	100%
الحد من مهارة الاتصال الشخصي	36	60%	09	15%	15	25%	60	100%
قلة التفاعل مع أفراد الأسرة	42	70%	06	10%	12	20%	60	100%
إهدار القيم الاجتماعية	45	75%	09	15%	06	10%	60	100%
أمراض جسدية	21	35%	12	20%	27	45%	60	100%
إضعاف الاستحياء تجاه المنوعات الثقافية	30	50%	24	40%	06	10%	60	100%

إن القيم هي ما يحدد سلوك الفرد وأفعاله ومواقفه الاجتماعية، حيث "ينشأ الفرد في ضوء قيم اجتماعية خاصة تكون بيئة الجماعة الأولية لكن في ضوء ما يتعرض له الفرد خلال تجواله في الإنترنت من قيم ذات تأثير ضاغط يهدف إعادة تشكيله تبعاً لها بما يُعرف في مصطلح علم النفس بتأثير الجماعة المرجعية مما قد يؤدي إلى نحو آثار الجماعة الأولية عليه مما يفقده الترابط مع مجتمعه

المحيط به ويعرضه للعزلة والنفور ومن ثم التوتر والقلق²⁹ حيث تتوافق هذه الفكرة مع ما كشفت عنه دراستنا الميدانية من آثار الناتجة عن استخدام الأطفال للانترنت، فقد صرح 75% من المبحوثين على أن استخدام الانترنت أدى إلى إهدار القيم الاجتماعية، وعن تفاعل أطفالهم مع أفراد الأسرة، وافق 70% من المبحوثين على قلة حجم التفاعل نتيجة استخدام الانترنت، أما عن الإحساس بالعزلة والحد من مهارة الاتصال الشخصي فنجد بنفس النسبة والتي قدرت بـ: 60 % من المبحوثين الذين يوافقون على ذلك، وهو الأمر الذي أشارت إليه سابقا "دراسة أجرتها مجلة عالم المعرفة، حيث كشفت أن 40% من المبحوثين (الشباب) أفادوا أن شبكة الانترنت أثرت عليهم من الناحية الاجتماعية وجعلتهم أكثر انفرادا، هذا ويخشى كثير من الباحثون أن تؤدي الإنترنت إلى غياب التفاعل الاجتماعي لأن التواصل فيها يحصل عبر أسلاك ووصلات وليس بطريقة طبيعية³⁰ مما يؤدي إلى "تقليل مقدرة الفرد على خلق شخصية نفسية سوية قادرة على التفاعل مع المجتمع والواقع المعاش"³¹.

وقد صرح 35 % من المبحوثين عن معانات أطفالهم من أمراض جسدية نتيجة استخدامهم للانترنت من بينها ضعف البصر وانحناء الظهر والانطواء، وهي نتيجة تتوافق وما توصلت إليه الباحثة رولا الحميصي في دراسة لها بعنوان: إدمان الانترنت عند الشباب وعلاقته بمهارات التواصل الاجتماعي، حيث توصلت إلى جملة من الآثار الصحية الناتجة عن استخدام الانترنت نذكر منها: "الأضرار التي تصيب الأيدي من الاستخدام المفرط للفأرة، أضرار تصيب العين نتيجة للإشعاع الذي تبثه شاشات الحاسوب، أضرار تصيب العمود الفقري والرجلين نتيجة نوع الجلسة والمدة الزمنية لها مقابل أجهزة الحاسب، أضرار تصيب الأذنين لمستخدمي مكبرات الصوت، أضرار مترافقة مثل البدانة وما تسببه من أمراض مرافقة"³².

هذا ويجمع نصف أفراد العينة على الأضرار الأخلاقية لاستخدام الانترنت من قبل أطفالهم، حيث يوافقون على قدرتها على إضعاف الاستحياء تجاه الممنوعات الثقافية لمجتمعنا، من خلال مواقعها الإباحية المروجة للجنس والأفعال المخلة بالحياء والعقائد الباطلة والداعية للعنف والعنصرية والأنشطة غير القانونية، وهي جميعها أنماط سلوكية مجسدة للقيم الغربية المنافية لقيم المجتمع الجزائري المتشبع بالثقافة الإسلامية التي تنص على ضرورة التمسك بقيم الحياء والاحترام والأمانة والعدل والصدق...

خاتمة:

نالت القيم من الأهمية ما لم تبلغه العديد من المواضيع المدروسة، ذلك لأنها أحد أهم محاور تربية الفرد وضبط سلوكه، تحدد المرغوب وغير المرغوب في تصرفاته، كما أنها تمنح الأشياء وزنا وقيمة وتوفر للأفراد الحافز لتحقيق ذواتهم وإثبات وجودهم. وقد توصلت الدراسة إلى إجماع المبحوثين على أن الأسرة من أهم مصادر القيم وأولها، تليها بعد ذلك تكنولوجيات الاتصال التي تحتوي على ما قد يعزز السلوك المرغوب فيه لدى أطفالهم خاصة التلفزيون بقنواته الفضائية المختلفة والانترنت بمواقعها المتنوعة، وقد تحتوي ما من شأنه تحطيم البنية القيمية الأسرية، وهي الفكرة التي أكدها هارولد لاسويل Harold Lasswell سابقا، فحسبه أن المجتمعات البدائية كانت تعيش في نطاق العائلات وكان الآباء والأمهات هم الذين ينقلون القيم والتراث الثقافي عبر الأجيال، لكن تطور المجتمعات أوجب قيام وسائل الإعلام بدور نقال القيم.

يبقى على الوالدين وبحكم مسؤوليتهم تجاه أطفالهم وفي إطار التنشئة الاجتماعية لهم أن يوجهوا استخدام أطفالهم لهذه التكنولوجيات حسب ما يسعون لغرسه في أطفالهم، كما ينبغي عليهم كذلك توعية أطفالهم بمخاطر تكنولوجيا الإعلام والاتصال من أجل حماية أنفسهم منها ووضع إرشادات وقواعد للاستخدام الواعي والصحيح لها.

إن نتائج الدراسة الحالية تبقى صحيحة في حدود المجال المكاني والزمني ومجتمع البحث الذي تمت فيه الدراسة على العينة المختارة فقط.

الهوامش:

- 1 علاء الدين، الكافي. رعاية نمو الطفل. القاهرة: دار قباء، 1998، ص 34.
- 2 رولان، بيرس. معجم علم السكان. ترجمة مصطفى خلف عبد الجواد. القاهرة: مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، 2007، ص 144.
- 3 مولود، ديدين. قانون الأسرة. الجزائر: دار النجاح للكتاب، 2006، ص 04.
- 4 محمد عبد الشفيق، عيس. العالم الثالث والتحدي التكنولوجي العربي. بيروت: دار الطباعة والنشر، 2006، ص 35.
- 5 محمد، جمال الفار. المعجم الإعلامي. عمان: دار أسامة المشرق العربي، 2006، ص ص 102-103.
- 6 عبد الرحمان، عزي. الثقافة وحتمية الاتصال، نظرة قيمية. مجلة المستقبل العربي، العدد 295، 2003، ص 15.
- 7 نصير، بوعلي. مفاهيم نظرية الحتمية القيمية في الإعلام عند عبد الرحمان عزي. مقاربة نقدية، ص 89.
- 8 عبد الله، بوجلال. أثر مشاهدة التلفزيون على القيم الثقافية والاجتماعية لدى الأطفال. مجلة المعيار، العدد 07، ديسمبر 2003، الجزائر، ص ص 37، 38.
- 9 السعيد، بومعزة. أثر وسائل الإعلام على القيم والسلوكيات لدى الشباب. دراسة استطلاعية بمنطقة البلدية، رسالة دكتوراه، 2005-2006 الجزائر، ص 164.
- 10 مادلين، غراويتز. منطق البحث في العلوم الاجتماعية. ترجمة سام عمار. دمشق: المركز العربي للتعريب، 1993، ص 96.
- 11 بلقاسم، سلاطينية. حسن، جيلالي. مدخل لمناهج البحوث الاجتماعية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2014، ص 142.
- 12 سعيد، سبعون. الدليل المنهجي في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع. الجزائر: دار القصة، 2012، ص 135.
- 13 رولان، بيرس. مرجع سبق ذكره ص 144.
- 14 حسين عبد الحميد، رشوان. الأسرة والمجتمع، دراسة في علم اجتماع الأسرة. مصر: مؤسسة شباب الجامعة، 2003، ص 151.
- 15 إيناس، محمد غزال. الإعلانات التلفزيونية وثقافة الطفل. مصر: دار الجامعة الجديدة، 2001، ص 79.
- 16 أسامة، ظافر كباره. برامج التلفزيون والتنشئة التربوية والاجتماعية للأطفال. لبنان: دار النهضة العربية، 2003، ص 75.
- 17 إيمان، عبد النبي بلوط. سوسيولوجيا أفلام الكارتون وتطبيع الطفل العربي. لبنان: منتدى المعارف، 2014، ص ص 72-73.
- 18 وفيق، صفوة مختار. الأسرة وأساليب تربية الأطفال. مصر: دار العلم والثقافة، د. ت، ص 259.

- 19 عبد الله، زاهي الرشدان. *التربية والتنشئة الاجتماعية*. الأردن: دار وائل للنشر، 2005، ص 113.
- 20 أسماء، رتيبي. "التنشئة الأسرية والمخرجات السلوكية للابن الحدث". *المجلة الجزائرية للطفولة والتربية*. 6(2014)، ص ص 232-233.
- 21 علي أسعد، وطفة. *الثورة التربوية في فلسفة جان جاك روسو الطبيعية*. تاريخ النشر: 2012-04-21. www.civicegypt.org
- 22 محمد، أعويش. *بيير بورديو وأطروحة إعادة الانتاج الاجتماعي*. تاريخ النشر: 2016-05-29. www.new-educ.com
- 23 جميل، حدادي. *المفاهيم السوسيولوجية عند بيير بورديو*. تاريخ النشر: 2015-03-02. www.adabfan.com
- 24 محمد، جمال الفار. *المعجم الإعلامي*. عمان: دار أسامة المشرق العربي، 2006، ص ص 102-103.
- 25 حسين، عزي. *الأسرة ودورها في تنمية القيم الاجتماعية لدى الطفل في مرحلة الطفولة المتأخرة*. مذكرة شهادة ماجستير غير منشورة في علم النفس الاجتماعي، جامعة المسيلة، الجزائر، 2013/2014، ص 229.
- 26 نصير، بوعلي. *التلفزيون الفضائي وأثره على الشباب*. الجزائر: دار الهدى، 2005، ص ص 127-128.
- 27 نسرين سعدون. "واقع الفجوة الرقمية في الجزائر". *المؤتمر الدولي لتكنولوجيا المعلومات الرقمية، الاتجاهات الحديثة في تكنولوجيا المعلومات*، الأردن: جامعة الزرقاء، 09-11 أكتوبر 2012، ص 13.
- 28 عيسى الشماس. "تأثير الفضائيات التلفزيونية الأجنبية على الشباب". *مجلة جامعة دمشق*، 2(2005)، ص ص 16-18.
- 29 *مخاطر استخدام الانترنت*. 2014/11/20. m5zn.com/newuploads/
- 30 نفس المرجع.
- 31 رولا، الحميصي. *إدمان الانترنت عند الشباب وعلاقته بمهارات التواصل الاجتماعي*، دراسة ميدانية على عينة من طلاب جامعة دمشق، ص 406. www.aun.edu.eg/conferences/27_9_2009/
- 32 نفس المرجع، ص 407.

عوامل الانحراف والاتجاهات النظرية المفسرة للسلوك الانحرافي

الأسنادة بوزيرة سوسن، جامعة تيارت

الأسناد الدكتور العربي اشبودن، جامعة الجزائر 2

ملخص:

إن الانحراف من الظواهر الاجتماعية الخطرة على الفرد والمجتمع على حد سواء، فهي بشكل عام تهدم النظام الاجتماعي وتهدد مستقبل الأمم، من ذلك جاءت ضرورة دراساتها والبحث عن أسبابها والخروج بحلول تقضي أو حتى تقلل من حدتها. وقد اختلفت الاتجاهات والنظريات التي تعتمد إلى تفسير السلوك المنحرف كل حسب العوامل التي يرى أنها سبب في قيام الفرد بالسلوك الانحرافي، فمنهم من يأخذ بالتفسير الذاتي للفرد راجعا بذلك لعوامل داخلية تتصل بالتكوين الشخصي: الجسماني، العقلي أو النفسي، محاولا البحث في سبب السلوك الإجرامي في داخل الفرد نفسه، بينما هناك من يأخذ بالتفسيرات الاجتماعية ويرجع بذلك السلوك الانحرافي إلى الظروف الاجتماعية والبيئة المحيطة كالأُسرة، المدرسة، الرفاق، والظروف المادية والمعيشية الخاصة بهذا الأخير، وتعتمد مجموعة أخرى إلى الربط بين الاتجاهين السابقين وتكاملهما في تفسير السلوك الانحرافي، باعتبار السلوك المنحرف هو نتاج مجموعة من العوامل وإن كان دائما هناك عوامل رئيسية وأخرى ثانوية. من هنا تأتي ضرورة البحث في هذه العوامل المسببة واعتماد التفسير المناسب من أجل تدارك السلوك المنحرف وتوقيعه لتأهيل الفرد ليصبح فردا سليما في مجتمعه.

الكلمات المفتاحية: الانحراف-عوامل الانحراف-الاتجاهات.

Abstract :Deviance is a dangerous social phenomenon both on the individual and his society. It even destroys the social system and threatens the future of nations. The just the importance of the study is end to draw the solutions or at least minimize its severity.

And it might have been different trends and theories that deliberately to interpret deviant behavior, each according to factors that are seen as the reason for the establishment of individual behavior deviant. Some of them take self-interpretation of the individual due this internal factors related to the composition of Profile: physical, mental or psychological, trying to search into the cause of behavior criminal within the same individual, while there are those who take the social interpretations and because so deviant behavior to social conditions and the surrounding environment, such as family, school, comrades, and the physical conditions and living conditions for the latter, and deliberately another group to the linkage between the former two-way and their integration in the interpretation of behavior deviant, as deviant behavior is the product of a combination of factors and whether there are always key factors and other secondary.

Hence the need for research in these causal factors and the adoption of appropriate interpretation in order to remedy the deviant behavior and evaluation to qualify the individual to become healthy individuals in the community.

key words: Deviation - Deviation factors- Trends theory unexplained deviation

إن الانحراف ظاهرة اجتماعية كانت، لا تزال وستبقى موضوعا خصباً للباحثين في العلوم السلوكية والاجتماعية، باعتبارها مشكلة حساسة تعاني منها مختلف دول العالم باختلاف درجة تقدمها والأكثر من ذلك فإن هذا الاختلاف يكمن حتى في المجتمع الواحد باختلاف المناطق والعادات والتقاليد.

فالجريمة والانحراف في المجتمع ليست ظاهرة حديثة العهد، بل عانت منها المجتمعات القديمة، وعرفت التشريعات في مختلف العصور عن طريق منع ارتكاب بعض الأفعال التي تشكل اضطرابات وخطورة على المجتمع والعلاقات السائدة فيه، واختلفت نظرة التاريخ الاجتماعي لهذه الظاهرة بحيث انتقلت من الاعتبار الغيبي في العصور القديمة والوسطى، بتفسير سلوك الفرد المنحرف بسيطرة الأرواح الشريرة عليه وتحكمها في أفعاله، واعتباره شخصا خطرا على محيطه ويجب معاقبته وإبعاده عن المجتمع، ثم منذ منتصف القرن السابع عشر بدأت الاتجاهات العلمية تظهر في تفسير السلوك المنحرف، خاصة مع تطور الطرق العلمية للبحث والدراسات، وزيادة الاهتمام بالعوامل الداخلية والاجتماعية للفرد، كل حسب الزاوية التي ينظر منها.

فبذلك اتجه الباحثون لاعتبار المنحرف والمجرم شخصا يعاني من ظروف معينة وأسباب جعلته يقوم بسلوكات معينة، لذا ستوجب علاجه وتأهيله من خلال البحث في الأسباب والعوامل الخفية وراء ذلك السلوك وهيئة الظروف الملائمة من اجل تقويمه وجعله فردا صالحا في مجتمعه.

لذا نطرح التساؤل الذي من خلاله نتعرف على ماهية الانحراف؟ وكيف يفسر السلوك المنحرف وما العوامل التي تدفع بالفرد للقيام به؟

1- ماهية الانحراف:

عرف لغويا على أنه الخروج عن المعتاد والمألوف، مال عن الاعتدال، ويقصد به السلوك الإنساني غير السوي¹.

كما أن هذا المصطلح مستعمل في مجال الرياضيات والإحصاء، ويقصد به في هذا المجال التحول عن الاتجاه، أو المعيار إلا أنه بمعناه الوصفي داخل ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، يُقصد به السلوك الإنساني غير السوي. كما يعني أيضا الخروج البين عن الطريق السوي المعتاد والمألوف، وهو ما يجعل هذا السلوك غير مقبول اجتماعيا، لأنه لا يتماشى مع القيم والعادات والتقاليد التي يعتمد عليها المجتمع في تحديد سلوك أفراد أي " ذلك السلوك غير المتوافق أو يحتمل أن يؤدي إلى عدم التوافق أي القيام بسلوكيات لا تتماشى مع ما يعتمد عليه المجتمع في تحديد سلوكيات أفراد "2.

أيضا نقصد به "جملة من السلوكيات الفردية أو الجماعية التي تبتعد عن معايير المجتمع فتخلق خلل وظيفي ينجم عنه عقوبة "3.

حيث أن كل مجتمع ينظم معايير الخاصة وفق قوانين ضمنية أو ظاهرة تحكمه ولهذا فالمفهوم الدقيق للانحراف يختلف من مجتمع إلى آخرى بحيث أنه يشير بصفة عامة إلى النظام الاجتماعي السائد في ذلك المجتمع من خلال تحليل السلوكيات التي هي مغايرة عن ما هو معمول به، والتقسيم المجتمع عليه في المجتمعات الحديثة في فرز الانحراف كما يلي⁴:

1- **الانحراف العرضي:** وهو الذي يمثل أكثر الأصناف الانحرافية تعقيدا من حيث أن المنحرف العرضي لا يتميز بحياة انحرافية ظاهرة، فهو شخص سوي متوافق مع المعايير الاجتماعية والأخلاقية السائدة في مجتمعه، إلا أن قدراته تضعف إزاء بعض الضغوط الشديدة الطارئة أحيانا، في فترة ما من أحداثه بحيث يرتكب أفعالا إجرامية أو يسلك سلوكا منحرفا.

2- **الانحراف المحترف:** أي أنه يرتكب للفعل بهدف تحقيقه هدف مادي معين للحصول على ربح أو منفعة مادية بالدرجة الأولى، وبصورة مباشرة فالرغبة هي البعث الأساسي الذي يقف وراء المنحرف المحترف.

3- **الانحراف المنظم:** وهو الذي يقوم على قاعدة جماعية، أي من خلال تنسيق عمل جماعي، ويرى بعض العلماء أن التنظيم الانحرافي وليد صراعات اجتماعية وحصيلة توترات نفسية حادة يعاني منها الأحداث، فهو مرآة تعكس مثل هذه الخلفيات النفسية والاجتماعية للأحداث.

4- **الانحراف الجماعي:** هو ذلك التجمع البشري العضوي الذي لا يرتبط بتنظيم دائم ولا يتبلور حول أهداف محددة بل هو حصيلة عدوى انفعالية تسري بين مجموعة من الأفراد فتسوقهم في اتجاه واحد ينتهي أثره أو قد يدوم، لأن الانحراف في ذاته هو ظاهرة نفسية تتضمن وحدة في المشاعر ووحدة في السلوك.

2- الاتجاهات النظرية المفسرة للانحراف:

تفسير هذا السلوك تعددت وجهات النظر والآراء تبعا للزاوية التي ينظر منها أصحاب تلك الآراء إلى ظاهرة الانحراف، فمنهم من يأخذ بالتفسير الذاتي (الفردية) للانحراف، محاولا البحث في سبب السلوك الإجرامي في داخل الفرد نفسه بحيث يكون محور الدراسة لديهم من مختلف النواحي: البيولوجية، الفيزيولوجية، النفسية، العقلية... إلخ. ومنهم من يأخذ بالتفسيرات الاجتماعية ويرجع السلوك الانحرافي إلى الظروف الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية... إلخ. بينما تعتمد مجموعة أخرى إلى الربط بين الاتجاهين السابقين وتكاملهما في تفسير السلوك الانحرافي، وفيما يلي نتطرق إلى بعض من هذه النظرية التفسيرية:

• النظرية البيولوجية:

يعتبر باحثوا هذه الاتجاه أن التكوين البيولوجي للفرد هو بمثابة المحدد الرئيسي للسلوك، فيستعملون مصطلحات كالتركيب الجسماني، بنية الملامح الخاصة... إلخ، لتفسير السلوك الانحرافي.

فالمجرم ينشأ بجمعية بيولوجية، وسلوكه المضاد للمجتمع ينتقل إليه عن طريق الوراثة من أسلافه⁵، هذا ما أوضحه لمبروزو (Lombroso) الذي يعتبر المؤسسة العلمي لهذا الاتجاه، فلقد قام بوضع نظرية عن المجرم بالفطرة وفكرة الارتداد (العود) التي بناها على أساس أن المجرم ما هو إلا نمط أو نوع معين من أنواع البشر يتميز بلامح عضوية خاصة وسميات خاصة هي نفسها عن الإنسان الأول أو المخلوقات البدائية. حيث وضع لمبروزو مجموعة من الخصائص التي يرى أنها تميز الشخص المجرم عن غيره، والتي تتمثل في بعض السمات في الملامح: كالرأس الضخم واللامح غير المستوية والعدوانية.

وهذا يختصر بالقول أن الجريمة كما يراها لمبروزو: هي استعداد حيواني موروث يدفع الإنسان إلى ارتكاب الإجرام بجمعية بيولوجية طاغية لا تترك للظروف الاجتماعية والبيئية الحسنة التي يعيشها الشخص أي مجال لتعديل مسيرته الحتمية نحو ارتكاب الجريمة رغم جهود السلطات المختصة لعلاجها والقضاء على أسباب الوقاية منها⁶.

كما أضيفت دراسات أخرى لباحثين أيدوا إلى حد ما المفهوم العضوي للسلوك الإجرامي مثل: أرنست هوتون Earnest Hooten حيث قام الباحث بسلسلة من الدراسات العلمية المقارنة مستخدما 668 من المجرمين ومقارنتهم بمجموعة أخرى من غير المجرمين، وقد كشف هوتون بوجه عام أن المجرمون قد لا يتميزون بصفة انحلالية كالتى ذكرها لمبروزو، ولكنهم يتميزون بانحطاطية بيولوجية جسمية، ترجع إلى عامل الوراثة، فهو يرى أن المجرمون يحملون بذور الجريمة والشر، الشيء الذي يضعف قابليتهم على تحقيق التوافق الاجتماعي المطلوب، كما أكد على أنه هناك خصائص مرفولوجية كطول القامة، الوزن... إلخ⁷.

ونتيجة للتقدم في مجال علم البيولوجيا فقد حاول بعض الباحثين تفسير السلوك الإجرامي بأنه نتيجة لتلف عضوي في المخ والجهاز العصبي وهو اضطراب وراثي نادرة ومرضي نادرة أخرى.

ومما سبق نستطيع القول إن الاتجاه البيولوجي هو إتجاه فردي في تفسير السلوك لأن الفرد هو محور الدراسة لديه حيث أن هذا الاتجاه يحاول البحث عن سبب السلوك الإنحرافي في داخل الفرد نفسه.

• النظرية السيكلوجية:

يرى البعض أن هذا الاتجاه هو امتداد البيولوجي مع الاختلاف في النظرة إلى المنحرفين سلوكيا، إذ يعتبرهم هذا الاتجاه على أنهم أفراد يجب دراستهم ومعاملتهم كأفراد حيث لا يمكن علاج المنحرف إلا باعتباره شخصا في حد ذاته، على عكس الاتجاه البيولوجي الذي يعتبر المنحرف كإنسان حيواني⁸.

وفي إطار هذه النظرية التي يعززها مجموعة من الباحثين على رأسهم عالم النفس النمساوي **فرويد Freud**، فإن ظاهرة الانحرافات الاجتماعية في البشر، تكون نتيجة صراع مستمر في نفوس بعض الأشخاص نتائج عن حالات مرضية نفسية والتي تتمثل في الاختلالات الغريزية والعواطف المنحرفة والأمراض النفسية والتخلف النفسي.

فيرى **Freud** أن "شخصية الفرد تتأثر إلى حد كبير بالعوامل النفسية التي تتكون خلال مرحلة الطفولة، إذ تبقى رواسب هذه المرحلة عالقة بشخصية الفرد وتصبح دافعا لا شعوريا لسلوكه وتصرفاته، فالجرمة تعبير عن طاقة غريزية لم تجد لها مخرجا اجتماعيا، فأدت إلى سلوك لا يتفق والأوضاع التي يسمح بها المجتمع"⁹. أي أن السلوك الإجرامي أو بمعنى آخر الخروج عن القانون، هو في الحقيقة رد فعل انفعالي من الفرد كنتيجة لدوافع فطرية عامة، ورغبات عنيفة خاصة تحتاج إلى الإشباع، بل أنها تلح على الفرد إشباعها. وهذا حسب ثلاثة عناصر وهي:

- 1- الدوافع ومدى قوته.
- 2- الوسائل الميسرة لإشباعه سواء كانت عادية أو شاذة.
- 3- الحالة الانفعالية ومدى شدتها.

وهذا يظهر الشذوذ الناجم عن عدم القدرة في التحكم بالضغط الحادث من هذا التوتر النفسي¹⁰.

وقد كان أول اتجاه لتفسير السلوك المنحرف الذي ظهر في كتاب "الحادث المنحرف" للطبيب النمساوي أوجست أكهون **August Aichon** الذي كان مدير لإحدى إصلاحيات الأحداث منذ بداية هذا القرن، فحاول تطبيق فرضيات **Freud** على أحداث تلك المؤسسة التي يعمل بها، فوصف أكهون أنواعا مختلفة من الأحداث الجانحين ووضع لكل منهم تفسيراً تحليلياً معيناً، فهناك: الحدث العصبي، العدواني، الحدث الذي لم يطور ذاته العليا... إلخ. وانتهى إلى القول أن هؤلاء الأحداث تنقصهم القدرة على كبت دوافعهم الغريزية، كما وأن بعضهم يعانون من الحرمان الشديد من العطف في حياتهم¹¹.

وفي دراسة قام بها الباحث **وليام هيل** لـ 105 من الأحداث الجانحين وعدد مماثل منهم من الأحداث الأسوياء، تبين "أن 91% من الأحداث الجانحين يعانون من اضطرابات شديدة في شخصيتهم، إذ يشعرون بقلق وتعاसे كبيرة بسبب ظروف حياتهم، بينما لا يعاني مثل هذه الأعراض المرضية النفسي سوى 31% من الأحداث الأسوياء"¹².

وكنتيجة لبحثه أصر الباحث على أهمية العلاج المبكر للجانح والبحث في تاريخه الأسري لمعرفة دلالات لتفسير سلوكه الجانح، وكمتابعة لأفكاره قامت عدة دراسات بينت أنه توجد فروق بين الجانحين وغير الجانحين في مختلف نواحي الشخصية وكذلك في الأنماط السلوكية السائدة لدى كل منهم فالجانحين أكثر شعوراً بالنقص وأكثر غرقاً في أحلام اليقظة وشعوراً بالاضطراب الذي كان أهم مصادره القلق على الأسرة والمستقبل والظروف المعيشية.

ويمكننا القول أن نظريات نفسية قد ساهمت في إمكانية فهم الطبيعة الإنسانية بطريقة أفضل وألقت الضوء على السلوك الإنساني بوجه عام والسلوك المنحرف بوجه خاص.

● **النظريات السوسيولوجية:** على عكس النظريات البيولوجية والسيكولوجية التي تفسر الانحراف من المنظور الفردي، فالنظريات السوسيولوجية تفسر الانحراف بالظروف الاجتماعية

والمادية للظاهرة الانحرافية، وهي ذات عدة اتجاهات: جغرافية، اقتصادية، اجتماعية وثقافية...الخ. وفيما يلي نتطرق إلى فهم اتجاهين أساسيين:

-الاتجاه الاقتصادي:

حاول بعض الباحثين الربط بين الانحراف بالواقع الاقتصادي والظروف الاقتصادية للفرد. ومن أبرز من ربط بينهما العالم وليام أدريان بونجر William Adrian Bonger ، حيث ربط بين الرأسمالية والجريمة في المجتمعات التي تأخذ به كنظام اقتصادي فيقول: "أن الميول الأنانية القوية التي يتسم بها النظام الرأسمالي تؤدي إلى ضعف الغريزة الاجتماعية، كما تضعف الميل نحو الأفعال الأنانية وبالتالي نحو الجريمة التي تشكل إحدى صور هذه الأفعال"¹³.

كما وضع Bonger أن الظروف المادية وبالتالي المناخ الفكري للبروليتاريا سبب أيضا في عدم ارتقاء المستوى الخلقى لهذه الطبقة، كما أن عمل الأطفال يؤدي بهم إلى الاحتكاك بالأطفال الذين يفسدون أخلاقيتهم وأن ساعات العمل الطويلة على وتيرة واحدة يؤدي إلى الفضاضة لدى من يجبرونها عليه، بالإضافة إلى ذلك فالظروف السكنية السيئة تسهم في انحطاط الحس الأخلاقي، كما يؤدي إلى هذا أيضا الفقر والبطالة¹⁴.

فللفقر آثار هامة على الفرد والأسرة، فسوء الظروف المعيشية والحاجة والبطالة تترك آثار نفسية كالقلق واليأس والثورة والحق على القانون واجتماع، مما يؤدي إلى الشذوذ السلوكي والإدمان على المسكرات والمخدرات.

فأشار محمد سلامة غباري في كتابه "أسباب جنوح الأحداث": "أن الطفل الذي يجد نفسه من أسرة فقيرة يعاني من حرمان اقتصادي، كما أنه يتعرض لبعض الظروف التي تتميز بها الأسر الفقيرة مما يؤثر على العلاقات الاجتماعية، ويدفعه إلى الشعور بالحرمان المادي الذي قد يغذي اتجاهات ومشاعر خاصة كالشعور بالجسد والحقد والكراهية، بالإضافة إلى مشاعر النقص والقلق، وكل هذا جو مناسب لنمو الاتجاهات العدوانية والسلوك المنحرف"¹⁵.

فالطفل الذي يجد نفسه من أسرة فقيرة يعاني من حرمان اقتصادي، كما أنه يتعرض لبعض الظروف التي تتميز بها الأسر الفقيرة، مما يؤثر على العلاقات الاجتماعية، ويدفعه إلى الشعور بالحرمان المادي الذي قد يُغذي اتجاهات ومشاعر خاصة كالشعور بالجسد والحقد والكراهية، بالإضافة إلى مشاعر النقص والقلق، وكل هذا جو مناسب لنمو الاتجاهات العدوانية والسلوك المنحرف.

أيضا يحدث عكس ذلك حسب Bongor حيث أن التفكك الأسري الذي يظهر في فترات الرخاء والرفاهية الاقتصادية يساعد على الانحراف والجريمة، ففي هذه الفترات تكثر الأعمال وتندفق النقود، وتشغل النساء فيبتعدون عن المنزل، ويضعف الإشراف على الأطفال مما يدفعهم لسلوك طريق الانحراف دون أن يحس أوليائهم.

– الاتجاه الاجتماعي:

يستخدم أنصار هذا الاتجاه كمحاور أساسية في تفسيرهم للسلوك الإنحرافي، الثقافة والنظام الاجتماعي والعمليات الاجتماعية، وهم يرون أن السبب الذي يرجع إليه السلوك الإنحرافي يتعدى التفسير الفردي ولا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة بنية المجتمع ومؤسساته أي بيئة المنحرف أو الجانح بشكلها الواسع، وكيف يمكن أن تؤثر هذه البيئة على بلورة سلوك الفرد بصورة مباشرة أو غير مباشرة والذي قد يدفعه إلى ارتكاب الجريمة أو السلوك المنحرف وحتى بعد تلقيه العقاب العود إليه.

أ-نظرية اللامعيارية:

من رواد هذه النظرية إميل دور كايم Emile Durkheim الذي يرى أن الجريمة ما هي إلا ظاهرة تمتد جذورها وترتبط بالأوضاع الاجتماعية في المجتمع، كما تعبر عن حركة التغيير الاجتماعي ونوعية الثقافة والمستوى الاجتماعية والوضع الحضاري لأفراد ذلك المجتمع، كما يعتقد باستحالة القضاء على هذه الظاهرة والتي لها ارتباطا وظيفيا معنا¹⁶.

كما استخدم ميرتون Merton مفهوم اللامعيارية التي استخدمها دوركايم بأن حالة اللامعيارية يمكن أن تنشأ من تعارض الطموحات وأهـيار المعايير النظامية وأعاد صياغتها بشكل أوسع وعام حيث "أن البنى الاجتماعية تمارس ضغطاً محدداً على أشخاص معينين في المجتمع ليشتروا في سلوك انحرافي مفضلين ذلك على السلوك الإمثالي"¹⁷.

عرض ميرتون نظريته أولاً في مقال بعنوان "البناء الاجتماعي واللامعيارية" عام 1938 وكانت افتراضات نظرية ميرتون في اللامعيارية والسلوك الإنحرافي كالاتي¹⁸:

- تمارس بعض البنى الاجتماعية ضغطاً محدداً على أشخاص معينين في المجتمع ليمارسوا السلوك غير الممثل بدلاً من السلوك الإمثالي.
 - يمكن اعتبار السلوك الإنحرافي من وجهة نظر علم الاجتماع كدليل (علامة) على الانفصال بين الطموحات المقررة ثقافياً والسبل المنظمة اجتماعياً لتحقيق هذه الطموحات.
 - أنماط ردود الفعل للظروف البيئية التي تتجلى لدى الأفراد وهي:
 - الامتثال: حيث يقبل الأفراد أهداف ومعايير المجتمع المشروعة لتحقيقها.
 - الانعزالية (الانسحاب): عدم قبول أهداف المجتمع ولا وسائله المشروعة لتحقيق هذه الأهداف.
 - التجديد: الميل إلى رفض وسائل المجتمع للحصول على الأهداف مع أن الفرد يقبل ويقدر الأهداف ذاتها.
 - الطقوسية: رفض أهداف المجتمع مع عدم انتهاك قواعد هذا المجتمع.
 - التمرد: حيث يصبح الفرد متحرراً من أهداف المجتمع ونظمه ويستبدلها بأهدافه ووسائله الخاصة لتحقيقها.
- كما يوضح Merton أن بعض الأفراد يتعرضون بسبب إهمالهم من قبل الجماعة، وكذلك بسبب خصائص معينة في شخصياتهم إلى التوترات الناشئة عن التعارض بين الأهداف الثقافية والوسائل الفعالة لتحقيقها، ويكون هؤلاء الأفراد عرضة للسلوك الإنحرافي.

حيث أن النقص الكبير في التكامل بين الوسائل والغايات في النمط الثقافي وبناء طبقي معين يعملان معا على زيادة تكرار السلوك المضاد للمجتمع في هذه المجتمعات.

ولذا نجد أن بعض الدارسين المهتمين بالانحراف والجريمة يعتبرون أنه بالغ في التبسيط حيث أنه أدرج مجموعة كبيرة من الأنشطة تحت مقولة السلوك المنحرف دون أن يأخذ في إعتباره وجهة نظر أعضاء المجتمع أنفسهم.

ب- نظرية الاختلاط التفاضلي:

أقام عالم الاجتماع الأمريكي إيدوين سوتلاند Edwin Sutherland هذه النظرية على جملة من العناصر مفادها¹⁹:

- ✓ السلوك الإجرامي غير موروث يكتسبه الإنسان بالتعلم.
- ✓ يتعلم الشخص السلوك الإجرامي عن طريق الاتصال بالآخرين سواء بلغة التخاطب العادية أو عن طريق الإشارة أو التقليد.
- ✓ تتم عملية التعلم بين الأشخاص على درجة متينة من الصلة الشخصية أو على درجة واضحة من الصداقة، فالعلاقة بين هؤلاء الأفراد تكون علاقة أولية مباشرة تختلف درجتها وفقا لمدى تكررها ودوامها وعقدتها.
- ✓ وعلى هذا يستبعد دور وسائل الاتصال كالصحف والسينما والتلفزيون... الخ في تعليم السلوك الانحرافي.
- ✓ تستهدف عملية التعلم المضمون الفكري لاتجاهات ومواقف الجماعة التي يختلط بها الفرد، فيتعلم منها مفاهيمها وتفسيرها للقانون.
- ✓ من ضمن ما يتعلمه الفرد من خلال انتماءه إلى جماعة منحرفة أساليب التخطيط والإعداد لارتكاب جريمة الوسائل اللازمة والمناسبة لتنفيذها.
- ✓ يصبح الفرد مجرما أو منحرفا عندما تتغلب عليه الاتجاهات الدافعة للإجرام ويحدث ذلك لدى الفرد المتفاعل بعمق مع جماعة ينتمون إلى ثقافة مرجعية منحرفة.

✓ للبيئة التنشئية الاجتماعية دور فعال في اكتساب السلوك الإجرامي وفي تكوين الاتجاهات والميول الخاصة، فهناك بيئات اجتماعية تكسب أفرادها السلوك الإجرامي. وقد قدمت انتقادات لهذه النظرية حيث أنها عجزت عن تفسير تفاوت الاستجابة بين شخص وآخر من المخالطين للعناصر الانحرافية فينحرف بعضهم بينما لا ينحرف الكثير منهم كما أنها عجزت عن تفسير جرائم الصدف والجرائم العاطفية ولكن رغم هذه الانتقادات التي وجهت إليها تعتبر من النظريات الرائدة في تفسير سلوك الانحرافي.

ج. نظرية الجماعة المرجعية:

تمثل نظرية الجماعة المرجعية أو ما يسمى بنظرية العصابة اتجاهها اجتماعيا آخر في تفسير جنوح الأحداث وتتضمن هذه فكرة هذه النظرية، أن الفرد في سن المراهقة يجد في شلة الرفاق أو في العصابة (Gang) مصدرا لتنمية هويته وتعريف ذاته، كما أن الجماعة المرجعية تقدم لأعضائها نفس العوائد التي تقدمها الثقافة الفرعية ويرى بعض العلماء أن هذه الجماعة قد تكون البديل للأسرة في بعض الأحيان لأن الفرد يجد فيها ما يفقده في الأسرة²⁰.

من أبرز الذين نادوا بهذه النظرية عالم الاجتماع فريدريك تراشر Frédéric Thrasher في دراسة ميدانية قام بها حول (1313) عصابة أطفال في ولاية شيكاغو الأمريكية ضمت 25 ألف طفل من الأحداث والشباب توصل إلى²¹:

- ✓ العصابة تخلق بصورة تلقائية من جماعات اللعب التي ينتمي إليها الأطفال، تتطور وتتحول إلى عصابة جانحة من خلال تجارب الصراعات مع الجماعات الأخرى.
- ✓ تطور العصابة روح الجسد الواحد والضمير الجماعي فيحمي أفرادها بعضهم البعض.
- ✓ تعتبر العصابة عامل مهم يسهل لأفرادها ارتكاب السلوك الإجرامي وانتقال أساليب الجريمة فأفرادها يتبادلون الخبرات الإجرامية.
- ✓ تقدم العصابة لأفرادها ما عجزت الأسرة في تقديمه للجائحين، فالعصابة سدت الفراغ الذي يعانون منه.

وما نجده في هذه النظرية أنها تقترب إلى حد ما مع ما جاءت به نظرية الاختلاط التفاضلي، وتبرز دور عامل الضغط والقهر الاجتماعي الناشئ داخل هذه الجماعة الصغيرة التي تنشأ في بيئة ذات خصائص ملائمة لظهورها كغياب الضبط الأسري.

د. نظرية المناطق الجانحة:

لقد عالج الكثير من علماء الاجتماع والجريمة موضوع المجال (الحي)، وأبرز علاقته بالانحراف والجريمة وتقوم غالبية الدراسات على افتراض أساسي، يقول أن الجناح أو السلوك الإجرامي هما حصيلة تفاعل طويل يحدث بين الفرد وبين ظروف بيئته من جهة.

ومن أبرز من تناول هذه النظرية **كليفورد شو** Clifford Shaw الذي يؤكد على أن ظاهرة الانحراف الأحداث مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبيئة المحيطة بالحدث في حيه، وهذا من خلال ثلاث عناصر: "الوضعية الاقتصادية للسكان، الحراك الاجتماعي هؤلاء السكان واختلاط الأجناس العرقية"²².

فالحي الذي تتوافق قيمه مع قيم المجتمع الكبير يكون حياً سويًا، يهيء للحدث جواً يكسبه الشعور بالاحترام والنظام والقانون، أما الحي الذي يخرج عن القيم الاجتماعية المتعارف عليها في المجتمع الكبير الذي يصبح مصدراً لتكوين بعض الاتجاهات الخاطئة التي تقود الحدث إلى الانحراف والجريمة. وقد حاول بعض العلماء وضع عناصر للحي الفاسد وتحديد معالمه التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتكوين سلوك المنحرف والدفع إلى العود إليه²³:

1. الحي الفقير المزدهم بسكانه والذي يشيع فيه الفقر والرذائل الاجتماعية كمزاولة البغاء، والمقامرة... الخ.
2. الحي الذي يحمل خليطاً سكانياً يجمع بين أفراد غير متجانسين ومن أقليات متعددة.
3. في الأجانب وهو الحي الذي تتخذة أقلية معينة موطناً دائماً، ورغم ما يعرف عن تجانس هؤلاء الأفراد الذين يمثلون أقلية واحدة، ولكن هذه الأحياء تنحدر إلى عزلة اجتماعية كبيرة، تشبه فيها الرذيلة والجريمة والجنوح على نطاق واسع، ويكاد يتفق الكثير من العلماء على الدور الكبير الذي

تلعب تلك العناصر الفاسدة وتأثيرها السلبي على النمو السوي للحدث وعلى نجاح المنظومة العقابية في إصلاحه بعد إنجائه لمدة إصلاحه.

وباختصار فإن هذه النظرية تركز بوجه الخصوص على أهمية الظروف الاقتصادية السيئة التي تتميز بها بعض المناطق الحضرية في المدن الكبيرة بحث تصبح مثل هذه الظروف السيئة عوامل جوهرية تقود إلى معاناة الأفراد وصراهم لتحقيق طموحاتهم وإلى ارتكاب السلوك الإنحرافي كبديل غير مشروع لتحقيق طموحاتهم المشروعة وعلى العموم فإن هذه النظرية تفترض أن السلوك المنحرف سلوك مكتسب للتعليم في إطار ظروف إيكولوجية ذات خصائص اجتماعية وثقافية واقتصادية تسهل عملية انتقال ثقافي بين أفرادها.

هـ-نظرية الوصم الاجتماعي:

ترتكز هذه النظرية على فرضية أساسية مفادها أن الانحراف ظاهرة غير ثابتة تخضع في تعريفها إلى ردة فعل الجماعة تجاه السلوك، ولذلك يوهم فاعلها بوصمة الانحراف لخروجه على قواعد الجماعة. فالانحراف لا يقوم على نوعية الفعل بل على النتيجة التي ترتبت عليه أو على ما يطلقه الآخرون من صفة على الفاعل، وهناك من يرى أن الانحراف ينشأ عن مجموعة من المواقف والظروف تحدث نتيجة تعارض مصالح الأفراد وتصارع قيم داخل المجتمع.

ويعتبر العالم الأمريكي (أدوين لميرت Lemert) من أشهر من يمثل هذه النظرية، حيث يرى أن الانحراف في السلوك بوجه عام هو نتيجة خلل في التنظيم الاجتماعي القائم في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية ويقع على مستويات ثلاثة، فقد يقع على مستوى الفرد نتيجة ضغوط نفسية داخلية تؤثر على السلوك، وقد يقع الانحراف على مستوى الظروف نتيجة التعرض إلى بعض الضغوط البيئية التي لا تترك للفرد مجال للاختيار، أما الانحراف على مستوى التنظيم الاجتماعي فهو الذي يصبح الانحراف فيه أسلوب حياة لمجموعة كبيرة من الأفراد مثل الجريمة المنظمة²⁴.

ويميز (لميرت Lemert) بين نوعين من الانحراف أحدهما أولي وهو الذي يأتيه الفرد مكرها وهو عالم بانحرافه ويشعر بالخوف والتردد، ثم يتطور الأمر إلى مستوى الانحراف الثانوي حيث

يتلاشى الخوف تدريجيا ويصبح الفرد مدركا لنوعية الفعل الذي يقوم به وردة فعل المجتمع تجاهه، ويأتي هذا مع تكرار الانحراف واكتساب الخبرة فيه إلى درجة الاحتراف، وهذا هو النوع الخطير من أنواع الانحراف²⁵.

ملخص هذه النظرية هو أن الانحراف عملية اجتماعية تقوم بين طرفين أساسيين هما الفعل المنحرف الصادر عن الفرد وردة فعل المجتمع تجاه ذلك الفعل من جهة أخرى، وتعتمد درجة التجريم ووصم المنحرف بصفة الإجرام لا على الفعل نفسه ولكن على مدى ردة فعل الآخرين تجاه ذلك الفعل.

3- التفسير التكاملي للانحراف:

من خلال استعراض الاتجاهات التي تفسر السلوك المنحرف بإرجاعه إلى عامل واحد تبين صعوبة رد هذه الظاهرة إلى عامل واحد ونتيجة لذلك ظهر ما يسمى بالاتجاه التكاملي أو النظرية التكاملية في تفسير الجريمة والانحراف.

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الانحراف والجنوح ما هو إلا محصلة مجموعة من العوامل والظروف التي تحيط بالموقف، لأن السلوك يعتبر استجابة لموقف معين يرتبط بالفرد ككائن اجتماعي يعيش في أوساط اجتماعية عديدة: كالأُسرة، المدرسة، النادي، المؤسسات المهنية... وغيرها ويتأثر بعوامل متعددة كالعوامل الوراثية، النفسية، الاقتصادية والاجتماعية²⁶.

وفي ضوء هذا الاتجاه الفكري قام **وليم هيلي** Healy بدراسة لعدد من الأحداث المنحرفين الذين حُولوا إلى معهد بحوث الأحداث بشيكاغو، وقد شملت الدراسة الأساس الاجتماعي كل حالة ودراسة تاريخ تطور نموها وإجراء اختبارات طبية وسيكولوجية، وقد نشر **هيلي** نتائج هذه الدراسة سنة 1915م في كتاب بعنوان "الفرد الجانح"، وكان من أهم هذه النتائج تأكيد على تعدد العوامل المسببة للجنوح وارتباطها.

كما ذكر العالم الإنجليزي سيرل بيرت Burt في كتابه "الجناح الصغير" ما يزيد عن 170 عاملا من عوامل الجنوح، وهي تتدرج من الأهم إلى الأقل أهمية حسب حالة كل جناح²⁷. هذا يعني وجود عوامل رئيسية ومساعدة على الانحراف بالدرجة الأولى وعوامل ثانوية إلا أنها لا يجب إغفالها.

ويرى العالمين الأمريكيين شيلدون واليانور جلوك Gluck Sheldon and Eleanor الإنسان على أنه وحدة عضوية، نفسية، اجتماعية انعكس ذلك في بحوثها التتبعية، ونتج ذلك إلى إيجاد ثلاثة جداول للتنبؤ بالجنوح، أحدهما يحتوي على عوامل اجتماعية مثل: معاملة الأب ورقابة الأم، واهتمام الوالدين، والترابط الأسري، والثاني خاص بالعوامل النفسية مثل: الرغبة في تأكيد الذات والتحدي، التشكك والميل إلى التخريب، والاندفاعية، بينما يتعلق الجدول الثالث بعوامل الطب العقلية (المتأثرة بالجهاز العضوي) مثل: المخاطرة والانبساط والاستسلام، والتعصب للرأي وعدم الاتزان الانفعالي²⁸.

ويشير حسن الساعاتي في كتابه "علم الاجتماع الجنائي" إلى أن بعض العلماء المحدثين بعد الحرب العالمية الثانية اتجهوا اتجاهها تكامليا تجتمع فيه كل النظريات والمدارس، والاتجاهات التي تحاول التعرف على أسباب الجريمة وعلى أساس أن ترتكبها هو الإنسان كائن عضوي، نفسي، اجتماعي، أي مكون من أعضاء تؤدي وظائف معينة وفق نفس مفعمة بالحاسيس شعورية أو لا شعورية وسط دوائر بيئية متداخلة ومركبة، وفي إطار ثقافي شامل من القيم والعادات والأعراف والتقاليد²⁹.

ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه على أنه الاتجاه السليم في تفسير السلوك الإجرامي، فتفسير السلوك الإنحرافي لا يجب أن يقتصر على عامل واحد معين سواء كان هذا العامل بيولوجيا أو نفسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو غير ذلك. فالتفسير العلمي والمنهجي هو الذي يؤكد على تعدد العوامل التي تؤدي إلى السلوك المنحرف والعود إليه، فكل العوامل مترابطة فيما بينها، فكل عامل يؤثر ويتأثر بالآخر.

2- عوامل الانحراف:

1- العوامل الداخلية:

المقصود بالعوامل الداخلية مجموع الظروف أو الشروط المتصلة بشخص المجرم، وهي قد تكون أصلية تلازم الفرد منذ ولادته ويدخل فيها التكوين الطبيعي للمجرم، والوراثة والخلل العقلي والأمراض العصبية والنفسية، وقد تكون مكتسبة أي يكتسبها الفرد بعد ولادته من الأمراض العضوية والعقلية التي قد تصيبه أثناء فترة حياته وتؤثر هذه العوامل على الفرد ويظهر هذا على تصرفاته في العالم الخارجي. ومن أهم العوامل المتصلة بشخص الحدث عامل الوراثة والتكوين العضوي والعقلي والعامل النفسي وهي مترابطة فيما بينها.

1. الوراثة:

يختلف العلماء إلى يومنا هذا في مدى تأثير عامل الوراثة على الجريمة والقيام بالسلوك المنحرف، حيث أصبح من الأمور الثابتة علمياً لدى جميع العلماء في عصرنا الحاضر أن للوراثة دوراً ولو إلى حد ما في انتقال بعض الصفات العقلية والنفسية من الآباء إلى الأبناء، وأن هذه الصفات لها أثر في إقدام هؤلاء الأبناء على الجريمة. فالوراثة هي انتقال خصائص معينة من الأموال إلى الفروع في اللحظة التي يتكون فيها الجنين، فهي انتقال للصفات العضوية من السلف إلى الخلف³⁰.

ومن أجل تبين مدى تأثير الوراثة على سلوك الفرد قام مجموعة من الباحثين بإجراء بعض الدراسات على بعض العائلات، حيث قام الباحث Dugdale في كتابه "The Jukes" سنة 1877 في نيويورك، بدراسة أسرة Max Juke، فتتبع سبع أجيال تسلسل فيها التناسل في هذه الأسرة تبين أنها أنتجت 76 مجرماً، 142 متسولاً، 128 مومساً، 91 ولداً غير شرعياً، 131 من المصابين بالأمراض العقلية والبلهات³¹.

وظهرت اتجاهات جديدة أشارت لأهمية الوراثة إلا أنها وضعت أنه ما يورث هو الاستعداد نحو الفشل سواء كان طبيعياً جسمى أو عقلياً أو نفسياً وليس الاستعداد للجريمة بالذات.

ويذهب بعض العلماء إلى القول أن المجرم العائد بسبب العوامل التكوينية (الوراثية) يرتكب جرائمه في الغالب دون أن يكون قصده التكسب منها فهو يقدم على الجريمة لعدم قدرته على ضبط التحكم في دوافعه الداخلية على عكس المجرم العائد لأسباب اجتماعية والذي يعتمد عادة على الجريمة للتكسب ويتخذها حرفة ليعيش من وراءها³².

وهنا برزت فكرة أن المجرم الحقيقي هو المجرم العائد الذي يتكرر إجرامه، فهو شخص يحمل الاستعداد الإجرامي ولا يستطيع التحكم في دوافعه ويفقد القدرة على العيش السوي كمواطن صالح في مجتمعه، أي أنه لا يمكنه التخلي عن سلوكه المنحرف المورث فيه.

2. التكوين العضوي والعقلي:

يقصد بالتكوين العضوي مجموع الصفات التي تتعلق بالحدث منذ ولادته بالنسبة لشكله الخارجي وتركيبه الحيوي والعضوي. أما التكوين العقلي فيقصد به الأمراض المتنوعة والرضوض المختلفة التي قد تصيب دماغ الإنسان فتحدث اضطراباً في جهازه العقلي واختلالاً في قواه الذهنية.

فاختلال أعضاء الجسم قد يجر معه اختلالاً في السلوك والعاهاات التي تصيب الحدث قد تدفعه إلى الإحساس بالنقص، هذا الشعور الذي قد يتحول إلى نبذ للمجتمع، كذلك النقص العقلي والخلل في القدرة العقلية الناجم عن سوء تكوين خلقي مثل التوقف في النمو العقلي ونقص في الذكاء، كل هذا يدفعه إلى تصرفات غير متوافقة³³.

ويكون النقص في التكوين العضوي نتيجة لاضطرابات في النمو أو لعاهاات ونقائص جسمية مختلفة، فالتكوين العضوي يتداخل مع التكوين النفسي ويؤثر الكل على التصرف الخارجي الذي يعكس جميع جوانب الشخصية. نفس الشيء بالنسبة للصحة العقلية فهي أساس الشخصية السوية، فإذا ما اختلفت الصحة العقلية، فهذا يؤدي إلى اضطرابات في الشخصية، مما ينجم عنه من سلوكيات غير متزنة.

وقد أثارت العلاقة بين التكوين العقلي والانحراف انتباه عدد كبير من الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية والذين رأوا أن ثمة ارتباط بين التكوين العقلي والإقدام على ارتكاب الجرائم، فمعظم المجرمين والمنحرفين لديهم نقص في التكوين العقلي ولكن بدرجات متفاوتة.

واختلفت الآراء بين مؤيد ومعارض إلا أن الجميع أجمعوا على أن ضعيف العقل عرضة للتأثير عليه بشكل غير عادي أكثر من غيره من الأسوياء أو العاديين، فهو يتأثر بسهولة بما يحيط به، فهم قابلين للاستهواء بدرجة كبيرة، هذا ما يجعل عامل التكوين العقلي عاملا مهما في بعض الحالات الفردية، فضلا عن كونه عاملا مهيمًا للوقوع في الجريمة إلى جانب العوامل النفسية والاجتماعية الأخرى.

كما يرى شوكا رد N.P. Chauchard "أن البيئة تؤثر تأثيرا كبيرا على الضعيف عقليا، وبناء على ذلك إذا كانت البيئة صالحة فإنها يمكن أن تمنع المتخلفين عقليا من الانزلاق في هوة الجريمة والانحراف".³⁴

3. التكوين النفسي:

التكوين النفسي مجموعة من العوامل الداخلية وتمثل شخصية الحدث والمرض النفسي هو اضطراب باد في تفكير المرء وشعوره وأعماله يكون من الخطورة بدرجة تحول بين المرء والقيام بوظيفته في المجتمع بطريقة سوية"³⁵.

فالأعراض النفسية كثيرة منها: القلق والوسواس، الهستيريا، النورستانيا، وأيضا السيكوپاتية، وتنتج نتيجة نشأة الحدث في بيئة لا يجد فيها العطف والشفقة اللازمين للتنشئة النفسية، ويتصف الشخص السيكوپاتي عادة بعجزه عن ضبط غرائزه وعدم تلاؤم شخصيته مع القيم الاجتماعية، واتصافه بالأنانية المفرطة، وعدم قدرته على التكيف الوظيفي، كل هذا يدفعه إلى ارتكاب الجرائم تحت تأثيرها في شخصيته من تكوين شاذ وغير مألوف.

فقد أثبتت بعض الدراسات أنه توجد فروقات بين من يقومون بسلوكات منحرفة والأسوياء في مختلف النواحي الشخصية وكذلك في الأنماط السلوكية، فالمنحرفون أكثر شعورا بالنقص وأكثر إغراقا

في أحلام اليقظة وشعورا بالاضطراب الذي كانت أهم مصادره القلق على الأسرة والمنزل وظروف المعيشة وهم أكثر إظهارا لألوان السلوك الاجتماعي المنحرف وأكثر اضطرابا فيها يتعلق بالتوافق العام³⁶.

2العوامل البيئية الخاصة بالحدث:

هي مجموعة الظروف والعوامل التي تحيط بالفرد في مجال معين وتؤثر في سلوكه وتصرفاته، وهي لا تقتصر فقط على الظروف المادية الملموسة، بل تشمل أيضا الجانب المعنوي للبيئة كالثقافة والأفكار السائدة، فالبيئة تعمل على نقل الأفكار والمعاني المختلفة لظواهر الحياة والتي تؤثر في طريقة تفكير الفرد، فهمه لأمر الحياة، العلاقات بين الناس وتفسيره للظواهر المتعددة، فالفرد في نزاع مستمر مع القوى النابعة منه والمحيط به، يحاول أن يجد توازنه منذ صغر سنه.

حيث أن الانحراف غالبا ما يكون نتائج البيئة السيئة التي يعيش في ظلها الفرد، فالفساد الذي ينشأ فيه سواء في أسرته أو مدرسته أو رفاقه وغيرها من العوامل الاجتماعية يؤثر سلبا على قيمه السلوكية.

1. الأسرة:

إن الأسرة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى المسؤولة عن تطوير شخصية الطفل من النواحي الجسمانية والاجتماعية والنفسية والعقلية والوجدانية... الخ. فهي الجماعة الإنسانية الأولى التي يحتك بها الطفل وهي بهذا مسؤولة عن لإكسابه أنماط السلوك الاجتماعي وكثيرا من مظاهر التوافق وسوء التوافق كما تغرس فيه خلال سنوات طفولته ردود أفعال اتجاه القيم والمعايير³⁷.

إن دراسات عدة أثبتت الأبحاث أن معظم الأحداث المنحرفين يأتون من أسر مفككة أو منهارة، وبأن الحياة البيئية لهؤلاء الأولاد لم تكن سليمة، ففي دراسة لكل من شو Shaw وماكاي McKay مجموعة من المنحرفين بولاية شيكاغو ومقارنتها بمجموعة أخرى ضابطة من الأسوياء من نفس المنطقة والسن، وجد أن 46.5% من المنحرفين جاءوا من أسر متصدعة بالمقارنة بـ 37.1% من غير المنحرفين³⁸.

التصدع الأسري يحدث اضطرابات عاطفية ونفسية جد معقدة، والتصدع لا يعني الطلاق فقط بل هو يتعدى ذلك، فتصدع العلاقات الأسرية يشمل النزاع بين الزوجين والأبناء، الطلاق، التفريق بين الأبناء... الخ من التعاملات التي تكسر روابط المودة والأمن والحب في البيت.

وفي دراسة **لحسن الساعاتي** عن العلاقة بين تفكك الأسرة وجناح الأحداث، وهي من أقدم الدراسات في العالم العربي واشتملت الدراسة على 800 حدث جانح ومتشرد من كلا الجنسين، كما اشتملت على عينة ضابطة مماثلة في العدد من أحداث أسوياء وكانت نتائج الدراسة³⁹:

- بلغت نسبة الأسر المفككة من أسر الجانحين 67% مقابل 34% من أسر الأسوياء.
 - أسباب تفكك الأسر تعود حسب الترتيب للوفاة والطلاق وتعدد الزوجات.
 - المستوى الاجتماعي والاقتصادي لأسر الجانحين أقل منه لأسر غير الجانحين.
- فبالأسرة من أهم المصادر في تحقيق الضبط المباشر وغير المباشر وعزل أطفالها عن التيارات المنحرفة وفشلها في ذلك قد يرجع لعدة أسباب: كجهل الوالدين بأساليب التربية السليمة، وعدم قدرة أحد الوالدين أو كلاهما على تحميل المسؤولية... الخ.

2. المدرسة:

باعتبار المدرسة هي البيئة الثانية التي تحتضن الحدث بعد أسرته، فلها تأثير كبير على شخصيته وسلوكه مستقبلاً، فهي المجتمع الأول الذي يصادفه الحدث خارج منزله، بعيداً عن والديه وأفراد أسرته، ففي هذا المجتمع يقضي الحدث الشطر الأكبر من طفولته وصباه وصدر شبابه، ويلتقي فيه بالأشخاص الذين يعبون الدور الأكبر في توجيه وتنمية شخصيته بعد والديه⁴⁰.

فالمدرسة تضم نماذج غير محددة من التلاميذ الذين يمثلون بيئات ومستويات اجتماعية مختلفة ونماذج سلوكية متعددة وهنا تلعب المخالطة والمحاكاة دورها البارز، ويجد المجال فسيحاً لكي يرتبط وجدانياً بمن هم أكبر منه سناً، وذلك يمكن القول بوجه الإجمال أن العوامل الأساسية للانحراف داخل المدرسة تمكن إما في الفشل بالدراسة أو في الصحبة السيئة لزملائهم داخل هذه البيئة أو في عدم ملائمة النظام التي تتبعه المدرسة في تربية أبنائها وتعليمهم⁴¹.

دور النظام المدرسي والذي لابد أن يفرض حدا أدنى من القواعد التي ترجع الحدث إلى الطريق والسلوك السوي. وهذا على أسس التوجيه والإرشاد المبني على العطف ومراعاة صالح التلاميذ وفهم نزعاتهم ودوافعهم الداخلية. فدور المدرسة لا يقتصر على تلقين الحدث العلوم النظرية المختلفة فقط، بل إن دورها يتناول أيضا تلقين الحدث المبادئ الأخلاقية والمثل العليا التي تدفعه إلى التمسك بروح الفضيلة والاندماج في المجتمع الواسع.

3. الرفاق:

يمكن أن نطلق على هذه الجماعة جماعة اللعب، أو الأقران أو الرفاق وهي مؤسسة رئيسية في تنشئة الطفل اجتماعيا بعد خروجه من نطاق عائلته إلى العالم الخارجي. وتعرف هذه الجماعة بالتقارب في ميولاتها وأهدافها وقيمها ومعاييرها، فيلعب الأقران دورا هاما في حياة الصغر بوصفهم عوامل للتنشئة الاجتماعية، حيث يعلم أحدهم الآخر بعض السلوكيات في المواقف الاجتماعية المختلفة. فالطفل يميل إلى تقليد ما يقوم به أقرانه من سلوكيات، فتأثرهم ببعض جد قوي ولا يمكن إنكاره، ففي حالات يكون هذا التأثير سلبيا وتحت ظل عدم وجود الرقابة الأسرية، إضافة إلى بيئة منحرفة تتحول هذه الجماعة من جماعة رفاق اللعب الساذجة إلى عصابة جانحة تقوم على أساس المغامرة، وتحدي السلطة والاستخفاف بالقيم السائدة⁴².

لذا فإن انضمام الطفل إلى بعض الجماعات السلبية أو الفاسدة مثل عصابات السرقة أو المخدرات وغيرها يؤثر سلبا على نظرة الناس إليه وبالتالي على توافقه الاجتماعي.

1. الوضع الاقتصادي:

قد يكون الوضع الاقتصادي عامل مباشر يؤدي للانحراف وذلك لما يتركه من آثار ضارة على نفسية الأحداث، فقد يلجأ البعض إلى السرقات للتعويض عن فقرهم وإشباع حاجاتهم التي لا تتمكن أسرهم الفقيرة من تلبيتها. أو أن يكون تأثيره غير مباشر كأن تؤدي ضائقة مالية إلى الانفصال أو الطلاق أو الهجرة بين الزوجين، مما يترك آثار سيئة على تربية الأولاد، كذلك من الأمور الملحوظة في هذا العصر أن ينطلق كل من الأب والأم في سبيل الحياة كسبا للعيش، ويترتب على هذا أن يفقد الطفل الرعاية الأسرية له ويترك بدون توجيه، وقد ظهرت وانتشرت هذه الظاهرة

خاصة في المدن، فغياب الأهل وضعف الرقابة على الطفل قد تكون سببا لانحرافه⁴³. حيث أن عدم إشباع الرغبات والشعور بالمرارة وخيبة الأمل وسائر الصور المماثلة من عدم الاطمئنان الاجتماعي التي يستشعرها الحدث والتي تنبع اساسا من الفقر لا يمكن تجاهلها كعامل من عوامل الانحراف.

نجد أيضا من العوامل الاقتصادية السكن، فقد تلجأ بعض الأسر إلى السكن في أماكن مزدحمة وغير صحية بسبب عجزها المادي، فيضطر لأولاد لترك المنزل واللجوء إلى الشارع أين تصادفهم شتى أنواع الانحرافات⁴⁴.

2. وسائل الإعلام:

إن وسائل الإعلام المختلفة قد تكون من العوامل المؤثرة في الأحداث وقد تدفع الكثير منهم إلى السلوك المنحرف، فالصحافة مثلا: بالرغم من أن لها دورا رئيسيا في هيئة الرأي العام واستشارته لمحاولة التصدي لمشكلة انحراف الأحداث وذلك عن طريق توضيح حجم المشكلة والعوامل التي تؤدي إليها، إلا أن في الوقت نفسه قد تتورط في حث الأحداث على الانحراف دون إدراكها، فنشر بعض الجرائم بتفاصيلها الدقيقة، والتي قد يكون الهدف منها هو إعطاء الصورة الكاملة للجريمة كثيرا ما يعتمد البعض من الأحداث وحتى الكبار إلى استخلاص بعض المواقف المتشابهة التي يمكن من خلالها تحقيق بعض المكاسب السريعة ويقوم بمحاكاة المجرم⁴⁵.

كذلك الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية كأحد الوسائل الترفيهية والتي تبين من خلال دراسات لعلماء النفس أنها تبقى تشغل بال الحدث لمدة طويلة بعد انتهاء العرض. ويحاولون تقليد بعض أبطال هذه الروايات يكمن الخطر فيما تقدم برامجنا التلفزيونية والأفلام من مشاهد الأفلام الخليعة التي قد تؤثر سلبا على خبرات هؤلاء الأحداث فتؤثر الصغار بمشاهدة فيلم ما يفوق تأثير البالغين بذات المشاهد⁴⁶.

الخاتمة:

من الصعب أن نحصر تفسير السلوك الانحرافي في نظرية واحدة أو أن نقول أن السبب المؤدي إلى السلوك الانحرافي هو عامل ما، فالعوامل متعددة ومتداخلة وهناك بعض العوامل التي يكون

عوامل الانحراف والاتجاهات النظرية المفسرة للسلوك الانحرافي ————— بوزيرة سوسن، والعربي اشبودن

تأثيرها أكبر من غيرها ولهذا تتعدد التفسيرات لسلوك المنحرف وتختلف النظريات التي قدمت تفسيرات لهذا السلوك الذي يمثل حالة لا توافق مع المجتمع.

يمكن ان نستخلص من ذلك أن انحراف الفرد هو نتيجة تراكم عدة عوامل ابتداء من البيئة الخاصة بالحدث وإلى البيئة الخارجية المحيطة به.

الهوامش:

- 1 القاموس المدرسي. (ط1)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، سنة 1991، ص 65.
- 2 Roymond Bondon et autre: "Dictionnaire de sociologie", Larousse, Paris, 2005, p62.
- 3 Gyl Ferrol et autres. « ... ». 1991, p 59.
- 4 منير العصرة، "انحراف الأحداث ومشكلة العوامل"، الإسكندرية: المكتب المصري الحديث، 1974، ص 26.
- 5 فوزية عبد الستار "مبادئ علم الإجرام وعلم العقاب"، (ط1)، بيروت: دار النهضة العربية، 1985، ص 39.
- 6 صالح بن محمد آل رفاعي، مرجع سابق، ص 35.
- 7 جعفر علي محمد، مرجع سابق، ص 39.
- 8 السيد علي شتا "علم الاجتماع الجنائي"، المملكة العربية السعودية: دار الإصلاح للطباعة والنشر، 1984، ص 38.
- 9 أكرم نشأة إبراهيم "علم الاجتماع الجنائي"، بغداد: الدار الجامعية، بدون سنة، ص 16.
- 10 عبد العظيم نصر المشيخص، مرجع سابق، ص 25.
- 11 أكرم نشأة إبراهيم "علم النفس الجنائي"، بغداد: الدار الجامعية، بدون سنة، ص 67.
- 12 محمد عارف "الجرمة في المجتمع"، (ط1)، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 1975، ص 289.
- 13 صالح مصلح "النظريات الاجتماعية المعاصرة وظاهرة الجريمة في البلدان النامية" (ط1)، عمان: مؤسسة الوراق، سلسلة معاصرة في العلوم الاجتماعية، ص 2571.
- 14 William Adrian Bongor, Criminality and Economic Conditions, p 532.
- 15 صالح بن محمد آل رفاعي، مرجع سابق، ص 51.
- 16 صالح بن محمد آل رفاعي، مرجع سابق، ص 56.
- 17 عدنان الدوري، "أسباب الجريمة وطبيعة السلوك"، الكويت: ذات السلاسل، 1984، ص 204 – 205.
- 18 صالح مصلح، مرجع سابق، ص 53.
- 19 Jacques Faget, Ibid, pp 43-44.
- 20 عبد الرحمن بن محمد عسري: "النظريات العامة والنماذج النفسية في مجال انحراف الأطفال"، الجزائر: الندوة العلمية للأطفال والانحراف، 2008/05/14-12، ص 12.

21 Jacques Foget, Ibid, p38.

22 Jacques Foget, Op.cit, p40.

23 حمد سلامة غباري، مرجع سابق، ص 135-136.

24 عدنان الدوري، مرجع سابق، ص 263.

25 صالح بن محمد آل رفاعي العمري، مرجع سابق، ص 62.

26 بدر الدين علي "النظريات الحديثة في تفسير السلوك الإجرامي"، الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، 1987، ص 23-24.

27 صالح بن محمد آل رفاعي العمري، مرجع سابق، ص 63.

28 حسن الساعاتي "علم الاجتماع الجنائي". القاهرة: دار النهضة المصرية، 1951، ص 136-137.

29 صالح بن محمد الرفعي، مرجع سابق، ص 64.

30 مأمون محمد سلامة "مذكرات في المدخل إلى علم الإجرام". القاهرة، 1967، ص 65.

31 نفس المرجع، ص 30.

32 أحمد حبيب السماك "العود إلى الجريمة". الكويت: ذات السلاسل للطباعة والنشر، 1985، ص 115-116.

33 فوزية عبد الستار، مرجع سابق، ص 116.

34 علي محمد جعفر، مرجع سابق، ص 44-48.

35 منيرة العصور، مرجع سابق، ص 292.

36 سعد المغربي: علم النفس الجنائي، ص 140.

37 رمزية الغريب "العلاقات الإنسانية في حياة الصغير". القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية، 1972، ص 30-31.

38 Jacques Foget, Op.cit, pp 39-42.

39 حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 126.

40 محمد طلعت عيسى وآخرون: الرعاية الاجتماعية للأحداث المنحرفين، مصر: مكتبة القاهرة الحديثة، د.ت، ص 163.

41 جعفر علي محمد، مرجع سابق، ص 72.

42 السيد رمضان: الجريمة والانحراف من المنظور الاجتماعي، ص 166.

43 جعفر علي محمد، مرجع سابق، ص 65.

44 محمد عارف، مرجع سابق، ص 575.

45 غسان رايح، مرجع سابق، ص 141-142.

46 سعد المغربي، أحمد لثي، مرجع سابق، ص 232.

ملاحع الوعي الصحي عند المرأة الريفية

دراسة استطلاعية ببلدية عين النويصي بمسغانم

الدكتورة فوزية بوشي، جامعة تيارت

الملخص:

نسعى من خلال هذا العمل التعرف على مستوى التأثير الذي تمارسه المؤسسات الصحية (والتي تم تمثيلها في هذا البحث بوحدة الأمومة والطفولة لبلدية عين النويصي بولاية مسغانم) على المستقبلين لرسائلها من سكان الريف تحديداً (والذين تم تحديدهم في هذا البحث في النساء الريفيات)، خاصة وأن العاملين بالصحة كثيراً ما يشكون من ضياع جهودهم لنشر الخدمات الصحية من جانب التوعية والعلاج بالريف بسبب انتشار الثقافة هناك والتي تفرض حسبهم نوعاً من اللامبالاة لدى سكانه.

وتحقيقاً لذلك قمنا ببحث استطلاعي يستهدف استنطاق نوعية استجابة عدد من النساء الريفيات الحوامل من خلال بحث معارفهن في مجال الصحة الإنجابية التي جرى توظيفها في هذا البحث لتعني برامج رعاية الأم والطفل، وعبر العمل الميداني المباشر بوحدة الأمومة والطفولة لبلدية عين النويصي، ومقابلة عينة من النساء الحوامل من القرى الآتية: دوار دندن، دوار ولاد حمدان ودوار بلحاج، التابعة لبلدية عين النويصي، اللواتي كن من المترددات على هذه الوحدة والذي بلغ عددهن 20 مفردة، وإجراء مقابلات معمقة مفتوحة معهن توصلنا إلى أهم النتائج التالية:

- فعالية الاتصالات الشخصية والجمعية غير الرسمية في نقل المضامين الصحية.
- الاتصالات الشخصية والجمعية تعوق الفهم الصحيح للنساء الريفيات للمعلومات الصحية.
- الدور غير البارز للوحدة الصحية (وحدة الأمومة والطفولة لبلدية عين النويصي) في مجال الإعلام والاتصال مع مرضاها.
- الثقافة تحدد نوعية معلومات عينة البحث.

Abstract // We seek through this work to realize the degree of influence exerted by the health institutions (which was represented in this study by the maternity and infancy unit of the municipality of Ain nouissi in the wilaya of Mostaganem on the recipients of their messages from the inhabitants of rural areas specifically (whom have been identified in this research as rural women) especially that health personnel often complain that their effort to spread their health services raising awareness and treatment in countryside prove fruitless ;and that is due to culture that imposes some sort of carelessness.

And to implement that we made a survey aiming to interrogate the quality of compliance of a certain number of rural pregnant women through introspecting their delivery health knowledge that was employed in this research to concern maternity and infancy programs ; and through direct field work in the maternity unit in the municipality of Ain nouissi and encounter with a specimen of 20 pregnant women from the following village : douar Denden douar Ouled hamdane and douar Belhadj belonging to the municipality of Ain nouissi who were frequenting this unit ; and by conducting deep open interviews ; we arrived to the following results :

- _ The efficacy of unofficial personnal and group communication in conveying health contents .
- _ personal and group communication create health misconceptions .
- _ The unnoticeable role of the health unit in the information and communication scope with its patients .
- _ Culture determines the quality of knowledge of the research sample .

مقدمة:

تعتبر التوعية الصحية من أهداف الإعلام الصحي الذي تعنى به مؤسسات العلاج الرسمي، التي تهدف إلى خلق وعي صحي لدى الأفراد بتربيتهم على قيم صحية سليمة، اطلاعهم على مخاطر الأمراض ومضاعفاتها، وكذا سبل الوقاية منها.

و لما كانت دراسة مدى فاعلية هذه المؤسسات في تحقيق الوعي الصحي لدى المتلقين لرسائلها، وتحديد النساء الريفيات، تتطلب بحوث متشعبة بسبب تأثير الثقافة السائدة في الريف على استجابات الناس للمرض، و دورها في تحديد حجم الطلب على الخدمات الصحية، فلطالما عرف الريف بقلة تردد النساء على المؤسسات الصحية، اللواتي لا يقبلن زيارتها إلا إذا كان المعالج امرأة، و الإحساس بمجدية المرض وإدراك خطورته، فقد اتجهنا إلى معرفة مستوى التأثير الذي تحدثه فيهن وذلك بتحليل إرجاع الأثر الذي يتمحور في معارفهن الصحية، وقد اخترنا مجال الصحة الإنجابية

كنموزفا لذلء لارتباطه بالمرأة من جهة، ولاعتباره قضية مجتمعة من الدرجة الأولى من جهة أخرى، من خلال القفام ببء استطلاعى.

الإشكالية:

ىقوء الءءء عن ءور المؤسساء الصفىة فى خلق الوعى الصفى لءى أفراء المجتمع خاصة المجتمع الرىفى الذى ءءسخ فى العاءاء والءقالءء، وءءءء الثقافة الساءة فىه قواعد الصفىة من ءىء الإصاءة بالمرض، إءراءاء الوقاءة والعلاج، ءغذفة، ءنظفم الأسرة وىرها من السلوكاء الصفىة، البءء فى فاعلفة ءءأفراءاء ءىء ءءءءها لءى المءلقف لرسائلها الإعلامفة خاصة النساء كءمهور أساسف فى عملفة الاءصال، اللوائف لظالما وصفن بالدوفة، بمسءوى ءعلفمف منءفض، بءأء فى العلاج، والاعءماء على مصادء ءقلفءفة. ولا فمكن معرفة ذلء إلى من خلال رءع الصءى الذى فشفر إلى ءبءاءل بفن ءءأفر الممارس علىهن من جهة الممارسف الصفىفن العاملف فى هءه المؤسساء، واستءابءهن ءىء ءءءء فى معارفهن الصفىة مما فستوجب ءءللل المفءافف.

ولأن القضااف المءعلقة بصءة الأم والطفل هى من القضااف الجواهرفة ءىء فركز علىها النظام الصفى فى إطار الجهور المبءولة للءخطفط للبرامء الصفىة، وفف سبفل ءءقفق سفاة ءوففر الصءة للءمفع، وهو الأمر الذى ءفعنا لءناول جانب الصءة الإنءابفة كأءء المءالاء المهمة فى الصءة، من هءا المنءلق كانت النساء الرىففاء الءوامل هن موضوع بءء الوعى الصفى، ءىء ءطرء إشكالفة ءراسفة الءالف ءساءل الرئفسف الآف:

ماذا ءعرف المرأة الرىففة الءامل عن الصءة الإنءابفة؟

أهمفة ءراسفة:

ءنبع أهمفة هءه ءراسفة من مءورفن أساسفف:

أولهما/ءطففق: فشفمل الآف:

___ ءءفء مسءوى القءرة الإقناعفة للمؤسساء الصفىة وفقا لءمهور النساء الرىففاء.

___ الوقوف على أهم معوقات عملفة اءصال المؤسساء الصفىة بءمهورها من النساء الرىففاء.

— توفير معلومات عن حجم الجهود المبذولة من قبل المؤسسات الصحية من أجل الارتقاء بصحة المرأة.

— تحديد سبل الارتقاء بعناصر الجودة في الخدمات الوقائية، ما يتعلق بالتوعية الصحية.

— تحديد مستوى التغير الثقافي في المجال الصحي بالريف: هل يعتبر تغيرا خارجيا في معظمه يشمل فقط إدخال مجموعة من المؤسسات الصحية في الريف، أم هم تغير كذلك في الأفكار والاتجاهات. **ثانيهما/أكاديمي:** ويتمثل بشكل رئيسي في:

— تناول الموضوع من جانب علم الاجتماع الاتصال.

— الاهتمام بموضوع المرأة التي تمثل قطاعا بشريا له دور مؤثر في تنمية المجتمع.

— مناقشة قضية متعلقة بصحة الأم والطفل التي تركز عليها الجهود المبذولة من قبل الدولة للحفاظ على حياة الأم والطفل.

— البحث في القابلية الإقناعية للمضامين الإعلامية الصحية التي مصدرها المؤسسة الصحية لدى جمهور خاص في عملية الاتصال، هن النساء الريفيات اللواتي يتحددن بخصائص تتعدى العوامل الديمغرافية إلى عوامل تتصل بالسلوك الاجتماعي والاتصالي ومحدداته الثقافية.

أهداف الدراسة:

على ضوء مشكلة البحث تتحدد أهداف الدراسة الحالية بشكل أساسي في التعرف على القدرات الإقناعية (التأثير) للمؤسسات الصحية، بكلام أدق قدراتها في نشر الثقافة النوعية التوعوية لصحة المرأة الحامل.

المفاهيم الأساسية للدراسة:

نستخدم في بحثنا الراهن عددا من المفاهيم، نحاول أن نوضح المقصود كل منها على النحو التالي:

 **المؤسسة الصحية:** يعرف جورج فريدمان George Friedman المؤسسة على: "أنها نظام متوازن يتلقى مساهمات تحت شكل المال والجهد، ويقدم بالمقابل منافع عن هذه المساهمات"¹ من ذلك تتحدد هذه المنافع بالنسبة للمؤسسة الصحية في خدمات العلاج والوقاية والإعلام،

وبقتصر المفهوم الإجرائي للمؤسسة الصحية في هذا البحث على الوحدة العمومية للأمومة والطفولة لبلدية عين النويصي.

المرأة: يستند تعريف المرأة في الاصطلاح كما في اللغة إلى محدد بيولوجي يتجسد في جهازها التناسلي المسؤول على أنوثتها وإنجاب الأطفال، والذي يؤهلها لأن تكون زوجة وأم، حيث جاء في قاموس كيلي QUILLET «المرأة هي أحد الجنسين الذي يتميز بالحمل»²، على ذلك جاء ذات المفهوم ليعني إجرائيا المرأة الحامل.

الريف: ذكر ابن خلدون في تعريفه للريف في الفصل الثاني من الباب الخامس عن وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه، على أنه "من ينتحل العلم من الغراسة والزراعة يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفه بين الناس في منافعهم كاللبن من الأنعام والحريز من دوده والعسل من نخله، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه، وإعداده لاستخراج ثمرته، ويسمى كله فلاحا"³، وبقتصر استخدام هذا المفهوم في هذه الدراسة على تنظيم اجتماعي يتميز بنمط معيشي يقوم أساسا على النشاط الفلاحي، والذي جرى تمثيله بثلاثة قرى تشرف عليها بلدية عين النويصي بولاية مستغانم، وهي: دوار دندن، دوار ولاد حمدان ودوار بلحاج.

الوعي الصحي: يعرف الوعي في الاصطلاح على أنه "اتجاه عقلي انعكاسي يمكن الفرد من الوعي بذاته، والبيئة المحيطة به، بدرجات متفاوتة من الوضوح والتعقيد، ويتضمن ذلك وعي الفرد بالوظائف، العقلية والجسمية، ووعيه بالأشياء والعالم الخارجي"⁴، من ذلك يصبح الوعي الصحي هو إدراك الفرد بالصحة، أما عن معناه الإجرائي فقد تم توظيف هذا المفهوم ليبدل على المعارف المتعلقة بصحة الأم الحامل.

الصحة الإنجابية: جاء تعريف الصحة الإنجابية في برنامج العمل للمؤتمر الدولي للأمم المتحدة عن السكان والسكان والـ "ÍÇÁÉ ÇÁÑÝÇÁÉ ÇÁßÇääÉ ÚÖæíÇ æäÝÓÍÇ" 1994 ÆÄääÇ " áÊääíÉ ÇáääÚßí ÚÇää1994 ÆÄääÇ " ÍÇÁÉ ÇÁÑÝÇÁÉ ÇÁßÇääÉ ÚÖæíÇ æäÝÓÍÇ æÇìÊäÇÚíÇí æáíÓÊ ÝßØ àìÑí Çáíáæ ää ÇääÑÖ Äæ ÇáÁÚÇßÉ Ýí Bá äÇ íÊÚáb ÈÇáíäÇÒ ÇáÊäÇÓáí ææÚÇÆÝä æÚääíÇÊäí æäí ÊÚáí ÇáßíÑÉ Úái ÇáíÖæá Úái ííÇÉ àäÓíÉ ÄääÉ æäÑÖíÉí æÇáßíÑÉ Úái ÇáÄäÇÈ æÇáíÑíÉ Ýí ÊßÑíÑ æÈ æßíÝ íäßä Êíßíß Ðáß"

الصحة الإنجابية فى هذا البحث على الرعاية الصحية الخاصة بالأم والطفل (رعاية الأمومة والطفولة).

الإجراءات المنهجية للدراسة:

نسعى فى هذا الجانب إلى تقديم وصف عام لمنهج البحث وأدواته، وكذا العينة:

➤ **منهج البحث:** ينتمى هذ البحث إلى:

- البحوث الاستكشافية التى تهدف حسب سلتيز Selltiz وآخرون إلى⁶:
 - جعل الباحث أكثر تعودا على الظاهرة التى يقترح دراستها لاحقا بطريقة أكثر تنظيما.
 - تقرب الباحث من الوسط أو الحيز الذى ينوى أن يجرى فيه بحثه.
 - توضيح المفاهيم.
 - ترتيب الأوليات فيما يخص إجراء الأبحاث مستقبلا.
 - جمع المعلومات حول قابلية القيام بالأبحاث فى الأوساط الطبيعية.
- وفضلا عن ذلك يتيح استخدام هذا النوع من الدراسات للباحث صياغة فروضه بطريقة واقعية، "كما تمكنه من اختيار أكثر الوسائل الفنية صلاحية للدراسة، إلى جانب تحديد الأسئلة التى تتطلب اهتماما وتركيزا وفحصا تفصيليا"⁷.
- أما نحن فقد كانت الغاية من استخدامنا للبحث الاستطلاعى هو توفير بيانات مقننة عن الظاهرة فى مجال مجتمعنا نستفيد منها فى دراسات مستقبلية.
- البحوث التجريبية التى تعتمد على الميدان لرصد ما يجرى على أرض الواقع، وقد استخدمنا طبقا لذلك المنهج التجريبى الميدانى الذى يهدف إلى الوصف و التفسير، حيث يشير مفهوم التجربة فى هذا السياق إلى "مجموعة مكتسبات الفكر الناتجة عن تدريب قوانا فى علاقتنا مع الواقع، كما أنها تمثل أيضا إحداث ظاهرة تهدف دراستها، وصياغتها صياغة مفهومة ثم اختبارها ميدانيا"⁸، وبناءا على ذلك قمنا بمحاورات ميدانية مباشرة متعمقة مع النساء الحوامل فى سبيل توفير معلومات واقعية عن الظاهرة.

الأدوات المنهجية للدراسة:

اعتمدنا في هذه الدراسة على المقابلة الحرة المتعمقة كأداة أساسية في البحث التي انطلق فيها الحوار مع المبحوثات كل على حدى بـ " معارفك على صحة المرا لي بلكرش " : (معرفتك عن ما يتعلق بصحة المرأة الحامل)، و قد راعينا في اتصالنا معهن عامل اللغة (استخدام الدارجة)، مراعاة لتكوينهن المعرفي البسيط.

وتم إجراء كل مقابلة على حصتين (حيث دامت كل حصة ما يقارب 40 دقيقة)، وذلك مراعاة لظروف المبحوثات اللواتي طرحن مشكل الوقت والمهام المنزلية. إلى جانب ذلك، جرى استخدامنا للملاحظة كأداة ثانوية.

الحدود النظرية للدراسة:

نتطلق في بحث موضوع دراستنا الحالية من تصورين أساسيين: أولهما/ سوسيولوجي: ممثلا في نظرية التفاعلية الرمزية التي تنطلق من افتراض أن المجتمع هو مجموعة من التفاعلات التي تحدث بين أفرادها من خلال رموز لها معان مشتركة لديهم، يتم اكتسابها من خلال هذه التفاعلات.

ثانيهما/ اتصالي: ممثلا في نظرية الاتصال عبر مرحلتين التي تقوم على افتراض مفاده أن الرسائل الإعلامية تمر عبر شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال قادة الرأي لتصل إلى ذهن الفرد.

ومن ثم تعد العلاقات الاجتماعية متغيرا أساسيا في عملية التأثير، على القائم بالاتصال الممثل في الممارسين الصحيين في المؤسسات الصحية من الوعي به.

عينة الدراسة وخصائصها:

مراعاة لخصوصية البحث الذي يتناول جانبين أساسيين هما: المرأة الريفية من جهة، والصحة الإنجابية التي حصرنا معناها في هذا البحث على مرحلة الحمل (لتقريب فهم فكرة الصحة الإنجابية للمبحوثات) من جهة أخرى، وحرصا منا أن تكون العينة ممثلة أحسن تمثيلا ارتأينا انتقاء عينة ممثلة بـ:

- النساء الحوامل القاطنات بمنطقة ريفية منذ فترة، حيث طبقت الدراسة على المبحوثات من دوار ولاد حمدان، دوار دندن ودوار بلحاج، أمكن الحصول عليها من مجموع المترددات على وحدة الأمومة والطفولة لبلدية عين النويصي باعتبارها مجالا من مجالات الصحة الإنجابية. واعتمادا على كل هذه الاعتبارات جاءت عينة الدراسة قصدية نموذجية مكونة من 20 حالة، ممن استطعن الاستجابة مع أداة الدراسة.

وفيما يلي تقديم لخصائص العينة:

من حيث متغير السن: توضح بيانات الفئة العمرية للمبحوثات أن جميعهن، هن دون الـ 30 سنة: الجانب الأكبر منهن، وبنسبة 55 % ما يقابل (11مبحوثة) يقع سنهن في الفئة العمرية (20_24)، و45% من إجمالي المبحوثات (9 مبحوثات) هن ما بين 25_29 سنة.

من حيث متغير المستوى التعليمي: يتميز جميع المبحوثات بوضعية تعليمية متدنية، حيث أن نصف العينة (50%) هن من ذوات المستوى الابتدائي، و50 % من إجمالي المبحوثات (10مبحوثات) هن من ذوات المستوى المتوسط، ولم تم إحصاء مبحوثات لا يلمن بالقراءة والكتابة، وهو الأمر الذي يفسر في ضوء تطبيق الدولة لاستراتيجية محو الأمية، وإجبارية التعليم من 6 إلى 16 سنة، ومجانيته.

من حيث متغير النشاط المهني: تشير بيانات البحث في هذا المجال أن غالبيةهن وبنسبة 95% من إجمالي العينة ما يعادل (19 مبحوث) لا يمارسن أي نشاط مهني ما عدا عملهن التقليدي الذي يتحدد في رعاية الأبناء وتدبير شؤون البيت، مقابل نسبة ضئيلة جدا بلغت 5% (ما يقابل مبحوثة واحدة فقط) تمارس نشاطا اقتصاديا يتحدد في الحياطة التي تعتبر من المهن النسوية، وهو أمر يتفق مع مؤشر الحالة التعليمية للمبحوثات، وكذا معطيات التقسيم النوعي للعمل.

من حيث متغير المستوى الاجتماعي: تشير بيانات البحث في هذا الجانب أن جميع المبحوثات (100 %) هن من عائلات محدودة الدخل.

المجال المكاني للدراسة: العينة تم الحصول عليها من مجموع المترددات على وحدة الأمومة والطفولة لبلدية عين النويصي باعتبارها مجالا من مجالات الصحة الإنجابية.

المجال الزمني للدراسة: استمرت الزيارات الاستطلاعية للوحدة لفترة قاربت الشهر: من 22 فيفري إلى غاية 21 مارس من عام 2016.

عرض لأهم نتائج الدراسة الميدانية ومناقشتها:

فيما يلي عرض لنتائج العمل الميداني، وما حصلنا عليه من بيانات من خلال المقابلات المفتوحة التي أجريت مع عينة من المبحوثات البالغ عددهن (20 مبحوثة)، وترتبط خطة عرض هذه البيانات بسير المناقشات التي أثارها الحوارات المتعمقة معهن، وما تفرع عنها من مسالك، لذلك جاء هذا الجانب، وبناء على تحليل المقابلات، متضمنا على 3 محاور أساسية هي:

معارف المبحوثات عن الصحة الإنجابية.

مصادر معارف المبحوثات عن الصحة الإنجابية.

تعامل المبحوثات مع هذه المعارف، ما يقابل سلوكهن الصحي.

 **معارف المبحوثات عن الصحة الإنجابية:** قد كشف البحث في هذا الجانب عن النتائج الآتية:

— جميع المبحوثات، وبنسبة (100 %) يعرفن أن وحدات الأمومة والطفولة توفر لهن الدعم أثناء الحمل وفقط مع إقصاء للفترات الأخرى (أثناء الولادة وبعدها). ويعرفن أنها تشمل أساسا التطعيمات بالنسبة للأم والطفل، حيث يطلقن عليها "سونتر تاع الفاكسان تاع المرا و البيبي" (مراكز تلقيح المرأة و الطفل)، و متابعة الحوامل، مراقبة الطفل من حيث الوزن، وتنظيم الأسرة، مع غياب أي إشارة للتثقيف الصحي: ما يشمل تثقيف النساء بالأساليب الصحية السليمة لكي يتمكن من رعاية أنفسهن وحملهن، وتقديم رعاية أفضل لأطفالهن بعد الولادة.

— جميع المبحوثات يفهمن رعاية الأمومة و الطفولة على أنها في المقام الأول "تديري الفاكسان تاع الكرش": ما يعني قيام المرأة بالتطعيمات ("DT" (ضد الديفتيريا و الكزاز)، فاكسان للغريان (التطعيم للطفل)، والمتابعة الطبية للحامل، وإجراء الفحوصات الدورية، ولا يمكن أن نفسر ذلك إلا في إطار التمثل الاجتماعي، ما يقابل التصور الشائع لدى هؤلاء عن خدمات رعاية الأمومة والطفولة، والذي يتجسد في المفهوم الذي يمنحناه للوحدة "سونتر تاع الفاكسا تاع المرا والغريان" هذا من جهة، من جهة أخرى نوعية الأداء الخدماتي الذي تتميز به وحدة عين النويصي بالذات، والذي يتركز أساسا على خدمات التطعيم هذا ما كشفت عنه الملاحظة المباشرة، مما أدى

إلى هذا الربط في ذهن المبحوثات، وترك لديهن انطباع بأنهما "مراكز للتلقيح"، وهو الأمر الذي يفسر في ضوء نظرية التفاعلية الرمزية، و في هذا الصدد يقول جورج هربرت ميد George Herbert Mead⁹ "إن البشر يتصرفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه تلك الأشياء لهم".

— غالبية المبحوثات: 85% من إجمالي العينة ما يقابل (17 مبحوثة) يعتقدن أن التطعيم (ضد الديفتيريا والكزاز)، يتم خلال فترة الحمل فقط، وجميعهن يعرفن عنه أنه يكون خلال كل حمل، وجميعهن يعتقدن أن التطعيم يكون مرة أو مرتين في كل حمل، هذا ما ظهر بوضوح من خلال الحوارات المتعمقة مع المبحوثات والملاحظة المباشرة.

أقرت جميعهن أنهن يعرفن بمخاطر الحمل المتكرر على صحة الأم، و بصرف النظر عن ذلك أكدت غالبيةهن (85% من إجمالي المبحوثات ما يقابل 17 مبحوثة) أنهن يقتنعن بفكرة تنظيم الولادات، وأنهن يفضلن الاكتفاء بـ 3 أطفال على الأكثر مستقبلا مراعاة لظروفهن الاقتصادية المتدنية كونهن من عائلات فقيرة، و ليس تلبية للعامل الصحي، و هو الأمر الذي يتناقض مع الفكرة (كونهن يعرفن بالتأثيرات السلبية للحمل المتكرر على صحة الأم)، والغاية المرجوة من برامج تنظيم الأسرة التي تعمل الدولة لتوصيلها للمرأة من خلال وحدات رعاية الأمومة و الطفولة.

— وللاحاطة بفهمهن لماهية تنظيم الولادات، كان من المفيد أن نطرح سؤالا نستعلم فيه عن ذلك "صح كي تفهمي تباعد الولادات؟": كيف تفهمين تباعد الولادات؟، وقد كان فهم جميع المبحوثات عينة البحث في: "تشربي الكاشيات باش ما تجيش الذراري بزاف، وتقدي تعيشهم": تستخدمين حبوب منع الحمل حتى لا تنجبين الكثير من الأطفال، حتى تتمكنين من رعايتهم اجتماعيا، وقد تكررت مثل هذه الاستجابة على لسان غالبيةهن: 95%، ما يقابل (19 مبحوثة).

— كشف تعميق الحوار مع المبحوثات في جانب التعرف على معارفهن عن أساليب تنظيم الولادات خاصة وأن فهمهن لمقاصد ذلك قد اقتصر على "استخدام حبوب منع الحمل"، تركيز جميعهن على "الكاشيات": حبوب منع الحمل، و غالبيةهن: على الكاشيات (الحبوب)، ليرة (الحقنة)، ستريلي (الحاجز المهبلية stérilet)، والأنبوب (الواقي الذكري)، و قد كانت لهذه البيانات دلالة بالغة

الأهمية في تعاملهن مع هذه الوسائل، حيث كشفت الحوارات المتعمقة معهن أنهن يستخدمن الحبوب لأنها أكثر أماناً، في حين أن " لبرة تخدع و حرام في الدين": الحقنة غير آمنة و محرمة دينياً، "ستريلي مشي مليح يضر المرا": الحاجر المهلي مضر بصحة المرأة)، و"الأنبوب ماكانش الراجل لبيغي يديره ثقافتنا هاكا دايرة ما يبغيش يديره": الواقى الذكري، لا يوجد رجل يقبل استخدامه، لأنه واقع ثقافتنا يملئ ذلك)، على حد تعبير المبحوثات، و الانطباع الذي نخرج به من الحوار في هذا الجانب هو أننا أمام تصورات ومعتقدات تملئها ثقافة المجتمع.

أظهر البحث وجود اعتقاد راسخ لدى المبحوثات في كون هناك: أمراض تستدعي طلب الاستشارة الطبية من قبيل الحمى، وأخرى لا تستدعي ذلك من قبيل الآلام مثلاً، و نزلات البرد، و قد كان مثل هذا الاعتقاد هو من أحد الأسباب المهمة في التأخر في العلاج لدى المرأة الريفية، هذا ما تأكد لنا من خلال استجابات المبحوثات " نروح للطبيب مين نولي قراف": (أقدم إلى الطبيب عندما أكون في حالة خطيرة)، و هناك أمراض تستدعي العلاج الرسمي، و أخرى العلاج غير الرسمي، ما يعكس "أهمية الثقافة في تحديد أنماط الأمراض و تفسيرها، وعلاجها وطبيعة التفاعل مع الخدمات الصحية الرسمية"¹⁰. وقد صنفت جميع المبحوثات رعاية الأم الحامل ضمن الأمراض التي تستدعي الاستشارة، حماية للطفل، و هو الأمر الذي يتناقض فعلياً مع الغاية التي تستهدفها برامج رعاية الأمومة والطفولة، و تجد هذه النتيجة تفسيرها في واقع وضع المرأة في المعتقد الشعبي الذي "يمثل بين خصوبة المرأة و خصوبة الأرض و النبات، فالشجرة التي ما تضلش قطعها أحسن، والزوجة التي لا تنسل للزوج أن يطلقها. لذلك يقول للعروس: ربنا يجعلك شجرة تطرح وما تملأ المطرح"¹¹.

تميزت معارف جميع المبحوثات وبنسبة 100 % عموماً بعدم الوضوح، حيث غلبت عليها:

- ✓ السطحية: حيث تكررت على لسان المبحوثات استجابات من قبيل "زعمنا مليحة ليا أنا والغراي هذا ما نعرف": (يعني مفيدة لي وللطفل، هذا ما أعرف).
- ✓ الجزئية: حيث قادت الحوارات المتعمقة بالنسبة لغالبيتهم، وبسؤالنا لهن "كيف؟"، إلى "مليحة عندها فايده هذا فقط": (مفيدة، لديها فائدة فقط).

✓ التشفه: لتضمئها معئقداء؁ حبث تئدداء اسئجاباء ءالبفة المبحوءاء فى " بقولك ملفةاء ءعاون المرا فى الزفءاء تزفءها فى الءهء؁ و ما ءبفهاش الزفءاء صعبفة" (بقال أها مففءة؁ لأها ءساعد المرأة أئناء الولاءة؁ ءعطفها الءهء؁ و لا ءعانف من عسر الولاءة)؁ "فكسان ءاع الءرفان باش ما بفءرلهاش المرء بزاف" (ءطعم الطفل لئءب كئراء الامراء)؁ "...؁ وذلء لأن مصدرها الائصال الشءصى باءءبار أن المعافف وققا لئصوراء النظرفة ءفاءلفة الرمزفة هف ءئاء ءفاءل الاءءماعف فى المءمع؁ إلا أن هذا الائصال الشءصى لم فبءء فى نقل مضمون الرسالة نقلا صءفحا بسبب ما فئضمفه من وسائط ائصالفة الئف ءئقل عبرها المعلومة والئف ءعءبر من معوقاء الائصال؁ ما ءعلها ءءرض لكئفر من ءءرف؁ مما فءفع القول أن الائصال الشءصى فئرء المءال مففءحا أمام ءءرف.

—أءء معارف المبحوءاء عموما شكل أفكار اءءماعفة ءمئلاء فى:

✓ قفم: ءراوئ ما بفن "ملفةاء" "ماشف ملفةاء"؁ "ففها فافءة": (لءفها فاءءة)؁ " ما ففهاش": (لفس لءفها فاءءة).

✓ ومعئقداء من قبفل "ملفةاء للءرفان باش ما ففبفهاش المرء بزاف"؁ "ملفةاء للزفءاء باش ما ءبفهاش صعبفة"؁ "ءعطف للمرء الءهء" ...؁ سببها ءءرض للاءئصاء الوسفءة ما فؤءف إلى ءففر المعلوماء؁ ونسءطفع أن نقول فى هذا المقام؁ وباءءصار أن هذه الءراءة قء كشفء عن أهمفة الءماعاء ءفر الرسمفة الممئلاء فى: العائلاء؁ الأقارب؁ الأصءقاء والءفران باءءبارها عاملا أساسفا فى نقل المعلوماء الصءفة وءباءلها بفن النساء الرففاء؁ والرفففن عموما.

و عموما ءءء كل هذه ءئائء بما ففها فاعلفة الائصاءاء الشءصففة و الءمعة؁ ءفسفرها ضمن المقولاء الأساسية للئفاعلفة الرمزفة فى أن "المءمع هو عبارة عن ءءم معفن من ءفاءلاء الئف ءءرف بفن أعضائها؁ و هو فئكون من ءماعاء فربءب الأفراء من ءلالها ببعضهم البعض بالإضافة إلى العلاقاء الئف ءربء الءماعاء ذاءا"¹².

—نسبة كبفره من المبحوءاء فرءفن فى الءصول على معلومااء ءول الصءة الإنءابفة: ما فئعلق بصءة المرأة والطفل؁ فرءفن أن ءولف المؤسساء الصءفة العمومفة أهمفة لذلء؁ حبث أقرن عن ءفاب ءانب الإعلام فى نشاطها؁ و هو ما عفرن عنه بالاسئجاباء اللفظفة الآفة: ما فعطوئاش

معلومات (لا فعلمونا) ، ما ففغوش مفن فسقسفهم (لا فرفبون أن نسألهم)، جاتف فها وما فرفوش (أعفف أنف بدورهم لا ففلمون)، ما ففوسوش ففهمو فدفرك لبرة و فقوللك ساف" (لا ففحثون فف الأمر، المهم ففطوك الففنة وكفى)، و ففرها من الاستجاباف المماثلة، ففر أن الملاحظة فف هذا الممال قد أفصحت عدم دقة الاستجاباف اللفظفة للمبحوفا، ففث لاحظنا عدم اهتمام الغالبفة العظمف للنساء المتردداف على الوحدة بما ففهن المبحوفا بالاستعلام، و اكففائفن بالخدمة العلاجفة و فقط، وربما فجد هذه المعلومة البحوثفة ففسفرها فف ضوء الفقائق السابق الإشارة إلفها، وبالذاف فف: "ما ففغوش مفن فسقسفهم".

— إلى جانب كل ذلك، وفرت لنا الحواراف المباشرة مع المبحوفا، معلومات عن وجود نوع من الاستعارة الفقفافة فف فطا فف الذي احتوى على العفد من المصطلحات الطبفة من قبفل: *ulcère diabète, l'infection*، وهذه الاستعارة حسب نتائج البحث فعود إلى الأسباب الفالفة:

الففاعل الاجفماعف والاحتكاك بالمؤسساء الصمفة، وفف هذا السفاف فففر جورج مفد *G. Med* الرمز هو اجفماعف ففكسب من خلال الففاعل مع الآخرفن. الففربة من خلال معايشة المبحوفا أو أحد أفراد عائلافن للمرض.

📌 مصادر معارف المبحوفا عن الصمفة الانجابفة: أظهر البحث فف هذا الجانب الفالفة:

— كان الففصال الشفصف و الجمعف أكثر الففصالات فعالفة فف عملفة نقل المضامفن الإعلامفة الصمفة، ففث لعب الأطباء العاملون بالوحدات الفاصة، العائلة، الأقارب، الففران، و الأصدفاء والمفط الاجفماعف دورا أساسفا فف إحاطة المبحوفا الرفففاف علما بالمواضع المفعلة بالصمفة الانجابفة (ما ففعلق بالفلفف و المفاعة الطبفة، و ففظم الأسرة على حد فهم المبحوفا، و فجد هذه المعطفاف البحوثفة ما ففسرها فف إطار فظرفة الجماعة المرجفة الفف فرى أصفاها (هفدر *Haider* ، مفرتون *Merton* ونفوكمب *Newcomb*) أن الجماعة المرجفة فساهم فف صفاغة ففم الفرد وففد فف سلوكه، وأن الفرد فففل إلى ففبف الجماعة كمصدر للفوففة"¹³، ونظرفة العلاقات الاجفماعفة ل *Malvine DEFLEUR* مالففن دففلر¹⁴ الفف ففطلق من اففراض مفافه أن الرسائل

الإعلامىة تمر عبر شبكة العلاقات الاجتماعىة لتصل إلى ذهن الفرد وعواطفه، وبنىته النفسىة، فاستجابة الناس للرسائل الإعلامىة مرتبطة بنمط علاقاتهم الاجتماعىة.

إلا أن هذه المعلومات والمعارف المكتسبة، قد أخذت فى كثر من الأحيان شكل التوجىه الصمى المعنى توجىه النساء إيجابىا عن طرىق النصىحة بالقىام بالتلقىحات أو الفحص الطبى، أكثر منه التثقىف الصمى.

— يعتبر التلفزيون من أكثر وسائل الاتصال الجماهرىة أهمىة لدى المبحوئات، إلا أنه يظهر ثانوىاً مقارنة مع الاتصال المباشر، إذ لا يعتبر أساسىا إلا لدى 35 % من إجمالى العىنة ما يقابل (7 مبحوئات) بسبب إنشغالات المبحوئات بالمهام المنزلىة، مقابل 100 % بالنسبة للطىب، و 80 % بالنسبة للعائلة ما يقابل (16 مفردة)، و 70 % بالنسبة للمحىط الاجتماعى، ما يقابل (14 مبحوئة)، وهى البىانات التى يمكن تفسىرها فى ضوء أفكار كل من لازارسفىلدLazarsfeld وكاتز Katz وبرىلسونBerles son عن فعالية الاتصال الشمصى فى التأثير الاجتماعى و التى تقوم على أنه من السهل الانصراف عن مضموى الإعلام الجماهرىة خاصة التى تتفق مع حاجات وأراء الأفراد ومىولهم، ولكن من الصعب تجاهل الحدىث مع صدىق أو قرىب.

— ممدودىة دور كل من الرادىو بنسبة وصلت إلى 15 % من إجمالى العىنة (3 مبحوئات)، الجرىدة بنسبة 5 % (مبحوئة واحدة)، فى مالم التوعىة الصمىة، وهو الأمر الذى يفسر بالمستوى التعلىمى الممدود للمبحوئات.

— بروز وحدة الأمومة و الطفولة بدور ثانوى جدا فى مالم التوعىة، حىث لم تتجاوز الإشارة إلیها كمصدر إعلامى إلا من قبل 15 % من إجمالى المبحوئات ما يقابل (3 مبحوئات) لأسباب مرجعها عدم القدرة على الاستجابة الصمىة خاصة من حىث الإعلام: حىث تكررت على لسان غالبىة المبحوئات استجابات من قىبل " ما بقولولناش " (لا یعلمونا)، " ما بىغوش مىن نسقسوهم " (لا یحبون أن نستعلم و نسألهم)، و هو الأمر الذى نأكد لنا من خلال الملاحظة، حىث لا تبادر ممارسات الصمىة بالوحدة بالإعلام.

— غىاب أى إشارة للملصقات والمناشىر الصمىة لأسباب مرجعها حسب نتائج المقابلات:

المستوى التعليمي المحدود للمبحوثات، (هن من المستوى التعليمي الابتدائي والمتوسط).
الامبالاة (هذا ما كشفت عنه الملاحظة).

الاعتقاد بأنها لا تأتي بالمعلومة الجديدة بالنسبة لبعضهن.

— غياب أي إشارة للدفتـر الصحي للاعتقاد الراسخ لديهن بأنه لا يصلح إلا لتدوين عمليات التطعيم، وكونه وسيلة للتسجيل الطفل للدخول المدرسي، هذا ما أظهرته نتائج الحوارات المتعمقة، إلى جانب محدودية المستوى التعليمي.

📌 السلوك الصحي للمبحوثات: خلاص البحث في هذا الجانب إلى:

— جميع المبحوثات يقمن بفحوصات دورية عند أطباء خاصين، واتفقت وجهات نظرهم حول أسباب ذلك في الآتي:

✓ المعرفة: " الطبيب هو يعرف خير ": (الطبيب يعرف جيدا).

✓ توفر العيادات الخاصة على الفحوصات المكملـة لاسيما ما يتعلق بالإيكوغرافي (التصوير المسحي).

✓ المعاملة الجيدة والإعلام: " البريفي تنجمي تسقسيه بحريتـك في سونتر ماعندكش حرية ": (لدى الخاص تستطيعين الاستعلام بكل حرية، في المركز ليس لديك حرية)، " مين نسقسي نخاف، مين تسقسهم مايواجبوكش ": (أخاف عندما أستعلم، عندما تسألهم (المقصود هو الممارسين الصحة العمومية) لا يجيبونك).

✓ عدم الانتظار: " عند البريفي تفوتي بلخف ": (عند الطبيب الخاص يتم فحصك بسرعة).

— تتحدد مصداقية المعلومة لدى المبحوثات بـ:

✓ مدى إشباعها لحاجتهن، ودوافعهن التي يجب أن توضع موضع الاعتبار.

✓ مصداقية المصدر: التي تتحدد بمستواه المعرفي، وخاصة بالثقة من جانبهن فيه، وهو الأمر الذي يجعل من الأطباء، وأفراد العائلة هم مصادر عالية التصديق، ما يجعلهم يبرزون كقادة رأي (قيادة مجتمعية) في عملية الاتصال الإقناعي.

✓ تكرار المعلومة من طرف أكثر من مصدر.

أظهر البحث أن المبحوثات يمارسن نوع من الانتقائية اتجاه المعلومات الصحية، وذلك وفقاً لحاجتهن ودوافعهن، وتجد هذه النتيجة تفسيرها في نظرية التأثير الانتقائي التي تقوم على تصور أن الأفراد يختارون ما يتعرضون إليه وفقاً لدوافعهن.

كل المبحوثات يتعاملن مع المعلومة الصحية على أساس المنفعة، بمعنى مدى إيجابيتها في إشباع حاجتهن في العلاج لا في كونها معلومة في حد ذاتها.

تنظر غالبية المبحوثات: 95% أن مضامين وسائل الإعلام لاسيما التلفزيون هي مفيدة إلا أن الأمر يتوقف عند حدود الاقتناع دون الممارسة الفعلية لها، التي تبقى مرتبطة بسلوك المرض، ويظهر من هذا تخلف الفعل عن الفكرة، فرغم إقرار المبحوثات بها، وتأييدهن لها إلا أنه لا يضعنها موضع التنفيذ، وذلك لعوامل مؤثرة تحول دون تحول الفكرة إلى فعل نجملها في:

النظام الاجتماعي والثقافي الذي يحيط بالمبحوثات المستقبل للمعلومات، والذي يعوق انتشار الخدمات الوقائية وحتى العلاجية في أحيان كثيرة، حيث كشف الحوار مع المبحوثات أنهن يقتنعن بأهمية إجراءات الوقاية مثل الفحوصات الدورية، التحاليل، ولكن: "مانطيكش نقول مول الدرا ياغيا ندير الراديو تاع الكانسار، وأنا ما عندي والو، شايقول؟ ما يغيث،": (لا أستطيع أن أقول لزوجي أريد القيام بالتصوير الإشعاعي من أجل السرطان، وأنا لا أعاني من أي شيء، ماذا سيقول؟ سيرفض)، "حنا كوشى تكوني مريضة بزاف ما تروحيش لطبيب": (نحن لو لم تكوني مريضة جدا لا تذهبن إلى الطبيب)، "ماكانش في ثقافتنا تديري الراديو ومني مشي مريضة": (لا يوجد في ثقافتنا أنك تقومين بالتصوير الإشعاعي، وأنت سليمة)، "علاه انتي تديري التعيار والراديو وانتي معندك والو": هل تقومين بالتحاليل والتصوير الإشعاعي وأنت في صحة جيدة)، على حد تعبير بعض المبحوثات.

الدوافع والحاجات.

يتمتع المحيط الاجتماعي بالنسبة للمبحوثات بمصداقية معتدلة، وأن درجة مصداقيته يحددها عاملي:

✓ خبرة الفرد الناقل للمعلومة.

✓ تعدد المصادر الناقلة للمعلومة (إذ كشف البحث في هذا السياق أن المبحوثات لا يقتنعن بالمعلومة إلا بعد تكرارها عبر أكثر من شخص).

— يظهر كل من العائلة والمحيط كمصدر صحي حديث وتقليدي والمحيط تقليدي أكثر.

— أظهر البحث نوعان من المؤثرات المعيقة للإعلام الرسمي الذي تنقله المؤسسات الصحية هي:

✓ مؤثرات وظيفية ظرفية تؤثر على السلوك لا الاتجاه ممثلة في الإمكانيات المادية (جميعهن ذوات مستوى اجتماعي بسيط)، وأشغال البيت، والمستوى التعليمي المحدود.

✓ مؤثرات بنائية تمارس تأثيرات معرفية وسلوكية تتحدد في المحيط الاجتماعي أكثر، كمصدر إعلامي مضاد، وقد تراوحت تأثيراته ما بين عدم الالتزام بما هو صحي رسمي، وعدم الالتزام مع التوجيه نحو الممارسات الشعبية، وتفسر هذه النتيجة البحثية بالذات في إطار نظرية التنافر المعرفي لليون فيستنجر Festinger الذي يرى أنه في حالة التعارض بين عناصر المعرفة لدى الفرد، قد يلجأ هذا الأخير إلى إزالته بالاحتفاظ بالعنصر المعرفي القديم واستبعاد الجديد، و هو السلوك الذي تبنته المبحوثات عينة البحث.

— أظهر البحث أن جميع المبحوثات هن أكثر تأثراً بالإعلام الصحي التقليدي، و ذلك ل:

✓ تأثير الواقع الثقافي (مجتمع ريفي).

✓ الانجذاب إلى القيادة التقليدية الممثلة خاصة في العائلة لارتباطهن بها، وانتمائهن إليها (جماعة مرجعية).

✓ تأثير الخصائص الأولية لعينة البحث (لا سيما فيما يتعلق بالمستوى التعليمي والمستوى المعيشي المحدودين).

خاتمة:

في محاولة منا لتحليل الوعي الصحي لدى المرأة الريفية لتحديد مدى فاعلية الأداء الإعلامي للمؤسسات الصحية، والآثار التي تحدثها على المرضى، أظهرت نتائج هذه الدراسة أن:

— معلومات المرأة الريفية في مجال الصحة الإنجابية سطحية، يحيطها التشويش لتعدد الوسائط الناقلة لها (الأفراد والجماعات غير الرسمية)، ما يسبب تغير في المعلومات.

—رغم ذلك فإن التعرض للاتصالات الوسيطة (الشخصية والجمعية) قد أدى بالمبحوثات إلى الوعى بالموضوع.

—فاعلية الاتصالات الشخصية والجمعية في إيصال الرسائل المتعلقة بموضوع الصحة الإنجابية.
—بروز الاتصال الجماهيري بدور ثانوي جدا في ذلك، لأسباب مرجعها خصائص المبحوثات من حيث مستواهن التعليمي، متضمنة أيضا الموقف (الاهتمام بشؤون البيت).
—في مقابل ذلك لم تنجح وحدة الأمومة والطفولة للبلدية في نقل مضامين هذا الموضوع، بسبب قصور على مستوى استجابتها الصحية: من حيث الخدمات الطبية، والإعلام خاصة بحسب نتائج البحث.

—ظهور الأطباء، العائلة والمحيط كمصادر أساسية في نقل المضمون الإعلامي الصحي.
—تمتع هؤلاء بمصدقية عالية ما يجعل منهم قيادة مجتمعية: الأطباء: قادة رأي منفتحين (قيادة منفتحة)، أفراد العائلة: قادة رأي تقليديون (قيادة تقليدية).

—من حيث السلوك الاتصالي، برزت المبحوثات بشخصية تحويلية، حيث أبدين ميلا نحو التغيير وتقبل الأفكار والأساليب الصحية الحديثة، بالإضافة إلى أنهم يحصلون على المعلومات الصحية من مصادر تقليدية (العائلة وأفراد من المحيط) ومصادر رسمية (الأطباء).

—تمارس المبحوثات نوعا من الانتقائية للمعلومات الصحية على أساس: دوافعهن، مدى إشباعها لحاجتهن، ومن أجل العلاج وليس الوقاية، ما يعني أن العلاقة بين المعرفة والاقتناع والتنفيذ هي علاقة تضم الخصائص الشخصية لمستقبل المعلومة بما في ذلك السياق الاجتماعي الموجود فيه، "ويمكن صياغة ذلك في المعادلة التالية: سلوك إنساني: (سماد فردية + موقف اجتماعي)¹⁵.

—ظهور المحيط الاجتماعي كمؤثر معيق للإعلام الصحي باعتباره مرسل ثان مضاد.

يخلص البحث من المؤشرات السابقة إلى تأكيد:

— أهمية تصورات نظرية التفاعلية الرمزية التي تقوم على فكرة أن المجتمع يصنع معاني الأفراد ويشكلها، والتي على ضوءها نقول أن الوعي الصحي لدى عينة البحث، والأفراد عموما هو بناء مجتمع انطلاقا من التفاعل الاجتماعي، و لا يمكن فهمه إطلاقا من جانب الطب الرسمي فقط.

وكذا أهمية تصورات نظفة الاتصال عبر مرحلتفن استنادا إلى ما توصلنا إلفه فف هذا الجانب، فف ف أثبتت النتائج فعالة الاتصالات المباشرة، الفف برز ففها كل من الأطباء والعائلة كقادة رأي. رغم ذلك، فففر كل هذه النتائج والمناقشات الفف وفرفها البحث الفف فف تساؤلات عففدة حول إمكانية معالفة الجوانب السلفبة الفف أظهرها البحث، فف سبفل فففسن الأداء الإعلامف والإقناعف للمؤسسات الصمفة عموما، فف فمكن التأكفد على النقاط الففالة: فف ففمفز المؤسسات الصمفة بمفطلبات الفمفة الطبفة والوقائفة لاستقطاب المرفف. فف استثمار نشاط العلاقات العامة فف مكال العلاقة بفن الممارسفن الصمففن والمرفف، وفف الإعلام. فف رفع كفاءة استخدام أسالفف الاتصال الصمف: الاتصال الشمصف، والملمصقات.

الهوامش:

¹ جورج فرفدمان، "غافة سوسفولوجفا العمل"، جورج فرفدمان، بفار فاففل، رسالة فف سوسفولوجفا العمل، فر فولاند عمانوفلف، دفوان المطبوعات الجامعفة، الفزائر، ط1، 1985، ص34.

2 QUILLET, Dictionnaire usuel, 7e Ed, Paris, 1981, p691.

³ ابن فلدون عبد الرحمف، مقدمة ابن فلدون، المكفة العصفرة، بفروت، ب ط، 2005، ص355. ابن فلدون عبد الرحمف، مقدمة ابن فلدون، المكفة العصفرة، بفروت، ب ط، 2005، ص355.

عاطف غفث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعفة، الإسكندرفة، ب ط، 2006، ص79. 4

5 SCOTTINGHAM Jau cours de la santé : les femme et l'action, in JOGLARDON M, Femme et développement, outil pour l'organisation et l'action, éd Lausanne et L'harmatan, Paris, p184.

⁶ لارامف ألان، فالف برارد، البحث فف الاتصال، عناصر منهجفة، فر سفارف مفلود، كعباشف رافف و آفرون، مفر علم اجتماع الاتصال للبحث و الفرفة، الفزائر، 2009، ب ط، ص ص (221-222).

7 عاطف غفث، المرفف السابق، ص150.

لارامف ألان، فالف برارد، المرفف السابق، ص8.276

9 فالد فامد، المدفل إلى علم الاجتماع، فسور للنشر و الفوزفع، الفمدفة، الفزائر، ط1، 2008، ص123.

10 على مكافف، الأنفربولوجفا الطبفة: دراسات نظرفة و مفر ميدانفة، دار المعرفة الجامعفة، الإسكندرفة، ب ط، 1996، ص52.

11 سامفة فسن الساعافف، المرأة و المجتمع المعاصر، دار فباء الفدففة، القاهرة، ب ط، 2007، ص187.

12 فالد فامد، المدفل إلى علم الاجتماع، فسور للنشر و الفوزفع، الفمدفة، الفزائر، ط1، 2008، ص125.

13 فممود عوذة، أسالفف الاتصال و الففر الاجتماعي، دار النهضة العربفة، بفروت، ب ط، 1988، ص72.

ملففن دففلر، عن عامر مصباح، الإقناع الاجتماعي: فلفففة النظرفة وآلفافه العملفة، دفوان المطبوعات الجامعفة، الفزائر، ب ط، 14 2005، ص75.

¹⁵ على مكافف، المرفف السابق، ص120.

ظاهرة العنف والاسهامات النظرية الأنثروبولوجية المفسرة لها

الدكتورة نعيمة رحمانبي، جامعة تلمسان

الدكتورة نصيرة بكوش، جامعة تلمسان

الملخص:

إن الخوض في غمار موضوع العنف والصراع يكاد يكون متشعبا ومعقدا، فهو يمس جميع العلوم بما فيها علم الأنثروبولوجيا، علوم النفس والاجتماع وغيرها. فالعنف ذو أصل اجتماعي وخاصة من خصائص الحياة الاجتماعية. وفي هذا السياق سوف نركز على مفهوم العنف، وبعض المنظورات الأنثروبولوجية التي تناولت تفسير هذه الظاهرة، ونبين كيف يتم تحليل العنف تحليلًا أنثروبولوجيًا، وكيف يتم تحديد الأسباب الكامنة وراء الممارسات العنيفة داخل المجتمع.

المفاهيم المفتاحية: العنف - أنثروبولوجيا العنف - النظريات

Summary:

Discussing the subject of violence and struggles is a quite complicated. It touches all sciences including anthropologic science; psychological and social sciences, and so on. Violence has a social origin and a characteristic from the social life. In this context, we will focus on the concept of violence, and some anthropologic views which take the interpretation of this phenomenon. We will show how analysis of the violence is anthropologically, and how to localize the violent practices inside the society?

Keys words: The violence - anthropological the violence - the theories

(1) مفهوم العنف والعدوانية والصراع

أ) العنف: العنف ظاهرة متشعبة لا يمكننا حصره في تعريف واحد، فحقوله الدلالية شاسعة جدا.

ورد في معجم ابن منظور أن عَنَفَ، العُنف، هو الخَرْقُ بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق. وَعَنَفَ به وعليه، يَعْنُ نَفًا وَعَنَافَةً وَأَعْنَفَهُ وَعَنْفَهُ تَعْنِيفًا، وهو عَنِيفٌ إذا لم يكن رَفِيقًا في أمره. وَأَعْتَنَفَ الأمرُ: أخذه بعُنْفٍ. والعُنْفُ، بِالضَّمِّ، الشِدَّةُ وَالْمَشَقَّةُ. وكلّ ما في الرفق من الخير، ففي العُنف من الشرّ مثله" ¹ هذا من الناحية اللغوية، أما اصطلاحا فهناك تعريفات، منها أن العنف هو استخدام الضغط أو القوة استخداما غير مشروع ²، ويشير معجم المورد إلى أن العنف كلمة لها عدة معاني ودلالات، فهي تعني أذى، اغتصاب، شدة، قسوة. ³ فهو سلوك عدواني يقوم على القوة والقهر يوجه لفرد أو مجموعة أفراد.

أما المعجم النقدي لعلم الاجتماع فيعتبر العنف سلوكا لا عقلانيا، يعود أصله إلى مركب من الميول والمصالح المتخاصمة التي تسبب إلى حد ما انحلال المجموعة نفسها، وأنه في كثير من الحالات سلوك قمعي، ومتلازم مع عملية اختلال النظام. ⁴ ويعرف العنف أشكالا ومظاهر متنوعة ومختلفة فمن العنف الجسدي كالضرب مثلا إلى النوع اللفظي كالسب والشتم، ثم النوع الرمزي الذي تحدث عنه بيير بورديو.

إن كلمة عنف تستعمل في مجالات مختلفة، وعلى عدة مستويات متباينة، وبحسب استراتيجيات تعريفية متنوعة. فنحن أمام عدة تعريفات تختلف بحسب اختلاف استخداماتها ومقارباتها للعنف، وكل مقارنة تعكس إدراكا معينا وأسلوبا معينا في التشخيص والدراسة.

(ب) **العدوانية:** هي عبارة عن مواقف واستعدادات تؤثر في تكوين الرأي، وتشكيل أنماط السلوك الإنساني، وهي دفيئة في أعماق النفس البشرية، لا تبرز إلا وهي متلبسة في شكل رأي أو سلوك يأخذ شكلا عنيفا ⁵.

هناك عدوانية على شكل لفظي، والتي تأخذ أشكالا متعددة من أجل الإقناع كالخداع، والتضليل، والاحتيال في التعامل مع الآخر. وهذه الصفات مستعملة كثيرا في الأوساط التي تعاني من مشاكل اجتماعية.

بالنسبة لفرويد Freud تمثل العدوانية غريزتين

1- غريزة الحياة التي تمثلها الدوافع الجنسية.

2- غريزة الموت التي تُمثلها الدوافع العدوانية.

فحسب فرويد Freud كل مظاهر الحياة تكون إما توافقاً بين هذه الغرائز، أو تعارضاً بينها⁶. إنه صراع بين القوى المتضاربة للنفس البشرية، بين دوافع الحياة ودوافع الموت.

(ج) الصراع: هو أحد أشكال السلوك التنافسي بين الأفراد أو الجماعات، ويحدث عادة عندما يتنافس فردان أو أكثر حول أهداف غير متوافقة، سواء كانت تلك الأهداف حقيقية، أو متصورة، أو حول الموارد المحدودة.⁷

يحتوي الصراع على ثلاثة مستويات؛ يتمثل المستوى الأول بالصراعات الفردية أين يكون فيها أطراف الصراع فيها أفراداً، فتكون دائرة الصراع محدودة نوعاً ما. أما المستوى الثاني فيتعلق بالصراع بين الجماعات وتكون دائرته أكثر اتساعاً وتنوعاً. في حين يخص المستوى الثالث الصراع بين الدول ويكون الصراع فيه أكثر تعقيداً واتساعاً.⁸

(2) أنثروبولوجيا العنف والصراع

تدرس أنثروبولوجيا العنف والصراع العوامل المساهمة في حدوثهما وتداخلهما مع طيف واسع من الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الحاضنة لهما. وتتم الكتابة عن العنف والصراع وفق منهج ومقاربات ونظريات أنثروبولوجية، من خلال التحليل الدقيق والموضوعي، ومعرفة شاملة بكافة الظروف المنتجة لهما، لضمان فهمهما فهماً صحيحاً، ومحاولة التوصل الى حلول ناجحة تجنب شعوب العالم ويلاتهما. وأن الغاية من دراسة بعض حوادث العنف والصراع أمثال الحروب الأهلية هي من أجل وضع نظرية شاملة للعنف تكون قابلة للتطبيق ومناسبة، تساعد في الحد من انتشار ظاهرتي العنف والصراع.

أما العنف من الناحية الأنثروبولوجية فهو كل خطاب أو فعل مؤذ أو مدمر يقوم به فرد أو جماعة ضد أفراد أو جماعة أخرى. وتشتمل أنماط العنف على أسطورة البطل، وثنائية القاتل/الضحية،

والفردية التنافسية، والعدوان الذكوري، والحتمية التكنولوجية (خاصة التكنولوجيا المدمرة)، وإخضاع النساء، وأسطورة نخبوية الجنس البشري..⁹

وتعتمد الأنثروبولوجيا في كثير من التعريفات على الثنائيات عنف/ رفق لتنتهي إلى التقابلات عنف- حرب/ رفق- سلم؛ شدة/ لين؛ قوة/ ضعف؛ إنكار/ إقرار واعتراف، الخ. هذه الثنائيات والتقابلات بسيطة، لكن تحليلها تحليلًا أنثروبولوجيًا منظومات علائقية معقدة ومتشابكة.

(3) تفسير تاريخ العنف البشري

عرف العنف في أقدم المجتمعات البشرية وكانت بدايته مع قصة هابيل وقايل.¹⁰ قال الله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْمِي وَإِغْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}.¹¹

ثم شمل كل المجتمعات البشرية. ومن المفكرين الذين حاولوا تفسير تاريخ العنف البشري، المفكر هوبز الذي يرجع جذور العنف إلى ثلاثية التنافس، الحذر، الكبرياء، فالتنافس وسيلة لتحقيق المنفعة، أما الحذر فهو وسيلة للحصول على الأمن، في حين يستخدم الكبرياء كوسيلة لحماية السمعة. أما المفكر ماركس فيرى أنه منذ العصور التاريخية الأولى كان المجتمع في كل مكان مقسماً إلى طبقات متميزة ... ففي روما القديمة كان هناك سادة فرسان و عبيد، و في العصور الوسطى كان هناك سادة وشرفاء، وسادة الحرف، والحرفيون العاديون، وبدخل كل طبقة من هذه الطبقات سلم تراتبي خاص، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى وجود صراع بين هذه الطبقات، فواحدة تمتلك وسائل الإنتاج والأرض والأخرى لا تمتلكها، هذا الوضع يجعل صراع الطبقات الاجتماعية تتخذ

أشكالا فردية لا واعية عند الأفراد أنفسهم، كما قد تتخذ طابع صراع نقابي أو سياسي أو إيديولوجي واضح المعالم.

ومن المفكرين أيضا الذين حاولوا تفسير تاريخ العنف البشري رينيه جيرار الذي أرجع أساس العنف إلى تنافس الرغبات، ففي نظره الرغبات الإنسانية تخضع لقانون المحاكاة، أي الرغبة فيما يرغب به الآخرون، فينتج عن ذلك صراع انساني في شكل عنف ينتشر في الجماعة من فرد إلى آخر وينتهي بالقتل. ثم نجد مثلا المفكر العربي أركون الذي يربط العنف بالتقديس، والتقديس بالعنف، ففي نظره كلاهما مرتبطان بالحقيقة أو ما يعتقد أنه الحقيقة. والحقيقة مقدسة وتستحق بالنسبة لأصحابها، أن يسفك من أجلها الدم.

(4) الإسهامات النظرية في حقل الدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بالعنف

يرتبط العنف في الدراسات الأنثروبولوجية ببدايات العلم نفسه، فقد تميزت الأنثروبولوجيا التقليدية بعنف التسمية والتصنيف والحكم المسبق على الآخر. فقد كانت كتابات الأنثروبولوجين تتحدث دائما عن غرابة الآخر، بحكم أنهم يمتلكون جميع شروط القوة والتحكم بما فيها قوة إنتاج الخطاب حول الآخر من موقع القوة. ولقد أصبح العنف المذكور في الكتب الأنثروبولوجية عالقا في الأذهان إلى يومنا هذا، فلا زال هنالك من الباحثين من يستعمل عنف التسمية والتصنيف والحكم في الحديث عن المجتمعات القديمة. إن الدراسات الأنثروبولوجية التي كانت تخدم الاستعمار كانت تصنف الآخر على أنه يمثل العنف (مثلا شعوب تآكل لحم البشر، أو شعوب بدون دولة ولا قوانين) من أجل خدمة الاستراتيجية الاستعمارية المحددة للعلاقة، وقد ظهر جراء ذلك مجتمعات بدائية وأخرى متحضرة، باستثناء بعض الكتابات النادرة جدا.

بعد هذه المرحلة تم الربط بين العنف والعقليات المتخلفة والمما قبل منطقية، بحيث اختفى العنف كسمة مميزة لتلك المجتمعات، وربط بفتنة فكرية لاعقلانية؛ وفسر العنف الذي كانت تعرفه تلك المجتمعات بعقليتها.

(أ) العنف من المنظور الفلسفي:

لقد طرحت قضية العنف فلسفيا في عدة أشكال. فهناك من اعتبر "الإنسان شريرا بطبيعته، حامل للكثير من النقائص، جبان، فاسد الطبع، أُلاني. تدفعه مصالحه الذاتية. له نوازع عدوانية، وتتحكم فيه غرائز بمائية غير مهذبة. كما أنه جشع لا يُدعن ولا يُخضع إلا إذا خاف، ولا يُضحّي بمصلحته إلا مرغما، ولا يُناشد السلم طلبا لذات السلم، وإنما خوفا من نتائج الحرب"¹². هذا في نظر "توماس هوبر"، أما جان جاك روسو فهو يرى نقيض هذه النظرية إذ يعتبر "الإنسان خبير بطبعه، يحتكم إلى قانون الفطرة، وقانون الطبيعة الخيرة والعدالة. لكن الحضارة والمدنية التي ظهرت مع ظهور الملكية ألبست الإنسان ثوب الشر، فتحوّل من الفطرة إلى المدنية، ومعها تحوّل من الخير إلى الشر، ومعها تحوّل من السلم والرفق إلى العنف والخرق"¹³.

ومن بين النظريات التي تناولت العنف فلسفيا نظرية هوبر الذي يتحدث فيها عن تطاحن الأُلّا والآخر، عن التطاحن الذي يصبح مكونا من مكونات الطبيعة، ويكون الخروج من حالة الطبيعة إلى حالة المدنية بالقضاء على العنف أو بالحد منه. وفي هذا الإطار تمارس الدولة حسب منظوره عنفا أقوى من عنف الفاعلين، لأنه عنف متفق عليه من قبل الدولة التي تمثل التركيب الأعلى الذي يفرض حدودا للعنف باسم العقل.¹⁴

إن مفهوم العنف عند هوبر يرتبط بما يطلق عليه "حرب الجميع ضد الجميع"، وقد وضع أربع فرضيات لتفسير العنف. تقول الفرضية الأولى بأن سلوك الناس تحركه مجموعة من الرغبات تكون مشتركة بينهم جميعا. أما الفرضية الثانية، فتذهب إلى انه يمكن أن توصف هذه الرغبات، بأنها رغبات مستبدة ولا هوادة فيها، وهي إما أن تظهر كبدايل عن حاجات بيولوجية جامحة، أو أن عمليات إشباعها تعمل على تجديدها تلقائيا. في حين ترى الفرضية الثالثة ان مصادر إشباع هذه الرغبات، والحاجات، ترتبط عادة وفي الغالب بموارد محدودة، مما يجعل فرص إشباعها غير متاحة للجميع وبشكل مطلق.

وفي الأخير يرى عبر الفرضية الرابعة ان حالي الرغبة/الحاجة، وقلة الموارد/الندرة، تفرض تنافسا دائما بين الناس، بما يجعل القوة ضرورة" كبعد ثالث لحسم نتيجة التنافس، حيث ان هذه القوة، غير قابلة للاحتكار من طرف ما، وبما يكفي لفرض هيئته على الطرف الاخر بصورة دائمة،

فان عدم استقرار التنافس بين الناس، سيكون هو الحالة المرجحة، بما يعرض كل واحد منهم لمخاطر حرب الجميع ضد الجميع.¹⁵

اما نظرية هيجل حول العنف فتري انه يحق كل فرد التمتع بالحرية وتلبية حاجاته الأساسية من الغذاء والاطمئنان، الأمر الذي يؤدي إلى الاصطدام بين الافراد من أجل ذلك، وعندها يتم استخدام العنف للحصول على تلك الحاجيات.¹⁶

(ب) العنف من المنظور الاقتصادي والسياسي:

العنف ظاهرة مزدوجة، حيث نجد العنف الذي يمارسه المجتمع، والمتمثل في الإكراه، والضغط على أفراد المجتمع حتى يمثلوا للقيم والمعايير الاجتماعية السائدة والمسيطرة. وفي المقابل يمارس أفراد المجتمع عنفا من خلال رفضهم الانصياع لذلك الضغط الاجتماعي، مما يؤدي إلى خروج الأفراد عن القواعد، والإخلال بالمعايير، واختراق دائرة المحظورات.¹⁷

يربط علماء الاقتصاد، الاقتصاد بالعنف، ويرون بأنه مرتبط بظاهرة الندرة، والتنافس، والصراع من أجل تلبية الحاجات الضرورية للفرد والأسرة.

وتبرز نظرية كارل ماركس حول العنف من خلال الصراع الطبقي عبر تضارب مصالح طبقة بورجوازية مالكة لوسائل الإنتاج، وطبقة أخرى مهيمن عليها لا تملك سوى جهدها العضلي كما ذكرنا ذلك سابقا. وهو يرى أن هاتين الطبقتين كانتا في صراع دائم، فيجب أن تقضي إحدهما على الأخرى أو ينتفيان معا. وقد انصب اهتمام ماركس على العنف الثوري، وقد ربط بين كل من التغير والصراع والعنف مؤكداً الدور الإيجابي الذي يؤديه العنف في حركة التاريخ، فالصراع يشير إلى وجود خلل في البنى الاجتماعية، أما العنف فهو شرط أساسي لتجاوز هذا الخلل ولإحداث التغيير فهو الأداة التي تضع بواسطتها الحركة الاجتماعية مكانتها وتحطم أشكالاً سياسية جامدة وميتة. ويرى ماركس انه عندما يتم حسم هذا الصراع، بنزع الملكية من المالكين السابقين، فان العنف الذي أدمى البشرية منذ مرحلة فجر التاريخ سيختفي عندما تختفي أسبابه.¹⁸ أن العنف عند ماركس ليس من صلب الطبيعة مثلما يذهب إليه فرويد، بل هو سمة تفرضها الحالة الاجتماعية التي أفسدها الاستئثار بوسائل الإنتاج.

ويرى جورج سوريل في كتابه العنف، أن هناك فرق بين العنف والقوة فالقوة في نظره هي تلك الوسائل من إدارة، وجيش، وحرس، وقوات أمن، وقوانين تسهر على حفظ الأمن في إطار نظام سائد. فالبورجوازية تتمتع، بالقوة وتتحكم فيها. أما بالنسبة للطبقة العاملة والتي لا تتمتع بالقوة المادية فهي تلجأ لممارسة العنف للدفاع عن مصالحها والإطاحة بنظام التمايزات والفروقات لاستبدالها بنظام المساواة التامة.¹⁹

(ج) العنف من المنظور السيكلوجي:

يرى علماء النفس أن هناك تداخلا بين ما هو ذاتي (الطبيعة والغريزة الإنسانية)، وبين ما هو موضوعي (الأوضاع والظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية)، والتي تُشكّل محيطا خصبا لظهور العنف.²⁰

يعتبر فرويد العنف سلوكا إنسانيا يمثل رغبة تدميرية، حيث يؤكد على أن العنف والتدمير نزعة طبيعية في الإنسان تتعايش مع نزعة مناقضة لها يسميها نزعة الإيروس أو نزعة الحياة التي تدفع إلى الإبداع والخلق لدى الإنسان. والعدوانية في نظره أصيلة لدى الإنسان وغير محولة ثقافيا، فهي ليست ذلك العدوان الذي يصدر كرد فعل عندما لا تتحقق رغباتنا ونحس بالإحباط جراء ذلك، بل هي نزعة تلقائية، فكل كائن حي مجهز بشكل فطري بالعنف.²¹

(د) العنف من المنظور الاجتماعي الثقافي:

لقد فسر المفكر رينيه جيرار العنف في كتابه العنف والمقدس²² بوجوده وحضوره في جميع المجتمعات والثقافات، ففي رأيه بداخل الجماعة عنف معمم ودائم، يسمى العنف الداخلي؛ أي ذلك العنف الذي يسكن في النفسية الفردية والجماعية. ثم تظهر عادة التضحية بشخص أجنبي أو غريب أو أسير، تنسب له الجماعة جميع المساوئ والشور، وجميع الخروقات التي يعرفها المجتمع، أو الكوارث والأهوال، كالأمراض والمجاعات، والفيضانات، والزلازل، والانهزامات، والتي يعتقد الناس أنها تهدد كيان المجتمع عبر تهديدها للمعتقدات والممارسات المقدسة، فيتم طرد ذلك الشخص من المجتمع وينفيه أو يتم قتله... وفي زمن لاحق تم استبدال الضحية البشرية بأضحية من الحيوان المدجن، ويسميه روجيه؛ تيس الفداء أو الذبيحة، الأضحية.

أما النظرية الفينومينولوجية الرمزية تقول بأن المجتمعات البشرية تلجأ أيضا إلى الإجراءات الدرامية، حيث تقوم بتشخيص ما يمكن أن يقع لو اختزلنا العنف في الانتفاع فقط؛ وما يمكن للعنف أن يكونه في غياب التبادل والعقل؛ وكل ما يمكن أن ينتج عن تلك الاختزالات من فيض للعنف وانتشار له. فما يمكن أن يحد من هذا الانتشار هو تجسيده، دراميا ومسرحيا لتبيين درية العنف، وطموح، وإرادة الإنسان في التحكم فيه وتجاوزه نسبيا. أن هذه النظرية تفسح المجال امام العنف لكي يمسرح ويشاهد، ومن خلال هذه المشاهدة نعترف بوجوده ونحاول معالجته.²³

(5) التحليل الأنثروبولوجي لأشكال العنف:

عندما يحاول الباحث تحليل العنف تحليلا أنثروبولوجيا عليه ان يميز بين العنف المرتبط بالداخل، أي بالدينامية الداخلية للجماعة، والعنف المرتبط بما هو خارج عنها. فالعنف الخارجي هو ما كان يمارس من قبل المجتمعات المتحضرة ضد المجتمعات القديمة أو التي كانت تسمى بدائية، بربرية، متوحشة، وإعلان للحرب ضدها لأسباب هي اختلقتها كعدم مدنية تلك الشعوب، أو لأنه يصعب نعتهم بالبشر لأنه لا يملكون لغة ولا قانونا، أو لأن لهم صفات جسيمة حيوانية وغيرها من الأسباب التي تعطي الفرصة في القضاء عليها، أو الهيمنة عليها. لقد كانت تمثل هذه المجتمعات بالنسبة للمتحضرين حسب قولهم الانسان الغريب، المخيف، والمرفوض؛ الأغرب الذي يقترب من الحيوان أو هو حيوان.

وجدت أوروبا نفسها تطل على محيطات مجهولة، وقد أثر هذا الوضع المكاني كثيرا في الاتجاهات الفكرية للعقلية الأوروبية، الأمر الذي جعلها تتمركز حول الدين، وبدلا من ان تحاول التعرف على تلك الشعوب ودراسة تقاليدها، نظروا إليها من منطلق ضرورة تخليص أرواحهم من الشرك وتطهير أراضيهم من الوثنية عن طريق الغزو. فكانت هناك كتابات أنثروبولوجية تعتمد على الخيال من وراء المكاتب وليس المشاهدة الفعلية، تقول بأنه كلما كانت المسافة بعيدة كلما كان الانحطاط والتدهور الحضاري، وتم وصف الشعوب التي تعيش في أماكن نائية بأنها سلاسل غريبة، وبشأن الفروق بين البشر فسر الأنثروبولوجيون تلك الفروق على أساس الانحياز العنصري والديني من خلال نظرية "الارتداد أو الانتكاس الحضاري" والتي تشير إلى ان بعض السلاسل غير الغربية قد

تدهورت من الحالة المثلى التي خلقها الله عليها إلى مستوى حضاري ادنى من المجتمعات الغربية بسبب الأفعال الشريرة التي يقومون بها والطقوس والمعتقدات الشاذة والغريبة، أما الشعوب التي اعتنقت المسيحية فهي تمثل أرقى أنواع الحياة الانسانية المتقدمة.²⁴

أما العنف الممارس داخل المجموعات نفسها، وهو كالأول له صلة وثيقة بتكوين الأنا، أي هوية الفرد والمجموعة. وهي ممارسات عنيفة على أشخاص أو شرائح بحسب النوع أو الجنس (ذكر/أنثى) أو بحسب السن (كبار/صغار) مثل طقوس المرور حسب قان جينيب من الطفولة إلى الرشد، إلى سن الزواج والكهولة والشيخوخة والموت. وقد تمارس في هذه المراحل أنواع مختلفة من العنف على الإنسان والجسد، مثل العزل ووشم الجسد بالآلات حادة أو بقطع جزء منه.

خاتمة: من خلال ما ذكرناه سابقا حول العنف من المنظور الأنثروبولوجي يمكننا القول بأنه يوجد دراسات متنوعة ونظريات كثيرة تطرقت لموضوع العنف، من هنا يمكننا تحديد ثلاث مقاربات تناولت العنف، هناك المقاربة البيولوجية التي يحاول أصحابها إرجاع سلوك العنف إلى عوامل بيولوجية بحتة، حيث يرون أن الشخص بطبيعته التكوينية والبيولوجية يميل أكثر إلى استخدام العنف، وأنه يولد عنيفا بطبعه بسبب التركيبة الفسيولوجية، ومن ثم يمارس العنف على غيره. وهذه المقاربة تدعم بشكل أو بآخر فكرة ممارسة العنف وتبررها بأنها أمر طبيعي، ومن ثم فإن التعاطي معها أمر طبيعي.

أما المقاربة الثانية فهي سيكولوجية ترجع ظاهرة العنف إلى أسباب كامنة في شخصية الفرد، وليست خارجة عنه. ويؤكد أصحاب هذه المقاربة أن تجارب الطفل القاسية تولد لديه سلوكيات عدوانية تؤثر على سلوكه في المستقبل، لتصبح هذه السلوكيات العدوانية فيما بعد جزءا من شخصيته.

أما المقاربة الثالثة فتتمثل في المقاربة الثقافية الاجتماعية التي تعتبر بأن الثقافة بكل عناصرها ومضامينها تحدد السمات الأساسية لأي مجتمع، فالثقافة التي تنسم بالعنف والصراع تنتقل إلى الأفراد، وإلى طريقة تفكيرهم، فيكتسبونها عن طريق مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية ووسائل الإعلام المختلفة، مثل الأسرة، المدرسة ثم المجتمع.

في الأخير يمكننا القول بأن رهان فهم العنف ما يزال قائماً بقوة، في المجتمعات الحالية، ودور الأنثروبولوجيا هو الاستمرار في إدانة العنف بجميع أشكاله ووصفه بأنه تهديد للعقل، وهو ضد الترابط الاجتماعي للإنسان.

الهوامش:

- 1 أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكر بن ابن منظور الإفريقي المطري، لسان العرب، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، 1375هـ/1956م. م9، ص.257.
- 2 أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1978، ص 441
- 3 المورد، قاموس انجليزي عربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1982، ص1032
- 4ر.أبودون، وآخرون : المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط1، الجزائر، 1986، ص 396-395
- 5 كلودين شولي، Violence à part ، مجلة إنسانيات، العدد 10، 2000 ص 76
- 6 Pierre Daco. Les prodigieuses victoires de la psychologie. Marabout. 1973. p. 84
- 7 منير محمود بدوي، مفهوم الصراع؛ دراسة في الأصول النظرية للأسباب والانواع، مجلة دراسات مستقبلية، العدد 3 يوليو 1997 جامعة أسبوط ، ، ص 37
- 8 المرجع نفسه، ص 39
- 9 بانبرا ويتمر، الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2007، ص251.
- 10 محمد الحشيش، العنف، مقال استخرج من الأنترنت بتاريخ 25 -06-2014، من الرابط <http://www.startimes.com/f.aspx?t=17617919>
- 11 سورة المائدة الآيتين 27-28-29.
12. عياد أحمد، العنف والدين، الأبعاد المعرفية للعنف، مجلة العنف والدين، العدد 1، جامعة تلمسان، 2004، ص 44
- 13 المرجع نفسه، ص 45
- 14 سليم اللويزي، هوبز، الدولة التنين، الارهاصات الأولية للعقد الاجتماعي، مقال استخرج بتاريخ 26-06-2014 من الرابط <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=174854>
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=174854>
- 15 أحمد الحشيش، مرجع سابق.

16 اشرف منصور، قراءة لمفهوم الدولة في فلسفة هيجل، مقال استخرج بتاريخ 26-06-2014 من الرابط -ar-
<https://ar.facebook.com/georgebarshen/posts/478318142248305>

17 كلودين شولي، مرجع سابق، ص 77

18 نبيل عودة، الصراع الطبقي ومسائل ماركسية أخرى، مقال استخرج بتاريخ 26-06-2014 من الرابط
<http://mnaabr.com/vb/showthread.php?p=104889>

19 العلمي الادريسي رشيد، الفلسفة السياسية ومسألة العنف، مقال استخرج بتاريخ 26-06-2014 من الرابط
http://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n26_05idriss.htm

20 كلودين شولي، مرجع سابق، ص 76

21 النظريات النفسية للعنف، مقال استخرج بتاريخ 26-06-2014 من الرابط
<http://amjadayoubi.arabblogs.com/archive/2008/2/456902.html>

22 رينيه جيرار، العنف والمقدس، مركز دراسات الوحدة، المنظمة العربية للترجمة.

23 عبد الله حمودي، العنف، ضاءة أنثروبولوجية، مقال استخرج بتاريخ 25/06/2014 من الرابط،
http://www.aljabriabed.net/n55_05zarnin.htm

24 نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962، ص. 12.

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري

من وجهة نظر المحامين والقانونيين

الدكتور روبي محمد، جامعة المسيلة

الأسناذة بن كتيلة فتية، جامعة ورقلة

ملخص: هدفت إلى معرفة تدهور الصحة النفسية وانعكاسه على تنامي الجريمة الأسرية من وجهة نظر القانونيين والمحامين، تكونت العينة من (17) محامي ومحامية من ولاية ورقلة، تم اختيارهم بطريقة غرضية لإجراء الدراسة، ولتحقيق أهداف الدراسة استخدم الباحثان استبيان من إعداد الباحثان يتكون من (22) سؤالاً، ولتحقيق النتائج تم استخدام الأساليب الإحصائية نسب مئوية والمتوسط الحسابي وظهرت النتائج ما يلي:

- للإدمان أثر بنسبة (76.5%) على الجريمة.
- للاكتئاب أثر بنسبة (52.9%) على الجريمة.
- للحسد والغيرة أثر بنسبة (52.9%) على الجريمة.
- للأفكار الخاطئة أثر بنسبة (41.1%) على الجريمة.
- للتخلف العقلي أثر بنسبة (41.2%) على الجريمة.
- لغرابة السلوك والوسواس أثر بنسبة (35.3%) على الجريمة

الكلمات المفتاحية: الجريمة الأسرية، الصحة النفسية

Abstract: This study aims to identify the reflection of the deterioration of the psycho-health and its effects on the increase of family-crime according to jurists and lawyers. The sample includes 17 lawyers (men and women) from the wilaya of Ouargla; they were selected in an objective way to complete the study. To reach the purposes of the work, the two researches have used a questionnaire containing 22 questions.

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

To get convincing results, statistical methods have been used such as: Percentages and Arithmetic Mean, so the results were as follows:

Addiction corresponds to 76.5% of the causes of crime;
Depression and deterioration represent 52.9%;
Jealousy and envy 52.9%;
Misconceptions 47.1%;
Madness 41.2%;
Strange behaviour and Hantise 35.3%.

Keywords: psycho-health- family-crime

أولاً. الخلفية النظرية للدراسة:

1. مشكلة البحث:

إن موضوع الجريمة الأسرية من الموضوعات الخطيرة التي تواجه المجتمع والتي أصبحت في تزايد ملحوظ، مما يستوجب التصدي لها ومعرفة الأسباب المؤدية بغرض اتخاذ الإجراءات الوقائية المناسبة للحد من هذه الظاهرة ولذلك نجد العديد من الدراسات التي تناولت تشخيص الأسباب المؤدية إلى الإجرام، فمنها ما يتعلق بالجوانب الاجتماعية التي تتضمن العوامل الأسرية، كما ركزت دراسات أخرى على جنوح الأحداث، في حين لم نجد أي دراسة تناولت تدهور الصحة النفسية وعلاقتها بالجريمة الأسرية (في حدود اطلاعنا)، لكن هناك دراسات تناولت الاهتمام بالعوامل الأسرية وعلاقتها بالجريمة منها دراسة (شلدونجولوك، واليانوز جلوك) سنة (1939_1949) على (500) نزيل في إصلاحية (ماستشوس) ظهر أن حوالي (60%) من النزلاء جاءوا من أسر متصدعة .

ومن جهة أخرى نجد دراسة أخرى لكل من (شو) و (ماكاي) حول الوضع الأسري لمجموعة من المنحرفين وجد أن (42.5%) منهم جاءوا من أسر متصدعة بالمقارنة مع مجموعة ضابطة حيث أن (36%) كانوا من الأسر غير المتصدعة، وفي ألمانيا توصل (بون هوبر) من دراسة (110) من المجرمين الخطيرين الذي حكم عليهم أن (45%) قد أحاطت بهم ظروف سيئة. من خلال هذه الدراسات نجد أن أسلوب التنشئة الأسرية الخاطئ كشكل من أشكال تدهور الصحة النفسية يؤدي

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

إلى ظهور سلوكيات الإجرام لدى أفرادها وذلك كون الأسرة هي المؤسسة المسؤولة عن تنشئة الطفل وتربيته على السلوك الجيد.

كما تساهم الاعتقادات والقيم الأسرية بشكل كبير في السلوك حيث بينت العديد من الدراسات دور القيم في التحكم في السلوك حيث أن القيم الاجتماعية التي يعتقد بها الأسرة كأن تكون ريفية أو حضرية تأثير على الفرد وتدفع به إلى الجريمة إذ تكبر جرائم القتل للثأر وغسل العار في الريف وتقل في الحضر، وعلى الأغلب تمتاز الجريمة في الريف بدافع الانتقام حتى لو كانت السرقة أحياناً. (1)

وعليه فإن الأسرة هي من يكسب الطفل المعايير الاجتماعية والسلوكيات السوية، فتكون لدى الطفل عقلية التمييز بين الجائز وغير الجائز. ونظراً لعدم وجود دراسات تناولت العلاقة بين تدهور الصحة النفسية والجريمة الأسرية في حدود علم الباحثان، جاءت هذه الدراسة لمعرفة العلاقة بين تدهور الصحة النفسية وتنامي الجريمة الأسرية من وجهة نظر المحامين محاولة من الباحثين في الوصول تدابير وقائية من شأنها تساهم في الحد من تفشي الظاهرة. وللوصول إلى ذلك تم طرح التساؤلات التالية:

- 1_ ما هو نوع الجرائم الأسرية من وجهة نظر القانونيين والمحامين.
- 2_ ما هي مشكلات الصحة النفسية في الأسرة من وجهة نظر القانونيين.
- 3_ ما تأثير تدهور الصحة النفسية في حدوث الجرائم بولاية ورقلة من وجهة نظر القانونيين والمحامين.

2. أهمية الدراسة وأهدافها:

انطلاقاً من حاجة المجتمع للمزيد من الدراسات التي تهدف إلى معرفة أسباب تنامي الجريمة الأسرية ومما ينعكس عنها من آثار سلبية على الفرد والمجتمع جاءت هذه الدراسة لاتخاذ التدابير الوقائية من شأنها تحد من تنامي الجريمة الأسرية وتتمثل أهمية هذه الدراسة فيما يلي:

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

— معرفة العلاقة بين تدهور الصحة النفسية وتنامي الجريمة الأسرية لاتخاذ التدابير الوقائية والحد من تأثير هذه الأخيرة ورفع مستوى الصحة.

— تحديد مظاهر الجريمة الأسرية في المجتمع من وجهة نظر المحامين من شأنه يساعد على وضع برامج مناسبة تتعلق بطرق التعامل مع هذه المظاهر.

3. مفاهيم الدراسة:

- الصحة النفسية: شعور الفرد بعدم الطمأنينة والسكينة وعدم الانسجام مع ذاته والآخرين ليكون غير متوافق مع أسرته ومجتمعه، ونعرفه إجرائياً بأنه هو السلوك غير سوي الذي يدفع صاحبه لارتكاب الجريمة.

- الجريمة الأسرية: تعرف الجريمة قانوناً هي كل فعل يقرر له النظام القانوني عقوبة جنائية، وتعرف اجتماعياً تلك الأفعال التي تمثل خطراً على المجتمع أو تجعل من المستحيل تحقيق التعايش والتعاون بين الأفراد (2).

4. الأبعاد النظرية للدراسة:

● المقاربات المفاهيمية للصحة النفسية: هناك عدة تعاريف للصحة النفسية فكل باحث وضع تعريفاً انطلاقاً من وجهة نظره وحسب اتجاهه.

أ- تعريف حامد زهران: الصحة النفسية هي حالة دائمة نسبياً يكون فيها الفرد متوافقاً نفسياً (شخصياً، وانفعالياً واجتماعياً أي مع نفسه ومع بيئته) ويشعر بالسعادة مع نفسه ومع الآخرين، ويكون قادراً على تحقيق ذاته واستغلال قدراته وإمكاناته إلى أقصى حد ممكن، ويكون قادراً على مواجهة مطالب الحياة، وتكون شخصيته متكاملة سوية وسلوكه عادياً، ويكون حسن الخلق في سلامة وسلام. (3)

ب- تعريف منظمة الصحة العالمية للصحة النفسية: هي حالة من الرفاهية التي يدرك فيها الفرد قدراته، ويمكن أن ينقلب على الضغوطات العادية في الحياة، ويمكن أن يعمل بشكل منتج ومثمر ويكون قادراً على المساهمة في مجتمعه. (4)

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

ومن خلال هذه التعاريف نستنتج أن الصحة النفسية مدى توافق الفرد مع بيئته وإدراكه لقدراته وقيامه بدوره في الحياة، ولا يمكن أن تكون صحة نفسية مطلقة، لأنه لا يخلو فرد من الصراع والاحباط والقلق وما يتم عنه من انفعالات ومشاعر، والشكل الموالي يوضح مؤشرات الصحة النفسية.

- الصحة النفسية تؤدي إلى اختفاء الظواهر المرضية: فوجود الصحة النفسية تكاد تختفي معها الظواهر السلوكية المرضية كإدمان المخدرات والخمور والسرقه والقتل وأنواع الجرائم. (5)
 - الشعور بالراحة النفسية - الخلو النسبي من مظاهر الاضطراب السلوكي كالقلق والاكتئاب ومشاعر الضيق. - الكفاءة في القيام بالأدوار الاجتماعية المختلفة - تقبل الذات والآخرين. - القدرة على تكوين علاقات ملائمة مع الآخرين
 - اتخاذ أهداف واقعية سعياً لتحقيق الذات. - الاستقلال المعرفي والوجدان (6)
- مقاربات مفاهيمية حول الجريمة:

يتكبد المجتمع خسائر كبيرة في شتى مجالات الحياة نتيجة الجريمة بمختلف أنواعها، وقد عرفت الجريمة منذ القدم ومنذ بدء الخليقة حيث قتل قابيل أخيه هابيل، وبمأن كل شئ تطور فحتى الجريمة تتطورت وتنوعت.

ويعرف الجريمة لغتاً جرم وأجرم واجترم والجرم بالكسر اكسب وجرم أيضاً كسب وتجرم عليه أي أدعى عليه ذنباً لم يفعله، والجرم الذنب والجريمة مثله وجرم واجرم بمعنى واحد (7)

ومن التعريفات الواردة في شأن تعريف الجريمة تعريف الإمام الماوردي: الجرائم محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزيز (8)

1. تعريف الجريمة من وجهة نظر القانون: هي فعل غير مشروع صادر عن إرادة جنائية ويقرر القانون لهذا الفعل عقوبة أو تدبير من تدابير الأمر.

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

2. تعريف الجريمة من وجهة نظر علم النفس: يرى علماء النفس أن الجريمة تضارب سلوك الفرد مع سلوك الجماعة وقد عرف لاغاش (danillaghache) الجريمة بأنها التعدي الحاصل من فرد أو عدة أفراد أعضاء في مجتمع مغين على القيم المشتركة بهذا المجتمع⁽⁹⁾

3. الجريمة بين علم النفس والقانون الجنائي: هناك علاقة تعاون بين علم النفس وعلم القانون الجنائي لأن كل منهما منع الجريمة أما بفهم أسبابها وهو ما يقوم به علم النفس أو بتطبيق العقوبة على مرتكبيها وهو ما يقوم به القانون الجنائي، فالجريمة ليست مجرد ظاهرة مضادة للمجتمع يتعامل معها القضاء وفقا لقانون العقوبات ولكنها مشكلة سلوكية تستلزم الدراسة المعمقة من يهتم بدوافع السلوك الإنساني. (10)

4. أثر الصحة النفسية على تنامي الجريمة:

قد اختلفت المذاهب حول تحديد نوع العوامل الإجرامية فذهب رأي على أن هذه العوامل فردية دائما تكمن في شخص المحرم سواء تعلقت بتكوينه العضوي، حيث يتصف المحرم بسمات معينة أو تعلقت بتكوينه النفسي. وهناك اتجاه آخر يركز على أن الأجرام أو عوامل الإجرامية لاتعدوا أن تكون عوامل بيئة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية وقد تنوعت الأسباب لطبيعة المحرم والجريمة والزمن، وموضوع الجريمة متشعب حيث أن العوامل الإجرامية مزيج من العوامل الفردية تتعلق بشخص المحرم وعوامل بيئة تتعلق بالمحيط الذي يعيش فيه إذا يتفاعل نوعا ما بالعوامل فيتولد عن تفاعلها حدوث الجريمة.

أ. تقسيم الجريمة:

أكثر التقسيمات شيوعا للجريمة هو تقسيمها على أساس مقدار جسامتها إلى جنائيات وجنح ومخالفات وأساس هذا التقسيم هو اختلاف الجرائم من حيث مقدار جسامتها، فأشد الجرائم جسامتها هي الجنائيات (القتل، تهريب المخدرات)، وأقلها جسامتها هي المخالفات (السرعة، قطع الإشارات المرورية — التدخين في أماكن غير مسموح بها وتتوسط الجرح (عقوق الوالدين، السرقة، الهروب من المنزل، كثرة المشاجرات) بين النوعين.

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

ب. تأثير الجريمة على المجتمع:

- من الناحية الاقتصادية: تكلف المجتمع أموالا كثيرة متمثلة في خسائر مادية ونفقات تدبير الوقاية لهم.
- من الناحية الاجتماعية: تقلل من الأيدي العاملة المنتجة وتزيد من جنوح الأبناء نتيجة غياب الآباء بالسجون.
- من الناحية النفسية: تشيع القلق والخوف بين المواطنين. (11)

ثانياً. الجانب المنهجي للدراسة:

أ. أداة البحث: وضع استبانة بحثية يتكون من (22) سؤالاً تتعلق بتساؤلات الدراسة.

ب. منهج الدراسة: تم إتباع المنهج الوصفي لملائمته لهذه الدراسة واستخدم الباحثان النسب المئوية والوسيط كوسائل إحصائية لتحليل البيانات.

ج. عينة الدراسة: تكونت عينة الدراسة من (17) محامي ومحامية يزاولون مهنة المحاماة بورقلة، وقد تم اختيارهم بطريقة غرضية لإجراء الدراسة.

3. مجال الدراسة:

- المجال البشري: تتمثل في عينة من محامي مدينة ورقلة
- المجال الزمني: طبقت الدراسة في سنة 2016
- المجال المكاني: مدينة ورقلة جنوب الجزائر

ثالثاً. عرض نتائج الدراسة ومناقشتها:

(1) . عرض ومناقشة نتائج السؤال الأول: ينص السؤال الأول على ما هو نوع الجرائم الأسرية السائدة من وجهة نظر القانونيين والمحامين؟ وللإجابة على هذا السؤال قمنا باستخدام النسب المئوية والمتوسطات الحسابية وأظهرت النتائج كما هي في الجدول.

الجدول رقم (01) أنواع الجرائم المنتشرة من وجهة نظر المحامين والقانونيين

نوع الجرائم الأسرية	المتوسط الحسابي	نسبة الانتشار		
		منتشر	منتشر أحياناً	غير منتشر
سلوك العنف الأسري	2,47	58.8	29.4	11.8
ضرب الأصول	1,76	00	76.5	04
القتل من طرف الأقارب	1,41	00	41.2	58.8
زنا المحارم	1,64	5.9	52.9	41.2
الانتقام من الأطفال	2	23.5	52.9	23.5
السرقه	2,64	70.6	23.5	5.9
حرق الممتلكات	2,17	35.3	47.1	17.6
التزوير في الوثائق الخاصة بالإرث	2,29	41.2	47.1	11.8

نلاحظ من خلال الجدول أن جريمة السرقة كانت بنسبة (70%) حيث احتلت المرتبة الأولى في ترتيب الجرائم المنتشرة، حيث نجد أن جريمة السرقة صارت تشكل خطراً على الممتلكات الفردية والجماعية، وقد تصل أحياناً بالحاق الضرر بالأرواح ولا تخلوا جلسة من جلسات المحاكم إلا ونظرت في مثل هذه الجريمة.

حيث تُعد جريمة السرقة جريمة مكتسبة حيث لا تولد مع الفرد، ويرجع اكتسابها إلى نوعية التنشئة الاجتماعية للطفل حيث أن البيئة الاجتماعية التي يعيشها الفرد (أسرة، مدرسة ومختلف المؤسسات التربوية) تسهم إسهاماً فعالاً في تشكيل شخصيته والتأثير في نفسه وسلوكه الاجتماعي، حيث تغرس فيه القيم والتوجهات الإيجابية نحو الالتزام بالقوانين والأعراف السائدة في المجتمع، وقد يرجع سبب انتشار هذه الظاهرة في مجتمع عرف بالمحافظ للظروف الاقتصادية والاجتماعية للأسرة

تدهور الصحة النفسية كأحد محامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

مما جعل الأسرة تهمل الجانب التربوي وقد تعجز عن تلبية رغبات وطموحات الأبناء مما يضطرهم إلى السرقة كتعويض وتلبية حاجياتهم، وجنحة السرقة من بين الجرائم الشائعة في الجزائر والتي وضع لها المشرع مواد قانونية صارمة للقضاء والحد من هذه الظاهرة التي أصبحت تنخر المجتمع الجزائري ولقد نصت المادة 350 من قانون العقوبات (كل من اختلس شئ غير مملوك له يعد سارقاً) (12)

كما يبين الجدول أن سلوك العنف الأسري موجود في جميع المجتمعات وقديم قدم البشرية منذ قتل هابيل قابيل، وهذا السلوك يتغير خلال الأزمنة المختلفة ويأخذ أشكالاً عدة ويكون عرضة له في الغالب الضعفاء (المرأة، والطفل والمسن). وظاهرة العنف ظاهرة عالمية لا ترتبط بالعرب والمسلمين فقط فالدراسات الغربية تقول أن نسبة (70%) من الزوجات في الغرب يتعرضن إلى نوع من أنواع العنف، وهذا العنف قد يكون لفظي يعني بالسب والشتيم أو الصراخ وقد يكون جسدياً بإيذاء هذا الإنسان.

والعنف الأسري يؤدي إلى جو متوتر وعدم الشعور بالأمن والاطمئنان بالنسبة لأفراد الأسرة الواحدة. وللعنف الأسري عدة صور منها الجسدي وهو أشد أنواع العنف لماله من أضرار نفسية وجسدية على الضحية، وكما يقف وراء العنف الجسدي العديد من الدوافع كالرغبة في الانتقام والتأديب نتيجة قيام الضحية بفعل ما، أو إرغام الضحية على فعل ما لا ترغب في القيام به والحصول على مال الضحية، أو منع الضحية من البوح بأسرار مشينة بالنسبة لمرتكب السلوك العنيف، كما قد يكون الدافع إشباع رغبات جنسية في حالة العنف الجسدي الممارس من الشخصية السادية. (13)

ومن الملاحظ للواقع نجد أن الرجل هو من يسلط العنف على المرأة أو الطفل بحكم تكوينه الفسيولوجي ويرجع البعض هذا الأمر إلى أسباب وطبيعة في وطبع جسم الرجل تتمثل في بعض الهرمونات الكورية مثل (Testosteron). ولقد قام Aracher بفحص شامل للكثير من الأدبيات المتعلقة بهذا الموضوع وتوصل إلى أن معظم الدراسات وجدت علاقة بين ارتفاع نسبة هرمون الذكورة والميل للعدوانية لدى الرجال .

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— دوبي محمد - بن كتيلة فتية

بالإضافة إلى كل ما قيل حول أسباب العنف الأسري فهناك العديد من الأسباب المؤدية إلى العنف الأسري حيث قام باحثون بدراسة العوامل المرتبطة بالحالتين الاقتصادية والاجتماعية لإبراز علاقتهما بالعنف الأسري، وخصوصاً تحت تأثير ما يسمى بالضغوط الاجتماعية والتي تتمثل في ضغوط أحداث الحياة غير السارة، وضغوط العمل والأدوار المختلفة التي تدفع إلى السلوك العدواني، وأيضاً الضغوط البيئية المتمثلة في الازدحام والتلوث والطقس وضغوط أخرى كثيرة تؤدي إلى زيادة العنف من خلال ما تحدثه من آثار نفسية أو سلوكية.⁽¹⁴⁾

بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية هناك وسائل الإعلام كالأفلام والمسلسلات والانترنت تؤدي إلى المساهمة في انتشار العنف وهو العنف الذي يستهوي بعض شرائح المجتمع من خلال عرض مشاهد متنوعة للعنف الأسري مما يؤدي إلى تقليدها وجعلها قدوة في ظل غياب القدوة الإيجابية. ومما سبق نعرض نتائج الجدول في الشكل الموالي:



الشكل (01) يمثل نسبة انتشار الجريمة الأسرية.

(2) عرض ومناقشة نتائج السؤال الثاني: ينص السؤال الثاني على ما هي مشكلات الصحة النفسية في الأسرة من وجهة نظر القانونيين؟ وللإجابة على هذا السؤال قمنا باستخدام النسب المئوية والمتوسطات الحسابية وأظهرت النتائج كما هي في الجدول.

الجدول (02) يمثل مشكلات الصحة النفسية المتسببة في الجريمة.

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

مشكلات الصحة النفسية	المتوسط الحسابي	النسبة المئوية		
		منتشر	منتشر أحياناً	غير منتشر
الإدمان على الكحول	2,8235	82.4	17.6	00
التخلف العقلي	2,1765	41.2	35.2	23.5
الاكتئاب	2,4118	47.1	47.1	5.9
الحسد، الغيرة	2,6471	64.7	35.3	00
غربة السلوك	2,2941	47.1	35.3	17.6
الأفكار الخاطئة	2,4706	58.8	29.4	11.8
الوساوس	2.29	47.1	35.3	17.6

من خلال الجدول نلاحظ ما يلي:

1_ الإدمان على الكحول: حيث مثلت بنسبة (82,4%) وهي ظاهرة احتلت المرتبة الأولى في ترتيب المشكلات المتسببة في الجريمة، وتعتبر هذه الظاهرة من الآفات الخطيرة التي بدأت تنتشر في الآونة الأخيرة بشكل مذهل وبين مختلف شرائح المجتمع، وباتت تهدد كيان ووحدة المجتمع حيث ثبت من الأبحاث والدراسات العلمية أن المخدرات تشل إرادة الإنسان، وتذهب بعقله، وتدفعه في أحف الحالات إلى ارتكاب الجرائم المختلفة إذ هي تدفع متعاطيها إلى ارتكاب شتى الجرائم عن قصد منه، وعن غير قصد، إذ تعتبر المخدرات البوابة الأولى للجريمة، إن تعاطي المخدرات يعد من أهم الأسباب التي تُحفز ظهور الأمراض والاضطرابات النفسية لدى المتعاطي، وهناك علاقة وثيقة ومتبادلة بين الإدمان على المخدرات والأمراض النفسية، ومن أبرز هذه الاضطرابات والأمراض، الاضطرابات الذهانية المصحوبة بأوهام وضلالات وهلاوس، واضطرابات المزاج، خاصة اضطرابات المزاج الاكتئابية. وعادةً ما تكون أعراض الاضطراب لدى المدمنين مزمنة وشديدة، ومن خلال هذه الدراسة اتضح ارتفاع نسبة ارتكاب الجرائم من طرف المتعاطين، وقد يعود سبب انتشار هذه الظاهرة الى عدة أسباب نفسية.

2_ الحسد والغيرة: وقد مثلت هذه الظاهرة بنسبة (64.7): وتعتبر ظاهرة الغيرة والحسد من الظاهر التي أكدها الإسلام، وقد ذكر الحسد باسمه في القرآن الكريم في ثلاث آيات مختلفة وردت في ثلاث سور، ففي سورة البقرة يقول الحق سبحانه وتعالى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ). سورة البقرة. وفي سورة النساء يقول الحق سبحانه: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ). سورة النساء الآية 54. وفي سورة الفلق: (مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) سورة الفلق الآية. (2)

والحسد في مفهومه العام هو تمني زوال النعمة على الغير، والحسد رذيلة أصابت الإنسان منذ بدء الخليقة، فهو الباعث الحقيقي على جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل، حيث حسده، لأن الله تقبل قرانه ولم يتقبل قرانه، وهو الذي يقود الضعفاء إيماناً وغير المترنين نفسياً إلى ارتكاب أبشع الجرائم في مجتمعاتنا المعاصرة، فالذي يقتل ثراً لسرقته حركته غريزة الحسد لارتكاب هذه الجريمة البشعة،

تؤكد التحليلات النفسية والاجتماعية لكثير من المشكلات وجرائم القتل التي تحدث في مجتمعاتنا العربية والإسلامية أن الحسد والحقد على الآخرين هما الباعث الأول على هذه الجرائم، وقد أشارت دراسة اجتماعية نفسية أجريت مؤخراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة أن رذيلة الحسد تقف وراء (72%) من جرائم القتل التي شهدتها المجتمع المصري خلال السنوات الثلاث الماضية التي أشاعت الخوف بين كل فئاته سواء من الأثرياء أو الطبقات الاجتماعية محدودة الدخل.

3_ الأفكار الخاطئة: هذه الظاهرة بنسبة (58.8%) وغرابة السلوك والوساوس والتخلف العقلي والاكتئاب تمثلت بنسبة 41,1%: ترتبط الاضطرابات النفسية والعقلية ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بالجريمة، فبعض صور الهستيريا السلطوية التي تظهر في صورة دوافع قهرية تحت المصابين على ارتكاب الجرائم، وكذلك هستيريا العقائد الوهمية كأن يعتقد الفرد أنه مضطهد تجعله يتجه نحو ارتكاب الجريمة. ويعتبر ارتكاب الجريمة في هذه الحالات كنوع من أنواع الدفاع عن الذات وقد يصاب الشخص بأمراض عقلية نتيجة للرغبات الكامنة في نفسه والطاقات المكبوتة في داخله، الأمر

تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— د. روبي محمد - بن كتيلة فتية

الذي يجعل الروابط بين الحالة النفسية والعقلية للفرد تميل ميلا شديدا لارتكاب السلوك الإجرامي. وما سبق يمكن توضيح نتائج السابقة في الشكل التالي:



الشكل (02) يمثل نسبة تدهور الصحة النفسية ومساهمتها في الجريمة.

(3) عرض ومناقشة نتائج السؤال الثالث: ينص السؤال الثالث على ما تأثير تدهور الصحة النفسية في حدوث الجرائم بولاية ورقلة من وجهة نظر القانونيين والمحامين؟ وللإجابة على هذا السؤال قمنا باستخدام النسب المئوية والمتوسطات الحسابية وأظهرت النتائج كما هي في الجدول.

الجدول (03) يمثل تأثير تدهور الصحة النفسية في حدوث الجرائم من وجهة نظر القانونيين والمحامين

النسبة المئوية			المتوسط الحسابي	تأثير تدهور الصحة النفسية في حدوث الإجرام
غير منتشر	منتشر	منتشر أحيانا		
5.9	17.6	76.5	2,7059	الإدمان سبب في الإجرام الأسري
41.2	17.6	41.2	2	التخلف العقلي سبب في الإجرام الأسري
17.6	29.4	52.9	2,3529	الاضطرابات النفسية سبب الإجرام الأسري
17.6	29.4	52.9	2,3529	الحسد والغيرة سبب الإجرام الأسري
35.3	29.4	35.3	2	غراية السلوك سبب الإجرام الأسري
23.5	29.4	47.1	2,2353	الأفكار الخاطئة سبب الإجرام الأسري
29.4	35.3	35.3	2,0588	الوسوس تجاه الآخرين

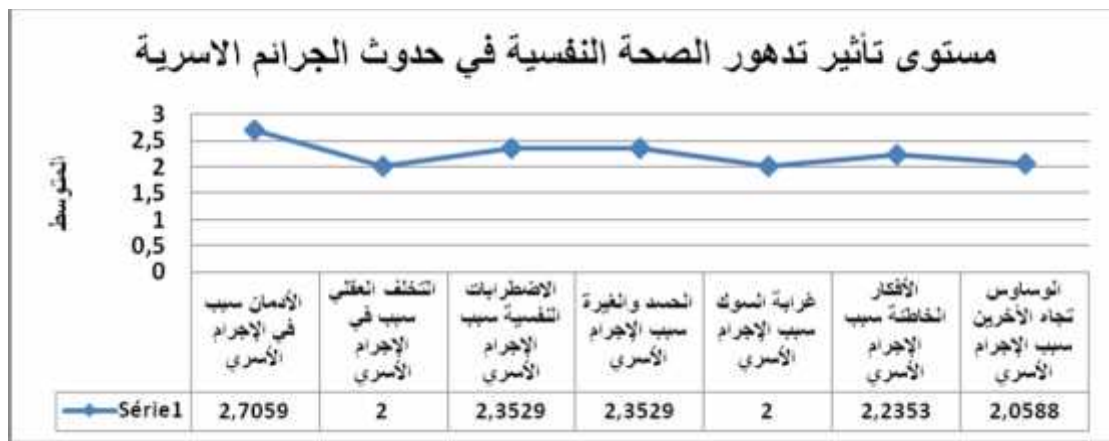
تدهور الصحة النفسية كأحد عوامل تنامي الإجرام الأسري ——— د. روبي محمد - بن كتيلة فتية

				سبب الإجرام الأسري

استنتاجات: في ضوء هذه الدراسة خرج الباحثان بالاستنتاجات التالية:

1_ الجريمة ظاهرة اجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع وعاداته وتقاليده، ومتغيراته السياسية والاقتصادية التي يمر بها، وتطور وفقا للظروف والمتغيرات وتختلف باختلاف الزمان والمكان كما تختلف من حيث النمط والمعدل والسبب.

2_ أن للتدهور الصحة النفسية والعقلية دور في تنامي الجريمة.



ثالثاً. اقتراحات بحثية: في ضوء النتائج والاستنتاجات التي تم التوصل إليها في حدود هذه الدراسة يوصي الباحثان بما يأتي:

- ضرورة زيادة اهتمام العاملين في الصحة النفسية وعلماء لاجتماع والتربية والقانونيين بدراسة العوامل المباشرة وغير المباشرة في ظهور وتنامي الجريمة.
- توعية القائمين بأسلوب التنشئة الاجتماعية من جمعيات أحياء ومعلمين ومؤسسات عمومية على غرس القيم والمبادئ وتعديل سلوكيات المراهقين والشباب. توعية الآباء والأمهات من خلال الندوات ومجالس لآباء والأمهات ووسائل الإعلام عن كيفية التعامل الأمثل مع الطفل

تدهور الصحة النفسية كأحد مظاهر تدهور الإجرام الأسري ——— روبي محمد - بن كتيلة فتية

والمراهق، في ضوء نظريات النمو والصحة النفسية، والانفتاح على العالم بعيون واعية من أجل تفادي السلوكيات الإجرامية أو الوقوع فيها.

- إجراء دراسة مماثلة تتناول عينة أكبر وعلى مستوى الجنوب عامة لحصر أكثر الجرائم المنتشرة.

- إجراء دراسة حول أسباب ظهور الجريمة.

- إجراء دراسة حول العلاقة بين الأمراض السيكوباتية والجريمة

- إجراء دراسة حول العلاقة بين الإدمان والجريمة.

الهوامش:

- (1) السيد رمضان، (1985)، الجريمة والانحراف من المنظر الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث الاسكندرية. مصر.
- (2) حامد زهران (2005)، الصحة النفسية والعلاج النفسي، ط4، عالم الكتب، القاهرة، مصر.
- (3) هيلين، هيرمان (2005)، تعزيز الصحة النفسية المفاهيم، الأليات المستجدة، والممارسة، المكتب الإقليمي للشرق البحر المتوسط، القاهرة.
- (4) عبد الحميد الشاذلي (1999)، الصحة النفسية سيكولوجية الشخصية، ط1 المكتب العلمي، الاسكندرية، مصر.
- (5) محمد الشويعر، (1999)، الوقاية من الجريمة في التشريع الإسلامي بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية العدد 29.
- (6) الجوهري، (1984)، الصحاح للجوهري، ط3، دار العلم للملايين.
- (7) المرجع نفسه.
- (8) سامر جميل رضوان، (2007)، الصحة النفسية، ط2، دار الميسر للنشر والتوزيع، الأردن.
- (9) المرجع نفسه.
- (10) سمير، يونس، (2006)، ظاهرة العود إلى الانحراف دراسة للظروف الأسرية، دراسة مكتملة للحصول على شهادة الماجستير، جامعة عنابة .
- (11) المرجع نفسه.
- (12) عاشور نصر الدين (2008)، مجلة المنتدى القانوني العدد الخامس.
- (13) المرجع نفسه.
- (14) سالم بن صايل المطيري (1999)، دور هيئة حقوق الانسان في الحد من العنف الأسري بمنطقة الرياض، دراسة مكتملة للحصول على الماجستير جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية .

مقاومة التغيير التنظيمي في الجامعة الجزائرية

في ظل تطبيق النظام الجديد LMD من وجهة نظر الأساتذة

الأساذ سماتي حاتم، جامعة تيارت

الملخص: عرفت الجامعة الجزائرية وعلى غرار باقي المؤسسات التي تعيش في إطار النسق المفتوح بعض التغييرات سواء في هيكلها التنظيمي أو تكنولوجيات التعليم بها أو في نوع وكم مواردها البشرية أو حتى نظمها التعليمية، بحيث عرفت الجامعة الجزائرية سنة 2004 تغييرا مهما في نظامها التعليمي وهو الانتقال من النظام القديم أو ما يعرف بالنظام الكلاسيكي إلى النظام الجديد LMD، والأكد أن كل عملية تغيير يصحبها بعض الغموض والتساؤلات التي تبقى غير واضحة بالنسبة للمورد البشري الذي سيساهم في إنجاح تلك العملية أو إفشالها، ولعل المورد البشري الأكثر تأثرا في التغييرات التي أحدثتها الجامعة الجزائرية في نظامها التعليمي هو الأستاذ الجامعي، فغموض النظام الجديد ونقص المعلومات حوله والخوف من عدم تحقق أهدافه وضعف منظومة الاتصال والعديد من الأسباب الأخرى قد تجعل من هذا العنصر الهام عنصرا مثبطا ومقاوما لهذا التغيير بدل أن يكون هو الداعي إليه.

Abstract:

The Algerian universities has known just as other institutions following the open format, some changes both in the organizational structure or education or technologies on the type and quantum of human resources or even educational systems. So the Algerian university knew in 2004 a significant change in the educational system and a transition from the old system or what is known as the classical system to the new LMD system. Every change has been accompanied by some vagueness and questions that remain unclear for the human resources that contribute to the success or fail of that operation, and perhaps the most influential human resource change that has been made in university educational system is the teacher. The vagueness of the new system, the lack of information about it, the fear of failure to achieve its goals and the poor communication system and many other reasons might make this important element discouraging and resistant to this change rather than be its cause.

مقدمة: إننا نعيش في زمن متسارع ومتغير دوما في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتكنولوجية، اذ تسعى كل المجتمعات لان تكون دائما ضمن الركب وان لا يفوتها مجارة مجتمعات الريادة والسيادة وان لا تبقى قابضة في الدرك الأسفل دوما، ولذلك كان لزاما على كل مجتمع أراد البقاء ان تكون لديه نوع من المرونة وأن يمتلك مجموعة من المقومات التي تجعله في وضع آمن، فإذا كان التنافس بين هذه المجتمعات يكمن في مجموعة من الخصائص التي قد تميز مجتمعا عن آخر كالموارد المالية الوفيرة والتكنولوجيا المتطورة ولعل أهم ميزة تنافسية قد تصنع الفارق دوما هي القوة البشرية.

إذ أضحي الاهتمام بالموارد البشري أساس كل استثمار وقاعدة كل نهضة وتطور مادي لكل مجتمع، لذلك فان كل من يطمح إلى سياسات تنموية اقتصادية واجتماعية ناجحة فان عليه استغلال والاستثمار في هذه الثروة. ولعل أن المكان الأمثل والأنسب الذي من الممكن أن تنطلق منه للاستثمار في هذا النوع من الثروات هي المؤسسات التعليمية بكل أطوارها ومراحلها كونها تمتلك طاقة بشرية هائلة قادرة على المساهمة في كل السياسات التنموية التي يخطط لها المجتمع، لذلك فهي تسعى دوما لأن تسير البرامج التعليمية والأنظمة التكوينية الفعالة من خلال تطبيقها لعمليات الإصلاح من فترة لأخرى بما يتوافق مع التغيرات التي تحدث في المجتمع والتطورات التي تحيط به.

تعتبر مؤسسات التعليم العالي إحدى هاته المؤسسات التعليمية التي أنشأت بهدف توفير المورد البشري الكفاء من أجل المساهمة في عمليات التنمية، اذ تحظى مؤسسات التعليم العالي بأهمية بالغة في سياسات التعليم وذلك لاحتوائها على عدد كبير ممن يفترض أن يكونوا نخبة المجتمع وصفوته، وحتى تتمكن هذه المؤسسات من أداء مهمتها ورسالتها في تطوير المجتمع كان لزاما عليها أن تغير في هيكلها ونظمها وبرامجها من أجل مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي، فان كان لزوما على المجتمعات المتقدمة أن تطور جامعاتها وتحسن فيها للبقاء في مقدمة سباق المدنية والتقدم، فان الأمر أكثر لزوما بالنسبة للدول النامية وذلك بهدف عدم تعظيم وتوسيع الفجوة والهوة التي بينها وبين تلك الدول ومحاولة تقليصها على الأقل.

وبما أن مؤسسات التعليم العالي بالجزائر هي الأخرى تأثر وتتأثر في المحيط الخارجي كمثيلاتها، ذلك أنها تعمل ضمن نظام النسق المفتوح فمدخلاتها هم الطلبة المتحصلون على شهادة البكالوريا وعملياتها التحويلية هي البرامج التعليمية والأنظمة التكوينية التي تقدمها هؤلاء الطلبة ليكونوا في الأخير على شكل مخرجات في شكلهم النهائي وهم مورد بشري قادر على النهوض بالبلاد والمساهمة في تنميتها وتطورها، لذلك كان لزاما عليها أن تسير كل التطورات في مجال أنظمة التكوين والتعليم.

والمتتبع لتطور ونمو الجامعة الجزائرية عبر الزمن يلاحظ أنها قد مرت بالكثير من التطورات والمراحل لتصل الى ما هي عليه الآن وهذه التحولات كانت تعكس بصفة مستمرة تلك الأوضاع الحاصلة في المجتمع الجزائري. فقد أشار حسين الطيب⁽¹⁾ أن انشاؤها كان منذ انشاء مدرسة الطب سنة 1832، ثم انشاء المدارس العليا (الميكانيك، الأدب، الحقوق، العلوم) في 20 سبتمبر 1909، ثم مدرسة الهندسة في الحراش سنة 1925 ومعهد عالي في علم الزراعة سنة 1930. ولعل أبرز تغيير حدث في الجامعة الجزائرية في السنوات الأخيرة هو تطبيق نظام LMD (نظام الليسانس والماستر والدكتوراه) وهو هيكل للتعليم العالي مستورد من البلدان الأنجلوساكسونية، هذا الهيكل معمول به تدريجيا في بلادنا منذ سبتمبر 2004. إذ حل هذا النظام محلا لنظام القديم كما يسمى وهو النظام الكلاسيكي، ولعل أن هذا التغيير الذي حدث له آثار كبيرة على القائمين على نجاح هذه العملية سواء أكانوا أساتذة أو إداريين أو حتى عمداء الكليات حيث تعتبر مقاومة التغيير أمرا حتميا مثلما إن التغيير أمر حتمي ولا مناص منه فالإنسان بطبعه يميل إلى مقاومة تغيير الوضع الراهن لما قد يسببه التغيير من إرباك وإزعاج.

أولا: التغيير التنظيمي

- مفهوم التغيير التنظيمي:

ليس من السهل حصر تعريف للتغيير التنظيمي في بعض السطور وذلك لتعدد نطاق حدوثه فقد يمس التغيير الأفراد والموارد البشرية، وقد يحدث في جوانب تكنولوجية كإدخال معدات وآلات

جديدة بغية مواكبة التطورات وتقليل تكلفة الانتاج، كما قد يكون التغيير في الهيكل التنظيمي كزيادة وحدات انتاج جديدة للمؤسسة.

أ. التغيير التنظيمي:

لقي التغيير التنظيمي اهتماما كبيرا من طرف صناع القرار في المؤسسات والباحثين وإن دل ذلك فإنما يدل على مدى أهمية التغيير التنظيمي في النهوض بالمؤسسة والمحافظة على بقائها واستمرارها في جو تنافسي كبير، وسنعرض مجموعة من التعاريف في محاولة لضبط مفهوم كامل شامل للتغيير التنظيمي:

- **التعريف الأول:** عرف سكيبينز Skibbins التغيير على أنه "الأسلوب الإداري لتحويل وتبديل المنظمة إلى حالة بناء أفضل في مجال تطويرها المتوقع مستقبلا"⁽²⁾ يبدو من خلال هذا التعريف أن التغيير هو ذلك التحول الذي يطرأ على المنظمة في محاولة من المسؤولين عليها أن يحسنوا في أداءها المتوقع في الفترات القادمة.

التعريف الثاني: وعرفه جونز Jones على أنه " عبارة عن تحرك المنظمة من الوضع الحالي إلى وضع مستقبلي بغرض زيادة الفعالية".⁽³⁾ لقد ركز هذا التعريف على أن الهدف من عملية التغيير، اذ اعتبره هو نقطة تحول من نقطة معينة إلى نقطة أخرى هي الهدف من التغيير الحاصل والغرض من هذا التغيير هو زيادة قدرة المنظمة في التفاعل مع البيئة الخارجية والمحيط بها.

ب- بين التغيير والتغير

هناك تباعد كبير بين مصطلحي "التغيير" من جهة و"التغير" من جهة أخرى إذ يعتبر "التغير" هو ذلك التحول الذي يحدث في كل مجالات الحياة بصفة دورية ولا يستطيع الانسان التدخل لضبط هذا التغيير لأنه يحدث بصفة خارجة عن نطاق تحكمه وسيطرته⁽⁴⁾ . ولعل الجدول رقم(01) يوضح طبيعة الاختلاف الموجود بين التغيير والتغير.

الجدول رقم (01) يوضح الفرق بين التغيير والتغير

التغيير	التغير

● مخطط	● تلقائي
● يسهل التنبؤ به	● يصعب التنبؤ به
● له برنامج زمني	● بطيء في رد الفعل
● يقوم على المبادرات	● يؤدي إلى رد فعل

المصدر: (النجار، 2006، ص16)

من خلال ما سبق من تعاريف يمكن لنا القول أن التغيير التنظيمي هو الانتقال بالمنظمة من وضع إلى وضع آخر أحسن، وذلك بغاية تحقيق أهداف المنظمة ، لذلك فقد يمس التغيير الجوانب التكنولوجية أو الهيكلية أو البشرية أو التنظيمية، وغالبا ما يكون نتيجة لتأثيرات داخلية أو خارجية تستجيب لها المنظمة بهدف الحفاظ على بقاءها واستمراريتها، وليس بالضرورة أن يكون التغيير دائما بإضافة وحدات جديدة في الهيكل التنظيمي أو تدعيم المنظمة بموارد بشرية جديدة، فقد تتخذ المنظمة استراتيجية الانكماش وذلك بالتخلي على انتاج معين والتركيز على منتج واحد، أو قد تقوم المنظمة بتسريح مجموعة من العمال وذلك كاستراتيجية لمواجهة الإفلاس. ولعل التعاريف الأنفة الذكر قد أوحى لنا ببعض خصائص التغيير التنظيمي وهي:

- **الاستهدافية:** التغيير حركة تفاعل ذكي لا يحدث بطريقة عشوائية أو ارتجالية بل يتم بطريقة منهجية بهدف تحقيق الغايات المرجوة تكون مقبولة من طرف قوى التغيير.
- **الواقعية:** يجب أن تكون خطط التغيير مرتبطة بواقع المنظمة وأن تتم دراسة امكانياتها ومواردها لتطبيق هذا التغيير.
- **التوافقية:** بحيث يجب أن يكون هناك تناسق بين احتياجات وتطلعات قوى التغيير من جهة وعملية التغيير من جهة أخرى. (5)
- **التغيير التنظيمي مرتبط بمفهوم النظم المفتوحة:** وذلك أن المنظمة وبحكم وجودها داخل مناخ خارجي سريع التغير فإن ذلك يفرض عليها مسايرة هذه التغيرات (التنافس القوي، سن قوانين وتشريعات جديدة، ارتفاع الدخل الفردي...) لذلك فالتغيير الخارجي ينعكس مباشرة على المنظمة ويفرض عليها القيام بعملية التغيير.

- التغيير التنظيمي مسؤولية مشتركة: لا يمكن ربط التغيير التنظيمي بالإدارة العليا في المنظمة فقط بل إنه يمس كل المستويات الإدارية، لكن المسؤولية تتدرج وفق تدرج هرم السلطة بحيث تتحمل الإدارة العليا الجزء الأكبر
- مقاومة التغيير: في كثير من الأحيان ما تتعارض فكرة التغيير مع مجموعة من العمال الذين قد يمسهم التغيير وقد يكون الخوف من عدم نجاح التغيير أو الخوف من التغيير في حد ذاته سببا للمقاومة.(6)

2- أسباب التغيير التنظيمي:

لقد تعددت التصنيفات التي ذكرت أسباب ودوافع التغيير التنظيمي ولعل أبرز تصنيف هو الذي يقسمها إلى قسمين (قوى داخلية وقوى خارجية)، وذلك ما سنتطرق له في النقاط التالية:

أ. القوى الداخلية: إن من أهم الأسباب التي تجبر المنظمة على القيام بعملية التغيير هي بعض العوامل التي يكون منشأها داخليا أي يكون منطلقه من داخل المنظمة بحيث صنف العالمين كريتنر وكينيكي Kreitner&Kinicki القوى الداخلية إلى نوعين:

- مشكلات: امكانات تتعلق بالقوى العاملة وهي مشكلات ناشئة عن إدراك العاملين فيما يتعلق بطريقة معاملة المنظمة لهم.
- سلوك: قرارات المديرين فالصراع والاحتكاك الكثير بين الرؤساء والمرووسين يتطلب تنمية مهارات في التعامل لدى الجميع. ولقد أشار القريوتي إلى تلك القوى:
- تطور وعي العاملين وزيادة طموحاتهم وحاجاتهم.
- زيادة إدراك العلاقة بين البيئة الإدارية وبين رغبة العامل في تسخير جميع قدراته الكامنة للعمل.
- ادراك الصلة بين اسلوب التعامل مع العامل وافساح المجال له للمشاركة في اتخاذ القرارات ونتاجيته.(7)
- تغير في طرق القيادة من القيادة الكلاسيكية إلى القيادة بالأهداف، مما يجعل من القائد دوما ما يبنى التغييرات التي من شأنها تحسين ظروف العمل والانتاج.

ب. القوى الخارجية: تعتبر القوى الخارجية التي تستدعي القيام بعملية التغيير الأكثر تأثيراً لأنها عوامل يصعب التحكم بها من طرف المنظمة وهي تأثيرات خارجية تتطلب من المنظمة القيام بعملية التغيير ولعل أهم هذه القوى هي:

- المنافسة: إن فتح السوق العالمية للتجارة يفتح للمنظمة باباً كبيراً لدخول منافسين في منتجاتها لذلك وجب عليها مواكبة التغييرات التي تحصل في إطار تحسين المنتجات والخدمات من أجل المحافظة على استقرارها.(8)

- الأسباب التكنولوجية: وهي من بين أهم الأسباب الداعية للتغيير إذ تآثر ثورة المعلومات التكنولوجية بشكل كبير على أساليب الإدارة وتقديم الخدمات وعمليات البيع والشراء ، وهذه التطورات متسارعة الحدوث، لتجد المنظمة نفسها مضطرة لتطوير آليتها وذلك كي تجاري هذه التكنولوجيا.(9)

- الأسباب الاقتصادية: بعض الأسباب الاقتصادية كالتضخم وارتفاع معدل البطالة أو انخفاضه يمكن أن يآثر في تركيبة القوى العاملة في المؤسسة.

- الأسباب التشريعية: وهي التي تتضمن تغيير في التشريعات والقوانين الحالية أو ظهور أخرى جديدة تؤثر على سياسات المؤسسة كان تسن الدولة قوانين جديدة للتصدير والاستيراد مثلاً(10)

- الأسباب السياسية: إن الحروب والنزاعات الإقليمية بين الدول من شأنها أن يآثر تأثيراً كبيراً للقيام بعملية التغيير في المنظمة(11) كاعتماد المنظمة على استيراد المواد الخام من دولة نشأت فيها حرب قد يؤدي بها إلى الإسراع في التفكير في مصدر آخر لمادتها أو قد يؤدي بها إلى تغيير نشاطها.

- الأسباب الاجتماعية: تزايد الاهتمام بالقضايا والمسائل الاجتماعية وتزايد ادراك المنظمة بمسؤولياتها الاجتماعية.(12)

مقاومة التغيير التنظيمي: في معظم الأحيان يميل الأفراد إلى مقاومة التغيير خاصة في مرحلة حل الجمود ومرحلة التغيير ، وهي فشل ظاهري أو غير ظاهري لأعضاء المنظمة تدعيمها ومساندتها

المجهودات التغيير. الذي يفقد توازن وتماسك جماعة العمل في وظائفهم المعتادة والمألوفة لديهم نظرا لإجبارية إعادة التنظيم في ميدان العمل والذي بدوره واقع تحت تأثير قوى خارجية وداخلية.⁽¹³⁾

- وتكون المقاومة مثلا ، على شكل الرغبة أو الميل الملازم للفرد في محاولة الضبط الذاتي لتوقعاته وتنبؤاته عن طريق قوة معاكسة يواجه بها التغيير "مقاومة التغيير" .

- أما المقاومة عند الأعرجي 1995 تأخذ شكلا آخر وذلك بأن يقوم الموظف بإجراءات مناقضة أو مناهضة لعمليات التغيير ، هذه المقاومة قد لا تكون سلبية في أغلب الأحيان بل إيجابية وتتمثل إيجابية المقاومة عندما يكون التغيير المقترح سلبيا بمعنى أن الفوائد المتحققة منه أقل من التكاليف المدفوعة وعدم الامتثال له يصب في مصلحة الإدارة ، أما سلبية المقاومة فإنها تتم عندما تكون نتائج التغييرات إيجابية ومردودها على الموظف والمنظمة كبير مقارنة بتكاليفها.⁽¹⁴⁾

- أسباب مقاومة التغيير

هناك العديد من الأسباب التي قد تجعل الفرد مقاوما للتغيير ولعل أهمها يكمن في التالي:

- 1- الخوف من المجهول، الذي يأتي به التغيير
- 2- نقص المعلومات عن محتوى التغيير لنقص الإتصال والإيضاح من طرف الإدارة
- 3- الخوف من فقدان الخبرة المكتسبة وعدم الجدوى منها في ظل التغيير الحاصل
- 4- عدم النفع الحقيقي أو المتوقع من التغيير وتبقى وجهة نظر كل فرد للتغيير مختلفة
- 5- الخوف من فقدان السلطة أو بعض الحقوق المكتسبة. كون التغيير يلغي بعض المهام ويضيف بعض الإلتزامات⁽¹⁵⁾
- 6- نقص مصادر المعلومات، عن التغيير مما يشعر الأفراد داخل المنظمة بأن التغيير شيء مجهول المعالم وغامض.
- 7- الوقت غير الملائم "فترة التغيير"، فقد تكون المنظمة في فترة كساد بالتالي الوقت غير ملائم للتغيير.

8- الارتباط بما تعود عليه الأفراد من عادات في العمل فمن الصعب تغيير هذه العادات بين ليلة وضحاها.

كما يضيف بعض الباحثين تهديد مصالح ومزايا مكتسبة، الافتقار للموارد، توفر عدم الثقة، الخوف من الفشل، الضغط من الزملاء بالإضافة إلى تأثير كل هذه العناصر من شأنها أن تكون سببا يحول دون سير عملية التغيير التنظيمي وتكون عائقا أمام تحقيقه للأهداف التي وضع من أجلها.

- إستراتيجيات المنظمات في التعامل مع مقاومة التغيير: هناك ست طرق للتعامل مع مقاومة التغيير

أ - التعليم والاتصال Education and communication:

هذه الإستراتيجية تساعد العاملين على رؤية الحاجة للتغيير والوقوف على منطقة، وقد تتخذ عدة أشكال منها المناقشة الفردية، والعرض للمجموعات، أو مذكرات وتقارير، ويتم اللجوء إلى هذه الطريقة في حالة قصور المعلومات المتوفرة عن التغيير أو التحليل المشوه أو الخاطئ للمعلومات المنشورة عن عملية التغيير، ومن أبرز إيجابيات هذه الطريقة أنه عند اقتناع العاملين في هذه المعلومات سيساهمون في عملية تطبيق التغيير. بينما يعاب ذلك أنها تستغرق وقتا طويلا وبشكل خاص عندما يكون عدد المعنيين التغيير كبيرا.

ب - المشاركة والاندماج Participation and Involvement:

و تستخدم هذه الطريقة عندما يكون الأفراد العاملين أو المتأثرين بالتغيير يمتلكون القدرة العالية على مقاومته.

ج - التسهيل والدعم Facilitation and Support:

تقوم هذه الطريقة على تدريب العاملين على مهارات جديدة، وتقديم الدعم اللازم لهم وإعطائهم فترة راحة بعد التغيير.

د - التفاوض والاتفاق Negotiation Agreement:

تستخدم هذه الطريقة عند وجود جهة تتضرر بشكل كبير وواضح من عملية التغيير، وبنفس الوقت تمتلك تلك الجهة القدرة على مقاومة التغيير، كإعطاء النقابة معدل اجر أعلى لمتسببها من الأفراد العاملين في المنظمة مقابل الموافقة على تغيير تعليمات العمل.

ه - الاستغلال واختيار الأعضاء Manipulation and co-optation :

ويعوجب هذه الطريقة يوضع العضو من قبل الأفراد العاملين في موقع هام في عملية تصميم التغيير بهدف ضمان مصادقته على عملية التغيير.

و - الإكراه الظاهر وغير الظاهر Explicit and Implicit coercion :

ويعوجب هذه الطريقة يجبر العاملون على قبول التغيير فيهددون سرا أو علنا بفقدان وظائفهم أو بحرمانهم من الترقية أو الفصل أو النقل .. ويتم اللجوء إلى هذه الطريقة في حالة كون السرعة ذات أهمية بالغة ، وأيضا عندما يمتلك المنشؤون على التغيير قوة كبيرة، وأهم إيجابياتها أنها سريعة ولها المقدرة على التغلب على أي نوع من المقاومة وفي نفس الوقت لا تخلو هذه من سلبيات أهمها خطورة استمرار استياء العاملين من منشئي التغيير.(16)

ثانيا : نظام LMD

نشأة وتطور نظام LMD في العالم :

إن الانسجام الأوروبي لفترات التكوين بالتعليم العالي جاء بإعلان مشترك لأربع وزراء للتربية لكل من فرنسا، إيطاليا، ألمانيا والمملكة المتحدة، بجامعة الصوريون في 25 ماي 1998. هذا الإعلان الذي يدور حول معاينة اللاوضوح لأنظمة التعليم العالي للدول الأوروبية وعلى وجوب انسجام أنظمة التعليم العالي في كل الدول الأوروبية

الإعلان الجديد في بولونيا يوم 19 جوان 1999 وقعت عليه 29 دولة أوروبية يكرر تأكيدها على وجوب التناسق والانسجام الأوروبي بالتعليم العالي وخاصة الأوروبي منه وهذا ما أصبح

يعرف بنظام "ليسانس - ماستر - دكتوراه" كتوجه أوروبي جديد في ميدان التعليم العالي والذي انتهجته الجزائر وبعض الدول الأخرى⁽¹⁷⁾

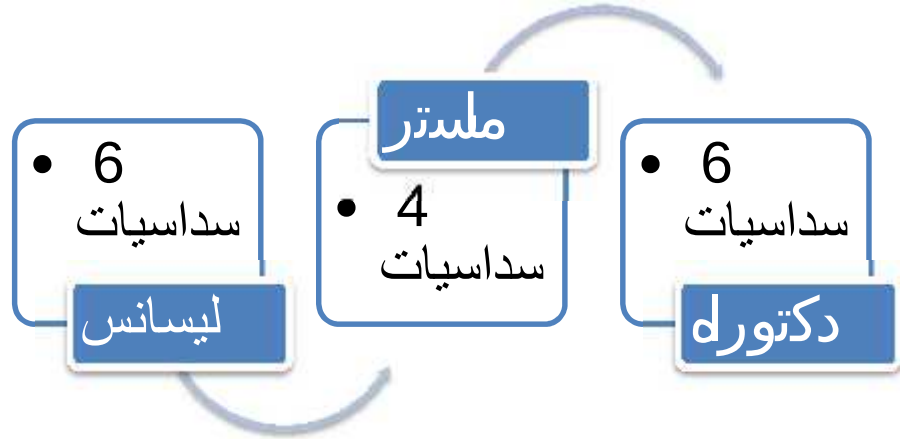
1- مفهوم نظام LMD:

في ديسمبر 2003 تم فتح المجال للجامعات الجزائرية لتقديم اقتراحات لفتح التكوين وفقا لنظام LMD وذلك بعد ان قامت اللجنة الوطنية لاصلاح المنظومة التربوية بالتغيير الموضوعي لاصلاح النظام التعليمي في الجزائر وعلى ضوء توصيات هذه اللجنة وتبعاً للمخطط الخاص بـاصلاح النظام التربوي التبنى من طرف مجلس الوزراء في 20 أبريل 2002 . حيث تم دراسة الملفات المقدمة يوم 07 جانفي 2004 ليتم المصادقة على ملفات 10 جامعات هي (عنازة، أم البواقي، برج بوعريش، قسنطينة، البليدة، بجاية، مستغانم، بومرداس، الجزائر وهران) و حددت الشهادة الأولى ليسانس وفق المرسوم رقم 04-371 المؤرخ في 2004/11/21⁽¹⁸⁾ لتشهد السنة الجامعية 2005/2004 اعتماد هندسة جديدة في عروض التكوين تتمثل في ثلاث مستويات، يقابل كل مستوى شهادة (ليسانس/ ماستر/ دكتوراه). وتم تنظيم هذه الهندسة الجديدة داخل مجالات كبرى تضم عدة اختصاصات متجانسة من حيث الكفاءات العلمية والتقنية وكذا المناصب التي يوفرها لها سوق العمل. ففي كل مجال يتم اقتراح مسارات نموذجية يمكنها أن تؤدي إلى تخصصات أو خيارات محددة والمسار النموذجي هو عبارة عن مجموعة من الوحدات التعليمية التي يتم تنظيمها وفق منطق تدرجي يهدف اكتساب كفاءات معينة.

و يتم تصميم هذه المسارات من طرف فريق تكوين، ويمكنها أن تتضمن مقاربات مشتركة بين الاختصاصات أو متعددة الاختصاصات أو احترافية. وهي تتيح توجيه الطالب تدريجيا حسب مشروعه الخاص أو المهني وتأخذ بعين الاعتبار تنوع الجمهور المستهدف وحاجياته. كما يتعين على المسارات ان تتضمن اكتساب كفاءات جانبية لا سيما التحكم في لغة اجنبية حية واحدة على الأقل وفي وسائل الاعلام الآلي.

و لقد تم تعميم هذا النظام بشكل كامل على مجموع التكوينات في مؤسسات التعليم العالي بعد أقل من عشر سنوات من إنطلاقه⁽¹⁹⁾. والشكل رقم (01) يوضح المسارات الثلاث الخاصة بنظام

LMD



الشكل رقم (01) يوضح أطوار التعليم في نظام LMD

المصدر: (وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، 2011، ص13)

أسباب اختيار الجزائر لنظام LMD:

- لم يكن اختيار الجزائر لنظام LMD كنظام تعليمي يتم تطبيقه في جامعاتها بشكل اعتباطي بل كانت هناك مجموعة من الأسباب الوجيهة التي تستدعي ذلك، ونذكر أهمها:
 - الهوة الكبيرة الموجودة بين الجامعة من جهة ومحيطها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي من جهة أخرى
 - عدم قدرة التكوين العالي للاستجابة بفعالية للتحديات التي يفرضها التطور السريع للتكنولوجيات والعولمة الاقتصادية والاتصال.
 - العلاقات الدولية التي فرضت وجود قواسم مشتركة بين أمم العالم.
 - نجاح الدول الأخرى التي اعتمدت على هذا النظام من قبل الجزائر. (20)
- #### 2- أهداف نظام LMD في الجامعة الجزائرية:

إن الاختلالات التي يعاني منها نظام التعليم العالي والتي أصبحت السمة المميزة للجامعة الجزائرية، أدت بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي القيام بإصلاح شامل من أجل التخفيف من حدة هذه الأزمة ومحاولة حل بعض مشاكل الجامعة الجزائرية، وذلك من خلال تطبيق مجموعة من الإصلاحات آخرها تطبيق نظام LMD والذي يسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف أهمها:

- رفع حظوظ نجاح الطالب إلى أعلى مستوى.
 - تمكين الطالب من اختيار شعبة ما وهو على بينة من قدراته الفردية وإمكانياته.
 - المرافقة البيداغوجية المستمرة للطالب.
 - محافظة الطالب على المكتسبات المحصلة مع إمكان الاستفادة منها عند التحويل.
 - تنوع المسارات الجامعية والمعار.
 - تقليص الإخفاق والتسرب الجامعي.
 - توفير تكوين يستجيب ومتطلبات الاقتصاد الوطني.
 - تمكن الطالب الجزائري من دراسة برامج علمية.
 - اندماج المتخرج الجامعي بكل سهولة في الشبكة العالمية للعمل أو التكوين.
- إذا تمعنا جيدا في أهداف نظام LMD على الصعيد الدولي، وأهدافه على المستوى المحلي، فإننا نجد أنها تهدف إلى المرامي نفسها، بالرغم من الاختلاف الجغرافي والحضاري والاقتصادي.
- إن هذا النظام يدخل ضمن عولمة التعليم العالي، فالدول السائرة في طريق النمو كالجائز لا تملك القدرة على عدم تبني مثل هذا النظام، في وقت أصبحت نوعية التعليم العالي تقاس من خلال المعايير الدولية.

التجربة الجزائرية في ضمان الجودة من خلال تطبيق نظام LMD:

لقد كان إنشاء المجلس الوطني للتقييم سنة 2008 بمثابة أول خطوة فعلية تسعى تجسد الإرادة الحقيقية لتطبيق ضمان الجودة في التعليم العالي، حيث وتجسيدا لهذا التوجه الجديد دأبت المؤسسات الجامعية على تنظيم ملتقيات وطنية ودولية لمناقشة إشكالية التكوين الجامعي في الجائز، على غرار الملتقى الدولي الذي نظمته الوزارة الوصية بمساهمة البنك الدولي يومي 1-2 جوان 2008، والذي

اعقبه في يومي 3-4 من جوان 2008 اجتماع لمسؤولي الوزارة مع خبراء دوليين في ضمان الجودة، بحيث خلص هذا الملتقى إلى مجموعة من التوصيات، أهمها:

- ارتباط الاجراءات بنصوص تشريعية وتنظيمية تستهدف مختلف مكونات ونشاطات المؤسسات.

- ضرورة التقييم الداخلي والخارجي الذي يشمل وصفا دقيقا لما هو موجود

- انشاء هيئات وطنية لضمان الجودة مثل اللجنة الوطنية لتطوير نظام ضمان الجودة في التعليم العالي

و الواضح أن التوجه نحو بحث آليات ضمان الجودة ونوعية نشاطات التعليم العالي في الجزائر تواجه مجموعة من العراقيل والصعوبات ومن بينها غياب ثقافة التقييم والجودة عن مشهد التعليم العالي في الجزائر وعامل مقاومة المشروع التغييري وقلة التدريب والتكوين لدى الأساتذة من جهة والإداريون الذين يسهرون على تطبيق مبادئ نظام الجودة في مؤسسات التعليم العالي من جهة أخرى، ظف إلى ذلك نقص الامكانيات المادية والتنظيمية الضرورية لذلك.⁽²¹⁾

3- تقييم تطبيق نظام LMD في الجامعة الجزائرية:

إن الجامعة الجزائرية اليوم أصبحت مطالبة في كل مرحلة بمواجهة ضغوطات وتحديات العولمة والانفجار المعرفي، فمتطلبات القرن الحالي تقتضي مراجعة أهدافها وهيكلها على النحو الذي يتوافق مع التحولات، وإعادة النظر في فلسفتها وبرامجها، فالمفروض أن الإصلاح لا يأتي من فراغ بل هو نتيجة تغيرات وحراك اجتماعي محلي ودولي تابع من واقع هذه التنظيمات وما تعرفه من مشكلات، بمعنى أن الإصلاح يكون تابع من ذاتها قبل أن يكون فوقها.

إن ما تعيشه الجامعة الجزائرية الآن من إصلاحات راهنة، هي ضرورة ملحة فرضتها متغيرات العولمة واقتصاد السوق وهو تابع لموجة الإصلاحات التي عرفتها أوروبا وأمريكا، وعلى هذا الأساس فإن نظام LMD في الجزائر يجب إخضاعه لبعض الانتقادات وعرض بعض سلبياته وإيجابياته على النحو التالي:

على الرغم من الايجابيات التي جاء بها نظام LMD والتي من أهمها:

- التسجيل يكون مباشر ولا يخضع لعملية التوجيه المركزي.

- مرونة نظام التقييم والانتقال مما يسمح بفرص نجاح أكبر.
 - تقليص الحجم الساعي بحيث تعطى الأهمية للبحث والمطالعة - 25 ساعة دراسة خلال الأسبوع فقط.
 - تقديم تكوين بمواصفات عالمية.
 - يضمن تكوين نوعي وفق الاختصاصات المفتوحة.
 - تلبية حاجات قطاع الشغل وتفعيل العلاقة بين الجامعة والمحيط الاقتصادي والاجتماعي.
 - انفتاح الجامعة الجزائرية على العالم وتشجيع التعاون مع الجامعات الدولية.
 - تقوية المهمة الثقافية للجامعة بإدخال المواد التثقيفية إضافة إلى التخصصات الرئيسية.
 - يقدم شهادات معترف بها دوليا.
- إلا أنه وكغيره من الأنظمة يواجه نظام LMD في الجزائر عدة صعوبات تعرقل تطبيقه السليم وتعيق تحقيق الأهداف المرجوة منه، جعله يصطدم ببعض المغالطات والتي من أهمها: (22)
- قلة التأطير مع انعدام شبه كلي لدور الأستاذ الوصي مما يجعل النظام لا يتوافق والطموحات المرجوة منه (التكوين النوعي).
 - افتقار أغلب جامعاتنا إلى مخابر البحث والكتب العلمية المواكبة للتطور الحاصل في ميدان التعليم، مما يجعل الطالب لا يستفيد من الوقت الممنوح له في هذا الإطار.
 - عدم تمكن الطلبة من الاستفادة بشكل جدي ولائق من خدمات الإعلام الآلي والإنترنت.
 - قلة المؤسسات الاقتصادية في الوطن مما يرهن فرص إيجاد مناصب العمل .
 - انعدام العقود مع الشريك الاقتصادي وغياب كامل للخرجات العلمية والتربصات الميدانية.
 - التكوين لنيل الشهادات المهنية يكون متخصص وحسب المنطقة، مثلا شهادة طالب متخرج من جامعة معينة تختلف عن شهادة طالب متخرج من جامعة أخرى في نظر قطاع الشغل.
 - استقلالية المؤسسات الجامعية وإن كانت تسمح بالمنافسة بين الجامعات فإنها تخلق نوع من أنواع الالاستقرار في قيمة الشهادة، وهذا ما جعل النظام في فرنسا لا يكتب له النجاح لحد الآن.

- قضية تصنيف الشهادات عند الوظيف العمومي وما يمكن أن تخلقه من مشاكل مع شهادات النظام القديم في ظل انعدام النص القانوني.
 - إن التوجه نحو الليسانس المهنية يطرح في بعض التخصصات هجرة الطلبة نحو هذه التخصصات المهنية الشيء الذي يدفع ببعض الأساتذة والبيروقراطيين لتشكيل جماعات عمل لخلق شهادات مهنية، لا لتطوير نظام LMD وإنما لحفظ مناصب عملهم.
 - صعوبة اختيار المسار أو المشروع التكويني للطلاب (17-18 سنة) الذي يترتب عنه لاحقا اختيار مهني، لاسيما وإذا علمنا أن الطالب في الجزائر ظل لفترات طويلة بتكوين محدود وضعيف في مراحل ما قبل الجامعة، وإذا كان ممكنا فإنه يتطلب حياة إمكانيات ثقافية وفكرية كبيرة للفرد في المجتمع الجزائري والطالب على الخصوص.
 - وأهم مشكل هو قلة الإعلام في الأوساط الطلابية مما يجعل الطلبة المسجلين فيه لا يعرفون أي شيء عنه ولا عن مستقبلهم التعليمي.
- لذلك فقد دأبت الوزارة الوصية على تنظيم ندوات علمية قصد تقييم هذا النظام في الجزائر، ولعل الندوة الأخيرة التي تم عقدها خلال شهر جوان 2016 خير دليل على المتابعة المستمرة للجهات الوصية على مدى تلاءم الجامعة الجزائرية مع هذا النظام، حيث طرحت مجموعة من الأسئلة المهمة في هذه الندوة التي حضرها رؤساء مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي وإطارات الإدارة المركزية وممثلو القطاع الاقتصادي والاجتماعي ورؤساء الهيئات الوطنية البيداغوجية العلمية وممثلو الأساتذة والطلبة وخبراء طرحت خلالها مجموعة من الأسئلة المهمة من بينها:
- هل أخطأنا أو تسرعنا في اعتماد نظام ل-م-د؟
 - هل تم التفكير مليا في المقاربة المفاهيمية وانضاجها بالقدر الكافي وتقاسمها مع الآخرين.
 - هل كان المسعى المتبع في وضع النظام موضع التطبيق وجيها ومثاليا.
 - هل كانت الهيئات المكلفة بضمان متابعة تطبيق النظام ملائمة ووجيهاة
 - هل تم فعلا تنفيذ القرارات المتخذة
 - هل كانت المرافقة التنظيمية وتلك المتعلقة بالموارد البشرية والمادية فعالة؟(23)

إن المتمعن في هذا النظام يرى أنه يسمح بتكوين جامعي يتسم بالحياة والعصرية ويرتبط بالمحيط الاقتصادي والاجتماعي والتفتح عليهما، لكن أي إصلاح مرهون بمدى توفير الظروف الملائمة لنجاحه، فهذا ما يعاب على هذا النظام الذي لم يوفر له المناخ في الوقت الحالي ماديا وبشريا ك:

◀ نقص المرافق البيداغوجية- المخابر، قاعات المطالعة، مكتبات متخصصة... الخ.

◀ النقص الفادح في التأطير لاسيما غياب الأستاذ الوصي.

وما يلاحظ كذلك هو عدم جاهزية القوانين المسيرة له والاكتفاء بقوانين النظام القديم، فمثلا الشروط التي تتحكم في إعادة التوجيه والتحويلات تجده يعبر عنها دائما بعبارة يتحدد لاحقا، وهو ما يظهر جليا في القرار الوزاري المؤرخ في 23 يناير 2005 الذي يحدد تنظيم التعليم وضبط كفاءات مراقبة المعارف، إضافة إلى غياب النصوص القانونية التي تضبط كفاءات الانتقال من الليسانس إلى الماستر ومن الماستر إلى الدكتوراه.

كما يلاحظ كذلك أن هذا النظام يواجه صعوبات كبيرة في التطبيق كونه ليس متعلقا بالجامعة وحدها بل يتعداها إلى الشريك الاقتصادي الذي هو الأخير يخوض تجربة جديدة متمثلة في الخصخصة والمؤسسات الصغيرة وفتح المجال للمستثمر الأجنبي، يضاف إلى ذلك عدم استعداد واستيعاب الأسرة الجامعية وعلى رأسها رؤساء المؤسسات الجامعية والأساتذة للتغيرات التي يفرضها النظام الجديد، هذا الأخير يستوجب استنفارا قويا لجميع الإمكانيات المادية والبشرية.

هذا ونشير أن الوزارة الوصية استعملت كل الطرق والأساليب من أجل تطبيق هذا النظام وتعميمه، وتناست الطريق السليم وهو الحوار والنقاش وفتح الباب أمام كل الشركاء لتقديم الآراء حول هذا النظام، فهذه التجربة وإن استوفت حقها من التحضير المادي والأكاديمي فهي لم تستوف حقها من النقاش حول آلية التطبيق في الجامعة، وهو ما يبقى هذا الملف أرضية للنقاش والإثراء حيث يبقى عاملا من عوامل استقرار الجامعة ويساهم في كل ما من شأنه المحافظة على استقرارها ورفقها والنهوض بها إلى مصاف الجامعات العالمية.

الهوامش:

مقاومة التغيير التنظيمي في الجامعة الجزائرية في ظل تطبيق النظام الجديد LMD ————— سمائي حاتم

- 1- حسين الطيب : الممارسة السوسولوجية في الجامعة واقعا وتمثلا لها لدى أساتذة علم الاجتماع (دراسة ميدانية لجامعة عنابه) ، رسالة لنيل الماجستير علم اجتماع التنمية ، جامعة منتوري قسنطينة ، 1998 – 1999 ص 72
- 2- الشماع خليل محمد حسن وخيضر كاظم محمود.(2005). نظرية المنظمة. ط2. دار المسيرة للنشر. عمان. الأردن. ص 103
- 3- المرهضي سنان غالب.(2010). نظرية المنظمة والتغيير التنظيمي. ط4. مركز الأمان للنشر والتوزيع. صنعاء. اليمن. ص 187
- 4- النجار فريد.(2006). التغيير والقيادة والتنمية الإدارية. الدار الجامعية . الاسكندرية. ص12
- 5- العميان، سليمان محمود.(2002). السلوك التنظيمي في منظمات الأعمال. دار وائل. الأردن. ص 145
- 6- الصيرفي، محمد.(2008). إدارة التغيير. دار الفكر الجامعي . مصر. ص 34-36
- 7- الفريجات، خيضر كاظم محمود واللوزي، موسى سلامة والشهابي، أنعام.(2009). السلوك التنظيمي. أثراء للنشر . عمان. الأردن. ص 342.
- 8- رمضان، ريم.(2005/2004). إدارة التغيير التنظيمي (دراسة واقع عملية التغيير لتطوير المنظمات السورية). أطروحة دكتوراه غير منشورة. جامعة دمشق. سوريا. ص 75
- 9- العطيات، محمد بن يوسف النمران.(2006). إدارة التغيير والتحديات العصرية للمدير. دار الحامد للنشر والتوزيع. عمان . الأردن. ص 99
- 10- قريشي، محمد(2014/2013). التغيير التكنولوجي وأثره على أداء المؤسسات من منظور بطاقة الأداء المتوازن. أطروحة دكتوراه علوم غير منشورة. جامعة محمد خيضر بسكرة. الجزائر. ص 78
- 11- بوداود، فاطمة الزهراء.(2007/2006) التغيير والتطوير التنظيمي وتأثيره على سلوك وأداء الأفراد في المنظمة. مذكرة ماجستير غير منشورة. جامعة بومرداس. الجزائر. ص 6
- 12- الفريجات، خيضر كاظم محمود واللوزي، موسى سلامة والشهابي، أنعام. السلوك التنظيمي. مرجع سابق. ص 343
- 13-Alain Blanchet et A . Trognon : « La psychologie des groupes » , Nathan , paris , 1994 , p 48.
- 14-احمد سالم العامري ، صر محمد الفوزان : " مقاومة الموظفين للتغيير في الاجهزة الحكومية بالملكة العربية السعودية اسبابا وسبل علاجها " معهد الادارة العامة ، مجلد 37 ، العدد 3 ، نوفمبر 1997 ، ص 356.
- 15-الداوي، الشيخ وشتاتحة، عائشة.(2010). مدخل في تحليل التغيير التنظيمي وطرق تعامله مع مشكل المقاومة. ورقة بحث مقدمة في الملتقى الدولي حول الإبداع والتغيير التنظيمي في المنظمات الحديثة . جامعة البليدة يومي 12-13 ماي 2010.
- 16-يسن عامر سعيد.(1992)، استراتيجيات التغيير وتطوير منظمات الأعمال، مركز وايد سيرفيس للاستشارات والتطوير الإداري، القاهرة. ص 75.
- 17-زرزور، أحمد.(2006). تقييم تطبيق الإصلاح الجامعي الجديد في ضوء تحضير الطلبة لعالم الشغل. مذكرة ماجستير غير منشورة. جامعة منتوري قسنطينة.
- 18-حامدي صورية. (2014)، واقع وتحديات اصلاح التعليم العالي في الجزائر من 2004-2014 . مذكرة لنيل شهادة ماستر في العلوم الساسية والعلاقات الدولية. جامعة محمد خيضر . بسكرة
- 19-وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.(2012) التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر 50 سنة في خدمة التنمية(1962-2012) ص 25.
- 20-شريط، كمال.(2014). دور الإصلاحات الجامعية في الجزائر (نظام LMD) في تحسين التنسيق بين مخرجات التعليم العالي وسوق العمل، المؤتمر الدولي تكامل مخرجات التعليم وع سوق العمل في القطاع العام والخاص ، جامعة البلقاء التطبيقية وأكاديمية جلوان، عمان في 28أفريل – 01 ماي 2014، الأردن.
- 21-بن حسين، سمير. (2015). تقييم فعالية خلا ضمان الجودة في المساهمة وبناء وتطوير نظام ضمان جودة التعليم العالي في الجزائر. مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية. العدد 08 . جامعة قاصدي مرّاح ورقلة.
- 22-حرز الله عبد الكريم، بداري كمال.(2008) نظام LMD ليسانس ماستر دكتوراه. ديوان المطبوعات الجامعية ص 90.
- 23-وزارة التعليم العالي.(2016).اصلاح التعليم العالي من خلال تطبيق نظام LMD. الندوة الوطنية للجامعات الموسعة للقطاع الاقتصادي والاجتماعي والمخصصة لتقييم تطبيق نظام ل-م-د.

الطقوس العلاجية الجماعية وأبعادها النفسية والاجتماعية الأستاذة فاطمة الزهراء شحان، جامعة أدرار

ملخص:

تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على الظواهر الطقسية الجماعية والتحديد العلاجية حيث بداية تطرقنا إلى الجماعة العلاجية ومن ثمة تعريف الممارسات العلاجية الجماعية الفلكلورية وأبرز وظائفها النفسية والاجتماعية، وأهم الطقوس العلاجية الجماعية عموماً، مع تسليط الضوء على أهمها وأكثرها انتشاراً بولاية أدرار على وجه الخصوص، لتركز في هذا العنوان على طقس يتخذ كطريقة علاجية لبعض الإعاقات النفسية بل وحتى العضوية بالمنطقة، والمعروف باسم -لعبيد- وأخيراً تفسير الطقوس العلاجية.

الكلمات المفتاحية: الطقوس – العلاج الجماعي – الفولكلور

Abstract: In fact, the current study aims to identify the liturgical folk group therapeutic phenomena in Adrar and the most important psychological and social functions performed in the community and which are still prevalent and dominant on the minds of people who exercise frequently.

In addition to that (karkabo or ritual of laabid) from the therapeutic perspective and recreational manifestation of these practices, to which we pointed out in this study; and finally, we tried to interpret these therapeutic ritual .

Keywords: ritual, group therapy, folklore.

مقدمة:

تعرف منظمة الصحة العالمية الطب الشعبي فتشير أن "الطب الشعبي شكل من أشكال الطب التقليدي وتعرفه بأنه " يشير إلى الطرق والوسائل التي تنتمي إلى تراث كل مجتمع وتنتقل من جيل إلى جيل". (1)

وتعرفه أيضاً على أنه "حصيلة مجمل المعارف والمهارات والممارسات القائمة على النظريات والمعتقدات والخبرات المتأصلة في مختلف الثقافات سواء كانت قابلة للشرح والتفسير أم لا؛ وتستعمل في صيانة الصحة والوقاية من الاعتلال البدني والنفسي وتشخيصه وتخفيفه ومعالجته". (2)

وهذا فالعلاجات التقليدية الشعبية بما تقوم عليه من معتقدات وما يدور حولها من طقوس وممارسات وأساطير وتعبيرات رمزية؛ تعتبر من أبرز الظواهر التي يعرفها المعتقد الشعبي المغاربي والمشرقي من الوطن العربي والمميزة لتراثه.

ويعد العالم الانجليزي وليم تومز (william thoms) من الذين صاغوا مصطلح الفولكلور والكلمة تتكون من مقطعين (the folk) و تعني الشعب او العامة و المقطع الثاني (lore) ويعني المعرفة و بالتالي فهو معرفة الشعب او حكمة الشعب ؛ اقترح المصطلح ليدل على دراسة المعتقدات و العادات و التقاليد الماثورة وقصص الخوارق الغامضة و الاغاني و الامثلة الشعبية والموروثات الثقافية وغيرها ، ومن خلال ما سبق فالفولكلور هو التراث الشعبي المادي المجسد في العادات و الطقوس، و اللامادي و المتمثل في المعتقدات والذي ينتقل بين الافراد اثر الذاكرة الجماعية او الممارسات الطقسية و بالتالي هو وسيلة لابرار الهوية و تعميق جذورها ضف كونه يهتم بالطبابة الشعبية و يحاول معرفة ما نشأ منها باثر الاساطير و المعتقدات و تلك الناتجة من الخبرة والتجربة (3) . وإذا أردنا أن نصنف هذه العلاجات ضمن الطبابة الشعبية فمنها الفردية كالراقي والعشايي والمجبر وغيرهم. أما الجماعية فتتمثل في فرق فلكلورية تقوم بوظائف علاجية كالزار والنشرة والحضرة...الخ.

هذه الظواهر وخاصة منها المحيرة والمثيرة للاستغراب والانبهار تشد إليها بعض الأفراد والجماعات ومن خلالها يوجهون سلوكياتهم وتتشكل هويتهم الفردية والجماعية من خلال التنشئة وأحياناً أخرى تعتبر رموزاً تعبر

عن تصوراتهم وقيمهم ومعتقداتهم، هاته الظواهر الطقسية التي يعتبرونها وسيلة اتصال بين الدنيوي والمقدس، وهذا فهي تأخذ شكل القداسة وذلك لاحتوائها على رموز مقدسة وأذكار وأدعية...الخ.

1_ الجماعة العلاجية:

يمثل الطب الشعبي موروث من الموروثات الثقافية و خاصة الجماعي منه اذ يتم الإقبال على الجماعة العلاجية من طرف الآخر لأنه يجد فيها الوقوف إلى جانبه وتدعمه في شدته ومرضه،

على اعتبار أنه كان في حياة مليئة بالضغوطات والتالي فهو يأتي لهذه الجماعات الشعبية ليجد نوعا من الراحة أثناء تادية الجماعة لطقوسها، و على المشارك في الطقس أن يستظهر ألامه (التعب، الحزن...) ، ويبين أن مصيره هش وأنه جاء ليطلب المساعدة من الجماعة، وهو ما نعبر عنه في مصطلحنا العامي بالنية ، وعلى الجماعة أن تتجاوب معه في طلبه التدعيم والوقوف الى جانبه ليجد الراحة وتحطيم وحدته ويتخلص من معاناته وذلك باللجوء للمقدس، إذن فالفرد في عصر الحالي بدأ يبتعد عن الدين ولكن عند المرض يجد نفسه بحاجة إلى هذا الدين لكي يتخلص من المواقف التي تكون فوق قدرته، فهو دائما يحتاج إلى تجربة المقدس.⁽⁴⁾ وتجدر الإشارة الى أن هاته المجموعات العلاجية غالبا تنتسب الى طرق صوفية مثل الفرقة العيساوية و غيرها والتي تنتشر زواياها وموردوها في بعض التراب الوطني .

2. الممارسات العلاجية الجماعية الفلكلورية:

هي عبارة عن حفل ذو طقوس خاصة، منها ما يستهدف طرد الأرواح أو استرضائها ويتم ذلك من خلال تقديم أضاحي وقربان، ومنها ما يهدف إلى الترويح بشكله الشامل، بحيث تشكل الرقصات الفلكلورية في هاته الممارسات الطقسية الدعامة الأساسية مرفوقة بإيقاعات ساخنة وسريعة. ومن خلال تادية الرقصات التي تعتبر تعبير ثقافي للجسد فهو تعبير عن حالة انفعالية الجسم من خلالها يتسامى من كل ما هو مدنس إلى ما هو مقدس. تؤدي هذه الطقوس في شكل جماعي فرق أو جماعات أين يطغى عليها جو من الروحانيات، هذا الجو المفعم بالأهازيج والذي تصل بصمته إلى الآخر.

3. الوظائف العلاجية للممارسات الطقسية الفلكلورية: من أهم هذه الوظائف نجد:

– التنفيس: هو إطلاق سراح الانفعالات أو الرغبات المكبوتة بأي وسيلة من الوسائل، كإخراجها من العقل الباطن إلى العقل الظاهر، والتفكير فيها مرة أخرى وإرضائها بالفعل والعمل بمقتضاها، كأن يحصل الطفل على ما كان قد حرمه من لعب أو منزلة لدى أبيه أو أمه أو أستاذه أو يحصل شخص على ما كان يرغب فيه.

يورد علماء النفس اعتراضا فيقولون فيما يخص فعالية العلاج من خلال التنفيس فيما إذا كان النجاح في العلاج يرجع في الواقع إلى التنفيس نفسه أو إلى استعادات الذكريات الماضية، ونقل

الربغبات المكبوتة من العقل الباطن إلى العقل الظاهر؛ إن الأمرين كثيرا ما يحدثان معا عند التنفيس حينئذ يعد التنفيس وسيلة للإسراع في العلاج؛ على أن التنفيس قد ينفرد بالعلاج إذا كان السبب شعوريا يعلم به المريض ولكن يخفيه. (5)

- **التفريغ:** يرى المنحى التحليلي أن الحد من السلوك العدواني يتمثل في تفريغ الشحنات العدوانية ويعتقدون أصحاب هذا الرأي كذلك أن تفريغ ما بداخلهم من خلال نشاطات مثيرة وغير ضارة يمكن أن يحد من السلوك العدواني. (6)

- **التصريف:** هو تفريغ انفعالي يتخلص الشخص بواسطته من العاطفة المرتبطة بذكرى حدث صدمي، مما يحول دون تحوله أو بقاءه مولدا للممرض وقد يتم التصريف الذي يمكن افتعاله خلال العلاج النفسي. (7)

- **التسامي:** هو القدرة على التصعيد على ضوء إيمان الحالة أو الفرد بهذا التسامي تحت إيقاع الموسيقى والغناء الديني، حيث تترهل تدريجيا الحواس الخمس (العالم الحسي) فيضعف البصر ويقل السمع ويتعطل اللمس والذوق، وفي المقابل يبدأ الجهاز العصبي الذاتي اللاإرادي بالنشاط والحيوية (تتلاشى القدرة الحسية للعصب الذاتي تماما وتنشط القدرة الحركية له تماما)، فتزداد إفرازات المعدة دون أن يشعر بها (بسبب تعطل إحساس العصب التائه المغذي للمعدة، وتزداد ذبذبة الموجات الدماغية وكهربائيتها في المناطق الحركية في المناطق الحركية، في حين تنخفض في المناطق الحسية، ولذلك فعند توجيه أي ضربات عنيفة لهذا الشخص فإن النقل الحسي يكون عاجزا عن إشعاره بأي ألم (لأنه معطل). (8)

ونجد أن التسامي عند فرويد نوع من تعديل الهدف وتغيير الموضوع الذي يدخل فيه تقويمنا الاجتماعي (للمسألة) بعين الاعتبار، أما ميلاني كلاين فتشير إلى أن التسامي نزعة نحو تعويض وإصلاح الموضوع (الطبيب) الذي مزقته النزوات التدميرية إرباً في نفس ذلك الخط الفكري. (9)

- **التطهير:** هو التنقية وعند "أرسطو" هو تصفية انفعالي الشفقة والخوف اللذان تثيرهما التراجيديا، ويشير كذل إلى أن الموسيقى تمارس نوعا من التطهير بتأثيرها على الإنسان أي "يكون الناس جميعا في حالة تطهر وتستضيء نفوسهم وتبتهج"، وقد ورد مصطلح تطهير عند اليونان بمعاني عديدة: ديني، جمالي، فسيولوجي، طبي، وهنا يتضح أن التطهير يحتوي على عناصر فسيولوجية (الراحة بعد

توتر انفعالي كبير) وأخلاقية (الرفع من قدر مشاعر الإنسان). ويرى أ.أوزينغان(1886) وشارل ادوار جينيريه جرى (1887) مؤسسي الفن الحديث في عشرينات القرن العشرين في فرنسا: أن المهمة الرئيسية للفن هي التطهير.⁽¹⁰⁾

والتطهير هو اسم أطلق على أول منهج في العلاج النفسي وقد جاء من طقوس الإغريق المعتمدة في الشد والتلقين، بحيث يعقد المريض صلة مع مؤخرة عقله بواسطة التنويم أو بدونه، أي بوضع المريض في حالة التأمل والتفكير.

ويهدف العلاج بالتطهير إلى الاعتراف الكامل لا مجرد إقرار العقل بالوقائع بل تثبيت بواسطة القلب وإطلاق فعلي للمكبوت من الانفعالات، للاعترافات التي تكون إثر عملية التطهير أثر عظيم في نفسية الإنسان والشقاء الذي ينتج عنها غالبا ما يبعث على الدهشة.⁽¹¹⁾

مما سبق يمكن القول أن الوظائف النفسية التي تتيحها هاته الممارسات و المتمثلة خاصة في التطهير و التسامي تحسيد لأليات دفاعية ناجحة و مقبولة اجتماعيا فهي عبارة عن تحويل طاقة مرتبطة بدوافع المجتمع قيودا على اشباعها الى أهداف و انجازات يقبلها المجتمع .

فبعض العلاجات الجماعية الفلوكلورية تلعب فيها الحركة(الرقص) دور أساسي في اطلاق الطاقات المكبوتة في وجدان المؤدي من خلال عنف الحركة و عنف دق الطبول اذ يعبر المؤدي عن عواطفه و انفعالاته من خلال حركات الجسد و من خلال الاغاني و التراتيل المعينة تتحقق الاثارة النفسية داخل الجماعة دون قيود وهذا ما أشار اليه برونو ليفيين في دراسته عن الزار المصري و التي كانت تبحث في علاقة رقصة الزار بشعائر الرقص الطي عند شعوب اخرى وبجنون الرقص في العصور الوسطى⁽¹²⁾.

4. أهم الطقوس العلاجية الجماعية:

—فرقة عيساوة: يعود تأسيس هذه الفرقة إلى محمد بن عيسى بالمغرب الذي كانت حياته مملوءة بالمعجزات والخوارق، فكان بهذا شخصية أسطورية، تميز كذلك بإلقاء الدروس الدينية في الزوايا، وانتشر أتباع الطريقة بالجزائر و خاصة في المدينة، تلمسان، قسنطينة، عنابة⁽¹³⁾ . وفرقة عيساوة كغيرها من الفرق الدينية العلاجية يملكون أذكارهم (Dhikr) الجماعية التي يمارسونها إما في وقت الحضرة اليومية أو السنوية أين يتأسس الفرقة قائدهم المبرك، أما في الاحتفالات التي تهدف إلى العلاج

فإنهم يرددون أذكاهم الجماعية، ويعتبر هذا الذكر بما يحتويه من مدائح بمثابة تمارين تعبر عن الانتماء للسلف والتشبث بالدين؛ إذ تتكرر فيه أسماء الله الحسنى، وكذلك تذكر فيه آيات بيانات من الذكر الحكيم بصوت مرتفع. هذا الذكر الذي يمارس تحت إشراف الشيخ القائد.⁽¹⁴⁾

- **قناوة:** هي مستقاة من نفس التيار العيسوي، والتي نجدها عند الأمريكيين السود وإفريقيا الشمالية ويقال

أن قناوة تجمع كل الذين أتوا من عبيد إفريقيا السود عند وصولهم إلى المغرب بالخصوص حوالي القرن العشرين في فترة المبادلات التجارية بين إفريقيا السوداء إلى جنوب إفريقيا وإفريقيا البيضاء إلى شمال القارة الإفريقية.

طبع قناوة المغاربة يكمن في الخطاب الطقسي الذي يحتوي أولاً على:

1- تلاوة القرآن

2- أغاني تتلو تاريخ أجدادهم، أصلهم.

فالأولى تعتمد على الثقافة الإسلامية والأماكن المقدسة والأولياء الصالحين (الشخصيات الأسطورية). أما الثانية فيذكر فيها أسماء مبهمة وغريبة وهي قد تعود إلى أصلهم وفصلهم الأفروسوداني؛ وما يكمن ملاحظته عند قناوة بداية القيام بالطقس خليط من الابتهالات الدينية والتي يتضرعون فيها إلى الله ويذكرون الله بأسمائه ويصلون على الرسول الحبيب، هذا من جهة والرقصة الفريدة من نوعها والرائعة من جهة أخرى والمميزة كذلك، والتي يرجى من خلال الرقصات التي تحويها من خلال التبرك بالأولياء الصالحين بإخراج الجن الذي يستحوذ على الفرد أو العميل إذ نجدهم يقومون بعرض بعض الحركات كلما قاموا باستحضار الجني المستحوذ على الفرد عن طريق استخدام الخناجر، العصي، بعض الروائح والبخور.

ويعتبر هذا الطقس تقنية علاجية تشتهر بها مجموعة أو فرقة قناوة.⁽¹⁵⁾

- **الزار:** هو طقس جماعي نسوي أو حفل تطلق فيه البخور وتدق الدفوف وتهتز الأجسام وينادي على الجن أو العفريت ويطلب منه صراحة أن يترك جثة المريضة لقاء هدايا خاصة، قد لا يخرج الجن أو العفريت من أول مرة ولهذا قد يتكرر هذا "العلاج" مرات عديدة إلى أن يتم الشفاء.

والهدف أو الدافع لإقامة هذا الطقس هو العوامل النفسية التي كانت تعيشها المرأة كالاكتئاب والعصبية وبعض الاضطرابات العاطفية وأمراض عقلية ليست خطيرة، نظرا للكبت الذي تعيشه المرأة في البيت، وعدم مشاركتها في الأنشطة الاجتماعية غالبا التي قد تنفس عنها بعض معاناتها؛ ومن هنا تلجأ النساء إلى الادعاء بأمراض قد تكون وهمية وقد تكون حقيقية عليها تحظى بنشاط فيه من الحركات والظواهر الغريبة ما يفرج كرها، ويفرغ شحنتها المكبوتة، فهن يلجأن إلى الزار لاعتقادهن بجذواه⁽¹⁶⁾. والزار من الطقوس التي تشتهر بها مصر والسودان.

— **النشرة:** إن كلمة نشرة تعني أبعد المرض وهي طريقة علاجية تقوم في جماعة تستعمل لإبعاد أو خروج المرض وأحيان الشيء السيئ (الجن) وتتكون من عدة مراحل يتبعها تقديم شيء مقابل خروج الشيء السيئ وأهم ما يقدم غالبا هو أضحية (ذبح). ويقال أن النشرة أصلها بربري بعدها جاء الأفارقة وأخذوها منهم، ومن ثمة المسلمون وهذه الطريقة تعتبر ذات مفعول، ولا زالت موجودة في قسنطينة، فهذا الطقس العلاجي التقليدي والمتمثل في النشرة ينظم جماعيا بحيث تكون لها وظيفتين: وظيفة علاجية، وأخرى وقائية.

فهي إذن ذات وظيفة علاجية ووقائية من الأمراض العقلية والنفسية وذلك من خلال محاولتها لتحكيم وضبط الضغوطات الاجتماعية. إن طلب أو استدعاء هذه المجموعة العلاجية (النشرة) في حالة المرض يكون إما من طرف أفراد عائلة الحالة (المريض) أو من طرف الحالة نفسها⁽¹⁷⁾.

تتم المعالجة في (06) أيام ويجب أن تكون في فصل الخريف وأن تكون يوم الأربعاء في الصباح، والمريض لا يأتي وحده إنما يجب أن يأتي برفقة أحد من عائلته، يقومون بداية بزيارة الوالي في منطقة قسنطينة بحيث يكون عدد الأولياء الذين تتم زيارتهم أربعة (04 أولياء). والأولياء هنا بمثابة (المقدس) أو ما يعرف بالشخصية الأسطورية (Marabout) وهي شخصية مقدسة يزورها الناس، فقد تكون كما أشرنا سابقا ولي صالح أو أحد الصالحين كأمثلة على ذلك: سيدي راشد، سيدي علي مخلوف في قسنطينة.

ويتحصل الفرد على هذه الشخصية الأسطورية عن طريق الوراثة غالبا، والشخصية الأسطورية على عكس شخصية الطالب والمعالج التقليدي على اعتبار أن المعالج التقليدي أو الطالب في مكانه على عكس الشخصية الأسطورية.

وهناك من الأفراد أو الناس من يتخذ الشخصية الأسطورية بمقابل العلاج النفسي (Psychothérapie)

إن فعالية العلاج عن طريق الشخصية الأسطورية والذي يعادل وقد يتجاوز الأخصائي النفسي (Psychologie) يعود إلى كون الشخصية الأسطورية تتطلب من ثقافة المريض والتحاور معه.

من منطلق ثقافته فثمة إذن أرضية وأفكار من خلالها تبسط الشخصية الأسطورية نفوذها وهذا المفعول هو مفعول سحري، وكأمثلة للمقدسات كذلك القبة حيث يزورها أو يقبل عليها الناس، ففي الثقافة إذن يوجد شيء سحري يسمح أو يعطي مفعول علاجي نفسي وخاصة التداعي الحر (Suggestion)، أين تتشكل علاقة كبيرة وذات سيطرة على نفسية المريض.⁽¹⁸⁾

عند زيارة الأولياء الأربعة (الشخصيات الأسطورية) يجب على عائلة المريض أن تذبح في كل مكان حمامة أو ديك أو تضع حلوة قرب الوالي الصالح (مقدس) وكأنها هدايا للجن. تلبس المريضة أحسن حلة لها عند الزورة، ويصنع "أهل المريض حفلة لها وكأنها عروسة، وبعد الساعة الثانية عشر زوالا يقومون بالرقص في دار المريضة ويغنون ويدقون على الطبول، وتكرر هذه العملية (الرقصة) خمس مرات بحث يكون الغناء أو الأناشيد التي يرددونها دينية وبين الحين والآخر يذكرون الوالي الصالح وهي تعرف "بالتوبة" بعدها المريضة تبدأ بالرقص ببطء، ثم تزيد في الريتم إلى أن تصل حد تزيد في الحركات والتحرك بقوة وعنف، تزيد فيه حركات الرقص قوة وعنفًا حينما تسقط المريضة أو العميلة مغميا عليها في حال لا وعي، عندها يرشونها بماء الزهر ويشدونها حتى تستيقظ، وعند انتهاء المراسيم، أناس المريضة يستضيفون مجموعة الرقص (الطقس الفلكلوري)، تكرر هذه الطقوس لمدة 3-4 أيام، وفي هذه الفترة العلاجية يسهر أهل المريضة على رعايتها وحراستها.

وفي يوم الإثنين صباحا وهو آخر أيام النشرة، المريضة ترسل أو تعطي هدايا للفرقة أو المجموعة العلاجية الموسيقية السود، ثم تتقدم من الفرقة أو المجموعة الطقسية العلاجية الفلكلورية بحيث الفرقة تدق على الطبول والمريضة ترقص عشرة (10) رقصات، وهذه الإيقاعات التي تقوم بها الفرقة تشبه إيقاعات إفريقية، تكون هذه الإيقاعات سريعة والأصوات مرتفعة ورائحة البخور، والمريضة تكون في حالة وعي ولا وعي، وهي تصرخ وتضرب نفسها بجبلين (02) وعند رؤية هذه

الحركات يفسرونه على أن الجن بدأ يقلق قبل أن يخرج، ثم تسقط المريضة بعد هذه الحركات العنيفة، فيجلس أهلها بجانبها حتى تستيقظ وعندها يقولون لها أن الجن قد خرج منها. في نهاية الحفلة أو الطقس يجب على المريضة أن تغتسل وتغير ملابسها وهذه تعتبر وكأنها عملية تطهيرية، وترجع أو تندمج في أعمالها اليومية. وإذا لوحظ أن الحالة (المريضة) أصبحت في حالة عادية من خلال برنامجها أو أعمالها اليومية فيفسرون هذا بأن الجن قد قبل ما قدموه إليه وخرج، تكون هذه الملاحظة أو المراقبة على فترة عام، أما إذا رأوا أنها عادت إلى حالتها المرضية، فإنهم يعيدون الطقس وهكذا دواليك عام بعد عام.

يعلق الأطباء النفسانيون على هذا الطقس، فيشيرون أن هذه الأعراض والتصرفات الصادرة من الجماعة العلاجية وكل من الحالة هي أعراض هستيرية جماعية لكن "R.Bastide" لاحظ أن هذه الطقوس لديها وظيفة علاجية ووقائية للمرضى العقلين وكذلك لضبط التوترات الاجتماعية. فالطريقة العلاجية التقليدية والمتجسدة في "النشرة الجماعية" تعمل على إحداث نوعا من التكثيف للصراعات والحد منها في المجتمع. وتعتبر ديناميكية الفعل العلاجي للنشرة معقدا لأن هذا الإنجاز يتزامن فيه العلاج الاجتماعي مع العلاج النفسي.⁽¹⁹⁾

فهذه طريقة علاجية اجتماعية ونفسية، وهي تعطي وتوفر للفرد مجموعة من الدفاعات الثقافية الأثنوسيكولوجية بحيث تمكن العميل من مواجهة الصراعات التي تحيط به. والنشرة كما أسلفنا علاج اجتماعي ونفسي.

1- علاج اجتماعي (Socio-Thérapie): وذلك من خلال :

أ- التنظيم الطقسي الجماعي من طرف النسوة للنسوة، فهو حقل طقسي يقتصر على النسوة فقط، أين يستطيعون ترجمة وتفسير هذا التفاعل الذي بينهم وتعديل الوضعية أو المكانة السفلية التي تحتلها المرأة في المجتمع التقليدي والتي تعتبر المرأة فيها تابعة وخاضعة بحكم المجتمع الذكوري، فهي إذن هنا بمثابة تعويض لوضعية المرأة التي تتصف بالخضوع والنقص في المجتمع التقليدي.

ب- كونها جماعية تحوي جمع الأولياء والأقارب والأصدقاء أين تصبح محطة ينقطع فيها التوترات البينية أو الداخلية، بحيث يصبح شغلهم الشاغل هو المريضة بحيث يتجمعون حول هذه المصيبة التي

أصابتهم، ضف إلى ذلك أنهم يحضروهم للطقس ينزهلون بتلك الرقصات والشطحات الجسمية في هذا العرض أين المجموعة تصنع مشهدا مثيرا تؤكد من خلاله ضرورة التماسك والالتحام والتضامن.

2- علاج نفسي :

من خلال الارتباط ومشاركة المحيط العائلي للمريض في هذا الطقس (النشرة) أو الجو المملوء بالحرارة العاطفية الإنسانية، يساعد هذا على طرد العدوانية أو تفريغها وإعادة التنظيم المفترض أن يكون بين هؤلاء (المريض، الأقارب، الأصدقاء، الفرقة أو الجماعة العلاجية)، وهذا يتم على عدة مستويات :

أ- العميل (الحالة) تكون محمية ومراقبة من طرف عائلتها وتمتع بنوع من الحماية والرعاية بحيث يلبسوها أحسن حالة وتترين ويتركونها وحدها بعيدا عن الإزعاج، ومن خلال هذه الإجراءات فهي تعتبر مركز هذا العلاج وهي المهمة كذلك في هذا الحفل.

ب- أجواء الموسيقى والرقص وحركات الجماعة العلاجية تجعل للمريضة (الحالة) شيء من الحرية أين يخلق عندها نوعا من التنفيس.

ج- الاحتفال الدوري المتمثل في النشرة هو شيء جيد يشبه في ذلك العبادة التي تحسن من الاضطرابات النفسية. فالنشرة عبارة عن تجربة حامية وتصحيحية وهي طريقة جيدة تسمع بحجز أو جمع الصراع وإعادة تنظيم الآليات الدفاعية بالتدريج للوصول إلى وضعية أحسن فأحسن، وذلك من خلال الجمع الذي حول المريضة من طرف أهلها وأصحابها وأصدقائها.

إذن في حالات الاضطرابات النفسية وخاصة التي يسيطر فيها القلق تعمل الثقافة من خلال طقوس النشرة بتوفير بعض التعليمات أو التسهيلات أين يستطيع الفرد العميل الخروج عن المألوف دون رقابة اجتماعية، يعتبر علاج النشرة علاجا مؤقتا. (20)

فالعلاجات الجماعية التقليدية وخاصة التي تعود فروعها إلى الأصل الأفريقي هي علاجات جماعية متعددة الأقطاب؛ المطب ومساعدته هذا الأخير الذي يجمع بين قوة الأعشاب (التداوي بالأعشاب) وقوة الكلمة، وهي التي تهمنا كونهما علاج نفسي، فأغلب هاته العلاجات التي مرت بنا نجد أن لسلطان الكلمة الحظ الوافر في العلاج من خلال الهازيج التي تردد وما تحتويه من عبارات ذات دلالة و مدلول، فالكلمة تعني القوة وهي تحديد القوة نفسها في سلطتها المحررة، كما في

سلطتها المحطمة، فهي التي تشفي وترافق بل وتنشط أيضا مختلف مراحل الطقس العلاجي، ولذا فالكلمة تحرر، الكلمة تصلح ذات البين، والكلمة تعيد إدماج الفرد في المجتمع وهي لا تختزل إلى مجرد أداة للتواصل فقط.

5- أهم الممارسات العلاجية الجماعية بمنطقة توات:

منطقة توات أو ولاية ادرار تقع بالجنوب الغربي للوطن وتضم أربعة أقاليم وهي: اقليم تيديكلت، اقليم توات الوسطى، اقليم توات، اقليم قورارة.

— **الركيبة:** هي رقصة شعبية فلكلورية جماعية ولها مسميات عدة وذلك حسب المنطقة (المحاززية، أحواش، الحيدوس، الصف، الماية)، تقوم بها النساء من خلالها يعبرن عن أفراحهن وخاصة مأساتهن بواسطة حركات رقصية تمثيلية تعبيرية (رمزية) وتمرح بها الراقصة لأنها تجد كل المجال لأجل التعبير عن ذاتها الداخلية المكبوتة لديها لأجل علاجها من متاعب الحياة اليومية التي تعيشها.

ومن خلال الرقصة نشاهد عرض مسرحي بواسطة الميمية تروى لنا حكايات من الواقع الذي يعيش فيه المجتمع وهو ما نسميه في علم النفس بالسيكودراما⁽²¹⁾، بحيث تجتمع المجموعة الطقسية الفلكلورية النسوية في وسط الحلقة بالآهيم الإيقاعية تحرر أبيات شعرية من المديح والمجموعة تردد الكلمات، ثم تبدأ الزهوة يقمن النساء بالرقص بعض الأحيان فردي وأحيانا أخرى جماعي، ومن خلالها يظهرن الألبسة المختلفة والحلي والتجميل مرددين:

الله يا الله ما صلي وسلم عليك يا النبي مولاي محمد (تردد من طرف الجمع)

خليني بيني وبين سيدي ربي ولي قال شيء قاع تديه الريح
جيلي عكازي نمشي للنبي ورجليا ما يقدوا يمشوا⁽²²⁾

الحضرة: تتم بواسطة جماعة حاملين البنادير والطلبل في حلقة وهم جالسون أو واقفون في بعض الأحيان، يبدأ رئيس الفرقة (المداح) بالمدح من خلال كلمات دينية وتردد من طرف الجماعة في شكل مجموعة صوتية مع استعمال الإيقاع حتى تكون النغمة الموسيقية منسجمة مع الكلام وحركة المجموعة، أما بالنسبة للجالسين وخاصة عند النساء تكون فرقة خاصة بالإيقاع بحيث تصنع جو خاص وكأنها تعيش في عالم من الخيال ولا تدري بما يجري حولها، تكون حالة وعي ولا وعي

الطقوس العلاجية الجماعية وأبعادها النفسية والاجتماعية ————— فاطمة الزهراء شحان

عندها تقع المرأة (الراقصة) في حالة غيبوبة فيوتى لها بالبخور أو العطر أو الشيء الذي تحبه وهي في هذه الحالة حتى ترجع إلى وعيها. والأبيات التي ترددها غالبا هي:

صلى الله عليك يا زين العمامة

من هو واحد يا زين العمامة واحد هو اله يا زين العمامة

من هما اثنين يا زين العمامة آدم وحواء يا زين العمامة

من هما ثلاثة يا زين العمامة أصحاب الروضة يا زين العمامة

فالخضرة طقس فلكلوري خاص بالمديح الديني الذي يعبر عن حياة الأولياء الصالحين وشيوخ الزوايا بالخصوص (التوحيد، الرموز، الذكر...) ويستعمل هذا الطقس كطريقة علاجية نفسانية بواسطة الجدبة والنوبة والرقص الجماعي، وهذا بجوار زاوية أو ضريح شيخ والي صالح. (23)

طقس لعبيد في منطقة توات: لعبيد هو رقصة جماعية ذات طابع إفريقي، يستعمل فيه دف خاص مصنوع من خشب النخيل ومغطى من الجهتين بجلد الجمل يسمى بالدندون ويضرب عليه بعود معقوف يدعى "تقنقة"، الصناجات (قطع حديدية مغروفة)، وهي عبارة عن ثنائيات يدق بعضها على الآخر. (24)

تشكل فرقة أو مجموعة لعبيد من مجموعة من الرجال الحاملين للصناجات، وطبل عند رئيس الفرقة يتم الإيقاع على الطبل أو الدف أولا ثم ترديد الكلمات التي تشتمل على المدح النبوي أو كلمات شعرية يأتي بعدها الإيقاع على الصناجات حتى تكون النغمة منسجمة وتأتي الحركات الجماعية المتنوعة عند إشارة رئيسها بإشارة (قفر رئيس الفرقة) (25)

تنقسم هذه الرقصة إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ عادة بالصلاة على النبي وتعالى فيها عبارات مثل: "صلوا على محمد صلوا عليه وسلم".

المرحلة الثانية: يتم ذكر الأولياء الصالحين والرسول وبعض العبارات الدينية وغيرها مثل:

صلوا على محمد انبي صلينا

صلوا على محمد صلى وسلم عليه

لعفوا يا مولانا لعفوا يا مولانا

أرب أو يا محمد حبيب الله
لعزيز علينا يا ربي صلوا على محمد
توب علينا يا ربي أو لا إله إلا الله

المرحلة الثالثة: عادة تختتم هذه الرقصة بما يسمى "دنقه" وهي عبارة عن رقصة باداء سريع دون استخدام الآلات، بالأرجل فقط والضرب على الأرض بواسطة الرجلين وتقال فيها بعض الايات المتداولة في المجتمع المحلي مثل:

يا رجال الله الصلاح وين كنتو حضروا
من زار وزار انزورا لمقام ما هناني
يا شيخ مولاي الطيب يا اللي ضامني
رسول الله وين كانت التوبة
من عندو المفتاح إجل الباب (26)

تستدعي فرقة لعبيد في مناسبات عدة وأهم التي تكون لها علاقات بالمشاكل التي يعايشها الإنسان على سبيل المثال: إذا ما حلت بالبلاد نازلة يطلب منهم (المجموعة الطقسية - لعبيد-) الدعاء والابتهاال إلى الله حيث أن معظم المنتسبون إلى هذه الفرقة من ضعاف الحال مما يضيفي على دعائهم الصدق والإخلاص. (27)

ويستعمل كذلك هذا الطقس كعلاج لبعض الأشخاص المصابين بالأمراض النفسية والعصبية وحتى الجسمية أحيانا. (28)

وفيما يخص الطقس من بعده العلاجي، الفرقة أو المجموعة تتكون من حوالي 20-40 فردا غالبا والمستوى العمري من سن الرشد إلى سن الشيخوخة، ينقسم أعضاء المجموعة إلى العبيد الأحرار والعبيد فقط، بحيث يكون رئيس المجموعة من العبيد الأحرار وهم الذين لهم حق البيع والشراء.

تقوم المجموعة بزيارة المريض (العميل) قصد التبرك والتخفيف عنهم بالدعاء والصلاة على النبي، وأحيانا أخرى يطلب أهل العميل من المجموعة المحيي حيث تأتي المجموعة ويقرؤون للعميل

الفاتحة (يرفدو الفاتحة) ويدعون له بالشفاء، بعد القيام باستعراضات فلكلورية وأدعية مطولة في حلقة دائرية وأحياناً أخرى على صفين متوازيين.

ففي حالة كان العميل صغير السن (طفل) يقول كبير المجموعة بتقديمه إلى كل أعضاء المجموعة ليضع كل فرد منهم يده على العميل، ويدعو له بأدعية الشفاء بعدها يقوم كبير المجموعة بعد تلك الإيقاعات والرقصات بنزع العرق من جبهته بالسيكة (السيقة) "الصناجات" بعدها يقوم بتمرير هذه السيقة على جسد العميل وهو مستقبل القبلة.

تم هذه العملية وهي مرفوقة بدعاء شيخ كبير المجموعة بالصحة والعافية والهناء وطول العمر والأعمال الصالحة بالتهليل والتكبير والمجموعة يرددون الأهازيج قائلين:

لعفو يا مولانا لعفو لعفو يا مولانا لعفو

يا مالانا ليك جيئنا قاصدين يا مولانا لا تردنا خائبين

إضافة إلى هذه الطقوس هناك عملية التشريط للعميل (حجامة) على جبهته غالباً وأحياناً يقوم كبير المجموعة بالتبخير (أم الناس...الخ). وفي الأخير يقدم أهل العميل وليمة رمزية قدر المستطاع وبدون شروط للمجموعة (صدقة).

عند إتمام الطقس يغير اسم العميل غالباً خاصة إذا كان صغير في السن من طرف رئيس الفرقة بعد الموافقة الجماعية. أما الحالات التي تقبل على استعمال هذه الطريقة العلاجية طبعاً بعد أن طرخوا المصححات الحديثة هم: الحالات المحرومة من الذرية، الأفراد الذين لا تصلح لهم الذرية، الأشخاص الذين يمرضون دائماً، الأفراد الذين يواجهون مشكلات معينة سواء جسدية (الشكل، الكلام، الوقوف...) أو نفسية اضطرابات في الشخصية حيث يتم المثلث للشفاء بالنية الصافية والاعتقاد القوي والتوسل والتوجه إلى الله عز وجل.

ويترتب بعد هذه العملية الطقسية بالنسبة للحالات التي مثلت للشفاء أو تحقق لها مطلبها (المبيوعين) أن يستدعوا المجموعة مرة أخرى حيث يحضر أهل العميل "تيس" ويذبح ويوزع على العبيد والأقارب ويصبح هؤلاء تابعين لهاته الفئة. ومن كل عام يقوم أعضاء الفرقة أو المجموعة بجمع القمح والنقود الخاصة بالأطفال والأفراد المبيوعين للعبيد.

ومن هنا يمكن اعتبار طقس لعبيد أنه شعيرة يحمل طابع الرمزية التعبيرية ويتضمن عواطف ومشاعر من خلال الأفراد الذين يؤدونه وبشكل عام المجموعة العلاجية (مجموعة الطقس، عائلة العميل...) كما يشير إلى ذلك دوركايم إلى أن عملية البيع الرمزي وما تحتويه من طقوس هي عملية رمزية أو فعل رمزي يحمل معنى أو تصور لدى المجموعة الطقسية العلاجية، وهو ما يلمح إليه كليفورد جرتز في تعريفه للرمز.

6- تفسير الطقوس العلاجية:

إن الشخصية القاعدية عند الثقافتين الأمريكيين هي تلك المؤسسات (التنظيم الاجتماعي، الجهاز التربوي، المحرمات، الطقوس، الدين) والتي تعطي لكل ثقافة شكلها وبصمتها المميزة، والتي تظهر ذلك الخليط من النماذج الفكرية والسلوكية المقبولة من الأفراد والتي إذا ما خرج عنها الفرد أو الجماعة تولد لهم اضطراباً.

"إن تناقل التعليمات لأفراد الجماعة تمكن كل ثقافة من تشكيل شخصيتها القاعدية الخاصة بها" كما يشير إلى ذلك "KARDINER"، فمصطلح "الشخصية القاعدية" يحدد الخطوط السيكولوجية المشتركة لأعضاء الجماعة السوسولوجية من ناحية طريقة عيشهم، طريقة تصرفاتهم السلوكية، الميكانيزمات الخاصة بهم والتي تستخدم في حالة ضبط القلق وحل الصراعات الداخلية والشخصية القاعدية في الثقافة المغاربية تضم:

1- الإسلام.

2- الانتماء إلى الجماعة الإسلامية: أين ينمو الأنا الجماعي للفرد و الذي يكتسبه منذ الطفولة من خلال الأسرة، المدارس القرآنية، العمل، الطقوس... والانتماء إلى الجماعة الإسلامية ويصبح صلباً في مرحلة النضج مكوناً الأنا الأعلى الديني والاجتماعي.⁽²⁹⁾

إن هاته الوظائف: التنفيس، التطهير، التفريغ، التسامي وخاصة التنفيس والتفريغ لا تقتصر على المجموعة التي تقوم بالطقس فحسب، بل نجد عنده بصمة لدى الشخص الذي يطلب العلاج ولدى المتفرج أو الجمع الذي هو بمحاذاة المجموعة الطقسية وهو ما يعرف عند دوركايم بالعدوى الانفعالية والتي تتجسد في نظرية التقارب (Shellow and Roemer 1956) على أن سلوك الجموع ينشأ عن التقاء عدد من الناس ممن يتشابهون في الحاجات والأهداف والدوافع وما

الطقوس العلاجية الجماعية وأبعادها النفسية والاجتماعية ————— فاطمة الزهراء شحان

يجبون وما يكرهون، فحسب دوركاييم فإن العدوى الانفعالية المنضبطة يمكن أن تؤدي وظيفة نفسية واجتماعية مفيدة تتيح للجمهور التنفيس عن انفعالاتها وتأثراتها مما لا تستطيع التعبير عنه في الظروف العادية وتستثير المشاعر المعززة ل تماسك الجماعة، فالتجمعات المنظمة بأشكالها المتنوعة كما هو الحال في المراسيم الدينية قد تتيح المجال لسلوك جماعي ينسجم مع البنية الاجتماعية القائمة ويعززها.⁽³⁰⁾

خلاصة:

من هذا يمكن القول أن الطقوس العلاجية الجماعية الفلوكلورية هي عادة وتقليد مجتمعي اكتسبت صبغة المعتقد وبمعنى أصح المقدس، وهي عودة متجددة للمقدس باعتباره مرحلة متميزة من التعزيم الجماعي اين يتخلص الجميع من المندسات الناشئة عن اجتياح الثقافة الغربية، والحقيقة التي لا منى منها هي أن هاته العلاجات كانت و لاتزال تلعب أدوار نفسية اجتماعية تتجلى في كونها متنفس لمجتمعاتها المحلية كونها محطة من محطات التعبير عن الحاجة والمكنون عن طريق الكلمة و الموسيقى و حركة الجسد بالإضافة الى تناقلها كموروث ثقافي من جيل الى جيل وبالتالي الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع .

الهوامش:

- (1) منظمة الصحة العالمية (2013-2014)، إستراتيجية الصحة العالمية في الطب التقليدي (الشعبي)، جنيف، سويسرا ص15.
- (2) عبد الله بن محمد البдах، الطب البديل والتكميلي في المملكة العربية السعودية الواقع والمأمول، وزارة الصحة المملكة العربية السعودية ، د ط، ص03.
- (3) حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفولكلور و الفنون الشعبية، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية دط، ص2
- (4) -Denis Jeffrey, Jouissance du sacré (Religion et poste modernité), Armand Colin, Paris, 1998, p37
- (5) حامد عبد القادر، (1947)، العلاج النفساني، دار رجاء الكتب العربية ص152.
- (6) خزعل الماجدي، (1998)، بخور الالهة ، منشورات الأهلية ، لبنان، ط01، ص353
- (7) جان لابلان، وج.ب. بونتاليس، ترجمة مصطفى حجازي، (1985)، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ديوان المطبوعات، الجامعية، ط1، ص178.177.
- (8) خزعل الماجدي، (1998)، بخور الالهة ، مرجع سبق ذكره، ص426

الطوقس العلاجية الجماعية وأبعادها النفسية والاجتماعية ————— فاطمة الزهراء شحان

- (9) جان لابلاش، وج.ب. بونتاليس، ترجمة مصطفى حجازي، معجم مصطلحات التحليل النفسي مرجع سابق ص174.175
- (10) م. روزنتال - ب. يودين، (1987)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط6، ص131.
- (11) ك. يونغ، (1985)، علم النفس التحليلي، ترجمة: هاد الخياط، دار الحوار، سوريا، ط1، ص73
- (12) محمد الجوهري، علم الفولكلور دراسة المعتقدات الشعبية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990، ج2، ص601.
- (13) صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية و الزوايا بالجزائر تاريخها و نشاطها، دار البراق، لبنان 2002، ج1، ص256.
- (14) -Ali Aouattah, Ethnopsychiatrie Maghrébine, Ed l'Harmattan, 1993, Paris, p189-190.
- (15) -ibid p191-192.
- (16) بد المحسن صالح، (1998)، الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، نشر المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط2، ص86.
- (17) B-Bensmail (La psychiatrie aujourd'hui) office de publications universitaires p336.337 ,
- (18) - B-Bensmail (La psychiatrie aujourd'hui), op,cit p334,335
- (19) Ibid p337
- (20) Ibid p338
- (21) السيكونودراما: هي تقنية دعم نفسي تستخدم كطريقة نفسية علاجية جماعية فهي تمثل حلقات للتنفيس الانفعالي الاحتوائي من خلال الكلام و تجسيد حركات مختلفة.
- (22) الحاج محمد بلغيث، (2003)، إيقاعات شعبية، عادات وتقاليد فلكلورية في الجنوب الغربي، مديرية الثقافة لولاية أدرار، طبع الجاحظية ص2827.
- (23) نفس المرجع السابق ص16.
- (24) قدي عبد الحميد، (2006)، صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، جامعة الجزائر، ط1، ص234.
- (25) الحاج محمد بلغيث، (2003)، إيقاعات شعبية، عادات وتقاليد فلكلورية في الجنوب الغربي مرجع سبق ذكره ص16.
- (26) عاشور سرقمة، (2004)، الرقصات و الاغاني الشعبية بمنطقة توات دار الغرب للنشر و التوزيع. وهران، ص51
- (27) قدي عبد الحميد، (2006)، صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، مرجع سابق، ص234
- (28) الحاج محمد بلغيث، (2003)، إيقاعات شعبية، عادات وتقاليد فلكلورية في الجنوب الغربي مرجع سابق ص17
- (29) - B-Bensmail (La psychiatrie aujourd'hui), op,cit p222,
- (30) روبرت مكلفين، (2002)، رتشارد عروس، ترجمة ياسمين حداد وآخرون، مدخل إلى علم النفس الاجتماعي دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، ص106.107.

تقييم عبء العمل لدى عمال قطاع البناء

الأستاذ عرقوب محمد، جامعة تيارت

الأستاذ الدكتور مباركى بوحفص، جامعة وهران 2

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد درجة عبء العمل الذي يعاني منه عمال قطاع البناء خلال أيام عملهم، والتعرف على مناطق الجسم التي تكون أكثر عرضة لهذا العبء، حيث أجريت الدراسة على عينة قوامها عشرون (20) عاملاً كلهم ذكور، متوسط أعمارهم قدر بـ 38,95 سنة ($\pm 11,92$)، ومتوسط الطول 171,50 سم ($\pm 7,81$)، بينما قدر متوسط الوزن بـ 68,85 كغ ($\pm 9,11$)، أما متوسط الأقدمية في المهنة فكان 8 سنوات ($\pm 9,65$). لتحقيق أهداف الدراسة استخدمنا سلم بورغ كأدوات لتقييم عبء العمل لدى أفراد العينة حيث طبقت في فترات مختلفة خلال يوم عمل كامل ولمدة أسبوع. في الظروف التي أجريت فيها الدراسة، سمح لنا تقييم نتائج عبء العمل على مستوى أطراف الجسم المعنية بالتقييم من معرفة تطور عبء العمل خلال يوم عمل كامل وخلال أيام الأسبوع، كما أظهرت النتائج أن أفراد العينة يعانون من شدة تعب كبيرة على مستوى منطقة أسفل الظهر لدى صنفى العينة (بنائين ومساعدين)، ومنطقة أسفل القدمين لدى فئة المساعدين، كما أن الفرق لم يكن متبايناً بدرجة كبيرة بين الفترتين الصباحية والمسائية عبر مختلف مناطق الجسم لدى الفئتين.

الكلمات المفتاحية: عبء العمل - الاضطرابات العظم عضلية - سلام بورغ - منصب البناء.

Abstract:

The aim of the present study is to evaluate the physical workload in construction workers during their daily shift work, and to identify the most vulnerable area(s) of their bodies to the physical burdens imposed by the work requirement.

The study was conducted on a twenty sample (20) workers (10 bricklayers and 10 assistant bricklayers), with an average age as 38,95 years (± 11 , 92), and the average length 171,50cm (± 7.81), while the average weight 68,85cg (± 9.11), and the average seniority in the profession was 8 years (± 9.65). To achieve the objectives of the study, Borg scales were used to evaluate the workload among sample members, the tool was applied in different periods during the whole working day for one week.

Although there was no significant differences between the morning and the afternoon periods of work, as far as, the level of workload is concerned, among the workers of the sample. The results of the study revealed a clear difference between bricklayers and their assistants in the workload imposed on different parts of the body. While both categories of the sample (the bricklayers and the assistants' bricklayers) suffered in the lower back region, the assistants' bricklayers category suffered mostly in the bottom of the feet region. This can be explained by the difference in the secondary tasks carried out by each category of the sample.

Key words: physical workload -musculoskeletal disorders- scales of Borg - bricklayer workplace

1. مقدمة:

تسعى المنظمات حاليا إلى وضع أهداف تجعلها أكثر تنافسية وأكثر إنتاجية ومردودية، ولتحقيق هذه الأهداف، على هذه المنظمات أن تتطور بشكل متواصل على مستوى تنظيم العمل، وتنظيم الإنتاج من أجل مسايرة التطور التكنولوجي، وإتباع سياسة حديثة في تسيير مواردها البشرية، وخلق أشكال مبتكرة فيما يخص تنظيم العمل¹. يولّد تسارع التغيرات الجارية في عالم المنظمات كثافة في العمل تنعكس نتائجها على الأفراد وعلى المنظمة في نفس الوقت. بالنسبة للأفراد، ينتج عن تزايد عبء العمل أثارا مضرّة بصحة وأمن العمال مثل الإضطرابات العظم-عضلية، والشعور بالضيق النفسي، والإحساس بالتعب، وتزايد حوادث العمل²⁻³⁻⁴⁻⁵ أما بالنسبة للمنظمات، فتؤدي إلى تبعات تتمثل بشكل خاص في ارتفاع ظاهرة الغياب المتكرر (absentéisme)، حركة دخول وخروج اليد العاملة (Turn over)، زيادة على المشاكل المتعلقة بجودة الإنتاج⁶⁻⁷.

يبقى العبء الجسمي في العمل مهم في كثير من الأعمال، والأمراض الناتجة عنه متعددة لأنها تمس مجموعة من وظائف الجسم كالجهاز التنفسي، وسرعة نبضات القلب، التنظيم الحراري للجسم، والمنظومة العظم-عضلية، وحتى التأثير على وظائف الغدد الصماء.⁸⁻⁹⁻¹⁰ بالنسبة للدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي فإن 40 مليون عامل مصاب باضطراب عظم-عضلي نتيجة عبء العمل الزائد، في حين ارتفع معدل الإصابة به بـ 20% في فرنسا خلال 15 سنة الأخيرة وأصبح يمثل أكثر من 70% من الأمراض المهنية المعروفة.¹¹

يعتبر قطاع البناء والأشغال العمومية (BTP) من بين القطاعات الحساسة في دول العالم بما فيها الجزائر، إذ أنه يساهم بشكل كبير في النمو الاقتصادي، واستقطاب نسبة لا بأس بها من اليد العاملة والتي قدرت بحوالي 16.6% من مجموع اليد العاملة.¹² لا يخلو هذا القطاع كغيره من القطاعات من وجود حوادث وأمراض مهنية نتيجة ظروف العمل به، حيث أصبح من ضمن اهتمامات المختصين. يرتبط عبء العمل لدى عمال قطاع البناء -الذي معظم أفرادهم ذكورا سواء البنّائين أو مساعديهم- بالعمليات المتكررة التي ينتج عنها استهلاك للطاقة مثل تناول ونقل مواد وأدوات العمل والتي تؤدي باستمرار مستعملين في ذلك تقنيات بعيدة عن معايير الصحة والسلامة المهنية وعن المعايير الأرغونومية، ما يفرض على هذه الفئة من العمال تبني وضعيات عمل مكروهة التي تتطلب بذل مجهود بدني كبير. فوضعية الانحناء هي الوضعية المتبناة بكثرة بالرغم من أن بعض المهام يمكن إنجازها في وضعيات سليمة.¹³ كما أن للوضعية الخاطئة وغير السليمة التي يتخذها العامل يوميا كوضعية الانحناء إلى الأمام أو وضعية الوثب كلها وضعيات تحتاج إلى استهلاك كبير للطاقة،¹⁴ ما قد يؤدي بالعامل إلى التوقف عن العمل بصورة متكررة والتالي قد يؤثر ذلك حتى على الحياة الخاصة للعامل. إضافة إلى هذه العوامل، هناك عامل التنقلات الكثيرة التي يقطعها عمال هذا القطاع بحثا عن أدوات ومواد البناء. ينتج عن هذه العوامل إصابة عمال هذا القطاع بأمراض مهنية وتعرضهم لحوادث عمل بنسبة كبيرة، إذ سجل هذا القطاع لوحده في فرنسا مثالا 17.5% من الحوادث أدت إلى التوقف عن العمل، و 20.2% أدت إلى عجز دائم، أما فيما يخص الأمراض

المهنية فقد بلغت 11.8% أدت إلى التوقف عن العمل، و11.7% كأعراض أدت إلى عجز دائم عن العمل.¹⁵ كشفت نتائج التحقيق الذي قام به مجموعة من المختصين على أن عامل واحد من مجموع عاملين (02) يعاني من مشاكل على مستوى أسفل الظهر، كما يعاني عامل واحد من مجموع أربعة (04) عمال من مشاكل على مستوى الكتفين.¹⁶

إلى يومنا هذا تم تطوير مجموعة من الاستراتيجيات والطرق من أجل خفض عبء العمل لدى البناء مثل تقنيات رفع حزم الآجر تم تطبيقها واستعمالها من أجل الحد من تنقلات البناء في وضعيات غير سليمة والتقليل من وزن حبة الآجر، إلا أن هذه التقنيات لم يكن سوى أثر ضئيل للتقليل من عبء عمل البناء، في الواقع عليه رفع خليط الإسمنت من الحوض (auge)، ووضعه على جوانب وسطح حبة الآجر، والضغط عليها بواسطة المعصم، وبعد ذلك تسويتها وضبطها بيد المسحاة (truelle). هذه الحركات المتعددة والمتكررة بالإضافة إلى الحمولات المنقولة، تعتبر مصدر للتعب والإصابة بالاضطرابات العظم-عضلية وتشكل له عبئا كبيرا، إضافة إلى العمل في وضعية منحنية مصحوبة في كثير من الأحيان برفع حمولات ثقيلة (حبات الآجر، أكياس الإسمنت، حوض خليط الإسمنت، المسحاة مملوءة بخليط الإسمنت، ألواح خشبية، نقل السقالات...). أثناء عملية البناء يتواجد البناء بين حزمة الآجر والجدار، هذا التنظيم للعمل يفرض عليه مجموعة من الحركات التي تؤثر على العمود الفقري، فنجد أنه يقوم بانحناء وتدوير الظهر عند تناوله لكل حبة آجر، وكل مسحاة مملوءة بالإسمنت. هذه الحركات المتعددة، المتنوعة، والمقترنة بدوران، انحناء، وميل الجذع، الانحناء إلى الخلف، والمقترنة بحمل الأثقال، تولد ضغوطا كبيرة وضارة على الأقراص البينية.

يشير (Arbouh) أنه فيما يتعلق بتكرار الإصابات على مستوى الظهر، يعتبر البناءون من بين الفئات الأربعة الأساسية الأكثر عرضة في قطاع البناء. أما العواقب المالية والاجتماعية من إجازات مرضية وعجز عن العمل فكانت مرتفعة. في عام 1993، بلغت نسبة وقت العمل الضائع بسبب الإجازات المرضية 13.3%، وبلغ عدد الحالات الجديدة التي تعاني من الإعاقة في سنة واحدة

4% من العدد الإجمالي لعمال البناء، من بين هذه الإجازات المرضية، 55% يرجع سببها إلى الإضطرابات العظم - عضلية.¹⁷ يعتبر عبء العمل لدى فئة البنّائين أكثر شدة من المعايير المعمول بها في قطاع البناء¹⁷، كما أظهرت نتائج التحقيق الذي أجري هولندا ما بين 1998 و 1999، أن 38% من البنّائين، و 36% من مساعدي البنّائين يعانون من آلام أثناء العمل (Arbouw) ذكر في¹⁷.

من خلال معطيات الدراسات السابقة، والملاحظة الميدانية التي أجريت بمؤسسة البناء محل الدراسة لمدة خمسة وعشرون (25) يوما، لاحظنا بأن فئة البنّائين ومساعديهم يتعرضون لمخاطر مهنية مختلفة، منها عبء العمل الجسمي، وعليه جاءت هذه الدراسة لتجيب عن مشكل البحث الآتي: ماهي درجة عبء العمل الذي يعاني منه أفراد العينة أثناء فترات العمل وخلال أيام الأسبوع؟ وما هي مناطق الجسم التي يعانون من عبء كبير في العمل؟

2. المنهجية:

أجريت هذه الدراسة بمؤسسة خاصة للبناء والضبط بورشة مشروع يقع ببلدية بئر الجير على عينة تتكون من عشرين (20) عاملا موزعين على عشرة (10) بنّائين، وعشرة (10) مساعدين، متوسط السن للعينة قدر بـ 38,95 سنة مع انحراف معياري قدره 11,92 ومتوسط الطول الذي قدر بـ 171,50 سم مع انحراف معياري يساوي 7,81، بينما قدر متوسط الوزن بـ 68,85 كغ مع انحراف معياري يساوي 9,11، أما متوسط الأقدمية في المهنة فكان 8 سنوات مع انحراف معياري قدره 9,65.

عند تقييم عبء العمل هناك طرق موضوعية عديدة، فنجد مثلا قياس: ضغط الدم، نبضات القلب، استهلاك الطاقة، نسبة استهلاك الأكسجين. لكن يبقى استعمال هذه الطرق يعرف نوعا من التعقيد بالنسبة للباحثين في الميدان، نظرا لصعوبة استعمال أجهزة القياس في بعض الأحيان، وصعوبة تقبل المفحوصين ارتداءها أثناء العمل أحيانا أخرى، ناهيك عن مشكل عدم

وفرها. لذلك وجدت طرق أخرى بديلة لتقييم عبء العمل بالرغم من أنها تصنف ضمن طرق التقييم الذاتي إلا أن كثرة استعمالها وتداولها بين الباحثين جعلها تأخذ مصداقية في نتائجها. إضافة إلى مختلف الاستبيانات المصممة والمقننة لتقييم عبء العمل، نجد سلم بورغ (les échelles de Borg). يحتوي هذا السلم على صنفين:

- RPE (Rating of Perceived Exertion) أو تقييم العبء المدرك لكامل الجسم.¹⁸
- CR10 (Category Ratio 10) نسبة الفئة العاشرة أو تقييم نتائج عبء العمل في المناطق الموضعية أو الجزئية (Astreintes locales) مثل الظهر، الكتف، ...¹⁹

كيفية تطبيق سلم CR10:

هو عبارة عن استبيان في شكل سلم يتكون من مجموعة من الدرجات، يقدم للعامل من أجل تقدير الجهد المبذول في أداء مهمته، حيث يحتوي على مجموعة من التوصيات والتعليمات التي يجب على العامل اتباعها قبل مباشرة مليء الاستبيان. إن الإدراك الخاص بالجهد، وتصور العامل لهذا الجهد المبذول مبني أساسا وبالدرجة الأولى على التعب الذي يعانيه على مستوى العضلات، والصعوبة التي يواجهها في التنفس، ولكن بإمكانه تقديم انطباعاته الذاتية الخاصة وليس فقط الاعتماد على المؤشرات الفسيولوجية أو على الإجهاد البدني. قمنا بتقديم وشرح سلم بورغ CR10 لأفراد العينة المعنية بالتقييم والتي تم اختيارها بطريقة عشوائية حسب تواجدها أثناء مرحلة إجراء تقييم عبء العمل، وطلب منهم التعبير شفويا وبسرعة عن نتائج العبء بالنسبة لمناطق الجسم الستة (06) والتي تم تحديدها انطلاقا من نتائج تطبيق استبيان المعهد الكندي للبحث "روبار صوفي" للصحة والأمن في العمل (IRSST) Institut de Recherche Robert- Sauvé en santé et en sécurité du Travail في مرحلة الدراسة الاستطلاعية.

نقوم بقراءة العبارات ثم نطلب من العامل اختيار الرمز المناسب، فإذا كان الجهد المدرك ضعيفا جدا أو خفيفا جدا فيعبر عن ذلك بالرمز "1"، وإذا كان الجهد المدرك معتدلا فالتقدير يكون بالرمز "3"، وهكذا...، بالنسبة للرمز 10، فيمثل أقوى تصور لم يسبق أن شعر العامل به من قبل.

لكن، ما يهمنا من خلال إجابة العامل هو أن تكون مطابقة مع إدراكه الفعلي وليس مع ما يريد أن يقدمه لنا كإجابة، وأن تكون إجابته أكثر وفاء لتقديره، وهو ما كان يطلب من كل عامل أثناء إجابته. جمعت نتائج عبء العمل بواسطة سلم بورغ CR10 بالنسبة لعينة الدراسة، وهذا خلال نهاية الفترتين الصباحية والمسائية من يوم عمل كامل وخلال أسبوع كامل في منصب عمل البناء.

3. النتائج:

لتقديم نتائج عبء العمل، سنقوم أولاً بتقديم نتائج عبء العمل لمجموع أفراد العينة في الفترتين الصباحية والمسائية، ثم نتائج عبء العمل لكل صنف من أصناف العينة أثناء فترات العمل خلال يوم كامل من العمل.

الجدول رقم (01): القيمة المتوسطة لـ CR10 في الفترتين الصباحية والمسائية لمجموع العمال

قيمة CR10 x 10		قيمة CR10		مناطق الجسم
الفترة المسائية (ن=20)	الفترة الصباحية (ن=20)	الفترة المسائية (ن=20)	الفترة الصباحية (ن=20)	
43,4	42	4,34	4,20	الكتف الأيمن
38,2	38,4	3,82	3,84	الكتف الأيسر
48,8	50,0	4,88	5,00	أسفل الظهر
42,2	44,6	4,22	4,46	المعصم/اليد اليمنى
30,8	32,8	3,08	3,28	المعصم/اليد اليسرى
37,8	32,8	3,78	3,28	أسفل/مؤخرة القدمين

بالنسبة لتقييم العبء في العمل كانت النتائج متباينة إلى حد ما-حسب فئة العمال-بين البنائين ومساعدتهم. حسب بورغ (18)، فإن قيم سلم CR10 الموضحة في الجدول رقم (01) تساوي عشرة أجزاء من الجهد المبذول معبر عنه بالنسبة المئوية للجهد الأقصى لكل عامل، فمثلاً لو أخذنا تقييم الجهد المبذول لفئة البنائين على مستوى منطقة أسفل الظهر فإن قيمة CR10 تساوي "5"، وبضرب هذه القيمة في 10 فإن الجهد الحقيقي المبذول يقترب من 50% من الجهد الأقصى لهذه الفئة. تظهر نتائج التقييم بأنه لا يوجد فرق كبير في عبء العمل بين الفترتين الصباحية

والمسائية لدى الفئتين عبر مختلف مناطق الجسم، لكن الملاحظ هو أن منطقة أسفل الظهر، والكتف الأيمن، ومعصم اليد اليمنى هي أكثر المناطق التي يحس فيها العمال بعبء في العمل وهذا راجع إلى طبيعة العمل بالجهة التي اعتاد العمال على العمل بها ونقص ذلك اليد اليمنى، فهي التي تحمل بها الأثقال بكثرة، ويتم بها كذلك تثبيت حبات الآجر على الجدار ومسك المسحاة (الأداة التي يحمل بها البناء خليط الإسمنت)، هذه الحركات المتكررة على مستوى اليد اليمنى تؤثر بيوميكانيكيا على الكتف الأيمن نتيجة ترابط العضلات والأوتار فيما بينها حيث تؤدي حركة المعصم إلى التأثير على عضلات الكتف الأيمن خاصة إذا اقترنت بحمل للأثقال مثلما هو عليه الحال بالنسبة للمساعدین الذين يقومون بحمل مواد البناء وأدوات العمل التي يفوق وزنها 25 كغ وقد يصل إلى 50 كغ أو أكثر.

بالنسبة لتقييم العبء في العمل كانت النتائج متباينة إلى حد ما-حسب فئة العمال- بين البنائين ومساعدیهم، حيث يتبين لنا من خلال الجدول رقم (02) مناطق الإحساس بالعبء في العمل بالنسبة لكل فئة من العمال، حيث يظهر من خلال نتائج تطبيق سلم بورغ CR10 أن المناطق التي يعاني منها البنّاءون ومساعدیهم من عبء كبير في العمل هي منطقة أسفل الظهر بالنسبة لكلا الفئتين، لكن بدرجة أكثر لدى البنّائين 53,6% نتيجة وضعية الإنحناء التي يتبناها أفراد هذه الفئة بصفة متكررة ولمدة زمنية تفوق 50% من زمن العمل الكلي نتيجة حمل خليط الإسمنت من حوض الإسمنت ووضعه تارة على حبة الآجر وتارة أخرى على مكان وضع حبة الآجر على عرض الجدار، وهذا منذ بداية بناء الجدار إلى غاية آخر مرحلة من بناءه. بالنسبة لمساعدی البنّائين فإن أعلى قيمة سجلت على مستوى أسفل/مؤخرة القدمين 47,8% ويعود السبب في ذلك إلى كثرة التنقلات - التي تعتبر عاملا رئيسيا يؤدي إلى عبء العمل - داخل الورشة من أجل جلب وتحضير مواد وأدوات العمل.

الجدول رقم (02): القيمة المتوسطة لـ CR10 خلال يوم عمل كامل عند البنّائين ومساعدیهم الخاصة بمناطق الجسم

تقييم عبء العمل لدى عمال قطاع البناء ————— عرقوب محمد، مبارك بوحفص

مناطق الجسم		البناء (ن=10)		مساعد البناء (ن=10)	
		قيمة CR10	قيمة 10 x	قيمة CR10	قيمة 10 x
الكتف الأيمن		4,24	42,4	4,30	43,0
الكتف الأيسر		3,80	38,0	3,86	38,6
أسفل الظهر		5,36	53,6	4,52	45,2
المعصم/اليد اليمنى		4,42	44,2	4,26	42,6
المعصم/اليد اليسرى		2,80	28,0	3,56	35,6
أسفل/مؤخرة القدمين		2,28	22,8	4,78	47,8

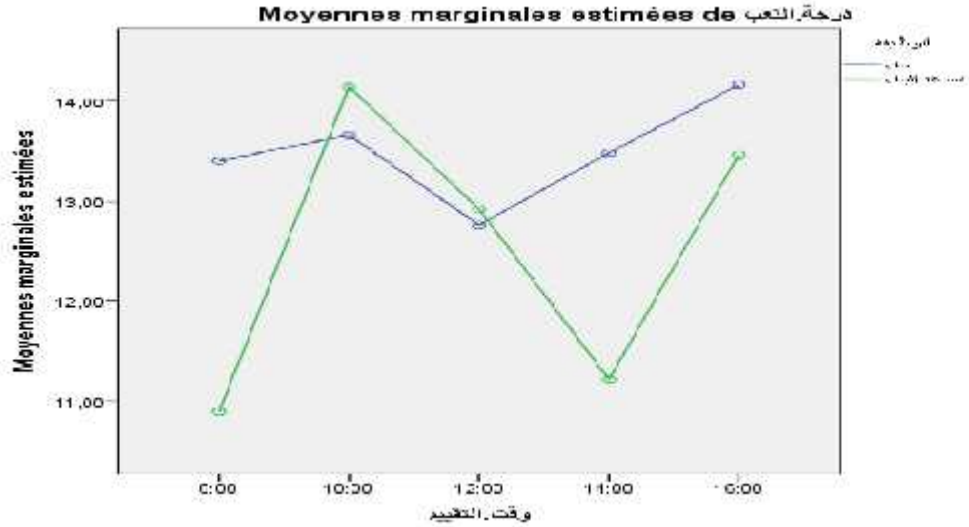
بالنسبة لتقييم درجة عبء العمل أثناء فترات العمل وخلال يوم عمل كامل، قمنا بتطبيق سلم بورغ RPE لتقييم درجة العبء المدرك وذلك بتابع نفس التقدير والشرح الذي تم بالنسبة لسلم بورغ CR10 فيما يخص هذه الأداة لأفراد العينة. تقييم درجة العبء المدرك تم على ست (06) مراحل أثناء العمل الفعلي ابتداء من الساعة الثامنة (8:00) صباحاً إلى غاية الساعة الرابعة (16:00) مساءً، وهذا خلال كل ساعتين على عشرين (20) عاملاً في منصب البناء، عشر (10) بنائين وعشر (10) مساعدين، أين كان يطلب من كل فرد تقييم درجة العبء في العمل في اللحظة التي يطلب منه ذلك ونقوم بالتأشير على القيمة التي أشار إليها العامل على الإصبعين. جمعت نتائج التقييم التي تمت خلال أسبوع عمل كامل ابتداء من يوم السبت إلى غاية يوم الأربعاء، ليتم بعدها إدخال البيانات في برنامج الأسلوب الإحصائي SPSS لحساب متوسط درجة العبء في العمل خلال أيام الأسبوع وخلال كامل الأسبوع، فكانت النتائج على الشكل التالي:

الجدول رقم (03) متوسط نتائج تقييم عبء العمل أثناء فترات التقييم بواسطة سلم بورغ RPE

العينة (ن=20)	8:00	10:00	12:00	14:00	16:00	متوسط التقييم لكل فئة
البنائين (ن=10)	13,4	13,6	12,7	13,4	14,1	13,4
المساعدين (ن=10)	10,9	14,1	12,9	11,2	13,4	12,5

تقييم عبء العمل لدى عمال قطاع البناء ————— عرقوب محمد، مبارك بوحفص

متوسط التقييم العينة الكلية	12,1	13,9	12,8	12,3	13,8	13,0



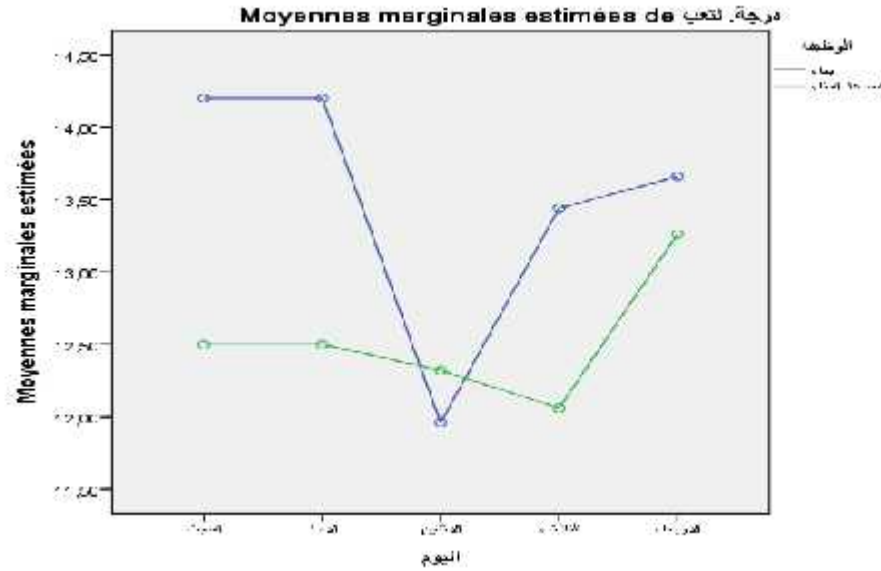
شكل بياني رقم (01) نتائج تقييم درجة التعب المدرك خلال فترات العمل بواسطة سلم بورغ RPE

تظهر نتائج تقييم عبء العمل خلال فترات التقييم الموضحة في الجدول رقم (03) أن درجة العبء كانت كبيرة لدى فئة البنائين 13,4 مقابل 12,5 لدى المساعدين، لكن أعلى درجة سجلت لدى البنائين كانت في منتصف النهار وفي الساعة الثانية زوالاً، بينما أعلى درجة سجلت لدى المساعدين كانت في العاشرة صباحاً 14,1 والرابعة مساءً 13,4 ويرجع ذلك إلى المجهود البدني الذي يبذله مساعد البناء في الفترة ما قبل الساعة العاشرة من تحضير المواد ونقلها وتقريبها من البناء، سواء يدوياً أو بواسطة الناقلات اليدوية، بينما في الفترة المسائية (16:00)، فتعتبر الفترة التي فيها يكون قد تم استنفاد الطاقة خلال يوم عمل كامل خاصة وأنها فترة تنظيف وترتيب مكان العمل من بقايا الإسمنت والآجر المكسر التي تسقط على الأرض أثناء مراحل العمل، إضافة إلى تنظيف أدوات العمل. والشكل البياني رقم (01) يوضح تطور درجات عبء العمل خلال فترات العمل لأفراد عينة الدراسة.

الجدول رقم (04) نتائج متوسط تقييم عبء العمل المدرك خلال أسبوع عمل بواسطة سلم بورغ RPE

تقييم عبء العمل لدى عمال قطاع البناء ————— عرقوب محمد، مبارك بوحفص

أفراد العينة (ن=20)	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	متوسط التقييم
البنّائين (ن=10)	14,2	14,2	11,9	13,4	13,6	13,4
المساعدين (ن=10)	12,5	12,5	12,3	12,0	13,2	12,5
متوسط التقييم	13,35	13,35	12,1	12,7	13,4	13,01



شكل بياني رقم (02) نتائج تقييم درجة التعب المدرك خلال أسبوع عمل كامل بواسطة سلم بورغ RPE

يظهر من خلال الجدول رقم (04) أن يوم أفراد العينة يعانون من عبء في العمل كبير في أول أيام الأسبوع مما جعلنا نتساءل عن هذه الظاهرة، وعند اقترابنا من أفراد العينة ومحاولة الاستفسار، أجاب معظم المساعدين بأن السبب في ذلك يرجع إلى استرخاء عضلات الجسم خلال العطلة الأسبوعية مما يجعل العمل في بداية الأسبوع شاقاً، كما صرّح البنّائون بأن السبب يرجع إلى عدم الاستفادة من وقت الراحة في العطلة الأسبوعية بسبب ممارسة أعمال إضافية خارج أوقات العمل. كما يعاني المساعدون من عبء عمل كبير في نهاية الأسبوع وهو نتيجة تراكم التعب خلال طوال أيام الأسبوع. أما بخصوص البنّائين، فترتفع درجة عبء العمل ابتداء من منتصف الأسبوع

تقييم عبء العمل لدى عمال قطاع البناء ————— مرقوب محمد، مبارك بوحفص

بعدها يكون البناء قد اندمج وتكيف مع العمل في اليوم الثاني والثالث من الأسبوع، يبدأ يشعر بالتعب ويزيد هذا الإحساس في اليوم الأخير من الأسبوع.

4. مناقشة النتائج:

لتقييم الجهد المبذول من طرف البناء ومساعدته، طبقنا سلم بورغ CR10 و RPE لتحديد الجهد المدرك أثناء العمل عبر مختلف مراحله. لتفسير نتائج الجهد المدرك اعتماداً على معيار (ISO/DIS8996, 2004) الذي يقترح خمس مستويات لإستهلاك الطاقة مع وصف موجز للنشاطات في كل مستوى، والقيم التي يعرضها تمثل القيم المتوسطة بينما القيم القصوى نجدها بالبند الصغير للإستهلاك المقابل بالميتابوليزم وبوحدة الواط ووحدة اللتر بالنسبة للأوكسجين المستهلك في الدقيقة الواحدة مقارنة بالقيمة المتوسطة لسلم RPE (أنظر الشكل رقم 01)



شكل رقم 01: القيم المقابلة لنتائج RPE حسب المعيار (ISO/DIS8996)

المصدر: (INRS 2014-ED6161)

في الظروف التي أجريت فيها الدراسة، سمح لنا تقييم نتائج عبء العمل من التعرف على مستوى أطراف الجسم المعنية بالتقييم بواسطة سلم بورغ CR10 وسلم بورغ RPE من تسليط الضوء على النقاط التالية:

-تطور عبء العمل خلال يوم عمل كامل

-تطور عبء العمل خلال أيام الأسبوع

-أصعب المهام بالنسبة لمساعد البناء كانت تتمثل في نقل مواد البناء وتحضير خليط الإسمنت وتنظيف مكان ومعدات العمل، أما بالنسبة للبناء فالعمل في مستوى منخفض خلال مرحلة بناء الجدار، ونقل مواد وأدوات العمل كانتا المرحلتان المتعبتان في العمل.

-أكثر مناطق الجسم التي يعاني منها أفراد العينة بعب كبير في العمل كانت تتمثل في أسفل الظهر لدى صنفى العينة ومنطقة أسفل القدمين لدى فئة المساعدين.

عند تطبيق سلم بورغ CR10 لتقييم عبء العمل حسب مناطق الجسم تبين لنا أن الفرق لم يكن متباينا بدرجة كبيرة بين الفترتين الصباحية والمسائية عبر مختلف مناطق الجسم حيث تراوحت قيمته ما بين 32,8% أي معتدلا إلى 50,0% أي شاقا بالنسبة للفترة الصباحية وبين 30,8% إلى 48,8% أي شاق قليلا بالنسبة للفترة المسائية، مع تسجيل أكبر قيمة كانت تخص منطقة أسفل الظهر بالنسبة لكافة أفراد العينة (بنائين ومساعدين) سواء في الفترة الصباحية بقيمة 50,0% أو في الفترة المسائية بقيمة 48,8% كأقصى درجة تم تسجيلها وهذا دليل على أن أفراد العينة يعانون من عبء في العمل على مستوى أسفل الظهر وهو ما يتوافق مع نتائج التحقيق الذي قام به مجموعة من الباحثين والذي تم نشره في الأيام الدراسية للبناء¹⁶ وكذلك نتائج دراسة (Arbouw)¹⁷. أما الجدول رقم (02)، فيوضح تباين في درجة التعب حسب المهنة، أين سجلنا وجود فرق بين البنائين وبين مساعديهم في منطقة أسفل القدمين، حيث كان المساعدون يشكون من عبء شديد على مستوى هذه المنطقة من الجسم 47,8% مقابل 22,8% عند البنائين، وهذا يعود إلى كثرة التنقلات - الذي يعتبر عاملا رئيسيا من عوامل زيادة عبء العمل (surcharge de travail) - داخل الورشة بحثا عن أدوات البناء وجلب مواد البناء من إسمنت وآجر ومياه وغيرها، أين يفرض عليهم (المساعدين) في كثير من الأحيان الصعود والنزول عبر السلالم (les escaliers) حاملين أثقالا إلى مكان بناء الجدار، إضافة إلى تحويل خليط الإسمنت بواسطة العربة اليدوية من مكان الخلطة إلى

منصب العمل حيث يوجد البناء على مسافات مختلفة، وعملية نقل صهريج المياه الذي يصل وزنه 1650 كغ بمساعدة زملائه على نفس المسافة كل ثلاثة أيام. إن مثل هذه المهام تفرض على العامل استهلاكاً للطاقة ونسبة كبيرة من الأكسجين وهي من نتائج عبء العمل الزائد مثلما أشارت إليه بعض الدراسات. 8-9-10

تطبيق سلم بورغ RPE أظهر أن أفراد العينة يعانون من عبء في العمل خلال مختلف فترات العمل لكنه متفاوت الشدة إذ نجد أن أقصى درجة كانت تخص البنائين في الساعة الثانية زوالاً بقيمة 14,8 أي أن الجهد فيها كان شاقاً، وهو ما يعادل 148 نبضة في الدقيقة وهي قيمة تفوق القيمة القصوى المسموح بها والتي حددها (Sanders) ²¹ بـ 110 نبضة في الدقيقة بالنسبة لعمل 08 ساعات. إن القيمة المحصل عليها في دراستنا هذه حول سرعة نبضات القلب عند البناء تختلف مع نتائج دراسة (Astrand) ²² التي توصلت إلى 79,9 نبضة في الدقيقة كقيمة متوسطة لنبضات القلب بالنسبة لعشرة (10) بنائين. هذه النتائج التي توصلنا إليها سمحت لنا بتصنيف عمل البناء على أنه عمل شاق ومتعب مقارنة مع التصنيفات التي وضعها (Kroemer) ²³ وزملاؤه والذين حددوا درجة عبء العمل على النحو التالي:

- عمل خفيف: 10 كيلو جول (2,5 Kcal) - 90 نبضة في الدقيقة.
 - عمل متوسط: حوالي 20 كيلوجول (5 Kcal) - 100 نبضة في الدقيقة.
 - عمل شاق وثقيل: حوالي 30 كيلوجول (7,5 Kcal) - 120 نبضة في الدقيقة.
 - عمل شاق جداً: 40 كيلو جول (10 Kcal) - 140 نبضة في الدقيقة.
 - عمل شاق لا يطاق: 50 كيلو جول (12,5 Kcal) - 160 نبضة في الدقيقة.
- كذلك، فإن القيم التي تحصلنا عليها باستعمال سلم RPE وما يقابلها من قيم خاصة بسرعة نبضات القلب وتصنيفها حسب (Astrand and Rodahl) ²⁴ اللذين قدما التصنيف الخاص بشدة عبء العمل بالنسبة للعمل الجسمي المطول والمتعلق بنبضات القلب المتوسطة على النحو التالي:
- إلى غاية 90 نبضة في الدقيقة: عمل خفيف.

-من 90 إلى 110 نبضة في الدقيقة: عمل متوسط
-من 110 إلى 130 نبضة في الدقيقة: عمل شاق وثقيل.
-من 130 إلى 150 نبضة في الدقيقة: عمل شاق جدا.
-من 150 إلى 170 نبضة في الدقيقة: عمل شاق لا يطاق.

هذا الاختلاف يعود في نظري إلى طريقة القياس التي تختلف من باحث لآخر، وكذلك إلى أدوات القياس المستعملة، حيث في دراستنا اكتفينا بتطبيق سلم بورغ RPE، بينما اعتمدت باقي الدراسات على أجهزة قياس سرعة نبضات القلب. كما يمكن إرجاعه إلى خبرة البنائين في طريقة البناء وتوزيع جهودهم على مختلف فترات العمل لكي لا يستهلكون كل طاقتهم في فترة ما على حساب فترة أخرى وهذا العامل في نظري مهم في المحافظة على نفس وتيرة العمل طوال اليوم دون التعرض للتعب وللعبء في العمل. كما أن العمل كان شاقا بالنسبة للمساعدين في الفترة الصباحية (10:00) وفي الفترة المسائية في الساعة (16:00). إن مقارنة هذه القيم مع القيم التي تقابلها في السلم المرجعي (ISO/DIS8996) والخاصة بمتوسط مستوى الأيض الذي يفوق 4,2 ومتوسط نسبة الأكسجين المستهلكة والتي تقدر بـ 1,15 لتر في الدقيقة. في الفترة الصباحية فالمساعد يقوم فيها بتحضير خليط الإسمنت بعد جلب مواد البناء كالآجر على متن ناقلة يدوية يفوق وزن حمولتها 1 طن وعلى مسافة بعيدة من منصب العمل، وتقريب مواد البناء من البناء لكي لا يتعطل عن عمله، وفي الفترة المسائية فالمساعد ملزم بتنظيف أدوات ومكان العمل قبل مغادرته للورشة تفاديا لصعوبة فعل ذلك في اليوم الموالي، أين يصعب تنظيف أدوات العمل بسبب تصلب الإسمنت حول الحوض والمسحاة والمحرقة ما يجعله يبذل جهدا أكبر لتنظيفها. اعتبر أفراد العينة أن العمل كان شاقا في أول أيام الأسبوع خاصة لدى البنائين الأمر الذي لفت انتباهنا وجعلنا نقرب منهم للاستفسار عن ذلك، فصرحوا بأن السبب يعود إلى مزاولتهم لعمل إضافي خلال العطلة الأسبوعية وعدم أخذهم قسطا من الراحة -والتي تعتبر عاملا مهما في استرجاع كامل وظائف الجسم لطاقتها الطبيعية- خاصة من لديهم أقدمية في المهنة حيث يتمتعون بسمعة ومكانة في أحيائهم ما يجعل

الطلب عليهم بكثرة بالإضافة إلى العامل المادي المتمثل في الأجر الذي يتقاضاه هؤلاء في المؤسسة والذي يعتبر غير كافٍ لتلبية كل احتياجاتهم الأمر الذي يدفعهم دائماً للبحث عن عمل إضافي.

إن مهمة البناء المتمثلة في بناء الجدران بحبات الآجر التي يتراوح وزنها بين 4 كغ وهي فارغة، و 5,6 كغ وهي معبأة بخليط الإسمنت والتي يصل عددها 144 حبة آجر ووزنها 806,4 كغ في بناء جدار عرضه 2,60 متر وارتفاعه 2,80 متر تفرض عليه حملها ووضعها على عرض الجدار لمرات عديدة في اليوم، مما يدفعه إلى الانحناء نحو حوض خليط الإسمنت بصفة متكررة ولفترة زمنية تدوم أكثر من 40 % من وقت العمل ونقلها من مكان حوض خليط الإسمنت إلى مكان بناء الجدار كلها تعتبر عوامل مخاطرة تسبب ألام أسفل الظهر وتسبب له عبئاً جسيماً في العمل، هذه النتيجة تؤكد نتائج الدراسة التي أجريت على ثلاث مجموعات مكونة من خمسة (05) بنائين تشغل كل واحدة منها بنوع معين من الآجر يتراوح وزنه من 11 كغ و 14 كغ إلى 16 كغ أين تم تقييم مردوديتهم وزمن استغراق كل مهمة والنشاطات المنجزة عن طريق الملاحظة المباشرة للوقت الفعلي في العمل، أما عبء العمل الذي يؤدي إلى صرف كمية من الطاقة فتم قياسه عن طريق سرعة نبضات القلب ونسبة استهلاك الأكسجين، وقد توصلت نتائج الدراسة أن وزن حبات الآجر ليس له أي تأثير على مردودية البنائين ولا على زمن إنجاز المهام أو حتى على سير المهام والنشاطات، في حين دلت النتائج على وجود عبء في العمل أو العبء المتراكم على مستوى العمود الفقري والذي تجاوزت قيمته المعايير الخاصة بالعبء الجسدي في العمل، وخلصت الدراسة إلى أنه مهما كان وزن حبات الآجر التي يعمل بها البناء فإنه من الضروري توفير معدات للرفع من أجل تخفيف عامل المخاطرة الذي يؤدي إلى ألام أسفل الظهر.

لقد أكدت دراسة (Van Der Molen) ²⁵ أن البناء يقوم بحمل ورفع كميات كبيرة من حبات الآجر يوميا يتراوح وزنها من 6 كغ إلى 48 كغ، وأن وضعها على الجدار يفرض على البناء عبئاً جسيماً قوياً ويسبب ألام أسفل الظهر للبنائين. كما أن زيادة كمية حبات الآجر المتناولة يوميا تؤدي إلى زيادة القوة المطبقة في حملها وزيادة في الضغط على فقرات أسفل الظهر بقيمة 20 نيوتن

عند رفع حبات الآجر التي تزن 5 كغ (Jaeger).²⁶ هذه النتيجة أكدتها نتيجة دراسة (Latza)²⁷ التي توصلت إلى أن نسبة تطور الإصابة على مستوى أسفل الظهر كانت عند البنائين الذين يعملون بحبات الآجر التي تزن ما بين 7 كغ و 10 كغ خلال ساعتين (02) على الأقل مقارنة مع العمال الذين لا يقومون بنفس هذه العملية. يضاف إلى عامل الوضعية ووزن حبات الآجر عامل مخاطرة آخر يتمثل في الفترة التي يقضيها البناء في هذه المهنة والتي تعتبر عاملاً من عوامل الإصابة على مستوى أسفل الظهر مثلما تؤكد دراسة (Stu'mer)²⁸ على أن العمال الذين يشتغلون في مهنة البناء ولمدة أكثر من عشر (10) سنوات معرضين للإصابة بالآلام أسفل الظهر بـ 2,3 مرات أضعاف العمال الآخرين في ورشات قطاع البناء وهو ما يؤكد نتائج دراستنا حيث بلغت نسبة عدد البنائين الذين يشتكون من آلام أسفل الظهر 98,1% كما توصلت إلى أنه توجد علاقة بين المعاناة والآلام على مستوى منطقة أسفل الظهر وبين الأقدمية في المهنة وذلك من خلال قيمة $p < 0.001$. إن تكرار عملية حمل ونقل حبات الآجر وفي أغلب الأوقات يعتبر عامل مخاطرة بيوميكانيكي هام يؤدي إلى عبء جسمي في العمل، وهو ما أكدته نتائج دراسة (Lee)²⁹ بأن تكرار عملية رفع حبات الآجر يؤثر بقوة على عبء العمل أكثر من تأثير وزن حبات الآجر في حد ذاته وهي نفس النتيجة التي توصلت إليها دراسة كل من (De Looze)³⁰ (Asfour)⁸ أين كان تكرار عملية رفع حبات الآجر يتراوح بين ثلاث (03) وتسع (09) مرات في الدقيقة. هذه النتائج جاءت مطابقة لنتائج دراستنا أين كان يتم رفع أربع (04) حبات من الآجر في الدقيقة الواحدة.

الهوامش:

- 1-De Coninck, F., & Gollac, M. (2006). L'intensification du travail: de quoi parle-t-on? Dans P. Askenazy, D. Cartron, F. d. Coninck & M. Gollac (Éds.), Organisation et intensité du travail. Toulouse, France: Octares Éditions.
- 2- Du Tertre, C. (2006). Mieux évaluer la charge de travail. Travail et Changement 307, 1-16.
- 3-Grumberg, L. (1986). Les rapports de pouvoir, la productivité et la sécurité : une enquête empirique. Sociologie et société, 18(2), 11-24.

- 4-Krause, N., Scherzer, T., & Rugulies, R. (2005). Physical workload, work intensification, and prevalence of pain in low wage workers: results from a participatory research project with hotel room cleaners in Las Vegas. *American journal of industrial medicine*, 48(5), 326-337.
- 5-Sarazin, B. (2001). Quand la qualité dépend de la prévention. *Travail et Changement*. 270, 6-7.
- 6 -Beech-Hawley, L., Wells, R., & Cole, D. C. (2004). A multi-method approach to assessing deadlines and workload variation among newspaper workers. *Work, A Journal of Prevention, Assessment and Rehabilitation* 23(1), 43–58.
- 7-Rochefort, T. (2000). Journées de travail organisées par l'ANACT et l'APRAT; table ronde sur la charge de travail et la performance (pp. 54): Agence Nationale pour l'amélioration des Conditions de Travail.
- 8-Asfour. S. S., Ayoub. M. M., Mital. A., Bethea. N. J. (1983). Perceived exertion of physical effort for various manual Handling tasks. *Am and Hyg Assoc J* ; 44 (3) :223-28.
- 9-Cameron. J. A. (1996). Assessing Work –related body-part discomfort : current strategies and a behaviorally oriented assessment tool. *Int J and Ergon.* ;18 (5-6) : 389-98.
- 10-Deeb. J. M. (1999). Muscular fatigue and its effects on weight perception. *Int and Ergon.* ;24 (2) :223-33.
- 11-R. , Delisle, A., Larivière. C., Plamondon, A., Imbeau, D. 2008. Reliability of centre of pressure summary measures of postural steadiness in healthy young adults. 27(3):408-15. *E pub Med*. 2007 Jun 29.
- 12-ONS (Office National des Statistiques) , 2013. « Activité, emploi et chômage au 4ème trimestre 2013 ». Collections Statistiques N°653, Série S : Statistiques Sociales. Décembre 2013 – Alger.
- 13-عرقوب محمد، مباركى بوحفص، تبون الشيخ البشير. (2013). تدخل أرغونومي لتقييم وضعيات العمل لدى عمال البناء. (ذكر في) تطبيق الأرغونوميا بالدول السائرة في طريق النمو. بوظيفة حمو. (2015). مجلة الوقاية والأرغونوميا. ط.1. ج.1. ص:44-51.
- 14-Jean Diverrez. (1979). Améliorer les conditions de travail. 2^{ème} édition. Entreprise moderne d'édition. France.
- 15-Accidents de travail et maladies professionnelles. Récupéré le 08 février 2013, de <http://www.inrs.fr/statistique>
- 16-Journées santé au travail dans le BTP. (2015). Les 33èmes journées de santé au travail dans le BTP. 27-28-29 mai.2015. www.limogesbtp2015.fr.
- 17-Vink, P., de Jong, A. M. and Koningsveld, E. A. P. Discomfort and Productivity in Improved Bricklaying. 2005. (in) Vink, P. 2005. Comfort and design: principles and good practice.CRC press.

- 18-Borg. G. (1982). Psychophysical basis of perceived exertion. *Medicine & Science in Sports & Exercise*, 14, 377-381.
- 19-Borg. G. (1970). Perceived exertion as an indicator of somatic stress. *Scand J Rehabil Med.* ;2(2) :92-98.
- 20-International Standard Ergonomics of the thermal environment — Determination of metabolic rate. (2004). Second edition 2004-10-01. **In.** Atain-Kouadio. J.J., Claudon. L., Mazière. P., Meyer. J.P., Navier. F., Turpin-Legendre. E., Verdebout.J.J., Zana.J. P. (2014). Méthode d'analyse de la charge physique de travail. INRS.
- 21-Sanders, M.S., McCormick, E.J. (1993). *Human Factors in Engineering and Design*. Seventh Edition. New York: McGraw- Hill.
- 22-Astrand, P. O., and Rodahl, K. (1986). *Textbook of Work Physiology: Physiological Bases of Exercise*. 3rd Edition . New York: McGraw-Hill Book Company.
- 23-Kroemer, K., Kroemer, H., Kroemer-Elbert, K. (2000). *Ergonomics how to design for easy and efficiency*. 2nd Edition. Prentice Hall, New Jersey.
- 24-Van Der Molen, H. F., Kuijer, P. P. F. M., Hopmans, P. P. W., Houweling, A. G., Faber, G. S., Hoozemans, M. J.M., Frings-Dresen, M. H. W. (2008). Effect of block weight on work demands and physical workload during masonry work. *Ergonomics*. Vol. 51, No. 3 :355–366.
- 25-Van Der Molen, H.F., Veenstra, S.J., Sluiter, J.k. and Frings-Dresen, M.H.W., (2004b). World at work: Bricklayers and bricklayers' assistants. *Occupational and Environmental Medicine*, 61, 89–93.
- 26-Ja"ger, M., Luttmann, A. and Laurig, W. (1991). Lumbar load during one-handed bricklaying. *International Journal of Industrial Ergonomics*, 8 : 261–277.
- 27-Latza, U., Karmaus, W., Sturmer, T., Steiner, M., Neth, A., Rehder, U. (2000). Cohort study of occupational risk factors of low back pain in construction workers. *Occupational and Environmental Medicine*, 57 : 28–34.
- 28-Sturmer, T., Luessenhoop, S., Neth, A., Soyka, M., Karmaus, W., Toussaint, R., Liebs, T.R. and Rehder, U., (1997). Construction work and low back disorder. *Spine*, 22, 2558–2563.
- 29-Lee, Y.H., Chen, Y.L. (1995). Comparative analysis of the workload in seated and standing horizontal submaximal lifting tasks. *Ergonomics*, 38:1859–1866.
- 30-De Looze, M.P., Toussaint, H.M., Commisaris, D.A.C.M., Jans, M.P. and Sargeant, A.J. (1994). Relationships between energy expenditure and positive and negative mechanical work in repetitive lifting and lowering. *Journal of Applied Physiology*, 77: 420–426.

المراة والتهيئة العصرية

للمجتمع الجزائري

الطالبة: روابط أسماء، جامعة تلمسان

إشراف الأستاذ الدكتور محمد بشير، جامعة تلمسان

الملخص:

يعتبر التحول الاجتماعي في الجزائر نتيجة موضوعية لتهيئة المجتمع عصرية بتدبير وتخطيط من السياسات العمومية عن طريق سياسة التصنيع، وتظهر صورة هذا التحول في تحول منصب المرأة بخروجها من المحيط المنزلي واتجاهها نحو الفضاء العمومي، فالتهيئة العصرية التي تبنتها السياسات العمومية تمثلت في استيراد شبكات قيمية وثقافية من منظومات متطورة ومتفوقة الأمر الذي أدى إلى ترغيب وتشجيع ظاهرة العمل للمرأة في المجتمع الجزائري، فأصبحت تتمتع بازداوجية في العمل داخل المنزل وخارج المنزل، لأن التهيئة العصرية تقرر بعشوائية الجنس أي كونية الوظائف والأدوار.

الكلمات المفتاحية: التهيئة العصرية-التحول الاجتماعي-التصنيع.

Summary of the article:

The social transformation in Algeria is a result of an objective; that is the preparation a modern society community planned by the state through an industrialization policy. And a better example of this transformation is shown in the position of women to get out of home to the public space. This preparation of a modern society was adopted by the state following advanced countries systems. The situation that encourages the phenomenon of work inside and outside home is meant because the modern society believes in a worldwide human race and in universal roles and functions.

Key Words: preparation modern- transformation social- industrialization.

مقدمة: من الواضح والجلي لنا أن المساواة في الفرص بين الجنسين وإزالة عوامل التمييز بين الرجل والمرأة في مجالات البناء والإنتاج لم تعد اليوم مجرد شعارات نظرية، بل أصبحت أولويات تجمعها شروط التنمية والتقدم والحضارة، ويعد موضوع المرأة من الموضوعات التي شغلت الاهتمام الكبير وأسالت الحبر الكثير وأثارت الجدل الواسع لدى العام والخاص بين مؤيد ومعارض، وعليه فإن المرأة والرجل هما قطبا الإنسانية⁽¹⁾ ولا معنى لأحدهما بغير الآخر، لذلك هناك حاجة ماسة لمعالجة الشرخ الموجود بين الجنسين في الحصول على الفرص الاجتماعية لأن نصف المجتمع نساء وحتمية العصرية توجب أن يكن النسق في تسيير المجتمع من خلال عدمية التأويل الجنسي بالنسبة لشغل الوظائف، فقد عرفت الجزائر غداة الاستقلال سنة: 1962 مرحلة انتقالية مهمة تمثلت في استيراد شبكة غربية محورها الأساسي هو التصنيع، فكانت المؤسسة الصناعية هي الوعاء التي قامت باحتواء هذا النموذج المتبنى فظهرت المرأة كفعل انعكاسي اجتماعي للانتقال إلى الوجهة العصرية، فالمعيار الغربي المستورد قام بتعجيز المعيار الانثروبولوجي التقليدي الذي أعطى للمرأة الجزائرية صفات اكتسبتها باستحقاق مساوي للكفاءة التقنية عن طريق التعليم بتحصيلها لشهادات عليا.

لقد قامت الدولة الجزائرية ببناء مدارس في كل مجمع بشري الأمر الذي استلزم ضبط أفراد المجتمع بجدولة عصرية في تنشئتهم والذي يترجم حركة التحول العصري في المجتمع الجزائري، ففي مضمون المدرسة يبلغ التلميذ مهارات تقنية جديدة وقيم أدبية وتاريخية جديدة غير تلك المتداولة في المحيط الأسري، كما دخل الشعر والقصص الأدبي من أجل توسيع المخيال الجزائري إلى جماليات وفتيات حضرية يشاطرهما الدول المتقدمة أو تلك التي قامت السياسات العمومية بتبني نموذجها التنموي، وأقيمت هيئات تشديد حسب سلك التمدرس العمودي أو المسار التعليمي للفرد الابتدائي - المتوسط - الثانوي - الجامعي والمدارس العليا وحتى معاهد التكوين المهني من أجل تقريب تلك المعاهد والمؤسسات الأكاديمية بالعلوم الأساسية من الإنتاج مثل: إعادة تنظيم بعض الجامعات بحيث ترتبط بالصناعات الرئيسية من جهة ومن ناحية أخرى ساهم تخطيط البحث في ربط البحث ببعض المشاريع ذات الأهمية العلمية⁽²⁾ وتكملة لعملية التهيئة العصرية تم تشييد مؤسسات صناعية، فعملية التصنيع تعد شرطا معترفا به في مجال التنمية والعصرية لأنها أدت إلى تحولات أساسية في البنية الاجتماعية.

1- تحديد المفاهيم الأساسية:

1-1- التهيئة العصرية: هي تلك العملية التي تقوم باستحداث المجتمع القديم، أو ذلك الاستحداث الذي يطرأ على أعراف أفراد المجتمع المضبوطة بالتقليدي كما يعتبر مفهوم التحديث عملية معقدة تستهدف إحداث تغيرات في جوانب الحياة الاقتصادية، السياسية، الثقافية والإيديولوجية⁽³⁾.

إذن يمكن اعتبار العصرية عملية مقصودة غير عشوائية لأنها تحمل معنى التطور والتنمية، فالمجتمع الجديد هو ذلك المجتمع الذي له مقومات المجتمع القديم من حيث بناء النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية اللازمة لبقائه وذلك للتغلب على المشاكل التي طرحها المجتمع القديم والتي ظهرت من جراء عوامل التخلف⁽⁴⁾.

فالهدف الأساسي من البحث عن ابتكار اجتماعي يتمشى والوضع الجديد هو الوصول بهذا المجتمع إلى مستوى اجتماعي، اقتصادي وثقافي يماثل المجتمعات المتفوقة ولو تنزيلا، لذلك لابد على المجتمع الجديد توفير عوامل مادية وأرضيات ونماذج من السلوك لكي تتحقق إمكانية تلقين الفرد أوجه الابتكار الاجتماعي الراهن، لذلك تعد عملية استيراد أجهزة تشكيل مجتمعات العالم الثالث ليس بالضرورة مطابقا لثقافات هذه المجتمعات المتطورة، لأن حتمية الاستيراد تكمن في نجاعة هذه الأجهزة في استحداث أعراف أفراد المجتمع حيث يرى والت روستو: أن التطور يكون على مراحل تمر بها كل المجتمعات الإنسانية حسب العلاقة الموجودة بين الاستثمارات المادية والتهيئات المعنوية⁽⁵⁾، ففي عملية الانتشار الثقافي⁽⁶⁾ التي تبدأ من المجتمعات الأكثر تطورا وتنتقل إلى المجتمعات الأقل من حيث درجة التطور، تتداخل وتمتزج عناصر ومركبات منقولة من الثقافات العالمية مع العناصر والمركبات الداخلية للثقافة المحلية، مما يساعد على استمرار عملية تحول هذه المجتمعات المستوردة للشبكة المتفوقة.

1-2- التحول الاجتماعي: هو عملية الانتقال من وجه إلى وجه آخر ويحدث هذا الانتقال عند إسقاط شبكة قيمية لنموذج عصري ومتطور على نموذج متخلف أو في طريقه للتنمية،

وتتم عملية التحول الاجتماعي في المجتمعات المتبينة للنماذج العصرية عن طريق النظم والمؤسسات بأنواعها المختلفة، فالعناصر المادية للثقافة المتفوقة تنتقل بصورة سريعة في المجتمع الذي يعاني تخلفا وهذا يظهر بوضوح في عمليات تقبل الاختراعات التكنولوجية أو العلمية وغيرها من الابتكارات في أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية، وتبعاً لذلك فإن الحركات الاجتماعية أو الحركات الواسطة⁽⁷⁾ بمفهوم عالم الاجتماع الفرنسي آلان توران هي القوة الهائلة المحفزة لعملية التحول الاجتماعي.

لذلك تعتبر الحركة الواسطة في المجتمعات المتبينة للنموذج المتطور بمثابة القاطرة التي تؤدي بذلك المجتمع للتقدم والتنمية في جميع المجالات من خلال: السياسات العمومية، المنظمات المدنية، النقابية، الحزبية والفكرية حيث تعتبر في مجملها حاملة لمبدأ الانتقال والتحول بإحداث حراك اجتماعي وخلق رابط اجتماعي جديد يتماشى والوضع الأخير، لأن الرابط الاجتماعي يمكن اعتباره نسق منظم للعلاقات ووسائل الضبط الاجتماعي التي تعمل على تماسك وتطور الأفراد والجماعات في مجتمع معين.

فالدور المنوط الذي تلعبه الحركة الاجتماعية يتمثل في حشر الجماهير وتحملهم معنويات الهدف العصري الذي يدل على أن المرور من النمط التقليدي إلى النمط العصري في المجتمع مجسد ومبرمج اجتماعيا من أجل المرور إلى الهدف المنشود، وتظهر صورة هذا التعايش في المجتمع الجزائري في درجة تقبل أفراد المجتمع للنموذج العصري والمستورد من خلال قطاعات النشاط الاقتصادي المختلفة بدخول نمط علاقات إنتاج جديدة التي جسدها عملية التصنيع.

1-3- التصنيع: تتجلى عملية التصنيع بشكل واضح في الثورة الصناعية التي شهدتها المجتمعات الغربية، إذ تعدّ عملية التصنيع شرطا معترفا به في مجال التنمية لأنها أدت إلى تحولات كبرى للبنية الاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية، فالتنمية أولا وأساسا عملية اقتصادية مرتبطة بتطوير نظام الإنتاج والعمل وحتى التعامل داخل الجماعة أو فضاء العمل أي يمكن أن تكون للتنمية القدرة على التحكم في مختلف العلاقات بين الأفراد.

فالصناعة نشأت أساسا من تطور معين لإنتاجية الأفراد وأدواتهم واكتشافهم للمواد الضرورية ومصادر طاقة جديدة تقوم عليها عملية التصنيع، التي فرضت تحويل علاقات الإنتاج من

الإقطاعية إلى علاقات الإنتاج الرأسمالية، لأن الثورة الصناعية قامت بخلق طبقات اجتماعية جديدة أهمها الطبقة الوسطى في المجتمع الأوربي التي حطمت علاقات إنتاج المجتمع الإقطاعي وحلت محلها علاقات إنتاج المجتمع الرأسمالي⁽⁸⁾.

ومن هنا أولت الدولة الجزائرية اهتماما كبيرا بترسيب الاقتصاد التقليدي الذي يعتمد على النشاط الزراعي إلى اقتصاد عصري قاعدته الصناعة الثقيلة بأسس مستوردة من الغرب لذلك ظهر ما يعرف باصطلاح الثورة الصناعية التي تهدف إلى تحويل كلي ومحو التخلف الاجتماعي الذي خلفه الاستعمار، فقد جاء في الميثاق الوطني في الصفحة 15 بأن: "إرادة التنمية تتطلب أكثر من مجرد انتهاز سياسة تصنيعية بل تقتضي القيام بثورة صناعية حقيقية ولا يمكن للثورة الصناعية أن تنحصر في التصنيع وحده بل إن مضمونه يتوقف على الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها لأنه يندرج في مسيرة ثورية هي إحدى مقومات الثورة الصناعية " ⁽⁹⁾ كما ترمي عملية التصنيع إلى تمكين البلاد من أسباب العلم والتكنولوجيا لأنها منطلق أساسي لعملية تحسين الإنتاج الذي يقتضي إعادة الإطارات المزودة بالمعارف والتجارب الضرورية لتتمكن من تسيير الوحدات الإنتاجية ورفع تحسين الإنتاج وتكوين العمال فنيا بتمكينهم من التكيف مع متطلبات التكنولوجيا الحديثة، فهذا الظرف المواتي لاستحداث منظومة المخيال الشعبي التقليدي بواسطة المؤسسة الصناعية التي تعتبر البذرة التي تساعد في نشر العصرية داخل المجتمع الجزائري.

2-التهيئة العصرية للمجتمع الجزائري: لقد تمت عملية التهيئة العصرية للمجتمع الجزائري من خلال عمليتان وهما عملية التعليم وعملية التصنيع.

2-1-عملية التعليم: أدت التهيئة العصرية للمجتمع الجزائري إلى تحول منصب المرأة التي كانت محصورة المهام والأدوار في المحيط المنزلي بموجب النموذج التقليدي وخروجها للفضاء العمومي بتأشيرة التعلم، فمن تدابير السياسات العمومية للتهيئة العصرية للمجتمع الجزائري تعميم التدريس لكلا الجنسين ذكور وإناث، فالدولة الجزائرية بادرت بعد الاستقلال بتطوير التعليم وتعميمه من أجل القضاء على الأمية التي بلغت آنذاك 85 بالمائة وذلك تحت سياسة الرئيس الراحل هواري بومدين، فقد اعتبرت أجهزة التدريس محورا أساسيا لتطوير المجتمع والأفراد كما سخرت لها أموال كبيرة من

ميزانية الدولة لتتمكن هذه السياسة من إعطاء فرص متكافئة في التعليم بين الذكور والإناث على حد سواء.

فقد مرّ هذا الإدعاء الليبرالي إلى التمدّس بأشواط كبيرة ليصل إلى ما هو عليه في الوقت الراهن فنجد: أولاً: دخول الذكور للمدارس كان نسبياً وأكبر من نسبة دخول الإناث، بالإضافة إلى ارتفاع نسبة مزاولة الدراسة في المدن عكس القرى، كما سجل تقبل متفاوت من طرف العائلات الجزائرية لفكرة التعليم آنذاك. ثانياً: حصر محور التعليم حسب السن والجنس من خلال ضبط المحور القيمي التقليدي آنذاك، فبعد سن البلوغ كانت الفتاة تُقضى من الدراسة لأن إنشاء أسرة بالنسبة لها كان يشكل في نظر المجتمع قيمة اجتماعية أفضل من إنهاء مشوارها التعليمي، دون أن ننسى حصر دور المرأة في زوجة وربة بيت جعل الكثير من الأولياء يرفضون فكرة الاختلاط في أماكن التمدّس واعتبار خروج الفتاة للتمدّس تصرف غير لائق والذي أخل بالمقياس التقليدي المعتمد لديهم، كما حُرّم بعض الذكور من عملية التعليم بسبب حاجة الأولياء لليد العاملة في الفلاحة أو التجارة. ثالثاً: ثم عكبت المراحل السابقة الذكر مرحلة جديدة في تمثالات المجتمع الجزائري اتجاه المرأة والمتمثلة في كونه تحصيل الفتاة لشهادة معينة لكن يشترط عدم مزاومتها للعمل وإن تحتم أمر تشغيلها يشترط عدم مزاولة عملها في وسط ذكوري. رابعاً: خلص الأمر إلى فض كل الأسباب التي دعت إلى عدم التعميم وأصبح خروج الفتاة للعمل أمر تلقائي وشرعي والبحث عن العمل بالنسبة للإناث أصبح مطلباً اجتماعياً.

فما هو ملاحظ أن شرعية المنهج الليبرالي كان من باب التيسيس للوصول للهدف الإجباري الذي خططت له السياسيات العمومية وهو عصرنة المجتمع الجزائري وفرض التحول الاجتماعي من خلال زحف القيم العصرية وتراجع القيم التقليدية وبالتالي تحول منصب المرأة، فالمرأة خرجت للفضاء العمومي عن طريق التمدّس وهذا القياس المضبوط يقر على عدمية وجود تمييز جنسي أو حتى جغرافي فيما يخص عملية التمدّس.

بدأت البنية الاجتماعية الجزائرية تتحول من صفات إلى صفات أخرى وبموجب المرور من جيل إلى جيل آخر مماثل للتحول من الأنشطة الفلاحية إلى الأنشطة الإدارية والخدماتية، ضاعفت الدولة

قوى المجتمع بالارتكاز على الإناث مثل الذكور هذه الموضوعية جعلت المجتمع متقبل للقيم الجديدة ويتأزم في الحرص على التوقير خاصة في موضوع صيانة شرف الإناث الذي هو بمثابة شرف للأسرة.

ومع حدوث حراك اجتماعي متبنى من المخبر الغربي بدأت النساء الجزائريات يطالبن بحقوق مدنية تُفرغ العصبية الزوجية أو الأسرية من الهيمنة المطلقة خاصة بتحريم العنف على المرأة، فلو تفحصنا تاريخ مكانة المرأة الجزائرية نجد أنها عانت الكثير من الويلات، ففي الفترة الاستعمارية مثلاً كانت المرأة مضطهدة وكانت تعامل أشبه ما تكون بالسلعة وهذا راجع للأثر السلبي للاستعمار، لأن الاستعمار الفرنسي عُرف بقسوته على الأهالي وهم بدورهم ينقلون هذه القسوة نفسها إلى بيوتهم ويحاولوا أن يثبتوا وجودهم من خلال هيمنتهم على أسرهم، فقد سجلت مرحلة اندلاع الثورة التحريرية سنة: 1954 مشاركة فعلية للمرأة وذلك بتنازل الذكور للإناث وإيقاعهم وقناعتهم أن المرأة بذكائها وشجاعتها قادرة على الوقوف في وجه المستعمر واستطاعتها حمل السلاح مثلها مثل الرجل، كما سجلت هذه المرحلة نوع من تساوي الفرص بين الذكور والإناث في الكفاح منذ الاستعمار والالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني فتقول الباحثة الجزائرية "بامية عابدة أديب": لقد برهنت الحرب حقاً أنها كانت الفترة الذهبية في تاريخ المرأة الجزائرية إذ أنه في أعقاب الثورة ظهرت تغيرات مفاجئة شاملة وبعيدة المدى في وضعية المرأة.⁽¹⁰⁾

وبعد تحقق الاستقلال سنة: 1962 دخل أفراد المجتمع الجزائري مرحلة جديدة في ظل الفراغ المؤسساتي الذي شهدته الإدارات المعروفة باسم "مرحلة البناء والإنجاز" التي يمكن أن نقول أنها لا تقل صعوبة عن مرحلة الكفاح المسلح، وبطبيعة الحال أثرت هذه المرحلة على وضعية المرأة الجزائرية إذ تصف الكاتبة "هنس جوليت" ما مس وضعية المرحلة آنذاك بقولها: "أخيراً جاء الاستقلال وفرح الشعب بالنصر وأعيدت النساء إلى بيوتهن بعدما اعتقدت أن كفاحها سيمنحها حقوقها لكن سرعان ما خاب أملها⁽¹¹⁾."

لكن رغم كل هذا وذاك استطاعت المرأة من التسلل إلى الفضاء الخارجي لكي تصل إلى ما هي عليه اليوم فقد سجل التاريخ نضال المرأة الجزائرية، فالانطلاقة كانت على إثر نشاط احتجاجي قامت به مجموعة من نساء جزائريات يوم: 08 مارس 1979 المصادف لعيد المرأة العالمي، فقد

استغلت هذه المجموعة النسوية من جامعة الجزائر هذه الفرصة وإصدار أول نشرية هن تحت عنوان: "من أجل حقوق المرأة"، لكن سرعان ما تدخلت السلطة فقمعت هذه الحركة، كما صودرت جوازات سفر الطالبات والمعلمات فيم زج ببعضهن في السجن، وفي سنة: 1980 عقدت جمعية نسوية متكونة من مثقفين ومناضلين سياسيين ملتقى بوهران يدرس وضعية المرأة وقدموا انتقادات لمشروع الأسرة، حيث طالبن بإلغاءه جذريا وبتاريخ 13 ديسمبر 1981، تم تنظيم تجمع نسوي انضمت إليه محاربات ثورة التحرير وخرجن للشارع تحت شعار: «لا خيانة لمبادئ الفاتح نوفمبر»، فطالبن من رئيس الجمهورية آنذاك "الشاذلي بن جديد"، سحب مشروع القانون الذي يتضمن تمييزا في حق المرأة واعتباره إجراء غير قانوني، لأن هذا القانون يمنعهن من مغادرة التراب الوطني ما لم يكن مرافقات برجل مثل: الزوج، الأخ، الأب أو أحد الأقارب وهو ما اعتبره قرارا تعسفيا (12).

لقد سجل الواقع المهني للمرأة ومشاركتها في الحياة العامة تغيرا ملحوظا في المجتمع الحديث وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى عدمية التأويل الجنسي في شغل المناصب والأخذ بمبدأ الشهادة والكفاءة في تقلد 72.2 بالمئة من الوظائف، فحسب تقرير الديوان الوطني للإحصاء لسنة: 2014 أن عدد العمالة الجزائرية تقدر بنسبة 49.6 بالمئة نساء و 50.4 بالمئة رجال فما يشهده المجتمع الجزائري من دخول الإناث طور التمدرس واكتساح مجال العمل وتقلدها مناصب ريادية أدى ببلوغ المجتمع نقطة اللارجوع في التوفيق والتكيف في الفضاء العمومي لذلك ورد طرح الإشكال.

يعتبر التحول الاجتماعي من أهم العوامل المساعدة على دخول المرأة عالم الشغل وهي عبارة عن فعل انعكاسي ناجم عن عملية التصنيع الذي مس المجتمع الغربي أما في الجزائر ورد التحول الاجتماعي من باب تحول منصب المرأة من المحيط المنزلي الذي كانت فيه مقصاة اجتماعيا من طرف الرجل حسب المقياس التقليدي وخروجها للفضاء العمومي حسب المقياس العصري عن طريق استحداث المجتمع باستيراد شبكات قيمية من حضارات متفوقة، الأمر الذي أدى إلى ائتلاف الذاتيات الجزائرية على هذا المقياس لأنه يحمل معنى التطور والرفاهية لأنه آتي بأموال، كما استطاعت المرأة الجزائرية إلغاء اللاجنسية، في شغل الوظائف بمعنى الكونية التي تعتمد على معايير الكفاءة والتكوين والخبرة.

2-3- عملية التصنيع: اختارت السياسات العمومية غداة الاستقلال المنهج الصناعي بالأسلوب الاشتراكي من أجل التطور وتأكيد هذا الاختيار في عدة موثائق فكانت الانطلاقة الأولى لهذا التبنى من ميثاق طرابلس سنة 1962 الذي انعقد عن مؤتمر القيادة الجزائرية للثورة وصرح هذا المؤتمر أن: " التنمية الحقيقية للبلاد على المدى البعيد تتوقف على إقامة الصناعات الأساسية الثقيلة لسد حاجات الفلاحة والصناعة وتنمية الاقتصاد الوطني في كافة مجالاته"⁽¹³⁾، فقد تطلعت الدولة الجزائرية إلى تغيير النظام الاقتصادي الذي كان سائدا في عهد الاستعمار وبناء اقتصاد جزائري بمقومات جديدة لتحسين سريع وجذري لأوضاع الحياة الجمعية والفردية الشيء الذي عبر عنه الميثاق بأن: "انطلاق اقتصادنا يعتمد على تحقيق الانقلاب الشامل في النظم الراهنة"⁽¹⁴⁾، كما قام هذا المؤتمر بتوجيه اهتمامه نحو تطوير الصناعة التقليدية لإقامة صناعات صغيرة على المستوى المحلي وأشار هذا الميثاق بأن تتولى الدولة إدارة اقتصادها الوطني بنفسها وإعطاء الأولوية للصناعة الثقيلة.

وفي سنة 1964، صدر ميثاق الجزائر في المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني بتاريخ 21 أبريل من نفس السنة، والذي طرح كيفية تنظيم الإنتاج الصناعي بنفس العبارات الواردة في ميثاق طرابلس أي أن الإنتاج مطروح في إطار المجتمع الاشتراكي وتحسين المستوى المادي مرتبط بتطوير الصناعة بواسطة الشركات الوطنية والمختلطة⁽¹⁵⁾، مما يعني أن هذا الميثاق قام بربط تنمية الاقتصاد الوطني باستحداث علاقات التنظيم والإنتاج بواسطة الشركات الوطنية والشركات المختلطة وإمكانية الدولة والشركات الوطنية الاشتراك مع رأس المال الأجنبي، فبموجب هذا الاشتراك وقعت عملية التأثير أو الاختراق الثقافي من الجهة الغالبة على المغلوبة، فلا بد من تلبية متطلبات هذه الشراكة الأجنبية ولو على حساب الثقافة الأصلية في المجتمع الجزائري من أجل دفع عجلة التنمية وهو الأمر الذي صرح به الميثاق من خلال أن: "المصلحة العامة تقتضي توفير الشروط الملائمة لمساهمة رأس المال الأجنبي في التنمية الاقتصادية الوطنية".⁽¹⁶⁾

لقد كانت بداية إسقاط النموذج الغربي في المجتمع الجزائري إبان الاستعمار الفرنسي فقد كانت للجزائر المحتلة اقتصاد موجه كلياً نحو الخارج ومصمم للاستجابة إلى حاجات فرنسا والأوروبيين من خلال الإستراتيجية التي اعتمدها الجنرال "دي غول" والمعروفة باسم: "مشروع قسنطينة"، تضمن المخطط إقامة مصنع الحديد والصلب بطاقة إنتاجية سنوية قدرها 400 ألف

طن بالحجار "عناية" في ظرف لا يتجاوز خمس سنوات ويستخدم هذا المركب الحديد المستخرج من منجم "الونزة" بولاية تبسة والتي اتخذتها الإدارة الفرنسية كمبادرة أخيرة ومتأخرة.

أعلنت إدارة الاستعمار الفرنسي عن هذا المخطط في: 03 من شهر أكتوبر 1958 وقد قدرت المبالغ التي استلزمها هذا المشروع حوالي ألفي مليار فرنك فرنسي⁽¹⁷⁾، فهذه الحقيقة تتأكد لدينا عندما ننظر إلى تنمية أموال المشروع الموزعة على الميدانين الزراعي والصناعي خلال خمس سنوات فالصناعة تأخذ 85 بالمائة بينما لا ينال الميدان الزراعي إلا 18 بالمائة⁽¹⁸⁾.

ويوضح "دي غول" مشروعه بقوله: "إن إنشاء مساكن لمليون نسمة ومنهج الزراعيين المسلمين 250.000 هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة وإحداث 400 ألف وظيفة جديدة وفي مجال التعليم فإن ارتياد المدارس خلال الفترة المذكورة سيشمل ثلثي البنات والبنين على أن عددهم في السنوات التالية سيفوق العدد الحالي، أما الأهداف الرسمية لمشروع قسنطينة فتمثلت في الآتي:

- ضمان زيادة الدخل الوطني الجزائري بنسبة 7,5 بالمائة.
- تطوير الجزائر صناعيا من أجل القضاء على التخلف حتى تصبح قادرة على مسايرة العصر الحاضر.
- القضاء تدريجيا على الفروق في المستوى المعيشي بين الجزائريين والفرنسيين لضمان مستقبل تعايش سلمي بين الأوروبيين والجزائريين.⁽¹⁹⁾

لكن ما يجدر بنا الإشارة إليه أن ما كانت الحكومة الفرنسية تقوم بترويجه لدى الرأي العام آنذاك هو أن الشعب الجزائري إنما ثار من أجل تحسين وضعه الاجتماعي تحت ظل الاستعمار، فبعد أن فشلت كل الخطط الاستعمارية لتصفية الثورة لجأ "دي غول" إلى خطة جديدة لعله يحقق ما فشل فيه غيره من خلال خطة حكومته الجديدة لإصلاح ما أفسدته سابقتها، كما كان يهدف هذا المخطط إلى تعزيز الرأسمالية الفرنسية في الجزائر وإنشاء برجوازية أو طبقة من النخبة متعاطفة مع الإدارة الفرنسية ومن هنا يتبين أن الفرق الموجود في المستوى المعيشي عند الأوروبيين والجزائريين سيتضخم عوضا أن يزول وسيجد الجزائريون أنفسهم عاجزين إلى الأبد من اللحاق بالأوروبيين.

فبعد إعلان الاستقلال في جويلية 1962 وانتهاء الحرب ضد فرنسا غادر ما يقرب من مليون معمر الجزائر في بضعة شهور تاركين مزارعهم ونشاطهم ووظائفهم، فقد سُجلت هجرة: 50.000 إطار عالي 35.000 إطار متوسط و 100000 عامل موظف وقام صناع القرار آنذاك في الجزائر بسد الفراغ بالوسائل المتاحة لديهم وهي جد قليلة.

ورثت الجزائر منظومة اقتصادية خاضعة تماما لحاجات الاقتصاد الفرنسي لما يقرب 85 بالمئة من الصادرات موجهة إلى فرنسا وكانت 80 بالمئة من الواردات تأتي من فرنسا⁽²⁰⁾، فقامت باتخاذ أول إجراء وهو إعلان المعمرين دون مالك أو مرحلة التسيير الذاتي للمؤسسات في بلد لم يكن مؤهلا له سياسيا أو ماديا مما أدى إلى ظهور أزمة زراعية تقليدية بانتقال سكان الأرياف نحو المدن لسدّ الأماكن الشاغرة التي تركها المستعمر والرفض الجماعي لمهنة الفلاح، الظاهرة التي استلزمت الدراية والتحليل من طرف "بيار بورديو وعبد المالك سياد" عام: 1963 لأن هذه الظاهرة أدت إلى إثارة الجدل حول "الروح الفلاحية" والقطيعة بين الفلاح و الأرض⁽²¹⁾ لتحل محلها "الروح الصناعية".

في: 10 جويلية 1965 شرعت قيادة الرئيس الثاني للبلاد هواري بومدين الذي كان شغوبا بالمركزية والروح الصناعية لتحقيق التنمية كما قيل أنه أراد أن يجعل من الجزائر المستقلة "بروسيا المغرب"⁽²²⁾، عن طريق تبني نظرية الصناعات المصنعة المستوحاة من الاقتصاديين الفرنسيين: فرانسوا بيرو وجيرارد دوبيرنيس ويمكن اعتبار هذه النظرية هيئة عصرية ومقياس مشكل لقضايا المجتمع.

إن هذا الاعتماد على النموذج الغربي وإسقاطه على الأرضية الجزائرية أصبح هو المرجعية العظمى لإستراتيجية التنمية في الجزائر وإقامة جهاز إداري ومؤسسي مستورد كالشكل كلي. مما يعني أن هذه الأخيرة ليست منتجة لشكلها الكلي لأن هذه الهندسة تفرض مناصب وأدوار حديثة ومسايرة للنمط الجديد التي تجاهلت جانبيهم الانثروبولوجي في مجتمع متطلع للعصرنة ولو على حساب الوقت أو بوقت مختصر خصوصا الفترة التي قامت السياسات العمومية بتبني "عقود المفتح في اليد" أين تقوم الدولة باستيراد تجهيزات المصنع وآلاته وحتى تشييد البناء ونقل التكنولوجيا

وتدريب العمال على تلك التجهيزات، فقد قدرت نسبة 67 بالمئة من المشاريع الصناعية خلال الفترة بين 1970-1973 أنجزت عن طريق عقود المفتاح في اليد وبنيت مصانع على ما يزيد عن 150 ألف هكتار من الأراضي الزراعية الجيدة (23)، وأدت هذه العقود كذلك إلى تغيير اللوحة الثقافية والاجتماعية في الجزائر تحولا عميقا.

3- المرأة في ثقافة المجتمع الجزائري:

إن أبرز ما يميز الثقافة الجزائرية هو تبلورها حول ازدواجية ثقافية واضحة أو نوعين من الثقافة وهما ثقافة أصيلة أو تقليدية وثقافة عصرية مصدرها الأساسي الحضارة الغربية. لذلك تعتبر الصناعات المصنعة ذلك المنهج الذي خطت به السياسات العمومية الجزائرية أشواطا كبيرة في تنمية المجتمع ونسج رابط اجتماعي عصري، هذا الرابط أهل إليه دخول كل المواطنين إناث وذكور ففي هذا الباب دخلت الجزائر في العصرية بوجود المرأة في المصنع بأي وجه كان فكانت النساء تدخلن كعاملات قاعديات حسب المعتقد في المهارات الأنثوية حيث كن يشغلن الوظائف التي تستدعي الصبر وطول البال مثل: النسيج، التركيب الإلكتروني... الخ.

ولا أحد يفند أن خروج المرأة للعمل كان بسبب الوضع الإنساني التَّحْتِي (24)، فحسب البحوث السوسيو تاريخية التي أقيمت حول المرأة تبين أن خروج المرأة للعمل جاء نتيجة نضال ونزاع المرأة الغربية فالأصل الجذري للمرأة الرائدة يكمن في تاريخ التحول الاجتماعي الغربي والتاريخ يتحول من خلال الأزمات فقد وصل المجتمع الغربي إلى قلب الموازين بين الرجل والمرأة حتى أكدت حقها في تقلد المناصب القيادية فالتحول الاجتماعي إذن يقاس بالزمن ويمر بإحداث زمنية من خلال:

- قلب الموازين في بناء التراتبية من الذكور إلى الإناث

- العصرية تقرّ بعشوائية الجنس

فالإناث يسمون على الذكور في الأدوار والوظائف وذلك حسب المعامل المقوي لهذه الظاهرة العصرية النافية للتقليدي إذ نجد أن فئة الإناث تغطي على فئة الذكور في القطب المدرسي.

في الجزائر ومن باب التجربة السوسيو سياسية جاء العصري كمشكل تماما للحياة الاجتماعية والدليل أنه لا يوجد حزب حاليا يرفض التشكيلة العصرية للمجتمع الجزائري من خلال منح المرأة حقوقها، فهذه الخطوة تدل على تحول المنظومة الثقافية حقا مثل: الحق في التصويت، الحق في العمل، الحق في شغل الوظائف العسكرية والأمنية والحق في الخلع بموجب قانون الأسرة لسنة:2005.

أما ظهور المرأة الجزائرية في المحيط الصناعي هي فعل انعكاسي لوضع اجتماعي أي صورة تمثل انتقال المجتمع إلى الوجه العصري كما نجد أن النموذج العصري متقبل تأييدا من خلال الأسر على مستوى التغير بالأجيال أي الزمن، فالأولياء يصادقون على المنهج التحولي ففي وقتنا الحالي مثلا: لا يوجد تمييز جنسي أو حتى جغرافي لعملية التمدرس.

والمرأة العاملة ظهرت في المجتمع كصفة مفاجئة والنضال يظهر في يومنا هذا على شكل نزاعات بين الذكور والإناث ليس في المصنع أو المؤسسة بل في المنزل عن طريق المقياس المرجعي التقليدي في التأويل حول سمو الذكر عن الأنثى وأصبحت المرأة تتنازل للغسيل والطبخ من أجل المصادقة على النموذج العصري أي ضمان تأشيرة الخروج من طرف الذكر أيا كان أو زوجها.

كذلك نجد أن الأسر الجزائرية في تأييد للمنهج التحولي من خلال تقبلهم للعصرية، فالعصرية إذن مضبوطة زمنيا على مستوى الأجيال وعلى مستوى ضخامة المدينة فالعدد الكبير يعطينا نسيج اجتماعي يختلف عن القرية المفصلة للنموذج التقليدي.

كما يمكن اعتبار نماذج التقليدي معبرة عن البؤس والشقاء واعتبار العصري مرتبط بالرفاهية وتسهيل الحياة المعاشة للمرأة، فالحياة في الريف تختلف عن الحياة في المدينة، لذلك يمكننا تقديم سلم لضبط الأدوار في محور الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الجديد أو العصري وهو كالأتي:

لدينا مجموعة من السلوكات الآتية في المجتمع الجزائري مثل: 1-التمدرس، 2-الذهاب إلى فضاء العمل، 3-سياقة السيارة، 4-تناول وجبات غذائية في المطاعم، 5-الطبخ والغسيل...الخ

فمن خلال السلم نستلزم أن حياتنا وسلوكنا أصبحت مضبوطة بالعصري والتقليدي نوعا ما زال لأنه ليس بديل للعصري، فالتقليدي يعبر عن مفهوم الفوضى من خلال أننا نجد العصري مضائق من طرف التقليدي ومعطل لقيمه والتالي تعطيل التحول الاجتماعي، فثقافة المجتمع الجزائري تقوم على نماذج سلوكية مقبولة ونماذج سلوكية مرفوضة هذه النماذج قد تؤثر بالإيجاب أو بالسلب على عملية التنمية فإذا كانت هذه النماذج تتناسب مع ما تطرحه العصرية من تحديات للمجتمع فإن تأثيرها إيجابي بالضرورة خاصة إذا قطعت هذه العصرية مرحلة كبيرة من تطورها بحيث يمكن أن تتحول إلى واقع اجتماعي وثقافي جديد يتناقض مع الواقع الاجتماعي والثقافي القديم، ويدفع بالتالي إلى انزواء القيم القديمة المرتبطة بالواقع التقليدي وازدهار القيم الجديدة المرتبطة بالواقع العصري.

خاتمة:

تبدأ دراسة أي مجتمع بشري بصفة عامة بدراسة الظروف الأساسية اللازمة لتحقيق ظواهر وعمليات هذا المجتمع، والتي تلعب دورا بارزا في تحديد مصير المجتمع في النهاية.

إن ظاهرة المرأة العاملة في التجربة الجزائرية للمؤسسات الصناعية حديثة العهد ناجمة عن تحول المجتمع الجزائري من منظومته التقليدية إلى منظومة مستوردة عصرية، فعصرية المجتمع الجزائري كان نتيجة تسطير وتخطيط للسياسات العمومية هذا التسطير أدى إلى تشكيل المجتمع الجزائري عصريا.

فالنتيجة المتحصل عليها عن هذا الوضع المسطر هي عبارة عن فعل انعكاسي تمثل في تنازل الذكر للمرأة بخروجها من المحيط المنزلي إلى الفضاء العمومي أين سمت فيه عن طريق الشهادة، فالقاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الجزائري باعتبار أن المجتمع لكي يستمر ويتطور لا يكفي أن تكون له أنماط معينة من العمل أو أشكال محددة من الثقافة، إنما في حاجة وقبل كل شيء إلى عمليات إعادة تنظيم ومراجعة هذا الحراك الاجتماعي لتحقيق تكامل أنساق النظم والحركات الاجتماعية مع نماذج السلوك والمعايير المستوردة من طرف السياسات العمومية، بهدف البحث عن مبادئ جديدة لضبط وتنظيم العناصر المتحولة في المجتمع الجزائري.

الهوامش:

- ¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر سوريا، الطبعة: 4، سنة: 2006، الصفحة: 125.
- 2- g.Pevot, Expérience Algérienne, In Revue Canadienne L'économie-Québec, 1993, P: 167.
- 3- دلال ملحس، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة: 1، سنة: 2004، الصفحة: 53
- 4- دلال ملحس، المرجع السابق، الصفحة: 50
- 5- D.A Raostow ; A world of nations : problems of political modernization ; 494Washington institution ; 1967 p15 et A-F-K Organsky the stages of political development ; kmpf ; 1965 ;229 p
- 6- جمال مجدي حسنين، دراسات اجتماعية، دار المعرفة الجامعية مصر، بدون طبعة، سنة: 2006، الصفحة: 214
- 7- آلان توران، ترجمة: جورج سليمان، برادغما جديدة لفهم عالم اليوم، المنظمة العربية للتنهضة لبنان، الطبعة: 1، سنة: 2001، الصفحة: 263
- 8- جمال مجدي حسنين، دراسات اجتماعية، دار المعرفة الجامعية مصر، بدون طبعة، سنة: 2006، الصفحة: 60
- 9- زغدود علي، المؤسسات الاشتراكية ذات الطابع الاقتصادي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة: 2، سنة: 1987، الصفحة: 45
- 10- يامية عابد أديب، تطور الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بدون طبعة، سنة: 2005، الصفحة: 205
- 11- هنس جولبيت، ترجمة: إلياس مرقص، المرأة في العالم العربي، دار المعرفة، الطبعة: 1، سنة: 2008، الصفحة: 102
- 12- نقلا عن موقع: الديوان الوطني للإحصاءات (الجزائر)، سنة: 2015
- 13- زغدود علي، المؤسسات الاشتراكية ذات الطابع الاقتصادي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة: 2، سنة: 1987، الصفحة: 36
- 14- زغدود علي، المرجع السابق، الصفحة: 34
- 15- زغدود علي، المرجع السابق، الصفحة: 39
- 16- زغدود علي، المرجع السابق، الصفحة: 42

المراة والتنمية العصرية للمجتمع الجزائري _____ روابط أسماء

- 17- جمال الدين العويسات، ترجمة: الصديق سعدي، التنمية الصناعية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، بدون طبعة، سنة: 1986 الصفحة: 49.
- 18- جريدة المجاهد، العدد: 94، الصفحة: 03، سنة:
- 19 - أوزغيددي محمد الحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطنية، بدون طبعة، سنة: 1989، الصفحة: 144.
- 20- أحمد هني، اقتصاد الجزائر المستقلة، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة: 2، سنة: 1993، الصفحة: 22.
- 21- بنجامين ستورا، ترجمة: صباح ممدوح كعدان، تاريخ الجزائر بعد الاستقلال 1962-1988 والهيئة العامة السورية للكتاب، الطبعة: 1 سنة: 2012، الصفحة: 12.
- 22- بنجامين ستورا، ترجمة: صباح ممدوح كعدان، المرجع السابق، الصفحة: 41
- 23- بنجامين ستورا، ترجمة: صباح ممدوح كعدان، المرجع السابق، الصفحة: 59
- 24- عبد القادر جغلول، المرأة الجزائرية، دار الحداثة، الطبعة: 1، سنة: 1983، الصفحة: 210

مشكلات تقويم التحصيل الدراسي

في ضوء النظرية الكلاسيكية

الأستاذ بغداد ابراهيم محمد، جامعة تيارت

بإشراف الأستاذ الدكتور حبيب تليوين، جامعة أحمد بن بلت وهران 2

الملخص:

يختصر التقويم التحصيلي في المؤسسات التربوية على الاختبارات الكتابية التي تعد من طرف الأستاذ والتالي تفتقد هذه الاختبارات للخصائص الموضوعية من حيث الشمولية والصدق والثبات. وأي اختبار صُمم في المجال التربوي أو النفسي، ينتج عنه مشكلات عديدة: مشكلات نظم الامتحانات، مشكلات تتعلق بتفسير درجات الأفراد، مشكلات نظرية تتجلى في أن درجات الأفراد تتباين متباين مستويات صعوبة المفردات وكذلك تتباين معاملات الفقرات بتباين قدرات الأفراد المفحوصين. وللتغلب على هذه المشكلات لجأ تقويم التحصيل الدراسي إلى تبنى القياس الموضوعي والاختبارات المقننة، والاعتماد على التقويم المستمر والتقويم الذاتي وتقويم أنشطة الطلاب واعتماد سجلات الأداء وتبنى الاختبارات العملية أو الأدائية ما أمكن حسب طبيعة كل مادة وذلك لتكون عملية القياس شاملة ولا تقتصر على الاختبارات الكتابية، ولكن في الممارسات اليومية و الامتحانات الرسمية لا يمكن الاستغناء عنها.

كل ذلك دفع بالقياس النفسي والتربوي إلى تبنى الاتجاهات المعاصرة في القياس والاعتماد على النظرية الحديثة ونماذج الاستجابة للمفردة الاختبارية وبناء بنوك الأسئلة¹ التي توفر موضوعية القياس، حيث برهنت هذه النظرية على قدرتها على تحقيق الموضوعية وتوفير الشروط السيكمترية التي تجعل النتائج التي نحصل عليها أساسا لإصدار قرارات صائبة حول الأفراد،

والتغلب على مشكلات القياس الكلاسيكي ومنها تباين درجات الأفراد بتباين مستويات صعوبة المفردات وكذلك تباين معاملات الفقرات بتباين قدرات الأفراد المفحوصين.

الكلمات المفتاحية: الاختبار، التحصيل الدراسي، النظرية الكلاسيكية، نظرية الاستجابة للمفردة.

Abstract:

In educational assessment, the major tool to measure the knowledge is the paper-pencil test, which is administered by the teachers, and therefore it lacks objective characteristics in terms of comprehensiveness, validity and reliability. And after any test was designed in the educational or psychological testing, many problems raised: examination's system, explanation of the scores of individuals and theoretical problems as an example: scores vary depending on the levels of difficulty of the items as well as these latter vary depending on the abilities of individual subjects.

To overcome these problems, educational assessment adopt an objective measurement and standardized tests, depending on continuous assessment and self-evaluation and evaluation of students' activities and the adoption of performance tests and also a practical tests or performing as much as possible depending on the nature of each courses' education. So as the assessment to be inclusive measurement process, and not limited to the written tests; but in daily practices and official exam cannot do without.

This situation actuate psychological and educational assessment to the adoption of contemporary trends in measurement and rely on modern item response theory models and construct item banks which provide objective measurement. This theory has demonstrated its ability to achieve the objectivity and provide psychometric properties that make the results that we get basis for the right decisions about individuals, and to overcome the classical measurement problems, including the scores of individual variation depending on levels of the item's difficulty, as well as the coefficients of these latter depend on individual abilities.

Key words: test, educational achievement, classical test theory, item response theory.

مقدمة: أن الهدف من التقويم هو جمع مجموعة من المعلومات الصادقة والثابتة، وتحليل درجة وملاءمتها لمعايير خاصة بالأهداف المحددة في البداية بهدف اتخاذ القرار².

تهدف الاختبارات التحصيلية إلى قياس مدى تحقيق الأهداف التعليمية وهي إما اختبارات عادية تعد بواسطة الأساتذة أو اختبارات عامة تعدها الوزارة في نهاية كل مرحلة دراسية، وبخاصة الثانوية العامة³. ولكي تكون نتائج التحصيل متسقة وصادقة وغير متحيزة لابد من أن يركز قياس التحصيل على بعض الافتراضات وهي:

1. أن يقيس الاختبار نطاقاً سلوكياً يمكن تحديده بدقة، بمعنى توفر أهداف تربوية تصاغ في صورة سلوكية.

2. أن يقيس الاختبار الأهداف المتعلقة بالمادة الدراسية.

3. أن تتاح لجميع التلاميذ فرص تعلم المجال الذي يقيسه الاختبار، خاصة عند استخدام الاختبارات المقننة⁴.

يتضح مما سبق أن الاختبار التحصيلي هو أحد أدوات القياس والتي تقدم معلومات عن مدى اكتساب واستيعاب المتعلم للخبرات المعرفية بمستوياتها المختلفة والمهارات التي تم دراستها، وفي ضوء ما تسفر عنه نتائج الاختبارات تستمر عملية التقويم حتى يتحقق الهدف منها، وعليه فإن المشكلات المتعلقة بالاختبارات التحصيلية تنطبق على التقويم وعليه فإن الهدف من الدراسة الحالية تناول المشكلات المتعلقة باختبارات التحصيل الدراسي والتي تعرضت لها العديد من الدراسات السابقة. يمكن إيجاز مشكلات تقويم التحصيل الدراسي فيما يلي:

I. مشكلات نظم الامتحانات:

يقتصر التقويم في المؤسسات التعليمية على قياس التحصيل من خلال الاختبارات التحصيلية باعتبارها الأداة الأساسية وإن لم تكن الوحيدة، والتي يعتمد عليها في إصدار الأحكام واتخاذ القرارات التربوية بشأن مستويات التلاميذ والانتقال من صف إلى آخر ومن مرحلة دراسية

إلى أخرى. فقد أشارت نتائج دراسة طلعت الحامولي⁵ والتي هدفت إلى تقييم القرارات الوزارية المتعلقة بسياسة التعليم في الفترة من 1985 م إلى 1990 م إلى أن سياسة الوزارة التقويمية تشير إلى أن نظام التقويم هو نظام امتحان التلاميذ مما يفقد عملية التقويم خصائصها المتمثلة في "الشمول . التكامل . الاستمرارية". وإذا كان ما يحدث في مدارسنا هو مجرد قياس التحصيل باستخدام الاختبارات، فإن عملية تحديد مواطن الضعف وعلاجها، وتحديد مواطن القوة لتدعيمها لم تكن ممارسة في الواقع التعليمي وذلك لعدم توفر تغذية راجعة حقيقية. وتؤكد نتائج بعض الدراسات أن الاختبارات التحصيلية هي أكثر أدوات التقويم شيوعاً لقياس التحصيل، كما قدمت هذه الدراسات إسهامات تفيد في تطوير الاختبارات التحصيلية لتكون أداة مناسبة في تقويم مخرجات التعلم.⁶

يعاني النظام الحالي للامتحانات من قصور في تحقيق الأهداف التعليمية ويرتبط بمجموعة من المشكلات والمظاهر السلبية حددتها نتائج بعض الدراسات والبحوث ومنها:

1. تعتمد كثيرٌ من الاختبارات على الأسئلة المقالية بدرجة كبيرة مما يجعل صعوبة في عملية التصحيح واتخاذ القرارات الصائبة، وأحياناً على الأسئلة الموضوعية مما يجعل الأهداف التعليمية تقتصر على المستويات الدنيا فقط.⁷
2. ارتفاع مستوى القلق والخوف المرتبط بالاختبارات ووجود هدر مالي كبير نتيجة إتاحة فرص أوسع للدروس الخصوصية.⁶
3. الاختصار على الاختبار النهائي الذي يعقد في نهاية الفصل الدراسي وعدم توزيع الدرجات على مدار العام.
4. يؤدي النظام الحالي للامتحانات إلى انتشار الكتب الخارجية والدروس الخصوصية مما يؤدي إلى هدر الاقتصاد الوطني.⁶

5. كما توضح نتائج بعض الدراسات أن الاختبارات في معظم الدول العربية تفتقر إلى الصدق والشمول والموضوعية وتركز في معظمها على المستويات المعرفية الدنيا وإهمال المستويات المعرفية العليا.²

ومن أبرز المشكلات التي ترتبط بالاختبارات التحصيلية هي ما تتعلق بما تقيسه أسئلة الاختبارات ونوعها والتي توجز فيما يلي:

- أن أسئلة الاختبارات التحصيلية لا تعطى صورة حقيقية عما تقيسه من أهداف تعليمية، بمعنى عدم صدق الاختبارات في قياس الأهداف التعليمية كما تعكسها أهداف المحتويات الدراسية.
- لا تقيس الاختبارات الأهداف المهارية والوجدانية.
- لا تراعى كثير من الاختبارات الوزن النسبي والأهمية النسبية لكل من موضوعات المحتوى والأهداف التعليمية وتوزيع أسئلة الامتحانات على المحتوى.
- تأثير الدرجة الكلية للمتعلم في اختبار ما بمفرده .
- عدم توافر وحدة قياس ثابتة .
- عدم إمكانية المقارنة بين تحصيل المتعلمين في حالة استخدام اختبارات تحصيلية مختلفة.

وحول هذه المشكلات أجريت العديد من الدراسات التي اهتمت بتحليل أسئلة الاختبارات التحصيلية لبعض المواد الدراسية بهدف تشخيص الوضع الراهن للامتحانات من أجل تطوير الامتحانات ومراعاة الأسس والمعايير إلى يجب أن تكون عليها أسئلة الاختبارات ومن بين هذه الدراسات: تلك الدراسات التي قام بها المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي بمصر منذ نشأته 1990م لتقديم حلول علمية لمشكلات التقويم بصفة عامة والامتحانات بصفة خاصة حيث تم إعداد العديد من المشاريع البحثية كدراسات تقويمية إما لأدوات تقويم الطالب أو تقويم الأوراق الامتحانية للوقوف على جوانب القوة وجوانب الضعف في سبيل تطوير أدوات التقويم، إيماناً بأن إصلاح التقويم يؤدي إلى إصلاح التعليم. وفيما يلي نتائج بعض هذه الدراسات:

دراسة فكرى ريان وآخرون(20) والتي سعت لتقويم نماذج أسئلة المقررات الدراسية لجميع المواد الدراسية فى المرحلة الثانوية، وذلك بهدف الارتقاء بها حتى تكون أداة فعالة لتطوير المنهج وتحقيق أهدافه وتطوير الأسئلة لاستخدامها فى بناء بنوك الأسئلة، وقد أسفرت النتائج عن أن نماذج الأسئلة فى العام 1991/90 م تركز فى معظم المواد الدراسية على المستويات الثلاثة الأولى للأهداف المعرفية "التذكر - الفهم - التطبيق" مع قدر محدود لقياس المستويات العليا للأهداف المعرفية، وتضمنت نماذج الأسئلة نوعى الأسئلة المقالية والموضوعية.

كما أن الغالبية العظمى من الأساتذة والتلاميذ يعتبرون نماذج أسئلة المقررات - دليل التقويم - أنها الرديف الحقيقي لاختبار نهاية العام والإطار المرجعي لها، وكونها تركز على المستويات الدنيا للأهداف المعرفية، فإن اختبارات نهاية العام سوف تركز على هذه المستويات مما لا يحقق أهداف العملية التعليمية بجميع مستوياتها، فتطوير نماذج الأسئلة يسهم فى تطوير اختبارات نهاية العام.

وتجدر الإشارة إلى أن التذبذب فى نسب تمثيل الأهداف المعرفية بمستوياتها فى الاختبارات ربما يرجع لعدم الالتزام من قبل واضعي الاختبارات باستراتيجية واضحة مبنية على أهداف محددة، تأخذ بعين الاعتبار مشكلات التقويم السابقة لتلافيها بهدف تطوير نظم الامتحانات فى الوضع الراهن والمستقبلي، وهذه إشكالية الاختبارات التقليدية أو المعتادة التي هي أسيرة النظرية الكلاسيكية.

وتعتبر دراسة وتقييم الورقة الامتحانية ونماذج الأسئلة ودليل التقويم، يؤدى إلى نتائج تعد مدخلاً جيداً لتشخيص واقع الاختبارات والتعرف على جوانب الضعف وما يتصل بها من مشكلات لاقتراح الحلول المناسبة لتطوير الاختبارات مستقبلاً مم يسهم فى تطوير نظم التعليم وإصلاحها.

ومن الدراسات الأخرى دراسة أمينة كاظم وآخرون⁸ والتي أوضحت أن أدوات التقويم المستخدمة فى الدول العربية "دول الخليج ومصر" تتجسد فى الاختبارات التحريرية المقالية

والموضوعية بأنماطها المختلفة وبنسب متفاوتة، وتعتمد أحياناً على الاختبارات الشفهية أثناء الفصل الدراسي من خلال التقويم المستمر، ونادراً ما تستخدم الاختبارات الأدائية أو العملية، كما أن البطاقة المدرسية غير مفعلة، ويتم التركيز في تقويم التحصيل الدراسي حول الجانب المعرفي على مستوى التذكر وإن تناولت مستوى الفهم والتطبيق بدرجة أقل، ونادراً ما تشمل الاختبارات على المستويات العليا للأهداف المعرفية.

ويضيف فؤاد أبو حطب⁹ أن الأسئلة التي تقيس النواحي المعرفية هي نوعان هما:

- أسئلة إنتاج الاستجابات مثل " الإجابات القصيرة . ملء الفراغ . أسئلة المقال الطويلة ."
- أسئلة انتقاء الاستجابة وهي أسئلة موضوعية "الاختيار من متعدد . المزاوجة . الاختيار من بدلين".

ومن أهم المشكلات المرتبطة بهذه الأنواع والتي تؤثر في التحصيل هي مشكلة كتابة وصياغة الأسئلة، لأن عدم وضوح السؤال ودقته يؤدي إلى فهمه بطريقة تؤدي إلى إجابة خاطئة. وهذا ما أكدته نتائج دراسة حمدي البنا¹⁰، من أن أسئلة امتحانات الكيمياء للثانوية العامة في الأعوام 1998، 1999، 2000 م لا تعطي صورة حقيقية لما تقيسه من أهداف، حيث إن ما يظهر من صياغتها يختلف عما تقيسه بالفعل.

وأُسفرت نتائج دراسة رضا درويش¹¹ حول تقويم "دليل تقويم التلميذ في مادة العلوم للصف الثالث الإعدادي" إلى شمول الدليل على أسئلة لقياس الأهداف المعرفية بدرجة كبيرة، بينما شمل الدليل على أسئلة لقياس الجانب المهاري بدرجة ضئيلة جداً، ولم يتضمن الدليل أسئلة لقياس أهداف الجانب الوجداني، والنسبة للأهداف المعرفية كان التركيز بدرجة كبيرة على أسئلة لقياس قدرة التلميذ على التذكر والفهم، بينما شمل الدليل على أسئلة لقياس قدرة التلميذ على التطبيق والتحليل والتركيب والتقويم بنسب ضئيلة للغاية، وتحقق المعيار الخاص بتنوع الأسئلة بين المقالية والموضوعية، كما اشتمل الدليل على أنواع متعددة من الأسئلة الموضوعية ولكن لم يتحقق المعيار الخاص بالتوازن حيث حازت الأسئلة الموضوعية على معظم الاهتمام.

يتضح مما سبق أن الغالبية العظمى من أسئلة الاختبارات أو أدلة التقويم أو الأسئلة المتضمنة في الكتب باعتبارها أحد المصادر الأساسية لأسئلة الاختبارات تركز على المستويات المعرفية الدنيا وتركز على الحفظ والتذكر مما يؤثر في جودة مخرجات التعلم. وهكذا نستنتج أن الاختبارات التي يعدها الأساتذة، أو تلك التي موجودة في الدليل، تفتقد للموضوعية.

ويذكر علام³ أن الموضوعية يقصد بها أن درجة الفرد في الاختبار لا يجب أن تعتمد على عينة الأفراد ، ففي الاختبارات النفسية المقننة تشتت الدرجات الخام من عينة التقنين ثم يوازن أداء الفرد الذي يطبق عليه الاختبار فيما بعد بمعايير مشتقة من هذه العينة ، فإذا تغيرت العينة فقدت هذه المعايير دلالتها ، أي يصبح الاختبار محكوماً بالعينة ، كما أن الفرد يحصل على الدرجة نفسها في أي اختبارين يقيسان نفس السمة ، إلا أن درجة الفرد تختلف عادة باختلاف الاختبار الذي يطبق عليه ، أي أن درجته تصبح محكومة بعينة المفردات التي يختبر بها .

وسعياً للقضاء على مشكلات تقويم التحصيل الدراسي وتطوير الورقة الامتحانية، قدمت بعض الدراسات وأوراق العمل تصورات مقترحة ومشاريع نماذج لتطوير الامتحانات كأدوات لتقويم التحصيل الدراسي ومنها: دراسات كل من أمينة كاظم وآخرون⁷ وعبد الوارث الرازي² وأوراق عمل رجاء أبو علام⁵، والتي أكدت على ضرورة تبني القياس الموضوعي والتقويم المستمر إضافة إلى التقويم النهائي وأن يتضمن الاختبار النهائي أسئلة مقالية ذات إجابات محددة وأخرى موضوعية متنوعة، وتبنى مشروع بنوك الأسئلة والتركيز على المستويات العقلية العليا، مع الاعتماد على التقويم من خلال الأنشطة التي ترتبط بمواقف الحياة الواقعية.

ويضيف حسين بشير¹² ضرورة استخدام سجلات الأداء التي تضم عينات من عمل التلاميذ ومساعدة التلميذ على التقويم الذاتي على اعتبار أن التقويم عملية تعاونية يشترك فيها كل من لهم علاقة بهذه العملية. وهذا يدل على أن التقويم الذي هو شائع عند أغلب الأساتذة يتلخص في الاختبارات الكتابية والتي تفرضها الرزمة السنوية للتقويم والتي تعتبر قطعة أي أنها تحقق ما ينتظر منها وهو الحصول على درجات المتعلمين وقائم على ترتيب التلاميذ من الأحسن إلى الأضعف دون النظر إلى الأهداف المرجو تحقيقها.

II. النظرية الكلاسيكية للاختبارات Classical Tests Theory:

من المناسب أن نبدأ هذا الفصل بالتساؤل التالي: ما معنى النظرية الكلاسيكية ؟
التعريف الاجرائي الوحيد جاء به (1950) Harold Gulliksen عند حديثه عن نظرية الاختبارات العقلية. حيث لم يقدم مصطلح الكلاسيكي لوصف الموضوع لأنه لم يكن هناك نظرية أخرى للتمييز بينها، ومن جهة أخرى وبعد مرور ثمانية عشرة سنة، كان Mel و Fred Lord و Novick بحاجة للتمييز بين النظريات الإحصائية لنتائج الاختبارات العقلية، وبالتالي ظهر مصطلح النظرية الكلاسيكية. تهدف هذه النظرية إلى تحديد العوامل المؤثرة على درجة الفرد والتي تسبب ما يسمى خطأ القياس، ولتحقيق ذلك استندت النظرية على مجموعة من الفروض منها³:
درجة الفرد التي يحصل عليها ليس من الضروري أن تمثل درجته الحقيقية، فهي قابلة للتغير حسب ظروف الموقف.

1. درجة الفرد هي نتاج نوعين من الدرجات "الدرجة الحقيقية . الدرجة الخاطئة".
2. الدرجة الحقيقية يفترض أن تكون ثابتة لأنها تمثل قدرة الفرد المقاسة.
3. زيادة خطأ القياس يقلل من الدرجة الحقيقية والعكس صحيح.
4. الدرجة الحقيقية يمكن معرفتها من خلال تكرار تطبيق الاختبار عدة مرات، وهي عبارة عن متوسط مرات التطبيق.
5. لا يوجد اقتران بين الدرجات التي يحققها الأفراد وبين الدرجات الخاطئة.
6. صعوبة إثراء الاختبارات المعدة باستخدام النظرية الكلاسيكية بمفردات جديدة .

كما ارتكزت النظرية الكلاسيكية للاختبار في القياس النفسي على مجموعة من القواعد هي:¹³

1. الخطأ المعياري للقياس ينطبق على جميع الدرجات في عينة محدودة.

2. الاختبارات الطويلة تكون أكثر ثباتاً من الاختبارات القصيرة.
 3. تكون مقارنة درجات الاختبار أفضل عندما تتوفر عدة صورة متكافئة.
 4. التقديرات غير المتحيزة Unbiased لخصائص المفردة تعتمد على مدى تمثيلها للعينة.
 5. تكتسب درجات الاختبار مدلولها من خلال مقارنة وضعها بمقياس المجموعة الواحدة.
 6. خصائص مقاييس المسافة Interval Scales تتحقق بالحصول على توزيع إعتدالي.
 7. الصيغ المختلطة للمفردات تؤدي إلى أثر غير متوازن على الدرجة الكلية للاختبار.
- والخطأ في القياس الكلاسيكي يرجع لعوامل متعددة منها ما يرتبط بالمفحوص أو ظروف التطبيق أو بيئة المفحوص وما يحيط بها، ويفترض أن هذا الخطأ يتوزع اعتدالياً، وقد تطورت الأساليب الإحصائية للوصول إلى معادلات إحصائية ملائمة للحد من هذا الخطأ، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك مشكلات أخرى ترتبط بهذه النظرية دلت عليها البحوث السابقة ومنها:
1. صعوبة إحداث تكافؤ بين عدة أنواع من الاختبارات.
 2. صعوبة تحديد مصادر خطأ القياس خاصة ما يرتبط منها بخصائص أداة القياس.
 3. اعتماد الخصائص السيكومترية للاختبارات على خصائص عينة التقنين، وعلى خصائص عينة المفردات، مما يؤدي إلى قياس غير مستقر.¹⁴
- وقد أُجريت محاولات لتقليل الخطأ التجريبي في القياس الكلاسيكي منها: الاختيار العشوائي للأفراد وتحديد المعايير واستخدام الأساليب الإحصائية الملائمة ، وذلك لأن الدرجة التي يحصل عليها الفرد على اختبار ما لا تعبر عن مستوى قدرته الفعلية، بل تخضع لخطأ القياس، حيث إن درجة الفرد قد تزيد أو تقل عن مستوى قدرته، فالدرجة الملاحظة التي يحصل عليها الفرد تتضمن جزأين هما الدرجة الحقيقية ودرجة الخطأ والتي يعبر عنها بالمعادلة التالية: $X = T \pm E$.

حيث (E) تعبر عن الخطأ ، (T) تعبر عن الدرجة الحقيقية، (X) تعبر عن الدرجة التجريبية أو الملاحظة¹⁵.

وتجدر الإشارة إلى أن الأحكام التي تصدر بشأن مستويات التلاميذ التحصيلية، قد لا تكون دقيقة بسبب مقدار خطأ القياس والذي يمكن الحد منه باعتماد القياس الموضوعي الذي يعتمد على النظرية الحديثة في القياس. بينما يؤكد على أنه يجب الاعتماد على أكثر من معيار عند تفسير درجة التلميذ على الاختبار وعدم الاقتصار على معيار واحد فقط من المعايير التالية:¹⁶

1. المعيار السيكمومتري "موقع الفرد بالنسبة لأقرانه".

2. المعيار الأديومتري "موقع الفرد بالنسبة لمحك محدد تحديداً دقيقاً".

3. موقع الفرد بالنسبة لنفسه من وقت لآخر.

4. موقع الفرد بالنسبة لما يطمح أن يكون عليه مستواه.

ويوصى كل من (Hambleton & Wedman)¹⁷ بضرورة التخلص من المشكلات المرتبطة بالاختبارات المعتادة التقليدية والتي تتمثل في عدم موضوعيتها وعدم قدرتها على تقديرات النطاق الواسع للمحتوى، كما أنها لا توفر تقوياً تشخيصياً جيداً، وذلك من خلال تبنى الاتجاهات الحديثة في القياس النفسي التي تمد الممارسين بأطر تسهم في تطوير عملية التقويم وتوفير موضوعية القياس وتركز على تقويم الكفاءات Competencies بدلاً من تقويم الأداء، والاستعانة بالتكنولوجيا الحديثة في تطوير النماذج السيكمومترية الحديثة التي تسهم في تطوير طرق بناء الاختبارات وتحليل بنائها. ويضيف كل من (Hambleton & Slater)¹⁸ أن الاختبارات في الوقت الحالي تمر بتغيرات أساسية، وإحدى هذه التغيرات هو الانتقال من الاعتماد على القياس الكلاسيكي إلى تبنى النماذج الحديثة للتغلب على عيوب الاختبارات التقليدية.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء القياس النفسي لم يقفوا أمام هذه المشكلات مكتوفي الأيدي، بل كانت هناك جهوداً كبيرة للتغلب على هذه المشكلات والتي تؤثر في الخصائص السيكمومترية

للاختبارات التحصيلية، مما يؤثر في دقة وصحة النتائج، فقد تم التوصل إلى نماذج جديدة تجعل القياس موضوعياً بمعنى عدم تأثر درجة الفرد بخصائص عينة الأفراد ولا خصائص عينة الأسئلة المكونة لأداة القياس وهو ما يسمى بنماذج نظرية الاستجابة للمفردة.

III. الأنظمة المرجعية في القياس التربوي والنفسي

من المشكلات التي ترتبط بالنظرية الكلاسيكية هي مشكلة تفسير درجة الفرد التي يحصل عليها في اختبار ما والتي تتوقف على المعيار أو المحك الذي يكسب الدرجة معنى أو دلالة، وفي إطار هذه النظرية تم بناء اختبارات مرجعية المحك وأخرى مرجعية المعيار ولكل منها مشكلاتها التي ترتبط بالتحصيل الدراسي والتي يتم تناولها فيما يلي:

1. النظام مرجعي المعيار Norm-Referenced System:

يقوم القياس مرجعي المعيار على تقدير الفروق بين الأفراد والتمييز بينهم في الأداء، حيث تكتسب درجة الفرد على الاختبار معناها عندما تسند إلى معيار مستوى الجماعة التي ينتمي إليها الفرد¹⁹، ويحدد مستوى الجماعة بمتوسط درجاتها على الاختبار، ويتغير هذا المعيار بتغير الجماعة، حيث تعتمد فلسفة القياس على التمييز بين الأفراد بهدف الانتقاء والاختيار، وتعد الاختبارات في هذا النظام هي الأقدر على التمييز بين الأفراد²⁰. وتجدر الإشارة إلى أن الاختبارات في ظل القياس مرجعي المعيار تعتمد على الفروق الفردية، حيث تتوزع درجات الأفراد في ظل النظرية الكلاسيكية توزيعاً اعتدالياً. والاختبارات مرجعة المعيار تكون فائدها واضحة في الحالات التالية:²¹

• عندما يكون الموضوع الدراسي ليس بشكل متراكم أو سلسلة مترابطة يعتمد بعضها على البعض الآخر.

• في الحالات التي لا يلزم الطلاب الوصول لمستوى محدد من الكفاءة.

• عندما تكون بحاجة لاختبار عدد من الأفراد المتميزين.

• عندما يكون الهدف التنبؤ بدرجة النجاح للطلاب، لأنها تعتمد على الفروق الفردية.

• عندما يكون هناك حاجة لقياس عمليات عقلية عليا .

وعلى الرغم من كل هذه الفوائد وما يتميز به المعيار السيكمومتري من الخصائص السيكمومترية من موضوعية وصدق وثبات وقدرة على التمييز إلا أن عيوب الاختبار أو مشكلاتها في ضوء القياس مرجعي المعيار يحددها Glaser 1963 فيما يلي:

■ يقتصر على التمييز بين الأفراد ولا يتجاوز ذلك إلى معرفة ماذا تحقق من أهداف العملية التعليمية، مما يؤدي إلى حذف عناصر ووحدات من الاختبار إذا كانت غير مميزة بين الأفراد بغض النظر عن قيمتها مما يؤثر في بناء الاختبار.

■ الاقتصار على اتخاذ الجماعة كمحك لتفسير درجة الفرد على الاختبار يؤدي إلى عدم التيقن من موقع الفرد وجماعته بالنسبة لأهداف التعلم ومدى تحقيقها.

■ سطوة المنحنى الاعتدالي المعياري باعتباره النموذج الأمثل لتوزيع الدرجات، وهو الذي يتحقق عندما يكون مستوى الأسئلة في مستوى التلاميذ، وعندما تكون الأسئلة صعبة أو سهلة تحصل على منحنى ملتو التواء سالباً أو موجباً، مما يدعو إلى التركيز على مستويات التلاميذ بدلاً من الأهداف التعليمية²²

■ ومن الاختبارات التي تستخدم معيار الجماعة كنظام مرجعي لتفسير النتائج هي الاختبارات التحصيلية المقننة والتي تعتمد على موازنة أداء المتعلم بأداء أقرانه وفقاً للمجموع الكلي للدرجات والتي تخضع لخصائص عينة التقنين، كما تخضع لخصائص عينة الأسئلة التي يشتمل عليها الاختبار، مما يؤثر في صدق الموازنة وبالتالي صعوبة تعميم النتائج، ففي ظل القياس مرجعي المعيار يختلف تدرج صعوبة الأسئلة باختلاف قدرات الأفراد، كما أن قياس قدرات الأفراد يتباين بتباين صعوبة الأسئلة.²³

2. النظام مرجعي المحك Criterion-Referenced System :

يهدف القياس مرجعي المحك إلى تقويم أداء الفرد وتحديد مدى تقدمه بالنسبة لمجموعة من المهارات أو الأهداف ومعرفة جودة الأداء في ضوء محكات محددة مسبقاً²⁴.

والاختبار محكي المرجع كما حدده Glaser هو الاختبار الذي صمم عن قصد لإعطاء قياسات تفسر مباشرة بالنسبة إلى معايير أداء محددة²⁵ بمعنى أنه يهدف إلى تقدير الفرد بصرف النظر عن مستوى أداء أقرانه، حيث تفسر درجة الفرد على الاختبار في ضوء محك، يحدد حسب الأهداف الموضوعية للقياس.¹⁹

والاختبار مرجعي المحك يسهم في تقويم كل تلميذ بناءً على مستواه وقدراته، حيث يقوم أداء التلميذ على ما يحتاجه هو بالنسبة لقدرته الفردية، وليس بالنسبة لمقارنته بمتوسط أداء مجموعته، أي أن التفسيرات مرجعية المحك تساعد على شرح ماذا يستطيع عمله الفرد بدون أداء الآخرين²⁴. والاختبارات المرجعة إلى المحك تكون مناسبة في الحالات:

- عندما تكون الموضوعات الدراسية تراكمية ومرتبطة مع بعضها البعض.
- عندما يكون الهدف الوصول إلى مستوى تمكن محدد، واكتساب مهارات لمنح درجة علمية.
- عندما يكون الهدف تحديد نواحي القوة والضعف لدى الفرد (أي عملية التشخيص)²⁶.

ويستخدم قياس محك المرجع في البرامج التعليمية القائمة على الأهداف أو الكفاءات للتحقق من مدى إتقان التلميذ للمخرجات المعبرة عن الأهداف بالنسبة لمجال سلوكي محدد جيداً، ويتكون هذا المجال من مجموعة من المهارات أو الميول أو الاستعدادات التي يؤديها المختبرون في موقف الاختبار وذلك في ضوء مستوى الإتقان كما ينعكس في درجة فاصلة²⁷.

كما تستطيع الاختبارات مرجعية المحك أن تحقق ما يلي²⁸:

- قياس بعض المهارات الدقيقة.

• قياس بعض الأهداف التربوية المتخصصة التي ترتبط بمجموعات معينة من الطلاب، والتي تفسر في ضوء مستويات محددة.

• قياس أقصى أداء يمكن أن يحققه الفرد.

• الاستفادة منها في حل بعض المشكلات التي يصعب حلها باستخدام الاختبارات مرجعية المعيار.

وعلى الرغم من كل هذه المميزات إلا أن هذه الاختبارات أقل انتشاراً لصعوبة تقدير الثبات والصدق لها ولندرة الدراسات حول هذا النوع للتغلب على هذه المشكلات²⁴.

وفي دراستي لنادية عبد السلام²⁹ توضح أن القياس المرجع إلى المحك تعرقه مشكلات علمية من أهمها مشكلة تحديد المحك، فاختلاف المحك يؤدي إلى اختلاف القرار الذي يتخذ بشأن الحكم على المتعلم عند تقدير مستوى الإتيان، والذي يختلف باختلاف الدرجة الفاصلة.

ويتفق أنور الشرقاوي²⁷ مع ما توصلت إليه نتائج دراستي لنادية عبد السلام²⁸ و³⁰، إلا أنه يضيف مشكلة أخرى وهي أن تفسير الدرجات في ضوء القياس محكي المرجع يحتاج إلى معلومات إضافية، بمعنى رد درجة الفرد على الاختبار إلى المستوى المقابل لها والذي يتضمن معلومات عن المحك. وفي دراسة أمينة كاظم³¹ توضح أن من أهم مشكلات التقويم الأكاديمي:

• عدم موضوعية تقدير المستوى الأكاديمي نتيجة استخدام الاختبارات المختلفة وتباين مستوياتها.

• عدم موضوعية تقدير السلوك الأكاديمي للتلميذ نتيجة اختلاف مستوى الجماعة التي ينتمي إليها.

وفي دراسة مصطفى كامل²⁶ تم إعداد اختبار محكي المرجع وقد استخدم محك الإتيان 80 % من الدرجة ليمثل الحد الأدنى الذي ينبغي على المتعلم الوصول إليه لكي يعتبر متمكناً، وقد أسفرت النتائج عن فعالية إستراتيجية التعلم حتى يتمكن في الحكم على مستوى تمكن الطلاب من المهارات التدريسية لمقرر التقويم التربوي.

وحددت دراسة أحلام ألباز ورضا حجازي³² أربعة مستويات لإتقان الطلاب تمثل محكات لها درجات قطع محددة في ضوء تقديرات محددة هي (مستوى التمكن - مستوى الإجابة - مستوى الاجتياز - المستوى الضعيف)، وأسفرت نتائج الدراسة عن اختلاف نسب الطلاب في المستويات الأربع فكانت أقل نسبة للطلاب هي التي حققت مستوى التمكن وحصلت على 85 % فأكثر من المحتوى المحدد للاختبار، وكانت أعلى نسبة هم الطلاب الذين حققوا المستوى الضعيف وهم الذين استطاعوا تحصيل 50 % من محتوى الوحدة موضع الاختبار.

وتجدر ملاحظة أن تحديد المحك يعتمد إلى حد كبير على ذاتية صاحب القرار، ومن ثم فإن القرارات التي تتخذ بشأن الطالب المتقن وغير المتقن تكون مبنية على خطأ في القياس والذي يعتمد على دقة أو عدم دقة تحديد المحك بصورة موضوعية، ويظل السؤال قائماً كيف يمكن الحد من أخطاء القياس؟ فالمحك يشير إلى محتوى أو سلوك ترجع إليه درجات الاختبار كما حدده Glaser 1963، وقد يقصد بالمحك: مجال السلوك - درجة معيار ثابت - درجات مطلقة - درجة الإتقان، حيث إن درجة التلاميذ على القياس مرجعي المحك تزود بمعلومات واضحة بخصوص ما يستطيع وما لا يستطيع أن يفعله الفرد، وهو بذلك يختلف باختلاف المحك²⁸. وتضيف نادية عبد السلام «أن الدرجة الكلية على الاختبارات مرجعية المحك ربما لا تكفي لتمييز أداء التلاميذ، وربما يحصل تلميذان على نفس الدرجة الكلية، لكن نمط استجاباتهم والمهارات المتعلمة ربما تختلف بدرجة كبيرة، فالتلميذ الأول (س) قد يجيب على بعض المفردات التي ترتبط بمهارات غير تلك التي يجيب عليها التلميذ الثاني (ص) ويحصلان على نفس الدرجة، ولحل هذه المشكلة يقسم الاختبار إلى مقاييس فرعية يحدد لكل مقياس فرعي محك خاص به»³³.

والاختبار مرجعي المحك يستخدم للتأكد من مستوى الفرد بالنسبة إلى مجال سلوكي محدد جيداً، وقد يكون المجال السلوكي مجموعة من المهارات أو الاستعدادات التي يؤديها المختبر في موقف الاختبار وبالتالي يمكن أن تسمى اختبارات مجالية المرجع، أو تسمى اختبارات هدفية المرجع عندما يتكون الاختبار من مفردات تقابل أهداف محددة تكون مصاغة في صورة إجرائية.²⁴

والمستوى يشير إلى الحد الأدنى من الكفاءات المطلوب تحقيقها لغرض معين، وهذا الحد الأدنى يمثل أقل الكفاءات أو المهارات الواجب توافرها لدى التلميذ للانتقال إلى المستوى الدراسي الأعلى.³⁴ أي أن المستويات هي تحديد الكفاءات والمهارات والأداءات المطلوب توفرها للحكم على اجتياز مستوى دراسي معين، ومن أنواعها **مستويات المحتوى** والتي تهتم بتحديد المعارف والمهارات التي يجب أن يمتلكها التلاميذ في نهاية تعلم محتوى دراسي³⁵. **ومستوى الأداء** نوع آخر من المستويات يصف الكفاءات المطلوب تحقيقها بصورة إجرائية، بمعنى أنها تضع مستويات المحتوى في صورة أداءات مطلوب تحقيقها للحكم على اجتياز التلميذ لمرحلة دراسية أو صف دراسي.

ومن المشكلات المتعلقة بالاختبارات التي يتم بناؤها في إطار النظرية الكلاسيكية هي:³

- الخصائص السيكمومترية للاختبارات تعتمد على خصائص عينة الأفراد التي يجري عليها الاختبار، وعلى خصائص عينة المفردات التي يشتمل عليها الاختبار، مما يؤدي إلى نظام قياس نفسي وتربوي غير مستقر، بمعنى تغير معاملات الصدق والثبات وصعوبة المفردات بتغير قدرات الأفراد.
- . يفترض أن الاختبار يقيس متغيراً أحادي البعد وربما لا يكون ذلك صحيحاً في كثير من الأحيان.
- . يفترض أن الدرجة التي يحصل عليها فرد على مفردات الاختبار يمكن جمعها، كما لو كانت تمثل ميزاناً خطياً والحقيقة أن هذا الميزان منحنياً، فالفرق الثابت بين درجتين من درجات الاختبار يختلف معناه بالنسبة لدرجة القدرة المقاسة بحسب موقع الدرجات على متصل القدرة. فالفرق بين الدرجتين 13-16 $\neq$ 12-9 بالنسبة للقدرة المقاسة.
- . يفترض أن درجات الاختبار التي تمثل القدرة المقاسة دالة خطية مطردة، بمعنى كلما زادت درجة الفرد دل ذلك على زيادة مقدار القدرة لديه ولكن يلاحظ أحياناً أن بعض الأفراد مرتفعي القدرة يحصلون على درجات منخفضة أو العكس.
- . تغير تكوين الاختبار بمرور الزمن حسب الإضافة أو الحذف أو ظروف الموقف الاختباري.

3. نظام القياس الموضوعي:

يُعدّ هذا النظام من التطورات المعاصرة في القياس النفسي والتربوي، وارتبط هذا النظام بمدخل جديد يطلق عليه "مدخل السمات الكامنة". وهو يشمل نظريات ونماذج سيكومترية مستحدثة، وجاء كرد فعل للنقد الذي يوجه إلى فلسفة القياس التربوي بعامة والنظام مرجعي المعيار بخاصة.³⁶ وكما أشرنا سابقا، يتلخص النقد الموجه في:

- الاختبارات تعتمد على موازنة أداء المتعلم بأداء أقرانه وفقا للمجموع الكلي لدرجاتهم،
- تخضع الدرجات لخصائص عينة الأفراد، كما تخضع لخصائص عينة الأسئلة التي يشتمل عليها الاختبار،
- هذا الاختلاف يؤثر في صدق إجراء الموازنات، وبذلك يصعب تعميم النتائج أو الاستفادة العملية منها،³⁵
- تدرج صعوبة فقرات الاختبار يتباين بتباين قدرات الأفراد، وقياس قدراتهم أو سماتهم يتباين بتباين صعوبة الأسئلة،
- هذا الاختلاف يؤثر في درجات الثبات،

ونتيجة لهذه الأسباب، يصعب إجراء العمليات الحسابية اللازمة للموازنة بين الأفراد وتقدير التحسن أو التغير في سلوكياتهم أو قدراتهم. فتم التوصل إلى نماذج جديدة تجعل القياس موضوعيا، ومعنى الموضوعية أن "درجة الفرد في الاختبار لا يجب أن يعتمد تفسيرها على عينة الأفراد المختبرين التي يوازن على أساسها، كما أن الفرد يجب أن يحصل على نفس الدرجة تقريبا في اختبارين يقيسان نفس السمة أو القدرة"³⁵ والسؤال الذي نطرحه، كيف نجعل القياس التربوي والنفسي موضوعيا؟

ينبغي أولا أن يكون التقويم شاملا أي لا يقتصر على الاختبارات الكتابية فقط خصوصا في المراحل الابتدائية والاعتماد على التقويم الواقعي أي المرتبط بمختلف الأنشطة المرتبطة بواقع التلميذ. أما في المراحل المتقدمة ينبغي بناء الاختبارات التحصيلية بطريقة حديثة لتفادي

المشكلات السابقة، فعلماء القياس التربوي والنفسي اتجهوا نحو مدخل جديد يعتمد على النظرية المعاصرة للاختبارات: Modern Test Theory، والتي تعرف بنظرية السمات الكامنة Latent Trait Theory، ويفضل الكثير تسميتها بنظرية الاستجابة للمفردة Item Response Theory، وذلك لاهتمامها بربط بين استجابة الفرد لمفردة اختباريه وبين خصائص هذه المفردة. تقوم هذه النظرية على فرضية أساسية مؤداها أن القيمة الاحتمالية لاستجابة فرد لمفردة اختباريه تكون دالة لكل من السمة أو القدرة أو الخاصية Trait التي يفترض أن الاختبار يقيسها لدى الفرد، وخصائص المفردة التي يحاول الإجابة عليها³⁵. ومعنى الدالة مصطلح رياضي وهي نتيجة قدرة الفرد (أي احتمال إجابة صحيحة على الفقرة) ومعامل صعوبة الفقرة وثابت عددية. (Fan, 1998)

$$P_i(\theta) = \frac{e^{D(\theta - b_i)}}{1 + e^{D(\theta - b_i)}}$$

$P_i(\theta)$: احتمال أن يجيب الفرد الذي قدرته θ على الفقرة i إجابة صحيحة.

b_i معامل صعوبة الفقرة،

e الأساس اللوغارتمي ويساوي 2.718

D معامل القياس أو التدرج وهو مقدار ثابت ويساوي 1.7

خاتمة:

يتضح مما سبق أن التقويم التحصيلي في المؤسسات التربوية ينحصر على الاختبارات الكتابية والتي تعد من طرف الأستاذ، وبالتالي تفتقد هذه الاختبارات للخصائص الموضوعية من حيث الشمولية والصدق والثبات. والسبب في ذلك يعود إلى فلسفة القياس التي هي سائدة، حيث يُعتمد في تفسير درجة الأفراد في المقارنة بينهم وترتيبهم حسب الدرجات، وبالتالي لا يمكن

الجزم حول مستوى فرد معين إلا من خلال المجموعة التي ينتمي إليها، وأقصى ما يمكن معرفته هو ترتيبه بين الآخرين. وهناك نظام آخر، يتمثل في تحديد الأهداف التي تحققت والتي لم تتحقق، وبالتالي لا تهتم بترتيب الأفراد، وهذا النظام مشكلاته تتمثل في قدرات الأفراد ومستوى صعوبة الأسئلة حيث يؤثر كل منها في الآخر.

كمحاولة للتغلب على هذه المشكلات لجأ المختصون إلى التقويم الشامل للتحصيل الدراسي فيجب الاعتماد على التقويم المستمر والتقويم الذاتي وتقويم أنشطة الطلاب واعتماد سجلات الأداء وتبنى الاختبارات العملية أو الأدائية ما أمكن حسب طبيعة كل مقرر. ورغم ذلك لا يمكن الاستغناء عن الاختبارات الكتابية في الاختبارات والامتحانات الرسمية، مما دفع بالمختصين إلى تبنى القياس الموضوعي القائم على تبنى الاتجاهات المعاصرة في القياس والاعتماد على النظرية الحديثة ونماذج الاستجابة للمفردة الإختبارية وبناء بنوك الأسئلة التي توفر موضوعية القياس والاعتماد على هذه النظرية برهن على قدرتها على تحقيق الموضوعية وتوفير الشروط السيكمترية التي تجعل النتائج التي نحصل عليها أساسا لإصدار قرارات صائبة حول الأفراد، والتغلب على مشكلات القياس الكلاسيكي.

الهوامش:

بنوك الأسئلة عبارة عن مجموعة ملفات تضم الأنواع الملائمة من مفردات الاختبارات، والتي يتم تصنيفها وترميزها تبعاً للمواصفات الدراسية والمستوى التعليمي والأهداف التعليمية التي يتم قياسها، والعديد من الخصائص المميزة للمفردات مثل صعوبة المفردات والقدرة على التمييز. (Rudner, 1998: 1)

2 Rogiers, X. La pédagogie de l'intégration en bref, 2007.

3 عبد الوارث عبده الرازحي : تطوير نموذج معياري لتقويم كفاءة نظام إعداد الاختبارات العامة. المؤتمر العربي الأول للامتحانات والتقويم التربوي : رؤية مستقبلية، المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي، القاهرة: 22-24 ديسمبر 2001.

4 صلاح الدين علام: القياس والتقويم التربوي والنفسي . أساسياته وتطبيقاته وتوجهاته المعاصرة. (2000) القاهرة: دار الفكر العربي.

5 طلعت الحامولي: تقويم طلاب التعليم الأساسي والثانوي "دراسة تقويمية". مجلة علم النفس، السنة العاشرة، 1996 العدد (39).

6 رجاء أبو علام: النظريات الحديثة في القياس والتقويم وتطوير نظام الامتحانات "ورقة عمل" المؤتمر العربي الأول للامتحانات والتقويم التربوي: رؤية مستقبلية، المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي، القاهرة 22-24 ديسمبر 2001.

محمد على نصر: رؤية مستقبلية لتفعيل الامتحانات والتقويم التربوي التعليم العام في إطار مفهوم الجودة الشاملة. (ورقة عمل)، المؤتمر العربي الأول للامتحانات والتقويم التربوي: رؤية مستقبلية، المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي، القاهرة، 22-24 ديسمبر 2001.

8 أمينة محمد كاظم وصلاح مراد وإسحاق بطرس: تطور نظم الامتحانات بمراحل التعليم العام وبناء بنوك الأسئلة في بعض الدول العربية. حلقة دراسية إقليمية حول تطوير الامتحانات وبناء بنوك الأسئلة في الدول العربية، برنامج التجديد التربوي من أجل التنمية في الدول العربية (إبيداس) القاهرة 25-29 نوفمبر 1989.

9 فؤاد أبو حطب : أنواع الأسئلة. في الأسس التربوية لإعداد المعلم الجامعي. ط2، جامعة عين شمس، 1995.

10 حمدي عبد العظيم ألبنا: دراسة تحليلية للمستويات المعرفية في امتحانات الكيمياء للشهادة الثانوية العامة، مجلة التربية العلمية، الجمعية المصرية للتربية العلمية، المجلد الرابع، العدد الأول، يناير 2001.

11 رضا درويش، تقويم "دليل تقويم التلميذ في مادة العلوم العامة للصف الثالث الإعدادي" في ضوء أهداف تدريس العلوم. مجلة كلية التربية ببنها، الجزء الثاني، يناير 1995 .

12 حسين بشير محمود : تطوير نظم التقويم التربوي والامتحانات للتعليم قبل الجامعي "ورقة عمل" المؤتمر العربي الأول للامتحانات والتقويم التربوي: رؤية مستقبلية، المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي، القاهرة 22-24 ديسمبر 2001.

13 Embretson, S.E. and Reise, S.P Item response theory for psychologists. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, Inc., Publishers. 2000.

14 شكري سيد أحمد: العلاقة بين ثلاثة اتجاهات معاصرة في مجال القياس التربوي النفسي ومشكلات تعميمها والإفادة منها. "ورقة عمل" المؤتمر العربي الأول للامتحانات والتقويم التربوي: رؤية مستقبلية، المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي، القاهرة 22-24 ديسمبر 2001 .

15 Van Der Linden, W.I. and Hambleton, R. K. (1997): Item response theory: brief history, common models, and extensions, in (Van der Linden and Hambleton) (Eds) Handbook of Modern Item Response Theory, New York, Springer, pp.(1-27). 1997

16 رشدي فام: تعدد زوايا الرؤية عند تفسير درجات الاختبار وعند بنائه . ضرورة تربوية. في الأسس التربوية لإعداد المعلم الجامعي، ط2، جامعة عين شمس، 1995 ب .

- 17 Hambleton, R.K. and Wedman, I. (1997): Introduction of the special issue: Advances in assessment practices, European Journal of Psychological assessment, 13(1),
- 18 Hambleton, R.K. and Slater, S.C. (1997): Item response theory models and testing practice: Current international status and future directions, European Journal of Psychological assessment, 13(1),
- 19 صلاح الدين محمود علام، الاختبارات التشخيصية "مرجعية المحك" في المجالات التربوية والنفسية والتدريبية ، دار الفكر العربي 2007.
- 20 أمينة محمد كاظم: اتجاهات معاصرة في بناء بنوك الأسئلة، في الأسس التربوية لإعداد المعلم الجامعي، ط2، جامعة عين شمس، 1995 .
- 21 عبد الرحمن الطريفي : القياس النفسي والتربوي: نظريته، أسسه، تطبيقاته. الرياض: مكتبة الرشد. 1997.
- 22 رشدي فام منصور: التقويم وبناء الاختبارات. في الأسس التربوية لإعداد المعلم الجامعي، ط2، جامعة عين شمس، 1995.
- 23 صلاح علام، الاختبارات التشخيصية "مرجعية المحك" في المجالات التربوية والنفسية والتدريبية، القاهرة، دار الفكر العربي. 1995.
- 24 Carey, L.M. Measuring and evaluating school learning, (2Ed), London: Allyn and Bacon. (1994).
- 25 نادية محمد عبد السلام :بناء اختبار هدي المرجع وجماعي المرجع "دراسة مقارنة بين النموذجين". في أنور الشرفاوي وآخرون، اتجاهات معاصرة في القياس والتقويم النفسي والتربوي، القاهرة: الأنجلو المصرية. 1996 ج .
- 26 عبد الرحمن الطريفي : القياس النفسي والتربوي: نظريته، أسسه، تطبيقاته. الرياض: مكتبة الرشد. 1997.
- 27 مصطفى محمد كامل : استخدام إستراتيجية التعلم حتى يتمكن في تدريس مقرر التقويم التربوي "لإكساب الطلاب المعلمين مهارات بناء الاختبارات التحصيلية". مجلة علم النفس، السنة الثالثة عشر، العدد (51)، 1999.
- 28 أنور محمد الشرفاوي : الاختبارات المرجعة إلى محك: وسائل جديدة في القياس النفسي والتربوي. في أنور الشرفاوي وآخرون، اتجاهات معاصرة في القياس والتقويم النفسي والتربوي، القاهرة: الأنجلو المصرية، 1996.
- 29 نادية محمد عبد السلام : مشكلات عند بناء الاختبارات محكية المرجع "تحليل وتقويم"، مجلة علم النفس، السنة السادسة، العدد الثالث والعشرون، 1992 أ.
- 30 نادية محمد عبد السلام: ثلاثة محكات رئيسية لتحديد مستوى الإتقان في الاختبارات محكية المرجع "دراسة إمبريقية". المجلة المصرية للدراسات النفسية، العدد الثالث، ديسمبر. 1992 ب .

- 31 أمينة محمد كاظم: استخدام نموذج "راش" في بناء اختبار تحصيلي في علم النفس وتحقيق التفسير الموضوعي للنتائج، في أنور الشرقاوي وآخرون، اتجاهات معاصرة في القياس والتقويم النفسي والتربوي، القاهرة: الأنجلو المصرية، 1996 ب .
- 32 أحلام ألباز ورضا السيد حجازي: تقويم تحصيل تلاميذ مرحلة التعليم الأساسي في العلوم باستخدام نظرية السمات الكامنة، الجمعية المصرية للتربية العلمية، المؤتمر العلمي السادس للتربية العلمية وثقافة المجتمع، الإسماعيلية (أبو سلطان)، 28-31 يوليو، 2002
- 33 نادية محمد عبد السلام : دراسة في حساب ثبات وصدق اختبار هدي المرجع. أنور الشرقاوي وآخرون، اتجاهات معاصرة في القياس والتقويم النفسي والتربوي، القاهرة: الأنجلو المصرية، 1996 د .
- 34 Ysseldy K.E.J.; Thutlow, M. and Shviner, J. (1994): Students with disabilities and educational standards: Recommendations for Policy and practice published by the National Center on Educational Outcomes, from http://www.education.umm.edu/NCEO/online_pubs/policy2.html
- 35 Hespe, D.C. 2002: Standard and assessment for student achievement, , p.2 75. New Jersy Department of Education <http://www.srste.nj.us/njded/adopted/standards>.
- 36 صلاح الدين محمود علام، الاختبارات التشخيصية "مرجعية المحك" في الممارسات التربوية والنفسية والتدريبية، دار الفكر العربي 2007.

تقييم المخاطر المهنية بالمؤسسة الصناعية

الأستاذة أوبراهم ويزة، جامعة تيارت

تحت إشراف الأستاذ الدكتور بوظيفة حمو، جامعة الجزائر 2

ملخص الدراسة:

لقد شهدت المؤسسات الصناعية في الآونة الأخيرة تطورا ملحوظا، فقد تنوعت الآلات وتعددت الأنساق، وأصبحت بيئة العمل تحتوي على الكثير من المخاطر المهنية، من مخاطر متعلقة بالآلات (خطر الصدم، خطر الارتطام، خطر الجذب، خطر الوخز..الخ)، مخاطر متعلقة باستعمال المواد الكيميائية (التسممات بالمعادن الثقيلة، التسممات بالغازات..الخ)، المخاطر الفيزيائية (الضوضاء، البرودة، الرطوبة، الاهتزازات..الخ)، المخاطر الكهربائية، المخاطر الحيوية (الفيروسات، الميكروبات، الجراثيم..الخ)، المخاطر النفسية الاجتماعية، بالإضافة الى مخاطر مهنية أخرى كثيرة، مما يشكل خطرا على العامل الذي يعمل وهو معرض لها، والتي تؤدي به الى الإصابة بحوادث عمل وأمراض مهنية كثيرة.

لذا وجب على المسؤولين (أطباء العمل، الأرغنوميين، مختصي السلامة والأمن في العمل، المهندسين..الخ)، القيام بتقييم هذه المخاطر بصفة دورية من أجل تحديدها، ووضع الاجراءات الوقائية الفعالة.

انطلاقا من هذا الواقع الخطير، سنحاول التطرق الى أهم المخاطر المهنية المتواجدة في بيئة العمل وما ينجم عنها من آثار وخيمة على العامل والمحيط، ثم يتم سرد طريقة تقييم هذه المخاطر من تحديدها أولا، ثم تحديد مستوى الخطورة، تكرار التعرض لهذا الخطر، تحديد أولويات التدخل، وفي الأخير يتم تحديد الاجراءات الوقائية الفعالة للحد من هذه المخاطر أو التقليل منها.

الكلمات المفتاحية: بيئة العمل، الخطر المهني، تقييم الخطر المهني.

Article Summary :

Lately, the industrial enterprises have witnessed a noticeable development due to the variety of instruments and the complexity of methods. The work

environment is containing more professional risks ranging from those related to instruments (danger of collision, of crash, the risk of attraction or of acupuncture...etc) to those of chemical products (heavy metals' poisoning, gas poisoning...etc) to physical risks (noise, cold, humidity, ...etc), to risks due to electricity , to bio risks (viruses, microbes, parasites...etc) to socially psychological risks and various other dangers which represent a threat to the worker who is exposed to these risks and potentially other work accidents and professional diseases while performing his job.

Therefore, it is a duty of those responsible authorities each according to his profession (from work medicine, ergonomists, safety specialists, and engineers....etc) to evaluate those risks periodically in order to determine effective preventive measures. Starting from such alarming facts, this following paper helps to reveal the most important risks present in the work environment and the disastrous effects that can result from them on the worker and the surroundings. Subsequently, we will provide an evaluation method for these risks that starts by their determination, determination of the level of their severity, the repeated exposure to these risks and the determination of the priorities of intervention. At the end, this paper will provide some effective preventive measurements to limit or reduce these risks.

Key Words: Work environment, professional risk, professional risk evaluation.

مقدمة:

لقد انتشرت المخاطر المهنية بصفة مذهلة في بيئة العمل، خاصة مع التطور التكنولوجي الذي عرفه هذا الأخير، فبالرغم من كون هذا العمل مصدر لعيش الأفراد، إلا أنه قد يكلفه الكثير أمام تزايد المخاطر المهنية التي تضر بصحته، مخلفة ورائها حوادث عمل وأمراض مهنية.

الأمر الذي جعل المؤسسات تعمل جاهدة للحد من هذه المخاطر باتباع إجراءات علمية ممنهجة، وهذا بتسخير طاقات بشرية مختصة، وتخصيص مبالغ مالية ضخمة للتخلص نهائيا من هذه المخاطر أو على الأقل التقليل منها.

لهذا تعد عملية تقييم المخاطر المهنية من بين هذه الإجراءات باعتبارها عملية هامة جدا للتقليل أو الحد منها تماما، فهي تسمح بتحديد لها، تحديد درجة خطورتها، وبالتالي تحديد أولويات التدخل.

1- تعريف الخطر المهني:

يعرف الخطر المهني على أنه احتمال وجود وضعية مضرّة (خطرة)، يمكن أن تتسبب في حدوث إصابة حادث عمل أو مرض مهني، إذن في مصطلح الخطر يرد دائما معنى (احتمال). ويتعلق الخطر المهني بكل عمل مؤجر، أي يتقاضى العامل مقابل انجازه راتب معين، وهو ينتج نتيجة لميكانيزمات الانتاج، استعمال مواد كيميائية عديدة، تعدد الأنشطة، وهذا ما يزيد من الحوادث والأمراض المهنية بالمؤسسة.¹ كما تتعدى هذه المخاطر المؤسسات الصناعية لتشمل العمل في المكاتب، الخدمات، المخابر، التجارة، كما نجدتها أيضا خارج أماكن العمل.

2- أنواع المخاطر المهنية:

1.2- المخاطر الميكانيكية:

تعتبر الآلات المتواجدة بأماكن العمل مصدر خطر بالنسبة للعمال، اذ تشير بعض الاحصائيات الى أن العوامل الميكانيكية مسؤولة عن 5% من اسباب الحوادث في الصناعة، في حين أنها مسؤولة عن 20% من الوفيات الناجمة عن اصابات العمل.²

ويعرف المعيار الفرنسي (NF EN 292-1) المخاطر الميكانيكية على أنها كل العوامل الفيزيائية المتواجدة ببيئة العمل، وهي متعددة وكثيرة (كإصابة العمال بضربة مطرقة والتي يمكن أن تتسبب في بتر اليد، كما يمكن للأجزاء المتحركة للآلة بطريقة دورانية أن تتسبب في جذب العامل نحوها، كما يعتبر انفصال هذه الأجزاء عن الآلة باتجاه العامل خطر أيضا)، أي أن المخاطر الميكانيكية تنتج عن الخصائص الميكانيكية للآلة (الحركة والطاقة).

ويمكن ذكر الأنواع التالية من المخاطر الميكانيكية (خطر الصدم، خطر الارتطام، خطر الجذب، خطر الوخز، خطر السوائل المقذوفة من طرف الآلة).³

فينصح بتوفير الحواجز الواقية بأنواعها المختلفة، بالإضافة الى استخدام وسائل مساعدة متنوعة كاستعمال الأدوات المساعدة لرفع المواد، التحكم عن بعد للآلات.⁴

2.2- المخاطر البيولوجية:

وهي المخاطر التي تنتج عن التعامل مع الكائنات الحية المجهرية والتي تتواجد في أماكن العمل (الفيروسات، الميكروبات، الجراثيم، الطفيليات، الفطريات)، ويؤدي احتكاك العامل مع مثل هذه الكائنات إلى إصابته بالسرطان المهني، السل، الحمى الخبيثة، والتي تنتج عن فيروس الأنتراكس، مرض السقاوة والذي ينتج عند ملامسة حيوان مصاب أو لمس مخلفاته عن طريق الجلد، الأنف، والفم.⁵

وعادة ما يتعرض العمال في الصناعات النسيجية، القطنية، الصناعات الجلدية، الصناعات الدوائية والكيميائية إلى مثل هذه المخاطر نظرا لانتشار الكائنات المجهرية الحية بها.⁶

3.2- المخاطر الكيميائية:

يوجد حوالي 6 مليون نوع من المواد الكيميائية ، بوزن 400 مليون طن، تنتج الولايات الأمريكية المتحدة لوحدها أكثر من 1200 نوع جديد كل سنة سنويا وعادة ما تدخل هذه المواد إلى جسم الإنسان عن طريق الجهاز التنفسي، الجهاز الهضمي، والجلد، مسببة أمراض خطيرة كسرطان الرئة الناتج عن غبار السيليكا.⁷ ويلزم وضع سياسات ونظم خاصة لتداولها بطرق آمنة مبنية على أسس علمية سليمة وعلى معلومات وبيانات دقيقة، كما يجب توعية الناس بمخاطر استعمال المواد الكيميائية، والتأكد من معرفة كل خواصها، تأثيراتها، وكيفية تخزينها.

وينصح بـ:

- ابعاد المواد الكيميائية عن مصادر الاشتعال واللهب، والأجسام الساخنة.
- يجب أن تخزن المواد الكيميائية في الأماكن المخصصة لها كالا حسب تصنيفها.
- وضع الارشادات الدالة على خطورة المواد الكيميائية (Les fiches de Sécurité)
- استعمال أجهزة الوقاية الفردية عند استعمال المواد الكيميائية.⁸

ومن المخاطر التي تسببها المواد الكيميائية نجد التسممات خاصة بالمعادن الثقيلة كالتسمم بالزئبق والذي يخلف التهابات الأغشية، تلف الجهاز العصبي، التسمم بالرصاص، والذي يؤدي الى الصداع والضعف العام، والتسمم بالزرنيخ والذي يتسبب في التهابات الجلدية، الأغشية المخاطية.⁹

كما توجد أيضا أنواع أخرى من التسممات كالتسمم بالغازات كغازات الدم والتي تؤثر على كريات الدم الحمراء، اذ تتحد هذه الغازات مع هيموغلوبين الدم لتشكل مركبا ساما مسببا ضيقا في التنفس، القيء، التسمم بغازات الأعصاب والتي يمتصها الجسم عن طريق الرئتين بحيث تؤثر على الجهاز العصبي، بالإضافة الى التسمم بالغازات الخانقة والتي يزداد آثارها السلبية في الأماكن القليلة التهوية.¹⁰

4.2- المخاطر الكهربائية:

لقد أحدث ظهور التيار الكهربائي تطورات كبيرة جدا في شتى الميادين (الصناعية، العلمية، الفنية..الخ)، الا أن سوء استعمال هذا التيار يؤدي الى عواقب وخيمة جدا على الانسان، فزيادة على حالات التكهرب التي يتعرض لها العامل يوميا، انتشرت عدد الحرائق وكذا الانفجارات الناتجة عن زيادة هذا التيار الكهربائي وسوء استعماله.

وتختلف شدة هذه الآثار على حسب شدة التيار الكهربائي كمايلي:

- بالنسبة للشدات أقل من 5 ميلي أمبير يكاد يكون الاحساس بها شبه منعدم.
- بالنسبة للشدات التي تتراوح بين 5 ميلي أمبير الى 20 ميلي أمبير تظهر آثار على مستوى القفص الصدري (La Tétanisation).
- بالنسبة للشدات التي تتعدى 20 ميلي أمبير، فتتمثل الآثار على شكل تليف على مستوى القلب مع اختناق

العضلات القلبية مع حدوث خلل على مستوى القلب والذي لا يستطيع العمل بصفة طبيعية، وتستمر هذه الحالة بالنسبة للشدات التي تتعدى الأومبيرات، بحيث تحدث حرائق داخلية خطيرة مميتة في أغلب الأحيان، متبوعة بشلل على مستوى الكليتين.

ويمكن للكهرباء أيضا أن تتسبب في حرائق نتيجة للتفريغ الهائل للطاقة المرتفعة، كما يمكن أن تؤدي الى انبهار في العين، أو تلفها كلية.¹¹

5.2- المخاطر الفيزيائية:

وغالبا ما يحدث تأثيرها السيء على العامل اذا ما تعرض لها أكثر من درجة التركيز المأمونة، ويقصد بها أعلى نسبة لمادة خام في بيئة العمل، وتطلق عبارة المحيط الفيزيقي على الأمور المتعلقة بالظروف التي تحيط بالعامل من اضاءة، رطوبة، حرارة، ضوضاء، سرعة الهواء، الغبار، الاهتزازات، الأرضية..الخ)، أي مجمل الأمور التي من شأنها أن تؤدي الى تحسين أجواء العمل وجعلها مناسبة أكثر.

1.5.2- الإضاءة:

إن الإضاءة الجيدة غالبا ما تساعد العامل على رفع كفايته الإنتاجية بمجهود أقل، لأن هذه الكفاية غالبا ما تتوقف على الإدراك والدقة في التمييز بين الأشياء المستعملة في بيئة العمل، ولا تكون الإضاءة مناسبة إلا إذا حدث مراعاة في أول وهلة تصميم بعض العوامل كتوزيع الإضاءة الطبيعية اليومية، اختيار أجهزة الإضاءة الجيدة تماشيا مع مخطط العمل.

وفي حالة ما إذا كانت الإضاءة غير موزعة توزيعا صحيحا فهذا يسبب الكثير من التوتر والاضطراب، كما يسبب التوزيع السيء للإضاءة حالة الانقباض في نفسية العامل، وكذا كثرة الأخطاء وزيادة التعب، كما أن زيادة شدة الإضاءة يؤدي إلى ضعف تدريجي في قوة الإبصار نتيجة لإجهاد أعصاب العين وتأثيرها المباشر على إنجاز الأعمال الفكرية مع شعور العامل بالصداع.

2.5.2- الضوضاء:

يعرف كريتر (**Kryter**) الضوضاء على أنها عبارة عن الاشارات الصوتية التي يمكنها أن تؤثر سلبا على الجانب الفيزيولوجي والسيكولوجي للفرد، وتؤثر الضوضاء سلبا على حاسة السمع، خصوصا إذا كانت مرتفعة ومتكررة، فالضرر يصل إلى حد الصمم.¹²

ومن الأعمال التي يتعرض فيها العمال للتأثيرات الضارة للضوضاء هناك:

- صناعة الغزل والنسيج.
 - عمليات الحدادة والسمكرة.
 - عمليات الطحن والغربلة لتنقية المعادن والأحجار.
 - العمل بالمطارات عند أماكن هبوط وصعود الطائرات.
 - اختبارات الآلات المحركة في صناعة السيارات والمآكنات.
- وتؤدي الضوضاء المرتفعة إلى إصابة الجهاز السمعي إذ يصل في بعض الأحيان إلى حد الصمم.¹³

3.5.2- مستوى الرطوبة:

تعتبر الرطوبة المعتدلة من الظروف الفيزيكية الهامة، والتي يجب أن تتوفر في أماكن العمل، فهي مهمة جدا لتعديل حرارة جسم العامل، فإذا ما كانت الرطوبة منخفضة في مكان العمل، فهذا يضر خاصة العينين، إذ تؤدي إلى جفاف مخاط الفم والأنف وكذا العينين.¹⁴

أما إذا كانت الرطوبة مرتفعة فهذا يؤدي إلى تكاثر البكتيريا فيزيد من المخاطر البيولوجية في العمل، كما أن ارتفاع الرطوبة في بيئة العمل يعني بالضرورة زيادة نسبة بخار الماء في الهواء وبالتالي زيادة درجة الحرارة.¹⁵

4.5.2- درجة الحرارة:

تسبب الحرارة الزائدة في تقلصات في عضلات اليدين والقدمين، ويتبعها قيء وإسهال بسبب نقص الملح في الجسم.¹⁶

كما أن ارتفاع الحرارة يوجب زيادة التهوية، ولا سيما أن العلاقة وجوبية ولزومية، فضلا عن أهمية التهوية لضرورة الانتاج، فالغرفة التي تسوء تهويتها تعني ضمنا زيادة الحرارة أو ارتفاع الرطوبة والبرد، وكل هذه الظروف تؤدي الى الخمول، النعاس، التعب.¹⁷

ومن بين الأعمال التي تتميز بارتفاع الحرارة في بيئة العمل نذكر:

- العمل في العراء تحت تأثير حرارة الشمس.
- العمل تحت سطح الارض بالمناجم والانفاق.
- العمل بالقرب من الأفران والمواقد مثل صناعة الحديد والصلب، وفي عمليات تقطير البترول وفي صناعة الأسمدة.¹⁸

وتقاس كمية الحرارة بوحدة تسمى الكالوري أو السعر وهي كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة كيلوغرام واحد من المادة درجة مئوية واحدة.

5.5.2- الاهتزازات:

هي ظاهرة ميكانيكية موجودة بكثرة في بيئة العمل، وتنشأ نتيجة القوة العكسية لكل حركة، هذه القوى العكسية عادة ما تكون قوية خصوصا اذا كان الجسم مرنا، بمعنى أنها تسترجع شكلها الأصلي بعد التحول، فاذا كانت القوة العكسية أقل من القوة المبذولة، فالجسم يسترجع حالته الأولية بسرعة، أما اذا كانت هذه القوة أكبر من القوة المبذولة فالجسم يستغرق وقتا طويلا للرجوع الى حالته الأصلية، وهذا بواسطة حركات الذهاب والايابو التي تسمى الاهتزازات.

وتختلف الاهتزازات آثار وخيمة على العامل، فاذا كانت منخفضة فهي تؤدي الى شعور العامل بالحاجة الى التقيؤ وحرقة المعدة، أما اذا كانت تتراوح بين 10 الى 15 هرتز فيؤدي هذا الى ظهور أمراض خطيرة (اصابة العمود الفقري)¹⁹

6.5.2- الغبار:

يعتبر انتشار الغبار في أماكن العمل من العوامل التي يجب الاهتمام بها، فإذا ما انتشر الغبار في مجال العمل فهذا سوف يؤثر على صحة العامل وعلى كفاءته الانتاجية، فيكون الجو مشبعاً بمواد محترقة داخل أماكن العمل، أو عن عدم صلاحية الصمامات الخاصة بنقل المواد فتتسرب الى الخارج، أو يكون مشبعاً بمواد كيميائية كما هو الحال في مصانع الاسمنت، الأمر الذي يؤدي الى حالات الاختناق، حتى الى أمراض مهنية مستقبلاً.

6.2- مخاطر الحريق:

وتنشأ هذه المخاطر نتيجة لانتشار المواد القابلة للاشتعال في بيئة العمل بكميات كبيرة، وينشأ عن هذا الخطر ثلاثة (3) أنواع من المخاطر:

- **الخطر الشخصي:** وهي المخاطر التي تعرض حياة الأفراد الى اصابات مختلفة مما يستوجب توفير تدابير للنجاة من المخاطر.

- **الخطر التدميري:** المقصود بالخطر التدميري هو ما يحدث من دمار في المباني والمنشآت، ويختلف حجم هذا الخطر حسب المواد المتواجدة بالمبنى.

- **الخطر التعرضي:** وهي المخاطر التي تهدد المواقع القريبة لمكان الحريق، ولذلك يطلق عليه الخطر الخارجي.²⁰

7.2- مخاطر الاشعاعات:

هي كل الاشعاعات التي بإمكانها أن تؤين الخلايا المكونة لجسم الإنسان، إذ تسبب اضطرابات وخلل لجسم الإنسان.

ويمكن تصنيف هذه الاشعاعات إلى:

- اشعاعات سامة جداً مثل (Américium, Plutonium, polonium, Radium)

- اشعاعات سامة مثل (Césium, Cobalt, Iode, Strontium, Thalium)

- اشعاعات متوسطة الشدة مثل (Carbon, Chrome, Fer, Potassium, Sodium, Soufre)

- اشعاعات ضعيفة الشدة مثل (Thorium, Uranium, Tritium, Krypton)

وتتنوع الإصابة حسب شدة الإشعاع الذي تعرض له العامل من اضطرابات هضمية، تعب جسدي كلي، خلل في الكروموزومات، انخفاض في عدد الكريات الدموية الحمراء والبيضاء، سرطان نخاع العظام وهذا بالنسبة للإشعاعات الشديدة، حروق جلدية، عتامة العين، سرطان الرئة، تصلب العظام، وإصابات في المبيضين.²¹

7.2- مخاطر النقل اليدوي والأثقال:

وتحدث هذه المخاطر في عمليات تداول المواد يدوياً أو آلياً، باستخدام العديد من آلات الرفع التي تدار يدوياً أو ميكانيكياً، وتتوقف عملية اختيار وسيلة الرفع أو التداول على عوامل عديدة:

- وزن الحمل المراد رفعه أو تداوله.

- طبيعة المادة المراد رفعها.

- درجة خطورة المادة المطلوب نقلها أو تداولها.²²

وتحتوي هذه الأخيرة على الكثير من المخاطر كمخاطر سقوط المواد المحمولة، خطر الحمولة الزائدة، وعطل المعدات المتحركة والرافعات أثناء عمليات الرفع.²³

8.2- المخاطر النفسية الاجتماعية:

كلما كانت بيئة العمل مريحة للعامل كلما زادت الدافعية للعمل والانجاز، فالبيئة التي تتميز بالنزاعات النفسية (القلق، العنف.. الخ)، يكثر فيها المخاطر النفسية الاجتماعية.

فقد بينت الدراسات حول التغيب والعطل المرضية أن المخاطر النفسية الاجتماعية تمثل عبئاً ثقيلاً على المؤسسات، وأن الآثار الناتجة عن المتطلبات المهنية المرتفعة، والمراقبة غير المتحكم فيها أو المحيط المهدد هي في غالب الأحيان العوامل الكبرى المسببة للضغط.²⁴

3- تعريف عملية تقييم المخاطر المهنية:

هي عملية تسمح بتقييم المخاطر لضمان صحة العاملين في أماكن العمل، ويجب التفرقة بين تحليل المخاطر (Analyse des Risques professionnels)، والذي يتعلق بتشخيص المخاطر، والمفهوم الثاني والمتعلق بتقييم المخاطر المهنية (l'évaluation des Risques professionnels)، والذي يتعلق بترتيب المخاطر من حيث الخطورة، وهو فحص دوري لكل مراحل العمل، ويهدف إلى:

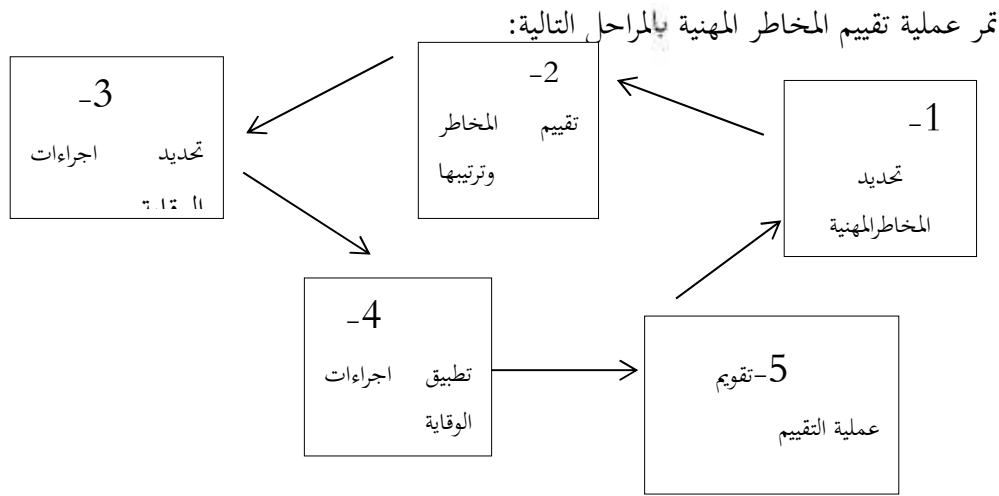
- الكشف عن أسباب الحوادث أو الإصابات.
 - تحسين ظروف العمل.
 - تقدير مستوى الوقاية المتوفرة في المؤسسة.
 - امكانيات الحد من المخاطر.
 - الاحتياطات أو إجراءات الوقاية الواجب وضعها للحد من المخاطر.
- ان عملية تقييم المخاطر المهنية مبنية على العمل الفعلي أو الحقيقي (travail réel)، وليس على الجانب النظري منه، وذلك على مستوى وحدة العمل (Unité de travail)، والتي تعرف على أنها مجموعة من التنظيمات التقنية أو الانسانية، يشتغل فيها عامل أو مجموعة من العمال لتنفيذ مهمة معينة، بصفة دائمة أو مؤقتة، ويمكن أن تشتمل على منصب عمل واحد أو مجموعة من المناصب، والتي تشترك في نفس الخصائص والمميزات الجغرافية، ويمكن أن تشتمل على أكثر من نشاط (حمل الأثقال، الورشات، النقل..الخ)، بدون إهمال الأنشطة الفرعية التي ليس لها علاقة مباشرة بالسيطرة الانتاجية (التنظيف مثلا).²⁵

4.1-أهداف عملية تقييم المخاطر المهنية:

- تسمح عملية تقييم المخاطر المهنية بتقييم المخاطر التي تشكل خطر على صحة العامل.
- تعتبر عملية تقييم المخاطر المهنية أول إجراء في عملية تسيير المخاطر، حيث تسمح بمعرفة هذه المخاطر من طرف العمال وأرباب العمل، وتحديد ماهي الإجراءات الواجب تسطيرها لتطوير الصحة في العمل.

- تخفيف تكاليف حوادث العمل والأمراض المهنية.
- التقليل من نسبة الغيابات الناجمة عن حوادث العمل والأمراض المهنية.
- الحفاظ على صحة العمال والتألي زيادة الانتاج والمردودية.

4.2- مراحل عملية تقييم المخاطر المهنية:



الشكل رقم: (1) يوضح المخطط مراحل عملية تقييم المخاطر المهنية.

1.5- تحديد المخاطر المهنية:

تسمح هذه العملية بتشخيص كل المخاطر المتواجدة في بيئة العمل والمحتملة لحدوث حادث العمل، وتحديد عدد الأشخاص المحتمل تعرضهم لهذا الحادث، اذ يجب تحديد العمال الذين يتعرضون بصفة مباشرة لهذا الخطر أو يتعرضون بصفة غير مباشرة.²⁶

حيثيقوم بالعملية مجموعة من المختصين الى جانب رئيس المصلحة، فعملية تقييم المخاطر المهنية هي عملية متعددة التخصصات، تركز على معارف تنظيمية، تقنية، قانونية وانسانية، انطلاقا من أول مرحلة من مراحل التقييم.

كما تتركز عملية تحديد المخاطر المهنية على ملاحظة المهام الحقيقية المنجزة في كل وحدة عمل، حيث يتم وضع قائمة للمخاطر المهنية المتواجدة ببيئة العمل وهذا بالاستعانة بقائمة للمخاطر المهنية والمتمثلة في:

- المخاطر فيزيائية.
- المخاطر البيولوجية.
- المخاطر الكيميائية.
- مخاطر السقوط.
- المخاطر الكهربائية.
- مخاطر الحريق والانفجار.
- مخاطر مرتبطة بالحمل الميكانيكي.
- مخاطر تنظيمية.
- مخاطر نفسية اجتماعية.
- مخاطر الاشعاعات.

2.5- تقييم المخاطر المهنية:

في هذه المرحلة يتم القيام بتقييم كل المخاطر المهنية التي تم تحديدها، بحيث يتم تحديد قائمة لهذه المصادر في المؤسسة، وما هي الوضعيات التي يشكل فيها هذا الخطر خطرا على العامل، واحتمال الاصابة بحادث العمل أو المرض المهني، كما يتم في هذه المرحلة تحديد مستوى الخطورة، تكرار التعرض لهذا الخطر، وتحديد أولويات التدخل.²⁷ وفق ما يلي:

تقييم المخاطر المهنية بالمؤسسة الصناعية _____ أوبراهم ويزة/بوظيفة حمو

مستوى الخطورة (Niveau de gravité)				
1	الارتياح	ضرر ضئيل	يمكن إهماله	حادث عمل دون إصابة أو ضرر.
2	إصابة خفيفة	ضرر لكن يعوض	دال (ضرر ضعيف بدون التوقف عن العمل)	حادث عمل دون الدخول الى المستشفى.
3	إصابة كبيرة	ضرر مع أضرار جسيمة	معتبر (أضرار يمكن تعويضها، مع التوقف عن العمل بصفة دائمة).	حادث عمل مع الدخول الى المستشفى
4	وفاة محتملة	وفاة	قصوى (أضرار لا يمكن تعويضها، عجز جزئي أو كلي، وفاة)	إصابة على مدى الحياة.

الجدول رقم: (1) يبين مستوى الخطورة.

- فيما يوضح الجدول رقم (02) تكرار التعرض للمخاطر المهنية:

تكرار التعرض (Fréquence d'exposition)		
1	ضعيف	1 الى 2 يوم في السنة.
2	متوسط	1 الى 2 يوم في الشهر.
3	متكرر	1 الى 2 يوم في الأسبوع.
4	شديد جدا	كل يوم.
		مناسبتية (أحيانا)
		متقطعة
		متكررة
		مستمرة

أما الجدول رقم (3) فهو يبين تكرار التعرض x مستوى التعرض، وعلى أساسه يتم تحديد ما هي المخاطر التي لها أولوية التدخل.

G4				
G3				

G2				
G1				
	F1	F2	F3	F4



3.5- تحديد اجراءات الوقاية:

بعد ترتيب المخاطر المهنية حسب درجة خطورتها، يقوم القائمون بالعملية بإعداد برنامج وقائي، ويجب أن يسلم هذه الوثيقة الى المختصين في الأمن والسلامة في العمل، كما يجب اعطاء الأولوية للوقاية الجماعية على الوقاية الفردية.

ان عملية تطبيق اجراءات الوقاية يشترط فيها شرطين، بحيث عند التطبيق لا يجب أن يكون هناك خلق وإيجاد خطر آخر، أو أن يكون الاجراء مبني على نقل الخطر من مكانه الأصلي الى مكان آخر.

4.5- اختيار اجراءات الوقاية وتطبيقها:

يجب ترتيب اجراءات الوقاية حسب أولويات التدخل، آخذين بعين الاعتبار مستوى الخطورة والنتائج المترتبة عن هذا الخطر، كما يجب تحديد عدد الأشخاص والمختصين الذين سوف يقومون بهذه العملية.

5.5- تقوم عملية التقييم:

بعد تطبيق الاجراءات الوقائية التي نصت عليها عملية التقييم، يجب مراقبة هل تم تطبيقها بصفة صحيحة وفي الآجال المحددة، وهل عملية التطبيق لم تتسبب في خلق مخاطر جديدة أخرى، وتكون العملية بصفة دورية.

ويجب على المؤسسة أن تقوم بعملية تقييم المخاطر المهنية في كل مرة يظهر فيها تطور ما، كالتغير في المستوى التنظيمي، تغير على مستوى الموارد البشرية، أو على المستوى التقني، كما يجب القيام بهذه العملية أيضا عند إيجاد منصب عمل جديد، اقتناء آلات جديدة، وضع اجراءات عمل جديدة، ادخال مواد جديدة في العمل..الخ، ويجب تدوين كل مراحل هذه العملية في سجل خاص (Le Document Unique).²⁹

خاتمة:

تعتبر عملية تقييم المخاطر المهنية عملية هامة جدا، اذ تسمح بتحديد المخاطر التي تعاني منها المؤسسة وتحديد درجة خطورتها، تحديد أولويات التدخل، كما أن تطبيق الاجراءات الوقائية التي نصت عليها العملية يسمح بالحد من حوادث العمل والأمراض المهنية، فكثيرا ما تعرض العمال الى حوادث مهنية كثيرة نتيجة لعملمهم في بيئة مهنية محفوفة بمخاطر كثيرة (مخاطر الآلات، مخاطر التعامل مع المواد الكيميائية، مخاطر حمل الأثقال..الخ)، والتي أدت بهم الى عجز جزئي، عجز كلي أو ربما حتى الى الوفاة.

الهوامش:

¹-Nichan, Margossian, Risques Professionnels, Caractéristiques, Règlements, Prévention, éditeur Dunod, 2^{eme} édition, Paris, 2006, p :1

²- محمد فؤاد بني عواد، بيئة العمل الصناعي، اتصالات خاصة، (د.ت)، ص 32

³- Nichan, Margossian, Ibid, p :87.

⁴-سميح جابر، تدريب واعداد مربّي التدريب المهني، المركز العربي للتدريب المهني واعداد المتدربين، طرابلس، 2001، ص:89

⁵- عبد الفتاح الدقي، الأسس الوقائية بين يديك، مركز وجدة الوقاية والسلامة في غزة، فلسطين، 1989، ص: 67

⁶- Nichan, Margossian, Ibid, p: 263

⁷-جميل حكمت، السلامة المهنية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، 1985، ص 148.

- 8- محمود العقابلية، الادارة الحديثة للسلامة المهنية، دار صفاء للنشر، ط2، عمان، 2003، ص34
- 9- نبيل القريشي، بلال سيف الدين، الآثار البيئية للملوثات البيئية على الصحة، جامعة الملك فيصل، السعودية، 2005، ص62
- 10- علي الدسوقي، تجنب اصابات المخاطر المهنية، الشركة السعودية للطباعة والنشر، 2002، ص80
- 11-Nichan, Margossian, Ibid,p.149
- 12- حمو بوظيفة، الضوضاء خطر على صحتك، دار Techno- Color للنشر، 2002، ص17.
- 13- أحمد بوسهمين، بلحاج فراحي، انعكاسات بيئة العمل على أداء العمال وصحته وطرق السلامة، دار الأمل، ورقة عمل مقدمة للملتقى الدولي حول الاقتصاد والصحة، المنعقد أيام 6 و 7 جوان، 2009، ص:28
- 14-Fail, Cail , Les Troubles Musculo Squelettiques du membres supérieur, édition INRS, ed 797, Paris,2002, p: 46
- 15- عبد القادر طه فرج، علم النفس الصناعي والتنظيمي، دار المعارف للنشر، ط6، القاهرة، 1988، ص: 91
- 16- محمد مازن عبد الكريم الخرابشة، محمد عبد الرحمان محمد العامري، السلامة المهنية، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط2000، ص:44
- 17- ياسين حمدي واخرون، علم النفس الصناعي والتنظيمي بين النظرية والتطبيق، دار الكتاب الحديث، ط1، 1999، ص: 98.
- 18- أحمد بوسهمين، بلحاج فراحي، نفس المرجع، ص25.
- 19- Nichan, Margossian, Ibid,p.128.
- 20- عبد الله الطنجي، المخاطر التي يتعرض لها سكان المباني، الادارة العامة للدفاع المدني، الامارات العربية المتحدة، 2005، ص:67
- 21-Nichan, Margossian, Ibid,p :161.
- 22- محمود العقابلية، نفس المرجع، ص:25
- 23- مديرية الدفاع المدني، مذكرة الدفاع المدني، غزة، فلسطين، 1998، ص:76
- 24 -R,Karazek,T, Theorell, Healthy Work, Stress productivity and the reconstruction of working life, basic books, New York,1999,p:134
- 25 -Ministère de l'économie des finances et de l'emploi, Ministère de Budget des comptes publics de la fonction publique d'évaluation des Risques Professionnels, France,décembre, 2007, p: 7
- 26-Association d'Assurance contre les accidents, Inspection du travail et des mines, et la Direction de la Santé, Pas à Pas vers, l'évaluation et la gestion des Risques, (S. D), P:12.
- 27- Ministère de l'économie des finances et de l'emploi, ministère de Budget des comptes publics de la fonction publique, ibid, p: 51

²⁸-Ministère de l'économie des finances et de l'emploi, ministère de Budget des comptes publics de la fonction publique, ibid. p: 30.

²⁹-Association d'Assurance contre les accidents, Inspection du travail et des mines, et la Direction de la Santé, ibid, p:15.

الحاجات والسلوك الإنساني

الأساذ شعشوع عبد القادر، جامعة تيارت

مقدمة: يتوقف فهمنا للسلوك البشري وضبطه والتنبؤ به على فهمنا وإدراكنا للحاجات والدوافع بأنواعها فهي مصدر هذا السلوك والباعثة عليه، وهي غايته أيضا باعتباره يهدف إلى إشباعها، وكان للدافعية حيز كبير في نظريات علم النفس خلال القرن 20 حيث حظيت الدراسات حول الغرائز والدوافع والميول باهتمام كثير من علماء النفس، كما شهد الثلث الأخير منه ظهور نظريات في دراسة الحاجات أكثر عمقا وتحصيصة... ومما زاد من اهتمام الباحثين بعلم النفس الحاجات والدوافع في هذه الفترة بالذات التطور الهائل في مختلف الميادين الاقتصادية والصناعية والطبية وما أصبح يفرضه من ضرورة الاستغلال الأمثل للطاقة الإنسانية من أجل الوصول إلى أفضل أداء يساير هذا التطور وهو أمر لا يتحقق إلا بمعرفة مختلف قدرات الفرد وحاجاته واستثمارها على أكمل وجه، ورغم اختلاف علماء النفس في النظرة إلى الإنسان وطبيعته والعوامل المحددة لسلوكه إلا أنهم يتفقون على أن كل سلوك وراءه دافع، فالسلوك الإنساني وظيفي بمعنى أن الإنسان يمارس سلوكا معيناً بسبب ما يترتب عليه من نتائج تشبع بعض حاجاته.

وإذا كانت النظريات القديمة التي بحثت في الدافعية كنظرية الغريزة قد أرجعتها فقط إلى العوامل البيولوجية وقللت من شأن العوامل الأخرى في نشوئها مثل العوامل الثقافية والاجتماعية، فإن النظريات التي ظهرت خلال النصف الثاني من القرن 20 قد أعطت للبيئة الثقافية والاجتماعية دورا كبيرا في نشأة الدافعية لدى الإنسان، إذ وجه علماء الانثروبولوجيا اهتمام المعين بالموضوع إلى الأثر الذي تحدثه البيئة وثقافتها في تنشئة الفرد التي اكتسبها عن طريق التعلم من بيئته وثقافته التي عاش في ظلها بدليل أن هناك جماعات إنسانية في بيئات ثقافية مختلفة تختفي عندها بعض الحاجات بصورة كاملة لأن عملية التعلم لم تساعد على نشأتها أو ظهورها.

وتختلف طبيعة الحاجات وخصائصها من فرد لآخر ومن جماعة لأخرى تبعا لاختلاف البيئة الثقافية والاجتماعية التي يعيشون فيها، ولذلك نلاحظ أن حاجات أبناء الطبقة المتوسطة تختلف عن حاجات أبناء الطبقة الفقيرة والغنية، ففي حين تظهر الحاجة إلى النجاح والحاجة إلى الإنجاز لدى أبناء الطبقة المتوسطة الذين يملكون قدرا معيناً من الثقافة والتعليم ويسعون إلى بلوغ مستوى معين في المجتمع تظهر الحاجة إلى الأمن لدى أبناء الطبقة الفقيرة مثلا وهكذا.

واختلاف المستويات الثقافية بين المجتمعات، وبين الطبقات الاجتماعية لا يؤثر فقط في طبيعة الحاجات وخصائصها بل يؤدي إلى اختلاف في نظام هذه الحاجات وفي مستوياتها بين الأفراد خاصة في مرحلة الطفولة رغم وجود بعض هذه الحاجات مشتركة بين هؤلاء الأفراد. وتعتقد "مرغريت ميد" «أن اختلاف عوامل التنشئة الاجتماعية يؤدي بالضرورة إلى فروق بينهم في الأهداف ومن ثم في الحاجات النفسية التي تكمن وراء هذه الأهداف، فخصائص الرجال والنساء هي انعكاس للثقافة السائدة في المجتمع نقلا عن «زينب سالم 2006»

إن المجتمعات الإنسانية تفصل بين أدوار كل من الرجل والمرأة في الحياة العامة وتميز بينها، وتبعا لتمييز الأدوار هذا تتوقع صدور سلوكيات مختلفة بينهما في كثير من المواقف، وأي فرد يتعد في سلوكه عن نطاق التوقع الاجتماعي يعتبر غير عادي أو منحرفا غير سوي " كأن يشبه سلوكه سلوك الجنس الآخر في موقف ما ". وبحكم اختلاف الدور الجنسي لكل من الذكر والأنثى، فإننا نتوقع اختلاف الحاجات النفسية لديهما تبعا لاختلاف هذا الدور الذي تضبطه العوامل الثقافية السائدة.

ويعتمد نظام الحاجات لدى الكائن الإنساني على طبيعة ومستوى النمو لديه، فهو في مرحلة الطفولة يأخذ شكلا مختلفا عنه في مرحلة المراهقة وفيما بعدها، كما يعتمد هذا النظام على الخبرات والمواقف التي يعيشها الفرد داخل كل مرحلة نمائية. وتتأثر الحاجات الإنسانية بما يعتري الشخصية من تغيرات بيولوجية واجتماعية ونفسية نتيجة تفاعلها مع الخبرات المكتسبة ومع تغيرات البيئة المحيطة بها فتتغير بعض هذه الحاجات وتظهر حاجات جديدة وتختفي حاجات أخرى أو يقل تأثيرها في توجيه السلوك الإنساني.

أولا: -تعريف الحاجة

1-التعريف اللغوي:

الحاجة والحائجة: المأربة، معروفة، وقوله تعالى: {ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم} — وهي حوجاء وجمع الحائجة الحوائج، قال الأزهرى: الحاج جمع الحاجة. وكذلك الحوائج والحاجات والحاجة خرزة لا ثمن لها لقلتها ونفاستها. (لسان العرب، ج2، ص242-245).

الحاجة: الحوج بالضم الفقر، وقد حاج الرجل واحتاج إذا افتقر والحاجة والحائجة المأربة وقوله تعالى: {لتبلغوا عليها حاجة في صدوركم}، قال الخليل في العين في فصل (راح) يقال يوم راح على التخفيف من رائج فطرح الهمزة، وكما خففوا الحاجة من الحائجة ألا تراهم جمعوها على حوائج. (تاج العروس، ج2، ص25).

الحاجة: الحوج: السلامة / حوجا لك: أي سلامة والاحتياج: وقد حاج واحتاج وأحوج وأحوجته. .. الفقر (القاموس المحيط، ص 435)

2-التعريف الاصطلاحي: هناك تعاريف اصطلاحية متعددة نذكر منها:

عرف "murphy" الحاجة بأنها: حالة من الافتقار إلى شئ ما إذا وجد يتحقق الإشباع والرضا لدى الإنسان أو الكائن الحي عامة، وتعود حالة الاتزان إلى الكيان العضوي والنفسي لديه.

أما "موراي" فيعتبر أن الحاجة والدافع هما شئ واحد ولا فرق بينهما ، ويعرف الحاجة بأنها هي تكوين يمثل قوة في المخ تنظم العقل والادراك، وتوجه السلوك الإنساني ويستدل على خصائصها ما يتوفر لدينا من بيانات موضوعية عن السلوك (شعور او انفعالات خاصة لها) لأن السلوك الإنساني مرتبط بالحاجة، وهي نقطة البداية في أي سلوك إنساني موجه، واستخدام مفهوم الحاجة كتفسير للسلوك الإنساني يستلزم الإحاطة التامة بالجوانب المختلفة للحاجات الإنسانية فمجرد شعور الفرد بحاجة معينة لا يكفي لتفسير سلوكه او التنبؤ به، بل توجد أربعة جوانب لمفهوم الحاجة ينبغي أن يحيط بها الباحث حتى يتمكن فعلا من تفسير موضوعي للسلوك وهي:

- أهمية الحاجة بالنسبة للفرد.
- المستوى المطلوب لإشباع هذه الحاجة (المأمول أو المرغوب).
- المستوى الحقيقي للإشباع (الذي حدث فعلا).
- توقع مستوى أو درجة الإشباع المطلوب.

فلو فرضنا أن لدى شخص ما رغبة في تحقيق مكانة اجتماعية معينة فإن هذه الرغبة لن تحفز السلوك إلا إذا كانت ذات أهمية بالنسبة للفرد (الحرص على تحقيق هذه المكانة)، وكانت مكانة الفرد الحالية أقل من المكانة المأمولة (المستوى الفعلي للإشباع أقل من المستوى المأمول أو المرغوب)، وكان توقع تحقيق هذه الرغبة قويا. إذن فلا يكفي وجود الحاجة لتصبح دافعا أكيدا للسلوك بل لا بد من توافر الشروط التي ذكرناها كاملة حتى تصير موجهة له.

أما " حامد زهران — 1978 — " فيرى أن الحاجة شئ ضروري لاستقرار الحياة نفسها (الحاجات الفسيولوجية) أو الحياة بأسلوب أفضل (الحاجات النفسية). في حين يرى " سكينر - 1974 - " أنه يجب عدم الخلط بينها وبين بعض المفاهيم المرتبطة بها إذ ينبغي التمييز بين الحاجة والاحتياج أو العوز والرغبة، فالاحتياج هو الوجه الظاهر للحاجة، فعندما يريد الشخص الحصول على شئ فهذا يعني وجود حاجة لديه، كما أن الرغبة أو الأمنية دليل أيضا وجود وقوة هذه الحاجة.

وأما " هارتلي " فيعتبرها حالة من اللاتوازن داخل العضوية تدفع بها إلى الفعالية ولا يميز بينها وبين الدافع والميل بل يعتبرها كلها فعاليات طبيعية توجه السلوك الإنساني. أما " يركومب " فيعرفها أنها حالة للعضوية تتحرك فيها الطاقة الجسمية وتتجه بصورة انتقائية نحو أجزاء المحيط، ويعرف الميل أنه حالة طبيعية يشعر بها الإنسان كالاضطراب وهي تحدث نزوعا إلى الفعالية، وهكذا فالحاجة تشتمل على حالة توتر وعلى الغاية التي يتجه إليها السلوك.

ويلاحظ أنه من الصعب التمييز بين الدافع (الحاجة) والميل فليس سهلا التمييز بين الميل إلى الجوع في الحالة الخالصة والدافع لاو الحاجة إلى الغذاء حيث يكون الميل متجها نحو الأكل. ومن خلال ما كتب في الموضوع يبدو أن المصطلحات المعبرة والمقبولة أكثر هي الحاجة والدافع وسنستعمل — في هذا البحث — الكلمتين للدلالة على نفس المعنى.

ومن تحليل مختلف التعريفات السابقة نلاحظ تركيزها على العوامل الداخلية التي تثير النشاط وتساعد على استمراره. أما المنبهات الخارجية فلا تأثير لها في إثارة أي فعل دون تعاون من عوامل داخلية فالإنسان يسعى إلى تحقيق أشياء معينة لوجود ميل بداخله يوجهه نحوها وقد يتهرب من أشياء أخرى نظرا لميل آخر داخله يجعله يتجنبها

كما أن الفرد قد يسعى في وقت ما للوصول إلى هدف معين، ويسعى لتجنب نفس الهدف في وقت آخر دلالة على حدوث تغيير في داخله.
فالحاجة بهذا المعنى يمكن تعريفها بأنها: "حالة توتر أو استعداد داخلي يثير السلوك ذهنيا كان أم حركيا ويساعد على استمراره ويسهم في توجيهه إلى غاية أو هدف (كرتشي وكريتشفيلد أنزوف وبتنج، جابر عبد الحميد / منتدى الصفاء للصحة النفسية).

www.elssafa.com/Index-

وقد تعددت البحوث في طبيعة ومصدر الحاجات الإنسانية واختلفت اختلافا واسعا من وقت لآخر تبعا للفكرة السائدة عن طبيعة الإنسان وتأثر سلوكه بمختلف العوامل.

إن التفسير الموضوعي للسلوك الإنساني والمبني على الدراسات العلمية ونتائج البحوث النفسية يفرض الإيمان بالطبيعة الديناميكية لهذا السلوك، فهو نتاج تفاعل عوامل داخلية في الإنسان ومثيرات خارجية عنه تمثل ما سمي بالبيئة بأشكالها ومسمياتها المتعددة والطبيعية والاجتماعية والنفسية وغيرها، وستوضح هذه النقطة بالتفصيل عند الحديث عن نظريات تفسير الحاجات. وتجر الإشارة إلى أن الحاجات لا يمكن ملاحظتها عن طريق آثارها المتمثلة في السلوك الناتج عنها والذي يسمى بالسلوك ب "السلوك المدفوع" في مقابل السلوك غير المدفوع والذي يسميه "ماسلو" سلوكا تعبيريا:

– السلوك غير المدفوع : من المعلوم أن لكل سلوك أسبابه التي أنتجته، ولكن هذه الأسباب ليست دائما هي الحاجات أو الدوافع بمعناها النفسي، فقد تكون هناك عوامل أخرى وراءه كالانعكاسات الشرطية والأدوية والعقاقير وغيرها، وسمي في هذه الحالة سلوكا غير مدفوع أو بتعبير "ما سلو" سلوكا تعبيريا، ويتميز بكونه غاية في حد ذاته لا يخدم أي هدف آخر سوى وجوده، وهولا شعوري، وغير متعلم، يحدث بصورة تلقائية تحدده قوى داخلية أكثر مما تحدده العوامل البيئية، ويشمل أشكالاً من السلوك مثل طريقة المشي أو الوقوف والاسترخاء، التعبير عن المشاعر المختلفة. وهو لا يحتاج إلى تعزيز حتى يستمر.

– السلوك المدفوع: ويسميه ما سلو بالسلوك التوافقي، وهو عادة يكتسب عن طريق التعلم، ويحدث بطريقة شعورية نتيجة جهد معين، ويتمثل في محاولات الفرد التكيف مع العالم الخارجي،

وفيما يقوم به من نشاط لإشباع مختلف حاجاته في مستوياتها المختلفة فهو سلوك يتجه نحو هدف محدد يدفعه نقص ما في حاجة من الحاجات. ويمكن تحديد معايير السلوك المدفوع كالتالي:

- الطاقة: فالطاقة الناتجة بالنسبة لموقف معين هي التي تحدد قوة الحاجة أو الدافع. فدافع الجوع بعد 24 ساعة دون أكل مثلا (موقف) تكون أقوى منه بعد 03 ساعات فقط دون أكل (موقف مغاير).

- الاستمرار: يتميز السلوك المدفوع بالاستمرار، والفرد في هذه الحالة لا يستسلم بل يقاوم ميله لعدم بذل الجهد وعدم المقاومة دليل على ضعف الحاجة لديه بالنسبة لهذا السلوك.

- القابلية للتغير: يتسم هذا السلوك أيضا بـ " القابلية للتغير " فهو قد يتخذ أشكالا مختلفة لتحقيق الهدف المطلوب. فالدافعية لدى الفرد تجعله يتبع أساليب متعددة لتحقيق غرضه وإشباع الحاجة التي يسعى لإشباعها (تكيف السلوك تبعا للظروف المختلفة الكثيرة)

فالحاجات الإنسانية تظهر عندما يبلغ النقص والاضطراب في موضوعها مستويات خطيرة تؤدي إلى اضطراب التوازن الذاتي. وبطبيعة الحال يكون ظهورها ونشاطها قصد تصحيح وضع الكائن واستقراره. وعملية استعادة التوازن الذاتي تتم بطريقتين مختلفتين تبعا لطبيعة الحاجة ونوعها:

الطريقة الأولى: مرتبطة بالحاجات البيولوجية الأولية أين تنعدم إرادة الفرد ووعيه ويستعاد فيها التوازن أوتوماتيكيا بطريقة دقيقة وبدون تعديل وليد الخبرة. مثل عملية الأيض وبعض الأفعال المنعكسة. فعملية الإشباع هنا آلية لا تتدخل فيها العمليات العقلية المختلفة.

- الطريقة الثانية: وتتعلق بالحاجات التي يتطلب إشباعها تدخل الفكر البشري بمكوناته المختلفة (التخيل، التذكر)، سواء كانت هذه الحاجات أساسية أو اجتماعية ثانوية.

وفيما يلي توضيح مختصر للفروق بين الحاجات البيولوجية والاجتماعية مع ذكر أهم كل

منها:

1 - الحاجات الأساسية أو الأولية (البيولوجية): ويمكن توضيحها من خلال التصنيف الذي أورده " - 1942 - klinberg " وين فيه أن الدوافع أو الحاجات البيولوجية تأخذ ثلاثة أشكال وهي:

- أ - حاجات ذات أصل بيولوجي محدد، عامة، ويمكن التنبؤ بها إلى حد كبير كالجوع مثلا، فمظاهره الفيسيولوجية واضحة وموجود بشكل عام لدى كل الأفراد رغم اختلافهم في اختيار نوع الطعام.

- ب - حاجات ذات أصل بيولوجي محدد، ويمكن التنبؤ بها أيضا بدرجة كبيرة، وموجودة بكل المجتمعات إلا أن الأفراد يختلفون فيها كالحاجة إلى الجنس مثلا حيث تعمل بعض المجتمعات على قمعها لدى فئات معينة (نظرة الكنيسة إلى الزواج مثلا بالنسبة للقساوسة والرهبان وملازمي الأديرة).

- ج - حاجات لها أصل فيسيولوجي غير واضح وهي عامة لدى الكائنات الإنسانية إلا أن الفروق الفردية تظهر فيها بشكل أكثر وضوحا كالانفعالات مثلا، والتنبؤ بها صعب جدا عكس النوعين الأول والثاني. (نفس المرجع السابق):

- 2- الدوافع الاجتماعية أو الثانوية (المكتسبة): ويصفها " otto klinberg " في تصنيفه المذكور كونها حاجات ليس لها أصل فيسيولوجي معروف إلا أنها تحدث بصورة مستمرة، وهي ذات علاقة بخبرات الفرد وظروف نموه، وتلعب الثقافة دورا كبيرا في تحديد هذه الحاجات على أساس أن السلوك الإنساني من منتجات المجتمع، وأصول حاجات الفرد الاجتماعية تنبع من مطالب الجماعة التي ينتمي إليها، فالإنسان مرآة تظهر فيها صورة الثقافة التي ينتمي إليها، وحاجاته هي صورة لما يحتاجه المجتمع. ورغم صعوبة حصرها وتقسيمها يمكن ذكر أهمها فيما يلي:

- أ - الحاجة إلى الأمن.
- ب - الحاجة إلى الحب والانتماء.
- ج - الحاجة إلى السيطرة.
- د - الحاجة إلى التملك.
- هـ - الحاجة إلى التوحد مع الجماعة.
- و - الحاجة إلى تمثل القيم بأنواعها المختلفة (نظرية، مادية، جمالية، اجتماعية، سياسية، دينية).

- **ثانياً** - تصنيف الحاجات: عند الحديث عن الحاجات والدوافع تواجهنا إشكالية ضبطها أو حصرها في قوائم وأعداد محددة، فمن الصعب جداً على دارسي السلوك الإنساني الإمام ببواعثه ودوافعه المتعددة والمتباينة ولذلك نلجأ إلى تقسيم هذه الدوافع وتصنيفها تسهيلاً لدراستها.

ولقد حاول كثير من علماء النفس تنظيم الحاجات النفسية وضبطها غير أنهم اختلفوا في عددها وفي نوعها وفي تصنيفها نتيجة اهتمام كل منهم بجوانب معينة من الشخصية دون جوانب أخرى، والتركيز على بعض مظاهر السلوك الإنساني دون بقية المظاهر.

ومن أشهر العلماء الذين قدموا تقسيمات وتنظيمات مختلفة للحاجات والدوافع نجد: "هنري موراي" و"هيرلوك" و"كاتل" و"أريك فروم" و"كول" و"ألد" و"ميلر" و"ما سلو" وغيرهم. وفيما يلي نستعرض بعض هذه التصنيفات:

1 - تصنيف "موراي" - murray:

لقد اهتم "موراي" بتحليل الحاجات، وصنفها إلى مجموعات مختلفة:

- أ - الحاجات الأولية (حشوية المنشأ): وتعلق بالجوانب الفيزيولوجية الضرورية للحياة مشتركة بين جميع أفراد النوع الواحد من الكائنات الحية مثل الحاجة للطعام، الشراب، النفس والإخراج.
- ب - الحاجات الثانوية (نفسية المنشأ- psychogenic): مصدرها البيئة الاجتماعية التي يحيا فيها الإنسان عبر مراحل نموه ويؤدي إشباعها إلى الاتزان والاستقرار النفسي وتشمل الحاجة إلى التملك، السيطرة والاستقلال.

وقد قدم "موراي" خدمة كبيرة لعلماء النفس وخاصة الإنكليزيين منهم بتقديم قائمة للحاجات تكونت من ثلاثة عشرة حاجة أولية، وثمان وعشرين حاجة ثانوية ساعدت جميعها على الوصف الدقيق لشخصية الفرد، وفيما يلي ذكر أهم هذه الحاجات:

- الحاجات الأولية وأهمها: الحاجة للطعام، الشراب، الإخراج، التنفس، النوم، الجنس، الصحة.. الخ
- الحاجات الثانوية وأهمها:
- الحاجة للتملك: وجود الملكية الفردية.
- الحاجة للتفوق: التميز عن الآخرين في الكفاءات
- الحاجة للتفرد والاستقلال: التحرر من التقيد.

- التعاون: إشباع الحاجات من خلال سلوكيات الغير.
 - السيطرة: ضبط الآخرين.
 - العدوان: التعارض مع الآخرين وعقوبتهم.
 - الإذلال: الاستسلام والاستخفاف بالذات.
 - الإنجاز: ممارسة القدرات بقوة.
 - الظهور: التقدير العام للذات.
 - الاندماج: علاقات الصداقة المتبادلة.
 - النبذ: الانفصال عن الآخرين وإبعادهم.
 - الرعاية: إشباع حاجات الغير من خلال السلوكيات الشخصية.
 - التجنب: الارتداد من المواقف المؤلمة.
 - الدفاع: حماية الذات من انتقادات الآخرين.
 - الفهم: تفهم العلاقات بين الأفكار والخبرة.
 - تقليد الغير والتشبه بهم: الخضوع لسلطة الغير.
- هذا وتجدد الإشارة إلى أن هناك ملاحظات تتعلق بدراسة الحاجات عند " موري " أهمها:
- الملاحظة الأولى: بالإضافة إلى قائمة الحاجات الأساسية التي ذكرها، وضع مجموعة أخرى من الحاجات (احتياطية) يتم ضمها إلى هذه القائمة كلما دعت الضرورة إلى ذلك خاصة عند ظهور سلوكيات لا تفسر على ضوء الحاجات المدونة في القائمة.
- أما بالنسبة للحاجات الأساسية التي ذكرها في قائمته فقد صنفها طبقا لطريقة التعبير عنها في السلوك إلى مجموعتين:
- أ – الحاجات الظاهرة: وهي التي تظهر بصورة مباشرة وبسرعة من خلال سلوك الشخص.
 - ب الحاجات الكامنة: وهي التي لا تظهر مباشرة من خلال سلوك معين بسرعة وبوضوح فنقول عنها أنها قد كبحت أو كبنت.

- الملاحظة الثانية: يتصور " موري " وجود تنظيم هرمي للحاجات، ولكن توجد نزعات ذات قوة متميزة وتظهر بصورة مباشرة أكثر من غيرها مما يجعلها أكثر تأثيراً في السلوك (بمعنى أن الحاجات غير متماثلة في القوة).

الملاحظة الثالثة: هناك حاجات قد تظهر وكأنها حاجات فرعية (subsidiory) لحاجات أخرى أساسية ، فالحاجة للتواد مثلاً قد تكون حاجة فرعية للحاجة إلى السيطرة. فالفرد يحاول تكوين عدد كبير من الأصدقاء حتى يستطيع أن يصير مرموقاً في الجماعة ويسيطر على الآخرين. والحاجة للسيطرة قد تكون حاجة فرعية للحاجة للاستقلال (الصراع من أجل الحرية)، والحاجة للاستقلال قد تكون فرعية لأي حاجة لا يمكن إشباعها بغير الاستقلال، مثل محاولة الاستقلال لإنجاز مهمة أخرى، ومثل عدم ذهاب الطفل إلى المدرسة إشباعاً لحاجته إلى اللعب.

- الملاحظة الرابعة: قد يحدث نوع من الصراع أو التصارع بين الحاجات طلباً للإشباع، فقد تتصارع الحاجة للتواد مثلاً مع الحاجة للإنجاز، أو مع الحاجة للعدوان، أو مع الحاجة للسيطرة. (نوبل تايمز، ت، غريب، محمد سيد أحمد 1987).

2 - تصنيف " هيرلوك hurlock " في (زينب سالم، 2006).
أشارت من خلال أبحاثها العديدة إلى أن الحاجات الأساسية للمراهق يمكن تصنيفها إلى 03 فئات هي: أ - الحاجات العضوية: 1- الحاجة إلى الطعام والماء.

2 - الحاجة إلى الراحة.

3 - الحاجة إلى الجنس.

وهي أساسية لاستمرار الحياة البشرية.

ب- الحاجات النفسية: 1- الحاجة للشعور بالأمن النفسي.

2 - الحاجة للاستقلالية.

3 - الحاجة إلى التحصيل (تحقيق شيء معين).

ج - الحاجات الاجتماعية: 1- الحاجة للانتماء.

2 - الحاجة إلى العطف والحب.

3 - الحاجة إلى الرفاق.

- 4 - الحاجة إلى المكانة الاجتماعية.

3- وهناك مجموعة أخرى من الباحثين النفسيين والاجتماعيين (زيدان عبد الباقي، كلير فهم، أحمد عزت راجح، محمد خليفة بركات، منصور حسين) وضعوا تصورا لأهم حاجات المراهقين، على النحو التالي :

أ - الحاجة إلى المركز والقبول الاجتماعي: وتتطلب الحاجة إلى الأمن والانتماء والاحترام والتحرر من الإحباط والتهديد، والقبول الاجتماعي، والمعاملة الحسنة والتدريب على تحمل المسؤولية.

ب - الرغبة في الاستقلال والتحرر من الأسرة: وتظهر في سعي المراهق إلى تكوين علاقات خارج الأسرة مع الأصدقاء، وفي محاولة إرغام الكبار على الاعتراف برجلته، وهنا ينبه الأولياء إلى ضرورة الابتعاد عن القسوة والعنف في معاملة الأبناء ومعاملتهم كأشخاص لهم رأي في الحياة.

ج - الرغبة في الاستقلال المادي: وتظهر في محاولة اعتماد المراهق (الطبيعي) على نفسه بالنسبة لتلبية مختلف حاجياته، حيث يبدأ في التفكير في مستقبله (نوع التعليم الذي يناسبه، طبيعة المهنة التي تحقق طموحاته. .. الخ) وهنا ينبغي على الأولياء الحرص على توجيهه التوجيه السليم حتى يستطيع النجاح في حياته، لأن فشله يؤدي إلى فقدانه الثقة بذاته وبقدراته ولجؤه إلى السلوك التعويضي الذي يعتبر سلوكا غير سوي.

د - الحاجة إلى المثل والمعايير: وتظهر في تخير المراهق مجموعة من القيم والمثل العليا التي يحاول أن يوجه بها سلوكه في الحياة، هذه القيم التي يستمدّها أولا من أسرته ثم من العالم الخارجي المحيط به، وهنا يجب على الأسرة مساعدته على فهم المعايير الاجتماعية والأعراف والقوانين المنظمة للحياة العامة في مجتمعه.

هـ - الحاجة إلى الفهم الكامل: وتظهر في مراجعته لمكتسباته التي كانت تمثل في طفولته مسلمات وديهيّات (المسائل الدينية والفكرية) وهنا ينبغي على المحيطين به إعطاءه فرصة المناقشة والتساؤل عن كل ما يثير شكوكه حتى يعرف بنفسه أن الشك هو أولى خطوات المعرفة الصحيحة.

و - الحاجات البيولوجية والجنسية: تظهر الحاجة الجنسية بتأثيرها القوي في اهتمامات وميول المراهق. وهنا تزداد الحاجة إلى الإرشاد النفسي نظرا لمطالب هذه المرحلة وتحدياتها، فإشباع

الحاجات الأساسية للمراهق يحقق له الأمن النفسي كما أن عدم إشباعها بطريقة مباشرة سوية يدفعه للبحث عن البديل الذي يتمثل غالبا في إشباعها بطرق غير مشروعة وأساليب غير سوية مما يوصله في النهاية إلى الانحراف والشذوذ (زينب سالم، 2006).

4 - تصنيف " ميشال أرجايل »: أعد هذا الباحث قائمة تضمنت سبعة دوافع رئيسية تعتبر في نظره المصدر الرئيسي للسلوك البشري واعتمد في تصوره هذا على الدراسات المختلفة التي قام بها علماء النفس القدامى في هذا الموضوع، وهذه الدوافع هي:

- الدوافع غير الاجتماعية: الدوافع البيولوجية والفيزيائية.
- الاعتمادية: الرغبة في حماية الغير وتوجيهه.
- الصداقة: إقامة علاقات مع الغير على أساس التشابه والتقارب.
- التجاذب الجنسي: بين الذكور والإناث.
- السيطرة: الرغبة في التميز عن الآخرين والإشراف عليهم.
- العدوان: الرغبة في أذى الغير معنويا أو ماديا.
- تقدير الذات: وتعتبر قمة الدوافع عند هذا الباحث وتتمثل في البحث عن الهوية الشخصية واحترامها من طرف الغير.

5- تصنيف " روتر rotter " : أوضح هذا الباحث في تصنيفه للحاجات ستة أقسام واسعة ، وكل قسم يمثل مجموعة من السلوكات التي تؤدي إلى نفس الغرض ، و يقول " روتر " أن هذه القائمة ليست نهائية ولكنها تضم أغلب الحاجات الأساسية بالنسبة للناس والتي تتمثل فيما يلي:

- أ - المكانة المعروفة: وتعني الرغبة في التعارف، والبحث عن السمعة وهي حاجة قوية لدى أغلب البشر وتتضمن:
- الحاجة للتفوق فيما يعتبره الشخص أمرا مهما مثل الدراسة، والألعاب الرياضية والجمال.
- الحاجة للمكانة بمعناها الواسع (ذيع الصيت).
- ب - السيطرة: وتعني حاجة الفرد للتحكم في الآخرين وضبط سلوكهم وتتضمن:
- الحاجة للمهابة والشعور بالسلطة على الغير.

- الحاجة لجلب انتباه الآخرين كحاجة الشخص لأن يستمع الآخرون إليه عندما يتحدث، وأن يتقبلوا حديثه.

- ج- الاستقلال: ويعني الحاجة للتحرر من سلطة الآخر ويتضمن البحث عن الحرية التي من خلالها يستطيع الإنسان التصرف في قراراته والاعتماد على نفسه.

- د- الحماية والاعتماد: وتعني حاجة الفرد لاهتمام الغير ورعايتهم له، وحمايته من الآثار السلبية للإحباط والفشل، ومد يد العون له لإشباع حاجاته المختلفة، كمثال على هذا ما نلاحظه من حرص الزوج على أن تكون زوجته بجانبه عند مرضه، أو حرص الأم على ملازمة ابنتها لها عند الشدة.

- هـ - الحب والعطف: وهي حاجة لا تشبعها المكانة أو الجاه، وتتمثل في حب الآخرين للفرد واهتمامهم به وارتباطهم وجدانيا به.

- و- الراحة الفيزيائية: وتعتبر من الحاجات الأولية أو الأساسية وتشمل الحاجة للطعام والأمن الفيزيقي والصحة الجيدة، هذا فضلا عن حاجات أخرى مكتسبة ومتعلمة، تابعة من حاجة الإنسان للمتعة مثلما يلاحظ عقب الإشباع الجنسي مثلا.

(بشير معمري، بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس، ج 1، 2007، ص 94).

- 6 - تصنيف " أبراهام ما سلو":

لقد كانت نظرية " موراى " التي ساهمت في نشأة كثير من الاختبارات والاستبيانات المتعلقة بقياس الشخصية الانسانية - هي الأساس الذي بنى عليه "ماسلو" نظريته في هرمية الحاجات. التي تضمنت تصنيف مختلف الحاجات الانسانية وترتيبها اعتمادا على قوتها وأولويتها في طلب الإشباع والتأثير في السلوك.

يعتقد " ما سلو " أن أقوى الحاجات وأكثرها طلبا للإشباع الفوري وتأثيرا في السلوك هي تلك الواقعة في قاعدة الهرم، وكلما اتجهنا نحو قمته قلت قوة الحاجات وأولويتها بالنسبة للإشباع، ويستعمل في نظريته مفهوم " التصاعد الهرمي " للغلبة والسيطرة الذي يعني أن الحاجات المنتمية للمستوى الأعلى لا تظهر الا بعد اشباع الحاجات المنتمية للمستوى الأدنى والتي تعتبر أكثر غلبة

وسيطرة، وتتوقف الحاجة عن النشاط أو تأثير في تحريك السلوك فور إشباعها فاسحة المجال لنشاط آخر في مستوى اعلى من أجل إشباعها. .. وهكذا.

وبلاحظ أن تصور "ما سلو" لهرمية الحاجات مؤهل لتفسير السلوك البشري في ظل الحضارة والثقافة الغربيتين، خاصة وأنه يتناسب واتجاهات الراي العام حول أولوية اهتمامات الفرد واحتياجاته، حيث يظهر أنه من الناحية المنطقية وجوب توفر الكفاية من الطعام والأمن بالنسبة للشخص قبل بحثه عن أمور تتعلق بالفلسفة والفن وغير ذلك. وأهم ما يؤخذ على هذه النظرية وجود نوع من الغموض في مفاهيمها الأساسية، لأن "ما سلو" لم يحدد لها التعريفات الإجرائية مما فتح المجال واسعا لكثير من الاجتهادات في وصف طبيعة هذه الحاجات المتضمنة في تنظيمه.

النظريات المفسرة للحاجات:

إن النظريات المفسرة للحاجات الإنسانية تنطلق من تصورين مختلفين ، بعضها ينطلق من التصور الأول الذي يؤمن بالأساس البيولوجي للحاجات والبعض الآخر ينطلق من التصور الثاني المناقض للتصور الأول والذي يعتقد أن الحاجات منشؤها اجتماعي يتعلق بالمؤثرات الثقافية والحضارية.

وبين هذين التصورين تقع بقية النظريات التي تبني موقفا وسطا يجمع بين العوامل البيولوجية والعضوية والنفسية والاجتماعية في نشأة الحاجات.

- أ - نظرية الفرائز: للإلهام بكل ما كتب في موضوع الحاجات لا بد من الرجوع إلى مختلف البحوث والدراسات المرتبطة بهذا الميدان منذ ظهور علم النفس الاجتماعي.

وفي هذا الإطار تستوقف الباحث نظريتان أساسيتان ظهرتا في بداية القرن 20 ركزت على

دراسة الغريزة وهما:

1- نظرية " c.h.cooly - كولي - 1902 " في النشأة الاجتماعية للأنا والتي قدها في كتابه " البشرية والنظام الاجتماعي " ويتحدث فيه عما يسميه بالحاجات العامة أو الشائعة للذات وهي الحاجات المتوافرة لدينا جميعا، والتي لا تجد إشباعها إلا في المجتمع، وتتمثل في ثلاث حاجات :

-أ- الحاجة إلى التعبير عن الذات.

-ب- الحاجة إلى تقدير الذات.

- ج - الحاجة إلى الطمأنينة.

ويرى "كولي" أن السبب الرئيسي في كثير من المتاعب النفسية الاجتماعية لدى الكثيرين هو عدم إشباع هذه الحاجات.

- 2- نظرية "w.m.c.dougall - مكدوجل" في الغرائز والتي بين خطوطها العريضة في كتابه المعروف باسم " مقدمة لعلم النفس الاجتماعي " الذي بين فيه الميول الفطرية (الغرائز) في الإنسان، أوضح كيفية انتظامها أثناء عملية تكوين الشخصية، ثم تبيان أهمية كل منها في الحياة الاجتماعية للإنسان.

ويتفق أغلب علماء النفس الاجتماعي على أن كلمة "غريزة" و"غريزي" تشيران إلى مجموعة من الميول الفطرية المحددة، متوافرة لدى جميع أبناء النوع (بمعناه البيولوجي وقد تآصلت في الشخصية الإنسانية نتيجة عملية تطور بطيء حدث أثناء محاولة النوع التكيف مع بيئته، ولذلك فإنه لا يمكن استئصالها من شخصيات الأفراد، أما عن علاقة هذه الميول بسائر جوانب البناء النفسي وخاصة الذكاء فهناك تفسيران:

1 - يقرر أن تطور الإنسان اتجه به إلى نمو قدراته العقلية وذبول غرائزه (و بهذا يزداد تميزه عن الحيوان عبر الزمن)، وهذا الرأي لم يقتنع به "مكدوجل".

2 - يقرر أن ذكاء الإنسان يزداد فعلا بتطوره غير أن هذه الزيادة في الذكاء لا تؤدي إلى ضمور الغرائز بل تؤدي إلى زيادة قدرة الإنسان على التحكم فيها وتوجيهها وتعديلها وهذا الرأي يوافق عليه "مكدوجل" كما يوافق على رأي "شنيدر" و"وليم جيمس" الذي يشير فيه إلى وجود الغرائز لدى الإنسان أكثر مما هي عند الحيوان، ولها أهمية كبرى في توجيه سلوكه ونشاطه، ويعرف "مكدوجل" الغريزة بقوله: هي استعداد نفسي عضوي

فطري أو موروث، يحتم على حامله أن يدرك فئة معينة من الموضوعات، كما يحتم عليه أن يقوم بفعل معين أو أن يعاني على الأقل دفعا نحو القيام بهذا العمل. (مصطفى سويف 1966).

وقد قسم " مكدوجل " الغرائز إلى مجموعات ثلاث:

- المجموعة الأولى مع الانفعالات المصاحبة لها، يوضحها الجدول الاتي:

جدول يبين الغرائز والانفعالات المقابلة لها:

الانفعال المقابل لها	الغريزة	الرقم
الخوف	الهرب	01
الاشمئزاز	النفور	02
الدهشة والعجب	حب الاستطلاع	03
الغضب	المقاتلة	04
العبودية	الخنوع	05
الازدهار	تأكيد الذات	06
الحنان	الأبوة الوالدية	07

- المجموعة الثانية من الغرائز وتتألف من:

- الغريزة الجنسية أو التناسلية.

- غريزة التجمع.

- غريزة البناء أو الإنشاء.

- غريزة الاستحواذ أو التملك.

غير أن المظاهر الوجدانية والنفسية التي تنتج من إثارة هذه الغرائز غير الواضحة وبالتالي يتمكن الباحثون من إعطائها إسماع معينة، ولذلك فإن "ماكدوجل" لم يضع قائمة بأسماء الانفعالات التي تصاحب هذه الغرائز كما هو الحال في المجموعة الأولى.

- المجموعة الثالثة ويعتبرها "ماكدوجل" ضئيلة القيمة ولم يعطها اهتماما كبيرا، ويذكر من بينها الغرائز التي تدفع إلى الحبو والزحف أو المشي، والجانب الوجداني فيها لا يثير الانتباه تقريبا (نفس المرجع السابق).

ويعتبر "ماكدوجل" الغرائز هي المحركات الأولى للنشاط النفسي والجسمي فهي مصدر الطاقة بالنسبة للإنسان فهي التي تحدد غايته وأهدافه، لكنها لا تعمل وحدها، فهناك محركات أخرى هي تلك العادات المكتسبة التي كانت في البداية

معتمدة على طاقة الغرائز وخدمة لها، ثم استقلت بذاتها حتى أصبحت تظهر كأنها هي المحركات المباشرة للسلوك.

ويعتبر العقل عند "ماكدوجل" أداة لتحقيق متطلبات الغرائز، أما اللذة والألم فهما إشارتان توجهان الغرائز نحو اختيار أنسب الوسائل للوصول إلى عملية الإشباع، فاللذة تعمل على استمرار الفعل، بينما يعمل الألم على إيقافه أو تعطيله، فالغرائز إذا هي قوام الطبيعة البشرية وهي أساس حياة الإنسان الاجتماعية، فهو يعيش في المجتمع لأنه يحمل غريزة التجمع، ويتزوج لأن لديه غريزة جنسية ويعطف على أولاده بالغريزة الوالدية، فهي مصدر لكل السلوكات الإنسانية، أما البيئة والتعلم فيقومان بتوجيه هذا السلوك فقط.

تبقى الإشارة إلى أن الغرائز قابلة للتعديل وفق قوانين أهمها:

- تزداد قابلية الغريزة للتعديل بارتقاء النوع في سلسلة التطور.
- تتوفر قابلية الغريزة للتعديل في جزأها الحسي والحركي. أما الجزء المركزي فلا يتغير. بمعنى أن العمليات المعرفية التي تثير الغريزة قد تتعدد وتتغير، كما أن الحركات الجسمية التي تحقق أهداف الغريزة قد تتغير إلى حد بعيد، لكن الانفعالات والعواطف والنشاط العصبي الملازم لها تظل جميعا محتفظة بطابعها طول حياة الفرد، وعند جميع أفراد النوع، وفي جميع المواقف التي تثير الغريزة. والغرائز تختلف فيما بينها بالنسبة للقابلية للتعديل، فقليل منها يتضح مباشرة بعد الميلاد (الصباح-المص الحبو) ويمكن اعتبارها غير خاضعة للتعديل، أما الغرائز الرئيسية فمعظمها لا ينضج إلا في سن متأخرة وتخضع لتعديلات متعددة. (نفس المرجع السابق).

في سنة 1949 استخدم "فرويد" مفهوم الغريزة بمعنى القوة التي تثير كل التوترات التي يعيشها الفرد بسبب مطالبه ورغباته الجسمية التي تعتبر الدوافع الرئيسية لسلوكه، وافترض وجود غريزتين أساسيتين تضم كل منهما عددا آخر من الغرائز، هاتان الغريزتان هما:

- غريزة الحياة: وتتضمن المحفزات الجنسية التي تعتبر دوافع المحافظة على الذات.
- غريزة التدمير: وتشمل الرغبة في العدوان، وتخطيم أي شيء حتى حياة الإنسان ذاته في صورة الموت.

وقد تعرضت نظرية الغرائز لانتقادات واسعة أهمها:

- لقد أثبت الكثير من الدراسات الأنثروبولوجية عدم صحة كثير من فرضيات نظرية الغريزة فقد أثبتت مثلا عدم وجود غريزة العدوان وغريزة التملك لدى كثير من القبائل خلافا لما يعتقد أنه أنصار نظرية الغريزة.

- أثبتت البحوث والدراسات النفسية أن الشخصية الإنسانية كل متكامل وديناميكي خلافا لما تقرر هذه النظرية من أن السلوك الإنساني هو عدد من الغرائز منفصل بعضها عن بعض.

- لقد أفرغت نظرية الغريزة السلوك الإنساني من أهدافه ومعانيه، فعندما نقول أننا نتزوج لأن لدينا غريزة جنسية فإننا في الحقيقة لم نفسر هذا السلوك ولا أبعاده، إننا نتزوج بحثا عن السكينة والتكاثر والبناء.

- لقد ألغت الإرادة والاختيار الإنسانيين بنظرهما للغرائز على أنهما قوى داخلية تجبر الفرد على القيام بمختلف سلوكياته، فهي تفسر السلوك بعيدا عن العقل مما يجعل الحياة الإنسانية دون أهداف، والعلم والمعرفة والتجارب الإنسانية وبناء الحضارات دون معنى.

- لم يستطع الباحثون الذين تبنا أفكار ورؤى هذه النظرية الاتفاق على عدد الغرائز ولا على أنواعها الأمر الذي يمس بعامل الموضوعية العلمية

- ب - نظرية التوازن الداخلي: لقد استعمل مفهوم التوازن الداخلي في علم النفس لأول مرة سنة 1915 على يد عالم النفس " والتر كانون " ويقصد به نزوع العضوية للاحتفاظ بحالة داخلية يغلب عليها طابع الثبات النسبي، فكلما أدى تغير الظروف الداخلية إلى إختلال في هذا التوازن سعى الكائن الحي لإعادته ثانيا إلى حالة التوازن.

ويعتبر أصحاب هذا الاتجاه السلوك الإنساني حلقة مستمرة من اختلال التوازن واستعادة التوازن (الجوع - اختلال في التوازن - الحاجة إلى الطعام - عملية الإشباع - إعادة التوازن) وقد توسع (مبدأ التوازن) لدى علماء النفس المحدثين وأصبح اللاتوازن غير مقتصر فقط على الاختلال في الحاجات البيولوجية والفيزيولوجية بل تعداه إلى ما يحدث من اضطراب في الحاجات النفسية والاجتماعية ، ويرتبط بمبدأ " التوازن " مفهوم " الميكانيزمات " وتعني قيام الفرد بسلوكات معينة في مواقف خاصة من أجل خفض التوتر، وهي سلوكات يتعلمها الفرد من بيئته ليعبر بها عن حاجاته ودوافعه ولذلك فهي تتباين من ثقافة إلى أخرى ومن فرد لآخر داخل الثقافة الواحدة.

ولقد وجهت عدة انتقادات لهذا المبدأ أهمها:

- لقد استمر استعمال هذا المبدأ في تفسير مختلف الحاجات البشرية من سنة 1915 تاريخ ظهوره إلى غاية سنة 1953 تاريخ انتقاده من طرف الباحث " HARLOW " الذي اعتبره مبدأ ضيقا على اعتبار أن هناك دوافع بيولوجية أخرى محفزة للسلوك الإنساني بجانب " دافع البحث عن الاتزان " يقول " بول توماس بونج " هناك عدة طرق وكيفيات لإشباع الحاجات الأمر الذي يفرض عدم الاقتصار على فكرة " تحقيق التوازن " وكمثال على هذا تتساءل عن تفسير لتفضيل طعام على آخر أثناء الجوع لدى الإنسان والحيوان؟ رغم أن أي طعام يشبع حالة الجوع.

- يغفل هذا المبدأ أهمية العوامل الخارجية في تقرير سلوك الإنسان. فهذا الأخير لا تدفعه العوامل الداخلية فقط، بل هناك العوامل البيئية التي تلعب دورا موجهها لما يسلك وأيضا كيف يسلك.

- يثبت واقع الحياة أن الافراد لا يسعون جميعهم دائما إلى خفض التوتر، بل يوجد أفراد يعملون إلى زيادة توترهم بدل خفضه حين يبحثون عن الجديد (الاكتشافات المختلفة، ممارسة الرياضات الخطيرة، مشاهدة أفلام الرعب، دخول المعتكك السياسي والانتخابي وما يشبه من صراعات وتوترات وقلق مستمر. الخ). ولذلك فإن التفسير العقلي والموضوعي للدافعية هي أمها وليدة تفاعل دائم بين مثيرات البيئة الخارجية بمعناها العام الطبيعية والاجتماعية والنفسية وبين الحالة الفيسيولوجية الداخلية للفرد.

- ج- النظريات الارتباطية ونظريات التعلم الاجتماعي: (ثورندايك، بافلوف، سكينر، جاثري، ك.هل، كيلر، كوفكا، م.فرهايمر، ج.تارد، ج.روتير، بانديرا) تعتبر هذه النظريات أن السلوك الإنساني لا تثيره دوافع داخلية بل هو نتيجة لمثيرات فيزيقية حسية، والنشاط السلوكي ليس غاية في حد ذاته بل هو وسيلة لتحقيق غايات معينة ، إنه صادر نتيجة عوامل تعزيز خارجية مستقلة عن صاحب السلوك نفسه.

وأصحاب النظرية الارتباطية لا ينكرون كلية وجود عوامل فطرية دافعة للنشاط الإنساني ولكنهم يحصرونها في انفعالات ثلاثة وهي الخوف والغضب والسرور، كما أنهم لا ينكرون وجود

الفرائزو لكنهم يعتبرونها قليلة الأهمية في حياة الفرد العادية. ويعتقدون أن الخبرة الإنسانية أهم مصادر الحاجات، فالنجاح أو الفشل في سلوك معين هو الذي يوجه تصرفات الفرد ويجعله يرغب في تكرار الأنماط السلوكية الناجحة، فقد يسلك الفرد سلوك التعاون لأنه عاش مواقف كان فيها هذا السلوك مستحسنًا (تعزيز سلوك التعاون) وقد يتعلم البحث عن النجاح لأنه عاش في بيئة تبجل الناجحين (تعزيز السلوك الناجح). وهذا يعني أن العلاقة بين الأهداف والحاجات متعلمة، فمعظم أنواع الثواب والعقاب في الحياة مكتسبة من البيئة نتيجة ما يعيشه الفرد من خبرات وتجارب. ونتيجة لهذا تصبح حاجاته متغيرة تبعًا لما يتعلمه من خبرات جديدة، فهي ليست ثابتة من داخله ولكنها عوامل موجودة في البيئة التي يعيش فيها وخارجة عن ذاته.

تركز النظريات الارتباطية على الحوافز ومعرفة نتائج العمل، وتعتقد أن ما يوجه سلوك الناس هو توقعاتهم للنتائج المترتبة عنه.

ويختلف الأفراد بالنسبة لأساليب إشباع الحاجات من ثقافة لأخرى وداخل الثقافة الواحدة، فقد تكون الحاجة إلى تقدير الذات هي سبب سلوك جمع المال واقتناء الماديات، لأن الثقافة التي يعيش فيها الفرد تعطي هذا الهدف وزنًا كبيرًا، وقد تكون هذه الحاجة نفسها (تقدير الذات) هي سبب العدوانية والسيطرة على الغير لأن الثقافة التي عاش فيها الفرد تعظم هذه الصفات (تعزيز)، وقد تكون هذه الحاجة سببًا للتحصيل العلمي وزيادة المعرفة لأن الثقافة تقدر العلم والعلماء. .. وهكذا. فهذا الاختلاف كله عائد إلى المعنى الذي تعطيه الثقافة لمفهوم " الحاجة إلى تقدير الذات " والطرق المختلفة لإشباعها.

د - النظريات المجالية والمعرفية (كورت ليفين، وودورث، تولمن، أوزبيل، بياجيه، برونر، جانيه):
تعتقد هذه النظريات أن المجال الكلي للفرد هو أساس فهم حاجاته ودوافعه هذا المجال الذي يتكون من ثلاث قوى تتفاعل فيما بينها ويكمل بعضها بعضا وهي :

1- واقع الفرد بطروفه المادية والاجتماعية.

2- حالة الفرد الراهنة الجسمية والنفسية.

3- خبرات الفرد السابقة.

وكل اضطراب في إحدى هذه القوى يؤثر على توازن المجال مما يؤدي إلى إثارة حاجات لدى الفرد تدفع سلوكه نحو أهداف معينة في مجاله.

والفرد يسعى إلى تحقيق التوازن والحفاظ عليه من خلال علاقته بالبيئة الخارجية التي يوجد بها، والمثيرات النفسية الصادرة من داخله، وكل اضطراب في طبيعة هذه العلاقة يتولد عنه اختلال في التوازن.

وتتفق النظريات الحالية مع النظريات المعرفية على أن تفاعل العوامل البيئية مع خصائص الشخصية هو أساس السلوك الإنساني، حيث يؤكد " ليفين " أن توزيع القوى في الموقف الاجتماعي هو الذي يحدد سلوك الفرد أكثر مما تحدده خصائصه الذاتية، فإحساس الشخص بالأمن مثلاً ينتج بالضرورة عن تفاعله مع بيئته الاجتماعية التي عاش فيها بمعنى أن الشعور بالأمن أو الخوف والقلق يتوقفان على ما عاشه الفرد من خبرات وما مر به من مواقف، وتعتبر النظرية التي قدمها " ليفين " وبحث فيها موضوع الحاجات والشخصية نظرية باعثة أكثر منها معرفية.

أما " تولمان " فقد ركز على الدور المشترك للمتغيرات الدافعية والمعرفية في تفسير السلوك البشري. ويؤكد " وو دورث " في نظريته على أهمية الدافعية الذاتية أو الداخلية دون إلغاء لتأثير الدوافع الخارجية في تحديد السلوك.

وتركز النظريات المعرفية على دور العقل في توجيه السلوك الإنساني وتؤكد أن النشاط العقلي للفرد يمدّه بدافعية ذاتية تابعة من شخصية (التأكيد على القصد والنية والتوقع).

(سيد محمد حسن خير الله، مدوح عبد المنعم الكناي، 1987).

هـ - النظريات الإنسانية (ما سلو، م. أرجايل، أ. فروم، ك. روجرز، كرونباخ) : تحاول هذه النظريات دراسة الحاجات الإنسانية في إطار علاقتها بالشخصية الإنسانية أكثر من علاقتها بدراسات التعلم كما فعلته النظريتان الارتباطية والمعرفية، ويلاحظ أن أغلب مفاهيم هذه النظرية من ابتكار عالم النفس الأمريكي " أبراهام ما سلو " الذي يعارض النظريات الارتباطية عند تفسيرها للحاجات عن طريق مفاهيم ذات نزعة فيزيولوجية مثل الحافز والحرمان، التعزيز، رغم إيمانه بتأثير بعض الدوافع البيولوجية في توجيه تحديد بعض مظهر السلوك البشري.

وعلماء النظرية الإنسانية يؤمنون بالدور الذي يلعبه التعلم في تشكيل السلوك الإنساني ولكنهم لا يعتبرونه دورا محوريا وأساسيا كما يعتقد ذلك السلوكيون والفرويديون إنهم يولون كبير الأهمية لبعض القيم العليا كالحق والخير والعدالة والأمانة والجمال وغير ذلك من القيم التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات.

وينظر " ما سلو " إلى الإنسان باعتباره كائنا مزودا بإرادة حرة وقوية تدفعه إلى النمو السليم وتساعد على إظهار طاقاته كاملة، ويخالف " فرويد " نظريته للاشعور كمخزن للشعور والممنوعات الاجتماعية فقط، فهو يرى أن اللاشعور يمكن أن يكون أيضا مكانا للخير والخلق الإنساني الرفيع.

ورغم أن علماء هذه النظرية يختلفون في توجهاتهم الفكرية ومعتقداتهم الشخصية فإن الكثير منهم يشتركون في بعض الاتجاهات العامة ومنها:

- 1 - ضرورة إعطاء صبغة إنسانية لعلم النفس وذلك بتركيزه على دراسة الإنسان ككائن حي يعيش في مجتمع وستفاعل معه.
- 2 - ضرورة العمل على فهم الإنسان بكل مكوناته من قدرات وميول وحاجات وغيرها واستغلال إمكانياته إلى أقصى حد ممكن.
- 3 - التركيز على دراسة المشكلات الإنسانية الهامة مثل أهداف الحياة وكيفية تحقيقها، الحاجات الإنسانية، الابتكارية، القيم العليا.
- 4 - دراسة الإنسان باعتباره كائنا متكاملًا بدل تقسيمه إلى عمليات نفسية ووظائف عقلية منفصلة مثل الإدراك، التخيل، الشخصية، التعلم (التأثر بالنظرية الحشطالية).
- 5 - دراسة وفهم نظرة الفرد لذاته وخبراته على أساس أن حاجاته وسلوكاته المختلفة تتأثر بتصوره لذاته (الوعي الذاتي). <http://article.sodfah.com>
- خامسا: قياس الحاجات :

إن أي اضطراب نفسي أو جسمي يولد توترا يؤدي إلى ظهور حاجة، وقياسها لا شك يتضمن قياس النشاط المترتب عنها لأنها لا تبدو واضحة.

وطرق قياس الحاجات أو الدوافع لابد أن تتضمن الخواص الأساسية للسلوك المدفوع التي أوضحناها سابقا وهي، الطاقة والاستمرارية والقابلية للتغيير.

وقياس الدافع أو الحاجة شيء أساسي وضروري لأننا لابد أن نعبر على أساس موضوعي - كمي - عند حدسنا عن شدة وقوة الحاجة المثارة في أي لحظة، وعن درجة تأثيرها في السلوك وتوجيهه، وبدون عملية القياس - ولو كانت نافصة الدقة - يصعب الوصول إلى نتائج معبرة عن علاقة الحاجة بمظاهر السلوك المرتبطة بها.

وقياس الحاجات هام وأساسي بالنسبة لفهم السلوك البشري وتفسيره، فعن طريق عملية القياس هذه نستطيع مقارنة آثار مختلف الدوافع ومعرفة درجات تأثير كل منها - عند وجود أكثر من دافع - في إحداث أي سلوك، غير أن قياس الدافعية ليس بالأمر الهين، فهناك مشاكل عدة تعترض السيكولوجي أثناء قيامه بهذه المهمة، وللوصول إلى قياس موضوعي للحاجات لا بد من مراعاة الشروط التالية:

- 1 - عدم قياس الدافع المقصود بطريقة مباشرة، بل ينبغي قياس السلوك الناتج عنه والمكن ملاحظته.
- 2 - قد نلجأ إلى الاعتماد على مؤشرات غير واضحة تظهر في السلوك اللاشعوري من أجل التغلب على تأثير عوامل الكف والقمع في ظهور الحاجات بصورة مباشرة.
- 3 - يجب التحسب لما يوجد من مظاهر سلوكية متعددة لنفس الحاجة الأمر الذي يجعلنا نختار في اختيار السلوك الذي نقيسه لمعرفة درجة الحاجة المراد قياسها.
- 4 - قد تظهر عدة حاجات في وقت واحد عند استثارة واحدة منها، وتتعدد السلوكات المعبرة عنها أيضا وتتزامن ما يصعب من معرفة الحاجة التي نريد قياسها فعلا.
- 5 - قد تتأثر موضوعية قياس الحاجة بتدخل عوامل أخرى أثناء عملية القياس ذاتها، فمثلا قد تتأثر شدة الحاجة إلى الأكل بالعراقل التي توضع أمام الجائع وقت قياس هذه الحاجة لديه فتزداد شدة الجوع عنده مثلا بسبب هذه العراقل. (د. عبد الستار إبراهيم. 1974 - د. محمد فرغلي فراج - د. سلوى عبد الرحمان الملا).

طرق قياس الحاجات: لقد استطاع علماء القياس النفسي ابتكار الكثير من الطرق والأساليب لقياس الحاجات (مجموعة من المؤشرات السلوكية) كمحاولة للتغلب على صعوبات قياسها التي سبق الحديث عنها، وقد ساهمت جميع الطرق هذه في الوصول إلى الهدف المنشود رغم تباين وتفاوت نسبة نجاح كل منها، وفيما يلي عرض موجز لها:

1 - طريقة تعامل الفرد مع هدف الدافع أو موضوع لإشباع الحاجة يشير إلى قوة هذا الدافع أو ضعفه مثل كيفية تعامل الفرد الجائع مع الأكل، غير أنه يؤخذ على هذه الطريقة أن أسلوب التعامل هذا لا يشير حقيقة ودائماً إلى طبيعة الحاجة ومستواها، فالإنسان قد تفتقر دوافعه أحياناً عن تحقيق هدفه كما أنه يؤخذ على هذا الأسلوب في القياس قيامه على فرضية إشباع الحاجة قبل قياسها، بينما المطلوب هو قياسها قبل قياس عملية الإشباع.

2 - سهولة التعلم والتحصيل تعتبر مؤشراً لقوة الدافع أو ضعفه، فالتحصيل السهل يشير إلى قوة الدافع لدى المتعلم، والعمل البدني والجهد العضلي يعتبران أيضاً مقياساً لشدة الدافع مثل الدافع إلى الفوز لدى المتسابقين، ولدى عناصر الفرق الرياضية في مختلف الرياضات.

3 - يعتبر التدفق الفكري الذي يظهر في صورة تخيلات وأحلام اليقظة لدى الفرد مقياساً لشدة دوافع السلوك الذي يظهر من خلال موضوعات هذه الأحلام.

وقد تبنى بعض الباحثين - في هذا السياق - طرقاً تستخدم مواد مقننة لإثارة تخيلات واضحة بهدف قياس مختلف الحاجات الإنسانية، والتجربة التالية توضح إحدى هذه الطرق:

لقد استعمل "كليفلاند" وزملاؤه سلك التخيل كوسيلة لقياس كثير من الدوافع الإنسانية مثل الدافع للتحصيل أو الإنجاز وغيرها، وإثارة سلوك التخيل لدى المفحوصين قدموا صوراً لمواقف بسيطة مثل التي استخدمها "موراي" في اختيار تفهم الموضوع، ومنها: صورة لشاب واقف في شلر جانبي، وفي يده مكنسة وهو ينظر إلى بعيد.. وبعد إعلام المفحوص أن الإختبار عبارة عن اختبار للخيال الإبداعي يطلب منه كتابة قصة مختصرة عن كل صورة، ومن خلال قصته التي يكتبها تستنتج الحاجات أو الدوافع التي أثارت هذا السلوك التخيلي لديه ومدى شدتها.

وفيما يلي نماذج من القصص التي كتبها بعض المفحوصين حول هذه الصورة:

- **القصة الأولى:** شاب يعمل في مخزن مواد غذائية، متخرج حديثا من المدرسة الثانوية وفي حاجة إلى المال حتى يواصل دراسته الجامعية، وهو واقف يفكر في المدة التي يستغرقها ادخاره ما يكفي لتعليمه، فهو لا يريد البقاء عاملا بهذا المخزن طول حياته بل يريد أن يجعل من نفسه شخصية هامة.

- **القصة الثانية:** يظهر أن هذا الشاب طلب منه أبوه تنظيف مدخل الدكان، وهذا العمل حرمه من الذهاب إلى الشاطئ مع أصدقائه في هذا اليوم، فهو يراقبهم وهم ذاهبون في سيارتهم وهو حانق على أبيه ويشعر أنه منبوذ من طرفه، ونستنتج من القصتين ما يلي:
تستحق القصة الأولى درجة عالية من ناحية دافع الإنجاز، والتحصيل عكس القصة الثانية التي تستحق درجة منخفضة.

ووجد الباحثون بعد تطبيق هذا الاختبار على عينات من الشباب أن هناك فروقا واسعة في درجات دافع التحصيل، وأوضحت التجارب فيما بعد أن الدرجات التي أحرز عليها المفحوص مرتبطة ارتباطا له معنى بسلوكه التحصيلي في مواقف أخرى وبالدرجة التي تثار بها دوافع التحصيل في حينها لديه وماضيه.

4 - **التعبير الشفهي:** كثيرا ما يستعمل هذا الأسلوب كوسيلة لقياس الدوافع ، إلى أن علماء النفس يشككون في جدواه وموضوعيته لأن المفحوص قد يخفي دوافعه عن قصد أو بدونه خاصة إذا كان الدافع مرفوضا اجتماعيا.

وقد ابتكر "edwards" طريقة يمكن من خلالها معرفة حاجات الفرد من خلال انطباعه الشخصي، وتتضمن هذه الطريقة 16 حاجة أساسية من حاجات الانسان مشتقة أصلا من تصنيف "موراي" للحاجات ويطلب من الشخص المفاضلة بين حاجتين مختلفتين حتى يمكن معرفة أيهما أقوى بالنسبة إليه، لكن رغم كل هذا تبقى طريقة التعبير الشفهي عن الحاجات غير علمية بنسبة كافية نظرا للصعوبات الكبيرة التي تواجهها والتي يمكن اختصارها فيما يلي:

- عدم إمكانية قياس حاجات الأطفال لعجزهم عن التعبير الحقيقي عن أحاسيسهم.
- عدم إمكانية قياس حاجات المرضى نفسيا أو عقليا لفقدانهم وسائل الاتصال الموضوعية.

- عدم التأكد من صحة أقوال المفحوص في تعبيره عن حاجاته ومدى مطابقتها للواقع خاصة إذا كانت هذه معقدة حيث لا يستطيع هو نفسه فهمها أو كانت سلوكياته متناقضة معها.
- صعوبة عزل " عامل الكذب " لسبب ما في عملية التعبير الشفهي.

- 5 - السلوك الواضح: يهتبر السلوك المتكرر لدى الأشخاص سواءا كان حركة أو حديثا وسيلة لمعرفة الحاجة الماثرة لديه، فالشخص الجائع جدا يكثر حديثه عن الطعام وما يتعلق به، بل إن أدراكه قد يتأثر بحاجة الجوع هذه فيرى لافتة " مخبر " مثلا " مخبزة "
هذه هي أهم الأساليب التي تقاس بها الحاجات، وهي كما سبق أن رأينا غير موضوعية بصورة كاملة نظرا للصعوبات التي تعترض كلا منها والتي تختلف بطبيعة الحال من أسلوب لآخر، ولكن يمكن الوصول إليه نتائج موثوق بها لو استعملنا أكثر من أسلوب في قياس الحاجات المراد معرفتها (عبد الستار براهيم، محمد فرغلي فراج، سلوى عبد الرحمان الملا، 1974).

تعليق على موضوع الحاجات:

من المؤكد أن استمرار الحياة البشرية ونشوء الثقافات وقيام الحضارات الإنسانية تعتمد جميعها على الحاجات وطرق إشباعها، وقد أقام معظم الفلاسفة والعلماء في القديم والحديث نظرياتهم في نشأة المجتمع وتطوره وفي السياسة والعدالة والاجتماع والتربية على الحاجات أو الدوافع الفردية، فوجود هذه الحاجات وتأثيرها في السلوك الإنساني حقيقة علمية ثابتة، غير أن ترتيبها وتسلسلها حسب الأهمية هو ما يبقى موضوع دراسة مستمرة ومعقدة.

فثقافة الإنسان، وطريقة تربيته، وديانته، وقيمه كلها تلعب دورا أساسيا في ترتيب الحاجات، فقد تشبع حاجة تنتمي إلى مستويات أعلى قبل الحاجات التي تنتمي لمستوى أدنى منها، فكم من طالب يفضل حضور الدرس على تناول الغذاء، وكم من جائع يعطي أكله لشخص آخر محتاج إليه، فهؤلاء الأشخاص يشبعون حاجات معنوية (حاجات مستوى أعلى قبل الحاجات البيولوجية (الحاجات الدنيا)، وصدق الله العظيم إذ يقول: {...} ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. .. { الآية 09 من سورة الحشر.

و يقول في آية أخرى {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون { الآية 92 من آل عمران.

فهؤلاء الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم ترتب الحاجات المعنوية لديهم (الحاجة للتقدير، وتحقيق الذات) قبل الحاجات الفيزيولوجية.

وهناك ملاحظة أخرى وهي أن الحاجات ليست عامة عند جميع الناس وفي كل الأزمان، بل هي تختلف من مجتمع لآخر ومن نظام لنظام ومن عصر لعصر ومن عقيدة لأخرى. فحاجات المجتمع البدائي ليست هي حاجات مجتمعنا المعاصر، وحاجات المجتمع الشيوعي ليست هي حاجات المجتمع الرأسمالي أو الإسلامي أو غيرهما. فحاجات تحقيق الذات مثلاً التي تمثل قمة الهرم في تصنيف "ماسلو" والحاجة العلمية التي تمثل قمة هرم الحاجات عند الإنسان المعاصر حسب تصور "لاكومب" لم تكن واضحة ضمن منظومة حاجات الفرد البدائي، والحاجة الجنسية التي يعتبر إشباعها أساسياً باعتبارها من الحاجات الدنيا لدى "ماسلو"، وباعتبارها المحرك الأساسي للسلوك البشري لدى "فرويد" مثلاً تبدو عديمة التأثير لدى بعض القبائل والعقائد (علي زيعور - 1984).

ونفس الشيء يمكن قوله عن الحاجة إلى البقاء التي تعتبر أقوى الحاجات البشرية (الرغبة في الحياة) لدى كل الناس ولكنها ليست كذلك عند فئة المجاهدين الذين يتسابقون على الاستشهاد، ويحزنون عندما يخطئهم الموت ولا يظفرون بالشهادة.

وهكذا يمكن القول إنه من الخطأ تصنيف الحاجات إلى بيولوجية واجتماعية وثقافية وروحية وغيرها، فهي كل متداخل متناسق في نظام معين تحدده القيم بالدرجة الأولى، حيث أن منظومة القيم المكونة لشخصية الإنسان هي التي تعطي الترتيب المعين والقوة والسيطرة لحاجاته المختلفة على توجيه سلوكه.

المراجع:

- 1 - إبراهيم الخليلي، 2008، كيف نتعامل مع حاجات الأبناء. ط1 دار إفرا، سورية.
- 2 - إبراهيم الفقي، 2000، قوة التحكم في الذات، دار المنار للنشر والتوزيع، دمشق.
- 3 - إبراهيم الفقي، 2008، المفاتيح العشرة للنجاح، ط1، إبداع للإعلام والنشر، القاهرة
- 4 - إبراهيم الفقي، 2009، العمل الجماعي، ط1، دار اليقين للنشر والتوزيع.
- 5 - إحسان محمد الحسن، 1986م، الأسس العلمية لمناهج البحث الاجتماعي، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
- 6 - أحمد جمال طاهر، 1984م، البحث العلمي الحديث، ط2، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.
- 7 - أحمد فوراية، 2007، فن القيادة المرتكزة على المنظور النفسي الاجتماعي والثقافي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

- 8 - إقبال محمد بشير، 1998م، الخدمة الاجتماعية ورعاية الأسرة والطفولة، د.ط، المكتب الجامعي.
- 9 - أندرياس هوبر، ترجمة: سامر جميل رضوان الدوافع والشخصية.
- 10 - بشير معمري، 2007، بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس (ج4)، د.ط، منشورات الخبر، الجزائر.
- 11 - بشير معمري، 2007، بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس (ج2)، د.ط، منشورات الخبر، الجزائر.
- 12 - بشير معمري، 2007، بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس (ج3)، د.ط، منشورات الخبر، الجزائر.
- 13 - بشير معمري، 2007، بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس، د.ط، منشورات الخبر، الجزائر.
- 14 - جميل حسن الطهراوي، 2007، الأمن النفسي لدى طلبة الجامعات في محافظات غزة، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 2.
- 15 - حسن شحاتة، 2003، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- 16 - حمدي علي الفرماوي، 2008، الحاجات النفسية في حياة الناس اليومية، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 17 - زينب سالم، 2006، في بيتنا مراهق متطرف دينيا، ط1، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.
- 18 - سامية حسن الساعات، 1983م، الثقافة والشخصية، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- 19 - سعد ناصر الدين، 2004، الدافعية موسوعة أطلس العالم "المنتدى العربي".
- 20 - الصادق القبوري، 1989م، أسس بناء الشخصية من خلال القرآن الكريم، د.ط، الدار التونسية للنشر، تونس.
- 21 - عبد الرحمان الوائي، 1995م، في سيكولوجية الشباب، د.ط، دار هومة، الجزائر.
- 22 - عبد الله ناصح علوان، 1989م، تربية الأولاد في الإسلام، ط1، دار الشهاب، باتنة.
- 23 - عبد الله ناصح علوان، 1989م، تربية الأولاد في الإسلام، ط1، شركة الشهاب، الجزائر.
- 24 - لطفي بركات أحمد، 1981، الطبيعة البشرية في القرآن الكريم، ط1، دار المريح للنشر.
- 25 - ليلي البيطار، 2003، تحقيق الحاجات النفسية عند طلبة جامعة النجاح فلسطين، دراسة مقدمة لمؤتمر جامعة النجاح الوطنية.
- 26 - محمد مرتضى الزبيدي، 1306هـ، نوح العروس، ط1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- 27 - هيئة تحرير مجلة علم النفس، 1992، تغير درجة الانتماء إلى الوالدين، المدرسة، الأقران، مجلة علم النفس، العدد 22.
- 28 - إسماعيل خليل إبراهيم، 2008، التربية الحديثة للمراهقين، ط1، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع.
- 29 - أكرم عثمان، 2002، التميز في فهم النفسانيات، ط1، دار بن حزم لبنان، بيروت.
- 30 - بلقاسم خمري، 1982، الأساليب المختلفة للتأثير النفسي، مجلة التربية، العدد 02، السنة الأولى ص 14-19.
- 31 - جاسم محمد داوود، 2009، الطرق الحديثة في تربية الطفل، ط1، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 32 - حسين حسن سليمان، 2005، السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية بين النظرية والتطبيق، ط1، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان.
- 33 - حنفي محمود سليمان، 1992م، الأفراد، د.ط، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية.

الإدارة الإلكترونية والأمن الوظيفي

مرزوقي محمد، طالب دكتوراه علوم، جامعة وهران 2 محمد بن احمد

بإشراف الأستاذ الدكتور مزبان محمد، جامعة وهران 2 محمد بن احمد

مقدمة:

يعرف العالم اليوم تطورا وتحولا رهيبين في ميدان الإعلام والاتصال فاستخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال قد غزى كل مجالات الحياة اليومية للإنسان ولم يستثنى أي منها. فقد أصبح الإنسان اليوم يستخدم تكنولوجيا المعلومات والاتصال (TIC) في جميع تعاملاته فهو لا يكاد يخرج من بيته أو مكان تواجدته إلا والعالم كله ماثل بين يديه يظهر أمامه على شاشة جهازه أو حاسوبه الشخصي الموصول بالإنترنت. فقد مكنته هذه التكنولوجيا من جعل معظم تعاملاته اليومية افتراضية أو رقمية، فهو يستطيع بفضلها الآن الاتصال والتفاعل مع أي شخص يرغب في التواصل معه من أي نقطة من العالم وفي أي وقت يشاء، بل أكثر من ذلك فقد ظهر في الوقت الحالي ما يسمى بالواقع الافتراضي مثل التعليم عن بعد، والعمل عن بعد والتكوين عن بعد والتسوق والبيع والشراء عن بعد وذلك كله عبر شبكة الانترنت.

كل هذه التحولات لم تكن تحدث في عالم الخيال أو بمعزل عن مجال العمل أو المنظمات والمؤسسات بمختلف أنواعها ومختلف نشاطاتها وعلى اختلاف أشكالها وأحجامها، هذه المؤسسات والمنظمات وباعتبارها الخلية الأساسية والمحرك الحقيقي في اقتصاد أي دولة كونها هي من تخلق وتصنع الثروة، فهي مجبرة بامتلاك وتعميم استخدام هذه التكنولوجيات والوسائل التقنية في جميع أقسامها وإداراتها وفي جميع تعاملاتها لما توفره لها من فوائد وأرباح مباشرة وغير مباشرة سواء من ربح للوقت أو ربح لمصاريف النقل والتنقل وغيرها من التكاليف التي كانت تعرقل الكثير من المشاريع والأعمال والتي أصبحت اليوم تساهم في ربحية

المؤسسات التي تحسن استعمال هذه الوسائل، بمعنى أصح الانتقال من الإدارة التقليدية إلى ما أصبح يطلق عليه بالإدارة الإلكترونية.

هذا التحول والانتقال من الإدارة السابقة إلى هذه الإدارة الجديدة الإلكترونية لا يمكن أن يحصل دون العنصر البشري أو المورد البشري كما يصطلح عليه الآن الذي يعتبر محور ارتكاز أي مؤسسة، وصانع تطورها وتميزها، وضامن بقائها واستمرارها فكان لزاما على المنظمات تكوينه وتمكينه من التحكم الجيد في هذه التكنولوجيات وتحسين استعمالها واستخدامها واستغلالها أحسن استغلال.

وعلى العكس من ذلك فإن عدم ادراك اهمية استخدام هذه الوسائل، وعدم التحكم الجيد فيها واكتساب كفاءات وخبرات تؤهل مستخدمها من مسايرة مختلف التطورات والمستجدات اليومية في هذا المجال قد ينجم عنها شعور بالتهديد والخوف أو اللأمن وبالتالي ضعف في مستوى الرضا عن العمل.

على هذا الأساس فما هي الإدارة الإلكترونية وما هي تكنولوجيا المعلومات والاتصال وما طبيعة العلاقة بينها وبين إدارة الموارد البشرية (الامن الوظيفي)؟

تعريف الإدارة الإلكترونية "e-management" هي الانتقال من إنجاز المعاملات و تقديم الخدمات العامة من الطريقة التقليدية اليدوية إلى الشكل الإلكتروني من أجل استخدام أمثل للوقت و المال و الجهد، و بمعنى آخر "فالإدارة الإلكترونية" هي إنجاز المعاملات الإدارية و تقديم الخدمات العامة عبر شبكة الانترنت أو الانترنت بدون أن يضطر العملاء من الانتقال إلى الإدارات شخصيا لإنجاز معاملاتهم مع ما يترافق من إهدار للوقت و الجهد و الطاقات . فالإدارة الإلكترونية تقوم على مفهوم جديد و متطور يتعدى المفهوم الحديث "اتصل و لا تنتقل" و ينقله خطوة إلى الأمام بحيث يصبح "ادخل على الخط و لا تدخل في الخط وكتعريف امثل و أشمل للإدارة الإلكترونية هي "استراتيجية إدارية لعصر المعلومات، تعمل على تحقيق خدمات أفضل للمواطنين و المؤسسات مع استغلال أمثل لمصادر

المعلومات المتاحة من خلال توظيف الموارد المادية و البشرية و المعنوية المتاحة في إطار الكتروني حديث من اجل استغلال أمثل للوقت و المال و الجهد و تحقيقا للمطالب المستهدفة و بالجوذة المطلوب من خلال استخدام ما يصطلح بتكنولوجيا المعلومات والاتصال في جميع معاملاتها، فما هي إذن هذه الأخيرة؟¹

تعريف تكنولوجيا المعلومات والاتصال:

في حقيقة الأمر هناك تباين بين العلماء والمختصين في ميدان تكنولوجيا المعلومات حول تحديد الإطار العام لهذا المصطلح، هذا إضافة إلى التباين والاختلاف الواضح في تحديد التفاصيل والتطبيقات، فمن العلماء من يرى بأنه يعني الوسائل والتقنيات المستعملة في الإدارات من مكونات الحواسيب، والبرامج، وقواعد البيانات والشبكات.²

وحسب سعد غالب ياسين فهناك أكثر من منظور لتكنولوجيا المعلومات، منها المنظور الجزئي الذي يشير إلى البعد التكنولوجي لنظام المعلومات ويعتبر تكنولوجيا المعلومات مجرد نظام فرعي ضمن نظام المعلومات الكلي (بما في ذلك نظام المعلومات الإدارية)، والمنظور الكلي الذي يعتبر تكنولوجيا المعلومات مظلة واسعة تشكل كلا من نظم المعلومات، وتقنيات معالجة البيانات، وشبكات الاتصالات، والأفراد والمنظمات وغيرها³. بمعنى أن المنظور الكلي يهتم بدراسة كل أشكال التكنولوجيا المستخدمة في تكوين وتبادل المعلومات بأشكالها المختلفة (معلومات عن أنشطة، أعمال، نصوص، صور، ووسائط متعددة).

ويرى SENN بأن تكنولوجيا المعلومات تمثل نطاقا واسعا من القدرات والمكونات للعناصر المتنوعة المستخدمة في تخزين ومعالجة وتوزيع المعلومات، بالإضافة إلى دورها في عملية خلق المعرفة³. بالإضافة إلى هذا فإن مصطلح تكنولوجيا المعلومات والاتصال ارتبط واقترب ببعض المصطلحات التي لها صلة وثيقة به مثل نظم المعلومات، نظم المعلومات الإدارية، نظم معلومات الموارد البشرية، نظم الاتصالات...إلخ.

مفهوم مصطلح نظم المعلومات: يمكن فهم نظم المعلومات من خلال تفكيك هذا المصطلح إلى عناصره الأساسية وهما النظام Système والمعلومات Informations وقد تكون هذه العملية أي تفكيك المصطلح إلى عناصره المكونة له هي الأحسن لشرحه وتعريفه جيدا. وعليه فالعنصر الأول والذي هو النظام يعبر عن علاقة تكوينية قوية بين حقل نظم المعلومات ونظرية النظم العامة في مجال الإدارة.

والنظام بصفة عامة كما هو متفق عليه هو ذلك الكل المكون من أجزاء وعناصر، أو مكونات مترابطة ومتكاملة تعمل ضمن تنسيق وتعاضد بهدف تحقيق غايات وأهداف جوهرية مشتركة⁵. أما عنصر المعلومات فهو يعني نتاج عملية معالجة البيانات حاسوبيا أو يدويا أو بالوسيلتين معا، وينتج عن معالجة البيانات قيمة مضافة تتصف باتساق المعنى والدقة وجودة المعطيات التي تقود المستفيد إلى فهم الظاهرة أو المشكلة. فإذا كانت البيانات هي المعطيات البكر، الأرقام، الأصوات، والصور المرتبطة بالواقع وذلك باعتبارها المادة الخام التي تسجل الأحداث والوقائع اليومية بصورة تفصيلية فإن المعلومات هي القيمة الجديدة الناتجة عم معالجة المادة الخام الآنفه الذكر والتي ترتبط بسياق واضح وبمستوى عال من الدقة والموثوقية⁶.

وعليه يمكن فهم نظم المعلومات من خلال تركيب المصطلح عن طريق تشكيل العلاقة البنوية بين عناصره الأساسية، أي أن نظم المعلومات هي التكوين المتفاعل بين مكونات جوهرية للنظم والمعلومات .. بمعنى آخر نظام المعلومات هو أي توليفة (تركيبية) منظمة من الأفراد، عتاد الحاسوب، البرامج، شبكات الاتصالات، وموارد البيانات التي يتم جمعها ومعالجتها وتحويلها إلى معلومات وبالتالي توزيعها إلى المستخدمين في المنظمة. بصفة عامة تشكل نظم المعلومات التوليفة المنظمة والمتكاملة للموارد الجوهرية التالية:

1. الموارد البشرية. Ressources Humaines.

2. عتاد الحاسوب Computer Hardware

3. برامج الحاسوب Computer Software

4. شبكات الحاسوب Computer network

5. البيانات DATA

كما لا تقتصر نظم المعلومات على معطيات وموارد البيانات وإنما ترتقي هذه العلاقة مع ارتقاء التكنولوجيا المستخدمة في نظم المعلومات ذلك لأن نظم المعلومات تتعامل مع موارد البيانات لإنتاج المعلومات، وتتعامل مع موارد المعلومات والقرارات لإنتاج المعرفة، ومع المعرفة والخبرات المتراكمة لإنتاج الذكاء واستثماره في ميادين الأعمال المختلفة.

نظم المعلومات الإدارية: إن نظم المعلومات الإدارية لها عدة أبعاد متنوعة ترتبط بالمضامين التنظيمية والإنسانية والسلوكية والتقنية وبحقول الدراسة العلمية والتطبيقية الضرورية لتحليل وتصميم وتطبيق نظم المعلومات الإدارية. هذا الارتباط المتعدد والمتنوع يعني وجود عدة مداخل متنوعة لدراسة حقل نظم المعلومات الإدارية وهي تتوزع حسب الحقول والتخصصات التي تصب في هذا الميدان مثل علم الحاسوب، علم الإدارة، العلوم السلوكية والاجتماعية، الإقتصاد...إلخ.

ويمكن إيجاز كل مدخل من هذه المداخل كما يلي:

مدخل علم الحاسوب (أو المدخل التقني): ويمكن أن يسمى مدخل تكنولوجيا المعلومات حيث يتم التركيز فيه على الجوانب التقنية الصرفة كعتاد الحاسوب، برامج الحاسوب، شبكات الحاسوب، ونظم تشغيلها وصيانتها وحماية موارد المعلومات.

مدخل علم الإدارة (المدخل الإداري): يهتم الدارسون لحقل نظم المعلومات الإدارية من منظور إداري وتنظيمي يهتم بتحليل المكونات الإدارية والتنظيمية لهذه النظم وتأثيرها الجوهري على الإدارة والتنظيم مع التركيز على فهم وتحليل علاقة التأثير المتبادلة بين النظام والبيئة التنظيمية وبين النظام والأداء وبين النظام وبرامج ومشروعات الإدارة الحديثة مثل برنامج الجودة الشاملة، وإدارة المعرفة، وإعادة هندسة الأعمال...إلخ.

مدخل علم الاقتصاد (أو المدخل الاقتصادي): ويهتم فيه الدارسون بتحليل قيمة وتكلفة نظم المعلومات وكلفة المعلومات الناقصة ودراسات الجدوى لمشروعات نظم المعلومات، وتحليل التكلفة والمنافع للنظام المستخدم وكل ما يقع في حقل اقتصاديات تكنولوجيا المعلومات، كما ظهر حقل جديد له علاقة وثيقة بهذا الحقل وهو حقل اقتصاد المعرفة، وخاصة اقتصاديات إنتاج المعرفة، وإعادة إنتاج المعرفة، ونقل وتوزيع المعرفة.

مدخل علم النفس وعلم الاجتماع (أو المدخل السلوكي الاجتماعي): وتكمن أهمية هذا المدخل في دراسة نظم المعلومات الإدارية في تجاوز النظرة التقليدية التي تتصور نظم المعلومات الإدارية وكأنها مجموعة من التكنولوجيا الصماء التي يبعد تأثيرها حدود الحيز المادي الذي تشغله، وبدلاً من ذلك يحاول هذا المدخل دراسة القضايا السلوكية المرتبطة بتكنولوجيا المعلومات وتأثيرها على الأنماط السلوكية الفردية والجماعية في المنظمة وتأثير هذه الأنماط السلوكية والثقافات التنظيمية على مستوى أداء نظم المعلومات الإدارية في المنظمة.

كما يهتم بالأبعاد الاجتماعية لنظم المعلومات الإدارية وخاصة أنماط الجماعات وتأثير القيم الاجتماعية و التحولات المجتمعية المترافقة مع استخدام تكنولوجيا المعلومات وعلاقتها بمسائل الصراع التنظيمي، ومقاومة التغيير، وإعادة إنتاج قيم اجتماعية جديدة.

ومن هذا المنظور المتمثل في جملة من المداخل المتنوعة يمكن تحليل مفهوم نظم المعلومات الإدارية بأنه بنية تنظيمية، تقنية، إدارية متكاملة لعناصر وبرامج وشبكات الحاسوب وقواعد بياناته تعمل مع الموارد الإنسانية أو البشرية من عمال المعرفة ضمن سياق منظم لدعم عمليات وأنشطة الإدارة وبصورة خاصة دعم عمليات اتخاذ القرارات الإدارية. فهي إذن تقدم تشكيلة متكاملة من المساندة المباشرة وغير المباشرة للعملية الإدارية بعناصرها الجوهرية من تخطيط و تنظيم وتوجيه وتنسيق ورقابة واتخاذ قرارات فضلاً عن ذلك تتكامل نظم المعلومات الإدارية مع نظم أدوات تكنولوجيا المعلومات الأخرى المستخدمة في المنظمة لتكوين ما يمكن أن نسميه نظم دعم الإدارة.

وما زاد نظم المعلومات الإدارية انتشارا وفعالية هو استخدامها وتعاضدها مع تكنولوجيا الاتصالات متمثلة في تكنولوجيا الانترنت وشبكات الاتصال الداخلية Intranet وشبكات الاتصال الخارجية Extranet. وكلما استطاعت نظم المعلومات الإدارية أن تحقق مستوى عال من التعاضد بين حزم نظم مكونات وبرامج تكنولوجيا المعلومات الحديثة كلما استطاعت هذه النظم تحقيق معدلات متطورة من الفعالية التنظيمية والتشغيلية للمنظمة. وكلما استطاعت تحقيق الميزة التنافسية المؤكدة التي لا يمكن تحقيقها إلا من خلال اكتساب وإنتاج معلومات ذات قيمة مضافة إلى القيمة الإجمالية لمخرجات نظام الأعمال في المنظمة من منتجات، خدمات، ومعلومات.

وهكذا يكون نظام المعلومات الإدارية نظاما إداريا متكاملا متنوع الأبعاد، ومتعدد التطبيقات ولكنه يتكون من نظم معلومات فرعية مثل نظام المعلومات الفرعي للمالية، ونظام المعلومات الفرعي للتسويق، ونظام المعلومات الفرعي للموارد البشرية... إلخ.

1) مفهوم نظام معلومات الموارد البشرية:

يمكن تعريف نظام معلومات الموارد البشرية على أنه: "الإجراءات المنظمة الخاصة بجمع وحفظ واسترجاع البيانات الصحيحة والمفصلة عن الموارد البشرية وأنشطة الأفراد وخصائصهم الصحية والفعالة في أي منظمة بما يدعم كفاءة وفاعلية إدارة الموارد البشرية في اتخاذ القرارات الخاصة بالعنصر البشري"⁷.

كما يرى Gara: "بأن الهدف الأساسي لنظم معلومات الموارد البشرية هو الاحتفاظ بقاعدة بيانات دقيقة وكاملة ومتجددة يمكن استخدامها عند الحاجة للتقارير والسجلات وآلية المهام والإجراءات مثل تتبع طلب توظيف"⁸.

ويعرفه Cascio: "بأنه قاعدة بيانات متكاملة متعلقة بالموظفين ووظائفهم لمساعدة المدراء في تقييم الوضع الحالي للموارد البشرية في المنظمة ووضع الأهداف للأنشطة الملائمة للموارد البشرية وتقييم نجاح تلك الأنشطة في المستقبل"⁹.

ويعرفها Walker بأنها: "إجراء منظم لجمع وتخزين وصيانة واستخراج البيانات عن الموارد البشرية في المنظمة وشؤون الأفراد وسمات الوحدات التنظيمية التي تتعامل معها"¹⁰.

ويعرفه Laudon: "أنه ذلك النظام الذي يحتفظ بسجل الموظف (تتبع مهارات الموظف، وأداء العمل والتدريب) ويدعم التخطيطات لتعويضات الموظف والتطور الوظيفي"¹¹. وعليه ومن خلال كل هذه التعاريف يمكن استخلاص ما يلي:

- أن نظام معلومات الموارد البشرية هو نظام معلومات فرعي من النظام الكلي أو العام للمعلومات في المنظمة.

- أن نظام معلومات الموارد البشرية وكأي نظام معلومات فرعي يجب أن يتوفر على العناصر أو المكونات الأساسية التالية:

المكون البشري: وهو مجموعة الأفراد العاملين بمختلف أقسام النظام والذين يعتبرون أساس النظام فبقدر كفاءة هؤلاء العاملين يكون نجاح هذا النظام، وهما صنفان الأخصائيون والمستخدمون النهائيون.

أ- الأخصائيون: وهم الأفراد الذين يحللون ويصممون ويشغلون نظام المعلومات، فالحللون يقومون بتصميم النظام بالاستناد إلى احتياجات المعلوماتية للمستفيدين النهائيين، ويقوم المبرمجون بإعداد البرامج بناء على المواصفات التي يقدمها محلل النظم، ويقوم مشغلو الحاسوب بتشغيل الحواسيب الكبيرة والصغيرة معا.

ب- المستخدمون النهائيون: وهم الأفراد الذين يستخدمون نظام المعلومات مثل المحاسبين، والإداريين، ورؤساء المصالح والمدراء...إلخ.

المكون المادي: ويقصد به جميع الآلات والأجهزة المكونة للنظام والمتمثلة في الحواسيب ولواحقه المختلفة، والتي تستخدم في معالجة البيانات، كما تشمل محطات العمل، الشبكات المعلوماتية ومختلف التجهيزات ووسائل الاتصال (هواتف، فاكسات، شبكات

الانترنت بالإضافة إلى التجهيزات غير المعلوماتية من مكاتب، وأماكن عمل، وتجهيزات الحفظ والتخزين...إلخ.

المكون المجرد: ويتمثل في مختلف البرامج والأنظمة والتعليمات والإجراءات التي يستخدمها العنصر البشري لتسيير وإدارة هذا النظام.

هذا عن الأجزاء المادية والفنية المكونة للنظام، أما عن عناصر النظام الوظيفية أو العملية فهي كأي نسق تتمثل في المدخلات وعمليات التشغيل ومعالجة البيانات والمعلومات والمخرجات ثم التغذية العكسية أو التغذية الراجعة مع تأثيرات البيئة الداخلية والخارجية.

خصائص نظام معلومات الموارد البشرية:

1. يعتمد على إجراءات محددة ومنظمة ومنطقية.
2. يهتم بجمع وتخزين وحفظ واسترجاع البيانات بصفة دقيقة وموضوعية.
3. يهتم بجميع أنشطة العنصر البشري من اختيار وتعيين وترقية وتكوين وتحويل وأجور وحوافز وتخطيط للقوى العاملة.
4. يساهم في ترشيد وتفعيل عملية صنع واتخاذ القرارات .

أهمية ودور نظام معلومات الموارد البشرية.

- يكتسي نظام معلومات الموارد البشرية أهمية بالغة بالنسبة للمنظمة نظرا لما يوفره من تسهيلات في إعداد الخطط التنبؤية بالاعتماد على الحاسوب والبرامج التي يحتويها خاصة الإحصائية مثل برنامج SPSS.

- يساهم كثيرا في تحسين وتطوير عملية اختيار وانتقاء وتوظيف الأفراد فنظم المعلومات المحوسبة سمحت بمعالجة طلبات التوظيف الهائلة بشكل منتظم وباحترام معايير التوظيف الموضوعية، فهناك الآن تطبيقات كثيرة وعديدة في مجال اختيار الأفراد وانتقاء أحسن الكفاءات المتقدمة لطلب منصب معين، كما ساهم نظام المعلومات هذا في القضاء

على الطرق الذاتية في التوظيف مثل المحابة والتميز العنصري بين المترشحين مما يعطي لعملية التوظيف كثير من الموضوعية والمصداقية.

- يساهم نظام معلومات الموارد البشرية في تطوير الكفاءات داخل المنظمات وذلك من خلال توفير خدمات التكوين والتدريب وخاصة في ظل التطورات الحاصلة في مجال المعلوماتية، فهناك الكثير من التطبيقات والبرامج المتوفرة اليوم والتي تفيد كثيرا في تنمية وتطوير قدرات ومعارف العاملين مثل برامج القيادة، والاتصال وتحديد الأهداف وإدارة الوقت ومختلف برامج الموارد البشرية وفي جميع الميادين.

- كما ساهمت شبكات الاتصال المعلوماتية في تلقي برامج تكوينية وبرامج تحسين المستوى، والاستفادة من تجارب وخبرات الآخرين وذلك عن بعد عن طريق ما أصبح يطلق عليه التعليم عن بعد والتكوين عن بعد متخطيا عقبات المكان والزمان.

- سمحت نظم معلومات الموارد البشرية بمتابعة المسارات المهنية للأفراد العاملين بطريقة سهلة وأكيدة وشفافة وبدون تكاليف عن طريق الولوج الإلكتروني وانطلاقا من الحاسوب إلى قاعدة البيانات المتاحة عن الأفراد العاملين معرفة مؤهلات وكفاءات أي عامل ما يسمح ويساعد الأفراد على تحسين وتطوير أدائهم. فهناك على سبيل المثال لا الحصر برامج وأنظمة Miram الخبيرة في مجال تدقيق الموارد البشرية. ونظام Adequat لتسيير تحركات وتنقلات العمال خلال مسارهم المهني¹².

- ساهمت نظم معلومات الموارد البشرية كثيرا في إعداد أنظمة أجور ومكافآت وتقييم أداء العمال وحسابها بسرعة فائقة، وخاصة بالنسبة للمنظمات الكبرى.

لقد ساعدت تكنولوجيا المعلومات في سرعة اتصال وتفاعل الأفراد فيما بينهم داخل التنظيمات وخارجها دون الحاجة إلى التنقل حتى مكان عمل الشخص الآخر، ومعرفة أي شيء والحصول على أي معلومة من مكان العمل أو مكان التواجد، فمدير التسويق أو المدير التجاري مثلا يمكنه الحصول على أي معلومة عن المخزون أو الإنتاج من حاسوبه الشخصي

عن طريق التراسل الإلكتروني من خلال خدمات الشبكات وبالأخص الانترنت. كما أمكن العمال التحاور مع رؤسائهم أو مرؤوسيههم وعقد اجتماعات كل في مكانه وفي الوقت المناسب، كما عززت العلاقات العمالية من خلال العمل الجماعي بالاتصال في أي لحظة، بالإضافة إلى هذا عززت هذه الأنظمة التنظيمات غير الرسمية وديناميكية الجماعات.

الآثار المترتبة عن استخدام تكنولوجيا المعلومات و الاتصال:

أ- الآثار الاقتصادية:

مما لا شك فيه هو أن تعميم استخدام تكنولوجيا المعلومات في المنظمات يعود عليها بالفوائد والعوائد الاقتصادية الكثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تخفيض عدد أعضاء القيادة الإدارية من مديرين وعمال حيث أخذت تكنولوجيا المعلومات تلعب أدوارهم وتعوض وجودهم المادي والإجرائي.¹³

كما ساهمت تكنولوجيا المعلومات في تقليص تكاليف المعاملات (الصفقات)، وذلك من خلال كونها كما سبق الذكر حلت محل بعض الأفراد بالإضافة إلى هذا قلصت من مراحل العمليات والخطوات التي كانت تتطلب وقتا وجهدا وتكاليفا، كما ساهم استخدام تكنولوجيا المعلومات وخاصة بعد الاستعانة بشبكات الحاسوب المتطورة في تقليص تكلفة المنتجات وبالتالي خفض السعر، وغيرها من المزايا التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

تقليص الآجال والوقت.

التحكم في التكاليف.

جودة القرارات.

العمل الجماعي.

تثمين رأس المال البشري.

تدفق العمل.

الآثار التنظيمية والسلوكية: استطاعت المنظمات الكبيرة التي كانت تعاني من ضخامة حجمها وتعدد مستوياتها الإدارية وبعد إدخال الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات أن تطور من عملياتها وتقلص من مستوياتها الإدارية وإلغاء بعض الوظائف وتسريح بعض العمال وإعادة النظر في تنظيمها وهيكلها التنظيمي تسطحت مستوياته بما يتيح لها تحقيق كفاءة في العمل ومرونة في أدائها بشكل متجانس مع رشاقة عملها في السوق وخوضها غمار المنافسة الشرسة.

وقد ظهرت آثار تكنولوجيا المعلومات واضحة في السلوك التنظيمي للأفراد العاملين وذلك من خلال ضمان تدفق ما يحتاجونه من البيانات والمعلومات، كما انعكس هذه الآثار بشكل واضح على نطاق الإشراف حيث سمحت للرئيس من الإداري بالإشراف على أكبر عدد من العاملين بعد أن تم تحويل بعضهم الصلاحيات اللازمة لحسم المواقف التي تواجههم دون الرجوع إلى الرئيس الأعلى، حيث أخذ استخدام تكنولوجيا المعلومات يدفع بمواقع اتخاذ القرار إلى الأدنى في المنظمة الواحدة كون موظفي المستويات الدنيا أصبحوا يحصلون على المعلومات التي يحتاجونها لاتخاذ القرارات دون الرجوع إلى المسئول الأول كما مكنت هذا الأخير من استلام المعلومات الكافية والدقيقة في الوقت نفسه لسير الأعمال في المستويات الإدارية الأخرى.¹⁴

غير أنه ورغم كل تلك المزايا والآثار الإيجابية إلا أنها باتت تشكل تهديدا حقيقيا للأمن النفسي والوظيفي للأفراد في العمل، وخاصة مع ما أصبحت تتداوله التقارير و التقديرات العلمية والصحفية مؤخرا عن هيئات علمية دولية، أن عشرات الآلاف من المناصب والوظائف التقليدية، ستزول في غضون عشرون أو ثلاثون سنة قادمة، وفي المقابل ستظهر وظائف أخرى جديدة تماشيا مع الواقع الجديد، هذا الجدل واللغط الكبير هو ما يزيد من خوف الكثير من الموظفين والعاملين في مختلف المنظمات، وبالتالي تأثيره على أمنهم الوظيفي خاصة إذا علمنا أن الأمن الوظيفي للعاملين هو من أهم الحاجات القاعدية للدافعية

للعمل، والذي يؤثر بطريقة مباشرة على المستويات العليا من حاجات العليا للأفراد من رضا وظيفي وولاء وغيرها والتي تؤثر بدورها مجتمعة على أداء الأفراد والمنظمات.

تعريف الأمن الوظيفي:

لقد تعددت مفاهيم الأمن الوظيفي في ضوء تباين اتجاهات تفسيره وحسب تدرج الأولويات والحاجات بالنسبة للعاملين، فالعاملين الذين يريدون من الوظيفة أن تشبع احتياجاتهم المادية يعبرون عن الأمن الوظيفي من منظور اقتصادي بحت، أما العاملون الذين يهتمهم في المقام الأول أن تمنحهم الوظيفة المكانة اللائقة بغض النظر عن عوامل الربح والخسارة يعبرون عن الأمن الوظيفي من منظور اجتماعي¹⁵.

الأمن الوظيفي هو الذي يشعر الموظف بالاطمئنان على مستقبله الوظيفي ويوفر له التربة الخصبة التي ينمو فيها ويطور نفسه ويحسن من أدائه وإن من أكثر ما يخشاه العامل هو فصله من الخدمة، إذ هي مصدر رزقه الذي يعيش عليه، وإن كثيرا من المؤسسات تحرص كل الحرص على توفير الشعور بالاستقرار للعامل، كما تحرص وبشدة على أن يكون مؤديا لعمله، وقائما بواجبه، لذا يجعلون أدائه الجيد مقابل إشعاره بهذا الاستقرار.¹⁶

واعتبر الخرب عام 2006 أن الأمن الوظيفي يتحدد بناء على الدخل والاستقرار، فعرّفه بأنه: إحساس الموظف بالطمأنينة على مصدر دخله، وعلى استقراره في العمل، وعدم تعرضه للصراعات التنظيمية والشخصية وضغوط العمل¹⁷.

واعتبر Satcher & McGhee عام 1995 الأمن الوظيفي ثلاث درجات أو مستويات سمى الأول بالعاطفي Affective والثاني بالمعياري Normative والثالث بالمستمر Continuance، وقصد بالأول الأمن الحافز، الذي يعتبر حافز للموظف إذ

يكون الموظف في هذه المرحلة محتاجاً للأمن الوظيفي، لذا فإن إيجاده يكون حافزاً للموظف، أما الثاني فهو الأمن الطبيعي وهو أمن الانتماء الذي يشعر معه الموظف بالانتماء للمنظمة، أما الثالث فهو الأمن المستمر الذي يشعر الموظف معه أن خروجه من المنظمة يكلف المنظمة الكثير، هذه المستويات الثلاث من الأمن الوظيفي تشير إلى أن الأمن الوظيفي يمكن أن يكون إيجابياً ويمكن أن يكون سلبياً، ويمكن أن يكون غير مؤثر على الإطلاق¹⁸.

أهمية الأمن الوظيفي:

يوفر الأمن الوظيفي البيئة المناسبة للإبداع والابتكار، ويزيد من قدرة العاملين على اكتشاف حلول جديدة للمشكلات التي تواجههم في العمل بطريقة مبتكرة توفر الوقت والجهد والتكلفة.¹⁹

بالإضافة إلى أن الثقة والهدوء والدافعية التي يجلبها الأمن الوظيفي تساعد العاملين على القيام بأعباء العمل ومواجهة مشكلاته بفاعلية²⁰.

من ضمن احتياجات الموظف أن تشبع رغبته في تقدير الذات وشعوره بالإحساس بأنه شخص مستقر ومنتج. وأنه من خلال مواهبه يساهم فعلاً مساهمة إيجابية في تحقيق أهداف المنظمة. ومن المسلم به أن كل موظف يأمل في الحصول على ظروف عمل مريحة وجذابة وهذه الرغبة نابعة أصلاً من عدة احتياجات أهمها الاحتياج الخاص بانتظام العمل وضمان استمراره، وكذلك الاحتياج الخاص بشعور الفرد بأهميته وتقدير الآخرين له. يأتي بعد ذلك تحسين أداء الفرد وشعوره بالمسؤولية عن طريق تحسين الاهتمام الإداري به والإجراءات الحكومية للاستفادة على نحو أفضل من طاقات القوى البشرية²¹.

فالعامل الذي لا يشعر بالاستقرار نتيجة افتقاد الأمن الوظيفي أو انخفاض مستواه، يكون أقل قدرة على الأداء الجيد أو مواجهة المشكلات المعاصرة التي تحتاج إلى أساليب وحلول مبتكرة²²

أهداف الأمن الوظيفي:

المنظمات التي توفر الأمن الوظيفي للعاملين بها تخلق بيئة صحية صالحة للتغير والنمو مثل ذلك النظام الياباني الذي يوفر التوظيف طوال الحياة، ولذلك فإن مقاومة التغير تعتبر منعدمة، و التقدير والثناء الذي يحتاجه الموظف على إنجازاته في العمل من قبل رئيسه وزملائه وهي رغبة نابعة أصلاً من احتياج الإنسان لتقدير الآخرين له والاعتداد بذاته، فضمان البقاء في الوظيفة أو انتظام الدخل هو من الأمور الهامة التي يحرص عليها الموظف وخاصة في المجتمعات التي تتميز بالتقدم التكنولوجي السريع وخطر إحلال الآلة محل الإنسان، وهو موضوع يشكل أهم بنود عقد العمل والمفاوضات بين الإدارة والمؤسسات العمالية في المجتمعات المتقدمة بالذات²³.

إيجابيات الأمن الوظيفي:

يحقق الأمن الوظيفي للموظف والجهاز الذي يعمل فيه العديد من المزايا والإيجابيات لذا فإن قوانين وأنظمة الخدمة المدنية أصبحت تتضمن نصوصاً تؤكد على ذلك، بهدف طمأنه الموظفين على وظائفهم وأعمالهم في الحاضر والمستقبل، ولتحفيزهم ودفعهم إلى العمل وزيادة الإنتاجية ولتقوية الشعور بالولاء والانتماء لأجهزتهم وأهم مزايا الأمن والاستقرار الوظيفي تتمثل في الآتي:

الشعور بالأمان: شعور الموظف بالأمان والاستقرار في عمله، وأنه غير مهدد بفقدان وظيفته ومصدر رزقه في الوقت الحاضر بواسطة راتبه، وفي المستقبل بواسطة معاشه التقاعدي، ويحقق ذلك إشباعاً لحاجات الموظف المادية والأمنية نتيجة حصوله على راتب مناسب، ومزايا مادية ومعنوية أخرى، وظروف العمل المناسبة الآمنة.

الرضا الوظيفي: يساهم الأمن الوظيفي في تحقيق الرضا الوظيفي للموظف، وينعكس ذلك على حبه لوظيفة ولزملائه في العمل، وإخلاصه في عمله وزيادة إنتاجية وارتفاع روحه المعنوية.

تركيز الجهد في أداء العمل: يكرس الموظف المستقر والأمن في عمله وقته وجهده في أداء عمله، وإنجاز المهام الموكلة إليه، مما يزيد من إنتاجيه ولا يضيع من وقته في البحث عن عمل جديد. وتحقيق أكبر قدر ممكن من المهارات والإمكانات المتوفرة لديه، وإدخال التحسينات بشكل مستمر على أنظمة وأجهزة ونماذج القيام بعمل، مما يؤدي إلى تطوير العمل وتجديده وتطويره والابتكار والإبداع فيه²⁴.

سلبات الأمن الوظيفي:

قد تتحول الإيجابيات والمزايا التي يحققها العامل من خلال شعوره بالأمن إلى سلبات بسبب سوء الفهم لها وحصول التجاوزات عليها عند التطبيق العملي، والابتعاد عن الهدف، وغيرها و تلخص اهم سلبات الأمن في الآتي:

التسبب الوظيفي: إن شعور الموظف بأنه آمن في وظيفة، وأن رئيسه لا يستطيع إنهاء خدماته بسهولة وذلك بسبب القيود والشروط التي تفرضها الأنظمة واللوائح، يؤدي إلى التسبب الوظيفي عند بعض الموظفين، ويخشى ذلك في عدم التقيد بمواعيد الدوام الرسمي في

الحضور والانصراف، وفي ترك العمل أثناء الدوام الرسمي في الحضور، وغيرها من مظاهر التسبب.

انخفاض الإنتاجية: قد يؤدي الأمن والاستقرار الوظيفي إلى تفشي اللامبالاة، وإلى ضعف أو انعدام المنافسة بين الموظفين، وإلى تمسك بعض الموظفين بالقيام بالحد الأدنى من الأعمال، وذلك للمحافظة على وظائفهم مما يؤدي إلى انخفاض الإنتاجية بشكل عام في جهة العمل.

الانشغال بالأعمال الخاصة: بعد أن يضمن بعض الموظفين حصولهم على الوظائف الحكومية ورواتبها المادية، فإنهم يأخذون في التفكير والبحث عن أعمال أخرى تجلب لهم دخلاً إضافياً، بالرغم من وجود الأنظمة واللوائح التي تخطر على المنظمة ممارسة أعمال أخرى إلى جانب عمله الأساسي.

التخلف الإداري: يتمثل ذلك في عدم رغبة بعض الموظفين في التدريب، وعدم بذل الجهود لتطوير أنفسهم ومهاراتهم، وفي مقاومة إدخال الآلات والأجهزة الحديثة إلى أعمالهم، فهم يشعرون بأنه لا توجد حاجة لتطوير والتغيير وبذل للجهود في التدريب طالما أن الوظائف مضمونة لهم²⁵.

الفرق بين الأمن الوظيفي و الرضا الوظيفي.

الأمن كما عرفه كثيرون بأنه عدم وجود خوف أو رهبة لدى الموظف من المنظمة التي يعمل فيها، وعرفها في موضع آخر أنه شعور الأفراد أنهم يتعرضون لمعاملة عادلة من قبل المنظمة التي يعملون فيه. أما الرضا فهو تحقيق العامل الشيء الذي يريده من العمل وكلما زاد ما حققه كلما زاد رضاه الوظيفي، وكلما قل ما حققه قل رضاه الوظيفي.

أما العوامل التي يعتمد عليها الرضا الوظيفي فهي عوامل الأمن، وفرص الترقى، إدارة الشركة، والأجور، محتويات الوظيفة، والإشراف، والجوانب الاجتماعية للوظيفة، والاتصال، وأحوال العمل، والمغائم، وهذا الترتيب هو ترتيب هيرزبيرج الذي حصل عليه من خلال 16 دراسة أجريت لمعرفة العوامل التي تؤدي إلى رضا العاملين، وأضاف مجموع (الإجازات والتأمين الصحي، وعدالة الإشراف)، ويظهر من هذا الترتيب الذي ذكره زيدان أن الأمن يؤدي إلى الرضا، بل هو من أهم عوامل تحقيقه، وهذا يدل على أن الأمن درجة أدنى من درجة الرضا؛ لأن الأمن وسيلة لتحقيق الرضا لدى العاملين، ولاشك أن الوسيلة أدنى مما يتوسل إليه بها²⁶.

كما يظهر كذلك أن الشخص الراضي عن وظيفته هو أرقى من جنسين من الموظفين: الجنس الأول هو الجنس الكاره لوظيفته المتضايق منها، والثاني هو الشخص المحايد الذي لم تستغرق الوظيفة كل شعوره، والشخص الذي يتمتع بالأمن الوظيفي قد يكون واحدا من هؤلاء الثلاثة؛ أما الذي يتمتع بالرضا الوظيفي فهو أعلى الجميع.

وعند النظر للأمن الوظيفي من خلال نظرية العاملين لهيرزبيرج يمكن القول إن الحاجات قسمان حاجات وقائية، وحاجات دافعة، ويصنف الأمن الوظيفي كحاجة وقائية، والرضا الوظيفي كحاجة دافعة، والحاجة الدافعة أرقى من الحاجة الوقائية، وقد قرر الفقهاء أن درء المفساد مقدم على جلب المصالح، لذا فإن الموظف يحرص أولا على العوامل الوقائية، فإذا تحققت له هذه الحاجات الوقائية، تطلعت نفسه إلى الحاجات الأعلى.

وعند النظر إلى الرضا الوظيفي والأمن الوظيفي من منظور هرم (ماسلو) للحاجات يكون الأمن الوظيفي في الدرجة الثانية من سلم الحاجات بينما يكون الرضا الوظيفي في قمة الهرم.

خاتمة:

مما لا شك فيه هو أن تكنولوجيا المعلومات والاتصال قد أصبحت حتمية لا مفر منها فإما التحكم فيها وتعميم استخدامها، وإما البقاء خلف الركب وزيادة التأخر تأخرا أكبر، فلم يعد اليوم الاستغناء عن هذه الوسائل والتكنولوجيا بالأمر الممكن فلا المحيط الدولي

العالمي ولا المحيط المحلي ولا حتى أفراد المجتمع يسمحون بتجاهل استعمالها ولا التفاوض عنها، فالمواطن البسيط محدود المستوى التعليمي والمستوى المعيشي أصبح يستعملها في معظم تعاملاته اليومية -على بساطتها- ويسعى ويتطلع إلى الأفضل والأحسن لما توفره له من مزايا وفوائد شتى لا من حيث الوقت وسرعة خدماتها و نوعية عملياتها، ولا من حيث ما تترجمه من مصاريف وتكاليف، ولا سيما إدارة الموارد البشرية التي أضحت مهددة أكثر من أي وقت مضى بهذه الثورة، لكون معظم وظائفها ومهامها أصبحت إلكترونية فالتوظيف الإلكتروني التعليم والتكوين الإلكتروني وحتى تسيير وتطوير المسارات المهنية أصبح إلكترونيا وغيرها من الأنشطة التي لم يعد في المقدور إبقائها على شكلها التقليدي، وعلى هذا الأساس كان لزاما على إدارة الموارد البشرية في أي مؤسسة التكيف مع هذا التغير والتحول التنظيمي ومسايرته أحسن مسايرة عن طريق امتلاك دور محوري ورئيسي في إعادة توزيع أدوار ومهام جديدة للموارد البشرية وتكوينها أحسن تكوين، حتى تحقق أمنهم الوظيفي، الذي بدوره يساعد على تحقيق رضاهم الوظيفي حتى تضمن تحولا سلسا ومرنا وامتلاك ثقافة تنظيمية جديدة كفيلة بتخفيف حدة المقاومة، وتضمن توافقا في عملياتها الجديدة.

الهوامش:

1. احمد بري -. تطبيقات الادارة الالكترونية في العمليات المنظومة -. دار المعارف :الاسكندرية ،2005 ص33
2. سعد غالب ياسين: أساسيات نظم المعلومات الإدارية وتكنولوجيا المعلومات، دار المناهج، للنشر والتوزيع، عمان الأردن 2008، ص18.
3. سعد غالب ياسين: المرجع السابق ص 18.
4. سعد غالب ياسين: نفس المرجع ص 19.
5. محسن علي الكبسي: نظم المعلومات الإدارية، بدون ناشر، بدون سنة، ص151.
6. بدر سالم جابر وكمال المفتي: استخدام نظم المعلومات وأثرها على فاعلية إدارة الأفراد بالملكة، معهد الإدارة العامة، الرياض 1997 ص36.
7. Pertti.J .M .(2001), « E-RH et renouvellement des pratiques managériales » humaines et management ,n°2 p16 .
8. Stéphane BARTHE, (2001) l'impact des technologies du web sur la gestion des ressources humaines : Emergence de l'e-RH France ,p16

9. محمد الصيرفي، الإدارة الإلكترونية للموارد البشرية، مؤسسة حورس للنشر والتوزيع الإسكندرية، مصر 2008 ص70.
10. حسن عماد مكاوي، تكنولوجيا الاتصال الحديثة في عصر المعلومات، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة مصر 2009 ص55.
11. عبد الحميد المغربي، المنصورة، مصر، المكتبة العصرية، 2002 ص 35 .
12. النجار فايز جمعة، نظم المعلومات الإدارية MIS ،دار الراجية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الثانية ،2007، ص 47.
13. مزهر شعبان العاني وشوقي ناجي جواد: العملية الإدارية وتكنولوجيا المعلومات، إثراء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2008، ص .
14. مرال توتليان: الموارد البشرية وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة، تطور أم ثورة، المعهد العربي للتدريب والبحوث الإحصائية، 2006، ص52 .
15. طارق فرج عبد الله عركوك :الأمن الوظيفي وأداء المعلمين من وجهة نظر المديرين ومعلمي التعليم العام بتعليم العاصمة المقدسة، جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، 2006 ص33
16. الجلال، عبد العزيز عبد الله، تربية اليسر و ةتخلف التنمية ، مدخل إلى دراسة النظام التربوي في أقطار الجزيرة العربيةالنتجة للنقط، عالم المعرفة ، الكويت 2011: 46- 47).
17. طارق، فرج عبد الله عركوك، المرجع السابق ص ص 45 41).
18. حبتور ، عبد العزيز صالح، أصول و مبادئ الإدارة العامة، الدار العلمية الدولية للنشر و التوزيع و دار الثقافة للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن 2000م ص32
19. حبتور المرجع السابق ص41
20. أشتون،كريس، تقييم الأداء الاستراتيجي، أداء العاملين وإرضاء العميل،ترجمة علاءمحمد صلاح،مركز الخبرات المهنية ،القاهرة. 2001 ص32
21. النجار فايز جمعة، مرجع سابق ص54
22. جمجوم ، محمد نور هشام ،سيكولوجية الإدارة،دار الشروق،جدة ، المملكة العربية السعودية 1990 ص52
23. حسن عماد مكاوي، مرجع سابق ص123.
24. 25. 26. طارق، فرج عبد الله عركوك، مرجع سابق ص 56).